اهداءات ٢٠٠٠

مكـــتبـــــة

أ.د. محمد حسين هيكـــل

رئيس مجلس الشيوخ السابق



المـــؤلف

الدكتور أَلْفـــرِد . ج . بَتْـــلَر

لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤م

فتح العرب لمصر

تأليف

الدكتور ألفرد . ج . بتلر

عرّبه

محمد فريد أبو حديد
وكيل مدرسة طنطا الثانوية

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٥١ هـ - ١٩٣٣ م

فهرس الكتاب

* هذه النمر فى ذيل الصحف .

صفحة

صفحة

صفحة

مقـــدّمة المعـــرّب

ألف الدكتور "الفرد . ج . بتلر" هذا الكتاب منذ ثلاثين عاما، وعرفته منذ عشرين، فكان من الكتب التي خلفت في نفسي أثرا كبيرا، يمتزج فيـه الإعجاب والتقدير بالرغبة في أن تمتلك اللغة العربية بحثا قيما مثله، والأسف على أن يخلو تراثنا الأدبي من كتاب نظيره . وأي شيء أعجب من أن تكون لغتنا العربية، وأن يكون الفتح العـربي حدا فاصلا في تاريخنا يفتح صفحة جديدة في حياتنا، ثم مع هـذا لا نجد وصفا عربيا لذلك الفتح يمكن أن يعتمد على دقته، ويوثق بتحريه، فكانت النفس تتطلع الى ضم كتاب الدكتور بتلر الى ثروتنا الأدبيـة، غير أنه كان يقعدها التفكير في مشقة ذلك العمل، ومظنة العجز عن انجازه، وقلة الثقة بالقدرة على نشره. ثم أتيح لي أن أحقق ذلك الحلم بأن ناطت بي "لجنة التأليف والترجمة والنشر" ترجمة ذلك الكتاب إذ اختارته من بين الكتب القيمة التي تسعى أبدا في أظهارها ونشرها، فوجدت في تكليفها سرور الساعي الى تحقيق أمنيـة طالما تاقت نفسي اليها . وأرى أن هذا مكان لائق لكلمة أقولها عن تلك اللجنة المباركة التي ما سعت الى أن يعـرف أحد عملها وهي دائبة لا تفتر عن العمل في خدمة العـلم والأدب، وما قصـدت قط أن تظهر للملأ فضلها ، وهي ماضية قدما في جهادها في ميـدان التثقيف والتنوير، لم تقف خدماتها عنـد حد سياسي ولا عند وطن ، بل كانت خدمتها للناطقين بالعربية أجمعيـن ، بادئة بالكنانة المحروسة، مصرنا المحبوبة . ولو كنت من غير أعضاء لجنـة التأليف لوجدت مجال القول بعـد فسيحا ، ولكن حسبي ذلك من القول .

وبعد ، فقـد كان من حق هذا الكتاب أن ينقل الى العربية منذ ظهر فانه يسد ثلمة في تاريخ العرب ما كان ينبغي لها أن توجد، وما كان أجدر بأن ينقله الى العربية مصري إذ أن الكتاب يتعلق بتاريخ مصر .

غير أن الذى عاقنى عن ترجمته قد عاق أمثالى عنها، ولم يكن أحد ليستطيع مثل ذلك العمل الكبير فى مصر إلا اذا شدت ازره هيئة علمية قوية . ولكن الخير اذا جاء متأخرا فليس ذلك بناقص من قدره، ولعل تأخر ظهوره فى العربية الى يومنا هذا كان عن قدر وحكمة، فان للكتاب معنى كان لا يظهر فى الماضى ظهوره اليوم، فهو اليوم فى إبانه وأوانه، والأحوال ملائمة له، ومجرى الأهواء مستعد لقبوله وتلقيه . ذلك أن مؤلف الكتاب رجل باحث لم يقصد من تأليف كتابه إلا بيان الحقيقة ناصعة، فلم يكن ممن يذهبون فى التأليف الى غرض من دعاية دينية أو سياسية، ولا ممن يتسترون بالعلم من أجل غرض يخفيه، أو شهوة يسترها، بل كان نزيها فى بحثه، قاصدا فى قوله الى اللباب . ومثل هذا الباحث لا يدركه القراء حق ادراكه، ولا يقدره الناس حق قدره، إلا اذا كان الجو المحيط بهم جو بحث وراء الحق، ودرس لأجلائه، والأبانة عنه، ولحمد الله إذ قد بدت فى مصر هذه الأيام حركة جدية نحو البحث والدرس، ولسنا نشك فى أن ذلك الكتاب ممتزج بها، سائر فى مسيرها، جار مجراها .

غير أن الأمر غير قاصر على ذلك، فان الوقت الحالى أسعد الأوقات لظهور هذا الكتاب من ناحية أخرى ولعلها أجل شأنا وأبلغ خطرا :

ذلك أن العرب لما دخلوا مصر كانوا فئة قليلة، وجعلوا يتخذون لهم فى مصر نظاما ينتزعونه مما سبق من نظم الحكم فى البلاد، وجعل عددهم يتزايد ممن دخل فى الاسلام من أهل البلاد طوعا أو كرها، فإذا مصر بعد قرن فيها عدد كبير من المسلمين، و بعد أن كانوا فئة قليلة حاكمة أصبحوا فئة كبيرة تشترك وأهل البلاد فى أعمال الحياة، ونشأ ماينشأ بين الجيران المختلفى المشارب من المنافسات والمنازعات، وزادت تلك المنافسات على مر الزمن حتى كانت أحيانا تتخذ شكل ثورة من أهل البلاد المسيحيين، وكان ردّ ذلك قاسيا من جانب الحكومة القائمة التى ما كانت لتدع الثورة يندلع لهيبها من غير أن تقضى عليها . ثم مضى الوقت وكان عدد المسلمين

يتزايد وعدد المسيحيين يتضاءل ، وتغيرت الدول وتبدّلت نظرتها الى واجبها فى الحكم وداخل المسيحيين ما يداخل الأقلية عادة .

إذن كانت مصر قبل الاسلام أمة واحدة يحكمها الروم فاحتفظت بقوميتها وحاطتها بمذهب دينى مستقل حافظت عليه أشدّ المحافظة ، وما كانت محافظتها على مذهبها الدينى إلا صورة من صور الحرص على بقاء شخصيتها ودوام استقلالها . ثم جاء الاسلام فاذا أهل مصر بعد بضع قرون قسمان كل منهما منفصل عن الآخر رغم تجاورهما ، واذا فيها شعبان متنافسان يحمل أحدهما لواء الكثرة والسيادة ، ويحمل الآخر سلاح الراغب عن الامتزاج والفناء .

وقد نكون على حق اذا نحن قلنا ان الأمر بقى على تلك الحال الى العصور الحديثة . غير أن ذلك الانفصال طور متوسط فى حياة الشعوب ، وما كان لشعب أن يبقى على ذلك الى الأبد ، فان سنة الطبيعة أن يمتزج سكان القطر الواحد ، ويشتركوا فى المصالح ، ويشعروا بأنهم أهل وطن واحد ، تجمعهم الحياة نفسها ، وتقرب بينهم أواصر الجوار والاشتراك فى سراء الظروف وضرائها . على أن بلوغ ذلك لا يكون إلا اذا مهدت له الظروف وعملت على إحداثه الاحداث . والاحداث لا تخلق ، وإن سعى اليها الناس ، بل إن الناس ينساقون فيها ، وقد يؤثرون فيها بعض الاثر أثناء اندفاعهم فى تيارها القوى . وقد تهيأت الظروف الى ذلك الامتزاج منذ عهد قريب ، فقد يمكن أن نقول — وفى قولنا كل ما يدعو الى الوثوق — أن سنة ١٩١٩ كانت حدّا فاصلا بين عهد قديم وعهد حديث ، بين عهد لم يكن الشعب المصرى يحس أنه شعب مرتبط مشترك ، وعهد آخر يشعر فيه المصريون جميعا أنهم أهل بلاد واحدة . وها نحن اليوم نشهد جيلا جديدا من المصريين آخذا فى الامتزاج والاشتراك على أساس وطنية صادقة ، ووحدة لا تفصم عراها . فلو ظهر هذا الكتاب من نحو عشرين سنة لما قدّره أهل مصر قدره ، ولما تبينوا فيه روح مؤلفه العادل ، ولما أدركوا ما فى صدره من سعة ، وما فى عقله من رجحان ،

وأما اليوم فانهم لا شك يقدّرونه ويدركون ما فيه من عدالة ونفوذ رأى . فمؤلف الكتاب معجب بالعربى ، ومعجب بالقبطى ، فهو يذكر حوادث التاريخ ذكر القاضى الناقد، لا يعبأ أين تميل به الحجة، لأنه لا يقصد الى نصر فئة ولا الدعاية لشعب، بل يذكر ما كان فى الماضى، ويوضح ما فيه من المسائل من غير أن تكون فى نفسه مرارة ، أو أن يكون فى حكمه زيغ . فهو إن رأى الحجة مع العرب أبان عنها بيانا شافيا ، وان رأى الحجة مع القبط كشف عنها كشفا صريحا، وفى نفسه سرور الباحث عن الحقيقة اذا وفق الى كشفها ، إذ ليس فى قلبه ما يسخطه على تلك الحقيقة اذا هى تبدّت فى جانب دون جانب . فالمصريون فى هذه الأيام يستطيعون أن ينظروا الى الماضى نظرة الى تاريخ جرت حوادثه جريانا طبيعيا . ساقتها اليه الظروف التى كان لا بدّ من أن تسوقها فيه . ويستطيعون اذا رأوا ما يؤلم فى ذلك الماضى أن يتخذوا منه عبرة من غير أن تثور حفيظتهم ، إذ أن الأخ لا تبعده عن أخيه ذكريات ما كان بين الجدود من إحن أو منافسات . فلنا أن نعتقد أن قيمة هذا الكتاب تبدو على حقيقتها اليوم، وما كانت لتظهر من قبل مثل ظهورها هذا إذ كانت تتنازع القلوب عوامل الحياة نفسها فتغلب على حكمها .

كان للمؤلف فضل التعرّض لبعض مفتريات التاريخ، وكانت شائعة بين الناس يأخذونها تلقفا بغير تمحيص . وطالما كانت تلك المفتريات عضدا لمن أراد البغى على المصريين، إذ يسوقها حجة عليهم ، عليها مظهر الصدق التاريخى، فينخدع بها القارئ .

واليك مثلين لتوضيح ذلك ، فقد تناول فى أول بحثه مسألة طالما ردّدها المؤرّخون وهى اتهام المصريين القبط بأنهم كانوا دائما يرحبون بالغزاة الأجانب ، فرحبوا أولا بالفرس، ورحبوا ثانيا بالعرب ، يريدون بذلك أن يتخلصوا من نير ليضعوا نيرا آخر على رقابهم ، وقد أظهر المؤلف فى حادث من هذين الحادثين

كذب ما آدّعاه المغرضون من المؤرخين ، وخلص الى أن القبط إنما كانوا أمة شاعرة بوجودها ، متماسكة فيما بينها مستمسكة بمذهبها الديني ، وقد اتخذت ذلك المذهب الديني رمزا لاستقلالها ، فضحت في سبيله بكل شيء ؛ وكانت — وهي تفعل ذلك — تحافظ على استقلالها وشخصيتها من أن تندمج في أمة أخرى ، ولكن المؤلف أظهر أن تلك الأمة التي حافظت تلك المحافظة المرّة على شخصيتها ، لم تكن لترضى بأن تفتح ذراعيها لسيد جديد ، وتقف معه في وجه السيد القديم ، بل كان كل ما فعلته أن بقيت مكانها لا تحرك ساكنا برغبتها ، تاركة ميدان النضال بين المتنافسين ، إذ لم يكن لها مصلحة في الدفاع عن سيد أذاقها مر العذاب في محاولته القضاء على استقلالها ، وهكذا أظهر المؤلف أمة القبط في ثوب العزة والأنفة ورمى عنها ما كان المؤرخون قد ألقوه ظلما عليها من التهم الشنيعة بإظهارها في مظهر الدناءة والذلة .

ولكن هذه الروح العادلة التي حدت بالمؤلف الى نصرة الحق في جانب أمة القبط ، حدت به كذلك الى نصرة الحق في جانب أمة العرب ، فلم يحاول أن يخفي من فضائلها شيئا ، أو يعكر من صفو سيرتها في مدّة فتح مصر ، بل كان عادلا في وصف الأفراد والمجموع ، نرى إعجابه بقائد القوم عمرو بن العاص ، كما نرى إعجابه بروح البساطة والطهارة التي كان عليها غزاة العرب إذ ذاك ، ثم نراه تعرض لمسألة خاض فيها المؤرخون المتأخرون ووجدوا فيها سبيلا للطعن في سيرة العرب ، وهي إحراق مكتبة الاسكندرية ، فأبان هناك عن الحق ، راجعا إلى أسانيد التاريخ ، حتى أظهر أن العرب عند ماغزوا الأسكندرية لم يجدوا هناك مكتبة كبرى ، إذ كانت مكاتب تلك المدينة قد ضاعت ودمرت من قبل غزوتهم بزمن طويل .

وبعد ، فإن هذا الكتاب له قيمة خاصة لسبب آخر فوق ما سبق لنا بيانه ، وذلك أن تواريخ العرب وفتوحهم لم يتناولها الى الآن كاتب حصر همه في ميدان محدود وبحث فيه بحثا مستفيضا ، كما فعل مؤلف ذلك الكتاب ، فنجد كثيرا من

الكتب تصف سيرة العرب إجمالا ، وتتعرض الى فتح مصر فى قول موجز لا يزيد على عشرات من الصفحات ، وأكثر هؤلاء المؤرخين إنما يرجعون الى ما كتبه العرب فى دواوين أخبارهم ، غير أن هـذا الكتاب الذى بين أيدينا لا يتناول إلا فتح العرب لمصر ، وهو فى أكثر من خمسمائة صفحة ، وقد رجع مؤلفه الى أسانيد القبط والأرمن والسوريان واللاتين وغيرهم ، كما رجع الى مؤلفـات العرب فكانت نظرته من غير جانب واحد ، ولهذا نراه أقرب الى التمحيص ، وأجرى بأن يكون قد أصاب القصـــد .

والحق أن تاريخ الفتح فى أشدّ الحاجة الى ذلك التمحيص ، فكم به من مسائل غامضة يجب على المؤرّخ أن يجلو غموضها ، نضرب لذلك مثلا شخصية المقوقس ، فإنا نسمع ذلك الاسم يتردد فى كتب التاريخ عنـد ذكر رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم الى حاكم مصر ، ونجده مذكورا فى أثناء الفتح عند ذكر المفاوضة بين العرب والروم ، ونجده كذلك مذكورا عنـد تسليم الاسكندرية ، وقد سماه بعضهم جورج أو جريج ابن مينا وسماه بعضهم ابن قرقب أو قرقب ، وجعله بعضهم من أهل مصر ، وقال آخرون أنه يونانى وهو بين كل ذلك يلوح فى وسط ظلمة من الشكوك لا يكاد الإنسان يعتقـد أنه شخص طبيعى وجد حقيقة فى تلك الأحداث ، غير أن المؤلف مازال يقارن ويناقش ويفحص حتى خرج الى أن المقوقس لم يكن سـوى قيرس البطريرك الملكانى بالاسكندرية ، الذى جمعت له ولاية الدين والدنيا معا فى أيام هرقل وخلفائه ، على أن المؤلف قد استدرك الأمر فأظهر أن ذلك الاسم قد أطلقه العرب على سبيل التعميم على الذى كان بطريرك الروم قبـل قيرس ، كما أطلقوه على بنيامين بطريرك القبط الذى كان طريدا وعاد بعد أن استقر العرب فى مصر ، وقد كان يخالفه فى هذا الرأى كتاب أكبرهم الأسـتاذ ستانلى لين بول ، غير أن ذلك الأستاذ لم يسعه بعـد أن اطلع على ما كتبه المؤلف فى بحوثه المختلفـة عن شخصية المقوقس إلا أن يذعن للحق ، فكتب اليه فى يوم عيـد ميلاده (وإنى جاعل هديتى فى عيد

ميلادك شهادتى بالرجوع عن رأيى فى معارضتك فى شخصية المقوقس، إذ ثبت لدىّ أنه لم يكن سوى قيرس) .

وقد رأينا أن نورد أبحاث المؤلف فى هذا الشأن تفصيلا، فأضفنا الى الكتاب ذيلا جديدا ضمنه ما كتبه المؤلف عن المقوقس فى رسالة أصدرها بعد إصداره هذا الكتاب (وهى معاهدة مصر فى الطبرى) .

وقد عانينا كثيرا فى أثناء ترجمة هذا الكتاب إذ أن المؤلف يقتبس فقرات كثيرة عن كتاب العرب، و بعض تلك الفقرات نصوص لابد للترجم أن يرجع إلى أصولها فى اللغة العربية، حتى لا تكون الترجمة مذهبة روح القول الأصلى، أما البعض الآخر فعبارة عن أوصاف مادية لايهمه إلا تأدية ماتصفه، وقد وفقنا ولله الحمد الى الوصول لتلك النصوص فى أغلب الأحوال، ولكن عجزنا فى بعضها لغير تقصير منا، ولنضرب لذلك مثلا قطعة منقولة عن هشام بن الكلبى وهى عبارة عن مناظرة لعمرو بن العاص فى حضرة معاوية، فقد بحثنا فى كل ما استطعنا الوصول اليه من كتب التاريخ والأدب فلم نجد ذلك النص، ثم سألنا كثيرا من المتأدبين فى مصر فلم يهتدوا اليه، وأرسلنا فى طلب ذلك الى المؤلف نفسه ولكن طول العهد قد أنساه من أين أتى بذلك النص فأرسل يعتذر وله العذر قائلا (لعلى أخذت ذلك النص . من بعض مقتطفاتى من مكاتب باريس ومدريد) فاضطررنا أمام هذا أن نترجم النص الانجليزى بقدر ما استطعنا من التقريب الى أسلوب عصر معاوية وعمرو .

وقد وردت فى الكتاب مقتطفات كثيرة عن اللغتين اليونانية واللاتينية ولم يكن لنا حظ العلم بهاتين اللغتين فاستعنا ببعض من لهم المام بهما، فأما النصوص اليونانية فقد ترجمها لنا صديقنا المسيو كلونارس، وأما النصوص اللاتينية فقد ساعدنا صديقنا المستر ويد المدرّس بمدرسة فاروق بأن أرسلها الى صديق معروف بالتفوّق فى تلك اللغة وهو (القاضى بربكهيد) فلهم جميعا عميق الشكر على خدمتهم الجليلة، وكان

لابد لنا مع هـذا من إثبات الأصل ، فأما النصوص اللاتينية فقد كان من السهل إيرادها فى هوامش الكتاب ، وأما النصوص اليونانية فقد تعذر علينا ذلك فوضعنا علامة نجمة فى موضـع النص مع كتابة رقم مسلسل بجـوار النجمة ثم ألحقت كل النصوص اليونانية فى آخر الكتاب مسلسلة بأرقامها ، ليطلع عليها من شاء . كما أشكر محمد افندى اسماعيل الصاوى على مجهوده فى عمـل فهارس الكتاب وحضرة محمد افندى نديم ملاحظ مطبعة دار الكتب على عنايته بإخراج الكتاب فى شكله الحاضـر ؟

محمد فريد أبو حديد

مقـدّمة المـؤلف

لعلنا لسنا فى حاجة إلى الاعتذار عن تأليف هذا الكتاب فيما يمس الغرض منه فانما الغرض منه أن نبنى تاريخا واسع المدى مفصل الأخبار لفتح العرب مصر . ولم يسبق لأحد أن كتب مثل هذا التاريخ اللهم إلا رسائل متفرقة ألم كاتبوها ببعض هذا الأمر إلماما أمثال (جبون) ومن جاء بعده وتلك الرسائل ما هى إلا بعض أبواب أو فصول موجزة داخلة ضمن مؤلفات مكتوبة عن دولة الروم أو عن دولة العرب ، وفى الحق إنه لمما يسترعى النظر ألا يكون فى أية لغة من اللغات بحث مفصل له قيمة يصف تاريخ ذلك الفتح . وقد كان ذلك من سببين اثنين : أولهما قلة ما لدينا من الأخبار التى يمكن أن يعتمد عليها الباحث العادى . وثانيهما ذلك الخلاف الواسع بين الرواة والمصادر سواء منها المشهور وغير المشهور وسواء فى ذلك الشرقى منها والغربى .

وعلى ذلك فقد لف هذا الموضوع ظلام دامس فكان الوالج فيه مقدما على تيه حالك من الخلاف والتناقض . وقد يلوح قولنا هذا كأن فيه مبالغة ومغالاة ، ولكنه الحق لا شك فيه ويعززه رأى كاتب معروف وهو المستر (E. W. Brooks) إذ يقول "وقل أن نجد حادثا هاما من حوادث التاريخ قد خفيت أخباره واختلف فى رواياتها كما هو حال تاريخ فتح الاسكندرية حقا أن تاريخ غزو العرب للدولة الرومانية كله تاريخ مظلم غامض ، ولكن تاريخ مصر أشده ظلمة وحلوكة[1]" .

وقد أقدمنا على تأليف هذا الكتاب وقصدنا منه — على الأقل فيما اختططنا لأنفسنا — أن نجلو بعض تلك الظلمة التى تلف الأمر لفا ، وأن ندخل الى الموضوع نتائج البحث الجديد ، وأن ننتفع بما صار فى متناول اليد من الأخبار

(١) (Byzantinische Zeitschrift. 1895) صفحة ٤٣٥

الجـديدة ، وأن نقـرن ما جاء فى كتب مؤرّخى الشرق بعضه الى بعض ثم نعالجه بالفحص والتمحيص حتى نقيم تاريخ هذا العصر على أساس علمى . ولم يخف على ما فى عملى من تقصير عن الخطة التى رسمتها له ، بل إنى عالم به حق العلم فقد أخفقت طريقتى فى بعض الحالات ولم أفلح فيما قصـدت منها فكنت فى ذلك عند قـول (Maeterlinck) "كمن يضع عدسة منظاره المكبر على سكون وظلمة" غير أنى أقر أن إخفاقى كان فى حالات أخرى راجعًا الى عجز فىّ أنا لضعف علمى باللغة العربيـة ومشقة السير فى عملى فى فترات قصيرة من أوقات الفراغ وهو عمل يتطلب استقرار الذهن والبحث الدقيق المتواصل . على أننى أرجو أن عملى هـذا سوف يبعث على زيادة البحث و يحفز الى المضى فى الدرس . والحق أننى ألفيت نفسى مضطرا الى مخالفة جلّ ما استقرت عليه الآراء فى موضوع الفتح العربى فانك تجد سيرة الفتح حتى فيما كتبه أحدث المؤرّخين وأقربهم عهدا لا تزيد فى مجملها عما يلى :

أنه قبل غزوة العـرب ودخولهم فعـلا فى البلاد كانت مصر قد وضعت عليها الجزية مدة ثلاث سنين أو تزيد، وضعها عليها قيرس (المقوقس) ، ثم منع منويل تلك الجزية فجاء العرب يغزون البلاد من أجل ذلك، وأن المقوقس كان من القبط وانضم الى العرب وأن القبط عامة رحبوا بالغزاة ورأوا فيهم الخلاص وأسدوا اليهم كل مساعدة ، وأن الاسكندرية فتحت عنوة بعـد حصار طويل ملئ بالحوادث العجيبة والمخاطرات المثيرة .

مثل هـذه السيرة هى التى أثبتها هؤلاء المؤرّخون . ولعـل القارئ يظن أننـا نغالى ونبالغ إذ نقول إن تلك القصة لا حقيقـة لها من بدئهـا الى ختامها ، ولكنا لا نرى رأيا غير هـذا ، وإنا اذا بحثنا الأمر وفحصنا هـذه العبارات جميعا وعرفنا منشأها وأساسها لاح لنا أنها تقوم على أساس من الحقيقة أو من شبه الحقيقة . ولا شىء أدعى للنظر ولا أروح للنفس من أن تفحص تلك الحقائق ، وترى كيف حوّرت وحرفت حتى أمكن أن تلفق منها قصـة تاريخية كاذبة وإن شئت قلت

خرافة . وقد لا يُعجب القارئ أننا أطلنا فى الهوامش والحواشى فى بعض المواضع وجوابنا على ذلك أننا قد رأينا واجبنا أن نثبت المراجع التى رجعنا اليها والأسباب التى حملتنا على الذهاب مذهبنا الذى سلكناه ورأينا الافاضة والإطالة أولى بنا فى مثل هذا الموضوع وحيا لنا ميدان فسيح ملئ بالأخبار المتناقضة والخلافات العظيمة فأطلنا وأفضنا وما كان ينبغى لنا ذلك لو كنا نعالج أمرا أقل رقعة وأضيق ميدانا . وكذلك قد أطلنا فى ملحقات الكتاب ولكن لقد كان من أوجب الواجبات أن نقيم لأنفسنا بناء لتاريخ ذلك العصر ونتخذ نظاما لتسلسل تواريخه وضبطها . فمثلا لم يكن من الممكن أن نكتب تاريخ الفتح إلا اذا جلونا حقيقة المقوقس ولم يكن لنا كذلك بد من رسم خطة تامة لتسلسل التواريخ فيه . فلم يكن بالمجزئ أن نثبت ما نستخلصه من النتائج وهى فى كثير من الأحيان طريفة لم يسبق اليها أحد بغير أن نبين الدعائم التى أقمناها عليها ولقد كانت تلك الدعائم كثيرة الشعب والوجوه سواء أكان ذلك فيما يخص شخص المقوقس أم يخص تواريخ الفتح الفارسى أو تواريخ الفتح العربى .

وأما موضوع الكتاب فقد بدا لنا أن كتابة تاريخ الفتح العربى لمصر يجب ألا يعالج على أنه حادث منقطع العلاقة بسائر حوادث التاريخ، بل أنه حادث لا يظهر خطره ولا تتضح حقيقته إلا إذا قرن بالأحداث التاريخية الكبرى التى ساقت دولتى الروم والفرس القديمتين الى الاصطدام بالدولة العربية الناشئة . وقد رأينا أن حكم هرقل علم ظاهر من أعلام التاريخ يليق لأن نجعله مبتدأ تاريخنا ومن لطائف الاتفاق أنه يبدأ على حوادث ذات شأن عظيم وقعت فى مصر وكانت لا تزال مجهولة خافية . فقد حدث فى أثناء ذلك الحكم أن تمزق ملك فارس وأن بعث (النبى) محمد وقام برسالته ونشر دينه، وأن أفلت حكم بيت المقدس والشام من أيدى القياصرة، وملك كسرى بلاد مصر، كما أننا نطلع منه على الأسباب السياسية والدينية التى مهدت السبيل لانتصار سيف الاسلام وصولة القرآن . على أننا فى الوقت عينه لم ننس أن نلقى نظرة على مجرى

الحوادث التى كانت تحدث فيما وراء حدود مصر وكانت نظرتنا اليه المسامة حتى تكون تلك الحوادث الخارجية ثانوية تابعة لا تحمر الغرض الأول من الكتاب .

ولا غنى لنا عن التعرض بالقول للمراجع التى رجعنا اليها فى تاريخ هذا العصر الذى اخترناه فنذكر أولا من التواريخ القصيرة التى كتبها أهل الغرب فى العصور القريبة (His. of the Saracens) وهو تاريخ عجيب ألفه (أوكلى) وتكاد شهرته بين الناس تعدل شهرة كتاب جبون وهو (Rom. Empire.) ثم نذكر كتاب (شارب) وهو (Eg. under The Romans) ، ولكنه ليس بالمؤلف الكبير القيمة . ونجد أخبارا طريفة وبحثا حديثا فى الطبعة التى أخرجها الأستاذ (بورى) من كتاب تاريخ (جبون) وفى الكتاب الذى ألفه الأستاذ نفسه وهو (Later Rom. Empire) ونجد مثل هذه الفوائد فى كتاب المستر (ملن) وهو (Eg. under Rom. Rule) وكتاب الأستاذ ستانلى لين پول وهو (Eg. in the Mid. Ages) ورسالته عن القاهرة فى سلسلة الرسائل المسماة (Mediaeval Towns) ، وكتاب فيل (Geschichte der Chalifen) مرجع قيم ، بل هو لا غنى عنه على أنه قد تقادم عليه العهد ، وكتاب (فون رانكه) (Weltgeschichte) يحوى نبذة عن الفتح ومقالا عن عمرو فى مصر ، وفيها يردد الكاتب الأخبار المتداولة ، ولعلنا نستطيع تلخيص رأى (فون رانكه) فى كلماته التى قالها هو وهى "وكان فتح مصر ناشئا من خيانة خائن قبطى خرج من قومه واستظل بألوية العرب" وذلك لعمرى رأى لا تقوم له اليوم قائمة فى ميدان البحث . وأما المؤلفات الفرنسية الكبرى فلا بد لنا أن نذكر منها كتاب (ليبو) طبعة (سان مارتان) وهو (Histoire du Bas Empire) وهو كتاب لم يزد عليه المتأخرون إلا قليلا أو لم يزيدوا عليه شيئا . وأما كتاب سيديو (Histoire Generale des Arabes) فقد جاءت فيه نبذة عن الفتح ولا يكاد الانسان يجد بها جملة واحدة دقيقة . ومثل ذلك (ديهل) نفسه فانه قد كتب فى كتابه القيم (Afrique Bizantine) ما يأتى : "وقد

انحاز القبط الى جانب المغيرين بغير أن يقاوموا مقاومة تذكر وكانوا بانشقاقهم هذا سببا فى نصرة المسلمين". (صفحة ٥٥٣) وأما كتاب (رينودو) (His. Patr. Alex.) فمؤلف جليل فيـه درس عميق وبحث مستفيض وله قيمة لا ثلمة فيها فى الموضوع الذى يعالجه وقد كان (كاترمير) مؤلفا اشتهر بسعة علمه ودقة حكمه ومؤلفاته لاتزال على قيمتها العظيمة لم تفقد شيئا يذكر فى نظر الباحثين فى تاريخ مصر. على أن مؤلفات أهل الغرب لايجوز الاعتماد عليها وحدها حتى وإن كانت خيرا مما هى وأتم فان من أراد أن يحث بحثا جديدا من هذا النوع وجب عليه أن يعتمد على المراجع الأصلية. أما تلك المراجع فاليونانى منها مخيب للظن والأمل ، فمنها كتاب تيوفانز وقد كتبه المؤلف فى سنة ٨١٣ ولكنه أساء كل الاساءة فهم أخبار الفتح العربى فتاريخه المجمل المقتضب يخلط بين الفتح الأول والفتح الثانى للاسكندرية مع أنه لا يذكر أحد الفتحين . وهو يخترع معاهدة عقدت مع العرب قبـل دخولهم لمصر غازين وليس فى كتابه تناسب ولا تناسـق وهو السبب فى كثير من التـاريخ المختلط المكذوب ، ومن كتاب اليونان (نيقفوروس) وهو خير من السابق شيئا ما، ولكن كتابه لسوء الحظ ليس به شيء من أخبار ما بين سنتى ٦٤١ — ٦٦٨ وما بقى بعد ذلك لا يزيد على أنه "ثبت بأسماء القواد المنهزمين" وهذان الكاتبان كلاهما يورد نتفا مفردة غير متصلة ويختلف أحدهما عن الآخر ويذكر كلاهما من تواريخ السنين ما لا يستطاع قبـــوله .

وأما حنا مسكوس وبطارقة بيت المقـدس زكريا وصفرونيوس فقد كانوا كتابا دينيين فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن الســابع ونستطيع أن نلمح فى ما كتبوه بعض إشارات الى حوادث سبقت الفتح وقد ترك (ليونتيوس) النيابولى فى قبرص ترجمة لحياة "حنا الرحوم" بطريق الاسكندرية وفيها فائدة لتاريخ مـدّة الفتح الفارسى وقد نشرها جلزر نشرة بديعة متقنة. وأما كتاب (Chron. Paschale) أو (Alexandrinum) فأغلب الظن أنه كتب فى أوائل القرن السابع فى مصر

ولكنه لا يبلغ مدّة الفتح فى حين ان الكتاب اللاتينى (Chronicon Orientale) الذى ألفه (Echellensis) مؤرّخ فى سنة ١٢٣٨ بعد الميلاد .

وأما المراجع الأرمنية فانها تكاد تكون فى نظرنا لا فائدة فيهـا لتاريخ الفتح مع أنها تذكر بالتفصيل العظيم حروب الدولة الرومانية مع الفرس وتصف ضياع الشام . فالأسقف سبيوس له كتاب ظهر باللغـة الروسية وقد حرره المستر (كونيبير) مع ترجمة انجليزية ولكنه لم يطبع بعد، وفيه أخبار توضح ذلك العصر ولكن ليس فيهـا ما يتعلق بمصر أو ما أقل ما يتعلق بمصر فيه . وميخائيل السورى يظهر أنه ينقل عن تيوفانز، وقـد نشر كتابه (لانجلوا) . وأما النسخة التى حررها (شابوت) فانها لم تتم بعـد، وكتاب (اليشع النصيبى) توجد منـه نسخة مخطوطة فى المتحف البريطانى ولكن جزءا منه خاصا بالفتح العربى قد نشر فى (بثجن) .

فلنأت الآن الى الكتاب المصريين . ويجب أن نجعل أولهم وعلى رأسهم حنا النقيوسى وهو أسقف قبطى كتب فى مصر فى أواخر القرن السابع ولعله ولد حوالى زمن الفتح وكتابه عبارة عن مؤلف فى تاريخ العالم، وقد كتب جزء منه فى الأصل باللغة القبطية وجزء آخر باليونانية، و يظهر أنه قد نقل الى العربية فى زمن متقدّم جدا، وعلى أساس تلك النسخة العربية وجدت ترجمة أتيوبية وهى النسخة الوحيدة الباقية من ديوان حنا وقد ترجمها زوتنبرج وحررها . وأخبار هـذا الكتاب ذات قيمـة عظمى اذا كان نصها واضحا غير غامض ولم يتطرق اليـه الفساد ولكن ذلك الكتاب لا يذكر به شيء لسـوء الحظ ما بين توليـة هرقل و بلوغ العرب حصن بابليون، وعلى ذلك فكل مدّة الفتح الفارسى وعودة مصر الى الروم قد ضاعت منه، وكذلك قـد اختلطت أخبار آخر مـدّة الفتح العربى اختلاطا عظيما إذ هى مقلوبة رأسا على عقب لا يستطاع إقامتها ولا يكاد النقد يعيد اليها سياقها . على أنه قـد ثبتت منه بعض حقائق من الأمهات الكبرى ولا بد لنـا من اعتبارها معالم ثابتة

لا تدافع ولا يختلف فى صحتها مع أنها تخالف ما جاء فى الأخبار العربية المتأخرة عنها فهى على ذلك أسس متينة لمن أراد أن يبحث فى تاريخ هذا العصر والحق أنه لم يكن فى الامكان أن يكتب تاريخ الفتح العربى لمصر لولا أن عثرت البعثة البريطانية الى بلاد الحبشة على نسخة مخطوطة من كتاب حنا . وإنا لنرجو أن يعثر يوما ما على نسخة قبطية أو عربية من كتاب حنا النقيوسى تكون سابقة للنسخة الأثيوبية التى وجدت[1] ، ولقد وجد الدكتور (شفر) فى متحف برلين قطعة من ست صفحات مكتوبة بلغة الصعيد وهى كما قال المستر (كروم) تتفق اتفاقا يسترعى النظر مع ما جاء فى ديوان حنا . وقد ترجم (زوتنبرج) كتاب حنا ونشره نشرة فيها عيوب فى بعض نواحى الترجمة وفى حسبان التواريخ ولا يزال أهل البحث على شوق فى انتظار ظهور الترجمة الانجليزية التى اضطلع بها الدكتور (شارلز) .

وأما المخطوطات القبطية المتقدمة فلا يعرف منها إلا النذر اليسير مما لا علاقة له بموضوعنا ، وقد عنى المسيو أميلنو بنشر القطعة من الوثائق البودلية وبها قطعة من حياة بنيامين (وهو بحث منشور فى الجريدة الأسيوية لسنة ١٨٨٨ تحت عنوان "Fragments Coptes pour servir à l'Histoire de la Conquête de L'Egypte" . وقد نشر العلامة نفسه بحثا عن حياة صمويل القلمونى فى (Monuments pour servir a l'Histoire de l'Egypte Chret. aux IVe—VIIe siècles) . وقد نشرت نسخة أثيوبية من حياة صمويل نفسه وهى (Vido do Abba Samuel do Mosteiro do Kalamon) نشرها (F. M. E. Percira) . وهو الذى نشر كذلك عن اللغة الأثيوبية رسالة (Vida do Abba Daniel) ونحن مدينون للسيو أميلنو كذلك برسالة فى ترجمة

(١) يعترف المسيو أميلنو فى مؤلفه "Vie du Patr. Copte Isaac" (هامش صفحة ٢٤) أنه يعرف وجود نسخة عربية من ديوان حنا ، ولما سألناه عن موضع تلك الوثيقة القيمة لم يزد على أن قال : " إنها فى أعماق إقليم من أقاليم مصر " وهو جواب لا يجلو ظلمة ولا يوضح أمرا ، وقد جاء فى كتابه ذلك فى صفحة ٢٦ نقد عجيب انتقص فيه المؤلف من مقدار حنا ومن تاريخه وهو نقد لا نوافق عليه ، كما أنا لا نوافق المسيو أميلنو على نظام تواريخه لذلك العصر .

حياة (بيزنتيوس)، وأخرى فى حياة البطريق إسحق وكلاهما عن وثائق قبطية كتبت فى القرن السابع وبها نبذ ذات شأن عظيم ولا شك أن الترجمة العربية لحياة شنوده قائمة على أصل قبطى، وقد نشرها كذلك المسيو أميلنو . ولكن القيمة التاريخية لهذه الوثائق القبطية ليست عظيمة المقدار فقد كان هم من كتبوها ذكر الأمور الخاصة بالكنيسة ، وكلما كانت تلك الأمور خارقة للمألوف كانت عنايتهم بها أعظم . وأما أمور الدنيا وحركاتها التى حولهم فقد كانت قلوبهم منصرفة عنها تكاد تكون مقفلة من قبلها . ولا حاجة بنا الى الأسف على أن هؤلاء الكتّاب كانوا يستطيعون أن يدوّنوا لنا الأخبار الكثيرة، ولكنهم لم يفعلوا فلا يذكرون تاريخ عصرهم وحوادثه إلا فى بعض نتف متفرقة يذكرونها عرضا . ويلمحون اليها تلميحا .

وإنه لأشدّ لأسفنا أن حنا النقيوسى وسائر كتّاب القبط فى القرن السابع تفصلهم حقبة طويلة من الزمن عن الكتّاب العرب وهى نحو قرنين وإنا لنأمل بعض الأمل أن نرأب تلك الثلمة اذا ما تم درس أوراق البردى الكثيرة التى كشفت فى الفيوم وسواها . وان ما تم منها للآن على أيدى الدكتورين (غرنفل) و (هنت) وعلى يدى المستر كروم ليس له كبير جدوى فى تاريخ العرب غير أن أوراق البردى العربية التى ينشرها الأستاذ (كراباسك) لا بدّ ترسل نورا يجلو ذلك التاريخ ولنا على ذلك دليل مما نشره فى ثبت بين فيه نماذج من تلك الأوراق وعرضه فى معرض فينا وقد كان بينها خطابات من عمال اشتركوا فى ميدان الفتح وأورد حنا النقيوسى ذكر أسمائهم كما أورد أسماءهم مؤرّخو العرب .

ولسنا نطمع أن نأتى ببيان مستقص لكل مؤرّخى العرب، وحسبنا أن نأتى هنا بكلمة عن كل من كبارهم فلعل فى ذلك فائدة (*) . فقد كان من أول مؤرّخى

(*) وإنك تجد ما تشاء من المعلومات فوق ذلك فى رسائل المستر (E. W. Brooks) وهى :
(١) "فى تواريخ فتح العرب لمصر"، وقد نشرت فى (Byzantinische Zeitschrift) لسنة ١٨٩٥ ،
(٢) "العرب فى آسيا الصغرى" وقد نشرت فى (Journal of Hellenic Studies) الجزء ١٨ سنة ١٨٩٨ ، (٣) البيزنطيون والعرب فى أوائل العصر العباسى ونشرت فى (Eng. His. Review) =

العرب وأعظمهم قدرا الواقدى (٧٤٧ — ٨٢٣ للميلاد) . وقد ضاع كتابه ولم يبق منه إلا المقتبسات الكثيرة والاشارات العدة التى بقيت فى كتب المؤرخين الآخرين . وأما تلك الكتب التى تحمل اسمه مثل كتاب "فتوح مصر" فانها تنسب اليه خطأ ولكنها فى العادة تذكر منسوبة الى اسمه تسهيلا فى القول بدل أن يقال إنها تأليف "المدعى بأنه الواقدى" .

البلاذرى (٨٠٦ — ٩٢) — تعلم فى بغداد ثم تردد على أبواب الخلفاء وكتب حوالى سنة ٨٦٨ كتابه "فتوح البلدان" وهو كتاب فى ذكر الحروب والغزوات مرتبة بحسب الأقطار والأقاليم . وهذا الكتاب اذا لم يكن أول الكتب عهدا وأغزرها مادة فهو بغير شك حجة من أعظم المراجع قيمة . ويتضح منه أنه قد كان منذ القرن التاسع خلاف عظيم فى الآراء عن تفاصيل فتح مصر . واسمه مشتق من "حب البلاذر" وهو مادة مخدرة وقد كان موته ناشئا من أخذه جرعة منه زائدة عن طاقته . والعلامة (Weil) لا يعرف البلاذرى .

ابن عبد الحكم (المتوفى بالفسطاط سنة ٨٧٠) — مؤلفه موجود فى نسخة وحيدة مخطوطة لم تنشر بعد وهى فى باريس ولكن قد أعدت العدة لنشرها وإن الباحثين فى الأمور الشرقية ليتطلعون الى ذلك تائقين وقد نقل كثير من الأخبار عن ذلك المؤلف نقلها المؤرخون المتأخرون من العرب كما نقل عنه (ڤيل) و (كاترمير) ويختلط فى كتاب ابن عبد الحكم كثير من قصص الخيال بأخبار التاريخ ولكن لو نشرت منه نسخة منقودة لكانت ذات شأن عظيم .

وثمت الكثير من أوائل من كتبوا فى وصف البلدان باللغة العربية وقد نجد فى كتبهم كثيرا من الأخبار والتحف التاريخية التى لها قيمة عظمى وقد نجد نصوص أكثرهم فى كتاب (دى جو يجه) (Bibliotheca Geographica Arabica) ونسمى من

= عدد أكتوبر سنة ١٩٠٠ وأنظر كذلك مقالة المستر (Guest) فى الكتاب الذين نقل عنهم المقريزى وقد نشرت فى جريدة الجمعية الملكية الأسيوية عدد يناير سنة ١٩٠٢

هؤلاء الأصطخرى (ولعله ممن كتب فى القرن التاسع) وأبا القاسم بن حوقل (وكتب حوالى سنة ٩٦٠ للميلاد) وشمس الدين المقدسى وابن رستاه وابن الفقيه (وكتبا حوالى سنة ٩٠٠ للميلاد) وابن واذح أو اليعقوبى (المتوفى سنة ٨٧٤ للميلاد) وهو حجة عظيم القدر غير أن قيل لا يعرف عنه شيئا والمسعودى (وكتب حوالى سنة ٩٦٠ للميلاد) وهو كاتب دقيق الملاحظة وما كتبه ذو قيمة كبرى فى وصف آثار الإسكندرية .

ابن قتيبة (٨٢٨ — ٨٩ للميلاد) — خلف "كتاب المعارف" وهو عبارة عن قاموس تاريخى لتراجم حياة الأعلام وقد قال عنه (فوستنفلد) "إنه أقدم الكتب التاريخية المحضة التى بقيت الى الآن من مؤلفات العرب" ولكن الظاهر أنه أخذ أخباره من الرواية الشفوية وحدها بغير أن يرجع الى المدونات وقد أكثر النقل عنه متأخرو المؤلفين العرب غير أنه لم يأت فى أخباره عادة إلا بالقليل وأسلوبه غير مفصل ولا مستفيض وذلك أمر غير عجيب بل هو المتوقع منه .

والآن فلننتقل الى ذكر علم من أشهر الكتاب ومن أجلهم قدرا فى أكثر ما كتب وهو الطبرى (٨٣٩ — ٩٢٣ للميلاد) . وقد ولد فى بلاد طبرستان واسمه مشتق منها وتلقى كثيرا من العلم ثم ضرب فى البلاد فذهب الى العراق والشام ومصر ودرس القرآن والحديث والفقه والتاريخ ثم عاد الى بغداد وأقام بها واستقل بالتدريس والكتابة وأخباره فى العادة دقيقة ويعنى بها عنايه كبرى ويفصل فيها تفصيلا وافيا مجليا ، ولكن من أكبر ما يدعو للأسف أن كتابه ناقص نقصا عظيما فى أخبار فتح مصر فان روايته فى ذلك قليلة قلة شديدة وزيادة على قلتها قد دخلها خلط كبير فى كل ما يتعلق بوصف البلدان وتواريخ الحوادث وذلك يدعو الى كثير من التضليل . على أننا نرى أنه من الجائز أن يكون العيب فى ذلك عيب النساخ وليس عيب المؤلف إذ قد يكون النساخ قد اختصروا الأصل ولم تكن لهم خبرة تسددهم فى اختيار ما يجب اختياره وإغفال ما يجمل بهم إغفاله من الأخبار والروايات التى أوردها المؤلف

بعضها الى جانب بعض فى ديوانه . ولعل ذلك يوضح لنا العلة فى أمر عجيب فى ذلك الكتاب إذ جاء فيه ما قد يفيد أن فتح الاسكندرية قبل فتح منفيس أو مصر .

والمؤرخ المسيحى سعيد بن بطريق معروف معرفة عظيمة باسم آخر أكثر شيوعا، وهو (أوتيكيوس)، وعلى ذلك فلسنا فى حاجة الى الاطالة فى ذكره فقد ولد فى الفسطاط فى سنة ٨٧٦ وتوفى سنة ٩٦٠ للميلاد، وكان عالما ممتازا فى الطب والدين والتاريخ وصار بطريق الملكانية من سنة ٩٣٣ واستمر عليها الى وفاته وينتهى ديوانه فى سنة ٩٣٨ وقد نسج به تاريخا سائغ المقرأ غير أنه لم يكن تاريخا نقديا وقد جمع فى نسجه كل ما وجده دونه من خيوط الأخبار فى المؤلفات وعلى ذلك قد حفظ أخبارا كثيرة ذات شأن كبير وديوانه فيه غلطة ثابتة فى التاريخ مقدارها ثمان سنوات سوى ما فيه فوق ذلك من الأخطاء وخلاف المتفق عليه .

ودوننا كاتب مسيحى آخر وهو الأسقف القبطى للأشمونيين نعنى ساويرس (ابن المقفع)، وكتب تاريخ حياة البطارقة وهو كتاب لم ينشر ولا يعرف عنه إلا القليل، اللهم سوى ما أخذ عنه رينودو فى كتابه وتوجد ثلاث نسخ مخطوطة من هذا الكتاب : إحداها فى المتحف البريطانى وهى مما تخلف من نحو القرن الخامس عشر . والثانية فى المكتبة الأهلية (بباريس) وهى من نحو القرن الرابع عشر . والثالثة وهى قبل هاتين بمدّة طويلة ولعلها من نحو القرن الثانى عشر وهى فى حيازة مرقس بك سميكه (مرقص باشا سميكه) فى القاهرة . وكتاب ساويرس عظيم الفائدة فيما يتعلق بتاريخ الكنيسة، غير أنه ليس فيه كبير غناء فيما سوى ذلك من أخبار الدنيا . وقد كان يعيش فى القرن العاشر ولكن لم يتحقق تاريخ وفاته الصحيح . والنسخة الخطية التى فى باريس بها مقدّمة من كتابة محبوب بن منصور وهو شماس كان بالاسكندرية فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر وقد كان يحرّر فى كتاب " تاريخ حياة البطارقة" . وقد قال ساويرس فى مقدّمته التى كتبها بنفسه أنه كان يلجأ الى بعض القبط ليترجموا له الوثائق القبطية واليونانية الى اللغة العربية إذ أن اللغتين المذكورتين

كانتا حتى عند ذلك غير معروفتين لأكثر المسيحيين وهـذا عظيم الدلالة إذ يظهر الحال من الاضمحلال التى هوت اليها لغـة القبط ولغة اليونان ، كما أنه يظهر جهل ساويرس بهاتين اللغتين ، والحق أن ذلك الدليل على جهل اللغة القبطية عجيب مدهش حتى ليلوح لنـا أنه لا يكاد يصدّق (انظر ثبت الكتب المخطوطة فى باريس طبعة دى سلان صفحة ٨٣) .

فلنمض الآن من التاريخ الكنسى الذى كتبه ساويرس المصرى الى الرسالة التى كتبها المـاوردى عن الأحكام السياسية وكان المـاوردى من بغداد (٩٧٥ — ١٠٥٨) وقد بلغ أعلى شأو فى ميدان الفقه والقضاء والسياسة وكان ممتازا بسـعة علمه ودقة حكمه كما كان ممتازا باستقامته واستقلاله وعزة نفسه وكتابه فى "الأحكام السلطانية" مؤلف نفيس فيـه قوّة فى البيان وعمق فى البحث وهو عمدتنا فيما نعرف عن نظام الضرائب فى الاسلام كما أنه عمدتنا فى كثير غير ذلك من مسائل الشريعة والعرف .

واذا نحن استثنينا هـذا الكتاب لم نجد إلا فراغا منذ القرن العاشر الى القرن الثـانى عشر حتى نأتى الى عصر كتاب الادريسى فى الجغرافيا . وكان الادريسى من أهل الأسفار ولمـا بلغ من العمر ستين عاما نزل ضيفا كريما على بلاط الملك روجر الثانى فى صقلية . وكتاب الادريسى يحوى طائفة من الأخبار القيمة . وأتى بعده بفترة قصيرة كتاب ابن الأثير (١١٦٠ — ١٢٣٢) ثم كتاب أبى صالح وكان يعيش فى العصر نفسه وكتب حوالى سـنة ١٢٠٠ ولعله ولد قبـل مولد ابن الأثير ببضع سنين . ثم يلى ذلك كتاب ابن خلكان "وفيات الأعيان" . وكان ابن الأثير من أهل ما بين النهرين وكان أكثر درسه للعـلم فى الموصل وبغداد وقضى معظم حياته فى الدرس والأدب ، ولكنا لا نستطيع أن نجعله فى الميدان الذى نحن فيه إلا فى مرتبة دون مرتبة كبار المؤرخين ولعله نقل أخبار الفتح عن كتاب الطبرى وما جاء فيه من ذلك لا يزيد الأمر إلا تحييرا . ومن أعجب الأمور أن كتابه الذى يسميه "الديوان الكامل" تزيد قيمته بعـد أن نخرج من فترة الفتح حتى أنه ليخيل الينا أن القضاء

جرى بأن يلقى أخبار الفتح فى مجاهل النسيان . وأما ابن خلكان فقد كان صديقا لابن الأثير وخلف كتابا قيما فى تراجم الأعيان ، وقد نقلنا عنه كثيرا من الأخبار وتوجد نسخة قيمة من ذلك الكتاب فى اللغة الفرنسية نشرها (Mac Guckin de Slane) وكتاب أبى صالح "تاريخ الكنائس والديارات" معروف اليوم والفضل فى ذلك يرجع الى نسخة المستر (B. T. Evetts) التى طبعت فى أكسفورد .

وأما تاريخ مصر القصير الذى ألفه عبد اللطيف البغدادى فقد كان معروفا من زمن طويل والفضل فى ذلك راجع الى نشرة (ويت) مع ترجمتها اللاتينية . وقد ولد عبد اللطيف فى بغداد فى سنة ١١٦١ ورأى كثيرا من الحروب مع الصليبيين فى أيام السلطان صلاح الدين مع أنه لم يكن من الجند — على أنه سافر فى بلاد الشرق الأدنى وأقام مدة طويلة فى مصر وكان قصده من زيارتها فى أول الأمر أن يسمع حكمة «الميمونيين» وقد اشتهر بالعلم شهرة واسعة لما كان عليه من معرفة بالطب والفلسفة والتاريخ ولكن خدمته للتاريخ ينقص منها ما فى أخباره من قصر واختصار ومن الاستطراد فى كتابته وتنقله من أمر الى آخر .

ياقوت (١١٧٨—١٢٢٨) — هوكاتب شائق وأكثر ما كتبه موثوق به ، وقد ولد فى بلاد الدولة الرومانية ثم بيع رقيقا فى بغداد لتاجر فكان يبعث فى التجارة الى بلاد الخليج الفارسى ثم ترك مولاه لخلاف شجر بينهما وأخذ فى تحصيل العلم وكان يرتزق فى أثناء ذلك من نسخ الكتب . ثم صالح مولاه قبل سنة ١٢٠٠ ، وعاد الى الاشتغال بالتجارة وسافر من أجل ذلك الى جزيرة (كيس) ولكنه عند ما عاد من سفره وجد أن مولاه قد توفى فاشتغل ببيع الكتب والتأليف والسفر وحوالى سنة ١٢١٣ زار مدينة (تبريز) وبلاد الشام ومصر وبعد ذلك بسنتين سار الى الشرق من دمشق حتى إذا ما بلغ مرو ألفى بها مكتبة مليئة بالكتب ، وهناك بدأ كتابه "معجم البلدان" وانتهى من كتابته فى سنة ١٢٢٤ ، ولكنه اضطر الى الرجوع لزيارة الاسكندرية ولم يبدأ فى نقل كتابه إلا فى سنة ١٢٢٧ فى حلب ومات

وهو يشتغل فى ذلك العمل فى السنة التالية وإنه لمما يؤسف له أنه لم يستطع أن يعيد النظر على كتابه وهو كتاب لا يزال ذا قيمة عظمى فى التاريخ والجغرافيا .

وأما ديوان المكين أو ابن العميد أى كتاب تاريخ المسلمين فهو مجموعة من نتف وأخبار قصيرة مرتبة بحسب تاريخ السنين . والكتاب معروف إذ نشر نصه مع ترجمة لاتينية فى سنة ١٦٢٥ نشره (Erpenius) وقد نقل (جبون) عنه كثيرا كما نقل عنه كثيرون غيره ولم يكن (لجبون) من المراجع العربيــة إلا هذا الكتاب مع بضع كتب أخرى قليـلة . وقد قال رينودو فيــه رأيا غير مشهور إذ قال[(١)] :

"Qui Elmacinum sequuntur si Arabice nesciant, non ipsum sed interpretem sequi deprehenduntur, qui ut in multis saepe falsus est, ita circa annorum Arabicorum cum Romanis comparationem saepissime" (His. Pat. Alex. p. 172).

وكذلك قال فيما يتعلق بالتواريخ[(٢)] :

"Infinitis exemplis constat hallucinari saepissime Elmacinum"

والظاهر أن المكين كما قال رينودو جعل ديوانه أو جزءا كبيرا منه على أساس ساويرس وهذه الحقيقة توضح بعض السبب فى قلة تحريه ودقته . وقد ولد المكين حوالى سنة ١٢٠٥ ولكن تاريخه ينتهى الى ما قبل عصره بنحو قرن . وقد كان مسيحيا مصريا ، ولكن مؤلفــه يجب أن يعدّ بين المؤلفات الصغيرة القيمة فى نظر الباحث فى تاريخ مصر .

أبو الفرج (١٢٢٦–١٢٨٦) — ويسمى كذلك ابن العبرى نظرا لأنه من أصل إسرائيلى وقد ولد فى ملطية بأرمينيا وهو معروف بكتابه تاريخ الدول الذى

(١) ومعنى هذه النبذة : "إن الذين يأخذون عن المكين بغير أن يكونوا ملمين باللغة العربية لا ينقلون إلا عن طريق مترجم يكون فى أغلب الأحوال مخطئا خطأ عظيما حتى أنه كثيرا ما يقارن بين تواريخ سنى التقويم العربى وبين أخرى من سنى التقويم الرومانى" .

(٢) ومعنى هذه النبذة " وثمت أمثــلة لا عد لهــا تدل على أن المكين كان فى أكثر الأحيان يخلط ويضــــل" .

نشره « پوكوك » مع ترجمة لاتينية وهـذا التاريخ مكتوب باللغـة العربية ، وقد اختصره أبو الفرج نفسه من كتاب أكبر كتبه باللغـة السريانية وقد جاء فيه أوّل ذكر مفصل لاحراق مكتبة الاسكندرية المزعوم ولكنه لا يزيد شيئا على مانعرف من أخبار الفتح العربى . وكتابه "تاريخ الكنائس" باللغة السريانية يتعلق بالكنيسة السورية أكثر ممـا يتعلق بكنيسة الاسكندرية ولكن به بعض أخبار قيمـة تتعلق بعصرنا الذى نعالجه ، وكان أبو الفرج مسيحيا يعقوبيا وصار أسقف ثم صار بطريقا لطائفته .

وللنووى معجم فى التراجم فيـه كثير من الأخبار التى لاتتعلق بعصر خاص ، ولكنا لا نجد به كثيرا ممـا له علاقة لازمة بالفتح العربى . وقد ولد فى قرية (نوا) بقرب دمشق فى سنة ١٢٣٢ وصرف حياته فى الدرس والتعليم ثم مات من الأعياء والجهد ولا يزال قبره محفوظا وله فى نفوس الناس مقام كبير إذ يعـدّونه وليا من أولياء الله .

وأما القزوينى المتوفى سنة ١٢٨٣ فقد خلف كتابا فى آثار البلاد وهو يشبه أن يكون دليلا لوصف الآثار القديمة وقد وجدناه ذا فائدة فى المسائل المتعلقة بالآثار . وكتاب أبى الفداء فى وصف البلدان لا يسعنا أن نغفله فهو قيم لذاته وقد زادت قيمته لمـا أضاف اليه (رينو) فى طبعته الفائقة التى جاءت فى مقدّمتها مقالة ذات فائدة عظمى وصفت فيها الموارد العامة لعلم وصف البلدان فى العربية .

وقد كان أبو الفداء علمـا من الأعلام سليل الأسرة التى أنجبت صلاح الدين الأيوبى ودرج فى سننها من سبل الفروسية فكان يهيم بمعمعان الحرب منذ نعومة أظفاره على أن ناحيته العقليـة كانت نامية زاكية وصار فى آخر عمره سلطانا لحمـاة فوق ما كان عليـه من سعة العـلم والتبريز فى الأدب فكان بابه مقصـدا للأعلام فى كل ضرب من الفنون والآداب وكان مولده فى سـنة ١٢٧٣ وكانت وفاته فى سنة ١٣٣١

ولعلنا لا نكون قد تجاوزنا الحدود ونحن فى صدد قولنا هذا فى وصف البلدان إذا نحن عرضنا لكتاب أميلنو (Geographie de l' Eg. a' l' Epoque Copte) فهو كتاب عظيم النفع يرجع اليه لمعرفة أسماء البلدان فى العصر القبطى والعربى . وكذلك يجدر بنا ذكر مقال المستر « لسترانج » فى مؤلفى كتب وصف البلدان من العرب وذلك فى مقدّمة كتابه (Palestine under the Moslems.) .

ابن خلدون (١٣٣٢ — ١٤٠٥) — يذكرنا اسمه بانتشار الدولة الاسلامية على بلاد المغرب فقد كان مولده فى تونس ولكن أسرته كانت قد انتقلت من زمن طويل الى بلاد الأندلس وأقامت بها ثم تركت أشبيلية وأقامت فى سبته قبل ميلاده بنحو قرن . وقد حصل ابن خلدون العلم فى تونس أولا ثم فى تلمسان ثم لحق بسلطان غرناطة وقام بنفسه على عقد المعاهدة مع (الدون بدرو) القاسى ملك قشطالة وقد استطاع سلطان غرناطة بتلك المعاهدة أن يعود الى قصبة ملكه . وتاريخ ابن خلدون بحالتــه التى بقى عليها الى اليوم مختلط تحيط به ظلمة حيث يصف أخبار فتح مصر على أنا نجد به نبذا ذات قيمة عظمى ظهر صدقها الناصع ظهورا جليا .

المقريزى (١٣٦٥ — ١٤٤١) — نجد فيه مؤلفا مصريا إذ ولد بالقاهرة وكتابه « الخطط والآثار » أثر نفيس من آثار العمــل المتصل فى جمع الأخبار وقد كان كاتبا مكثرا عظيم الاكثار وكان مطلعا على عدد عظيم من المؤلفات غير أن معظمها قد ضاع ودرست معالمه فهو من جهة مقدار ما كتب أعظم مراجعنا وأكبرهم شأنا على أنه قد رجع فيما رجع اليه الى بعض مؤلفين ليسوا ذوى ثقة عظمى ومنهم من لا يتضح معنى قوله ومنهم من يشك فى روايته . وعلى ذلك فانه مع شدّة غيرته فى كتابته وعنائه فى عمله لانستطيع أن نصفه بالدقة والتحرّى ولا بأنه استطاع أن يحسن بناء ما وجد دونه من الأخبار .

ابن الحجر العسقلانى (١٣٧٢ — ١٤٤٨) — نحن مدينون له بكتابه فى التراجم الذى أفادنا فى ترجمة حياة "عمرو وسواه من القوّاد فى مدّة الفتح" وكان

مولده فى عسقلان كما يدل عليه اسمه ثم سافر كثيرا فى بلاد الشام و بلاد العرب ومصر وحج الى بيت الله إذ كان عمره عشر سنين واشتغل بالتجارة ثم بالشعر ثم بالأدب ومات وقد طعن فى السن فى مدينة القاهرة .

أبو المحاسن (١٤٠٩ — ١٤٦٩) — كان أبوه مملوكا للسلطان برقوق وولاه على حلب ثم على دمشق ، ولكن المؤرّخ نفسه ولد فى القاهرة وتعلم بها وكان المقريزى أحد من تلق عنهم العلم . وقد جمع كتابه فى تاريخ مصر على طريقة هى أشبه شىء بطريقة المقريزى أى أنه كان يروى مختلف الروايات عن الحادث الواحد بغير أن يعلق عليها أو ينقدها أو يرجح بعضها على بعض وان فعل كان ذلك نقدا يسيرا .

السيوطى (١٤٤٥ — ١٥٠٥) — هو آخر من نذكر هنا من المؤرخين . وكتابه "حسن المحاضرة" مبنى فى كثير من نواحيه على كتاب المقريزى فهو ينقل عنه قطعا بأكملها نقلا لفظيا . وكان السيوطى من أهل القاهرة مع أن أسرته كانت فى الأصل من أرومة فارسية وحلت فى أسيوط منذ ثلاثة قرون قبل مولده وكان أبوه قاضيا فى القاهرة وعلم بالشيخانية وخطب فى مسجد ابن طولون . وقد بدأ السيوطى يكتب منذ صغره وكان يفخر بأن مؤلفاته معروفة فى أسيا الصغرى والشام و بلاد العرب وشمال أفريقيا و بلاد الحبشة ذاتها ، ولكن غروره وتفيهقه جعلاه مكروها عند الناس فعزل عن أعماله المختلفة فى التدريس أو اعتزل العمل بها من تلقاء نفسه ثم انتحى ناحية فى جزيرة الروضة ومات بها وكتابه فى التاريخ يدل على انحطاط حتى اذا قورن بكتب سلفه الأقربين ولكن من الحق أن نقول عنه كما نقول عن سلفه إن اختيارهم للروايات كان يحوى أخبارا لها قيمة وخطر مما أغفله سواهم من أصحاب المصنفات الأخرى أو مما ردّوه ولم يروا إثباته .

على أننا لا بدّ أن نذكر مؤلفا آخر ذا شان عظيم ولم يكن من مؤلفى التاريخ بل من الكتاب فى وصف البلدان والآثار ولم يكشف مؤلفه إلا سنة ١٨٩١

نعنى به ابن دقماق . ويظهر أنه مصرى وأن وفاته كانت سنة ١٤٠٦ وقد نشر الدكتور (فولرز) نص كتابه مع مقدّمة اعترف فيها وحق له ذلك بما كان عليه المؤلف من سعة العلم التى تستلفت النظر . والقصد الأول للكتاب يدل عليه عنوانه فهو وصف لبلاد مصر . وكثير من الحقائق التى حفظها ابن دقماق فى كتابه لم يسبقه الى ذكرها أحد وهى شائقة من أروع ما كتب ولا سيما ما كان منها فى وصف آثار الفسطاط والاسكندرية . ولنضرب لذلك مثلا فانه يذكر أن الباب الأصلى للحصن الرومانى الذى كان تحت كنيسة المعلقة كان فى عام ١٤٠٠ مستعملا لمرور الناس ولعلنا نرجو أن يوفق الدكتور (فولرز) الى نشر ترجمة لذلك الكتاب العجيب .

هذه إذن أمهات الكتب الشرقية التى استمددنا منها تاريخنا هذا وليس منها واحد يذكر أخبار الفتح واضحة متصلة، بل نرى واجبنا أن نقول إنه ليس منها ما يذكر تلك الأخبار دقيقة، ولا يكاد الانسان يتصوّر مقدار ما فيها من خلط فى التواريخ والحوادث والأشخاص . ولعل القارئ يستطيع من مطالعة الملاحق التى ألحقناها فى آخر الكتاب أن يتبين شيئا من مقدار ما هنالك من خلط فى التاريخ ومقدار ما عانيناه من المشقة فى ابتداع طريقة لضبط تواريخ الفتح الفارسى والفتح العربى . فالظاهر أن مؤرّخى العرب لا يعرفون شيئا عن تيودور القائد الأعلى لجيوش الروم فهم يخلطونه ببعض أصاغر القوّاد وهم كذلك يخلطون بين قيرس و بنيامين و بين فتح قطر مصر وفتح مدينة مصر وفتح الاسكندرية . وأما معاهدة بابليون فهم يخلطونها بمعاهدة الاسكندرية[1] وكذلك لا يميزون بين فتح الاسكندرية الأوّل الذى كان صلحا و بين فتحها الثانى الذى كان عنوة فى مدّة ثورة منويل . والحق أننا لا ندعى أننا قد جلونا هذه الظلمات فانا لم نعمل سوى أن حاولنا تبيين أكبر مواطن الخلط والوصول الى الحقائق التى غطى عليها تناقض الأخبار وقد حاولنا كذلك

(١) قد عاد المؤلف عن هذا الرأى فى رسالته التى ذكرناها فى الملحق السابع وهى " معاهدة مصر فى الطبرى " (المعرّب) .

أن نكتب بغير تحيز الى جانب القبط أو العرب فبدأنا درس هذا التاريخ وكان الاعتقاد السائد أن القبط قد ساعدوا العرب ورحبوا بهم غير أننا اضطررنا الى أن نعتقد أن التاريخ قد ظلم القبط فى ذلك ظلما فاحشا . وكذلك بدأنا درسنا على الاعتقاد الشائع أن العرب أحرقوا مكتبة الاسكندرية غير أنا اضطررنا الى أن نرى أن التاريخ قد ظلم العرب فى ذلك ظلما فاحشا كذلك . وقد رحبنا بالرأيين الجديدين معا إذ كنا ممن يحملون لكلا الشعبين العربى والقبطى أكبر الإعجاب على أننا لا يحملنا ذلك على الانحياز لأحدهم فما كان لنا إلا قصد واحد وهو أن نصل الى الحق . غير أننا نرجو أن يهتم العرب والقبط جميعا بسعينا هذا الذى سعينا اليه فى تمييز الحق وتصفيته من الباطل وفى جلاء عصر شديد الظلمة من عصور تاريخ مصر .

وكنا فى كتابة الألفاظ العربية نسير على النظام المتبع فى نشرة مطبعة (كلارندون) لكتاب أبى صالح وهو النظام الذى أقره كثير من العلماء الانجليز باستعمالهم إياه . على أننا لم نجد من الضرورى أن ننقل وفق هذا النظام ما دخل الى اللغة الانجليزية من الألفاظ العربية وصقله الاستعمال مثل محمد (Mohammed) وعمر (Omar) ومكة (Mecca) والقاهرة (Cairo) ، وكنا نحذف أداة التعريف كما فعل من قبلنا المستر (Le Strange) فى بحثه "بغداد" ولقد كان من العسير فى بعض الأوقات أن نختار صورة للفظ من صور له متعددة بين يونانية وقبطية وعربية ، فمثلا آثرنا استعمال لفظ (Nikiou) وهو يونانى قبطى إذ كان هو المستعمل عند الفتح وفضلناه على لفظ نقيوس وهو الصورة العربية لاسم تلك المدينة إذ أن تلك الصورة تكاد تكون ميتة اليوم ولكنا عند ذكر الفيوم رأينا من اللازم استعمال ذلك اللفظ المألوف وفضلناه على الصورة القبطية لذلك الاسم وهى (بيوم) أو الصورة اليونانية الرومانية (إقليم أرسنويه) وهذا الاختلاف كان فى أكثر الأحوال مقصودا على ذلك ولو كان خطأ ويجب ألا يضاف الى بيان الأخطاء الغير المقصودة أو وجوه النقص فى الكتاب .

ولا بدّ لنا أن نشكر الدكتور المبجل (ر . هـ . شارلز) إذ أعارنا ترجمته لكتاب حنا النقيوسى ، والمستر (ف . ك . كونيبير) إذ أعارنا ترجمة انجليزية لكتاب سبيوس ، وللمستر (ب . ت . اڤنس) أن أعاننا بترجمة نبذ كثيرة من الكتب العربية ، والمستر (و . ا . كروم) ، والمستر (ا . و . بروكس) ، والأستاذ (فولرز) ، الأستاذ فى (يينا) لما قدّموه لنا من الاقتراحات ووجوه النقد . ولا بدّ لنا أن نذكر مع الشكر والعرفان من ساعدونا أثناء زيارتنا القريبة لمصر ، ونخص منهم فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية إذ قد قدّم لنا بعض قطع اختارها أو كتبها خاصة بالفتح ، ومرقص بك سميكة إذ ساعدنا بأن راجع معنا نسخة من تاريخ ساويرس ، كما قدّم لنا كثيرا من الأيادى فى وجوه مختلفة لم يدّخر فيها وسعا ، وجناب ماكس هارتز بك إذ قدّم لنا كثيرا من البيانات عن الحصن الرومانى حصن بابليون ، وغن سوى هذا من أمور خاصة بالفن والآثار ، والكبتن ليونز (R. E.) بنظارة الأشغال العامة ، والمنسنيور (پ . كازانوڤا) مدير المعهد الفرنسى ، والمستر (ا . ا . فلوير) رئيس مصلحة التلغرافات إذ قدّموا لنا كثيرا من المساعدات فيما يخص أسماء المواضع وخطط البلاد عموما . وفوق كل ذلك أبادر بأحر الاعتراف بفضل صديقى المبجل المفضل (العميد بوتشر) بالقاهرة إذ أتاح لى فرصة زيارة القاهرة مرة ثانية من أجل هذا الكتاب وقد كان لا يفتر عن أن يغمرنى بعطفه وتشجيعه وهو يتابع خطواتى فى هذا العمل ويضىء لى السبيل فيه ؟

أكسفورد ، فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٠٢ — ألفرد ج . بتلر

الحوادث التاريخية

الثورة على هرقل فى بنطابولس	ســنة ٦٠٩م
النضال من أجل مصر	سنة ٦٠٩ — سنة ٦١٠
تولية هرقل أمبراطورا	٥ أكتوبر ســنة ٦١٠
اغارة الفرس على الشام	« ٦١٤
حصار الفرس لمدينة دمشق	نهاية مايو « ٦١٥
زيارة أثناسيوس لمدينة الأسكندرية	أكتوبر « ٦١٥
مسير الفرس لمصر	خريف « ٦١٦
فتح الفرس لبابليون أو تسليمها لهم	ربيع « ٦١٧
« « لمدينة الأسكندرية	نهاية « ٦١٨
اخضاع مصر نهائيا	« ٦١٨
بدء حرب هرقل الكبرى مع الفرس	ربيع « ٦٢٢
هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم)	١٦ يوليو « ٦٢٢
جلاء الفرس عن مصر	« ٦٢٧
كتاب الرسول الى الحكام	٦٢٧ — ٦٢٨
هزيمة كسرى النهائية وموته	فبراير ســنة ٦٢٨
الاحتفال باعلاء الصليب فى دمشق	١٤ سبتمبر « ٦٢٩
بعث قيرس بطريقا للأسكندرية	« ٦٣١
الاضطهاد الأعظم للقبط	٦٣١ — ٦٤١
وفاة الرسول	ســنة ٦٣٢
فتح فلسطين والشام على يد العرب	٦٢٩ — ٦٤٠
وداع هرقل للشام	ســنة ٦٣٦

تسليم بيت المقدس لعمر بن الخطاب		سـنة ٦٣٧
غزو مصر ووصول عمرو الى العريش	١٢ ديسمبر	« ٦٣٩
الاستيلاء على پلوز (الفرما)	ينـاير	« ٦٤٠
غارة عمرو الى الفيوم...	مايو	« ٦٤٠
وصول الأمداد بقيادة الزبير	٦ يونيو	« ٦٤٠
موقعـة هيليو بوليس وفتح مصر	يوليو	« ٦٤٠
بدء حصار حصن بابليون...	سبتمبر	« ٦٤٠
معاهدة بابليون الأولى مع قيرس ورفض هرقل ...	أكتوبر	« ٦٤٠
استدعاء قيرس	نهـاية	« ٦٤٠
موت هرقل	١١ فـبراير	« ٦٤١
تسليم بابليون والمعاهدة الثانية	٩ أبريل	« ٦٤١
الاستيلاء على نيقيوس	١٣ مايو	« ٦٤١
الهجوم على الأسكندرية	نهاية يونيو	« ٦٤١
عـودة قيرس الى مصر	١٤ سبتمبر	« ٦٤١
تسليم الأسكندرية	٨ نوفـبر	« ٦٤١
إعادة حفر ترعة تراجان	شتاء ٦٤١ — ٦٤٢	
بنـاء الفسطاط		
موت قيرس	٢١ مارس	سـنة ٦٤٢
تعيين من يخلف قيرس	١٤ يوليو	« ٦٤٢
جلاء الروم عن الأسكندرية	١٧ سبتمبر	« ٦٤٢
بعث عمرو الى پنطاپولس...	شتاء ٦٤٢ — ٦٤٣	
عودة بنيامين...	خريف	سـنة ٦٤٤
ثورة الأسكندرية بقيادة منويل	نهـاية	« ٦٤٥

موقعة نيقيوس الثانية	آخر فصل الربيع	سنة	٦٤٦
إعادة فتح العرب لمدينة الأسكندرية	صيف	«	٦٤٦
استدعاء عمرو من مصر	خريف	«	٦٤٦
تولية عمرو حاكما لمصر	أغسطس	«	٦٥٨
موت بنيامين	٣ ينـاير	«	٦٦٢
« عمـرو	٦ ينـاير	«	٦٦٤

البطارقة الملكانيون

البطـريق	تاريخ التوليـة	تاريخ الوفاة
تيودور	—	٦٠٩
حنا الرحوم...	٦٠٩	٦١٦ أو ٦١٧
جورج	٦٢١	٦٣٠ أو ٦٣١
قـيرس	٦٣١	٢١ مارس ٦٤٢
بطـرس	١٤ يوليو ٦٤٢	غير معلوم

بطـارقة القبـط

انستاسيوس	يونيـه ٦٠٤	١٨ ديسمبر ٦١٦
اندرونيكوس	ديسـمبر ٦١٦	٣ ينـاير ٦٢٣
بنيامين	ينـاير ٦٢٣	٣ ينـاير ٦٦٢
أجاثو	ينـاير ٦٦٢	١٣ أكتوبر ٦٨٠
حنا السمنودى	أكتوبر ٦٨٠	٢٧ نوفـبر ٦٨٩
إسحـاق	٤ ديسمبر ٦٩٠	٥ نوفـبر ٦٩٣
سيمون	ينـاير ٦٩٤	١٨ يوليـو ٧٠١

أهـــم المصـــادر العربيـــة

ابن الأثير — الكامل، المطبوع بليدن سنة ١٨٦٨–١٨٧٤، لناشره C. J. Tornberg

ابن حجر — الاصابة فى معرفة أسماء الصحابة (أربعة أجزاء)، المطبوع سنة ١٨٥٦، لناشريه A. Spranger وآخرين.

ابن حوقل البغـدادى — المسالك والممـالك (ضمن المكتبة الجغرافية العربية)، المطبوع سنة ١٨٧٠ – ١٨٧٩، لناشره De Goeje, M. J.

ابن خلدون — العبر وديوان المبتـدا والخبر (سبعة أجزاء)، المطبوع ببولاق سنة ١٢٨٣.

ابن خلكان — وفيات الأعيان (أربعة أجزاء)، المطبوع بباريس سنة ١٨٤٢، لنـاشره De Slane

ابن دقماق — الانتصار لواسـطة عقد الامصار، المطبوع ببولاق سـنة ١٨٩٣، لناشره Dr. K. Vollers

ابن رسته (أحمد بن عمر) — الاعلاق النفيسة (ضمن المكتبة الجغرافية العربية)، المطبوع سنة ١٨٧٠–١٨٧٩، لناشره De Goeje, M. J.

ابن عبد الحكم — نسخة خطية بباريس M. S.

ابن الفقيه (أحمد بن محمد الهمذانى) — البلدان (ضمن المكتبة الجغرافية العربية)، المطبوع سنة ١٨٧٠–١٨٧٩، لناشره De Goeje, M. J.

ابن قتيبة — المعارف، المطبوع سنة ١٨٥٠، لناشره Wüstenfeld

ابن واضح اليعقوبى — تاريخ اليعقوبى (جزءان)، المطبوع سنة ١٨٨٣، لناشره M. T. Houtsma و (المكتبة الجغرافية العربية) De Goeje, M. J.

أبو صـالح — تاريخ أبى صالح الأرمنى، المطبـوع بأكسفورد سـنة ١٨٩٥، لنـاشريه Evetts and Bulter

أبو الفدا — جغرافية أبى الفدا، ثلاثة مجلدات المطبوع بباريس { الأصل سنة ١٨٤٠، الترجمة سنة ١٨٤٨، ١٨٨٣ }، لنـاشره J. T. Renaud

أبو الفرج بن العـبرى — مختصر تاريخ الدول، المطبوع سـنة ١٦٦٣، فى Oxon لناشره Pococke,

تاريخ الكنائس (ثلاثة أجزاء)، المطبـوع بلوفان سنة ١٨٧٢، لنـاشريه Abbeloos et Lamy

أبو المحاسن — النجوم الزاهرة (جزءان) ، المطبوع سنة ١٨٥٥ — ١٨٦١ ، لناشره Juynboll et Matthes

الادريسي — نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، جغرافيـة بلاد النوبة ، المطبوع بباريس سنة ١٦٠٩

الاصطخرى (ابراهيم بن محمد) — مسالك الممالك (ضمن المكتبة الجغرافية العربية) ، المطبوع سنة ١٨٧٠ — ١٨٧٩ ، لناشره De Goeje, M. J.

البـلاذرى — فتوح البلدان ، المطبوع سنة ١٨٦٦ ، لناشره De Goeje, M. J.

ساويرس الأشمونينى — سير البطاركة بالمدينة العظمى الاسكندرية .

سعيد بن بطريق — (أوتيكيوس) نظم الجوهر ، طبع فى باريس .

السـيوطى — حسن المحاضرة ، المطبوع بمصر سنة ١٢٩٩ هـ .

تاريخ الخلفاء ، المطبوع بكلكتا سنة ١٨٨١ ، ترجمة H. S. Jarrett

الطـبرى — تاريخ الأمم والملوك (أربعة أجزاء) (١) المطبوع بباريس سنة ١٨٧١ ، لناشره Zotenberg (٢) فى (Lugd. Bat) سنة ١٨٧٩ — ١٨٩٠ ، لناشره De Goeje

عبد اللطيف (البغدادى) — أخبار مصر . الإفادة والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المطبوع بأكسفورد سنة ١٨٠٠ ، لناشره White

القـزوينى — آثار البلاد وأخبار العباد ، المطبوع سـنة ١٨٤٨ — ١٨٤٩ ، لناشره Wüstenfeld

المـاوردى — الأحكام السلطانية ، المطبوع سنة ١٨٥٣ ، لنـاشره M. Enger

المـرتضى — تاريخ المصريين المطبوع بلندن سنة ١٦٧٢ ، ترجمة J. Davies

المسعودى — مروج الذهب ، المطبوع بباريس سنة ١٨٦٣ ، لناشره Barbier de Maynard

المقـريزى — الخطط (جزءان) ، المطبوع ببولاق سنة ١٢٧٠ هـ .

المكين — تاريخ العرب ، المطبوع سنة ١٦٢٥ ، (Lugd Bat) لناشره T. Erpenius

ناصرى خسرو — سفرنامه ، المطبوع بباريس سنة ١٨٨١ ، لناشرها C. Schefer

النـووى — تهذيب الأسماء ، المطبوع بجوتنجن سـنة ١٨٧٢ — ١٨٧٧ ، لناشرها Wüstenfeld

الواقـدى — فتوح مصر المطبوع بليدى سنة ١٩٢٥ ، ناشره Hamakar

ياقـوت — معجم البلدان (ستة أجزاء) ، المطبوع بليبزج سنة ١٨٦٦ — ١٨٧٣ ، لناشرها Wüstenfeld

أهم المصادر الافرنجية

Amélineau, E.: Vie d'un Évêque de Keft. Paris. 1887.

— Fragments Coptes, & c., in Journal Asiatique, 1888.

— Histoire du Patriarche Copte Isaac. Paris. 1890. 8 vo.

— Vie de Shenoudi in Mém. Miss. Arch. Franç. t. IV. i. p. 340.

— Vie de Samuel: id., t. IV. ii. p. 774.

— Géographie de l'Egypte à Epoque Copte. Paris, 1893. & c. 8 vo.

— Histoire des Monastéres de la Basse Egypte. Paris, 1894.

Ammianus Marcellinus.

Botti, G.: L'Acropole d'Alexandrie et le Sérapeum. Alexandrie, 1895. 8 vo.

— Fouilles à la Colonne Théodosienne. Alexandrie, 1897. 8 vo.

Brosset: Collection d'Historiens Arméniens. St. Pétersbourg, 1874. 2 tom. 8 vo.

Bury, Prof. J. B.: Gibbon's Decline and Fall. London, 1896, 7 vols. 8 vo.

— History of the Later Roman Empire. London, 1889. 2 vols. 8 vo.

Butcher, E. L.: Story of the Church of Egypt. London, 1897. 2 vols. 8 vo.

Butler A. J.: Ancient Coptic Churches of Egypt. Oxford. 1884. 2 vols. 8 vo.

Cedrenus.

Champollion: L'Égypte sous les Pharaons. Paris, 1814. 2 vols. 8 vo.

Chronicon, Orientale.

Chronicon Paschale, ap. Migne, Patr. Gr. t. 92.

Crum, W. E.: Coptic Ostraka. London, 1902. 8 vo.

D'Anville: Mémoires sur l'Égypte. Paris, 1766. 4 to.

De Bock, W.: Matériaux pour servir à l'Archéologie de l'Égypte Chrétienne. St. Pétersbourg, 1901. Fol., with plates.

DE GOEJE, M. J.: *v.* BALÂDHURÎ AND ṬABARÎ.
— Mémoire sur les Carmathes du Bahrain. Leyde, 1862.
— Conquête de la Syrie. Leyde, 1864.
— Bibliotheca Geographica Arabicorum. Lugd. Bat. 1870-79. 8 vo.
DIEHL, C.: L'Afrique Byzantine. Paris, 1896. 8 vo.
— Justinien et la Civilisation Byzantine au VIe Siècle. Paris, 1901. 8 vo.
DRAPEYRON, L.: L'Empereur Héraclius. Paris, 1869. 8 vo.
DULAURIER: Chronologie Arménienne. Paris, 1859.
EGYPT: Exploration Fund Reports.
EPIPHANIUS: De Ponderibus et Mensuris.
EUNAPIUS: Vita Aedesii.
EUSEBIUS: Historia Ecclesiastica Ed. Heinechen. Leipzig, 1828. 3 vols. 8 vo.
EUTYCHIUS, Patriarcha Alexandrinus: Annales: ap. Migne, Patr. Gr.
EVETTS AND BUTLER: *v.* ABÛ ṢÂLIḤ.
GAYET, A.: Le Costume en Égypte. Paris, 1900.
— L'Art Copte. Paris, 1902. 8 vo.
GELZER, H.: Leontios von Neapolis Leben des Heiligen Johannes. Leipzig, 1893. 8 vo.
GEORGE OF PISIDIA: ap. Migne.
GREGOROVIUS, F.: The Emperor. Hadrian: tr. M. E. Robinson. London 1898. 8 vo.
HAMAKER: Expugnatio Memphidis: *v.* WAKIDÎ.
HOLM, A.: History of Greece: tr. F. Clarke. London, 1898. 4 vols. 8 vo.
HYVERNAT, H.: Actes des Martyrs de l'Égypte. Paris, 1886. Fol.
JARRETT, H. S.: History of the Caliphs: *See* SUYÛṬÎ.
KARABACEK, J.: Mittheilungen aus der Sammlung der Papyrus. Erzherzog Rainer. Wien, 1887. & c. Fol.
— Papyrus Erzherzog Rainer: Führer durch die Ausstellung. Wien, 1894. 4 to.

KOELLE, S. W.: Mohammed and Mohammedanism. London, 1889. 8 vo.

KYRILOLOS II, *Mgr.*: Le Temple du Césareum, in Bulletin de la Société Khédiviale de Géographie, V[e] Série, No. 6, Fév. 1900 (Le Caire).

LANE-POOLE, *Prof.* S.: Art of the Saracens in Egypt. London, 1886. 8 vo.

— Egypt in the Middle Ages. London, 1901. 8 vo.

— The Story of Cairo in Mediaeval Towns' Series. London 1902.

LE BEAU, C.: Histoire du Bas Empire. Ed. de Saint-Martin. Paris, 1824-38. 21 vols. 8 vo.

LE STRANGE, G.: Palestine under the Moslems. London, 1890. 8 vo.

LETHABY AND SWAINSON: St. Sophia, Constantinople. London, 1894. 8 vo.

MAHAFFY, *Prof.* J. P.: Empire of the Ptolemies. London, 1895.

MALAN, S. C.: Original Documents of the Coptic Church. London. 1874. 8 vo.

MATTER, M.: Histoire de l'École d'Alexandrie. Paris, 1840. .2 vols. 8 vo.

MICHEL LE GRAND: Chronique. Ed. V. Langlois. Paris, 1866. 4 to.

MICHELLE SYRIEN: Chronique. Ed. J. B.-Chabot. Paris, 1899, & c. 4 to.

MICHELLE, R. L.: Egyptian Calendar. London, 1900. 8 vo.

MILNE, J. G.: Egypt, under Roman, Rule. London, 1898. 8 vo.

MOSCHUS, JOHN: Pratum Spirituale. Ap. Migne, Patr. Gr.

MURTADI: Egyptian History. Tr. J. Davies. London, 1672. 12 mo.

NEROUTSON BEY: L'Ancienne Alexandrie. Paris, 1888. 8 vo.

NICEPHORUS.

NICEPHORUS CALLISTUS.

NIEBUHR, C.: Voyage en Arabie. Amsterdam, 1776. 4 vols. 4 to.

NIKIOU, JEAN DE: Chronique. Ed. Zotenberg in t. XXIV of 'Notices. et Extraits des Mss. de la Bibl. Nat., & c. Paris, 1883. 4 to.

— Also English translation lent by Dr. Charles.

NOURISSON, V.: La Bibliothèque des Ptolémés. Alexandrie, 1893. 4 to.

OOKLEY S.: History of the Saracens. Ed. Bohn. London, 1847. 8 vo.

OROSIUS: Historiae.

PALESTINE PILGRIMS TEXT SOCIETY'S PUBLICATIONS.

PAPYRI: Corpus Papyrorum Raineri. Ed. J. Krall. (Coptische Texte).
Fayûm Towns and their Papyri. Ed. Grenfell and Hunt.
The Amherst Papyri. Ed. P. E. Newberry.
Oxyrhynchus Papyri. Ed. Grenfell and Hunt.

PEREIRA, F. M. E.: Vida do Abba Samuel do Mosteiro do Kalamon. Lisboa, 1894. 8 vo.

— Vida do Abba Daniel do Mosteiro de Sceté. Lisboa. 1897. 8 vo.

— Historia dos Martyres de Nagran. Lisboa, 1899. 8 vo.

QUATREMÈRE, E.: Recherches sur la langue et la littérature de l'Égypte. Paris, 1808. 8 vo.

— Mémoires Géographiques et Historiques sur l'Égypte. Paris, 1811. 2 tom. 8 vo.

RENAUDOT: Historia Patriarcharum Alexandrinorum. Paris, 1713. 4 to.

RUFINUS: Vitae Patrum.

— Historia Ecclesiastica.

SEBEOS: Translation lent by Mr. Conybeare.

SEVERUS OF USHMÛNAIN: Brit. Mus. Ms. Or. 26, 100; Paris, Ms., and M. Simaikah. Bey's Cairo Ms.

SHARPE, S.: Egypt under the Romans. London, 1842. 8 vo.

— History of Egypt. Ed. Bohn. London, 1885. 2 vols.

SIMAIKAH, A.: La Province Romaine de l'Egypte. Paris, 1892. 8 vo.

SOCRATES: Historia Ecclesiastica.

SOPHRONIUS: Opera, ap. Migne, Patr. Gr.

SOZOMEN: Historia Ecclesiastica.

STRZYGOWSKI, J.: Orient oder Rom. Leipzig, 1901. 8 vo.

SUSEMIHL, F.: Geschichte der Griechischen Litteratur in der Alexandrinerzeit. Leipzig, 1891–2. 2 vols. 8 vo.

TARIKH REGUM PERSIAE. Ed. W. Schikard. Tübingen, 1628. 4 to.

THEODORET : Historia Ecclesiastica.

THEOPHANES.

USENER, H. : De Stephano Alexandrino. Bonn. 1880. 8 vo.

— Acta Martyris Anastasii. Bonn, 1894, 4 to.

VANSLEB : Histoire de l'Eglise d'Alexandrie. Paris, 1677. 12 mo.

— Nouvelle Relation d'un Voyage fait en Egypte. Paris, 1698. 12 mo.

VON GUTSCHMID, A. : Kleine Schriften, Leipzig, 1889-94. 8 vo.

VON RANKE : Weltgeschichte. Leipzig, 1884. Several vols. 8 vo.

WEIL : Geschichte der Chalifen. Mannheim, 1846. 3 vols. 8 vo.

WRIGHT, T. : Christianity in Arabia London, 1895. 8 vo.

ZACHARIAH OF MITYLENE : Chronicle tr. Hamilton and Brooks. London, 1889. 8 vo.

ZOEGA, G. : Catalogus Codd Copticorum Mss. Romae, 1810. Fol.

الفصل الأول

خـــروج هرقـــل

ملخص لحكم أباطرة الروم من حكم (جستنيان) الى حكم (موريق) — الدولة الرومانية مدة حكم (فوكاس) — حال مصر — خروج (البنطابوليس) بقيادة هرقل — خطة الحرب — القصة المشهورة لتلك الحوادث برواية (جبون) وتفنيدها — كتاب (حنا النقيوسى) أسقف (نقيوس) من قرى مصر

استهل القرن السابع والدولة الرومانيـة تلوح كأنها تنحدر من حال الاضمحلال الى حال الذهاب والفناء وقد كانت تلك الدولة قبل ذلك بستين عاما قد أبلغها سلطان جستنيان الى بلاد القوقاز و بلاد العرب شرقا والى أعمـدة هرقل[1] غربا وقد كان لذلك العاهل شخصية قوية ملكت على النـاس عقولهم حتى لكان يخيـل اليهم — كما قال القائل — "أن العالم كله أضيق من أن يسعه[2]".

وقد كان مجده وأبهة ملكه مساويين لقوّته وسلطانه . وكان حزمه عدلا لمجده — حينا من الدهر على الأقل — وكان فوزه فى ميادين العلوم والفنون فوزا باهرا حتى أنه ليبز انتصاره فى ميادين الحروب . فإن عمليه الجليلين اللذين يقترنان باسمه لا يزال باقيا منهما قانونه ومجموعة أحكامه يسايران الأيام مشهودا لهما أنهما عمـدتان فى فقه القانون . فى حين أن كنيسة (أيا صوفيا) لا تزال على مر الأيام ماثلة يشهد لها الدهر أنها أبدع أثر وأجل مثل فى طراز البناء البيزنطى .

على أن خطر الاضمحلال كان ماثلا حتى فى أيام (جستنيان) فقد توالت النوازل على الدولة حتى خشى عليها . فمن فساد خلق الى آخر سياسى . وزادت

(١) أعمدة هرقل يقصد بها مضيق البحر الأبيض المعروف الآن بمضيق جبل طارق (المعرّب) .
(٢) عن الأستاذ (Bury) نقله من كتاب (Procopius) فى كتاب (History of the Later Roman Empire) (الجزء الأوّل صفحة ٤٧٠ — ١) .

عليها نكبات طبيعية فاجتاح الوباء بلاد الشرق كلها بادئا من مدينة (الفرما) ثم ما زال يعصف ببلاد مصر جائسا خلالها الى أن بلغ بلاد (اوبيا) . وأنشب مخالبه فى فلسطين وما يليها من بلاد فارس الى القسطنطينية . وأعقب الوباء الزلزال فدمر من المدن ما قد يعدل ما أصاب أهل الدولة من "الموت الأسود" فكانت آخر أيام ذلك العاهل القانونى تغشاها سحابة دكناء من الهم وتوقع البلاء . وما كادت أيام حكم خلفه (جستن) تقترب من نهايتها حتى كانت حكومة الدولة تتصدع . وقد كانت أيام ذلك الحكم قصيرة ولا روح فيها وانتهى العاهل منها بالجنون . فلما جاء بعده (تيبريوس) سنة ٥٧٨ أمل الناس أن يكون أسعد طالعا من سلفه . وقد كان يرجى منه على الأقل أن يسعى ليوقف تيار الاضمحلال ولكن الأجل لم يمهله حتى يظهر قدره فخلف لمن جاء بعده وهو (موريق) خزائن خاوية وشعبا متذمرا ودولة غير متماسكة .

وما كان لمثل ذلك الكرب أن ينفرج إلا على يدى رجل له أعظم عقل ولا يخطئ له رأى . ولم يكن (موريق) بذلك الرجل مع أنه كان يقصد خيرا . فقد أفسد عليه خططه وخيب سياسته عيب طالما أفسد أحسن الخطط والآراء عند تنفيذها ألا وهو قلة الاعتداد بتغير الظروف والأحوال سفها وجهلا . فأدخل على جيشه بدعا يريد بها إصلاح شأنه وكان ذا دراية بفنون الحرب وخططه — وما أحسن ما كتبه فى ذلك الشأن — غير أن ذلك لم يحفظ كتائبه من الهزيمة . ثم إنه عمد الى الاقتصاد وأخذ نفسه بذلك أخذا شديدا لكى يصلح من حال الدولة المالية فخاب سعيه فيما قصد اليه ولم يفد إلا أن أمل شعبه وأبعده عنه كرها فثار به ورمى بالتاج مزدريا الى جندى جاهل مشوه الخلقة وهو (فوكاس) .

وكانت الدولة عند ذلك كأنها سائرة الى الدمار لا ينجيها منه شيء فكان حكم (فوكاس) حكما ظالما قائما على جيش فاسد تدعمه عصبة فاسدة من الأشراف ، حكما تتناقص هيبته وقوته كلما بعدت عن قصبته ميلا فميلا . وسلط على أنحاء الدولة

سوط عذاب من الحكم السيئ حتى لأصبحت وأقل بلادها عذابا تلك الأقاليم التى تستعر فيها الحرب مع الفرس أو مع همج الشمال .

وفى الحق لم يكن فى بلاد الدولة الرومانيـة ما هو أشق حالا من مصر . فقد سعى (جستنيان) جهده ليجبر القبط الذين ليسوا على مذهب الدولة (الأرثوذكسى) فيدخلهـم فى ذلك المذهب . ولكن امرأته "تيودورا" عملت من جانب آخر فأفسدت بعض سعيه إذ كانت تعطف على مذهب هؤلاء الأقباط عطفا ظاهرا[١] . على أن ذلك العطف ما عتم أن قضى عليه الامبراطور "جستن" وعفى أثره . ومن ثم عاد الكفاح الشـديد الذى ثار قديما بين طائفتى (الملكانيين) و(المونوفيسيين)[٢] وصار أشد سعيرا . ولم يكن عند قبط مصر هم أكبر منه يملأ قلوبهم ويملك عليهم آمالهم . فلم يكن عجبا على ذلك أن يسمع صليل السلاح بين حين وحين فى مدينـة الاسكندرية نفسها[٣] . وأن تمتلئ أرض الصعيد بعصابات اللصوص وقطاع الطرق ويغزو أكنافها البدو وأهل النوبة، بل لم يكن عجبا أن تضطرب الأحوال فى مصر السفلى فتصبح ميـدانا للشغب تثور بهـا فتن بين الطوائف توشك أن تكون حربا أهليـة[٤] . ولم يكن عجبا أن يكون هـذا فى بلاد أصبح الحكام فيها لا هم لهم إلا أن يجمعوا المـال لخزائن الملك البيزنطى وحاشيته وأن تكون لمذهبهم الدينى اليـد العليا بين أهل البلاد . فصار الحكم على أيديهم أداة لا تؤدى إلا الى الظلم ونشر الشقاء . فالحق هو أن بلاد مصر إذذاك كانت جميعها تضطرم بنـار الثورة ورغبة الخروج لا يغطيها إلا غطاء شفيف من الرماد .

(١) أنظر كتاب الأستاذ "Bury" "History of the Later Roman Empire" (الجزء الثانى صفحة ٨٠٩) وفيه يقتبس الأستاذ من ترجمة "R. Payne Smith" لكتاب «حنا الايفيسوسى» عن السريانية قصة عجيبة عن تحويل (النوباديين) عن دينهـم وهم قوم كانوا يعيشون فى الأرض الواقعة الى شرق نهر النيل فى صعيد مصر .

(٢) اليعاقبه وهم عامة أهل مصر .

(٣) أنظر كتاب (حنا مسكوس) "Pratum Spirituale" والملحق الذى كتبه به (Migne) وكتاب (Patr. Gr.) الباب ١٤٣

(٤) عن كتاب (حنا النقيوسى) ترجمة زوتنبرج (صفحة ٢٥٩ وما بعدها) .

بدأ حكم (فوكاس) فى نوفمبر سـنة ٦٠٢ وفى ذلك اليوم لبس التاج فى حفل عظيم حسب الرسوم المعروفة ، ألبسه إياه البطريق (قرياقوس) فى كنيسة القدّيس حنا بالقسطنطينية . ودخل المدينـة من الباب الذهبى فسار فيها بين صفوف من العمد الجليلة وفى الطرق الكبرى تحيط بموكبه الناس يهللون له فى سرور كبير . غير أنه ما أتت سـنة ٦٠٩ حتى كانت بلاد الدولة كلها هائجة تتهيأ للثورة . ثم بدأت الثورة فى "پنطاپوليس" والرواية المشهورة لتلك الحوادث هى أن (كريسپوس) صهر (فوكاس) — زوج ابنته — استوجب أن غضب عليه الملك غضبا هائلا وذلك بأن وضع تمثاله وتمثال عروسـه فى ميدان السباق . فلما أن فسد بذلك ما بينه وبين الملك شرع كريسپوس يدبر لحميه ثورة ودعا هرقل حاكم إفريقيـة لينفذ ما دبره . أما الحقيقـة فهى أن هرقل كان يدبر أمر ثورة لم يكن فيها صادرا عن أمر (كريسپوس) . وقد ذكر تلك الحقيقة (قيدرينوس) ذكرا صريحا لا شك فيـه . ولم يكن (كريسپوس) صهر الإمبراطور بالرجل الذى يقدر أن ينهض بادئا بأمر . فلما أن سمع بمـا ثار من الاضطراب فى (پنطاپوليس) قويت نفسه فأنفذ سرا الى الثائرين كتبا يحثهم فيها على ما هم فيه ويعدهم المساعدة اذا ما استطاع (هرقل) أن يسـير الى القسطنطينية . وقد كان (هرقل) قد تقدّم فى السن فلم يكن قادرا على مثل هذه المجازفة[1] فما كانت سنه بأقل من خمسة وستين عاما . إلا أنه رأى دونه ابنه وسميّه (هرقل) وكان عند ذلك فى مقتبل العمر، ورأى صديقه (نيقتاس) وكان نائبه ووكيله الأكبر، فما أسرع أن وجد فيهما الأداة الصالحة لإنفاذ خطته .

وقد أساء كثير من الناس فهم خطة الحرب فذكر (جبون) — وهو حجة فيما يقول — رواية تافهة خلع عليها قوّة بذكره إياها وهى أن هرقل ونيقتاس اتفقا على أن يسير أحدهما بحرا والآخر برا قاصدين الى العاصمة، فمن سبق اليها كان جزاؤه أن

(١) كان (هرقل) قائد الجيوش الرومانية فى حرب (موريق) مع الفرس .

يفوز بالتاج[1] . ولا ننس أنهما ابتدآ من (قيرين)[2] فاذا هما قد ابتدآ ومع كل منهما قوة من الجيش مساوية لما مع الآخر لم تكن قسمة عادلة وكان سباقهما سباقا لم يكن قبله أكثر منه ظلما وحيفا . فان هرقل لم يكن عليه إلا أن يجوز البحر الأبيض ثم يساحل بلاد اليونان ومقدونيا ثم يقذف بعد ذلك بجيشه على العاصمة، في حين أن (نيقتاس) كان عليه — على ما جاء في تلك الرواية — أن يسير الى مصر فينزعها من يد (فوكاس)، ومن ثم كان عليه أن يسير سيرا طويلا منهكا الى فلسطين وسوريا وقليقيا وآسيا الصغرى . فهب أنه في مثل تلك الحال فاز فوزا مبينا في عدة مواقع باهرة، وهب أن كل مقاومة له خبت نيرانها وانطفأ لهيبها، هب كل ذلك تجد أنه ما كان مع ذلك ليستطيع أن يتابع سيره في السباق لنيل الجائزة لفوات الوقت عنه إذا لم يكن لشيء سواه . ولهذا نرى أن الأمر لم يكن كما جاء في تلك الرواية وإننا لو صدّقنا وجود فكرة مسابقة بين متنافسين يكون التاج فيها لمن سبق — وهذا ما نستبعده ونشك فيه كل الشك — نقول لو صدّقنا ذلك لكان خط السير أبسط مما تزعم الرواية وأقرب إلى أن يكون السباق معه عادلا على سواء . إنه لا شك في أن إقليم (بنطابوليس) لم يكن فيه مايكفي لما يقوم بحاجة جيش عظيم فما بالنا بما يكفي جيشين . ولم يكن على قائد كل فرقة من الفرقتين أن يكتفي بالذهاب الى (بيزنطة) بل كان لزاما عليه أن يرفع علم الثورة حيث يسير وأن يجمع المؤن والأمداد . ثم يجتمع كل منهما بأخيه حتى يضربا العاصمة ضربة تتصدع لها . فاستقر الرأي على إنفاذ هذه الخطة بأن يذهب (هرقل) بحرا وأن يسير (نيقتاس) في البر — لا شك في هذا — ولكن الذي جهله (جبون) ومؤرّخو اليونان ولم يقدروا على الفطنة اليه هو أن الغرض الذي رمى اليه (هرقل) هو مدينة (سلانيك) وكان القصد الذي

---

(١) ويأخذ (Diehl) نفسه بهذه الرواية — أنظر كتابه (L'Afrique Bizantine) صفحة ٥٢٠ .

(٢) يقول بعض المؤرّخين إن هرقل ابتدأ من (قرطاجة) . ولكن يمكن أن يفهم من (حنا النقيوسى) أن هرقل الصغير سار من (قيرين) وأن هرقل الكبير سار في جيش الى قرطاجة بعد سفر ابنه بمدّة من الزمن فأخذ المدينة ومن ثم جعل مقامه فيها .

رمى اليه (نيقتاس) هو مدينة (الاسكندرية) وأن نجاح الخطة المشتركة كان متوقفا على انضمام هاتين المدينتين للثوار أو خضوعهما لهم .

إنه لايكاد يكون شك فى أن هرقل كانت له صلات وثيقة بأهل (سلانيك) أو بحزب منهـم . وأن (نيقتاس) كان يتوقع أن يلقى فى مصر ترحيبا وتسهيلا وأنه إن لقى مقاومة فلن تكون إلا مقاومة يسيرة . على أن توقعه لم يصـدق وفشل حسبانه إذ صمد له عدو شديد المراس لم يكن يتوقعه فوقف فى سبيله . وإنى أرى من الواجب على أن أؤكد مرة أخرى — مفندا لقول جبون — أن (نيقتاس) لم يكن له إلا قصـد واحد وهو فتح مصر . وأن مصر كانت من خطة العمل مع (هرقل) بموضع القطب تدور عليـه رحاها وأنها كانت العقبة لا عقبة سواها بينـه و بين القسطنطينية . فاذا هو فتحها ملك بذلك الفتح أرضا يستطيع أن يجند منها الجنود، وتمكن من "مزرعة النيل" تخرج له القمح والخيرات ،ووضع يده على ميناء الاسكندرية وما فيها من السفين . فاذا تم له ذلك كان من أشـد الحمق أن يقتحم بجيشه الشام.وآسيا بدل أن يذهب عامدا نحو الدردنيل فيلتحق بجيوش هرقل .

وعلى ذلك فقد كانت الخطة كما يلى :

كان على هرقل أن يبحر بسفنه إلى (سلانيك)، وأن يعدّ هناك أسطولا قويا وجيشا جرارا . فى حين أن (نيقتاس) كان عليه أن يملك الإسكندرية — وهى المدينة الثانية فى الدولة جمعاء— فإذا هو ملكها قطع عن القسطنطينية ما كان يبعث اليها من قمحها و وضع يده على موضع يستطيع فيه أن يجهز سرية بحرية يرمى بها (فوكاس) . فإذا لم يتهيأ له ذلك أمكنه على الأقـل أن يقطع عن (فوكاس) كل إمداد من ذلك القطـــر (١) .

---

(١) كان المؤرخ الأرمنى (سبيوس) يعيش فى هذا الوقت أو قريبا منه وهو يقدّر عمل هرقل تقديرا عادلا اذ يقول : "ثم ثار القائد هرقل بجيشه وكان فى إقليم الإسكندرية خارجا على (فوكاس) . وجعل نفسه ملكا واستولى على إقليم مصر" وهذه كلمة صغيرة ولكن المؤرخ يجعل فيها النجاح متوقفا على فتح مصر وذلك ما يجب أن يفهمه من يريد أن يدرك الأمر على حقيقته .

وهــذه الحادثة لا يذكرها مشاهير مؤرّخى بيزنطة إلا عرضا فى بضعة أسـطر ولا يكاد أحدهم يدرك مكان مصر وخطورة محلها من هذه الثورة. ولكن قد انبعث نور جديد على تاريخ مصر منذ كشف كتاب حنا النقيوسى — أو بقول أدق— منذ نقلت إلى لغة أوربية ترجمة لنسخة مخطوطة باللغــة الأثيوبية من "ديوان أخبار حنا أسقف نقيوس" . وكانت (نقيوس) إذ ذاك مدينــة عظيمة من مدن مصر السفلى . وكان حنا نفسه يعيش فى النصف الثانى من القرن السابع للميلاد . وكان لا بد قد اتصل بكثير من الشيوخ المعمرين الذين شهدوا الحـوادث التى أدّت إلى سقوط (فوكاس) أو بمن يكون عندهم ذكر منها . فديوان أخباره على ذلك له خطر كبير . ويسـترعى النظر فيه دقة روايته وتحرّيه الحقيقة إلا فى مواضع شوّهت فيها النســخة المخطوطة تشويها . وذلك مع أن هذا الديوان نقل من لغته الأصلية إلى لغة أخرى . حقا إن فيه بعض أغلاط وفيه مواضع لا يتفق ما يذكره فيها مع سائر الحوادث ، ولكن يعوّض ذلك ويكفر عنه أن الكتاب يكشف من الحقائق شيئا كثيرا كان مجهولا . فالحق أن ذلك الديوان يبعث من لدنه نورا جديدا عجيبــا يكسو تاريخ الدولة الرومانية الشرقية وتاريخ بطارقة الاسكندرية وتاريخ مصر عامة فى ذلك العصر الذى قل أن يوجد عصر مثله فى خطره ومكانه . على أنه عصر قد أهمل أمره إهمالا لا تبرره قلة ما ورد عنه ونقص ما تخلف من آثاره . وفوق كل هــذا فديوان حنا يكمل من نواح عدّة ما جاء فى الروايات الأخرى من نقص ويصحح ما يشوبها من خطأ مثل روايات (تيوفانز) و(قدرينوس) و(نيقفوروس).

الفصل الثانى

النضال من أجل مصر

السير الى مصر — "ليونتيوس" حاكم مريوط يشترك فى المؤامرة — الاقليم الواقع بين "بنطابولس" ومصر — خصبه وسكانه — "فوكاس" يخشى على الإسكندرية — "نيقتاس" يسير من الغرب وينتصر فى وقعة على مقربة من المدينة — الترحيب به — (بونوسوس) قائد (فوكاس) يسرع من الشام — (نقيوس) تسلم له — يصل جيشه إلى الإسكندرية — صد الهجوم البحرى الذى يقوده (بول)

نعلم من ديوان الأسقف المصرى أنه قد كان ثمت بعض قتال فى إقليم البنطابوليس نفسه . فقد جمع هرقل هناك جيشا من ثلاثه آلاف جندى منفقا فى سبيل ذلك أموالا عظيمة . واجتمع لديه فوق ذلك جيش مما يسميه ذلك المؤرخ "الهمج" وكانوا بلا شك من البربر وقد جعل هؤلاء تحت قيادة "بوناكيس" وهو تحريف فى اللغة الأثيوبية لاسم يونانى . فانتصر بفضل هذا الجيش نصرا لم يكلفه كبير عناء على قواد الدولة وهم (مارديوس) و(اكليزيار يوس) و (ايزيدور) واستطاع بوقعة واحدة أن يقضى على قوة فوكاس فى ذلك الجزء من إفريقيا . وفى الوقت نفسه أرسل (كيسيل) حاكم طرابلس كتيبة لعلها ذهبت إلى جنوب بنطابوليس . وعلى كل حال فإن نيقتاس بدأ السير عند ذلك نحو الإسكندرية مساحلا . ثم لحق به فى بعض المواضع (كيسيل) و(بوناكيس) ولم يكن ثمت ريبة فى أنه سينزل على الرحب فى كل مكان حتى يبلغ أكناف القطر المصرى . ذلك بأن (ليونتيوس) حاكم مريوط — وهو الإقليم المصرى فى غرب الإسكندرية — كان قد استماله القوم فوعدهم بجند كثير .

ويظن الناس أن مثل هذا السير إذا حدث اليوم حدث فى صحراء مجدبة لا يكاد الماء يوجد بها . ولكن قامت أدلة كثيرة على أنه قد كان فى القرن السابع

فى ذلك الإقليم كثير من المدن العامرة وبساتين من النخيل وأرض واسعة ذات خصوبة . وهو إقليم لا يعرف فيه الآن، وإن شئت قلت إن الناس لا يتصورون منه إلا أنه فيافٍ من صخور ومن رمال محرقة وهذا الأمر له خطر وشأن كبير عند الرواد وعند من يهمهم الدرس والعلم ولهذا نستميح القارئ عذرا اذا نحن قلنا فيه كلمات قليلة :

ذكر بطليموس أن إقليم (قيرين) ينتهى عند الجانب الشرقى لمدينة (داريس) ومن ثم يبدأ إقليم (مارماريكا). ومنذ قلنا إن (نيقتاس) قد سار إلى الشرق فإنه لابد قد مر ببلاد كثيرة منها مدينة (أكسيلس) و (پالوثيوس) و (بطراقس) و (انتيبرجوس) ورأس (قطينيوم) وكل هذه كانت فى إقليم (مرمريكا) . وكان أول إقليم (لوبيا) عند مدينة (پانورموس) وكانت به مدائن كثيرة منها (قطابثموس) و (سيلنوس) و (پريطونيوم)[1] وهى (أمونيا) بحسب تسمية (سترابو) لها . وكانت (پريطونيوم) قصبة الاقليم وفيها مقر الحاكم ويلوح أن ذلك الاسم مازال باقيا فى الاسم العربى (البرطون) . وكان ما يلى ذلك من الشرق فى الاقليم ذاته مدينة (هرميا) ويليها (لوكا سپيس) وكان أول إقليم (مريوط) فى منتصف المسافة بين (لوكاپيس) و (كيموفيكوس) وكانت أكبر مدائن هذا الإقليم مدينة (پلينطين) فى (تينيا) ومدينة (تاپوسيريس الكبرى) وحصن (الكرسونيسوس) ومدينة (مارية) وهى مريوط .

وترد فى كتب (بطليموس) و (سترابو) أسماء مدائن أخرى . ومن المحقق أن إقليم مصر فى القرن الأول كان ينتهى حيث يبدأ إقليم (قيرين) وأنه لم يكن يفصل بين الإقليمين مفازة من أرض لا يمكن السير فيها . وقد طرأ على إقليم (لوبيا) فيما بعد شيء من الفساد والخراب حتى أتى القرن السادس فأصبح (چستنيان) يعوض

(١) كان من مدينة (پريطونيوم) سير الاسكندر الأكبر ضاربا فى الصحراء فى رحلته المعروفة الى معبد (آمون).

الحاكم عن فقر إقليمه بأن ضم إقليم (مريوط) إلى حكمه . على أن الطريق بين بنطابوليس والإسكندرية بقى مع ذلك محفوظا، مراحله محددة وليس به من قطوع تذكر ولا من عائق يعوق السير به . بل وما زال الطريق متصلا قائما إلى اليوم الذى نصفه فى هذا الكتاب ، وهذا أمر ثابت قام عليه الدليل القاطع . ذلك لأنا نعلم أن الجيش الفارسى سار فى أوائل القرن السابع بعد فتح مصر ليفتح بنطابوليس وكان سيره فى البر، ثم عاد بعد أن فاز فوزا مبينا فى غزوته تلك . ويقول (جبون) إن تلك الغزوة قضت قضاء تاما على المحلات اليونانية فى مدينة (قيرين) . ولنذكر أن ذلك لم يكن إلا بعد سنوات تسع من غزوة (نيقتاس) . ولكن (جبون) قد أخطأ الصواب كل الخطأ إذ زعم أن جيوش (كسرى) جرت على ذلك الإقليم ذيل الخراب والعفاء . فالحق أن تلك الجيوش أحدثت بالإقليم ضررا عظيما ولكنه لم يكن تخريبا قضى عليه ولا تدميرا لا قيام بعده . بل إن الأمر كان على خلاف ذلك فإن عمرو بن العاص العربى عند ما فتح الاسكندرية بعد نحو ثلاثين سنة من ذلك الحادث اتجه نظره بالطبع إلى إقليم بنطابوليس . وسار نحوه فاتحا (برقة) و(قيرين) ، وليس فى وصف تلك الفتوح ما يدل على أن ذلك المسير كان عملا حربيا جليلا ولا أن العرب تغلبوا فيه على صعاب طبيعية .

إنه ليس شىء أبعد عن الحق من أن يقول قائل إن الطريق إلى غرب مصر كان يشق فيافى قاحلة . فلدينا من الأدلة ما يذكر صريحا أن كل أرض الساحل الواقعة إلى غرب مصر بقيت آهلة يزكو بها الزرع حتى مضت قرون ثلاثة من الفتح العربى . ويذكر المؤرخ العربى (المقريزى) أن مدينة (لوبية) قاعدة لإقليم يقع بين الاسكندرية و(مراقية) وذكره لهذين الاسمين على هذه الصورة يدل على أن الاسمين القديمين "لوبيا" و "مرمريقا" قد بقيا فى اللغة العربية لم يكد يعتريهما تغيير. وقال المقريزى فى موضع آخر إن إقليم بنطابوليس يبدأ بعد مدينتى "لوبية" و"مراقية" . وجاء فى كتابى "القضاعى" و "المسعودى" ما يتفق مع هذا الدليل .

وكان فى إقليم (لوبية) أربع وعشرون مدينة ماعدا القرى الصغيرة . وقال المقريزى فى وصف (مراقية) — نقلا عن ترجمة (كاترمير)[١] :

«مدينة مراقية كورة من كور مصر وهى آخر حد أراضى مصر وفى آخر أرض مراقيــة تلق أرض أنطابلس (پنطاپوليس) وهى برقة و بعــدها عن مدينة سنترية نحو من بريدين (وقدر ذلك أربعة وعشرون ميلا) وكانت قطرا كبيرا به نخل كثير ومزارع وبه عيون جارية . وبها إلى اليوم بقية وثمرها جيــد إلى الغاية وزرعها إذا بذر ينبت من الحبة الواحدة من القمح مائة سنبلة وأقل ماتنبت تسعون سنبلة وكذلك الأرز بهــا فإنه جيد زاك . وبها إلى اليــوم بساتين متعدّدة وكانت مراقية فى القديم من الزمان يسكنها البربر الذين نفاهم داود عليه السلام من أرض فلسطين فنزلها منهم خلائق . ومنها تفرقت البربر فنزلت زناتة ومغيلة وصريسة الجبال ، ونزلت لواتة أرض برقه ... الخ . فلما كان فى شوّال سنة أربعة وثلثمائة من سنى الهجرة المحمدية (٩١٦ ميلادية) جلا أهل لوبية ومراقية إلى الاسكندرية خوفا من صاحب برقة ولم تزل فى اختلال إلى أن تلاشت فى زمننا وبها بعد ذلك بقية جيدة»[٢] .

والكلمات الأخيرة كما هو ظاهر تقصد المدينة وليس الإقليم وهى ذات دلالة كبرى لأنها تصف مابقى من آثار المدينة حتى ســنة ١٤٠٠ للميلاد . وإنا لذاكرون هنا أمرا على سبيل الاســتطراف وذلك أن خرائط الملاحة لأهل البندقيــة كانت فيها حوالى ســنة ١٥٠٠ سلسلة غير منقطعة من الأسماء على هذا الجزء من ساحل البحر الأبيض المتوســط . ولكن المقريزى يحدّثنا حديثا آخر عن مريوط فيقول إنها كانت قديما تزدحم بها البيوت والحدائق وكانت أرض الإقليم كله حدائق منثورة إلى حدود برقة غربا . وكانت مريوط فى أيامه مدينــة تابعة لإقليم الإسكندرية

(١) آثرنا أن ننقل الأصل من المقريزى ولو أن به شيئا من الزيادة عن الأصل الانجليزى المترجم عن ترجمة "كاترمير" للقــريزى فان المقصود هو الاستشهاد بالمعنى الذى فى الأصــل العربى . والنص فى صفحة ٢٩٥ — ٢٩٦ الجزء الأول طبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ هـ . (المعرّب) .

(٢) انظر "Mem. Geog. et Hist." الباب الأول صفحة (٣٧٤ — ٥) .

واليها كانت ترسل ما تثمره حدائقها من الفاكهة الكثيرة . ويقول (شمپوليون) إنها كانت عاصمة لمصر السفلى فى أيام الامبراطورية المصرية القديمة ثم اضمحل أمرها شيئا فشيئا . وكانت فى أيام (ڤرجيل) و(سترابو) كما يشهدان بذلك معروفة بجودة خمرها على الأقل . وتقع أطلالها اليوم على اثنى عشر ميلا إلى غرب الإسكندرية ولكنها لاتكاد تكون معروفة لأحد . على أن الأرض التى تحت الرمال من الغرين وهذا يعزز ما كان يعرف عنها قديما من الخصب .

فمن الجلى إذن أنه قد كانت قبل فتح العرب لمصر سلسلة متصلة من المدائن وأرض فسيحة من مزارع أولها عند الاسكندرية إلى أن تبلغ (قيرين) . وأن مسير (نيقتاس) بجيشه هناك لم يكن به من الشدّة ما يستوجب مهارة كبرى فى القيادة ولا جلدا عظيما على تحمل المشاق . وأغلب الظن أن ما يوصف به الطريق فى الوقت الحاضر من الوعورة فيه كثير من المبالغة فإن الحجاج المسلمين يسلكون ذلك الطريق من مراكش وتونس وطرابلس سائرين على أقدامهم بقرب الساحل . وتكثر آثار الإغريق والرومان فى تلك البلاد ولكن أهلها اليوم من أشدّ الناس تعصبا . فالبدوى المتنقل هناك يمنع تلك الأرض أن تطأها قدم الباحث المتنقل . ولهذا بقيت يجهلها التاريخ وعلم الآثار القديمة أكثر مما يجهل البقاع القاصية فى قلب الصحراء مع أن سواحلها يحف بها البحر الأبيض المتوسط وتكاد تكون على مدى البصر من بلاد إيطاليا واليونان . وهذا بالطبع راجع الى سببين معا : إلى حكم الترك وإلى شدّة البدوى فى عقيدته . وهما سببان اجتمعا فكانا كافيين أن يجعلا التنقل هناك متعذرا يكاد يكون مستحيلا[1] . فلو أتيح لتلك البلاد أن تكون يوما تحت حكم دولة متمدينة لأصبحت ميدانا فسيحا للبحث والتنقيب . وقد يكون من الممكن أن تسترجع شيئا من خصبها القديم ورخائها الماضى إذا ما أقيمت بها الأعمال الهندسية الملائمة لها .

---

(١) لم نحاول أن نقلل من شدّة لهجة المؤلف هنا حرصا على أمانة النقل وأنه يسرنا أن لهجته فى كل كتابته لا تخرج عن الاعتدال العلمى إلا فى مواضع معدودة لا تكاد تذكر . (المعرّب) .

وبعد فإنا قد خرجنا عما نحن بصدده من القول وطال بنا القول فى سواه على أن ذلك يساعدنا على أن ندرك حقيقة سير (نيقتاس) بجيشه فى تلك الأراضى ومنه نستطيع أن نعرف أنه لم يلق فى طريقة إلا قليلا من المشاق، على أنه لا شك قضى فى سيره زمنا طويلا . وكانت المؤامرات أثناء هذا يتلو بعضها بعضا بين أحزاب يكيد بعضها لبعض فى عاصمة القطر المصرى . فقد اشترك رجلان فى مؤامرة ليقتلا (فوكاس) ويجعلا التاج بعده لهرقل. وكان أحد هذين الرجلين (تيودور) بن (ميناس) الذى كان حاكم الاسكندرية تحت حكم الإمبراطور (موريق) وكان الثانى (تنكرا) — ويظن زوتنبرج خطأ أنه قد يكون (كريسبوس) . وكان بطريق الإسكندرية الملكانى الذى أقامه (فوكاس) لا علم له بهذه المؤامرة . ولكن (حنا) حاكم الإقليم وقائد الحامية ورجلا آخر اسمه (تيودور) كان مراقب الأموال العامة، نقلا إلى البطريق نبأها . ثم اشتركوا ثلاثتهم فى إرسال خطاب ينذرون به (فوكاس) بالخطر .

وكان الإمبراطور يعرف حق العلم ما كان عليه المصريون من تقلب الأحوال وقلة الثبات (١) ولهذا كان يريد أن يستميلهم فأرسل إليهم منذ حين عددا كبيرا من الأسود والفهود لتعرض على الناس، ثم أرسل مع ذلك عددا من القيود وآلات التعذيب تصحبها خلع سنية وأموال لكى توزع على أصحابه وأعدائه لكل ما يستحقه. فلما جاءه كتاب البطريق تظاهر بأنه لا يعبأ بما كان يتهدده من خطر ولكنه لم يتردّد فى عزمه، ولم يهن فى عمله، فقد كان عالما بالحاجة الشديدة لأن تبقى مصر فى يده مهما تكلف فى سبيل ذلك . فدعى حاكم (بيزنطة) واستوثق منه بيمين محرجة على أن يبقى على ولائه ثم أرسله مع إمداد عظيم إلى الاسكندرية وإلى المصالح الكبرى مثل (منوف) و (أتريب) فى مصر السفلى. وأرسل فى الوقت عينه أوامر مستعجلة إلى (بنوسوس) فى سورية يدعوه أن يأتى بكل ما يستطيع حشده من الجنود إلى مصر لأن (بنوسوس) كان عند ذلك فى (أنطاكية) وقد أرسل اليها ولقب "أمير الشرق" لكى يقضى على ثورة لليهود إذ وثبوا على المسيحيين. وكانت ثورتهم أقرب إلى أن تكون

(١) يقصد الكاتب طبعا مصريى تلك الأيام التى كانت فيها أخلاق المصريين على ما يصف .

دينية من أن تكون سياسية، على أننا لا نستطيع فى أكثر الأحوال أن نميز بين خيوط الدين وخيوط السياسة فى نسيج حوادث ذلك العصر . وقد قام (بنوسوس) بعمله ذلك قياما لك أن تصفه بما شئت، فإما قلت خير قيام وإما قلت شره . فقد أنفذ عمله بأن قتل الناس جملة بين من شنق أو أغرق أو أحرق وبين من عذب أو رمى للوحوش الكاسرة، واستحق بذلك أن يقترن اسمه باللعن والخوف . وفى الحق أنه كان رجلا ممن يثلج قلب (فوكاس) ويقر عينه، كان "ضبعا مفترسا" يعرّس فى القتل . فلما أن جاءته رسالة (فوكاس) تلقاه بقلب ملؤه السرور .

كان (نيقتاس) فى هذه الأثناء يقترب من الاسكندرية من الجانب الغربى وسلمت له مدينة (كبسين) — وربما كانت هى حصن "كرسونيسوس" . فأعتق حاميتها وأخرج من كان فى السجون من الحزب الثائر ثم استمر بهم فى سيره . وأرسل دعاة يسبقونه داعين إلى الثورة فيما حول (ترعة الثعبان) — وسميت بذلك لتعرج سيرها — وكانت على مسافة قريبة من المدينة . ولكنه رأى أن الجيوش الإمبراطورية راصدة له تسد عليه الطريق . وكانت منيعة فى العدد والعدة فدعا (نيقتاس) قائدها أن يسلم قائلا "تنح عن طريقنا ثم اصبر على حيادك حتى تضع الحرب أوزارها فان كانت الدائرة علينا لم يضرك ذلك . واذا كانت الدبرة لنا فإنا جاعلوك حاكم مصر . ولكن على كل حال قد انتهى حكم فوكاس" فأجابه القائد جوابا قصيرا إذ قال "سنقاتلكم حتى نقتل فى سبيل فوكاس" ثم ابتدأت الواقعة . وأكبر الظن أن ذلك القائد هو الذى أقسم أن يحمى الإمبراطور ولقد كان أصدق فى حربه من سائر جنوده وأثبت جنانا، فانتصر (نيقتاس) نصرا مبينا وقتل القائد الإمبراطورى وجعل رأسه على سنان رمح ورفع مع الأعلام المنتصرة ودخل الجيش من (باب القمر) إلى المدينة فلم يلق فيها بعد ذلك كيدا . وهرب (حنا) حاكم البلد و(تيودور) مراقب الأموال العامة فاحتميا بكنيسة (القديس تيودور) فى الجانب الشرقى من المدينة فى حين هرب البطريق الملكانى الى كنيسة (القديس اثناسيوس)

وكانت على مقربة من شاطئ البحر . ولا يذكر لنا (حنا) أسقف (نقيوس) شيئا عما آل اليه أمر البطريق، ولكنا نعرف من غيره من الرواة أنه هلك .

اجتمع القسوس والعامة عند ذلك وأجمعوا رأيهم على مقت (بونوسوس) ومن كان معه من الوحوش المفترسة ورحبوا جميعا بقائد (هرقل) . ثم رفعوا رأس القائد المقتول على باب المدينة ووضعوا أيديهم على قصر الحاكم وأبنية الحكومة كما استولوا على خزائن القمح والأموال العامة . ثم أخذوا كنوز (فوكاس) وملكوا جزيرة (فاروس) وحصنها وكل ما هنالك من السفن . ولم يكن العمل الأخير بأقل أعمالهم خطرا، فان جزيرة (فاروس) — كما قال (قيصر) من قبل ذلك بزمن طويل حين رآها وعرف خطرها — كانت مفتاحا من مفتاحى مصر وكانت (الفرما) المفتاح الآخر . ولما ملك (نيقتاس) عاصمة القطر أرسل (بوناكيس) لينشر علم الثورة فى مصر السفلى وقد كان عمله هينا فان المصريين فى كل مكان كانوا يكرهون حكم (بيزنطة) . فدخلت المدائن واحدة بعد أخرى تحت لواء جيش الخلاص وفتحت (نقيوس) أبوابها وفيها مطرانها (تيودور) ، وقام حزب الثورة فى (منوف) فنهب دار الحاكم (ارستوماكوس) ودور من كان هناك من كبار الرومانيين . وأصبح جل المدائن وجل حكام الأقاليم مع أعداء (فوكاس) . ثم عاد (بوناكيس) الى العاصمة بعد حملة موفقة منصورة . على أن الأمر كان على غير ذلك فى (سبنيتس) أو سمنود إذ ثبت (پول) عمدة المدينة الى جنب لوائه وكان صديقه (كسماس) مريضا أقعده الشلل ولكنه كان يتقد شجاعة وأنفة فكان يحمل فى المدينة ليبث حماسته فى قلوب الحامية . وكذلك كان الحال فى (أثريب)(١) إذ رفض الحاكم (مرقيان) أن يدخل

---

(١) لا يزال سمنود مدينة معروفة على الفرع الشرقى للنيل فى نحو نصف المسافة بين دمياط ومفترق الفرعين . وكانت أثريب على الفرع نفسه وظلت مدينة عظيمة الى القرن الرابع وموضعها اليوم على مقربة من المكان الذى يعبر فيه الطريق الحديدى نهر النيل عند "بنها العسل" وكانت تخرج من أثريب ترعة تذهب الى منوف ومنها تسير الى الشمال الغربى الى (نقيوس) وكانت على الفرع الغربى (البلبيتى) وقد أخطأ (دنقيل) فى تعيين موضعى (منوف) و (نقيوس) ولكن (كاترمير) كتب بحثا شائقا عميقا برهن فيه برهانا ساطعا على أن (نقيوس) هى قرية (بشاتى) فقد كان لها اسمان أحدهما قبطى والآخر يونانى . ودال على أنها كانت على =

فى زمرة الثائرين وكان صديقا آخر من أصدقاء (بولى) . فكأن الحرب كانت لا تزال جذعة .

وكان (بونوسوس) قد بلغ فى سيره مدينة قيصرية عند ما أتاه نبأ سقوط الإسكندرية فحفزه ذلك النبأ الى أن يكون عمله أشدّ قسوة ثم وضع جنوده فى السفن من ذلك الثغر واتجه نحو الجنوب مسرعا وهناك إما أن يكون قد أنزل فرسانه على حدود مصر وإما أن تكون فصيلة من الفرسان لقيته آتية من فلسطين . وكانت خطته أن يذهب الى (أثريب) ليمنع سقوطها فى يد عدوّه . فقسم أسطوله الى

= النيل وقد برهن ديوان (حنا النقيوسى) على صدق ما ذهب اليه (كاترمير) وهو كتاب لم يره كما برهنت على صدق قوله نسخة خطية من كتاب (ساويرس الأشمونينى) فانه نص على أن الاسمين يطلقان على بلد واحد وذلك فى كتابه عن حياة البطريق (أندرونيكوس) ونضيف الى ذلك أن الاسمين (نقيوس) و (ابشادى) موجودان فى اللغة العربية .

والنهر أو الترعة التى تمر بمنوف اسمها اليوم (بحر الفرعونية) وهو اسم يدل على قدم الترعة . وعند ملتقى هذه بفرع النيل الغربى توجد جزيرة اسمها (تبشير) أو هو موضع اسمه (تبشير) وأمامه جزيرة . وعلى نحو ستة أميال فى شمال (تبشير) توجد قرية لا تزال يطلق عليها الاسم القبطى (الشادى) أو (ابشادى) و يظهر أن الاسم القديم لم يبق علما على موضعه القديم . وقد حدث ذلك فى كثير من الحالات. بل إنه نقل الى موضع آخر فان القرية الحالية التى اسمها (ابشادى) ليس فيها شىء يدل على قدمها . وقد كان الاسم القديم يطلق فى الأصل على كل الاقليم وهو (جزيرة نقيوس) ثم بقى علما على قرية صغيرة لا أهمية لها . وقد بينت (المسز بوتشر) فى كتابها (قصة الكنيسة المصرية) ان موضع نقيوس هو (زاوية رزين) فى الوقت الحالى . فان هناك أطلالا من البقايا وأرضا فدافد بها قطع عظيمة من أعمدة من الجرانيت وغير ذلك مما يدل على قرية مصرية منقرضة . ولكن (زاوية رزين) واقعة فى موضع لا يتفق وصفه الجغرافى مع الحقيقة فانها فى الجنوب الشرقى من منوف على مقربة من (الطرانة) وهى بعيدة عن الترعة القديمة التى كانت تصل منوف بالنيل . وأما الموضع الذى يسميه (كاترمير) (تبشير) فاسمه اليوم على الخريطة (سبسير) أو (شبشير) ولعلنا نجد فى الاسم الأخير صدى من التسمية القديمة القبطية (بشاتى) وانه لما يؤسف له أن (شبشير) و (زاوية رزين) قد أهملهما علماء الآثار إهمالا تاما شأنهم فى كثير من مواضع المدائن القديمة بمصر السفلى . ولست أتردّد فى أن أنتصر لكاترمير فيما ذهب اليه من قوله فى (شبشير) وأضيف هنا أنى استعملت اسم (نيكيو) متبعا فى ذلك التسمية القبطية ⲛⲓⲕⲓⲟⲩ لا التسمية اليونانية (نيكيون) * (١) ولا التسمية العربية (نقيوس) فقد كانت (نيكيو) محلة رومانية وهى مذكورة فى "ثبت البلاد الأنطونينى" .

ملاحظة للعرب — ولكنا آثرنا استعمال الاسم العربى وحده دائما وهو (نقيوس) ولعل هذا أمر طبيعى لكتاب ينقل الى اللغة العربية .

قسمين لكي يصل الى تحقيق غرضه فأما أحدهما فانه سار فى الفرع الأكبر الشرقى للنيل ، وأما الثانى فقد سار فى الفرع (البلوزى)، وجاءت الفرسان معقبة فى أثره من البر. وكان فى أثريب عدا الحاكم (مرقيان) سيدة ذات بأس اسمها (كرستدورا) وكانت تنصر جانب الإمبراطور يدفعها دافع انتقام شخصي . وجاء اليها (پول) و (كسماس) من منوف ليشتركوا جميعا فى الرأى و يدبروا أمر الحرب . وقد أرسل مطران (انقيوس) ومراقب الاموال (ميناس) يطلبان الى (مرقيان) و (كرستدورا) أن يرميا تماثيل (فوكاس) و يذعنا لأمر هرقل وكان ذلك عند ما سمعا بقدوم (بنوسوس) و بلوغه البرزخ الشرقى مع جنوده . ثم جاءت الأنباء بعد ذلك أنه أخذ مدينة (الفرما) وكان من قواد هرقل فى جيش عند (أثريب) إثنان وهما (پلاتو) و (تيودور) — والحق إنه يخيل إلينا إلا نهاية لعدد الأشخاص الذين إسمهم (تيودور) — فكانا يرقبان زحف (بنوسوس) فزعين خائفين وأرسلا إلى (بوناكس) على عجل رسالة يطلبان فيها المعونة . فما أبطأ فى أن يسير على الفرع الغربى للنيل (الفرع البوليتى) حتى بلغ (نقيوس) وهناك علم أن (بونوسوس) وصل إلى (أثريب) . وترك (بنوسوس) تلك المدينة وراءه وسار على الترعة التى تخرج من النهر هناك ذاهبة الى الغرب نحو منوف. وسار معه (مرقيان) و (كسماس) والمرأة التى لا يفل حدّها ولا تكل همتها (كرستدورا) .

سار (پول) عندئذ بمن معه ليلحق بجيش (بونوسوس) . وما كاد الجيشان الأمبراطوريان يجتمعان حتى جاء (بوناكس) وحل تجاههم . واستحر بعد ذلك القتال واستعر وكان فيه القضاء — فإن جيوش الثوار لم يبق منها فل بل هزمت هزيمة تامة فقذف بجزء منها فى الترعة وقتل منها من قتل وأسر من أسر ووضعوا فى القيود — وأخذ (بوناكس) نفسه أسيرا ثم قتل صبرا . ولقى قائد آخر اسمه (ليونتيوس) عين ما لقيه (بوناكس) وأما (پلاتو) و (تيودور) فقد استطاعا الهرب واعتصما بدير قريب من المكان . ولم يكن فى (نقيوس) قوة على مقاومة جيش (بونوسوس) المنتصر مع أنها كانت ذات حصون وعلى ذلك خرج المطران (تيودور)

ومراقب الأموال ميناس ومعهما الإنجيل والصلبان في موكب مهيب سائرين الى القائد المنتصر نازلين على حكمه راجين عفوه . وكان خيرا لهما أن يلقيا بأنفسهما من أعلى أسوار مدينتهما، فقد أودع (ميناس) السجن وغرم ٣٠٠٠ قطعة من الذهب ثم أذيق العذاب بأن جلد جلدا طويلا ثم أطلق سراحه فلم يبق إلا قليلا ومات من الجهد . وأما (تيودور) فقد أخذه (بنوسوس) معه إلى (نقيوس) وقد دخلها عندئذ بجيشه فرأى عند باب المدينة تماثيل فوكاس وهي محطمة على الأرض، وقد شهد (مرقيان) و (كرستدورا) أن ذلك إنما كان من فعل المطران (تيودور) فأمر بأن تضرب عنق ذلك المسكين . وأعقب ذلك قتل القائدين (پلاتو) و(تيودور) وثلاثة من أعيان منوف وهم (إيسيدور) و (حنا) و (چوليان) وكانوا جميعا قد هربوا فالتجأوا إلى دير فأسلمهم رهبانه خاضعين . وأما عامة الأسرى فقد نفى (بونوسوس) منهم من كانوا فى خدمة الإمبراطور (موريق) وقتل سائرهم ممن كانوا قد دخلوا الجيش وحملوا السلاح تحت لواء (فوكاس) .

ارتدت موجة النصر عند ذلك، وأوشكت أن تذهب إلى جانب الأمبراطور الحاكم فكان (بونوسوس) بمثابة سيد مصر السفلى . وأسرعت جيوش الثوار من كل صوب نحو الإسكندرية تسلك الترع الكثيرة التى تخترق أرض تلك الجهات وذلك لأنهم كانوا يخشون الحرب ولا يأمنون أن يسلموا . وكان من أسهل الأمور على (بونوسوس) أن يسير من (نقيوس) فى الفرع الغربى من النيل ثم يسير فى الترعة المؤدية الى الإسكندرية .

كان (نيقتاس) على استعداد كامل للقاء عدوه وقد حشد فى المدينة جيشا كبيرا بعضهم جند منظمة وبعضهم أحابيش فيهم البحرى والمدنى ، يعززهم الحزب الأخضر[1] فى المدينة . وكانت دور الصناعة دائبة على عمل السلاح والحديد،

(١) كان مما يدعو الى التفرقة فى مدن الدولة الرومانية فى آخر عهدها وجود حزبين أحدهما الأزرق والآخر الأخضر . وكان كل منهما يكيد للآخر حيث استطاع حتى فى ميادين السباق . وقد وصف المؤرخون ذلك بتوسع فليرجع اليهم ولنذكر منهم الانجليزى (جبون) — (المعرب) .

ووضعت الجنود على الأسوار ومعهم آلات الدفاع القوية . ويلوح أن (بنوسوس) أرسل (پول) لكى يأتى المدينة من الجنوب بأسطول من السفن — ولعل ذلك عند الموضع الذى تدخل فيه الترعة الى المدينة من بابين عظيمين من الحجر بناهما (طاطيان) وحصنهما فى أيام الإمبراطور (ڤالنس) . ولكن لما جاء أسطول (پول) حتى صار على مدى الرمى من آلات الدفاع بالمدينة قذفت عليه الحجارة الضخمة قذفا سريعا فوقعت بين السفن تحطم منها ، فلم يستطع (پول) أن يقترب من الأسوار وأمر سفنه بالرجوع خوف أن تغرق أو تتحطم . فانظر ما بلغته مجانيق الإسكندرية من القوة فى ذلك الوقت .

الفصل الثالث

خيبـــة بنوســـوس

طريق سير (بونوسوس) — يهاجم الاسكندرية — صدّه وهزيمته — مافعله (بول) — محاولة قتـل (نيقتاس) — اسـتعادة (نقيوس) — (بونوسوس) يطرد من مصر وتفتح البلاد باسم هرقل — حالة الأحزاب الدينية فى مصر

يظهر أن (بونوسوس) وإن كان قد جعـل سـيره بحذاء ترعة كليوباتره وهى أكبر الترع التى تخـرج من الفرع البلبيتى ذاهبـة نحو الإسكندرية ، قد اتخـذ سـبيل البر على الأقل فى المرحلة الأخيرة من مسـيره . وقد نزل أوّل منزل له فى (ميفاموميس) ثم نزل فى (دمكارونى) بحسب رواية الأسقف المصرى . ولسنا نجد وصفا لهذين الموضعين فى كتاب (زوتنبرج) حتى إنهما ليحيران من يسمع بهما أوّل الأمر . غير أنه ورد فى سـياق ذلك الكتاب أن (ميفاموميس) هى (شـبرا) فى وقتنا هذا . وهـذه لا بد أن تكون (شـبرا) القريبة من دمنهور . ويذكر (شمپوليون) مدينـة إسمها (موممفيس)[1] ويقول إنها على سـبع فراسخ من دمنهور إلى جهة الغرب ويسـمى المدينة الأخيرة (تيمنهور) بحسب ما كانت معروفة به عنـد المصريين القدماء . وعلى ذلك فلسنا نتردّد فى أن نقول إن (ميفاموميس) هى بعينها (موممفيس) وإن موضعها بقـرب دمنهور . ولكن (شمپوليون) لا يمكن أن يكون على حق فى قوله إنها هى عينها (پانوف خت) التى سمـاها العرب (منوف السـفلى) والتى يقول ذلك العالم الفرنسى إنها على مسافة واحد وعشرين ميلا من (دمنهور) وهى مسافة يستحيل تصوّرها .

(١) ويذكر سترابو أيضا إقليم موممفيس .

أما (دمكارونى) فلا يستطيع الانسان أن يذكر اسما شبيها باسمها فى كتاب آخر ولكنا إذا علمنا أن (دم) أو (تم) كان حرفا يوضع فى أول أسماء البلاد فى اللغة المصرية القديمة ومعناه (مدينة) — إذا ذكرنا ذلك لم يكن ثم موضع للشك فى نظرنا أن (دمكارونى) هى الاسم القبطى لمدينة (كيريوم) أو (كريون)(١). وهذا التفسير يتفق كل الاتفاق مع وصف ذلك الاقليم فان (كريون) كانت واقعة الى الغرب على الترعة التى كان (بنوسوس) يسير عليها وذلك يتفق مع ما ورد فى الكتاب. وهى فوق ذلك فى نحو منتصف المسافة بين الاسكندرية ودمنهور إذ هى على نحو ثمانية وثلاثين كيلو مترا من الاسكندرية، وعلى نحو واحد وثلاثين كيلو مترا من دمنهور.

سار (بنوسوس) من (كريون) ولم يلق كيدا الى أن بلغ الجانب الشرقى من العاصمة وهناك وقف بجيشه على مرأى من أسوار المدينة، وعقد النية على أن يهاجمها فى غده وهو يوم الأحد. وإنه لما نتوق اليه لو استطعناه أن نعرف الوسائل التى كان يطمع أن يصدع بها الأسوار العالية والحصون المنيعة التى كانت تحرس تلك المدينة الكبرى(٢).

غير أن أهل الاسكندرية لم يكونوا فى حال يستطيعون معها صبرا على الحصار فيقال إن قديسا من أهل صعيد مصر اسمه (تيوفيلوس) (الواثق بالله) أو (صاحب الاعتراف) كان يعيش على رأس عمود. ويلوح أنه تلقى فوق ذلك العمود الحكمة والكياسة. فنصح (نيقتاس) أن يخرج ويناجز أعداءه القتال. فخرج بجنوده ووقف بهم داخل (باب اون) وكان الطريق الأكبر الذى يشق المدينة طولا طريقا واسعا فسيحا فكان فيه ما يتسع لحشد الجيش. أما اسم "باب اون" فلا يفسره "زوتنبرج" ولا يجد الناظر اليه لأول مرة أى شبه بينه وبين علم معروف من أعلام

(١) من الغريب أن هذا التفسير لم يرد فى (أميلينو) فانه عند كلامه على هذه الفقرة فى كتابه (Géog. Copte) يزعم أن ذلك المكان قرية خارج الاسكندرية — وكأنها من أرباضها.

(٢) يجدر بنا أن نذكر هنا أن الاسكندرية كان يطلق عليها فى كل ما كتب فى ذلك العصر اسم (المدينة الكبرى) وكانت القسطنطينية يطلق عليها تمييزا لها اسم (المدينة الملكية).

الاسكندرية . ولكنا نجد فى موضع آخر من الكتاب أن اسم "اون" مرادف "لعين شمس" واسم "عين شمس" هو الاسم العربى للمدينة المشهورة (بهليو بوليس). وكان الاسم المصرى القديم لهليو بوليس هو "أون" (فباب أون) على ذلك هو الباب المتجه نحو مدينة (هليو بوليس) ويمكن فوق ذلك أن يقال إنه هو بعينه الباب المعروف "بباب الشمس" وهو فى نهاية الطرف الشرقى لذلك الطريق الواسع الذى كان يشق الاسكندرية من الشرق الى الغرب كما أن (باب القمر) كان عند نهاية الطرف الغربى منه . وكان يقطعه عند مفترق واسع طريق آخر يتجه بين الشمال والجنوب . ولنا أن نقول هنا إن كثرة ورود الأسماء المصرية القديمة كما هو ظاهر من استعمال اسم (اون) هنا وفى أسماء وردت فى مواضع أخرى يدل دلالة قوية على أن (حنا النقيوسى) كتب هذا الجزء من ديوانه الأصلى باللغة القبطية .

والآن فلنعد الى ما كنا فيه . فان الجيوش الامبراطورية أتاها الأمر عند ذلك أن تزحف على المدينة يقودها قائد فارس فتقدموا ولكنهم قبل أن يقتربوا من المدينة أرسلت عليهم النيران المحرقة من مجانيق عظيمة كانت تزمجر وتخور فوق الأسوار والآطام وأصابت إحدى تلك المقذوفات القائد فكسرت فكه وأردته عن فرسه صريعا لم تمهله . وأصابت أخرى قائدا ثانيا فقتلته . فتردد الزاحفون وقد أوقعت هذه المجانيق فيهم الرعب والاضطراب . وعند ذلك أمر (نيقتاس) جيشه بالخروج من المدينة ففتح (باب الشمس) وخرج الجيش منه فوقف صفا وحمل على العدو حملة صادقة ثلم بها صفوفه واستحر القتال ثم انجلى عن شطر جيش (بونوسوس) شطرين ووقعت على أثر ذلك الهزيمة . ولما رأى (نيقتاس) أن أكثر المنهزمين يسرعون نحو الشمال سار بجماعة من رديفه وهم من جنود السودان وخرج من باب آخر قريب من كنيسة (مار مرقص) فى الجهة الشمالية من المدينة تجاه البحر وعند نهاية السور من الشمال الشرقى . فما لبث أن سبق المنهزمين الفارين وأخذ عليهم السبيل فردهم من حيث جاءوا فكانوا فى رجوعهم بين مستهدف تحت الأسوار تحصده القذائف من حجارة وسهام ، وبين جانح نحو البساتين يلجأ الى حوائطها ذات الأشواك فيحصر

هنالك ويقتل . وأما من هربوا من جيش (بونوسوس) نحو اليسار أى الى الجنوب فقد وجدوا أنفسهم حيال ترعة تقطع عليهم سبيلهم . وكانت سيوف العدوّ تلمع من ورائهم وهم يتبعونهم، فأخذ الخوف بقلوبهم وأذهل ألبابهم فصاروا يخبط بعضهم بعضا خبطا بالسلاح وقد أعمى الهول أبصارهم .

وهكذا تمزق جيش (بونوسوس) كل ممزق . وكان بين القتلى (مرقيان) حاكم (أثريب) و (ليونتيوس) و (ثالنس) وكثير من الأعيان . وكان للواقعة من الأثر ما جعل الحزب الأزرق نفسه يتخلى عن (فوكاس). ولكن (بونوسوس) نجا بنفسه وارتد الى قلعة (كريون) وكريون مدينة سيأتى ذكرها بعد ثلاثين عاما عند مسير العرب بقيادة عمرو الى الأسكندرية، وكانت واقعة على كلا ضفتى الترعة الآتية من النيل الى العاصمة ويصفها (ابن حوقل) بأنها كانت فى أيامه مدينة كبيرة جميلة تحيط بها الحدائق وهى لا تزال باقية الى اليوم ولكنها قرية صغيرة . ولسنا ندرى أى عمل قام به (پول) وأسطوله فى أثناء هذا القتال فلعله كان يناجز جانبا من جيش العدو فى الجنوب الغربى من المدينة، فلم يكن قريبا هو وأسطوله من محل القتال، ولم يساعد فى حرب البر ولم تكن له يد فى حماية الفارين .

فلما سمع (پول) بعد ذلك بتلك الهزيمة القاضية سوّلت له نفسه أن يسلم ويلتحق بأصحاب (نيقتاس) . ولكنه مع ذلك ثبت فى جانب حزبه واستطاع أن يتقهقر بوسيلة من الوسائل الى مدينة (كريون) حيث لحق بالقائد (بونوسوس). ولا بدّ لنا أن نقرّ بالإعجاب على كره منا بما كان لهذا القائد (بونوسوس) من قوة الجنان وسعة الحيلة . فإنه لم يدر فى خلده ساعة أن يخرج هاربا من النضال، فسار مسرعا فى الترعة الى أن بلغ فرع النيل الغربى ثم سار فى النهر صعدا الى (نقيوس) وكان جنوده لا يزالون يحمونها . فجمع هناك أسطوله وأصلح من شأنه واستطاع أن يسيطر على النهر بعد أن دمر عددا كبيرا من سفن الاسكندرية . وإذ كان غير قادر على لقاء (نيقتاس) مرة أخرى، اتخذ سبيله فى ترعة أخرى (ولعلها ترعة الروجاشات) سائرا نحو مريوط . ثم سلك ترعة الثعبان التى فى غرب الاسكندرية قاصدا

نحو مريوط يريد أن يستولى عليها ويجعلها قاعدة له يجهز منها السرايا الى الاسكندرية . ولكن (نيقتاس) بلغه خبر هذه النية فأمر أن تهدم القنطرة التى عند (دفاشير) بقرب مريوط وبذلك سدّ مجرى الترعة وحال دون إتمام ما أراد عدوّه.

فثارت ثورة (بونوسوس) عند ما علم بهذا الفشل وعزم على أن يدع الحرب الصريحة وأن يقتل (نيقتاس) غيلة . فأوعز الى أحد جنوده أن يذهب اليه كأنه رسول جاء ليفاوضه فى أمر التسليم وشروطه، وقال له "خذ معك خنجرا صغيرا واجعله تحت ردائك فاذا ما اقتربت من (نيقتاس) فضعه فيه واخرق به قلبه حتى تتركه قتيلا . ولعلك تقدر أن تنجو فى أثناء الاضطراب الذى يعقب ذلك، فاذا أنت لم تستطع النجاة فقد مت شهيدا فى سبيل حماية الامبراطورية، وسأجعل ولدك جميعا فى قصر الملك أتعهدهم بنفسى وأجرى عليهم الأرزاق مدى حياتهم". ذلك كان تدبير (بونوسوس) ولكنه فشا إذ أذاعه خائن . فان رجلا ممن كان معه اسمه (حنا) أرسل كتابا ينذر فيه (نيقتاس) ويحذره حتى اذا ما جاء الفاتك اليه أحاط به الحرّاس وفتشوه فوجدوا معه الخنجر مخبوءا فضربوا به عنقه .

فلما خاب (بونوسوس) فى كيده سار فى البر الى (دفاشير) وشفى غله بأن أحدث فى أهلها مقتلة عظيمة . وجاء (نيقتاس) يسعى للقائه غير أن (بونوسوس) كان يعلم أنه من الحمق أن يخاطر بمناجزته القتال بمن معه وهم فلول ضعيفة . فعاد أدراجه على ذلك وعبر نهر النيل والتجأ الى (نقيوس) ليتحصن فيها مرة أخرى . وأما (نيقتاس) فانه لم يتبعه الى العدوة الأخرى بل بقى فى غرب النهر وسار الى مريوط فأخذ المدينة والاقليم ووضع فيهما جندا كثيرا . وكان شديد القلق لما لقيه من استماتة عدوّه وشجاعته وسرعة حركته التى كان يغلب بها خططه . ولهذا كان يقدّم الحزم فى مقابلة حركات عدوّه الجرىء، فلم يعبر (نيقتاس) النهر ذاهبا نحو منوف الا بعد أن خلص له كل ما وراءه وثبت قدمه على الجانب الغربى من النيل . وكان فى منوف حصن حصين، وهو من أكبر ما أقامه (تراچان)، وكان فى طاقته أن يبقى على المقاومة ما شاء لو دافع عنه من فيه دفاعا قويا . ولكن الناس كانوا

من غير شك يميلون الى حزب الثوار وكان جنود الامبراطورية تخبو شجاعتهم برغم شجاعة قائدهم وجراءة احتياله فى الحرب . ففر عدد كبير من جند الحامية وأخذ الحصن عنوة بعد قتال ضعيف .

فلما تم (لنيقتاس) ملك ضفتى النيل وما حولها من البلاد سار قاصدا مدينة (نقيوس) وقد ضيق عليها من كل جانب . فبلغ الأمر بالقائد (بونوسوس) أن وهنت عزيمته ، ففر تحت جنح الليل ولعله انسل من بين الجيش المحاصر وسار الى الشرق نحو (أثريب) أو لعله هوى مع النهر الى الشمال ثم ضرب نحو مدينة (صان) سالكا اليها إحدى الترع الكثيرة التى هناك . وعلى كلا الحالين استطاع أن يبلغ (الفرما) سالما ومن ثم ركب البحر الى فلسطين ومنها سار فى طريقه الى القسطنطينية تشيعه لعنات الناس الى أن لحق بسيده (فوكاس) . وكان فتح (منوف) و (نقيوس) إيذانا للمدن الأخرى ولسائر القواد أن يسلموا وأسر (پول) حاكم (سمنود) وصديقه المقعد الجرىء (كسماس) ولكن الفاتح المنتصر عفا عنهما عفوا صريحا ثم قبض (نيقتاس) على زعماء الحزب الأخضر وأنذرهم وأوعدهم اذا لم يسيروا بالحسنى وذلك لأنه رآهم قد اتخذوا نصره على عدوه ذريعة للاعتداء على الحزب الأزرق ولقتل الأنفس ونهب الأموال فتصالح الحزبان وعقد لحكام جديدين على المدائن كلها واستقر الأمر وعاد سلطان القانون وصار هرقل سيد القطر المصرى .

لقد كانت الحرب قتال المستميت وطالت بها مدة الزمن وتقلبت بها الأمور تقلبا عجيبا تارة يبسم فيها الحظ وتارة يعبس . فقد رأينا البلاد فى سباتها وهى جاهمة كارهة فاذا هى تهب على صوت الصور من جيوش (هرقل) . ثم فتح (نيقتاس) الاسكندرية بغير قتال يذكر ورأينا الثورة تنتصر فى مصر ثم رأينا (بونوسوس) وهو يهوى كأنه نمر انقض على رأس مصر السفلى فاكتسح كل مادونه حتى بلغ أسوار الاسكندرية وصدم حصونها صدمة لم تغن شيئا فارتد وهو كليم حسير عاجز عن المضى فى النضال إلا مناجزة هينة بين حين وحين . وبقى على ذلك مدة تخمد فيها شجاعته وحماسته المتقدة فلما لم يبق له ما يستطيع به المقاومة مكر بأعدائه

الذين أحاطوا به فهرب منهم تحت جنح الليـل ولم يمكنهم من نيـل ثأرهم منه . وإنهـا لصورة بديعة زاهية الألوان تدل كل ناحية منها على حقيقة ما تصوّره وقـد بقيت كلها مجهولة لا يعرف عنها التاريخ شيئا حتى كشف عنها تاريخ (حنا) أسقف (نقيوس) .

ولسنا نجد فى كتب مؤرخى بيزنطة كلمة واحدة تقص علينا شيئا من أنباء هذه الحرب العجيبـة التى ثارت ثورتها بمصر، اللهم إلا أن (ديوان بسكال) يذكر فى حوادث سنة ٦٠٩ للميـلاد " ثورة إفريقيا والأسكندرية " . ونجـد فى كتاب (جبـون) — وهو يعرف كل ما كتبه هؤلاء المؤرّخون معرفة لا نقص فيهـا — خلاصـة استخلصها من مطالعة ما كتبوا عن الثورة فيقول : "احتشدت جيوش أفريقيا ، وجنـدها فتيان مقـدامان (هرقل ونيقتاس) واتفقا على أن أحدهمـا يسافر بالأسـطول من (قرطاجنة) إلى (القسطنطينية)، وأن يسـير الآخر بجيشه عن طريق مصر وآسـيا ، وأن يكون الرداء الأمبراطورى الجائزة لمن يجـد منهما وينجح . فتسرب شيء قليـل من أخبار ذلك العزم الى (فوكاس)، فأخذ زوج الفتى (هرقل) وأمه رهينتين كى يبقى (هرقل) على ولائه . ولكن (كريسپوس) وكان ماكرا غدّارا هون أمر ذلك الخطر البعيد عند الأمبراطور، وأهمل أمر الدفاع أو توانى فيه، واستنام الطاغية وتراخى حتى ألقت السفن الافريقية رواسيها فى خليج هلسبونت[1]" ولا يرد هنا ذكر لحوادث مصر وما كان لها من الأثر فى مصير الثورة بل لقد جاء فى كتاب (جبون) بعـد بضع صفحات من الباب نفسه وصف لدخول الفرس فى مصر فى أيام كسرى سنة ٦١٦ للميلاد وفيـه يقول عن مصر صراحة " أنها كانت الاقليم الأوحد من أقاليم الدولة لم تعتره غزوة من خارجه ولا حرب فى داخله منذ أيام دقلديانوس " وهـذه عبارة يعجب لها الانسان لأن (جبون) ينقض جزءا منها فى وصفه القصير المبين لأقباط مصر فى الباب الثانى . فالحق أن الإنسان كلما أمعن فى درس ذلك العصر تبين له وزاد عنده وضوحا أن مصر كانت فيه من أكثر بلاد

(١) هو الدردنيل .

الدولة هياجا وأيقن أن أمورها كانت فى اضطراب يكاد يكون مطردا منذ انعقد مجلس (خلقيدونية)، وما أكثر الأدلة على ذلك الاضطراب فى ثنايا كتاب (حنا النقيوسى) وفى كتب أخرى مثل (تاريخ بطارقة الأسكندرية) الشهير الذى ألفه (رينودو). وهذه الكتب تصف اضطراب مصر بغير تعرّض للقصة التى نحن بصددها قصة هرقل ذاتها .

وليس هذا موضع البحث فى حوادث تاريخ مصر فى القرنين الأخيرين من حكم الرومان . كما أنه ليس موضع البحث فى المراجع التى يرجع اليها فى ذلك التاريخ . ويقيننا أنه اذا جاء الوقت الذى يكتب فيه تاريخ هذا العهد كتابة وافية ظهر أن ذينك القرنين كانا عهد نضال متصل بين المصريين والرومانيين، نضال يذكيه اختلاف فى الجنس واختلاف فى الدين، وكان اختلاف الدين أشد أثرا فيه من اختلاف الجنس . إذ كانت علة العالل فى ذلك الوقت تلك العداوة بين (الملكانية) و(المونوفيسية)[1] وكانت الطائفة الأولى كما يدل عليه اسمها حزب مذهب الدولة

(١) لم يكن المنوفيسيون فيما بينهم وحدة بل كانوا أحزابا يشهد بذلك ما كان من الخلاف بين (تيودوسيوس) الرجل العالم و(جايان) القبطى ونضالهما على ولاية البطرقة اليعقوبية فى أوائل القرن السادس وكان كل الرهبان مع (جايان) وقد بزه (تيودوسيوس) فقام بالصلاة فى كنيسة (مارمرقص) وقلد الولاية قبله ولكن الناس ثاروا عليه وأنزلوه عن عرشه ولكن ما كاد (جايان) يلى البطرقة حتى تدخلت (تيودورا) فى الأمر فأرسلت (نارسيس) ليخلعه و يعيد (تيودوسيوس) وأعقبت ذلك ثورة بين الناس ونشب قتال فى شوارع الاسكندرية أريقت فيه الدماء واشترك فيه الناس جميعا حتى النساء فكن يرمين بالآجر من أعلى المنازل على رءوس الجنود الغرباء الذين يتقاتلون فى الطرق وقد ثارت الحرب الأهلية فى أيام (جستن) الأول بين حزب كان يعتقد أن جسم المسيح فان يفسد وآخر يعتقد أن جسمه باق لا يفنى ولا يفسد ولما قلد (جستنيان) (زويلوس) ولاية الدين ثار الناس وغلبوا جنود الروم فلجأ الى أن جعل (أبوليناريوس) واليا للدينة و بطريقا فى آن واحد فنشأت عن ذلك مذبحة أمر بها المطران من محرابه وهو فى سلاحه وعدة حربه فجرت الدماء من المصلين من القبط وقد أنفذ (جستنيان) أمرا يريد به الاصلاح فى مصر ولكنه كان أمر سيد مستبد الى رعية من عبيد و يفهم من سياق كتاب (حنا النقيوسى) أن حزب (جايان) كان لا يزال موجودا فى وقت كتابة ذلك الكاتب ولكن القبط تركوا تدريجا عقيدة جايان فى أن جسد المسيح لا يفنى ولا يفسد وغلب على اعتقادهم رأى (تيودوسيوس) فى أن جسمه كجسم البشر. وقد اقتبس (لوكيان) توقيع خطاب كتبه (خيل) وهو البطريق السادس والأربعون وتوقيعه هو "خيل بمشيئة الله مطران الاسكندرية وطائفة التيودوسيين" وهذا يكون فى القرن الثامن للميلاد وتوقيعات الكتب القبطية فى القرن السابع كانت على هذه الصورة عينها ويقول (ساويرس) إن القبط هم (التيودوسيون) .

الأمبراطورية وحزب الملك والبلاط ، وكانت تعتقد العقيدة السنية الموروثة وهى ازدواج طبيعة المسيح على حين أن الطائفة الأخرى وهى حزب القبط (المنوفيسيين) أهل مصر كانت تستبشع تلك العقيدة وتستفظعها وتحاربها حربا عنيفة فى حماسة هو جاء يصعب علينا أن نتصوّرها أو نعرف كنهها فى قوم يعقلون بله ممن يؤمنون بالانجيل . فالحق أن روح التعصب الشديدة التى ثارت بمن مزقوا جسم (هيپاشيا) قطعا فى المحراب كانت لا تزال كامنة فى القلوب لم تتغير غير أنها بعد أن كانت تدفع إلى التنكيل بفتاة جميلة يعزى إليها ذنب الوثنية صارت تثور بفرقتين كل منها تدعى أنها ابنة المسيح وترمى الأخرى بأنها من نسل الشيطان . وفوق هذا قد كان يزيد الأمر شرا ما كان بين الحزبين الأخضر والأزرق من نضال إذ كانت عداوة هذين الحزبين فى مصر عداوة حقيقية بلغت أشد ما بلغته عداوتهما فى أى جهة من جهات الدولة الرومانية . ولم تكن تلك العداوة ناشئة عن خلاف الدين غير أن الخلاف الدينى كان يزيدها ضراما .

حسبنا هـذا القول لندل به على ما كانت عليه مصر فى ذلك العصر من السلام فى داخلها . أما ما يزعم الزاعمون من أنها كانت بمنجاة عن غزوات الأجانب و إغاراتهم فيكفى لإظهار خطئه أن نذكر إغارة الفرس فى أيام الإمبراطور (أنستاسيوس) حين أحرقت كل أرباض الإسكندرية كما يشهد بذلك (سـعيد بن بطريق) وهو كاتب مصرى المولد . وهو يذكر أن القتال ظل قائما بين المصريين وغزاة الفرس فى مواقع يتلو بعضها بعضا وأن البلاد عصفت بها مخالب الخراب فلم تكد تنجو من السيف حتى أصابتها مجاعة دفعت بالناس إلى الثورة . وماذا عسانا أن نذكر عن عسف الاضطهاد وعن المذابح وما سال فيها من الدماء وتشجيع الحكام لذلك حتى (چستنيان) نفسه ، وماذا عسانا أن نذكر من الثورات الصغيرة مثـل تمرّد (ارستماخوس) فى أيام الامبراطور (موريق) ومن خروج اللصوص فى عصابات منظمة ومن غارات البـدو وقبائل السودان وما يصحبها من انزعاج دائم إذ كانت تلك القبائل إذ ذاك كما هى اليـوم خطرا يهدّد حدود البلاد . فلئن كانت الحرب فى كثير من الأحيان غير ثائرة فى البلاد فى الحقيقة فان شبحها المخيف كان يتراءى لها أبدا و يرفعه الآل على آفاقها .

فمن الواضح إذن كما ترى أن أسبابا كثيرة أدّت إلى أن تكون تلك البلاد دائمة الاضطراب . وكانت الأحزاب بها كثيرة عنيفة الخلاف فكان لأى غاز عقد العزم على غزوها أن يعتمد على أحد تلك الأحزاب التى بها . أما (نيقتاس) فقد أعانه أن (فوكاس) كان كريها عند الناس كراهة لا شك فيها . ذلك لأن جرائمه قد زادت على الطاقة حتى فى نظر الرومانيين أنفسهم . وكان القبط يرونه طاغية فتاكا وكان فوق ذلك قطب سلطة أجنبية وعقيدة مكروهة[1] كان وجودها بينهم ينغص عليهم حياتهم ويجعل عيشهم مرا . على أنه من الجائز أن (نيقتاس) أحس أن بقاءه بمصر لازم حتى بعد خروج (بونوسوس) منها لكى يدعم سلطانه ويوطده . ومن سوء الحظ أن تواريخ تلك الفترة ليس من السهل إدراكها فان (حنا النقيوسى) على ما يظهر يزعم أن مدّة الحرب قبل هزيمة (بونوسوس) عند الاسكندرية قد وقعت فى السنة السابعة من حكم (فوكاس) أى قبل تمام سنة ٦٠٩ فتكون الواقعة ذاتها إذن قد حدثت فى شهر نوفمبر من تلك السنة[2] وقد تكون سائر الحوادث قد استغرقت بضعة أسابيع أخرى ومعنى هذا أن (نيقتاس) قد تم له ملك مصر فى ربيع سنة ٦١٠ ؛ ومن العجيب أن أمرا واحدا لا يرد له ذكر فى ديوان أسقف (نقيوس) ، وذلك هو القسط الذى كان لحصن (بابليون) فى النضال وهو ذلك الحصن القوى بقرب (ممفيس) . فقد كان فى القوّة ثانى الحصون بمصر لا تفوقه إلا الاسكندرية ولاشك أنه قد كانت فيه قوّة مسلحة من الجنود الامبراطورية وقد كان فى وقت غزو العرب أوّل ما قصد اليه القائد العربى وكان فتحه فصل الخطاب فى انتصار الهلال . وكل هذا واضح جلى يصفه ديوان ذلك المؤرّخ حتى لا يسع الانسان إلا أن يفهم من ذلك الاغفال أن الحصن قد سلم إلى (نيقتاس) بغير حرب . فاذا صح هذا وإذا صح أن الحرب قد وضعت أوزارها قبيل ربيع سنة ٦١٠ ؛ كان من الجلى أن

(١) يقول فى الأصل (accursed) ومعناها (ملعونة) .

(٢) وهذا يوافق ما يروى من أن (حنا الرحوم) قد اختير بطريقا سنة ٦٠٩ فى هجرة (تيودور) الذى قتل فى ثورة (نيقتاس) (أنظر كتاب اوكيان) (Or. Christ.) الجزء الثانى صفحة ٤٤٤ .

(نيقتاس) لم يكن يخطر له ببال أن يسارع نحو (القسطنطينية) ، ولو فعل لاستطاع أن يصل الى العاصمة البيزنطية ويخلع (فوكاس) قبل زحف هرقل بستة أشهر، لأنه لا محل للشك فى أنه كان يستطيع أن يجهز فى مصر أسطولا كافيا لغرضه هذا . حقا إن المؤرخ (قيدرينوس) يقول أن وقعة (بونوسوس) بأهل إنطاكية ومذبحته لهم كانت فى سنة ٦١٠، ولو صح هذا لكانت الحرب المصرية كلها فى خلال تلك السنة ولكن هذا التاريخ لا يتفق مع سائر ما جاء فى كتاب (قيدرينوس) وهو أيضا لا يتفق مع (ديوان پسكال) وكذلك يختلف اختلافا لا مجال فيه للتوفيق مع النسخة الإثيوبية المخطوطة من ديوان حنا التى عندنا . وتواريخ ذلك الديوان — ديوان حنا — على وجه الإجمال موثوق بصحتها ثقة كبيرة . وعلى ذلك فانا نرجح أن التاريخ السابق هو الصحيح، ويصح لنا أن نجزم بأن (نيقتاس) بعد أن أتم الغرض الذى كان موفدا إليه بأن حاز النصر على ضفاف النيل قنع بالبقاء فى تلك البلاد حتى يقوم هرقل بزحفه، وعمل على أن يجمع جيوش الدولة التى فى مصر ويستميلها إلى جانبه ثم أن يجمع فى يده أزمة موارد البلاد العظيمة من قمح وسفن وكانت القسطنطينية تعتمد عليها اعتمادا عظيما .

الفصل الرابع

ولاية هرقـــــل

رحلة هرقل — إقامته الطويلة فى سلانيك — يسير بالبحر الى القسطنطينية — القتال فى العاصمة وموت (بونوسوس) — المناجزة بالبحر — الكنوز الامبراطورية ترمى فى البحر — أسر (فوكاس) ومقابلته لهرقل — حكم الموت وإنفاذه عليه إنفاذا فظيعا — تتويج هرقل — نظرة فيما سبق

لنصف الآن ما كان من أمر هرقل فى هذه الأثناء : إننا لا نعرف إلا اليسير من وصف رحلته فى البحر ولا يزيد (حنا النقيوسى) من العلم شيئا كثيرا على مايذكره مؤرّخو (بيزنطة) من الوصف الضئيل فانهم جميعا مثله يقصرون وصفهم على ماحدث فى نهاية الأمر فى القسطنطينية . غير أنه من الواضح أن سيره كان بطيئا وأنه بدأ سيره كما بدأ (نيقتاس) فى قلة من السفن إذا نظرنا إلى عظم ما كان مقدما عليه، وأنه كان على سفنه جنود من الروم وجنود من أفريقية، وأنه كان عليه أن يجمع السفن فى أثناء سيره ويجهز أسطولا وجيشا يكفيان لما كان مقبلا على اقتحامه من قتال (فوكاس) . وقد لقى ترحابا فى الجزائر وفى مدائن الساحل التى مر بها وجاءت إليه المتطوعة تترى تنضوى تحت لوائه ولا سيما من رجال الحزب الأخضر.[1] وليس ثمت من يذكر أن جيوشه لقيت مقاومة غير أنه ولا شك لم يخطر بباله أن يقصد الى القسطنطينية بمن سار بهم من جند قليل . فانه لما سافر من أفريقية سار على سواحل بلاد اليونان أو من خلال جزائرها حتى بلغ (سلانيك) فجعلها مقرا لأعماله وأقام بها مدة طويلة لا تقل عن عام وهو يجهز أسطولا وجيشا ويوثق

(١) يلوح أن بعض الشك يعترى ما قام به الحزبان الأخضر والأزرق فقد كان الأزرق فى أول الأمر مع (فوكاس) وكان الأخضر عليه . ولكنه نفر عنه حتى قلوب أصحاب الحزب الأزرق نفسه . وقد جاء فى ديوان (حنا النقيوسى) مايدل إجمالا على أن الذى نصر هرقل انما كان الحزب الأخضر سواء أكان ذلك فى مصر أم فى (تراقية) وقسطنطينية .

عرى المودّة بينه وبين الكارهين لفوكاس فى العاصمة وزعيمهم (كريسپوس) وكانت سلانيك فى ذاك الوقت كما هو معروف مدينة حصينة منيعة وكانت إحدى مدائن قليلة فى مقدونية قاومت جموع الهون وسواهم من الهمج الذين كانوا يجتاحون البلاد اذ ذاك[1] . فالحق انها كانت بابا من أبواب الإمبراطورية الشرقية تشرف على الطريق الآتية من قرطاجنة وصقلية وغرب البحر الأبيض المتوسط الى القسطنطينية . ففيها اذن أقام هرقل بغير قتال كما يلوح وكان مقامه فيها عزيزا حتى أن أحد المؤرخين وهو (سعيد بن بطريق) ظن على ما يلوح أنه من أهل المدينة، ولكن يجب أن نذكر أن كل ماجاء فى كتاب (سعيد بن بطريق) من ذكر حوادث هذه الثورة كان أبتر وفيه خلط كثير فى التاريخ وقد كان ولا شك مخطئا فى هذا الزعم .

ولسنا نرى من هرقل فى مدّة الأشهر الكثيرة التى قضاها فى (سلانيك) إلا سعيا واحدا وهو أن يكمل خطته ويجمع الأمداد ويزلل الصعاب . ولسنا ندرى ما كانت الصعاب التى قامت فى سبيله فى ذلك العصر الذى لا نجد شيئا من ذكر حوادثه فى دواوين الأخبار وأكبر ظننا أنه قد أبدى فيه مثلما أبداه فيما بعد فى حرب الفرس فأعجب العالم وأدهشه من همة لا يعتريها كلال مقرونة إلى حزم وبصر بالأمور. على أنه لم يفرغ من تجهيز أمره إلا فى سبتمبر سنة ٦١٠ وعند ذلك أقلع الأسطول الذى جمعه وأعدّ ما يحتاج اليه من المؤونة والعدة، ولم ينس أن يحمل معه آثار الأبرار

(١) نجد وصفا بديعا لمدينة سلانيك فى كتاب :

"Joannis Comeniatae de Excidio Thessnlonicensi Narratio"

ويمكن الاطلاع عليه فى كتاب "Combeficius"

"Historiae Bizantinae Scriptores Post Theophanem"

باريس سنة ١٨٦٥ صفحة ٣٢٠ ومابعدها .

فنجد فيه وصفا شيقا لموقع المدينة وذكرا مفصلا لما كان فيها من أسوار وحصون ومرافئ . ويدلنا ما كان بها من طرق عظيمة وبناء شامخ وتجارة واسعة رائجة وثروة وغنى — يدلنا كل ذلك على ما كان للمدينة من كبير الشأن فى نظر هرقل وقد كتبه الكاتب حوالى سنة ٩٠٠ للميلاد .

من القدّيسين فى السفن التى فى الصدر ورفع علم الصليب على رءوس سارياتها وجعل فوق سفينته دمية ذات حرمة خاصة « دمية لم تنحتها أيدى البشر» جعلها عند مقدم السفينة . وانتشرت أنباء الأسطول ومجيئه الى الدردنيل انتشار النار فى الهشيم حتى بلغت العاصمة وما كادت حتى جهرت جماعة كبيرة من الشيوخ وأهل الدولة بالدخول فى طاعة (هرقل) وكان معهم (تيودور) المجيد . ولكن يلوح أن (كريسپوس) بقى قابعا لا يحرّك ساكنا فى أوّل الأمر . ويقول (حنا النقيوسى) أن رعاع المدينة وغوغاءها ثارت على الإمبراطور وشرعت تصب عليه صنوف السباب .

والظاهر أن (فوكاس) لم يكن على استعداد طيب للقاء هذه الجائحة التى ظلت تعصف بآفاقه هذه المدّة كلها . فلما جاءته أنباء ثورة مصر أولا كان فى مرفأ الميناء عدد كبير من السفن تحمل القمح من الاسكندرية فأخذها وأسر من فيها من الرجال وسجنهم فى حصن مشرف على مرفأ (الهبدومون) فأقاموا هناك ما شاء الله فلما عاد (بونوسوس) من غزوته بالفشل ولم يقدر على استرجاع مصر لم يعاود الإمبراطور سعيا يذكر فى سبيل الدفاع . فكان أول ما أنذر (فوكاس) إنذارا مزعجا صوت هؤلاء السجناء من أهل الاسكندرية وقد هللوا إذ رأوا سفن هرقل مقبلة . وكان الإمبراطور عند ذاك فى قصر (الهبدومون)(١) على مقربة من الحصن فلم يكد يسمع ذلك حتى وثب الى جواده وأسرع به الى قصر اسمه (قصر الملك الأكبر) داخل أسوار المدينة وقد وقع ذلك فى يوم سبت على رواية (ديوان پسكال) ولا بد أن يكون ذلك هو اليوم الثالث من شهر أكتوبر . وفى اليوم التالى بعث (بونوسوس) فى جيش ومعه المركبات الحربية الملكية للقاء من ينزل الى البر من جنود (هرقل)

(١) كان قصر (الهبدومون) وحصنه على ساحل البحر على نحو ثلاثة أميال الى الغرب من الباب الذهبى أحد أبواب القسطنطينية . وهذا مأخوذ عن الأستاذ (Van Millingen) فى كتابه الجة المسمى (Bizantine Constantinople) فى الصفحات التى بين ٣١٦ و ٣٤١ (المطبوع فى لندن سنة ١٨٩٩) والحادثة التى نذكرها فى كتابنا يشير اليها الكاتب فى الصفحة المرقومة ٣٢٤ من كتابه .

ولكن فرقة المركبات ثارت ووثبت بقائدها لأن (كريسپوس) كان قد استمالهم الى حزبه فهرب القائد الى المدينة والغيظ يأكل قلبه ، فلما بلغها دفعه غيظه الى جناية فظيعة وذلك أنه جعل يقذف بالنيران على أحياء المدينة التى حول القصر المعروف (بقيصريون) فلم يقدر على إحراقه ولكنه استطاع أن يقاوم الذين لحقوا به من ورائه من غوغاء المدينة وأفسد عليهم سعيهم فلم يخلصوا اليه وهرب فى زورق الى مرسى فى الميناء اسمه (ميناء چوليان) . غير أن أعداءه لحقوا به هنالك وضيقوا عليه الخناق فحاول أن يقاومهم مقاومة عنيفة غير أن ذلك لم يجده شيئا إذ كان أعداؤه جموعا كثيرة . فلما لم يقدر على شيء ورأى الخطر منه أقرب من وريده قذف بنفسه فى الماء فغاص به وما أن طفا مرة حتى علاه سيف شق رأسه وذهب بذهابه روح مارد ثائر فغاب عن أرض طالما أفسد فيها وأخرجت جثته من الماء يجرها الناس الى (سوق الثيران) فأحرقوها يجللها العار وتشيعها اللعنات .

وهذه القصة قصة (بونوسوس) وموته قد جمعناها من ديوان (قيدرينوس) وكتاب (حنا النقيوسى) و (ديوان پسكال) . ومن العجيب أنهم يتفقون جميعا فيما يوردونه ولا يختلفون اختلافا حقيقيا إلا قليلا فقد تختلف رواياتهم ولكن اختلافها ناشئ من نقص شيء أو زيادة آخر وليس فيما بينها تناقض فى ذكر الحوادث . وفوق هذا فان مواضع الاتفاق بينهم فى كثير من الأحيان واضحة تسترعى النظر وهم إنما يتفقون فى الجوهر لا فى تفصيل الوصف وهذا يدل على أنهم كتبوا ما كتبوه وكل منهم وجده مستقل عن الآخرين وفى هذا ما يبعثنا على الاطمئنان الى رواياتهم والاعتماد عليها . وليس ثمت ما يبعث على الظن أنهم رجعوا جميعا الى مرجع واحد نقلوا عنه .

ومنذ علم الامبراطور بما أصاب (بونوسوس) عرف أن ساعته قد دنت ولم يكن فى نيته أن يخلع عن نفسه التاج فى حين لم يكن يتوقع الرحمة اذا هو سلم لأعدائه . فكان أمله الوحيد فى أن يقاتل الى أن يحكم السيف حكمه . غير أن تسلل خير جنوده عنه لم يدع له أملا إلا قليلا فلم يبق له إلا ولاء الحزب الأزرق وإن شئت فقل

لم يبق له إلا تلك العداوة الشديدة التى كان يحملها الحزب الأزرق لأعدائه أصحاب الحزب الأخضر وما داخلهم من الحنق عند ما رأوا نجاح الفئة المعادية لهم . وعلى ذلك جهز (فوكاس) أسطولا وجعل رجاله من الحزب الأزرق وجعله فى ميناء (أيا صوفيا) واستعد لقتال هرقل . وإنا ناقلون هنا قصة يرويها (حنا النقيوسى) ولا نعرف أن مؤرخا آخر ذكرها وذلك أن (فوكاس) و (خازن أمواله) (ليونتيوس) السورى عند ما علما أن حياتهما أصبحت بعد قتل (بونوسوس) فى أشد الخطر من غوغاء المدينة أخذا كل ما فى خزائن الدولة من الأموال وقذفا بها فى البحر . فضاع بذلك فى لحظة واحدة كل ما كان للامبراطور (موريق) من الثروة وما جمعه (فوكاس) من الذهب والجوهر بغصب أموال من قتل من ضحاياه وما كنزه (بونوسوس) من أموال وتحف وأوانى نفيسة حصلها بالظلم البالغ والغصب المتعدّد . قال المطران "وهكذا كان (فوكاس) سببا فى وقوع الفاقة والعوز بالدولة الرومانية الشرقية" .

وكانت هذه الفعلة شفاء للغل وريا للحقد وهى جديرة بخلق (فوكاس) . والظاهر أنها وقعت فى اللحظة التى لاح فيها نصر هرقل فى الوقعة البحرية ولا بد أن تلك الكنوز كانت محمولة فى سفينة الامبراطور حتى لا تؤخذ نهبا فى أثناء القتال . فلما وقعت الهزيمة ألقى بها فى اليم جميعا وما كان من شك فى نهاية الأمر وعلى من تكون الدبرة مهما كان من شدّة القتال . فهزمت سفن الامبراطور وقذف بها الى الشاطئ أو استولى عليها العدوّ وفرّ من استطاع من الجند فاستأمن فى كنيسة (أيا صوفيا) . وأما (فوكاس) فالظاهر أنه عاد بصحبة (ليونتيوس) الى (قصر الملك الأكبر) فلحق به (فوتيوس) أو هو (فوتنيوس) و (پروبس) فضربا التاج عن رأسه فتردّى عنه ثم وضع هو فى القيود والسلاسل وجىء به يجرّ جرا على جانب المرفأ وقد تمزقت ثيابه كل ممزق . وعرض هناك على جنود الجيش والأسطول المنتصرين ثم اقتادوه بين التهليل الى حضرة الفاتح المنتصر فى كنيسة (الرسول توماس) وصيحات اللعن الصاخبة تصدع أذنيه .

ومن الجائز أن (هرقل) اختار هـذه الكنيسة ليصلى فيها شكرا لله على ما أولاه ولم يختر كنيسة (أيا صوفيا) اذ كان بهـا عدد عظيم ممن فرّ من الحزب المقهور ولهذا لم تكن تتسـع لجمع كبير فوق ذلك أو لحفل دينى . ولسـنا فى حاجة الى أن نكلف خيالنا شططا ليصوّر لنا كل ما جرى بين (فوكاس) و (هرقل) وحسبنا أن نتصوّر كنيسة فخمة تزدحم برجال الدولة من قوّاد وشيوخ وجنود، وبقوم من رجال الدين مثلوا فى ثيـابهم السنية حول المحراب وقد وضعت عليـه آنية الذهب، ومن حولهم يدوى المكان بأصداء النشيد نشيد الشكر لله، ثم يدخل (فوكاس) مكبلا بالقيود .

لبث الامبراطور المخلوع برهة أمام تابعـه المنتصر وقد وصفهما (قيدرينوس) وصفا مشهورا فهرقل فتى فى زهرة العمر إذ كان فى نحو الخامسة والثلاثين وهو من بيت نبيل وكان ربعة لا هو بالقصير ولا بالطويل متين البناء عريض الصدر له قوام قوى مفتول . وكان شـعره أشقر وكذلك لحيته وكان وجهـه ناصعا منيرا له عينان لونهما صافى الزرقة وتعلوه وسامة بديعة . فكان ظاهره ينم عن رجل صادق صريح عليه وقار وهيبة قوى فى جسمه وعقله تبدو على وجهه سيماء الشجاعة والحزم والقدرة ولعله كانت تبدو عليـه كذلك صفة أخرى ذكرها (سعيد بن بطريق) ألا وهى أنه لا يعبأ بما يرتكب فى سبيل إتمام قصده . أما (فوكاس) فكان فى مثل قامته ولكن هذا كل ما كان بينهما من الشبه . فقد كانت صورته كريهـة مما بها من العاهات وكان لا لحية له، يعترض وجهه ندب جرح قبيح غائر فيه، وكان ذلك الندب يحمر أو يربد كلما ملكته سورة وثارت ثائرته . وكان حاجباه بارزين يقترنان فوق جبهة خفيضة من فوقها جمة من شعر أحمر ومن دونها عينان تومضان وميضا وحشيا . وكان بذئ اللسان، مدمنا للخمر مقبلا على المعاصى قاسى القلب لا يتحرك قلبه بشفقة اذا ما عذب أو سفك الدماء . هذه صورة ذلك الجندى الذى سلط على الدولة الشرقية سوط عذاب ثمانى حجج ثم جاء عند ذلك ليحاسب على ما جنت يداه . فتلى عليه كتاب ذنوبه وكشفت منه جريمة بعد أخرى وقال هرقل "أهذا سبيل حكمك؟" فكان ردّه "وهل أنت من يحكم خيرا من هذا؟" .

حكم عليه بالقتل وأنفذ فيـه ذلك وارتكبت فى قتله مثـلة فظيعة ولعمرى أن تلك المثلة لم تكن من عيب فى (هرقل) أو قسوة فى خلقه بل كانت من عيب فى العصر كله وما كان معروفا فيه من العادات . على أنها لم تكن أفظع مما كان مباحا فى قانون بلادنا[1] من تقطيع الأوصال وقطع الجسم أرباعا . قطعت أعضاء (فوكاس) فقطعت يداه أولا ثم بتر ذراعاه وتلا ذلك تشويه آخر ثم قطع رأسه بعد ذلك و وضع على قضيب وعرض فى أكبر طرق المدينة . أما سائر جسمه فقد سحب على الأرض الى ميدان سباق الخيل ثم الى سوق الثيران وأحرق فى الموضع الذى كان فيه رماد (بونوسوس) ولما يكد يبرد وأحرق عدا ذلك علم الحزب الأزرق (وليس الأخضر كما زعم جبون) وجىء بتمثال (فوكاس) فحملوه فى ميدان السباق فى موكب استهزاء يحمله جماعة يلبسون الثياب البيضاء الكهنوتية وفى أيديهم الشموع موقدة حتى رموه فى النار . وقد قال قائل "قد أحرقوا (فوكاس) و (ليونتيوس) و (بونوسوس) وذروا رمادهم فى الهواء إذ كان الناس كلهم يكرهونهم" .

وألبس هرقل التـاج ، كما يقول (حنا النقيوسى) وما كان راغبا فيـه وذلك فى الكنيسة عينها كنيسة (القديس توماس) وعاد بعد أن أدى الصلاة ذاهبا الى القصر وجاء أعيان المدينـة يؤدون له الولاء ويقول (قيدرينوس) إن تتويجه انمـا حدث فى كنيسة (القديس اسطفن) وهى متصلة بالقصر فى حين أن (ديوان پسكال) يذكر أن تتويجـه حدث بين حادثة إحراق (فوكاس) وبين إحراق تمثاله ولا يذكر مكانا لذلك وهذا فيه من الخلط ما فيه . ومن العجيب أن ديوان (حنا النقيوسى) يؤيد قصة تردد (هرقل) فى قبول التـاج وأن (ديوان پسكال) وسائر مؤرخى بيزنطة يؤكدون وقوع ذلك التردد . على أنه لم يلبث أن زالت وساوسه وأعلنت ولايته للأمر إمبراطورا للدولة فى اليوم الخامس من شهر أكتوبر سنة ٦١٠ وأصبحت عروسـه المخطوبة (فابيا) أمبراطورة للدولة وصار اسمها (أودوقيا) .

---

(١) يقصد بلاد الانجليز طبعا (المعرب) .

والظاهر أن (نيقتاس) لم يعمل على أن يتصل بهرقل عنـد القسطنطينية على خلاف ما جاء فى ديوان حنا ممـا يدل سياقه على أن (نيقتاس) كان فى العاصمة عنـد ما خلع (فوكاس) ولا بد أن يكون الصواب ما ذهب اليه (زوتنبرج) من أن ذكر اسم (نيقتاس) فى هذا الوضع إنما كان نتيجة سهو وقع فيه الكاتب أو النـاسخ وأن الصواب هو (كريسپوس) ولو كان(نيقتاس)ترك مصر حقيقة ولحق بهرقل فاشترك معـه وتم له ما ابتغى لمـا خفى الأمر على أحد ولمـا جاء ذكره عرضا فى غموض وإبهام . على أنى لا يسـعنى إلا أن أخالف (جبون) حيث يقول "كانت رحلة هرقل سهلة موفقة وأما سير (نيقتاس) فقد كان شاقا عسيرا ولم يتم حتى كان النضال قد انتهى لخضع للقضاء الذى حبا صديقه ولم يظهر أقل تألم ممـا كان" .

وما هـذا القول إلا قلبا للحقيقة كما بينا فإن مسير نيقتاس هو الذى كان سهلا موفقا على وجه الإجمال وقد بلغ مقصـده الذى رمى اليه منـذ ملك مصر على رغم ما اعترض سبيله من الأخطار وما لقى من العوائق بوقوف (بونوسوس) فى وجهه . وقد وقع كل ذلك قبل أن يستطيع هرقل أن يزحف من (سلانيك) على العاصمـة بزمن طويل . فما سبق نرى من العدل أن نقول إن هرقل لاقى عقبات ومصائب فى رحلته وكان عليه أن يقهرها و لكن ليس فى أيدينا من وصفها شىء ولا نستطيع أن ندركها أو نعرف حقيقتها .

الفصل الخامس

مصر فى حكم الأمبراطور الجديد

يبقى نيقتاس على حكم الإسكندرية — سياسته — نقص فى تاريخ مصر — اعتمادنا على تراجم البطارقة — (حنا الرحوم) والمجاعة الكبرى — سفن القمح التى تملكها الكنيسة — ولاية بطارقة القبط

أرسـل الأمبراطور إلى نيقتاس يثبته فى حكم الاسكندرية وإن شئت قلت إنه جعله نائبا عن الملك فى مصر (١). وأصبح أصحاب (فوكاس) بين قتيل قضى عليه أو طريد مبعد أو مرتد ترك الجانب الخاسر وهجره. فكان همّ (نيقتاس) أن يعيد للحكم المدنى الرومانى نظامه وأن يعيد للجيش الرومانى كيانه وكان هذان آلتى الدولة الرومانيـة تحتفظ بهما بملك مصر وكان الحكم المدنى والجيش كلاهمـا فى يد السادة الحاكمين ليس فيهم أحد من أقباط مصر أهل البلاد. فكان ذلك الحكم من هذا الوجه أشبه شىء بحكم الانجليز فى الهند على أنه يختلف عنه اختلافا عظيما كان سببا فى القضاء عليه. وذلك أن حكومة مصر لم يكن لهـا إلا غرض واحد وهو أن تبتز الأموال من الرعيـة لتكون غنيمة للحاكمين ولم يساورها أن تجعل قصـد الحكم توفير الرفاهة للرعية أو ترقية حال الناس والعلو بهـم فى الحياة أو تهذيب نفوسهـم أو إصلاح أمور أرزاقهم. فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد إلا على القوّة ولا يحس بشىء من العطف على الشعب المحكوم. وكانت فى يد الحكام عاصمة البلاد الاغريقية كما كانت فى يدهم العاصمة المصرية القديمة منفيس وحصنها العظيم حصن بابليون الرومانى على الشاطئ الشرقى من النيـل. وكذلك كانوا يملكون مدائن عدّة حصينة يلى بعضها بعضا بين أسوان فى الجنـوب والفرما فى الشمال. وكان جنـد

(١) تجد وصفا لا بأس به عن (نيقتاس) فى كتاب هـ. جلزر. الموسوم "Leontios Von Neapolis Leben des Heiligen Johannes" صفحة ١٢٩

الحكومة وجباة ضرائبها ينتشرون من تلك المدائن يظهرون هيبة السلطان ويجمعون الأموال على حين كان تجار الروم واليهود يحلون حيث شاءوا تحميهم جنود الربط ينافسون الأقباط فى التجارة منافسة شديدة .

وكانت الاسكندرية من أشق بلدان العالم حكما لأنها كانت تجمع أخلاطا من الناس من إغريق بيزنطة وآخرين ولدوا بمصر وقبط وسوريين ويهود وعرب وغرباء من جميع البلاد ، ولكن يلوح أن نيقتاس قد كسب إجلال أهل الاسكندرية وإن لم يكسب حبهم مع ماعرف عنهم من التقلب وحب الخروج . وكان من أول ماأمر به أن رفع عنهم جباية المال ثلاث سنوات فكانت تلك يدا مازهم بها زادتهم تقديرا له بعد مارأوا من غنائه فى الحرب . وليس ثمت شك الآن فى أنه بقى مقيما فى الأسكندرية (١) . حقا إنا نسمع بأنه كان فى بيت المقدس قبل زحف الفرس عليها ويقولون أنه أنقذ بعض الآثار المقدّسة — الحربة والاسفنجة ، من أن تدركها يد الفرس ولكنه عاد إلى الإسكندرية بعد ذلك كما سنرى . فالحقيقة هى بلا شك أن هرقل أمره أن يسير إلى الشام لعله يدفع عنها الفرس ولم يكن عنده علم بمقدار ما أتوا به من الجيوش الجرارة . فلم يستطع نيقتاس إلا أن يسرع عائدا الى مصر .

ولكن من سوء الحظ أن تاريخ مصر فى هذه الفترة عسير إدراكه فان ديوان (حنا النقيوسى) لايذكر عنها شيئا وعليه جل اعتمادنا الى ذلك الوقت فإن بالنسخة التى ننقل عنها نقصا كبيرا إذ تغفل ثلاثين عاما من ذلك الوقت . وكأن يدا أثيمة قد عمدت

(١) هذا ظاهر من كتاب (ليونتيوس) ومن مراجع أخرى ولكن يلوح أن حكم (نيقتاس) فى الاسكندرية لم يكن معلوما حتى لمثل الأستاذ Bury فهو يأخذ عن (جبون) كما يظهر — و يقول إن (نيقتاس) كان لايزال يميل الى أن يسير بجيوشه المسكينة فى البر الى القسطنطينية سالكا ذلك السبيل كله خلال مصر وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى و يقول ان نيقتاس "لم يصل الى القسطنطينية إلا حوالى أبريل سنة ٦١٢ ؛ ولسنا ندرى ماذا عاق سيره ولعله تأخر فى الشام ليحارب الفرس" « نقلا من كتابه "Hist. of the Later Rom. Emp." الجزء الثانى صفحة ٢١٦ ، هامش ٢ » .

وقصة هذا السباق البرى الى القسطنطينية لا تزيد على أنها قصة خيالية . فقد كان قصد نيقتاس مصر وقد بقى فيها ليحكمها بعد أن فتحها باسم هرقل .

إلى ذلك الكتاب فأودت بكل مافيه ذكر لحكم هرقل . غير أننا نجد ذكر كثير من حوادث بعض أنحاء الدولة فى بعض مؤلفات الأرمن[١] أو كتب سواهم من أهل الشرق التى كتبت فى هذا العصر. ولكن ما أشبه هؤلاء بمؤرخى بيزنطة فى أنهم لا يذكرون إلا النذر اليسير عن مصر . على أننا نستطيع أن نلمح خلال الظلام سير الحوادث الكبرى التى عصفت بسلطان الدولة البيزنطية فى مصر فى أواخر حياة ذلك الامبراطور.

فاذا نحن أردنا أن نعرف تاريخ مصر فى مدّة الأعوام الثلاثين التى بين ولاية هرقل وبين الفتح العربى فلا مناص لنا من أن نلجأ على الأكثر الى ما كتبه رجال الكنيسة أو ما كتبه رجال لهم ميول دينية قوية تجعلهم غير أمناء فى رواياتهم . فالحق أن أمور الدين فى القرن السابع كانت فى مصر أكبر خطرا عند الناس من أمور السياسة . فلم تكن أمور الحكم هى التى قامت عليها الأحزاب واختلف بعضها عن بعض فيها بل كان كل الخلاف على أمور العقائد والديانة ولم يكن نظر الناس إلى الدين أنه المعين يستمدّ منه الناس ما يعينهم على العمل الصالح بل كان الدين فى نظرهم هو الاعتقاد المجرّد فى أصول معينة . وكان الناس لا يكادون يحسون بشىء اسمه حب الوطن وما كانت عداواتهم عند اختلاف الجنس والوطن لتثور ويتقد لهيبها على الأكثر إلا إذا اختلف معها المذهب الدينى . فكان اختلاف الناس ومناظراتهم العنيفة كلها على خيالات صورية من فروق دقيقة بين المعتقدات وكانوا يخاطرون بحياتهم فى سبيل أمور لا قيمة لها وفى سبيل فروق فى أصول الدين وفى فلسفة ما وراء الطبيعة يدق فهمها ويشق إدراكها . فحق على مصر المسيحية قول الشاعر (جوفنال) إذ يصف ما كان بين قومه من النزاع والشقاق على أيها أفضل فى العبادة عبادة التماسيح أم عبادة القطط إذ قال "كل مكان يكره الآلهة التى لجيرانه ويعتقد أن الآلهة الحقيقية هى التى يعبدها هو"[٢] . لقد تغير الزمان ولكن الناس هم هم لم تتغير

(١) نجد ثبتا بأسماء المؤرخين من الأرمن فى "الجريدة الأسيوية" فى المجموعة السادسة من عام ١٨٦٦ المجلد السابع ص ١٠٩ .

(٢) Numina vicinorum.
Odit uterque locus, cum solos credat habendos.
Esse deos quos ipse colit.

طباعهم. ومنذ كانت الأحزاب ومناظراتها قائمة على ما كان فى الدين من شيع وفرق كان جل آثار العصر وما تخلف من كتبه تراجم لحياة القديسين والبطارقة وقلما نجد فيها ذكرا لأهل الحرب أو السياسة، وعلى هـذه الآثار نعتمد فى معرفة تاريخ مصر فى ذلك العهد.

كان فى مصر فى ذلك العصر ما كان فيها منذ مجلس (خلقيدونيه) فى سنة ٤٥١ وذلك أن كلا فرقتى المسيحية بمصر كان لها بطريقها وكانت أمورها الدينية مستقلة. ولكن هذا لم يذهب بشيء من شـدّة الخلاف الثائر بين الأحزاب ولم يقلل من متاعبه. نقول هنا للمرة الثانية أن الحزبين بمصر كانا يعرفان باسمين مشهورين: أوّلهما حزب اليعاقبة وهم القبط، والثانى حزب الملكانية(١) وهم حزب الملك وكان اليعاقبة على مذهب (المونوفيسيين) وأكثرهم وإن لم يكونوا جميعا من الجنس المصرى(٢) على حين كان الملكانيون يتبعون المذهب الذى أقرّه مجلس (خلقيدونية) وكان أكثرهم من أصل إغريقى أو أوربى. ونجد إجماعا من المؤرّخين وفيهم (ساويرس الأشمونينى) على أنه ما ولى إمبراطـور إلا سار على سـنة القضاء على مذهب اليعاقبـة فى مصر

(١) وهـذا الاسم مأخوذ من أصل (ملك) وهو أصل (مشـترك) فى اللغات السامية كلها ويغلب على الظن أن لفظ (الملكانية) المستعمل فى مصر مأخوذ عن السوريانية وعلى ذلك فليس ثم من خلط فى استعماله قبل أن يفتح العرب مصر.

(٢) ويدلنا على ما كان للقبط من الشأن حتى فى الإسكندرية ما جاء فى كتاب (بروكوبيوس) (المطبوع فى أثينا سنة ١٨٩٦ صفحة ٢٢) فانه لما اختار (جستنيان) المطران (بولص) للاسكندرية جعل له الأمر على الحاكم (رودون) وظن ذلك يؤدّى الى طاعة أعيـان المدينة لمجلس (خلقيدونيـة) وكان أوّل ما أتاه (بولص) أن أمر بقتل الشماس (پسوس) وهو قبطى كان يكتب بالقبطية وكان أكبر عائق فى سبيل سـياسة الامبراطور. ومات (پسوس) وهو يعذب فثار الناس غاضبين ولم يجد جستنيان وسيلة لتهدئتهم إلا أن عزل (رودون) ثم أمر بقتـله فى القسطنطينية ولم يغنه دفاعه عن نفسـه باظهار ثلاث عشرة رسالة أتته من الامبراطور يأمره فيها بأن يطيع أمر (البطريق).

وجاء بعد (رودون) حاكم آخر اسمه (ليبريوس) فصلب رجلا اسمـه (ارسنيوس) كان أكبر عامل على قتل (پسوس) وبهذا تم الانتقام للقس القبطى ويقول (لكيان) أن (رودون) هو الذى أمر بقتل (پسوس) ولكن ميله الى الحزب الملكانى واضح وضوح شهادة (بروكوبيوس) على البطريق بولص.

قضاء لا هوادة فيه ولا رحمة . وكان اليعاقبة لا يرضون إلا بأن يمحوا كل أثر من آثار مذهب (خلقيدونية) .

وقد سبق ذكر مقتل البطريق الملكانى (تيودور) عند فتح (نيقتاس) للاسكندرية سنة ٦٠٩ فقد كانت[1] ثورة (هرقل) ثورة على السلطان الإمبراطورى فى القسطنطينية وكان القبط باشتراكهم فيها يؤملون بلا شك أن يجدوا فى الحكم الجديد سيرا أرفق بهم مما كانوا يجدونه من عسف (فوكاس) . والحق أنهم لم يشعروا بخيبة بالغة فى أول الأمر فان البطريق القبطى (أنستاسيوس) بقى على كرسيه ست سنوات بعد خمس قضاها فى مدة الثورة حتى توفى فى ٢٢ كيهك (أى ١٨ ديسمبر) من سنة ٦١٦ للميلاد[2] . واستطاع الأقباط عند ذلك أن يبنوا فى الاسكندرية بعض الكنائس أو يعيدوا بناء أخرى مثل كنيسة (القديس ميخائيل)

(١) وقد أخطأ (شارب) فى زعمه أن (تيودور) كان مطرانا (مدة السنوات الثلاث الأولى من حكم هرقل) : أنظر "History of Eg. under the Romans" صفحة ٢٤٠) على أنه جاء فى ديوان بسكال أن فى هذه السنة (سنة ٦٠٩) قتل بطريق الاسكندرية (قتله أعداؤه)[*(٢)] ، وربما كان يقصد القبط وفى السنة نفسها نصب (زكرياس) بطريقا على بيت المقدس .

(٢) يظهر أن هذا التاريخ أقربها للصواب . على أن ضبط التاريخ هنا كما هو فى سائر المواضع من أشق الأمور . ويقول (أبو البركة) إن (انستاسيوس) توفى سنة ٦٠٤ وجاء فى (الديوان الشرقى) أن وفاته كانت سنة ٦١١ بعد ولاية اثنى عشر عاما ومائة وتسعين يوما . وجاء فى كتاب (اكلنسس) ان ذلك كان بين سنة ٦٠٧ ، سنة ٦١٩ ولعل هذا أقرب للحقيقة من سواه — لكننا من جهة أخرى نرى (الديوان الشرقى) وهو يورد فى صراحة أن قدوم بطريق (أنطاكية) اليعقوبى على (انستاسيوس) كان فى السنة التى خرب فيها الفرس بيت المقدس أى سنة ٦١٥ ومن جهة أخرى نرى (ساويرس) يورد أن غزوة الفرس لمصر (وقد كانت سنة ٦١٦) حدثت بعد موت (انستاسيوس) وهاتان الروايتان يمكن التوفيق بينهما باتخاذ التاريخ الذى اتخذناه فى كتابنا وذلك أن نجعل وفاة (انستاسيوس) فى ديسمبر سنة ٦١٦ وإن كان (الديوان الشرقى) ينقض رواية نفسه بأن يجعل موت (أنستاسيوس) فى سنة ٦١١ (أنظر ذيل الكتاب المرقوم بحرف (ب) وفيه كلام أكثر تفصيلا عن مسألة ضبط التواريخ) .

(٢) عن كتاب (ساويرس) الذى نقل عنه (لكيان) فى كتابه (.Chron. Or) (الجزء الثانى صفحة ٤٤٤) ويذكر (الديوان الشرقى) فوق ذلك أن (أنستاسيوس) لم تقتصر همته على أن بنى كنائس جديدة بل إنه أرجع الى القبط كثيرا مما كان قد استولى عليه الملكانيون من كنائسهم وما كان يستطيع هذا لولا أن عضده (نيقتاس) وآزره الأمبراطور .

وكنيسة (القديس انجيلوس) والقديسين (كزماس) و (دميان) هذا عدا أديرة عدّة . وكان (انستاسيوس) ينصب القسوس و يعتمد المطارنة ولكن لا ننس مع ذلك أن الملكانيين كانوا لا يزالون محتفظين بسلطانهم فى العاصمة ولهم أكبر الكنائس فيها .

وليس ثمة ما يدعو الى الشك فى أن هرقل كان حريصا كل الحرص على أن يستميل قلوب أقباط مصر . وكان (نيقتاس) فى الوقت عينه يرى لزاما عليه أن يجزيهم على ماقدّموه من خدمة فاذا كانت حكومة بيزنطة قد أقامت بطريقا ملكانيا بدلا من (تيودور) القتيل فانها اختارته رجلا أوصى به (نيقتاس) إيصاء خاصا[(١)] وكانت حياته الماضية وخلقه بحيث جعلاه موضع إعجاب اليعاقبة حتى بجلوه فى حياته وعظموه بعد مماته إذ اتخذوه أحد القديسين الذين تخلد أسماؤهم فى التقويم القبطى . ومن العجيب أن (نيقتاس) جاء بعد ذلك فساعد مساعدة كبرى فى التوفيق بين (المونوفيسيين) من أهل الشام و بين الكنيسة القبطية وهذا يدل على أنه كان يميل للأقباط و يعطف عليهم وأنه لم يكتف بأن يسلك معهم مسلك الاعتدال والتسامح .

وكان المطران الأكبر الملكانى الذى عين حديثا هو (حنا الرحوم) أو هو المحسن . وقد أطلق عليه ذلك اللقب لما كان يأتيه من أعمال البر والإحسان[(٢)] ولكن كرمه لم يكن فوضى فانه بعث من حوله ليجوسوا خلال المدينة فيأتوه بخبر "سادته ومساعديه" فلما سألوه عما يعنيه بقوله أجاب قائلا (أقصد من تسمونهم أنتم "الفقراء والمساكين" وأسميهم أنا "السادة والمساعدين" لأنهم فى الحق يساعدوننا و يمنحوننا ملكوت السموات) . وعلى هذا كتبوا له صحيفة بأسماء الفقراء فأجرى

(١) انظر كتاب (جلرز) "Leontios Von Neapolis" (الجزء الثانى صفحة نمرة ٢١٠) (قطعة من حياة حنا الرحوم تأليف (حنا مسكوس) و (صفرونيوس) .

(٢) جاء فى (جبون) وهو قول عجيب فيه ظلم عجيب "كان إحسان (حنا الرحوم) الذى لاحد له صادرا عن أحد بواعث ثلاثة فاما أن يكون عن جهل وخرف فى العقيدة و إما أن يكون عن حب للبر و إما أن يكون عن سياسة يرى اليها" و يظهر أنه يظن أن فى أيام حنا أعطيت كنائس الإسكندرية للكاثوليك واضطهد مذهب المونوفيسيين وهذه عبارة تبعد عن أن تصدق على هذا العصر بعدا أكبر من أى عصر آخر .

عليهم كل يوم رزقا وبلغ عددهم ٧٥٠٠ ، فلما رأى (نيقتاس) أن البطريق تجرى يده بالعطاء جريان البحر نفس عليه ذلك وجاءه يوما فقال "ان الدولة محتاجة أشدّ الحاجة الى المال . وان ما عندك من المال يأتى إليك عن رضا لا يؤذى أحدا فابعث بما عندك إلى بيت مال الدولة" فقال له البطريق "إن ما نقدّمه لملك السموات يجب ألا نبذله لملك فى الأرض ولست بمعطيك شيئا عن رضا . ولكن خزانة الله تحت سريرى هذا وأنت وما تختار لنفسك" . فدعى نيقتاس بحراسه وأمرهم أن يأخذوا المال من تحته . وفيما كانوا خارجين رأوا قوما يحملون فى أيديهم أوانى صغيرة كتب عليها "أحسن العسل" وأخرى عليها "عسل لم يدخن" فسألهم نيقتاس أن يعطوه واحدة منها لطعامه فهمس القوم فى أذن البطريق ان فيها ذهبا فأرسل حنا آنية منها الى نيقتاس مع رسول ، وأرسل اليه ألا يفتحها إلا فى حضوره . ثم قال إن كل الأوانى التى رآها وهو خارج لم تكن إلا مملوءة بالمال . فلم يسع نيقتاس مع هذا إلا أن ذهب الى البطريق وردّ اليه كل ما أخذ منه من المال وكذلك ردّ الآنية . ثم بعث اليه بمال آخر من عنده (١) .

ومثل هذه القصص تظهر على الأقل ما كان لرئيس الدين بالاسكندرية من سلطان وما كان لديه من موارد المال وإنه لمن المستطرف أن نعلم كذلك أن الكنيسة كانت تملك أسطولا من السفن التجارية وقيل إن إحدى تلك السفن ساقتها الريح عن طريقها وكان عليها عشرون ألف مد (٢) من القمح فبلغت السفينة سواحل بريطانيا وكان بها قحط شديد ثم عادت تحمل من هناك القصدير فباعه الربان فى (پنطاپولس) . وجاء فى موضع آخر أن جمعا من السفن يبلغ الثلاث عشرة سفينة عدّا يحمل كل منها عشرة آلاف مدّ من القمح ، ذهب كل ما فيها ضياعا فى البحر الادرياوى فى أثناء عاصفة وكانت كلها ملكا للكنيسة وتحمل عدا القمح حمولة

(١) جاءت هذه الأخبار فى كتاب (ليونتيوس) ونجد رواية أخرى وهى مما يحتمل وقوعه جدا وفيها يقال أن (نيقتاس) طلب المال بأمر من هرقل وكان فى حاجة اليه ليصلح به الجيش (أنظر كتاب (ليبو) "Hist. du Bas Emp." (طبعة سان مارتان الجزء الحادى عشر فى صفحتى ٥٢ — ٥٣) .

(٢) نحو كيل (الويبة) أو هو أقرب الى خمس الاردب .

أخرى من الفضة والمنسوجات الدقيقة وسوى ذلك من ثمين المتاع[١] . ولا يمكن أن يشك أحد فى أن الكنيسة كان لها قسط من تجارة القمح العظيمة التى كانت رائجة بين الاسكندرية والقسطنطينية . وكان چستنيان قد أعاد لها نظامها ورواجها[٢] . وكان للكنيسة فوق ربح هذه التجارة وفوق ما كان الناس يهبونها طائعين مختارين أوقاف من أرض الزراعة تؤتى أموالا عظيمة . فليس من العجيب إذن أن نرى (حنا الرحوم) يدهش الناس بانفاقه وكان (أندرونيكوس) الذى صار بطريقا للقبط بعد (أنستاسيوس) وأدرك عهد (حنا الرحوم) مدّة أشهر لا يقل عنه شهرة بثرائه وكثرة إحسانه .

بقيت مصر وفيها بطريقان للمذهبين مدة وكانت خطة هرقل فى مبدأ أمره أن يوفق بين هذين المذهبين العظيمين الذين اقتسما أتباع الدين المسيحى فى مصر . ولكن لم يستطع رئيس الدين القبطى أن يبقى فى العاصمة فقد كانت العداوة بين الشيعتين وإن خمدت ، تتقد فى خفاء ويندلع منها اللهب إذا ماهب عليها أضعف ريح من الفتنة . ورأت الحكومة أن من الحكمة التفريق بين رئيسى الدين حتى لا يبقى المتنافسان معا فى العاصمة[٣] . فان (أنستاسيوس) مثلا عند ما جاء إليه بطريق أنطاكية

(١) لعل الكنيسة حصلت على ميزات خاصة فى التجارة منذ منع حاكم الاسكندرية هيفايستوس فى أيام چستنيان ما كان معتادا تقسيمه بين العامة (وقدره ألف ألف مدّ) وكانت تلك عادة منذ أيام دقلديانوس . وقد بعث ذلك الحاكم إلى الامبراطور يعيب عادة توزيع القمح و يصفها بالظلم وبأنها ليست من الحكمة . (أنظر كتاب پركوبيوس صفحة ٢١٩ طبعة أثينا سنة ١٨٩٦) .

(٢) كانت خزائن القمح عند مرسى (فيالى) بالاسكندرية عرضة للسطو والنهب كلما ثارت فتنة فى طريق من الطارق فلما جاء (چستنيان) حصن الخزائن التى تأتى إليها السفن من النيل بأن بنى حولها سورا وكذلك كانت سفن القمح قبل عهده تبقى مدة عند مدخل الدردنيل تنتظر ريح الجنوب تدفعها فى سبيلها فعالج (چستنيان) هذا العائق بأن بنى بناء عظيما ترسو عنده السفن وتنزل أحمالها وتفرغ ما بها فى الحال ثم تعود الى مصر فى حين تحمل جماعة أخرى من السفن ذلك القمح الى القسطنطينية اذا ما اعتدل الريح لسيرها .

أنظر كتاب (پروكوپيوس) فى موضوع «ما بناه چستنيان» طبعة (Pal. Pil. Text Society) الجزء الثانى صفحة ١٥٢

(٣) من العدل أن نذكر أن المقريزى يروى أن (أنستاسيوس) " جعل مقامه فى الاسكندرية " ولعل المقصود من هذا أنه كان مقيما بقرب الاسكندرية وهذا مسلم به لا خلاف فيه ، ولكن رواية المقريزى عن هذا العصر مضطربة ولا يمكن الاعتماد عليها (انظر ترجمة ملان من ٦٧ — ٦٩) .

كان مقيما فى دير (الهانطون) وهو دير شهير على الساحل على نحو تسعة أميال إلى غرب الاسكندرية[١] ، ومن ثم خرج فى موكب مهيب للقاء ضيفه[٢] . وكذلك لم يذهب الى الاسكندرية بل أرسل يطلب قسوسه منها وعقد فى الدير مجمعا أسفر عن رجوع الاتفاق والاتصال بكنيسة أنطاكية .

---

(١) ورد ذكر اسم هذا الدير فى اللغة القبطية مرة **πιεnατon** (انظر كتاب زويجه "Cat. Cod. Copt." صفحة ٨٩ وصفحة ٩٣ وورد مرة أخرى **πιϩεnατon** (انظر الكتاب عينه صفحة ٣٣٧) وورد مرة ثالثة **πϩεnατon** (انظر كتاب أميلينو Geog. de l'Eg. a l'epoque Copte صفحة ٥٣١) والاسم فى اليونانية هو (إناتون)[٣]* أو (إناتون)[٤]* ومعناه التاسع (انظر كتاب (Cotelerius) "Mon. Ecc. Gr" صفحة ٤٦٠ وصفحة ٥٢٠ (وكتاب حنا مسكوس Pratum Spirituale) وهذا الاسم يترجم فى اللاتينية باسم (Ennatum) والمقريزى العربى يذكر ديرا اسمه (الزجاج) مع دير (أناتون) أو (الهانطون) و يقول إنه مكرس باسم (مارجرجس) و يروى أن البطريق فيما مضى كان عليه بعد انتخابه فى كنيسة المعلقة فى حصن بابليون الرومى أن يذهب إلى دير الزجاج ولكن هذه العادة نبذت فيما بعد وهذا يدل بلا شك على ما كان لدير (أناتون) من الشأن عند الأقباط وقد زاد شأنه فى تاريخ القرنين السادس والسابع وكانت جثة (ساويرس) بطريق أنطاكية محفوظة هناك كما جاء فى تقويم الكنيسة . وقد قاموا فى ذلك الدير بمراجعة الترجمة السريانية للانجيل كما حدث فيه اتحاد كنيسة مصر وكنيسة أنطاكية فى ذلك الوقت . ويذكر أبو صالح هذا الدير (راجع كتاب الكنائس والديارات فى مصر) طبعة (إفنس وبتلر صفحة ٢٢٩ وهامشها) واسمه فى ذلك الكتاب (هوناتادون) ويستخلص (جولدشميت) و (بريرا) أن (أناتون) هو (الزجاج) وأنا مدين لما كتباه فى هذا الموضوع . ويقولان إنه على تسعة أميال الى غرب الاسكندرية وأنه كان مكرسا باسم (مارجرجس) ويلوح لى أنه من الواضح أن ذلك الاسم مأخوذ من رقم البريد على الطريق فقد كان ذلك المتبع فى مصر مثل ما كان متبعا فى قسطنطينية فمثلا كان الحصن الشهير أو القصر يسمى (الهبدومون) ومعناه السابع . أما نسبته الى (مار جرجس) فأكثر غموضا فيظهر اسمه (سلاما)[٥]* فى كتاب حنا مسكوس وكان غير الدير الذى ذكره (ساويرس) وهو دير(قبرنوس) . ولكن هذا الاسم يجب أن يكون دير (قبريوس) أو دير (قبر يوس) ولكن الحقيقة بلا شك هى أن هذا الدير مثل سائر الأديرة الكبرى كان فيه عدة كنائس داخل أسواره . وكانت هذه الكنائس ينسب كل منها الى قديس خاص وهذا قد يسبب شيئا من الخلط . وكان فى الجنوب الغربى من الاسكندرية مما يلى مريوط دير آخر اسمه (بمبتون)[٦]* (ومعناه الخامس) . ونقرأ عن دير آخر اسمه (اجتوكيكاتون) (ومعناه المائة والثانية) . (انظر مجلة "Or. chret." سنة ١٩٠١- الجزء الأول صفحة ٦٥ هامش ١) .

(٢) جاء فى كتاب السيدة ا . ل بوتشر (The story of the Church in Eg.) أن بطريق أنطاكية جاء الى مصر لاتذا عند غزوة الفرس ولكن الحقيقة أنه جاء الى مصر ليجتمع مع البطريق القبطى =

ولكن أندرونيكوس خليفة (أنستاسيوس) شذ عن هذه السنة سنة ترك الاقامة بالاسكندرية فقد كان عند انتخابه شماسا فى كنيسة (انجيليون)[1] بالاسكندرية فبقى هناك مقيما فى صومعته المتصلة بالكنيسة مدّة ولايته وكانت ست سنوات. والسبب فى أنه لم يبعد عن الاسكندرية هو أنه كان من أسرة عريقة وكان له قوم من أقاربه بين حكام المدينة يمنعونه و يعتز بهم. ولسنا ندرى كيف كانت العلاقة بين البطريقين، على أن (حنا الرحوم) مات بعد أشهر قليلة من ولاية (أندرونيكوس) رئاسة الدين فى القبط. ولسنا نعرف على وجه التأكيد ماذا كان جورج[2] الذى ولى بعد حنا بطرقة الملكانية قد أقام فى الاسكندرية أم لم يقم، وعلى ذلك فأغلب الظن أن العلاقة بين الاثنين لم تكن ذات شأن عند ذلك.

وليس من المجدى أن نأسف لأن أمثال هـذه الأخبار المفصلة عن الكنيسة والتى لا تلذ كثيرا للقارئ هى جل ما بقى من تاريخ مصر فى السنوات الخمس أو الست التى جاءت بعد ثورة هرقل. ولكن قد آن لنا أن نخرج من هذه الترهات الى السبيل الواضح فنرى ما كانت تتجاوب به الأنحاء الشرقية من الدولة من جليل الحوادث التى بلغ صداها جوانب النيل، وكان قد جرى القضاء بأن تزعزع قوّة الرومانيين فى مصر و تصدّع جدرانها، فتمهد بذلك السبيل الى الفتح العربى. ولكن النضال الذى كان بين أمبراطورية الرومان ودولة الفرس كان شائعا فى ميدان فسيح، واذا أردنا أن نعرف أثره فى مصير مصر كان علينا أن نسير وراء حوادثه وتقلبات أحواله ولو كان ذلك إلمـاما غير مفصل.

= بشأن أمور متصلة بالكنيسة وكان أكبرها أمر اتحاد الكنيستين وقد جاء فى الوقت نفسه عدد كبير من الناس منهم قسوس من أهل الشـام مع مطارنتهم ومنهم قوم من غير رجال الدين من مختلف الطبقات لاجئين الى الاسكندرية من غزو الفرس (أنظر كتاب جلزر Leontios von Neapolis الجزء الثانى صفحة ١١٢

(١) ليس من الواضح هل اسم الكنيسة (Angelion) أو (Evuangelion) وكلا الاسمين موجود ولكن لعل اسم (Angelion) هو أخف الاثنين وأسيرهما.

(٢) لا نعرف شيئا أو لا نعرف إلا القليل عن (جورج) هـذا سوى أنه كتب ترجمة لحياة (القديس كريسوستوم) و يقول (تيوفانس) أن مدة ولايته أربع عشرة سنة ولكنه ينقض ما قال إذ يقول — ولعل قوله هذا هو الحق — أنه مات سنة ٦٣٠ بعد ولاية عشر سنوات. أما سعيد بن بطريق فيجعل رئاسة الدين شاغرة مدة سبع سنوات بين حنا وجورج ولعل هذا هو السبب فى اختلاط الأمر على (تيوفانس).

الفصل السادس

فتـــح الفـــرس للشـــام

ولاية كسرى ملك الفرس — موت موريق وانقطاع المودة بين فارس والامبراطورية — فتح الفرس للشام — اليهود والنصارى — أخذ بيت المقدس وأسر البطريق (زكرياس) — توافد اللاجئين الى مصر — أعمال (حنا الرحوم) فى سبيل المساعدة — إعادة بناء الكنائس فى بيت المقدس — عقد كسرى للجمع المسيحى — بعثة (حنا الرحوم) إلى بيت المقدس

خرج الثائر الغاصب (بهرام) على كسرى حفيد (أنوشروان) ملك الفرس العظيم بعد ولايته بأيام قلائل، وطرده من بلاده فهرب مع عميه وعبروا دجلة وقطعوا أطناب القنطرة التى اجتازوا عليها حتى لا يلحق بهم أحد من ورائهم[1]. ثم سار كسرى الى (قرقيسيا) على نهر الفرات ينوى أن يؤدّى الصلاة فى مشهد من مشاهد النصارى، يسأل الله أن يخلصه من أعدائه. ومن ثم يقال إنه ضرب فى الأرض خائر العزيمة، كسيف البال لا يدرى أيحتمى بالهون أم بالروم. فرمى أعنة فرســه على غاربه وجعل الحكم للقضاء[2]، فحمله فرســه الى حدود الروم، فنزل ضيفا على القوم الذين ظلت بلاده فى حرب مستعرة معهم نحو سبعة قرون.

فلقيه الامبراطور (موريق) مرحبا مؤهلا، أو بعبارة أدق لقد لقيه نائب عنه عند (هيراپوليس). ويقال ان الامبراطور نفسه أرسل اليه هدية لا يقدّر لها ثمن من الجوهر،

---

(١) عن "Journal Asiatique" الحلقة السادسة سنة ١٨٦٦ صفحة ١٩٢؛ وكان عماه هما (بنداوى) و(بستام) وقد قتلهما ابن أخيهما حسب العادة الشرقية المتبعة عند رجوعه الى العرش.

(٢) انظر تاريخ "Tarikh Regum Persiae" (لناشره و. شيكارد صفحة ١٥٤).

وأنه زوّجه من ابنته (ماريه)[1]، وأكبر من كل هذا أنه نصره وأرسل (نارسيس) بجيش جرار ليعيد اليه ملكه من (بهرام) . وحدث اللقاء عند نهر الزاب فى إقليم (بلرات)، وكانت موقعة شديدة القتال، وكان فيها فصل الخطاب . فان جيش بهرام كان أقل عددا من جيش الروم فتمزق شر ممزق، مع أن قائده قاتل بما كان معروفا عنه من الشجاعة والبصر بأمور الحرب . وهرب بهرام الى بلخ فأدركه بها أتباع الملك وقتلوه[2]، وبذلك عاد كسرى الى عرش فارس بمساعدة الروم، واختار لحرسه الخاص كتيبة من الروم عددها ألف جندى، وبذلك حل السلام وثيقا بين الدولتين حتى لقد قيل إن كسرى تنصر، ويستدلون بما قدّمه من النفائس قربانا لمشهد (مارسرجيس) وما كتبه من الرسائل إلى بطريق أنطاكية على أنه[3] كان يؤثر مذهب اليعاقبة .

ولا شك أن نشأته وعلاقاته بالدولة المسيحية وزواجه كان لها أثر كبير فى تخفيف وطأة العداوة القديمة الموروثة بين ديانة المجوس وديانة المسيح . ولكن الروم طلبوا

---

(١) هكذا يقول (ابن بطريق) و (مكين) فى حين أن غيرهما من المؤرخين يقولون إنها كانت من أصل رومى لحسب ولعل (جبون) يحسبها (شيرين) ولكن القصة الفارسية (قصة حب خسرو وشيرين) تفرق بينها وبين مارية . (أنظر ترجمة السير س . أوسلى للقصة فى "المجموعة الشرقية" الجزء الأول صفحة ٢٢٤) . على أن شيرين أيضا كانت مسيحية و يقول (سيبوس) — ويسميها ملكة الملكات — أنها بنت كنيسة على مقربة من القصر الملكى . ذلك عدا أديرة أخرى . وقد زخرفت الكنيسة بالذهب والفضة وجعلت فيها القسوس والشمامسة وأجرت عليهم الأرزاق، وأوقفت على وظائفهم وكسوتهم جانبا من الأموال العامة .

(٢) وقد جاء فى رواية أنه مات مسموما من سم قدّمته له ملكة خاقان التتار وكانت من أقارب كسرى (أنظر كتاب السير ج . ملكولم "Hist. of Persia" الجزء الأول صفحة ١٥٥) .

(٣) يذكر أبو الفرج نص الخطابات التى تردّدت بين كسرى و بهرام و يقول إنه بعد هزيمة بهرام بنى الملك (هيكلين للنصارى) وجعل أحدهما باسم (السيدة العذراء) والآخر باسم (مارسرجيس) الشهيد (أنظر طبعة پوكوك صفحة ٩٦ — ٩٨) وجاء ذكر القربان فى كتاب (أفاجريوس) وهو يقول إن كسرى وهب الكنيسة صليبا للواكب وكأسا للخمر الربانى مع صحفته وصليبا للذبح ومجمرة للبخور وكلها من الذهب الصافى مع ستارة مطرزة على النمط الهونى ومرصعة بالذهب و يقول (تيوفيلاكت) إن كسرى نذر فى وقت بؤسه أن يهب صليبا عظيما من الذهب المرصع بالدر والفيروز إلى (مارسرجيس) وهو قديس كانت تجله الناس =

المكافأة على مساعدتهم بأن تضم اليهم أرض فسيحة جعلت ملكهم بالغا شواطئ نهر الرس . فكانت هذه الخسارة سببا فى إيلام كسرى وقومه ، كما كان ميل كسرى إلى المسيحية ، وهى دين غريب ، مؤلما لكهنته . فلا شك مع هذا أن يكون قد بادر الى العدول عن ميوله و إصلاح خطئه . فاضطر بتأثير عوامل قوية بعضها دينى و بعضها سياسى إلى أن يقطع صلته و ينقض عهده مع الدولة البيزنطية ، فصرف حرسه الرومى وتغير على (نارسيس) ، وكان على رأس الجيش فى (دارا) . فأراد (موريق) أن يستل غيظ الملك و يسترضيه فبعث (جرمانوس[1]) ليحل محل (نارسيس) .

= حتى القبائل البدوية و يذكر المؤلف نفسه ماسبق ذكره من الهدايا التى قدمها كسرى مرة ثانية عند ما ظهر أن سيرا أو (شيرين) حملت ولدا . و يقال إن أنو شروان العظيم مع اضطهاده للمسيحيين كان على صلة حسنة مع (أورانيوس) وهو فليسوف مسيحى نسطورى معروف عند الناس بما كان ينشر من علم أرسطاليس (أنظر كتاب «Ecc. History» تأليف (Mosheim) الطبعة الحادية عشرة صفحة ٢١٨ طبعة لندن . و . تج سنة ١٨٨٠) . ولكن مؤلف هذه القصة لايمكن أن يكون قد قرأ أو صدق ما كتبه (أجاتيوس) وكان فى وقت (أورانيوس) و يصفه بأنه كان قليل العلم ميالا للخلاف والمناظرة يكثر من إضاعة الوقت فى مكاتب القسطنطينية و يقول أجاتيوس إن (أنو شروان) لم يكن بالعالم بل كان جنديا باسلا ولم يكن (أورانيوس) سوى طفيلى مدمن للشراب فى بلاطه . (أنظر Hist Lib 2 ap. Migne, Pat. Gr. t. 88) و يذكر زكريا الميتاينى أخبارا كبيرة الدلالة فى شأن ما كان يلقاه المسيحيون من الاكرام فى بلاط الملك الفارسى وما كان للاطباء المسيحيين من الفضل لا سيما فى حمل الملك على بناء مستشفى و إجراء المال عليه . ولم يكن هذا معروفا فى بلاد الفرس من قبل (أنظر ترجمة هملتون و بروكس صفحة ٣٣١) . (وانظر أيضا ما سيأتى ذكره فى صفحة ٦٠ الهامش الأول وصفحة ١٢١ الهامش الأول) ولا تزال فى الهند الى اليوم فكرة موروثة ثابتة مؤداها أن أحد أبناء (أنو شروان) واسمه مشزاد كان مسيحيا وكان الأستاذ العظيم (م . عمادالدين لالوز) الذى خرج من الدين الاسلامى ومات سنة ١٩٠٠ يقول إنه من نسل مشزاد هذا (عن مجلة Ch. Miss. Intelligencer) ديسمبر سنة ١٩٠٠ صفحة ٩١٣

(١) يحسن بنا هنا أن نرجع إلى الصفحات الأخيرة من كتاب (تيوفيلاكت) فان ذلك الكتاب ينتهى عند نقض العهد بين الفرس والروم وقد كان من أهل مصر ولكنا لا نجد فيه شيئا يمكن الاعتماد عليه فلا يذكر بلاده إلا مرتين ولم يذكرها إلا ليقص قصصا خرافية مبالغا فيها لا معنى لها . وأولى تلك القصص قصة شبح عجيب خرج من النيل وهى قصة يذكرها أيضا (حنا النقيوسى) — وما أعجب هذا — مع تغير طفيف (صفحة ٥٣٣) . وثانية تلك القصص قصة وقوع تماثيل موريق فى الاسكندرية فى ليلة مقتله . و يقول (تيوفيلاكت) أن صديقا له شهد هذا الأمر بعينه وكان وقادا رأى ذلك وهو عائد من حفلة عرس بعد مضى أكثر الليل . وليس يصعب علينا معرفة العلل الطبيعية التى تفسر هذا الأمر .

واتفق فى ذلك الوقت أن وثب فوكاس، ذلك الرجل المشوه الفظيع بعد أن تم له الأمر فى بيزنطة، فقتل الامبراطور موريق مع كل ولده ذكورا وإناثا. ولم يكن كسرى ليطلب عذرا بعد هذا لتبرير غضبه وإثارة الحرب علانية. ولئن كان لايزال فيه شىء من التردد فقد زال عنه عندما بلغه أمر (نارسيس) وأنه خرج ثائرا فى (أذاسا)، وقسم الدولة الرومانية شطرين محتربين (١). على أن نارسيس دفعته ثقة حمقاء مرة إلى أن يذهب إلى العاصمة ليزور أصحابه فيها، فقبض عليه فوكاس وأحرقه فى ميدان سباق الخيل، ولكن كان ذلك بعد أن انتهى الأمر وسبق السيف العذل. فلما جاء (ليلوس) رسول فوكاس إلى جرمانوس فى (دارا) بعثه هذا معززا مكرما إلى البلاط الفارسى، وكان معه رسائل وهدايا إلى الملك كسرى، ولكن الملك أودع الرسول السجن وسار بجيشه إلى أرمينيا.

وليس من قصد هذا الكتاب أن نصف القتال الذى كان بين فوكاس وكسرى، فإنه لم يكن فى عصرنا الذى نصفه وليس له من صلة بتاريخ مصر، اللهم إلا بما كان له من الآثار العامة، ولسنا نجد شيئا نزيده على ما كتب من قبل. وعلى ذلك فحسبنا أن نذكر أن ملك الفرس بعد أن فتح أرمينيا، وكثيرا ما كانت ميدانا للنضال بين الدول، قسم جيشه إلى قسمين فأرسل قسما منه إلى الجنوب لفتح الشام، وأرسل الآخر إلى الغرب ليخرق قلب آسيا الصغرى يقصد بذلك أن يصل إلى القسطنطينية. وليس توارد الحوادث بالأمر الواضح ولكنا لا يعنينا منها إلا ما كان من أمر الجيش الذى ذهب إلى الجنوب. وقد كان سيره بطيئا حتى أن فتح أنطاكية لم يتم إلا وقد صار (هرقل) ملك الدولة. وبعد فلو صح أن الباعث لكسرى على خوض الحرب إنما هو الانتقام من فوكاس، لكان موت هذا الطاغية

(١) يظهر من كتاب شيكارد (Tarikh Reg. Persiae صفحة ١٥٥) أن هذه الثورة كانت فى وقت استيلاء (فوكاس) على العرش ولعلها نشأت من تلك الحادثة. ويقول (حنا النقيوسى) إن كسرى حاول أن يقتل (نارسيس) بالسم هو وجيشه وخيوله ولكن ليس من الواضح كيف كان هذا لينفعه لو أتمه (صفحة ٥٢٨ — ٥٢٩).

مختتم النضال . ولكن الملك العظيم قد عرف فى حربه ضعف عدوّه وزاده النجاح رغبة فى المضى فى سبيله، ولم يكن سبيله إلا إخضاع الدولة الرومانية لحكمه . ولم يكن ذلك مجرّد خيال بعيد التحقيق، فقد كانت جيوشه أكثر عددا وأتم عدّة وأبدع نظاما من جيوش عدوه، وكان قوّاده لا أكفاء لهم فى جيش الروم بعد أن مات (بونوسوس) و(نارسيس)، وكانت خزائنه عامرة بالمال والشعب من ورائه يدا واحدة فى حين كان أهل الدولة الرومانية شيعا وفرقا وخزائنها تكاد تكون خاوية .

ومع ذلك فقد كانت بلاد الشام وعرة المسالك، وكان حصار المدن أمرا شاقا، وكان الجيش يقضى قسطا كبيرا من السنة بلا عمل فى معسكر الشتاء، فلم يقدر خوريام[1] قائد الفرس على أن يسير الى بيت المقدس بعد الاستيلاء على (دمشق) و (قيصرية) إلا فى السنة الخامسة من حكم هرقل . وأرسل ذلك القائد على ما يلوح رسلا من مقرّه فى قيصرية إلى بيت المقدس يدعوها الى التسليم للملك الأعظم، وقد حدث ذلك فأسلم اليهود المدينة الى قوّاد الفرس بعد أن غلبوا المسيحيين من أهل

---

(١) راجع كتاب (ابن بطريق) وتعليق مينى عليه فى كتاب (Patr. Gr.) الجزء الثالث المجموعة ١٠٨٢ وفيها يأتى ذكر (خراوزيه) . ويأتى اسمه فى كتاب (تيوفانس) على صورتين وهما (مرثرازاس)*(٨) و(سرڤنازاس)*(٩) واسمه فى ديوان بسكال (مرفروس)*(١٠) وكذلك يأتى اسمه (شراوزيه) و(شهربرز) وهذا تحريف الاسم الفارسى (شهر — ورز) ومعناه (الخنزير البرى للملك) والخنزير البرى رمز للقوّة الباسلة فكانت صورته لذلك ماثلة على خاتم فارس القديمة وكذلك على خاتم أرمينية . وقد كان (شهر — ورز) كما هو معلوم لقبا يلقب به تكريما ولم يكن اسما له . وهذا القائد عينه غصب عرش الفرس مرة واستقر عليه مدة قصيرة و يعرف بلقب آخر، ففى كتب الأرمن نجد اسمه (أرزمن) و(رزمن) و(رومزان) أو (رميكزان) وفى كتب الاغريق نجد اسمه (رسميزاس) أو (روميزانس) ونجده فى صورته الصحيحة (رزميوزان) فى كتاب (موسى الكاغنكتوتى) ونجده (رومیازان)*(١١) فى كتاب (تيوفانس) وكان اسمه غير هذه الألقاب كلها فهو (خوريام) . أنظر (Journal Asiatique) الحلقة السادسة سنة ١٨٦٦ صفحة ١٩٧ . على أن اسم (خوريام) لا يرد فى كتب مؤرّخى الفرس وقد حدّثنى المستر (بلاطس) أن اسم هذا الملك فى كتب تاريخ الفرس هو (كراز) وهو الخنزير أو (شهربرز) أو (شهريار) .

المدينة على أمرهم[١] . وما هى إلا شهور قليلة بعد ذلك حتى وثب المسيحيون بالفرس فقتلوا قادتهم وملكوا الأمر على الجنود المرابطة وأغلقوا أبواب المدينة وعند ذلك جاء (شاه — ورز) وحاصرهم ثم ساعده اليهود على هدم الأسوار، فاستطاع جنوده أن يدخلوا المدينة فى اليوم التاسع عشر من مجيئه . وكان دخولهم من نقب أحدثوه فى الأسوار، وأخذوا المدينة عنوة[٢]، وأعقب ذلك مشاهد مريعة من التقتيل والنهب والتدمير، وكانت الضحايا عظيمة وأقرب ما قيل فيها الى الافهام قول (سبيوس) و(توماس الأرظرونى) إذ قالا إن عدد القتلى بلغ ٥٧,٠٠٠ وعدد الأسرى ٣٥,٠٠٠[٣] على أن مؤرخى بيزنطة يقولون إن عدد من هلكوا كان ٩٠,٠٠٠ وهو تقدير غير دقيق،

(١) جاء ذكر العداوة القطيعة التى يحملها اليهود للسيحيين فى كتاب (فيدرينوس) وهو يروى أن فى السنة الأخيرة من حكم (فوكاس) أوقع اليهود بالمسيحيين فى أنطاكية فأرسل اليهم (فوكاس) قائده (بونوسوس) فأنزل بهم انتقاما وبيلا تحدوه قسوة تقشعر من وصفها الأبدان (أنظر ما سبق ذكره فى الفصل الثانى صفحة ١٤) . ولا شك أن يهود أنطاكية ساعدوا الفرس فى السنة التى تلى ذلك . وكذلك فعلوا فى بيت المقدس (أنظر «Corp. Hist. Bizant. Script» الجزء السابع صفحة ٧٠٨) . وانظر المقريزى « ترجمة ملان » صفحة ٦٨ ولما جاء شاهين (أوساين) فى سنة ٦١٠ الى قيصرية فى إقليم (قبادوقية) نزح المسيحيون هاربين ولكن اليهود استسلموا وخضعوا للفرس ويتفق مع ذلك ما جاء فى (سبيوس) من الأدلة وهو يذكر الأمر ذكرا صريحا فيقول " خضعت كل بلاد فلسطين فى ذلك الوقت لحكم ملك الفرس خضوعا طائعا . وثار الباقون من أبناء العبرانيين بالمسيحيين ودفعهم حقدهم الموروث إلى أن ينكلوا بالمؤمنين تنكيلا عظيما ثم لحقوا بالفرس ونبتت بينهم مودة وثيقة" . وإذا شئنا أن نجد فوق هذا براهين أخرى على كراهة اليهود للسيحيين كراهة لا هوادة فيها فلنرجع إلى كتاب (زكريا المتلينى) ففيه وصف لما أتاه ملوك الحميريين فى بلاد العرب من المنكرات فى رعاياهم المسيحيين وكان هؤلاء الملوك يهودا (أنظر ترجمة هملتون وبروكس صفحة ٢٠٠ وما بعدها) .

(٢) جاء هذا الخبر فى كتاب (سبيوس) ونظن أنه هو الذى أورده وحده دون كل المؤلفين .

(٣) يتفق فى ايراد هذا العدد المؤرخون (تيوفانيس) و (فيدرينوس) و(زوناراس) ونجده كذلك فى كتاب «Terikh Regum Persiae» صفحة ١٥٥ وهو عدد يتفق مع ما أورده (سبيوس) اذا أضفنا عدد من قتل الى من أسر ولكن جاء فى نسخة مخطوطة من كتاب (سبيوس) أن عدد القتلى ١٧,٠٠٠ .

فقول كتاب الأرمن أقرب الى الحقيقة . على أنه من الثابت أن القتلى كان بينهم آلاف كثيرة من الرهبان والقديسين والراهبات . وبعد أن قضى الفرس فى المدينة واحدا وعشرين يوما فى القتل والنهب خرجوا من المدينة وأوقدوا فيها النيران فخربت بذلك أو جردت مما بها كنيسة القبر المقدّس وسواها من البيع العظمى التى بناها قسطنطين(١). أما الصليب المقـدّس وكان قد دفن فى الأرض بغطائه الذهبي ذى الجواهر(٢) فأخرج منها وقد عرف مكانه بالتعذيب، وأخذ هو وشيء لاحصر له من الانية المقدّسة من الذهب والفضة وجعل كله غنيمة . وأسر عدد عظيم من الناس كان من بينهم البطريق (زكريا) . فأما صـندوق الصليب المقدّس والبطريق فأرسلا هديتين الى مارية زوج كسرى(٣) ، وأما سائر الأسرى فإذا نحن صـدّقنا ما رواه (قيدرينوس) فقـد اشترى اليهود كثيرا منهم ليمتعوا أنفسهم بتقتيلهم . وقد قال كاتب (ديوان بسكال) وفى قوله رنة الأسى " إن كل هذا لم يحدث فى سنة ولا فى شهر بل فى بضعة أيام" وكان تاريخ هذا على سبيل البت(٤) فى شهر مايو سنة ٦١٥

(١) اذا أردت أن ترى وصفا لهذه الأبنية البديعة فانظر كتاب (Pal. Pil. Text Society) الجزء الأوّل وأنظر قصائد (غزل صفرونيوس) فى كتاب (مينى) (.Patr. Gr) الجزء الأول صفحة ٨٧ (٣)

(٢) تاريخ الفرس للكولم الجزء الأول صفحة ١٥٧

(٣) دفن الصليب فى حديقة وزرعت عليه الخضر .

(٤) يقول (تيوفانيس) أن السنة الخامسة من حكم هرقل هى ٦١٠٦ للخليقة وهذه السنة من الخليقة هى سنة ٦١٥ ويدل على هذا أن سنة ٦١١٣ للخليقة هى السنة التى قام فيها هرقل بغزوته وهى سـنة هجرة النبى محمد (أى سنة ٦٢٢) ويقول سبيوس أنها سنة ٢٥ لحكم كسرى والنصف الأخير من تلك السـنة يقع فى النصف الأوّل من عام ٦١٥ وأما تاريخ اليوم فقـد اختلط الأمر فيه على كتاب الأرمن فيقول (توما الأرظرونى) إن فتح المدينة كان بعد الفصح بعشرة أيام فى الثامن والعشرين من (مرجانس) ويقول (دولوريه) فى كتاب ".Chron. Armen" صفحة ٢٢ — ٣ أن التاريخين لا يتفقان فانه فى سنة ٦١٤ وهى السنة التى يقول (دلوريه) إن بيت المقدس فتح فيها قد وقع عيد الفصح فى ٣١ مارس فيكون بعد ذلك بعشرة أيام اليوم العاشر من أبريل . فى حين أن الثامن والعشرين من (مرجانس) هو يوم ٢٦ مايو ويتفق ما جاء فى كتاب سبيوس مع ما جاء فى كتاب (توما الأرظرونى) ولكنه يجعل اليوم العاشر بعد عيد الفصح يقع فى ٢٧ (مرجانس) ويقول المستر (Conybeare) إن ذلك يوافق اليوم العشرين من مايو ولكن عيد الفصح من عام ٦١٥ يقع فى يوم ٢٠ أبريل فاذا فرضنا أن عدد ١٠ فى النسخة الخطية هو تحريف ٣٠ =

من هذا نعرف أن المدينة المقدّسة قد نزلت بها كوارث السيف والنار ومن لم يدركه القتل والأسر من أهلها هرب لائذا الى الجنوب فى القرى المسيحية من بلاد العرب[١] . وكانت تلك القرى جماعات وادعة فعكر صفوها ما بلغها من صدى الدعوة الجديدة دعوة نبى الاسلام . ولعل ذلك الحادث من انتصار الفرس أهل الأوثان فى بيت المقدس هو الذى نزلت بمناسبته الآية الشهيرة ﴿غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين[٢]﴾ ولكن الملجأ الأكبر للهاربين المشتتين من المسيحيين كان القطر المصرى ولا سيما الاسكندرية وكان عدد سكانها قد تزايد بمن كان يرد إليها من اللاجئين الذين كانوا لا ينقطع سيلهم منذ ابتدأت غزوة الفرس فى بلاد الشام .

وقد كان كرم (حنا الرحوم) وما عنده من المال لا يكفيان لسدّ الحاجة الشديدة التى عمت البلد قبل أن تأتى اليها وفود اللاجئين من بيت المقدس، فما بالك بالحال وقد جاءت تلك الوفود. ثم زاد البلاء اشتدادا إذ كان فيض النيل فى ذلك الصيف فيضا ضعيفا مخطرا، وكانت عقباه مجاعة[٣] جرت على البلاد كلها ذيل الخراب . على أن الهبات كانت لا ينقطع مددها عن الكنيسة، وقلما جاء قاصد قصد (حنا الرحوم) "كما تلجأ السفينة الى المرفأ الذى لا موج فيه" ثم ارتد خائبا . فكان ذلك البطريق الطاهر يطعم الطعام للفقراء، وفوق ذلك بنى الملاجئ والمستشفيات للمرضى والجرحى

= كان لدينا اتفاق على يوم ٢٠ مايو . وفوق ذلك قد جاء فى (ديوان بسكال) أن فتح المدينة كان قرب شهر يونيه وهذا فيه الفصل فى الخلاف الواقع بين مؤرّخى الأرمن ولكن يجب أن نلاحظ أن (ديوان بسكال) يجعل فتح المدينة فى السنة الرابعة من حكم هرقل وعلى ذلك فان (فيدرينوس) و (ساويرس) يتفقان معه على أن تاريخ فتحها سنة ٦١٤ وليس من السهل علينا ألا نأخذ بتاريخ (ديوان بسكال) ولكنا فى هذا الموضع مضطرون إلى عدم الأخذ به لرجحان الأدلة ضدّه .

(١) نجد وصف هذه الطوائف فى كتاب (ريت) (Chris. in Arabia) .

(٢) نقلناها نحن من سورة الروم ولكن المؤلف أخذها من النص الانجليزى لترجمة القرآن وبه حواش من (Sale) . (المعرّب) .

(٣) (ليونتيوس) فى كتاب مينى (Pat. Gr.) الجزء ٩٣ مجموعة ١٦٢٥

ولم ترض نفسه أن يعنف الأغنياء إذا هم بلغت بهم ضعة النفس أن يستفيدوا من إحسانه . ولكن هذا البذل لا يمكن أن يدوم . فلما آشتد القحط وجد حنا خزائنه قد أخذت تخوى . وفيما كان فى شدّة من أمره أصابته فتنة شديدة، وذلك أن أحد الناس أتى اليه وكان قد تزوّج مرتين، ولهذا كان غير صالح أن يدخل بين رجال الدين[1] . ولكنه أتى اليه بمقدار عظيم من المال وشيء كثير من القمح مهرا لكى يبيح له الدخول فى زمرة رجال الدين، وكان حنا لم يبق لديه إلا كيلان من القمح فى خزائنه . ولكنه لم يتردّد طويلا ثم أبى أن يقبل الهبة، فجوزى على ذلك بأن أتته بعد قليل أنباء بأن سفينتين من سفن الكنيسة تحملان مقدارا كبيرا من القمح آتيتان عند رأس فاروس مقبلتين من صقلية، وما عتمتا أن صارتا فى المرفأ .

ولكن بر البطريق لم يكن مقصورا على مصر ولم يكن معناه إطعام الجائعين وحده، فانه ما كادت المدينة المقدّسة تنهب وتدمر حتى ذهب راهب اسمه (مودستوس)، كان قد نجا من القتل، فجعل يجوب أرض فلسطين فى طلب المعونة على إعادة بناء الكنائس المخربة . وقد نجح فى سعيه وعاد إلى بيت المقدس ومعه مقدار كبير من المال، فوجد أن اليهود قد خسروا احباء الفرس وتعضيدهم، وكان الفرس قد بذلوهما لهم فى أوّل الأمر ثمنا لما قدّموه من المساعدة، وصار بعد ذلك المسيحيون فى مكان الحظوة عند الفرس . فجعل (مودستوس) على رئاسة جماعة المسيحيين فى الحكم الدنيوى والدينى، وأبيح له أن يعيد بناء الكنائس . وأرسل كسرى — كما جاء فى (سبيوس) — أوامر خاصة يأمر بالإحسان إلى الأسرى، وأن يعيدوهم إلى حيث يستقرون، وأن يرجعوا بناء بيوت الدولة ثم أجاز طرد اليهود فتسابق الناس إلى إنفاذ أمره .

ويذكر لنا المؤرّخ نفسه نص خطاب أرسله (مودستوس) الى (كومتاس) (رئيس الدين فى أرمينيا) بعد أن تم العمل فى الكنائس . وفيه يقول "لقد جعل

(١) أنظر كتاب المسز ا . ل . بوتشر (Story of the Church in Eg.) الجزء الأول صفحة ٣٤٥) .

الله أعداءنا أصـدقاء وأنزل الرحمة والرضوان فى قلوب غزاتنا ، على حين أن اليهود الذين اجترأوا على معاداة هذه الأماكن الشريفة وإحراقها قد شردهم الله من البلد المقدس ، وقدّر عليهم ألا ينزلوا به ولا يروه ، وقد أرجعت فيه بيوت العبادة إلى سابق عزها ومجدها . " ثم جاء فيه بعد ذلك " لقـد عادت كل كنائس بيت المقـدس إلى سابق سيرتها تصلى فيها القسوس ويسود السلام على مدينة الله وما حولها " .

وليس بأقل غرابة من هـذا مارواه الكاتب نفسه عن مجمع عقده المسيحيون وأوحى به كسرى . ولا تزال هذه القصة محفوظة بين طيات خطاب كان أرسـله الجاثليق الأرمنى ومطارنته ردا على رسالة جاءتهـم من قسطنطين خليفـة هرقل . وقد جاء فى هذا الخطاب أن الملك الأعظم أمر مطارنة الشرق وأشور أن يجتمعوا فى بلاطه وقال لهم "لقد سمعت أن فى المسيحيين فرقتين تلعن إحداهما الأخرى فمن يدرينا أيهما على الحـق ؟ فليأتوا جميعا إلى مجلس واحد فليأخذوا بالحـق وليذروا الباطـل " وقد جعـل الطبيب الأكبر للملك ورجلا آخر اسمه (سمباط البجرتونى) عميدين لهذا الاجتماع وكان بين من جاءوا إليه من الخواص (زكريا) بطريق بيت المقدس كما جاء سواه من "رجال حكماء كانوا فيمن أخذ أسيرا من الإسكندرية" . وكان ذلك المجمع أولا كثير الصخب والاضطراب ، فاضطر الملك أن يخرج منه أتباع كل الفرق التى لا تدين للمذاهب التى أقرها أحد المجامع السابقة ، وهى مجمع (نيقة) و (القسطنطينية) و (افيسوس) و (خلقيدونية) . ثم أمر الملك المجتمعين من رجال الدين أن يفحصوا ما تقرر فى هـذه المجامع وأن يرسلوا إليه بمـا يرون فى ذلك . فجاءت الى الملك كتب عدّة يبسط فيها أصحابها مختلف الآراء وجعل هو يفكر فيهـا ويزنها فى عقـله ، ثم جعل يسائل فيها (زكريا) وأهل الدين الإسكندريين ، وكانوا يقسمون له أن يقولوا الصدق . فأجمعوا على أن الدين الحق هو ما أقرته مجامع (نيقة) و (القسطنطينية) و (افسوس)، وتبرأوا من مجمع (خلقيدونية)، وعلى ذلك كانـت حكمهم (للنوفيسيين) . ومذ سمع الملك هـذا أمر أن يبحث فى خزائنه ومكاتبه عن الصحيفة التى كان مذهب (نيقة) مدوّنا بها فوجدوها ورأوا أنها وفق عقيدة الأرمن ،

فأمر كسرى على ذلك "أن يؤمن المسيحيون فى دولته جميعا بما آمن به الأرمن". وكان ممن رضى عن ذلك "الملكة شيرين التى تحب الله، وسمباط الباسل، وكبير أطباء الملك." وختمت الصحيفة التى كتب فيها المذهب الصحيح كما أقره المجلس بخاتم الملك الأعظم وجعلت فى (ديوان السجلات) بالدولة .

وليس لدينا ما هو أكبر دلالة على ما كان عليه كسرى فى معاملته للمسيحيين من هذه الرواية التى بقيت محفوظة للتاريخ فى ثنايا خطاب المطارنة الأرمن، وإنا لنلمح الصدق فى لهجة الخطاب، وليس بنا ما يدعو إلى الشك فى صحته. وكانت كتابته حوالى سنة ٦٣٨ أى بعد نحو عشرين سنة من المجمع الذى جاء ذكره فيه، ذلك المجمع الذى انعقد عقده بعد زمن قصير من فتح الفرس بيت المقدس . وهذا الخطاب يصور لنا الملك الأعظم صورة غير التى ألف الناس رؤيتها، فلم يكن بالملك الوثنى المتعصب يضطهد أصحاب الصليب ويقاتلهم، بل كان على غير ذلك يبيح للمسيحيين حقهم فى اعتقادهم، ويبدى غيرة وإقبالا عجيبين على فهم عقائدهم، ويعجب أشد العجب من خلافهم وتطاحنهم وتنابذهم وهو ما لا يتفق مع روح دينهم، ويظهر الحرص على إزالة ما بينهم من الشقاق والخلاف. ولا ندرى أكان ذلك من حدب على ما فيه صلاح أمرهم أم كان الباعث عليه حرصا على الكياسة فى تصريف أمور الدولة. فكان يجلس معهم وهم يتناظرون ويسائلهم فيما هم فيه ويتدبر ما يجيبونه به. فلما أن استقر رأيه على قرار وحكم حكمه قيل إنه توعد بعض المطارنة أن يضرب أعناقهم ويهدم بيعهم إذا هم عصوا ما أمر به. على أن القصة تدل فى مجملها على هوادة ورفق يقربان من العطف على المسيحية، وهو ميل بدا منه من قبل عند ما أمر أن يعيد المشردين من المسيحيين إلى بيت المقدس والاذن لهم باعادة بناء ما تهدم من معابدهم . وقد جاء فى كتاب (حنا النقيوسى)[1] أن أبا (هرمزداس) وهو (أنو شروان) الكبير بقى مدة يضمر الإيمان بالدين المسيحى ثم عمده أحد المطارنة .

(١) صفحة ٥٢٦

ولسنا ندرى مامبلغ هذا من الحق، ولكن أثر نساء الملوك من المسيحيات وأثر الأطباء والفلاسفة فى بلاط هؤلاء الملوك، جعل فى قلوبهم عطفا على المسيحية وجعلهم يعرفون عنها من العلم شيئا كثيرا (١). وفى الحق إن عجبنا من أن الفرس كانوا فى حكمهم على مثل هذا الرفق لا يحيدون عنه فى معاملة الكنيسة المسيحية أشد من عجبنا من سورة البطش التى كانت توقع بتلك الكنيسة فى بعض الأحايين .

وخلاصة القول أن (حنا الرحوم) مطران الإسكندرية بذل فى سبيل إعادة الكنائس فى بيت المقدس إلى سابق عهدها ما يقال إنه بلغ ألف عدل من القمح والخضر وألف بغل وألف سفينة من السمك المملح وألف خابية من الخمر وألف رطل من الحديد وألف صانع (٢) . وقد كتب حنا إلى (مودستوس) فى خطاب له "أعتذر إليك أنى لا أستطيع أن أرسل شيئا جديرا بكنائس المسيح، وما كان أحب إلى أن أجيء فأعمل بيدى فى بناء كنيسة القيامة (٣) ." ويروى عنه أيضا أنه بعث مرة عيرا تحمل من الذهب والقمح والثياب وما إلى ذلك مع رجل اسمه (كريسيبوس) وقد تكون هذه رواية أخرى للقصة السابقة عينها . ويروى أنه أرسل (تيودور)

(١) أنظر ما سبق لنا قوله فى صفحة ٥٠ (هامش ٣) ونقول إنه قد جاء فى الطبرى (لناشره دى جويج الجزء الأول صفحة ١٠٠٠) أن كسرى بعد أن ولى الملك بمدة يسيرة أمر المسيحيين فى بلاده أن يعيدوا كنائسهم وأن ينصروا المجوس إذا استطاعوا مدعيا أن (أنو شروان) أمر بمثل ذلك من قبل بناء على عقد اصطلح مع قيصر عليه . و يقول اليعقوبى (لناشره هو تما الجزء الأول صفحة ١٩٤) إن كسرى عند ما انتصر فى أول أمره وأرسل أنباء ذلك إلى (موريق) أرسل اليه الامبراطور ثوبا به زخرف من الصلبان فلبسه وقد أخذ عليه الناس ذلك . ثم أمر بإعظام المسيحيين وأقامهم فى أعلى المناصب وقال إنه قد صالح ملك الروم على عقد لم يسبق لملك أن يعقد مثله .

(٢) سعيد بن بطريق فى كتاب مينى "Pat. Gr." (الجزء ١١١ المجموعة ١٠٨٢ وما بعدها) ولا شك أن ابن بطريق مخطئ فى زعمه أن هذه الحوادث وقعت قبل السنة السادسة من حكم (فوكاس) فانها فى حكم هرقل كما جاء فى (قيدرينوس) و(تيوفانس) وجاء ما يقرب من ذلك فى كتاب (ليونيتوس) عن عطاء حنا وأضاف اليه ألف قطعة من الذهب وذكر "سلوكا من السمك" بدل قوله السمك المملح فى القدور .

(٣) قد وصف زكريا فتح الفرس ونجد وصفه مذكورا فى كتاب مينى (الجزء ٨٦ المجموعة ٣٢١٩ وما يليها) وقد نقلت عنه وكان زكريا بطريقا لبيت المقدس من سنة ٦٠٩ الى سنة ٦٢٨ أو سنة ٦٢٩ وأسره الفرس .

مطـران (أماتوس فى قبرص) و (جريجورى) مطران العريش (رينوقولورا[١]) و (انستاسيوس) رئيس دير الجبل الأكبر دير (القديس أنطون[٢]) وأرسل معهم مالا كثيرا وتقدم اليهم أن يفدوا به من استطاعوا فداءه من الأسرى . وكان هـذا فى النصف الثانى من سنة ٦١٥

(١) كانت (رينوقولورا) مدينـة على حدود مصر من جهة فلسطين و يقول ديودور الصقلى إن اسمها مشتق من قصة وذلك أنه كان فى مصر ملك اسمه (أرتيساتز) وكان يتخذها منفى للجرمين الذين كانت تقطع أنوفهم أو تجدع وقد سميت المدينـة فى مدة العرب بالعريش انظـر (مذكرات كاترمير الجزء الأول صفحة ٥٣ "Rec. de l'Eg." الجزء الثانى صفحة ١٠ و ١١ و ٢٠ وأما (شمبوليون) فانه لا يقبل هذا الاشتقاق الذى جاء به ديودور وقد كان جدع الأنوف عقابا معروفا فى القانون اليونانى الرومانى فى ذلك الوقت (انظـر آب جبون لناشره بورى (الجـزء الخامس صفحة ٥٢٩) و يقول (سبيوس) إن هرقل أوقع تلك العقوبة بمن اشترك فى مؤامرة (أتالاريك) بعد رجوعه من بيت المقدس .

(٢) قد يكون الدير المقصود هنا هو الدير المعروف على ساحل البحر الأحمر كما يدل على ذلك وصفه وقد يكون ديرا آخر بالاسم نفسه فى جبل بقرب قفط وهى مدينـة على النيل بقرب قنـا (أنظر كتاب أبى صالح « كنائس مصر وديارتها » صفحة ١٥٩ — ١٦٢ وصفحة ٢٨٠) وقد ذكر شارب هذا الدير (دير القديس أنطونيوس) فى كتابه "Hist. of Eg." (الجزء الثانى صفحة ٣٦٨) و يقول إنه فى العاصمة ولكن يلوح لنا أن هذا زعم لا أساس له .

الفصل السابع

فتـــح الفـــرس لمصـــر

اتحاد كنيسة مصر القبطية وكنيسة الشام — سير الفرس الى مصر — فتح حصن (بابليون) و (نقيوس) وحصار الاسكندرية — هرب (نيقتاس) و (حنا الرحوم) — موت حنا — خيانة طالب وممالأته على فتح المدينــة وهو بطرس البحرينى — موت (أندرونيكوس) — حال القبط مع الفاتحين — تفنيد المزاعم السائرة بين الناس — قصة (بيزنتيوس) ومعاملة القبط — معاملة الاسكندرية — حصن الفرس

فى الوقت الذى كانت فيه العير التى أرسلها حنا الرحوم تقطع الصحراء آتيــة من مصر الى بيت المقدس فى أول خريف سنة ٦١٥، أتى الى (أنستاسيوس) بطريق القبط ضيف نزل عليه وهو (أنستاسيوس) بطريق أنطاكية، وكان قد اعتزل عند غزوة الفرس . وكان لقاؤهما كما ذكرنا آنفا فى دير (الهــانطون) على الساحل الى غرب الاسكندرية . ولعل بطريق أنطاكية كان يصحبه مطران أو اثنان من مطارنة الشام وكان قد حل فى الدير من قبل مطارنة آخرون أمثال (توما الهركلى) و (بولص التّلوى) وكانوا دائبين فى عملهم العظيم ألا وهو مراجعــة ترجمة الإنجيل السوريانيــة ومقابلتها على النص اليونانى . وكان سواهم فى مصر كثيرون جاءوا اليها لائذين فانه "قد هرب كل من استطاع الهروب إذ كان الفرس يفسدون فى الشام خوفا أن يدركهم شرهم، وكان فيهم ناس علمانيــون من كل الطبقات وقسوس من جميع الدرجات ومعهم مطارنتهم . جاءوا كلهم الى الاسكندرية يحتمون بها.[١]" فكان على ذلك من المحتمل أن تصدّق الأقوال الشائعة عن وجود خمسة من المطارنة مع البطريقين عند اجتماعهما . وقد كان من إثر هذا الاجتماع اتحاد الكنيستين الشامية

(١) كتاب جلزر (Leontios Von Neapolis) الجزء الثانى صفحة ١١٢

والقبطية . ولم يبق (أنستاسيوس) فى مصر إلا شهرا واحدا ثم عاد الى الشام وشهد فيها اول عهد التسامح العجيب الذى كان على ما يظهر يحل سريعا فى إثر غزاة الفرس عقب القتال الأول العنيف الذى كانت الدماء تسيل فيه غزارا . إذ كان الفرس فى حربهم غلاظ القلوب ما دام السيف فى أيديهم، وكانت غلظتهم وحشية لا يبررها عقل ولا تدعو اليها حاجة، حتى كان يخيل الى الناس أن جندهم لا يمل من سفك الدم . فاذا ماساد السلام وعاد الأمن صار حكمهم عادلا وديعا على غير توقع كانوا على ذلك فى بلاد العرب وفى الشام وفلسطين، وكانوا على ذلك أيضا فى مصر كما تشهد حوادثها بعد حين .

استغرق فتح الشام سنين ستة، وكان فتح بيت المقدس آخر ما كان عليهم القيام به هناك، لم يبق بعده إلا قليل من الأمور . فلما اقترب خريف سنة ٦١٦ كان الاستعداد قد تم لغزو مصر . ويظهر أن القائد لم يكن (خوريام) وهو (شاه ــ ورز) بل كان قائدا آخر اسمــه (شاهين)[١] . سار شاهين على محجة الحرب وطريقها الواضح، وهى الطريق التى سار فيها قمبيز و (أنطيوخس أبيفانس) والإسكندر الأكبر، والتى كان مقدّرا عليها أن تشهد سير عمرو بعد سنوات قليلة وهو يقود جيوش العرب .

كان أوّل تلك الطريق عند العريش (رينو قولورا) وكانت تتبع ساحل البحر إلى الفرما ومنها إلى ممفيس، ثم تبلغ مجمع النهرين عند رأس مصر السفلى، ومن (ممفيس)

---

(١) جاء فى (الديوان الشرقى) والمقريزى أن كسرى نفسه هو الذى غزا مصر ولكن لعل هذا القول لم تتحر فيه الدقة . وجاء فى قصة أخرى أن اسم القائد (ساين) أو (سايس) وهو شاهين ولعل هذا هو الحق وأنه لم يكن (خوريام) كما جاء فى قول سعيد بن بطريق . وليس فى التاريخ ما يدل على أن كسرى ترك قصره ومتاعه وذهب الى مشقات القتال فى حرب مصر أو الشام ومن الطبيعى أن يقال إن خوريام سار من فلسطين الى مصر ولكن الطبرى عمدة فى مثل هذه الأمور وهو يقول إن (روميوزان) وهو (خوريام) كان القائد الذى فتح بيت المقــدس وإن قائدا آخر اسمه شاهين أمر بالسير الى مصر وبلاد النوبة وأرســل مفاتيح الاسـكندرية الى كسرى وأن قائدا ثالثا وهو (فزوهان) أرســل الى القسطنطينية . ويدل على أن شاهين كان هو القائد ما جاء فى أوراق البردى الفارســية فى مجموعة (رينر) انظر كتاب (قراباســك) "Fuhrer durch die Ausstellung" صفحة ١١٣ .

كانت تصل إلى (نقيوس) متبعة فرع النيل الغربى، ومن هناك تسير إلى الإسكندرية. ولم يكن لدى أهل وادى النيل رغبة فى قتال شديد ولا قدرة عليه ولهذا لا نجد ذكرا لوقعة ذات شأن ولا لسعى شديد فى سبيل الدفاع عن البلاد .

ويصف مؤرّخو اليونان كل هذه الحرب فى كلمة قصيرة ، إذ يقولون "جاء الفرس فأخذوا مصر كلها والإسكندرية وليبيا إلى حدود إتيوبيا، ثم عادوا ومعهم عدد عظيم من الأسرى وغنائم جليلة المقدار"[١]. ويزيد المؤرّخون المصريون على تلك القصة شيئا يسيرا لا يشفى غلة، على أننا نعرف منهم أنه قد فتحت الفرما بغير كبير عناء، وأن الفرس خربوا من كنائسها الكثيرة وأديرتها[٢]. ولا يرد ذكر لإخضاع حصن بابليون بقرب ممفيس ولنا أن نقول إنه كان غير محصن ولم تكن فيه حاميات من الجنود تدفع عنه — ولو أن الفرس كانوا بلا شك أهل السبق والتبريز فى فنون الحصار وحروبه — وكذلك نعرف منهم أن جيش الفرس سار فى البر بعد فتح (ممفيس) يساعده أسطول عظيم فى نهر النيل وسار متبعا الشاطئ الشرقى من الفرع الأكبر الغربى، ومر بمدينة (نقيوس) فى طريقه إلى الإسكندرية[٣].

وأما فتح الإسكندرية فقد بقى وصف شائق له[٤]. يقول كاتبه إن تلك المدينة العظمى "بناها الإسكندر كما أوصاه أستاذه أرسطو فجعل لها سورا وأجرى وراء الأسوار مياه النيل وجعل لها أبوابا قوية". وقد ظل الحصار زمنا ولم يستطع الفرس أن يدخلوا ذلك المعقل المنيع مع ما كانوا عليه من بصر بأمور الحصار. والحق أن

(١) تيوفانس وقيدرينوس .

(٢) أبو صالح صفحة ١٦٨ ونسخة خطية لساويرس فى المتحف البريطانى صفحة ١٠١ وقد أشير إلى ذلك فى هامش تلك الصفحة .

(٣) قد جاء أن فتح بابليون وفتح (نقيوس) كان قبل فتح الاسكندرية فيما ذكر الراهب القبرصى حنا وكان فى حجه فى بلاد مصر وكلماته هى : « وكنت فى الاسكندرية عند ما دخل الفرس الى مصر ثم أنهم ملكوا الى نقيوس وبابليون فى مدّة احتلالهم لمصر» *(١٢) وهو يصف «الضجة والاضطراب من غزوة الفرس» *(١٣) فى الاسكندرية إذ هو عائد الى بلاده وقد اقتبس جلزر ذلك فى كتابه "Leontios Von Neapolis" صفحة ١٥٢

(٤) أنظر الديوان الشامى (نشرة جويدى وترجمة ت . نولدكه). وقد اقتبس منه جلزر.

حصونها كانت قوية لا يكاد عدوّ يجد فيها مطمعا وكان ذلك الحصار فى عام ٦١٧ أى بعد آخر غزوة غزاها الفرس مصر بنحو ١١٧ عاما . وقد استطاع الفرس فى تلك الغزوة السابقة أن يفتحوا مصر السفلى وغمر أتيهم أرضها جميعا ولكنه ارتد عاجزا عند أسوار الإسكندرية[1] . وقد قامت هذه الأسوار نفسها منذ ثمان حجج ماثلة بين يدى جيوش (بونوسوس) فارتدت عنها تلك الكتائب المستميتة وهى خاسئة كأنما هى أمواج البحر ترتطم بصخور الساحل . وقد أراد الله أن تقوم تلك الأسوار مرة أخرى بعد ربع قرن وهى راسية قوية تحاد جيوش العرب حتى استطالت بها مدّة الحصار . فمن الواضح على ذلك أن تلك الأسوار كانت فى الوقت الذى نصفه هنا لا تزال على عهدها خطا عظيما من الحصون والآطام ذات بأس ومنعة . ولو أتيح لها جند عاهدوا أنفسهم على الدفاع يدا واحدة لكان فى استطاعتها أن تثبت حتى يكل المحاصرون وتنفد قوتهم ولاستطاع جندها عند ذلك أن يسحقوهم وقد أنهكت قواهم ، أو أن يرغموهم على رفع الحصار وترك المدينة ، ولاسيما وقد كان البحر من ورائها تأتى منه الأمداد تترى اليها ، إذ كان الروم لا يزالون سادة البحر الى ذلك الحين .

ولكن أنى لها ذلك وقد بعد عهدها باجتماع الشمل وتوحيد الكلمة وصار أهلها أخلاطا مضطربة من قبط وروم وسوريين ويهود ، وجماعة من طلاب العلم ، وآخرين من اللاجئين أتوا اليها من كل أنحاء الدولة . فكان القبط والسوريون يكرهون الروم وكان اليهود يمقتون أتباع المسيح مقتا لا يسله من قلوبهم الخطر الداهم عليهم جميعا ، وكانوا جميعا لا يدركون أن الواجب عليهم أن يجتمعوا من كل جنس أو طبقة أو مذهب يربطهم رباط الاشتراك فى الوطن وهو الوسيلة لا وسيلة غيرها الى ضم شملهم . ما كانوا ليدركوا معنى لهذا بل كانوا يسخرون منه ، فلم يكن عجيبا مع هذا أن نرى الخيانة تعمل على وقوع المدينة فى يد أعدائها .

(١) حوالى سنة ٥٠٠ للميلاد فى أيام الامبراطور (أنستاسيوس) وأحرق الفرس ضواحى الاسكندرية ولكنهم لم يستطيعوا شيئا فوق هذا .

وكان الفرس فى أثناء مدّة الحصار يوقعون بما حول المدينة من الريف ولا سيما بما فيه من الأديرة، يشفون بذلك ما فى نفوسهم من الغيظ لفشلهم. وقد جاء فى الأخبار أنه كان بأرباض الاسكندرية نحو سمائة من الأديرة لها آطام على شكل أبراج الحمام[١]، وكان الرهبان آمنين وراء هذه الحصون واثقين بمناعتها، فلم يلتفتوا الى اتخاذ الحيطة وإعداد الأمر لسلامتهم، بل دفعهم الاطمئنان إلى الجرأة على محادة عدوّهم جهرا. ولكن جاءت اليهم كتيبة من الغرب[٢] حيث كان معسكر الفرس وأحاطت بأسوارهم، وما أسرع أن دكت حصونها الضعيفة الساذجة. ثم قتل الفرس من فيها من الرجال لم يكد يفلت منهم أحد إلا النذر اليسير ممن دخلوا الجحور والثنايا ونهب ما فى الأديرة جميعه من مال ومتاع، وهدمت الكنائس والأبنيـة أو أحرقت وأصبحت خاوية على عروشها، وظلت كذلك أطلالا ماثلة الى زمن طويل بعد فتح العرب مصر.

ولكن ذلك العدو أخذ فيما أخذ من الغنائم الثمينة كنوزا علمية كانت تملأ مكاتب الأديرة. ولسنا نعلم علم اليقين ماذا كان من أمرها، ولكن لا شك فى أن كل تلك المكاتب لم تهلك بل بقى بعضها. وأكبر ما حدث أن الدير الكبير دير (الهانطون)

(١) كتاب (ساويرس الأشمونينى) عن نسـخة خطية فى المتحف البريطانى صفحة ١٠٠ ونسـخة فى باريس صفحة ٨٧ وتوجد أمثال هذه الآطام فى أديرة وادى النطرون الى الآن ولقد كان بجوار الاسـكندرية عدد عظيم من الأديرة وذلك لا شـك فيه وقد جاء فى ورقة قبطية قديمة ترجمها (أميلينو) فى كتابه (Hist. des mon. de la Basse Eg.) صفحة ٣٤ أن (مقاريوس) يقول انه قضى ثلاث سنوات فى الأديرة التى حول الأسكندرية بين قوم عظام امتلأت قلوبهم بجميع الفضائل يبلغ عددهم الألفين. وكان هذا فى القرن الرابع وقد زاد عددهم زيادة عظمى فى القرن السابع ونجد فى سنة ٤٨٥ مثلا فى كتاب (ديوان زكريا المتلينى) أنه بعد اعلان الامبراطور (زينو) لأمره اجتمع ٣٠٠٠٠ راهب وعشرة مطارنة فى كنيسة (الشهيد القديس أوفيميا) خارج أسوار الاسكندرية وهناك عوّلوا على ألا يدخلوا المدينـة خوفا من اضطراب أهلها فأوفدوا المطران (تيودور) فى سبعة من المطارنة و ٢٠٠ (أرشمندريت) ليمثلوا بين يدى البطريق بطرس فى الكنيسة الكبرى ويخاطبوه فيما يريدون. وهذا الخبر يدل على أن ما جاء فى كتاب (ساويرس) له أساس كبير من الحقيقة.

(٢) قد أخذت هذا من (ساويرس) وإن قوله يفيد أحد أمرين إما أن معظم الأديرة كانت الى الجهة الشرقيـة من المدينة وهذا لا يتفق مع ما نجده فى الكتب الأخرى، وإما أن جيوش الفرس قد أحاطت بالاسكندرية وهاجمتها من الغرب أو الجنوب الغربى.

لم يصل اليه أذى لبعده عن الإسكندرية، وأغلب الظن أن ما كان فيه من الكتب والمنسوخات لم يمسسه سوء . ويدلنا على أن الدير نجا من الخراب أن البطريق (سيمون) سنة ٦٩٤ للميلاد نشأ منه ثم دفن فيه[١] وكان سيمون هذا سورى المولد معروفا بضلاعته من علم الفقه المسيحى . ومن هذا نرى أن ذلك الدير بقى على صلته بسوريا وأنه احتفظ بما عرف عنه من شهرة بالعلم، ويتردّد ذكره فى صفحات التاريخ بعد هذه الأيام . وكذلك أفلت من الدمار دير آخر وهو دير (قبريوس) وهو الى الشمال الشرقى من الاسكندرية على ساحل البحر[٢] . ومن هذا نرى أن تخريب الفرس حول المدينة العظمى كان فى حدود ضيقة الرقعة لم يتعدّها وهو أمر غريب سببه أن الفرس كانوا أثناء الحصار بين أمرين: إما أنهم كانوا فى شغل من حصارهم، وإما أنهم كانوا أقصر همة من أن يبعثوا البعوث بضعة أميال فى الصحارى الرملية ليضيقوا على تلك البيوت المنعزلة ومن فيها من الرهبان، ولا بدّ أن الأديرة التى دمروها ونهبوها — وكانت عدّتها كبيرة — كانت كلها على مرأى من معسكرهم أو تكاد تكون على مرأى منه .

ولا بدّ لنا هنا أن نخالف (ساويرس) فى رواية رواها عن فتح الاسكندرية فقد روى أنه عند ما أتت أنباء هدم الأديرة وقتل رهبانها الى الاسكندرية استولى الرعب على أهلها ففتحوا أبواب المدينة وكان (سلار) الفرس أى قائدهم قد رأى فيما يرى النائم أن عظيما ظهر له ووعده أن يسلم المدينة الى الفرس ثم تقدّم اليه أن

(١) راجع كتاب (فون جوتشمت) (Kleine Schriften) الجزء الثانى صفحة ٥٠١ والدير الذى يسميه (ساويرس) دير الزجاج هو دير (الهانطون) عينه وقد بينا هذا .

(٢) يقول (ساويرس) صراحة فى أول ترجمة حياة (بنيامين) إن هذا الدير نجا من تخريب الفرس ويقول (تيوناس) رئيس ذلك الدير فى أثناء القصة إنه قد مضى عليه عند ذلك (فى عام ٦٢٢) خمسون عاما فى الدير وذلك الرجل هو خلاف (تيوناس) وكيل (الهانطون) الذى كتب اليه (صفرونيوس) حوالى سنة ٦٠٥ قصيدة لاتزال باقية . انظر كتاب مينى "Pat. Gr," الجزء ٨٧ (٣) . وجاء فى النسخة الخطية التى بالقاهرة من كتاب (ساويرس) أن اسم هذا الدير (قبريوس) فى حين أن النسخة الخطية التى فى لندن تسمية (قيرنوس) ولا نظن تلك التسمية الأخيرة صحيحة .

يأخذ أهل المدينة بشدّة لا لين فيها وألا يغادر من أهلها أحدا ينجو من النكال، وذلك لأنهم كانوا جميعا من أهل الكفر والنفاق . فأمر (السلار) أو هو (شاهين) أن يخرج كل من فى المدينة من الرجال ذوى القوة ممن كانوا بين الثامنة عشرة من العمر والخمسين، مظهرا أنه قد أعدّ لكل منهم قطعتين من الذهب، فلما خرجوا اليه جميعا فى صعيد واحد أمر بأسمائهم أن تكتب ثم أمر جنده أن يفتكوا بهم ويقتلوهم وكانوا نحو ثمانين ألفا .

هذه روايته ولا يصدّقها عقل . ولندع ما جاء فيها من ذكر الرؤيا وما فيها من تحريض للفرس على جماعة مخالفة من المسيحيين ، وإن كنا نستطيع من سياق القصة أن نرى ميل الكاتب (ساويرس) لمذهب المونوفيسيين وما كان يختلج فى قلبه من السرور إذ يفكر فى مذبحة تحل بأهل المدينة العظمى وهم من أتباع المذهب الملكانى . ولكن من ناحية أخرى كان الرهبان الذين هلكوا من (المونوفيسيين) وهم القبط ولذلك كان كل ما كتبه (ساويرس) تظهر منه كراهة شديدة للفرس ومقت لهم . فهذه القصة على ذلك لا يمكن أن نتوسع فى دلالتها فنقول إنها تدل على اتفاق أيا كان نوعه بين القبط والفرس . وعلى أى حال فان الفرس وان كانوا قساة كانت شريعة الحرب عندهم لا تبيح لهم أن يقتلوا أهل مدينة سلمت اليهم بغير قتال(1) . ولا شك أنه من المضحك ما جاء فى تلك القصة من ذكر الوعد الذى وعده القائد بإعطاء المال، وكذلك كتابة أسماء ثمانين ألفا من الأسماء تمهيدا للقتل . هذا اذا سلمنا أن أبواب المدينة كان من الممكن أن تفتح بغير عهد يستأمن للناس على حياتهم . إذن فلندع (ساويرس) وروايته ولنرجع الى الديوان (السورى) ففيه رواية أخرى لفتح المدينة أقرب لأن يسيغها العقل .

نعلم أن الترعة التى كانت تأتى بالماء العذب الى الاسكندرية وتحمل اليها الأقوات كانت تسير فى التواء بإزاء السور الجنوبى ثم تذهب بغأة الى الشمال فتدخل

(1) هذا واضح كل الوضوح من تاريخ (سبيوس) .

الى المدينة وتشقها حتى تصل الى البحر، وكان على كل من منفذيها باب قوى الحصون عليه آلات شديدة من آلات الحرب . فاذا وقع للمدينة حصار قل نقل الأشياء على الترعة الى ما وراء المدينــة أو امتنع، وذلك لأنها تكون عندئذ تحت سلطان العدوّ أو على الأقل ما كان منها بعيدا عن مرمى المجانيق التى مع المدافعين فى الحصون . ولو اتفق وجود شيء فى الترعة عند ذلك من السفن التى تحمل الغلال أو سوى ذلك من الزوارق لاستولى عليه المحاصرون، ولكن الباب الذى كان يلى البحر كان مفتوحا أبدا لكى تدخل منــه السفن الآتية بتجارتها من البحر، ولتدخل منه زوارق صيد السمك الكثيرة التى تأتى كل يوم الى أسواق المدينــة بما تحمل . وكان ذلك الباب على طرف المرفأ وفيه سفن الحرب الرومانية لا يدافعها مدافع، ولهذا كانت حراسته من غير شك مهملة بعض الإهمال .

فوجد الخائن فى هذا الباب فرصته، إذ تسلل خفية الى ماوراء الأسوار وذهب الى فسطاط قائد الفرس فأفضى اليه بخطة يستطيع بها أن يفتح المدينة . فاستحسن القائد رأيه واتبعه، فجاء الفرس بعدّة من سفن الصــيد وجعلوا فيها الجند فى لباس صيادى السمك، وخرجت بهم السفن فى ظلام الليل الى البحر. فلما كان وقت السحر جاءت تلك السفن الصغيرة حتى صارت عند الباب الشمالى، ونطق من فيها بشعار القوم فلم يعترض أحد سبيلهم، ودخلت السفن حتى بلغت القنطرة التى فوق الترعة، وهى التى يتصل بها الطريق الأعظم فى المدينة . وعند ذلك أخذ القوم سيوفهم وكان الظلام لا يزال سادلا ستره، ثم نزلوا الى البر وساروا فى الطريق الأعظم الى الغرب بغير أن يحدثوا ضجة حتى بلغوا (باب القمر)، ولم يفطن اليهم أحد بفضل تنكرهم، فلما أن صاروا هناك هبطوا على الحراس بغتة فأخذوهم على غرة وقتلوهم، وكان كل ذلك فى وقت قصير، فاستطاعوا أن يفتحوا الأبواب الضخمة قبل أن ينذر القوم بهم، فلما طلع النهار مشرقا على قصور الاسكندرية ومعابدها كانت جموع (شاهين) تتدفق اليها رافعة ألوية النصر هاتفة باسم كسرى من رءوس الأسوار .

وجاء فى (الديوان السورى) بعد ذلك أن من استطاع النجاة من الناس هرب، وأن خزائن الكنيسة وأموال عظماء الدولة، وكانوا قد جعلوها فى السفن حرصا عليها، وحذارا من أجلها، قد هبت ريح عاصفة دفعت السفن بها الى الساحل على مقربة من عسكر الفرس، أى الى غرب المدينة[١]، فأخذ الفرس ما بالسفن من الذهب والفضة والجوهر وأرسلوه مع مفاتيح المدينة الى كسرى . ومن العجيب ألا يرد بالديوان السورى ذكر للمقتلة العظيمة التى ذكرها (ساويرس)، ولكن من أبعد الأشياء أن يكون هذا المؤرّخ المصرى مخطئا كل الخطأ وهو الذى كان يقيم فى مصر ويعرف أخبارها . وإن مقتلة كهذه التى يذكرها المؤرّخ المصرى تتفق كل الاتفاق مع ما اعتاده الفرس فى حربهم إذا ما فتحت مدينة عنوة، لم تسلم عن رضا ولم يستأمن لأهلها بعهد ولا عقد .

على أنه من الظاهر أن المدينة كانت تتوقع أن ينزل بها ما نزل إذ أنذرها به منذر، ألا وهو اليأس . فقد أخذ من جندها عدد كبير ليدافع عن بلاد أخرى من الدولة أو ليدفع عن بيزنطة ذاتها، إذ كان الفرس يفتحون أرضا بعد أرض من بلاد الدولة "ويطأونها كما يطأ الثور أرض البيدر"[٢] فكان هذا سببا فى إضعاف المدافعين عنها إضعافا جعل المدينة فى خطر داهم، وفوق ذلك كان القمح لا يصل اليها من ريف مصر . حقا إن أهل الاسكندرية كانوا يطعمون جزءا صغيرا من القمح الوارد اليها ولكن تجارة القمح العظيمة كانت تصدر عن الاسكندرية الى كل جوانب البحر الأبيض المتوسط فكانت التجارة كلها تتدفق الى خارج المدينة، فلما انقطع المورد لم يكن من الممكن أن تنقلب الحال ويصبح واردا ما كان بالأمس صادرا . فلما استطال الزمن

(١) وكانت تسمى على ذلك (كنز الريح) ولكن هذه القصة قد جاءت فى كتاب للمؤرّخ العربى (ابن قتيبة) (القرن التاسع) عن السفينة التى أودع فيها هرقل آنيته الثمينة وجواهره عندما عوّل على ترك القسطنطينية والهجرة الى قرطاجنة فقال إن تلك السفينة ساقتها الرياح الى الاسكندرية فوقعت فى يد الفرس (كتاب المعارف الخ نشرة فوستنفلد صفحة ٣٢٩) .

(٢) هذه كلمات (ساويرس) .

على ذلك الحال وقل ما كان فى الخزائن بغير أن يأتى مدد من (هرقل)، كان لا بدّ أن تشتدّ الحاجة بالناس و يوقنوا أنهم لا بدّ أن يسلموا عند ما يفتك بهم الجوع . إذا عرفنا هـذا لم يكن بعد عجيبا أن يهرب (نيقتاس) حاكم القطر وهو من نعرف فيه الشجاعة فى الحرب والقوّة فى العمل والولاء والاخلاص لدولته . وقد هرب (نيقتاس) فى سفينة إلى القسطنطينية يصحبه (حنا الرحوم)، وذلك "عند ما كانت الاسكندرية على وشك التسليم للكفرة الفارسيين"[1] فبلغت السفينة بهما إلى (رودس) ثم مرض البطريق ولما أحس بدنو أجله سافر إلى قبرص فنزل بها ثم مات بعد قليل فى الموضع الذى ولد فيه وهو (أماتوس) وذلك فى ١١ نوفمبر سنة ٦١٧[2]

اذن لابد لنا أن نقر أن أهل الاسكندرية كانوا قد ضاع أملهم فى النجاة، وكل ما فعله بطرس طالب العلم الغريب الذى دل على عورتهم هو أنه أسرع بهم إلى القضاء المحتوم الذى كان لابد نازلا بمدينتهم، وأغلب الظن أن ذلك القضاء لم يتقدّم إلا زمنا قصيرا . ولسنا نعرف عن ذلك الخائن إلا أنه أتى من إقليم البحرين الواقع فى الشمال الشرقى من بلاد العرب، ولسنا نستطيع الوثوق من دينه أكان مسيحيا أم يهوديا أم وثنيا، ولسنا ندرى أكان له باعث على خيانته لتلك المدينة العظيمة التى كانت مقر العلم وآوته إلى أحضانها سوى خوفه الدنىء على حياته وسعيه لتخليصها

(١٤)*

(١) هذه هى الكلمات ذات المعنى التى قالها ليونتيوس .

(٢) أنظر كتاب (لبو) "His. du Bas Emp." (الجزء التاسع صفحة ٥٣) ولكن يجب أن نلاحظ أن قصة حنا جعلت فى هذا الكتاب بعد فتح الفرس لمصر وعلى ذلك فتاريخها خطأ ويظهر أن القبط قد جعلوا (حنا الرحوم) فيما بعد شهيدا كما جعلوه قديسا وهذا رأى (بريدنباخ) وقد زار مصر فى القرن الخامس عشر وجىء به الى موضع فى الاسكندرية قيل له إنه موضع استشهاده أنظر كتابه (Descriptio, Terrae Sanctae) صفحة ١٢٢ (الجزء ١٤٨٦) ولا شك أن منشأ هذه القصة وهم وقع فيه الناس فان حنا مات فى ١٢ نوفمبر وهو تاريخ ذكرى موته فى الكنيسة الشرقية فى حين أن ١١ نوفمبر يوم ذكرى وفاة (ميناس) أنظر كتاب جوتشميت (Kleine Schrifte) الجزء الثانى وتوجد ترجمة قصيدة للبطريق كتبها القس (هـ . ت . ف . د كورث) واسمها (حنا المحسن) (طبعة بلاكول فى أكسفورد سنة ١٩٠١) ويقول إن جسد حنا الآن فى الكنيسة الكبرى فى برسبرج) .

مهما بذل فى سبيل ذلك . ولكنا نعرف أن البحرين كانت تحت حكم فارس، وأن أهلها كانوا كما وصفهم العارفون خليطا أكثره من الفرس واليهود(١)، وبقيت كذلك إلى ما بعد العصر الذى نصفه الآن . وعلى هذا فإنه من الممكن أن ذلك الطالب قد ذهب إلى خيانته متسترا بستار الاخلاص لدولته . وقد جاء فى القصة أن بطرس هذا قرأ يوما فى ديوان سجلات المدينة كتابا جاء فى آخره "إذا ما عصفت الحوادث بالاسكندرية من الباب الغربى الذى من قبل البحر فقد آن أوان سقوطها" ولا شك أن هذه النبوءة قد وضعت بعد هذا الحادث، ولو أنها تصدق على فتح (نيقتاس) للمدينة فى سنة ٦٠٩، ولكنها على أى حال لا تكشف لنا عن الباعث الذى دفع الخائن إلى عمله ولا عن ديانته، بل الذى يمكن أن نعرفه منها هو أن بطرس كان يعرف أنه كان ينفذ قضاء محتوما على المدينة عند ما ذهب إلى الفرس وبايعهم على أن يدلهم على عورتها .

ولعل مفاتيح الاسكندرية قد بعثت إلى كسرى فى أول سنة ٦١٨ . أما أهلها فقد قتل منهم كثيرون عند أول فتح المدينة، ولكن الفرس أبقوا على عدد كبير منهم أخذ بعضهم سبيا وأرسل إلى بلاد الفرس(٢)، وبقى البعض الآخر لم يمسسه سوء . وكان بين الذين نجوا بغير أذى البطريق (أندرونيكوس) وقد لقى من الرفق على ما يلوح، مثل ما لقى (مودستوس) فى بيت المقدس، وكان ذلك عن أمر ملك الفرس نفسه . ولكن أثر المصائب التى شهدها تحل بقومه والخراب الذى نزل بهم فى جميع أنحاء أرض مصر لم يزل فى قلبه يملؤه حزنا وأسى حتى قضى على حياته(٣) .

---

(١) أنظر كتاب (دى جوجه) (Memoires sur les Carmathes du Bahrain) (صفحة ٧) .

(٢) ذكرت أسرى الاسكندرية خاصة فيمن أطلق سراحه بعد فتح هرقل مدينة دستجرد .

(٣) ترجمة حياة (أندرونيكوس) التى كتبها (ساويرس الأشمونينى) ما هى إلا ذكر للمصائب التى أنزلها الفرس عند فتحهم وقد ختمها بقوله «فقضى البطريق (أندرونيكوس) ست سنوات فى ولايته البطرقة لاقى فيها ما لاقى من فظاعة الفرس وشهد فيها هذه الأمور الشنيعة وقاساها بنفسه وتحملها ثم ذهب «الى مقرّه بعد ذلك» .

قد رأينا أنه قد أبيح للبطريق أندرونيكوس أن يبقى فى الاسكندرية مدّة ولايته للدين وذلك لأنه كانت له عترة ذات بأس، وكان ابن عمه كبير (مجلس الاسكندرية) عند ما ولى الأمر. وهذا الخبر كبير الدلالة إذ نعلم منه أن بعض القبط كانوا يبلغون المراتب العالية فى الدولة حتى فى أيام هرقل، ونعلم منه أيضاً أن الفرس عند ما استقر بهم الأمر فى البــلاد بعد الفتح استخدموا كبار رجال الدولة السابقة التى أزالوها وحلوا محلها . وسنرى بعد حين أن العرب ساروا على السنة ذاتها غير حائدين عنها شيئاً . وليس فى الاستطاعة من سبيل غير ذلك كلما غزا جيش أجنبى بلاداً لها مدنية تسبق مدنيته، ويرى واجباً عليه أن يدبر أمورها وهى منظمة تنظيما حسناً فى أوضاع جليلة ذات شعب وفروع . ولا نزاع فى أن القبط قد اشتركوا فى هذا الأمر وما كان لهم أن يرفضوا ذلك الاشتراك، إذ أن الرفض حمق لا مبرر له . ولكن ذلك الاشتراك شىء وما يعزوه إليهم الكتّاب المحدثون عادة شىء آخر، فانهم يعزون إليهم أنهم رحبوا بالفرس ورأوا فيهم رسل الخلاص[1]، فان هذه التهمة لا مبرر لهــا وهى فوق ذلك قلب للحقيقة ومسخ لها .

---

(١) يظهر أن هذه العبارة مأخوذة من كتاب (شارب) اذ يقول «مما لا شك فيه أن الجنود التى فتح بها كسرى مصر وملكها بهم كان بعضهم من أهل الشام وبعضهم من العرب وكان هؤلاء يمتون الى الفلاح المصرى بصلات الدم والود وهذا هو السبب فى ميل البــلاد كلها الى التسليم بعد هزيمة الروم ولكن هذا السبب عينه هو الذى أضعف الفرس وسبب لهم خسارة ما فتحوه سريعاً وذلك عند ما تمرّد عليهم العرب» ("History of Eg." الفصل ٢١ صفحة ٣٧) . وقد اتبع المستر (ملن) كتاب شارب فذهب الى تأكيد الأمرين مع فارق واحد فقال «فلك حكام مصر الجديدون تلك البلاد بغير منازع ولا غرابة فى ذلك اذ كان جيش الفرس مستمدا من الشام وبلاد العرب فلم يلقوا مشقة فى حكم مصر اذ لعــل الأغنياء فى مصر كان بينهم كثيرون من العرب فرحبوا بأقربائهم فى حين أن أسوأ ما حل بالفلاحين هو تغيير سادتهم . فلما ثار العرب عند ما دعاهم محمد الى دينه فقد الفرس أكبر عدّة لهم فى الجيش وســنحت للروم فرصة اســترجاع مصر » ("Eg. under Rom. Rule" صفحة ١١٤) . فالعبارتان (١) أن أهل مصر رحبوا بالفرس و (٢) أن فتح هرقل لمصر كان سببه خذلان العرب للفرس بدخولهم فى الاسلام لا مبرر لهما فى نظرنا . فالعبارة الأولى وهم لا حقيقة له والثانية لا يفصلها عن الوهم إلا شىء قليل . وانه لما يؤسف له أن يأخذ (ملن) فى كتابه القيم بعبارات شارب الغامضة المجملة وقد فعلت مسز بوتشر مثل ذلك فى كتابهــا (Story of the Church of Eg.) الجزء الأول صفحة ٣٤٧

إذ يجب أن نذكر أن الفرس جاءوا إلى مصر وأيديهم لا تزال ملطخة بما اقترفوه من النهب والقتل زمنا طويلا، وكان أكثر ضحاياهم من المسيحيين الذين اتحدوا مع القبط . وبعيد أن يعطف الفرس فى مصر على مثل من قتلوا فى الشام، فى حين أن دفاع الاسكندرية ومقاومتها لهم ذلك الزمن الطويل لا بدّ أن يكون قد أثار حقدهم ولا سيما وقد كان فيها أولئك اللاجئون الذين أتوا اليها من بيت المقدس . فلا شك إذن أن المقتلة كانت لا تمييز فيها لأحد على آخر . غير أن المقريزى يقول إن اليهود اتفقوا مع الفرس كما فعلوا من قبل فى فلسطين، وقد جاء فى كتابه أن كسرى وجنوده جاءوا إلى مصر فقتلوا طائفة كبيرة من المسيحيين وأسروا عددا عظيما منهم وساعدهم اليهود على إهلاك المسيحيين وتخريب كنائسهم (١) . ونص هذه الرواية مثل سائر النصوص مضطرب بعض الاضطراب، ولما كانت لا تفرق بين حرب الشام وحرب مصر كان لنا أن نقول إن المقصود منها مساعدة اليهود فى بيت المقدس وحدها، على أنه قد كان فى مصر عدد كبير من اليهود ، وكان لهم حى فى الاسكندرية، ومن الجائز أن يكون اليهود قد انتهزوا فى مصر فرصة جديدة ليساعدوا أعداء الصليب . ولكنا نستبعد أن يكون القبط قد أظهروا شيئا من المودّة للكفار الذين كانت أيديهم ملطخة بدماء إخوانهم فى الدين فى (أنطاكية) و (بيت المقدس) ، ولعل بطرس البحرينى كان يهوديا ولعله كان أداة خطة مكر بها اليهود للكيد لأعدائهم

---

(١) لعل المؤلف يشير الى ماجاء فى كتاب الخطط للمقريزى صفحة ٣٩٢ من الجزء الرابع . طبعة المليجى. بالقاهرة وهى :

"وفى أيام فوقا (يقصد فوكاس) ملك الروم بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر فخربوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام وقتلوا النصارى بأجمعهم وأتوا إلى مصر فى طلبهم فقتلوا منهم أمة كبيرة وسبوا منهم سبيا لا يدخل تحت حصر وساعدهم اليهود فى محاربة النصارى وتخريب كنائسهم وأقبلوا نحو الفرس من طبرية وجبل الجليل الخ" ولا يخفى أن قول المقريزى يشير الى ما فعله اليهود بالشام أكثر من إشارته الى فعلهم بمصر . (المعرب) .

(٢) ترجمة ملان صفحة ٦٨

فاذا كان الأمر كذلك كان عمله فى الخيانة أقل دناءة وخسة وكان من السهل على الأفهام إدراكه .

ولكننا لسنا فى حاجة الى القياس والتخمين لكى نظهر براءة القبط مما عزى اليهم، فانه لا شك فى أن أكثر من هلك من الرهبان فيما حول الاسكندرية كانوا من القبط . ولو لم يكن لدينا من الأدلة إلا هـذه الحقيقة لكانت كافية لدحض افتراء المفترين على القبط بأنهم رحبوا بالفرس . ولكن ليست هذه الحقيقة كل ما لدينا، فإنا نعلم أنه بعد فتح الاسكندرية سار قائد جيوش كسرى بجنده صعدا الى الجنوب بحذاء النيل لكى يفتتح الصعيد، وكانت معاملته للقبط فى كل مكان واحدة : يحل الموت والخراب حيث حل . ويقول ساويرس إنه لما بلغ مدينة (بشاتى) وهى (نقيوس)[1] وشى اليه عدو من أعداء القبط بالرهبان الذين كانوا يعيشون فى مغاور الجبال قائلا إن عندهم مالا كثيرا وإنهم أهل فساد وظلم، ثم قال له إن كثيرين منهم كانوا مجتمعين عند ذلك فى الحصن[2] . فأثرت فيه هذه الوشاية فحاصر المكان فى الليل بجنوده ولما أصبح الصباح اقتحموه وأوقعوا بمن فيه من المسيحيين فقتلوهم ولم ينج منهم أحد .

ولا شك أن الرهبان الذين قتلوا فى ذلك المكان أيضا كانوا من القبط . وقد حدث فى الصعيد مثل ما حدث فى (نقيوس) . ولدينا فى هذا الموضع رواية رواها من هو أصدق من (ساويرس) وأقرب منه عهدا بتلك الحوادث، وتكاد كتابته تكون

---

(١) أنظر كتاب (كاترمير) "Mem. Geog. et Hist." (الجزء الأول صفحة ٧٢٠ ومابعدها) وهو يبرهن على أن (نقيوس) هى بعينها (بشاتى) والظاهر أنه لا يعلم بهـذه النبذة من كتاب (ساويرس) وهى التى يقول فيها صراحة "ومدينة (نقيوس) وهى التى تسمى أيضا (أبشادى)" وهو يستعمل ذلك الاسم على صورته العربية ولكن كلمة (كاترمير) جديرة بأن تقرأ . وقد بينا أن موضع (نقيوس) عند قرية (شبشير) فى الوقت الحالى وليس عند (أبشادى) فانها ليس بها آثار قديمة .

(٢) كان الحصن بلا شك يشبه حصن (بابليون) فى أنه كان يشتمل على كنائس عدة فقد كانت المدينة مقر (أبرشية) كبرى وكان الاجتماع الذى ذكره (ساويرس) عبارة عن مجمع من أجل أعمال تخص الكنيسة أو من أجل عيد عظيم .

فى نفس ذلك العهد الذى يقص علينا نبأه . فقد كان بمدينة قفط بالصعيد فى وقت غزو الفرس مصر مطران لتلك الأبرشية اسمه (بيزنتيوس) ومن حسن الحظ قد بقيت ترجمة حياته وترجمها عن القبطية (المسيو اميلينو)(١) وهذه القصة فيها عدّة أمور تسترعى النظر ولهذا لا حاجة بنا الى الاعتذار عن ايرادها هنا مع شىء من التفصيل .

معلوم أنه كان من المعتاد فى كل عام أن ينشر بطريق الاسكندرية كتابا على الناس يبين فيه يوم عيد الفصح . وإن فى المتحف البريطانى قطعة من أحد هذه الكتب وهو حسن الخط مكتوب بحروف مستديرة ومؤرخ حوالى سنة ٥٧٧ ، و يكثر وجود أمثال هذا الكتاب أو قطع منها . ونجد فى ترجمة (بيزنتيوس) أنه فى عهد غزو الفرس أو قريبا من ذلك جاء كتاب البطريق المعتاد ، فكتب (بيزنتيوس) موعظة بعث بها إلى أبرشيته كلها وقال فيها "لقد خذلنا الله لما نقترفه من الذنوب — وسلط علينا من الأمم من لا يرحمنا"(٢) وكان قد بلغه نبأ عبدة النار ونزولهم بالديار ، وأزعجه ما سمع من قسوتهم . ولم يكن يريد البقاء حيث هو ليكون شهيدا فآثر الهرب ، فلما أعد عدّته لذلك وتصدّق على الفقراء بما يملك ، ذهب الى جبل (جيمى) بقرب المدينة وكان معه تلميذه المخلص حنا . كان هذا قبل أن يطلع العدوّ على الصعيد ، فلم يكن هروبه فى لحظة فزع تملكه على غرة ، بل كان تدبير رجل عالم بأنه ان بقى مكانه لم يكن نصيبه سوى الموت . ولم تخامره فكرة الخضوع للفرس والاحتماء بهم ، ولم يخطر بباله أن يخطب ودهم ، فعمله هذا لا يتفق فى شىء مع قول من قال ان القبط رحبوا بالفرس .

ولما هرب (بيزنتيوس) وتلميذه حنا الى الجبل أخذا معهما مقدارا كبيرا من الخبز وماء النيل ، ولما نفد منهما الماء لقيا مشقة عظيمة لأنهما لم يجرآ على الاقتراب

(١) أنظر كتاب (Etude sur le Christianisme en Eg. au Septième Siècle) (طبعة باريس سنة ١٨٨٧) وهذا اسمه كذلك (Vie d'un Evêque de Keft au Septième Siècle)

(٢) كتاب اميلينو (السابق الذكر) (صفحة ٣٠) .

من النيل حتى ذهب (بيزنتيوس) تحت جنح الليل وهو حذر يترقب وأخذ الماء . ومازالا فى ذلك المخبأ زمنا طويلا يصليان الى الله نهارا وليلا ويدعوانه أن ينجى قومهما من أسر تلك الأمم الظالمة، ويفك عنهم غلها، وكان كل ذلك قبل أن يأخذ الفرس مدينته (قفط) . فلما أن أدركوها وصارت فى يدهم هرب (بيزنتيوس) موغلا فى الصحراء نحو ثلاثة أميال أخرى، فوجد الرفيقان هناك بابا مفتوحا فى عرض الجبل، فدخلاه وكان يفضى إلى حجرة مساحتها سبعون قدما مربعة وكان علوها يناسب سعتها وكلها نقر فى صخر الجبل، تدعمها ست دعائم أو أعمدة، وكانت هذه مدفنا به عدد عظيم من الجثث المحنطة مضطجعة ضجعتها مطمئنة فى توابيتها .

فعزم (بيزنتيوس) على أن يقيم هناك وحده وأمر تلميذه حنا أن يذهب عنه على أن يغدو عليه مرة كل أسبوع بكيل من الدقيق ومقدار من الماء . فلما أزمع حنا السير وجد قطعة من الرق ملفوفة، فناولها للطران فلما قرأها وجد بها أسماء من كانوا فى ذلك المدفن من الموتى . والاعتقاد الشائع أن هذه الصحيفة كانت كتابتها بلغة مصر القديمة (الهيروغليفية)(١)، ومن ثم يقولون إن تلك الكتابة كانت لا تزال معروفة إلى القرن السابع على الأقل . ولكن شيئا من ذلك لا يأتى ذكره فى الترجمة القبطية (التى نحن بصددها) . وعلى كل حال قد جاء فى القصة بعد ذلك أنه لما عاد حنا الى المغارة سمع مولاه يتكلم، فأصغى اليه فألفاه يحدّث إحدى الجثث وقد خرجت من تابوتها ترجو منه الشفاعة، قائلة إنها كانت هى وذووها جميعا من اليونانيين الذين كانوا يعبدون الأوثان . وهذه القصة على ما بها من خرافة تدل على أن التحنيط كان لا يزال متبعا إلى القرن الثانى أو الثالث كما يدل عليه ذكرأ كفانها وأنها كانت من "الحرير الخالص الذى تلبسه الملوك" وكما يدل عليه تحنيط الأصابع مفردة . ولعلنا نستطيع أن نستخلص من ذلك أن الصحيفة كانت كتابتها بالحروف اليونانية(٢) .

(١) عن أميلينو وسواه . والظاهر أن الدكتور (وليس بدج) يرى الرأى نفسه .

(٢) لا يسعنا أن نتخلص من فكرة عندنا وهى أن الخبر الذى جاء فيه أن (بيزنتيوس) استطاع قراءة النقوش انما أورد برهانا على معجزة أخرى من معجزاته . هذا اذا سلمنا بأنها كانت نقوشا هيروغليفية .

نرجع الآن إلى قصتنا فان الجثة بعد أن أتمت كلامها عادت إلى تابوتها، والذى يؤسف له أنه لا يرد بعد ذلك ذكر للفرس وما فعلوه بعد أخذ (قفط)، ولا كم من الزمن أقاموا فى الصعيد. وقد عاد (بيزنتيوس) آخر الأمر إلى شعبه، ولما مات دفن فى الكنيسة فى قرية (پسنتى) بعد أن قاموا الليل على جنازته بالصلاة المسنونة. وقد أوصى وهو على فراش موته بكل ما عنده من الكتب إلى صديقه (موسى)، وهو الذى خلفه مطرانا على الأبرشية، وكتب ترجمة حياته. وجلى أن كلا المطرانين كان على شيء من العلم، ولكنهما كانا مثل سائر أمثالهما من كتاب القبط لا ينصرفان إلا الى قصص تافهة خرافية تذكر ما كان على أيدى القديسين من الكرامات العجيبة . فلا يحلوهم إلا ذكر المعجزات وخوارق المألوف، ولا يذكرون حادثة حقيقية إلا عرضا أو سهوا وإن كانت مما يرتج له العالم من حوادث وقعت تحت أنظارهم، وهم يعلمون أنها حوادث يتوقف عليها مصير بلادهم .

على أننا نستطيع أن نستخلص أمرين من تلك القصة: الأول أن الفرس بلغوا فى فتوحهم أطراف وادى النيل حتى أسوان . والثانى أن المصريين القبط لم يرحبوا بهم أو يروا فيهم الخلاص بل كانوا يرونهم بعين الجزع والمقت ، وحق لهم أن يفعلوا ذلك .

وكانت كتابة قصة (بيزنتيوس) فى القرن السابع . واليك صحيفة أخرى فى المعنى ذاته تاريخها بعد تاريخ القصة الآنفة ولكنها فى القرن نفسه، وهى تصف ما قاساه القبط من الفرس وصفا أدق وأكثر وضوحا . وهذه الصحيفة هى ترجمة حياة ظهرت حديثا[١] للولى القبطى المعروف (الانباشنوده)[٢] وقد أورد فيها الكاتب ذكر الغزو

(١) بالنسبة لوقت طبع الكتاب سنة ١٩٠٢ (المعرّب) .

(٢) كتاب (أملينو) "Monuments pour servir à l'histoire de l'Eg. Chretienne" (طبعة باريس سنة ١٨٨٨) وقد أخذ النص العربى عن نسخة مخطوطة فى مصر وكل تلك النسخ مأخوذة عن أصل قبطى كتب سنة ٦٨٥ أو سنة ٦٩٠، وقد مات (شنوده) فى اليوم الثانى من يولية سنة ٤٥١ . وقد كتبت تلك النبوءات على لسانه بعد حدوث تلك الحوادث المذكورة ولكنها كانت عند ذلك لا تزال ماثلة فى الأذهان .

الفارسي وجعله في صورة نبوءة، ولكنه كتبها ولا يزال في الأحياء جماعة من الشيوخ أدركوا الحوادث التي يذكرها، وهاهي الكلمة "سيأتي الفرس إلى مصر يسفكون فيها الدماء ويسلبون أموال المصريين ويسبون أبناءهم يبيعونهم بالذهب، فانهم قوم ظالمون معتدون. وستنزل المصائب على أيديهم بمصر، يغصبون الكنائس مابها من آنيــة مقدّسة ويشربون الخمر في المحراب لا يبالون، ويهتكون أعراض النساء على مرأى من رجالهن. وسيبلغ الشر أعظمه والشقاء قصاراه، وسيهلك ثلث من يبقى من الناس في بؤس وعذاب، وسيبقى الفرس في مصر حينا من الدهر ثم يخرجون منها".

ولسنا نطمع في دليــل أوضح من هذا ولا أبلغ دلالة، فهو يهدم كل ما زعم (شارب) إذ زعم أن القبط فرحوا بالفرس، كما أنه يهدم ما ذهب اليه من أن سبب ذلك الفرح الموهوم هو صــلة نسب وقرابة زعم أنهــا كانت بين المصريين وجنود الفرس. واليك ما قاله (ساويرس) مجملا وصفه لقائد الفرس، قال: "قد اقترف ذلك (الســلار) كثيرا من الظلم والقسوة لأنه كان لا يعرف الله وإن الوقت ليضيق عن ذكر كل ما ارتكبه". وقد ظل التاريخ صامتا لا يذكر شيئا عن غزو الفرس لمصر حتى عرفت كلمة (ساويرس) الأخيرة التي اقتبسناها، ثم ظهرت بعد ذلك الصحيفتان اللتان تخلفتا عن ذلك العصر نفسه أو قريبا منه، وعند ذلك تجلت الحقيقة. غير أن صمت التاريخ اتخذ أساسا بنيت عليه قصة قوامها الظن والحدس، فيهــا حط من شأن القبط لا مبرر له. فلنشهد الآن انهيار ذلك البناء.

بقي الفرس سادة البلاد عشر سنين أو اثنتي عشرة ســنة، ولعلهم قضوا ثلاث سنوات(١) يمهدون لسلطانهم في طول البــلاد وعرضها في مصر و (پنطابولس)

(١) أنظر كتاب أبي الفرج نشرة (پوكوك) صفحة ٩٩ وقد ذكر لفظ «ثلاث سنوات» وإن عظم المسافات التي كان على الجيش الفاتح أن يقطعها تبرر مثل هذه المدة. وتحدث عادة أخطاء لمن يقرأ كتب المؤلفين الذين يجملون ذكر الحوادث فيذكرون ما وقع منها في عدة أشهر أو ســنين في جملة واحدة وتاريخ واحد. فهنا مثلا نرى أن فتح الفرس قد استغرق على أغلب الظن من عام سنة ٦١٦ الى عام سنة ٦١٨ أو سنة ٦١٩ فبعض المؤرخين يذكر سنة ابتدائه وبعضهم يذكر سنة انتهائه فالخلاف بينهم إذن في الظاهر =

ولكن لا يرد ذكر لمقاومة عنيفة أو لقتال استطالت به المدّة ، اللهم إلا عند الاسكندرية . وأن مضى هذه المدّة هو أكبر علة لاضطراب ترتيب الحوادث فى هذه الفترة وقلة الضبط فى تواريخها . وكان الفرس فى أثناء القتال يظهرون قسوة عنيفة فلما أن خبت سورتهم واستقر أمرهم صار حكمهم أبعد شىء عن أن يكون ظالما . فلما أن أخرج جند الروم أو من بقى منهم من وادى النيل وفرّوا فى البحر استقر القبط على شىء من الاطمئنان ، وخضعوا مرة أخرى لسيد جديد بعد زوال سلطان السيد القديم عنهم ،وقد كان هذا شأن تاريخهم السياسى من أقدم الأزمان أن تتبدل عليهم السادة وتتعاقب .

وما هو إلا أن عاد السلم حتى أمنت الكنيسة المصرية واستطاعت أن تداوى بعض ما أصابها من الجروح بعد ما عانته من السلب والتخريب ، وبعد أن كادت آثارها تمحى فى بعض المواضع . على أن (أندرونيكوس) لم يقم بشىء فى سبيل إعادة بناء الأديرة المخربة . وأغلب الظن أن الفرس فرضوا على الكنائس جزية تؤدّيها ، أو لعلهم على الأقل استصفوا ما كان للكنائس الملكانية الطريدة من أوقاف وأرزاق ، وأما الأبنية الأهلية فقد لقيت من الفرس رفقا لم يرفقوا مثله فى مكان آخر ، فقد قدّمنا أنهم كانوا فى الشام يمنون على المدائن والناس اذا هم سلموا اليهم أمانا فى أثناء الحرب كلها . وأما اذا كانت مقاومة فقد كانت عادتهم أن ينهبوا ما فتحوه عنوة ، فيسلبوا منه كل ما استطاعوا حمله من تحف أو كنوز ، ثم كانوا فوق ذلك يهدمون البناء نفسه كى يأخذوا ما فيه من العمد البديعة والاطارات الجميلة والمرمر الثمين ويرسلوه الى الملك الأعظم يحلى به قصرا من قصوره . وأما مصر فقد حماها بعدها الشاسع من مثل هذا التخريب الشنيع ، لأن الروم كانوا لايزالون سادة البحار ، وكان بمصر السفلى عدد لا حصر له من الترع التى لا قناطر عليها ، وكان بين مصر والشام

= ولكنه مع ذلك ضلل النقاد الذين لم ينعموا النظر أو الذين لهم تصوّر قاصر فاذا حدث خلاف فى مدة بقاء الفرس فى مصر أمكن تفسيره بمثل هذا التفسير فقد قيل إن الفرس أقاموا فى مصر عشر سنوات . وقيل اثنتى عشرة سنة وقد يكون القولان صحيحين .

شقة واسعة من صحراء ذات رمال، فكان حمل ماثقل من الأشياء من قطر الى آخر أمرا عسيرا فوق الطاقة . وكذلك نعرف أدلة تدل صراحة على أن الأبنية العامة الشامخة بالاسكندرية لم يصبها أذى من الفرس فى أكثر الأحوال، على خلاف ماحدث للأديرة التى فى ظاهر أسوار المدينة . وفى الحق إن أثر هؤلاء الغزاة فى البناء كان أعظم من أثرهم فى التدمير فى تلك العاصمة ، إذ بنوا بها قصرا عظيما بقى معروفا الى زمن بعيد بعد ذلك باسم قصر الفرس(١)، وأكبر ظننا أن أخبار تدميرهم وتخريبهم للمواضع الأخرى مبالغ فيها، فمثلا يقول (جبون) إنهم محوا من الوجود مدينتى (قيرين) و (برقة) فى حين أن العرب وجدوا هاتين المدينتين بعد سنين من ذلك الوقت وكانتا جديرتين بفتح جديد، بل إن هاتين المدينتين فى هذا الوقت الذى نصفه لم تذهبا وتمحيا، بل إنا لا نستطيع أن نفسر قوله هذا بأنهما نزعتا الى الأبد من الدولة الرومانية فان ذلك لم يكن . وليس فى الأخبار ما يبرر أن حظ هاتين المدينتين كان غير حظ مصر، فانها جميعا دخلت فى حكم كسرى وبقيت على ذلك حينا من الدهر، ثم قدّر لها أن تعود الى حكم هرقل قبل أن تدخل فى الاسلام وتصير الى الأبد فى حكمه(٢).

وإنا لانعرف عن حكم الفرس فى مصر إلا قليلا، غير أنا نعلم أن هؤلاء الفاتحين لم يكونوا من الصلابة فى أمر دينهم بحيث يرغمون المغلوبين على عبادة النار(٣) وكذلك

(١) الديوان الشرقى ويقول (ساويرس) كذلك إن (السلار) بنى فى الاسكندرية قصرا اسمه (طراوس) ويسمى الآن «قلعة الفرس» وقد ذكر ابن العبرى كذلك هذه القلعة فى (كتاب تاريخ الكنائس الجزء الأول الباب ٣٦٢) ويظهر من قراءة ما جاء فى كتابه أن موضع القلعة كان فى المكان الذى ينزل فيه الناس الى البر من سفنهم اذا أتوا من الشرق . ويقول (ساويرس) بوضوح إن القلعة كانت فى الاسكندرية وإلا لذهبنا الى أنها كانت بعيدة بعض البعد عنها . والحق إن من قرأ السيوطى وسواه يتضح له أنها لم تكن فى داخل أسوار المدينة .

(٢) يبرهن مؤرّخو العرب برهانا واضحا على أن (قيرين) و (برقة) ظلتا فى يد الدولة (الرومانية) الى مدة غزو العرب ثم نزعتا منها عند ذلك .

(٣) جاءت فى ترجمة حياة (الديرانى صمويل) قصة مفردة وهى أن الهمج (وواضح أن المقصود بذلك هم الفرس) سعوا الى أن يجبروه على عبادة الشمس فلما أبى قرن الى جارية سوداء ولكنه داوى ابن الرجل الذى أسره من علته فأطلق سراحه وأعيد الى ديره ومات فيه بعد أن تنبأ بمجيء العرب (ولعله =

نعلم أنه بعد أن استقر لهم الأمر ساروا على سنة التسامح فى أمور الدين. وكانت تلك سنتهم فى فلسطين و بلاد العرب ، فقد رأينا أن كسرى سمح للطران (مودستوس) أن يجمع المال ليعيد بناء كنائس بيت المقدس، ثم أباح لبطريق القبط أن يبقى فى الاسكندرية حتى موته وأن لا ينازعه منازع فى رئاسة الدين. وكذلك يظهر لنا أن انتخاب خليفته (بنيامين) تم فى سلام واطمئنان، وأنه قضى أوّل سنى ولايته مستظلا بحكم الفرس، وكانت تلك السنين هادئة مطمئنة اذا قيست بسائر مدة ولايته الطويلة المليئة بعواصف الحدثان. وكما أن طرق الاسكندرية وأبنيتها العامة بقيت على عهدها من الفخامة والشموخ لم يعتورها فساد على يد الفرس، كذلك قد بقيت تلك (المدينة العظمى) على عهدها مقرا للعلوم لم ينطفئ نورها وإن اعتراه شيء من الضعف .

= قد رآهم) و بأن المسيحيين سوف يغلبونهم (وذلك ما لم يره) (انظر المجلة الاسيوية سنة ١٨٨٨ صفحة ٣٨٤ — ٥) ومن الواضح أن عبادة (مثرا) أدخلت الى مصر وأقيمت بها فى مدة احتلال الفرس وتدل على ذلك آثار كثيرة غير جميلة وجدت فى منف وسواها من المواضع وهى الآن فى متحف القاهرة . والذى يدل على أن الصور المنقوشة على الآثار تمثل (مثرا) هو وجود أشعة الشمس بها حول الرأس والقلنسوة الفريجية .

الفصل الثامن

الفن والأدب

التاريخ — الطب — الفقه — زيارة (حنا مسكوس) مكاتب الأسكندرية العالم كوماس — التصوير — الفلك — العمارة والفسيفساء وصناعة المرمر — الأسكندرية — تفسير الكتب بالرسم — النحت — العاج — صناعة المعادن — الخزف — الورق والزجاج — المنسوجات — التجارة — السفن وتجارة البحر

قلما تخلف عن هذا العصر أثر من آثار الأدب وإن كان ما كتب عنه كثير فوق ما يتوقعه الانسان[1] و يقول بعضهم إن حنا (فيلوبونوس) كان عند ذلك لا يزال حيا فى الأسكندرية ولكن ذلك غير صحيح[2] . على أن أثر مذهبه — وإن شئت قلت أثر إعتزاله وانشقاقه — كان لايزال باقيا حتى لقد رأى البطريق (سرجيوس) أن الأمر جدير بعنايته، فشرع يكتب فى نقض آراء حنا وتفنيدها مشتركا فى ذلك مع (جورج البيسيدى)[3] . ولم يكن حنا هذا بصاحب الرأى الطريف المبتكر ولكنه كان عالما ضليعا بفنون كثيرة من العلم ولا تزال بعض مؤلفاته باقية وهى حواش على كتاب أرسطو . وفى ذلك الوقت كتب قس من الأسكندرية اسمه هرون رسائل فى علم الطب باللغة السريانية بقيت معروفة يرجع اليها العرب كما قال أبو الفرج[4] .

(١) نجد بابا قصيرا على آداب عصر هرقل فى كتاب الأستاذ بورى "Hist. of the Later Rom. Emp." الجزء الثانى (صفحة ٢٥٤ – ٧) ولمراجعة حالة العلوم فى الأسكندرية (انظر كتاب «ماتر» "Ecole d'Alexandrie") .

(٢) قد برهن (ا. ناوكيوس) على أن (فيلوبونوس) كان من أهل القرن السادس (Encycl. Halensis) القسم الثالث الجزء ٢٣ صفحة ٤٦٥ أنظر أيضا ما كتبناه فيا بعد عما آلت اليه مكتبة الأسكندرية .

(٣) كتاب (دراپيرون) (L'Empereur Haraclius) صفحة ٢٩٣

(٤) نشره (پوكوك) .

وكان أطباء الأسكندرية معروفين مشهودا لهم زمنا طويلا وكانت مدرسة الطب فى تلك المدينة كعبة للطلاب يقصدونها من كل أنحاء الدولة وقد جاء فى كتاب زكريا المتلينى عن وصفه للقرن السادس أن طبيب الأمبراطور بازيليكوس كان من أهل الأسكندرية . وجاء فى موضع آخر فى وصف (سرجيوس[١] ريزاينا الأكبر). أنه كان يطلع على كثير من كتب الإغريق، وكان فوق ذلك فقيها فى الدين وعالما فى الطب فى الأسكندرية وكان يجيد السريانية قراءة وكلاما[٢] . ولعلنا نفهم من هذا الوصف أنه قد كان ثمت اتصال خاص بين لغة السريان ودراسة الطب وإنه لا يبعد أن أعظم كتب الطب فى القرنين السادس والسابع كانت باللغة السريانية ولا شك أن تلك اللغة كانت ذائعة بين الناس وأن آدابها كانت دائما تدرس فى الأسكندرية حتى قبل أن تفد جموع العلماء الى مصر من سوريا عند غزو الفرس لها .

ومن العجيب أن (هرون) و (سرجيوس) كلاهما كان فقيها فى الدين وعالما فى الطب فى وقت واحد وكذلك كان البطريق أوتيكيوس (سعيد بن بطريق) . وقد قام أكبر الأدلة على أنه قد أزدهرت فى ذلك الوقت مدرسة مستقلة من مدارس الفقه، فنسمع أن جماعة من العلماء السوريين كانوا قبيل غزو الفرس مصر يراجعون الترجمة السريانية للانجيل ويترجمون الى السريانية كتاب التوراة السبعينية من جديد . وكان أكبر من اشترك فى هذا العمل (توما الهركلى) و (بولص التلوى[٣]). وقدقامت

(١) ذكر أبو الفرج رجلا اسمه (سرجيوس) وقال إنه أضاف مقالتين الى الثلاثين مقالة التى ألفها (هرون) ولكن ذلك لابد أن يكون شخصا آخر .

(٢) زكريا المتلينى (صفحة ٢٦٦) .

(٣) أنظر "Dict. Christ. Biog. S. V." ونجد بعض أخبار هؤلاء العلماء فى كتاب (شارب) "Hist of Eg." (الباب ٢١ صفحة ٣٨) ويقول شارب إنهم كانوا يدرسون فى دير القديس أنطون والقديس (زاكيوس) بالقرب من الأسكندرية ولكن الظاهر أنه لم يفهم معنى القول الذى نقل عنه وقد أفضنا فى الكلام على زيارة هؤلاء العلماء السوريين وما ألفوه من الكتب فى ذيل هذا الكتاب عن تاريخ فتح الفرس .

الجماعة بعملها فى أكثر الأوقات فى الدير المعروف دير (الهانطون) . ولسنا فى حاجة لأن نبرهن على أن ذلك العهد نشط الى دراسة الكتاب المقدّس نشاطا كبيرا، ولكن (أجاتياس) يحدّثنا أحاديث مدهشة عن الهوّة السحيقة من التضليل والكذب التى قد تهوى اليها المناظرات الدينية، فانه يحدّثنا عن حاكم من كبار حكام الدولة أنه جمع أربعة عشر كاتبا أو ناسخا يعملون فى تحوير ما كتبه الآباء ولا سيما (قيريل) حتى يستطيع أن يدعم المذهب التى ينتمى إليه بما شاء من أكاذيب يعزوها الى أكبر حجج الدين فى ما ينشره من الكتب . وإنا لنرجو أن تكون هذه الأكاذيب قليلة الحدوث، ولكنها كتبت فى أوائل القرن السابع حين كان الخلاف المذهبي على أشدّه لا يتورّع أصحابه عن الكذب ومخالفة الفضائل فى سبيله . ولم تكن دور الكتب فى دير (الهانطون) وحده بل كان لكل دير مكتبته وقصاده من أجل العلم، ولعل الدير السوريانى[1] أو الدير السورى الذى لا يزال إلى اليوم فى صحراء وادى النطرون قد نشأ فى ذلك الوقت عند ما جاء إلى مصر كثير من السوريين وعلمائهم هاربين من خطر حرب الفرس . وكان الرهبان والزهاد فى صوامعهم فى كل مكان فى الصحارى والجبال بعيدين عن العاصمة وما فيها من حياة العلم يكتبون باللغة القبطية رسائل فى خلافاتهم وتراجم لحياة بطارقتهم، ولكنهم لم يكتبوا من حوادث التاريخ إلا قليلا .

لم يبق مما كتب فى ذلك الوقت من التاريخ الصحيح إلا شيء يسير فقد بقيت بعض أخبار قيمة كتبها (تيو فيلاكت سيموكاتا) . على أنه قلما يذكر الإسكندرية وإن كان من أبنائها، فى حين أن الكاتب المجهول الذى ألف (ديوان بسكال) أو (الاسكندرى) قد خلف لنا صحيفة يصف فيها عصره لها قيمة جليلة وهى جديرة بكل عناية . وكتب (حنا النقيوسى) ديوانه فى أواخر القرن السابع، ولكنه كان من غير شك يأخذ عما سبقه من المؤلفات التى لم يبق منها شيء حتى الاسم .

---

(١) انظر "Ancient Coptic Churches" الجزء الأوّل صفحة ٣١٦ تجد فيه وصفا لهذا الدير .

وهذه الأسماء التي ذكرناها تدلنا على أنه قد كان في ذلك العصر درس وبحث في التاريخ والفلسفة وفقه الدين والطب، ولكنها مع ذلك قليلة العدد لا تكفي للدلالة على ما كان بالاسكندرية من نشاط أهل العلم في مختلف الفنون، فقد ضاعت أكثر مؤلفات ذلك العصر في أثناء عواصف الفتوح التي اجتاحت مصر في النصف الأول من القرن السابع. على أنه قد بقي منها ما يشهد للإسكندرية بأنها كانت لا تزال جديرة بأن تكون مقرّ الآداب في العالم أجمع، ومقصد طلاب العلم، وكان لا يزال بها أثر يزدهر من العلم القديم وإن كان أكثر العلم فيها عند ذلك خاصا بالدين. وقد ألفت رسائل في الأخلاق المسيحية أو المثل الأعلى المسيحي قصد بها أن تكون قائمة على أساس مذاهب أفلاطون وأرسطو، وكما أن (بولص السيلنتياري) كتب مدحة يذكر فيها فضائل (القديسة صوفيا) في شعر هومري[1] من ذي الستة المقاطع، كذلك رأى (صفرونيوس) وهو في الإسكندرية أنه لا عار عليه في أن يكتب قصيدة يبث فيها شوقه إلى الأرض المقدّسة في صورة شعر غزلي على نمط تشبيب الشاعر الإغريق (أناكريون)[2].

وقد اتفق أن بقي في كتب (حنا مسكوس) شيء من الوصف الشائق للحياة في الإسكندرية في ذلك العهد، على أن هذا الوصف الذي بقي قليل لا يكفي لأن يملأ صحيفة كبيرة من الرقاع التي كانت تستعمل للكتابة، وقد كتبه الكاتب عرضا بغير أن يقصد به شيئا، غير أنه مع ذلك يصوّر لنا صورة عجيبة. وكان (حنا مسكوس) هذا سوريّ المولد ولسانه لسان الإغريق وقد طاف في مصر بضع سنين قرب آخر القرن السادس مع صديقه وتلميذه (صفرونيوس)، وهو دمشقي الموطن، وقضيا مدّة طويلة معا في أديرة (الثيبائيد) وهو صعيد مصر، ولما رجعا إلى وطنهما حمل حنا تلميذه (صفرونيوس) على أن يترهب. ويقال إنهما طردا من الشام في سنة ٦٠٥ في أثناء حروب (فوكاس) فذهبا إلى الإسكندرية وقضيا مدّة أخرى نحو ثمان سنين

(١) نسبة الى هومر شاعر الاغريق.

(٢) انظر كتاب مينى "Pat. Gr." الفصل ٨٧

أو عشر فى القراءة والكتابة ، وكانا بين حين وحين يزوران الأديرة المجاورة للاسكندرية وأديرة الصحراء والواحة الكبرى ، وكان كلاهما صديقا (لحنا الرحوم) ، على أنه قد كان أقل منهما علما . وقد هربا مثله من الاسكندرية فى وقت غزو الفرس حتى لقد قيل إنهما صحباه إلى قبرص ، وإن (صفرونيوس) ألقى خطبة على جنازته ، ولكن الأدلة تنقض هذه الرواية ، ومن المحقق أنهما ساحا فى الجزائر الإغريقية ورحلا بعد ذلك إلى رومة وهناك أعاد (حنا موسكوس) قراءة كتابه ونقح فيه التنقيح الأخير ، ولما وافاه أجله أعطاه إلى تلميذه صفرونيوس لينشره ، فلما رجع الأمن حوالى سنة ٦٢٠ ، وأبيح للسيحيين أن يعودوا الى التعبد على دينهم تحت حكم الفرس ، عاد (صفرونيوس) الى فلسطين ونشر بعد حين جزءا من كتاب أستاذه وهو الجزء الباقى الى اليوم واسمه (مسارح الروح)(١) .

وهذا الكتاب على ما فيه من قصص شفاء الأمراض بالمعجزات ، ومن الأحلام وأمثال ذلك مما لاقيمة له عند المؤرخ ، يشتمل على أخبار قيمة ينشرح لها الصدر اذا ما استطاع الباحث أن يستخرجها منه بشق النفس . والكتاب مع ذلك فيه شيء من فوضى علمية واستطراد غير منظم يجعله شهى المقرأ ، ويخلع لذة على المواضع التى تدعو فيه الى الملال والسأم . وسنرى فيما بعد بعض ماجاء به عن وصف إقليم الاسكندرية ، ولكن لا بدّ لنا من أن نذكر هنا صفة تظهر فى كل صفحة من صفحاته ، ألا وهى حب العلم حبا شديدا ، فقد كان الصديقان لا يستقرّ لهما قرار فى طلبهما للعلم ، ويدل على ذلك تنقلهما فى الأقطار ، وإن كانت بعض رحلاتهما إنما قصدا فيه القيام بخدمات للكنيسة(٢) . فبينا كانا فى الاسكندرية يحدّثان مطران (دارنه) أو هى (دارنيس) على ساحل البحر فى ليبيا إذا هما مع رئيس الدير (تيودور الحكيم) أو مع (زويلوس القارئ) . وكان (تيودور) و (زيلوس) كلاهما

(١) والأشهر عنه اسمه اللاتينى "Pratum Spirituale" أنظر كتاب مينى (Pat. Gr.) الجزء ٨٧ (٣) وانظر "Dic. Christ. Biog." وانظر (صفرونيوس) .

(٢) ترجمنا الكلمة اليونانية * (١٥) بقولنا « بخدمات » ولكنها قد يكون معناها « من أجل تقدّمنا العلمى » ومعنى ذلك أنهما قصدا الى (أغراض علمية) .

نادرة فى العلم والخلق، وكانا فقيرين فقرا مدقعا فقد ورد عنهما أنهما لم يكن لأحدهما من حطام هذه الدنيا إلا رداؤه وبعض الكتب . وكان (تيودور) عالما بالفلسفة فى حين أن (زويلوس) كان مفسرا للكتب المخطوطة ويوضحها بالرسم[1] . وقد وجد الصديقان غير ذلك رئيس دير قريب من الاسكندرية وكان شيخا جليلا قضى فى الرهبانية ثمانين عاما[2]، وكان يحب الناس ولكنه كان فوق ذلك متصفا بخصلة أخرى قلما اتصف بها أحد وهى حب الحيوان . فكان كل يوم يطعم طير الحق والنمل صغاره وكباره حتى الكلاب التى كانت تسرح حول الدير. وإذا كنا قد وصفنا (تيودور) و(زويلوس) بأنهما كانا لا يملكان إلا شيئا واحدا احتفظا به وهو الكتب فقد كان هذا الشيخ الذى يحب الحيوان لايبقى على شىء. فلم يكن عنده درهم ولا رداء، بل لم يكن عنده كتاب، إذ كان يعطى الفقراء وأهل الحاجة كل مايملك[3].

ولكن ارعى موضع للنظر فى كتاب (حنا مسكوس) قطعة غير كاملة اذا قرأها الانسان استزاد منها فلم يجد منها زيادة، وهى تصف صلة الصاحبين بكزماس العالم[4]، وكانت صلة وثيقة العرى . وكان حنا اذا وصف شيئا استعمل صيغة المثنى فى وصفه يقصد نفسه وصاحبه (صفرونيوس) الذى كان شريكه فى أسفاره ومباحثه جميعا . وهذه القطعة عظيمة الشأن فلنا العذر اذا نحن أوردنا هنا شيئا يشبه نصها .

قال حنا "ولن نقول عن (كزماس العالم) كلمة ننقلها عما يقوله الناس بل سنكتب ما خبرناه وشهدناه بأعيننا . كان رجلا لا كلفة فيه زاهدا طاهرا . وكان هينا لينا مؤلفا كريما يعطف على الفقراء وقد انتفعنا به انتفاعا كبيرا إذ فاض علينا من علمه ورأيه[5]

(١) أنظر كتاب حنا مسكوس الباب ١٧١

(٢) أنظر نفس الكتاب الباب ١٨٤

(٣) أنظر نفس الكتاب الباب عينه .

(٤) * (١٦) أنظر الكتاب عينه الباب ١٧٢

(٥) ترجم مبنى لفظ * (١٧) على البناء للمجهول فكان معناها «عند حضوره» ولكن اللفظ نفسه كان لا يزال يستعمل للنظر الفلسفى * (١٨) فمثلا جاء فى زكريا المتلينى أن حنا القسطنطينى صار من أهل الشك الكفرة الذين يتبعون النظر .

وكانت عنده فوق ذلك (خير مكتبة في الاسكندرية وكان يعير من كتبها في سخاء لمن يحب أن يقرأ)[١]. وكان فقيرا فقرا شديدا فلم يكن في بيته شيء من الأثاث إلا فراشه ومنضدة، على أن الكتب كانت تملؤه. وكان يبيح لكل من شاء أن يدخل مكتبته ومن أراد من القارئين كتابا طلبه وقرأه هناك . وكنت أزور (كزماس) كل يوم ولست أذكر إلا الحق اذا قلت إنى مادخلت بيته يوما إلا وجدته مكبا على القراءة أو الكتابة يردّ على اليهود أو يجادلهم . وكان لا يحب أن يترك مكتبته فكان كثيرا ما يبعثنى لأجادل بعض اليهود بما جاء فى الكتب التى كتبها .

وقد تجرأت يوما على أن أسأله سؤالا فقلت "أتتفضل على بأن تخبرنى كم من الزمن بقيت منعزلا فى مكانك هذا ؟" فأمسك ولم يرد على حرفا فقلت له عند ذلك "عزمت عليك بالله إلا ما قلت لى جواب مسألتى" فتردّد أوّلا ثم قال "بقيت هنا ثلاثا وثلاثين سنة" ولما أن ألحفت عليه بالسؤال قال لى إنه قد تعلم أمورا ثلاثة مما قرأ وهى ألا يضحك ولا يحلف ولا يكذب .

وهذه صورة ولا شك بديعة لعالم فقير فى الاسكندرية جعل بيته مرتادا لطالبى الكتب ومحبيها[٢] وهى صورة تجعل القارئ يستزيد ولكن لا يجد فيها ما يشفى شوقه ويرجع ذلك الى أمرين : الأول أنها لا تذكر شيئا عن نوع الكتب التى كانت فى المكتبة أو أنواعها ولا عن عددها، والثانى أنه يسوءنا كثيرا أن (حنا مسكوس) و (صفرونيوس) لا يذكران شيئا ما عن المكتبة العامة الكبرى بالاسكندرية وقد طبق ذكرها الخافقين، مع ما كانا عليه من حب القراءة والعلم وعظيم العناية بأمر الكتب وجامعيها . فلسنا ندرى أكانت تلك المكتبة فى أيامهما موجودة أم غير موجودة، وقد كانا على قاب قوسين أو أدنى من إبانة ذلك الأمر، فكانا يستطيعان

(١) * (١٩) ولكن من سوء الحظ أن الأصل ليس فيه شيء يدل على التمييز بين المكاتب العامة والمكاتب الخاصة فى المدينة .

(٢) فى متحف القاهرة أثر ذو شأن أقيم ذكرى لأحد محبي الكتب فى ذلك العصر وذلك الأثر هو رسم بارز على غطاء تابوت لطالب علم يمسك فى كلتا يديه بلفافة من المخطوطات .

بكلمة يقولانها أن يجليا سره الذى ما زال مكنونا يضل فيه الباحث ، ولكنهما يوليان عنه فى صمت وينصرفان .

ولا شك أن سكوتهما فى نفسه متى قرن الى صمت غيرهم من الكتّاب، وهم كثر، له دلالة فى الأفهام . ولكن ليس هذا مقام القول فى الوقت الذى ضاعت فيه تلك المكتبة العظيمة وسيأتى مقامه فى موضع آخر من هذا الكتاب. وأما هنا فحسبنا أن نظهر الأسف على أننا اذا قرأنا كتاب (حنا مسكوس) "مسارح الروح" أو إذا قرأنا ما بين أيدينا من كتب صفرونيوس الضخمة لا نجد فى أى موضع منها إشارة واحدة نعرف منها أكانت تلك المكتبة لم تزل الى أيامهما باقية فى السرابيوم أم لم تكن .

ولكن كل شىء يذكر كتب الاسكندرية فى هذا الوقت أو قريبا منه له فى بحثنا هذا قيمة عظمى ، ولو كان قطعة من دليل أو نتفة من خبر، وعلى ذلك فقد يكون لنا العذر اذا نحن أوردنا ذكر مجموعة أخرى من الكتب وهى مجموعة مطران (أميدو) السورى (مور وباركستانت) فى النصف الأول من القرن السادس. قيل فى وصفه إنه كان " فصيحا يتكلم اليونانية " ولكنه "نفى الى (بطرة) بعد أن أقام فى مقر رئاسته للدين مدة قصيرة، ثم نفى بعد ذلك الى الاسكندرية فأقام بها حينا وجمع مكتبة تحوى كثيرا من الكتب القيمة، يجد فيها من يرغب فى العلم من أهل البحث والفهم فوائد جليلة. وقد نقلت هذه الكتب بعد موته الى خزانة كنيسة (أميدا) وما زال يتعمق فى القراءة وهو فى الاسكندرية حتى لحقه السبات" ومن هذه النبذة الهامة التى جاءت فى كتاب (زكريا المتلينى)[1] يمكننا أن نستخلص أمرين: الأول أن الاسكندرية كانت الى ذلك الوقت سوقا رائجة لمن أراد أن يجمع الكتب ، والثانى أن إصدار الكتب الى البلاد الأخرى كان مباحا .

على أن إقبال أهل العلم فى الاسكندرية لم يكن على آداب الاغريق وفقه الدين وحدهما فقد كانت مدينة بطليموس وإقليدس لا تزال مشهورة بخدمتها لعلم

(١) صفحة ٢٠٩

الفلك معروفة بمهارة من فيها من علماء الرياضة وعلم الحيل[١]، وكان فيها من لا يزال يمارس التنجيم، ولم يخل ذلك من فائدة للعلم لأن هؤلاء المنجمين كانوا على شيء من العلم بالنجوم. وكان الملوك وحكام البلاد يرسلون من كل أقطار العالم الى رهبان الصحارى لينبئوهم بما فى ضمير الغيب لهم، وكانوا فى ذلك يعتمدون على علم الرهبان بالكواكب أكثر من اعتمادهم على ربانيتهم، ولم يخل هؤلاء المنجمون من الأثر فى أمور السياسة. وكان أكبر علماء الفلك فى ذلك الوقت (اسطفن الإسكندرى) ولا يزال كتابه فى علم الفلك باقيا. وهو معروف أيضا بدرايته بالتنجيم، ولو صح أنه تنبأ بمجيء دولة الإسلام[٢] لكان من المؤكد أن كثيرين من سرعان أهل وطنه صدقوا ما قاله منذ سمعوه، وداخلهم خوف خلع أفئدتهم ووهن من قوتهم عند ما جاء وقت النضال والبلاء. ولكن (اسطفن) كان فذا فى الرجال ويلقبونه «بحكيم العالم» و«علامة الزمان» وليست درايته بالتنجيم لتزيد فى قدره إلا قليلا. وكان علم تقويم البلدان من فروع العلم المعروفة فى ذلك الوقت، فقد زادت معرفة الناس بالبحار الشرقية بفضل رحلات الكشف التى قام بها (كزماس) المعروف "بالبحار الهندى" وكان تاجرا من أهل الإسكندرية جريئا على المخاطر، قام بسياحات علمية طويلة حول بلاد العرب والهند، دفعه إليها حبه للأسفار والاطلاع على مجاهل البلاد أكثر مما دفعه إليها حب المال والربح. وقد مات قبل ذلك الوقت الذى نصفه ببضع سنين غير أن ما كتبه كان لا يزال فيه باقيا فى أيدى الناس يعجبون به. ولكن من سوء حظنا أن أكثر ما كتبه وأعظمه قيمة ضاع ولم يصل الى أيدينا[٣].

---

(١) علم الميكانيكا. (المعرب).

(٢) جاء فيما كتبه (هـ. أوسنر) على (اسطفن الاسكندرى) مالا يجعل أحدا يشك فى علمه ولكن يتضح من ذلك أيضا أن ما عزى اليه من التنبؤ ما هو إلا وضع نسب اليه فى عصر بعد ذلك بزمن طويل. انظر كتاب "De Stephano Alexandrino".

(٣) أنظر كتاب ماتر "Ecole d'Alexandrie"، (الجزء الثانى صفحة ٣٨١) ففيه وصف (قزماس انديكو بلستس) وهذا الكتاب يحوى طائفة عظيمة من الأخبار.

وإذا حق لنا أن نقول إن الآثار الأدبية كانت لم تزل باقية يعتز بها فى الإسكندرية فانه يحق لنا أكثر من ذلك أن نقول إن الفنون كانت بها زاهية مزدهرة، فقد كان بنيان المدينة يأخذ بالألباب بعظمته ورونقه، من أسوار منيفة وحصون منيعة وقصور براقة وكنائس نخمة وطرق ذات عمد مرصوصة. وكانت مهارة البنائين على عهدها لم تضمحل ولم تضعف عما كانت عليه فى أيام (چستنيان) اذ اتخذ من أهل الاسكندرية ذلك البنّاء الذى أقام الساحة الكبرى بالقسطنطينية، بها ألف عمود وعمود، ولا تزال الى الآن باقية. ورءوس الأعمدة فى هذه الساحة يرجع اليها الفضل كما يقول الأستاذ (فريمن) فى الانفصال عن قيود الماضى انفصالا تاما وتمهيد الطريق للبناء الجليل الذى أقامه (أنتيميوس) ألا وهو بناء القديسة صوفيا[1]. وكان حجر السماق الأحمر والأخضر الذى استعمل فى تحلية هذا البناء يؤتى به من مصر محمولا فى النيل[2]، وكانت مصر منذ أيام الفراعنة شهيرة بما فيها من المرمر البديع، وكانت حلية الكنائس والقصور فى جميع بلاد العالم من هذا الحجر الثمين، وكانت سوقه فى الاسكندرية وبقيت هناك حتى قضى عليها فى أيام الفتح العربى.

وكان فن التصوير من أتباع فن البناء يستخدم فى تجميل الجدران فى داخل البناء كما كان من وسائل ذلك التجميل نقوش الفسيفساء ذات الألوان وصور الفسيفساء[3]

---

(١) أنظر كتاب "St. Sophia, Constantinople" صفحة ٢٤٩ تأليف (ليثابى وسوينسن).

(٢) قال (بولص السيلنتيارى) "كانوا يحملون الأحمال فى السفن على صدر النيل".

(٣) انظر كتاب "أبى صالح" إذا أردت قراءة وصف الفسيفساء الزجاجية فى مصر صفحة ١٤٨ وكذلك أنظر ما كتبناه فى الهامش عن ذلك وإنا عند ما كتبنا هامشنا لم نكن نعرف أن بعض أمثلة من تلك الصناعة لاتزال موجودة بمصر ولكن رأس القبلة فى جامع ابن طولون ما زالت بها الفسيفساء الزجاجية التى جعلت حولها منذ القرن العاشر وقد رسم حولها رسم على نمط ما كان يرسمه القدماء. ويوجد مثل آخر من ذلك فى مسجد شجرة الدر ومثلان فى الأزهر وهما فى (قبلة الطبرسية) و (قبلة الأقبغية) وهذه الأمثلة تدل على ندرة وجود هذا الفن اذ ما كان يستعمل إلا قليلا فى تزيين أعظم المبانى الاسلامية رسوما وأجلها زينة ومع ذلك فوجودها دليل على أن تلك الصناعة بقيت الى القرن الرابع عشر. أنظر تقرير لجنة حفظ الآثار العربية (القاهرة سنة ١٩٠٠) كتبه ماكس هارتز بك.

الزجاجية وأفاريز المرمر فوق الجدران وتغطية الأرض بالرخام . وقد احتفظ القبط زمنا طويلا وهم تحت حكم العرب بالدراية فى هذه الفنون فنون البناء وصناعة فسيفساء الزجاج وصناعة خاصة بالمرمر كان يطلق عليها اسم "الفن الاسكندرى"(١) تمييزا لها . وكانت أسوار العاصمة الجديدة (القاهرة) وما فيها من مساجد بديعة، من صناعة المصريين فى بنائها وزخرفها ، وما كان نبوغهم فى هذه الصناعة وأساليبهم فيها إلا ما ورثوه كابرا عن كابر فى الفن عن الاسكندرية القديمة .

ولا ننس فن تفسير الكتب وإيضاحها بالرسم . وقد رأينا أن (سيموكاتا) يذكر صديقا له كان (مفسرا) . وأن (حنا مسكوس) يصف (زويلوس) بأنه كان ممن يعالج هذا الفن . والحقيقة أن فن الكتابة المزخرفة ورسم الصور الصغيرة فى الكتب كان شائعا بالغا حدّه من الاتقان فى هذا العصر فى كل بلاد الشرق . وكان خير المخطوطات إذ ذاك يتخذ من الرق يدهن بلون أرجوانى ويكتب عليه بحروف من الذهب ، وكانت أمثال هذه الكتب تتخذ لمكتبة الامبراطور . وإن بين أيدينا خطابا قيما أرسله أكبر مطارنة الاسكندرية وهو (تيوناس) إلى رجل اسمه (لوقيانوس) وهو الوصيف الأكبر للامبراطور وأمين خزانة كتبه ، ولعل هذا موضع صالح لذكره وإن كانت كتابته فى سنة ٢٩٠ للميلاد . وقد جاء فى أول ذلك الخطاب وصف لما ينبغى أن يسير عليه الكتّاب فى دواوين حسابهم وما فى عهدهم من الخلع والحلى ، ووصف لطريق إثبات ما فى الخزائن من آنية الذهب والفضة ، والبلور وقماقم المتز وغير ذلك من تحف القصر . وجاء فيه بعد ذلك أن المكتبة أثمن ما فى القصر وأنه يجب على المسيحى ألا يترفع عن مطالعة كتب الأدب الدنيوى ، وأنه يجب على أمين خزانة الكتب أن يكون ملما بكل ما فيها ، وأن يرتبها على نظام ثابت ويجعل لها ثبتا تدوّن فيه أسماؤها . وعليه أن يستوثق من أمر الكتب وأن النسخ التى عنده منها صحيحة غير محرّفة وعليه أن يعيد كتابة النسخ وتصويرها إذا هى بليت . وجاء فى آخر خطاب (تيوناس) هذا أنه ليس من الضرورى أن تكون (كل) الكتب منسوخة

(١) Opus Alexandrinum.

بحروف من ذهب على رق أرجوانى[١] إلا إذا أمر الامبراطور بذلك أمرا . وهـذا الخطاب يدلنا على الأقل على أن كبير المطارنة كان له علم بأمور مكتبة عظيمة جليلة . وقد ازدادت صناعة ايضاح الكتب بالرسم وانتشرت فى أثناء القرون الثلاثة التى تلت كتابة هذا الخطاب ولم تنقص شيئا ولم تتبدل تبدلا كبير فى الوقت الذى نكتب عنه عما كانت عليه فى وقت كتابة الخطاب . وكان أكثر إيضاح الكتب فى مصر عند ذلك يقوم به الرهبان فى الأديرة ، وذلك نظير ما حدث فى أوربا فيما بعد . وقد كانت أعظم المواضع التى تخرج هذا الفن القسطنطينية والاسكندرية . على أنه قد كان من الرهبان فى مواضع أخرى من يقضون أعمارهم فى كتابة الكتب القيمة وتحلية صفحاتها بأبدع أنواع الزخرف وأجمل الألوان[٢] ، ومن تلك المواضع ما كان فى مصر ومنها ما كان فى آسيا الصغرى أو الشام أو بلاد الفرس .

وأما النحت فى هذا العصر فلا نعرف عنه إلا القليل ، فلا نعلم عنه إلا أنه كان لا يزال من المعتاد أن تجعل تماثيل للإمبراطور الحاكم فى العاصمة وفى أكبر مدائن الريف . وعلى ذلك فلم يكن هذا الفن مضيعا كل التضييع[٣] . وكانت المدرسة البطليموسية فى هذا الفن أولى مدارس العالم فى ذلك العصر وإن فى بعض ما صنعته لجمالا كأنك به عين جمال صناعة القدماء ورونقه ، فقد بقيت آثار الصناعة حتى فى العصور المسيحية . ومن أمثال ذلك التمثال الجليل الضخم لأحد الأباطرة من حجر السماق الأحمر ومقره الآن دار الآثار المصرية بالقاهرة[٤] .

---

(١) أنظر كتاب (كوزا لوزى) "Pergamene Purpuree"

(٢) أنظر كتاب المرحوم الأستاذ (مدلتون) "Illuminated manuscripts" (طبعة كامبردج سنة ١٨٩٢) الباب الرابع .

(٣) ولكنه لم يبق طويلا بمصر بل اضمحل أمره سريعا فى حكم العرب ومدة حكم الروم إبان حكم الامبراطورين الجاهلين مكسرى التماثيل وهما (ليو) و (ايسوريان) فى أوائل القرن الثامن .

(٤) ولكن الرأس من سوء الحظ لم يوجد ويظن أن التمثال لامبراطور فى الدولة المتأخرة ويقول الأستاذ (سترزجوسكى) إنه صنعة مسيحية وملابسه ووقفته وصقله غاية فى الحسن وإذا ظن أنه من عمل العصور السابقة كان قرينا للتمثال البديع الذى أقيم للامبراطور (مرقص أو ريليوس) وهو فى متحف الاسكندرية .

على أنه لا شك فى أنه ما أتى القرن السادس حتى كانت صناعة النحت قد اضمحلت ولكن الصناعة البيزنطية الخالصة صناعة نحت العاج بلغت وقتئذ قصارى الكمال، ترى بها دقة الصناعة وإبداع الفن[(١)] . وكذلك كانت صناعة الذهب وتطعيم المعدن، فقد برعت مدرسة الاسكندرية فيها جميعا وبرزت فيها . وإذا كانت هذه الصناعات تمت بأصلها الى صناع مصر القديمة، فقد بقيت الى ما بعد فتح الإسكندرية بزمن طويل وقد عادت الحياة اليها فى القرون الوسطى ، وكانت عند ذلك النشور بارعة ، ولم يخب نورها بل لا تزال باقية الى أيامنا هذه .

وكان بالاسكندرية عدا ما ذكرنا صناعات زاهية مزدهرة نذكر منها صناعة الورق وعمل الزجاج والمنسوجات وبناء السفن، فكان فى مصر السفلى عدد عظيم من غياض فسيحة تنبت البردى ذلك النبات الطويل الحسن، وكان الورق يتخذ من لبابه يشق شرائح تجعل منها صحائف بالضغط ثم تصقل بآلة من العاج، وكانت الصحائف بعد ذلك يوصل بعضها ببعض فتكون لفائف يسهل استعمالها . وكانت مقادير عظيمة من البردى تصدر من مصر من مراسى الاسكندرية المزدحمة ، ولسنا ندرى متى ضعف أمر هذه التجارة ولا الأسباب التى أدت الى القضاء على هذا النبات فى مصر[(٢)] . وأما صناعة الزجاج فقد بقيت معروفة ذائعة الصيت زمنا

(١) أنظر ديهل "La Civilisation Byzantine au VI Siècle" (صفحة ٦٥١ وما بعدها) ونجد فى صفحة ٦٥٣ تفسيرا بالرسم من "عرش مكسميان" وقد علق عليه ديهل باقتباس رأى مولينيه وهو "ليس فى أى أثر بالعاج فى عصر قبل ذلك ما يظهر فيه زخرف مثل هذا قد برز فى مهارة فنية تفوق كل مدح" ثم استمر بعد ذلك يبرهن على أن هذه التحفة وكذلك الجواهر الصغيرة وصناديق الآثار المقدّسة والنقوش كلها مصرية فى فكرتها وفى أصلها . وقد كان لمدرسة الفن السورية المصريه أثر كبير فى ذلك الوقت فى الفن البيزنطى عامة . وإن ما كتبه (ديهل) فى فن البناء (صفحة ٦٤٢) وفى النقوش الدقيقة (صفحة ٦٥٠) لجدير بالقراءة كما أن كل كتابه جدير بذلك .

(٢) تجد أخبارا حسانا فى هذا الشأن فى "Mittheilungen a. d. Papyrus Erzherzog Rainer" صفحة ١٠١ وما بعدها ومنه تعرف أن لفافة البردى فى القرن التاسع واسمها قرطاس (* ١٩) كان ثمنها ٦ قراريط وذلك ربع دينار أو شلنان وستة بنسات وكان التومار (وطوله ثمانية أقدام وست بوصات) يساوى سدس هذا الثمن وذلك خمسة بنسات .

طويلا فى الاسكندرية وصحراء النطرون وقد قال سترابو إن صناع الزجاج فى مصر كانت لهم أسرار يحفظونها ولا سيما فى معامل (ديوسپوليس) و إنهم كانوا يقلدون الجواهر فى صناعاتهم و يعملون قماقم المر. وكان الزجاج من بين الأشياء التى فرضها (أغسطس)[1] على مصر ترسل عينا ضمن الجزية السنوية، ولا تزال فى متحف الاسكندرية أمثال بديعة من منتجات هذه الصناعة. ولا خلاف فى أن هذه الصناعة أسلمها القبط بعضهم لبعض جيلا بعد جيل حتى العصور الوسطى، وكان آخر ما أخرجته تلك الصناعة المصابيح المطعمة الفاخرة التى كانت تزين الكنائس والمساجد، وهى اليوم مفخرة المتاحف التى تجمع آثار العصور الوسطى. أما صناعة الخزف فلا نعرف على وجه البت فى أى وقت بدأ أمرها فى الظهور ولكن كان ذلك لابد فى عصر قديم. فقد ذكر سائح فارسى[2] جاء الى الفسطاط فى سنة ١٠٤٧ للميلاد أمر صناعة الزجاج الرقيق وذكر سوى ذلك الزجاج المزخرف الذى وجده يصنع هناك. قال عنه "وكان رقيقا شفافا حتى أن الإنسان ليرى من وراء الآنية يد من يمسكها" وقد ذكر أيضا الأوانى اللامعة المختلفة الألوان التى تشبه نسيج الحرير المعروف باسم (بوقليمون) وهو الذى يتغير لونه كلما تغير موقع الضوء من سطحه. وهذه الشهادة ذات قيمة عظمى إذ تدل دلالة قاطعة على ما بلغته صناعة الخزّاف والزجاج من التقدّم فى القاهرة فى القرن الحادى عشر. ولا شك فى أن الصناعة الأسبانية المغربية التى جاءت بعد ذلك وذاع ذكرها وشاع ترجع بأصلها الى صناعة القاهرة.

وأما المنسوجات فقد كانت لها تجارة رائجة وكانت متعدّدة الأنواع والأصناف فكان الكتان الدقيق لا يزال ينسج، ولعله كان أدق خيطا وصنعة مما كانت تخرجه مناسج مصر القديمة. وفوق ذلك قد صار الحرير منذ حكم (چستنيان) أكثر شيوعا

(١) انظر "Notice Historique de l'art de la Verrerie" فى الكتاب النابوليونى "Description de l' Egypte" وانظر كتاب أبى صالح صفحة ١٤٩ و ١٥٠

(٢) (Relation du Voyage de Nasiri Khusrau.) من كتاب (شفر) صفحة ١٥١ وتدل على وجود هذه المصنوعات الوطنية ما نجد فى بقايا القمائن التى كشفت فى أطلال الفسطاط.

بين الناس[١] وكان تخرج على أيدى النساجين بدائع من الحرير والكتان تحليها زركشة تأخذ بالألباب وقد كشفت حديثا بقايا كثيرة من منسوجات ذلك العصر أو ما هو قريب منه — وجدت فى إخميم بالصعيد واسمها القديم (بانوپولس) وهى محفوظة اليوم فى مجموعة (سوث كنزنجتون) بانجلترة وفى مجموعات أخرى . وكل هـذه المنســوجات من الكتان وهى أبســطة منسوجة وأما أنماطها ورســومها فمختلفة فبعضها يشبه فى رسمه المنسوجات القديمة وبعضها عليه أثر واضح من المسيحية وقسم منها عليــه أثر ظاهر من أنمــاط الفرس ، فإن مدة اقامة الفــرس بمصر وهى تلك السنون العشر أو الاثنتا عشرة لا بد قــد أثرت فيها الرسوم الفارســية فى الصناع فجعلتهم يخرجون منسوجاتهم على مثالها . والشــبه عظيم بين مجموعة من ورقة البردى فى ڤينا تنسب الى (تيودور جراف) وبين مجموعة هذه المنسوجات . فمجموعة الأوراق التى تختلف تواريخها بين ســنة ٤٨٧ وســنة ٩٠٩ للميلاد فيها لغات شتى فاليونانية

(١) انظــر "Catalogue of Egyptian Textiles in S. K. M." (تاليف الان كول ١٨٨٧ صفحة X) وكان الحرير فى القرن الثالث يساوى وزنه ذهبا وما جاء القرن الرابع حتى رأينا (جريجورى النازيانزى) وسواه من كتاب المسيحيين ينعون على الناس لبس الحرير ويقولون إنه ترف أخذ الناس فى الانغماس فيه . فلما انتصف القرن الخامس كان استعمال الحرير قد شاع فى الناس فلم يكن مقصورا على لبس الامبراطور بل أصبح أهل الحاشية والأغنياء جميعا يلبسونه وكانت طرق القسطنطينية ومنازلها تخفق بالحرير الخالص فى وقت تعميد الطفل (تيودوسيوس الثانى) . أنظر كتاب (Bury) "His. of the Later. Rom. Emp." (الجزء الأوّل صفحة ١٩٦ ، ٢٠٤ ، والثانى صفحة ٩٦ — ٩٧ وكذلك الجزء الأوّل صفحة ٤٧٢) . وكان الحرير فى مصر مستعملا قبل استعماله فى أوربا فكانت الأكفان تصنع منه للجثث المحنطة فى آخر القرن الرابع . أنظر مقالة "وصف كفن قبطى" كتبها الدكتور (وليس بدج) فى "اركيولوجيا" (المجلد ٥٣ والجزء الثانى صفحة ٤٤٢) وانظــر فى الموضوع جميعه كتاب (Yates) "Textrinum Antiguorum" وقد ذكر فى تلك المقــالة . ويمكننا أنــ نعرف من كتاب (أكلى) مقــدار شيوع الحرير فى القــرن السابع . فيقال أن هرقل كان له أكثر من ٣٠٠ حمل من الحــرير الملون والحرير المزركش بالذهب فى دمشق (صفحة ١٥٠ — ١٥٦) وكانت تكثر الملابس الحريرية فى الغنائم والظاهر أنــ القواد كانوا يلبسون الحرير حتى فى ساحة القتال (أنظــر الصفحات ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٩ ، ١٨٥ ، ١٩٨ ، ٢١١) . وقــد ذكرت ســتور الحرير المزركشة بزهور الذهب فى صــفحة ٢٢٦ وقال المسعودى إن أغطية من الحرير الأخضر كانت تعلق على شــوارع الاسكندرية لتق من وهج الأبنية التى من المرمر .

والقبطية والفارسية الساسانية والعبرية والعربية ، ومجموعة المنسوجات التى ترجع الى نحو هـذه العصور تنطبع فيها صور ما مر على مصر من صروف الدهر المختلفـة ، وغير الحادثات السياسية كما تنطبع صورة فى مرآة[(١)]. ومن أهم الأمور أن نتذكر أن مادة صنوف المنسوجات ورسومها وألوانها كلها تكاد تكون واحدة سـواء فى ذلك ما وجد فى صقارة أو الفيوم أو الصعيد. وهذه حقيقة تدلنا على اشتراك النساجين فى الأنمـاط وتشابههم فى الأذواق أكثر ممـا تدلنا على شـدّة محافظتهم على القديم وتمسكهم به. فكان ما جد من طرق الصناعة ورسومها ينتقل سريعا فى نهر النيل ، وهو المحجة العظمى ، ذاهبا الى طائفة بعد طائفة من الصناع فى البلاد المنتشرة فى ريف مصر. وكان ما تخرجه المناسج يحمل إلى الأسواق الكبرى فى منف والاسـكندرية أو كان يحمل فى الصحراء مرحلة قصيرة حتى يبلغ ميناء (بيرينيقة) على البحر الأحمر ومن ثم ينقـل فى السفن الى البـلاد الأخرى . وكانت منسوجات الكتان والستائر ذات الصور — التى تتخلل نسيجها خيوط من الذهب وتوشيها النقوش البديعة من التطريز فى ألوان جميلة — كانت كلهـا من صناعة الصانع القبطى . وإنا كلما أمعنا فى درس تاريخ مصر سواء منه ما كان فى العصر البيزنطى أو العصر العربى زاد يقيننا بأن القبط كانوا أصحاب الفضل فى بقاء آثار الصناعة حيـة ماثلة فى البـلاد وذلك فى كل شعبة من شعبها : ففى صياغة الذهب وتطعيم المعادن والزخرفة بالميناء وصناعة الزجاج وغير ذلك من صناعات الإنشاء أو التجميل .

---

(١) أنظر كتالوج (S. K. M,)(صفحة XIII) وكل المقدّمة فى هذا الكتالوج جديرة بالقراءة وانظر كذلك كتاب "Les Tapisseries Coptes" (Gerspach) وكتاب "Romische und Byzantinische Seiden Textilien" تأليف Forrer وفى الكتاب المسمى "Les costumes en Eg. du IIIe au XIIe Siècle" أفاض مؤلفه (Mons. A. Gayet) فى وصف الكتان البديع والحرير والستور والزخرف الذى كان بمصر ويفسر اختلاف الرسوم بأن الصناع كانوا مختلفى الأجناس . وهذا فى رأينا رأى خاطئ فقد كان الصناع مصريين ولكن رسومهم كانت تتأثر بتعاقب الفتوح واختلاف هوى الفاتحين فيها وقد أورد المؤلف فى صفحة ٢٤٧ رسما أشوريا له قيمة كبرى .

على أنه لا بد لنا أن نتدارك خطأ قد يقع فيه من يتصوّر أن المهارة فى الصنعة وحسن الاختيار والبصر كانا وقفا على القبط فاقا فيهما كل من عداهم من صناع الدولة البيزنطية أو أرمينيا وأشور وفارس ، فان ذلك لم يكن . والحق إنه قد كان بكل بلاد الشرق صناعة فائقة تخرج من المنسوجات والمطرزات وآنية الذهب والفضة والجواهر البديعة الصنع . ولقد كانت مصر تصنع الطنافس الجميلة ولكنا لا نقدر أن نقول إنها كانت تضارع ما تخرجه بلاد الفرس من طنافسها البديعة.(١) وكذلك كان الحال فى بعض الرسوم التى توضح الكتب فقد جاء بعض بدائعها من صناعة فارس والعراق كما جاء من صناعة بيزنطة . وكانت أكبر المصابغ التى يصبغ فيها الحرير الأرجوانى الذى يصنع منه برد الملك فى مدينة بصرى بالشام وهى المدينة التى فتحها الفرس ثم العرب من بعدهم . وقد رأينا فيما سلف أن كسرى لم يكن من الملوك الهمج أو أشباههم بل كان رجلا مهذبا عالما . وكانت فنون الفرس فى عهد الساسانيين قائمة على آثار القدماء من الأشوريين والبابليين ، وكانت تضارع فنون الدولة البيزنطية فى الدقة وحسن الانسجام .

(١) ونورد على ذلك دليلا البساط المعروف "بساط الشتاء" لملوك الفرس الذى غنمه المسلمون فى المدائن فقد كان طوله ٣٠٠ ذراع فى عرض ستين ذراعا وكانوا يفرشونه فى الشتاء اذا ما ذهب أوان الزهر وكان أبيض اللون يحيط به زخرف بديع من الزمرد وعليه رسم الزهور البديعة والنباتات ذات الروائح الزكية وكل ذلك من الجواهر المختلفة الألوان . فأرسل الى المدينة فقسم بين قواد المسلمين فباع (على) نصيبه بثمانية آلاف درهم (أنظر الطبرى طبعة زوتنبرج الجزء الثالث صفحة ٤١٦) وكانت تنيس والفيس وسواها من مدائن الساحل مواضع هامة لصناعة الطنافس وسائر المنسوجات (انظر كتاب كاترمير "Mem. His. et Geog." (الجزء الأول صفحة ١٤١ ، ٣٠٨ ، ٣٣٥ ، ٣٣٩) وقد ذكر (قيدر ينوس) الكتان والحرير والطنافس فيما ذكره من الغنائم التى أحرقها هرقل فى قصر كسرى فى (دستجرد) وفى القرن التاسع أتى ببساط أخذ من الفرس الى الخليفة المنتصر (الذى قتل أباه المتوكل) وكانت عليه صورة ملك متوج على ظهر جواده وقد نقشت على حوافى البساط تلك القصة "أنا شيرويه بن خسرو قتلت أبى ولم أحكم إلا ستة أشهر" (أنظر المجموعات الشرقية الجزء الأول رقم ٣ هامش صفحة ٢٢٤) وكانت (دمياط) تضارع (تنيس) عندئذ فى دقة منسوجاتها الرقيقة ومطرزاتها وثيابها المطرزة بالذهب وبقيت كذلك مدة ثلاثة قرون أو أربعة بعد ذلك (أنظر كتاب أبى صالح صفحة ٦٢ ، ٦٣ وهوامشها) وقد ذكر اليعقوبى جملة من المنسوجات التى كانت تصنع عند ذلك وقد كتب حوالى سنة ٩٥٠ للميلاد . وكان يصنع فى الفيوم نوع من الكتان الخشن =

وكانت فوق ذلك ذات أثر أبلغ من أثر الروم فى صناعة العرب ونشأة مذهبها فى الرسم والنقش وهو المذهب الذى اشتهرت به دمشق فى العصور الوسطى .

ولعل أكبر صناعات اسكندرية كانت صناعة بناء السفن . فان الاسكندرية كانت أكبر أسواق العالم وأكثر ثغوره ازدحاما وحركة ، وكانت بها تجارة عظيمة فى القمح والكتان والورق والزجاج وغير ذلك من صنوف ماتخرجه البلاد . وكانت تحمل اليها مقادير عظيمة من الذهب والعاج من بلاد النوبة وإتيوبيا وكانت فوق ذلك أنواع البهار والحرير والفضة والجواهر وغيرها تأتى من بحار الهند والصين الى البحر الأحمر ومن القلزم (وهى السويس) فتحمل فى الترعة الى (منفيس) ومنها تنحدر فى نهر النيل الى الاسكندرية حيث كانت تبعث الى أطراف البحر الأبيض المتوسط . ومثل هذه التجارة العظيمة لا بدّ لها من عدد كبير من السفن . وكانت مصر منذ الأزمنة القديمة خلوا من موارد الخشب الذى تصنع منه السفن ، ومع ذلك قد كانت الأخشاب تشترى من بلاد الشام وغيرها لبناء السفن فى الاسكندرية إذ كان بناؤها هناك فى مقر التجارة التى تحتاج اليها أعود بالربح وأجدى على التجار . وكانت مصر فوق كل ذلك تنبت نوعا من التيل يليق كل اللياقة لعمل الحبال وأدوات السفن (١) .

وقد رأينا فيما سلف أن إحدى سفن الغلال التى كانت للكنيسة فى الاسكندرية كانت تحمل عشرين ألف مدّ (كل مدّ خمس الأردب) ولم يذكر أحد أن حمل هذه

= وفى (القيس) كانت تصنع الأثواب التى كانت تسمى باسم المدينة وكذلك كانت تصنع منسوجات بديعة من الصوف وفى البهنسا كانت تصنع أثواب الستور يسمى أحدها (البهنسى) وكانت تصنع المنسوجات الدقيقة فى أهناس والأبسطة الحمراء فى سيوط والطنافس الصغيرة والنمارق والجلود فى أخميم والكتان الناعم فى شطا وكانت تصنع فى تنيس الثياب المشهورة بالدابقى على أنواعها الخشنة والدقيقة وذلك عدا أنواع الحرير الرقيق والثياب المخططة والمخمل والدمقس وغير ذلك . وكانت تصنع فى دمياط أنواع من المنسوجات المتينة الدابقية والكتان الناعم والحرير الرقيق "Bibl. Geog. Arab" (الجزء السابع صفحة ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٧) ولا شك فى أن هذه المصنوعات لم يدخلها العرب الى البلاد بل بقيت من زمن الرومان . واذ أردت قراءة شىء عن المنسوجات المطرزة التى كانت بمصر فانظر كتاب "Orient oder Rom" (Strzygowski) (صفحة ١١٣ وما بعدها وكذلك صفحة ٩٠ وما بعدها) .

(١) يقول ابن الفقيه (القرن العاشر) « ومن عجائب مصر نوع من الكتان اسمه الدقس كانت تصنع منه حبال السفن وكانت تسمى القرقس "Bibl. Geog. Arab" الجزء الخامس صفحة ٦٦ » .

السفينة كان فذا . وأكبر الظن أن تلك السفن التجارية كانت أكبر كثيرا مما اعتاد الناس أن يظنوا فيها وكذلك كان حال السفن الحربية . وقد حدث بعد سنين عدّة من هذا الوقت عند ما أصبحت مصر فى ملك العرب أن أمر معاوية الزعيم العربى فى الشام ببناء عدد من السفن الحربية فى الاسكندرية وسواها من الموانى التى فى حكم الدولة العربية وذلك فى وقت لم يكن فيه بمراسى الاسكندرية أحد من بنائى السفن الذين هم من أصل بيزنطى محض إذ كانوا لا بدّ قد خرجوا منها جميعا . ويقول (سبيوس) إن السفن كانت على نوعين أحدهما يمكن أن نسميه (البوارج)، والآخر (الطرادت) . وكانت البارجة تحمل ألف رجل فى حين أن السفن الصغرى كانت تحمل كل منها مائة رجل[1]، وكانت تجعل للسير السريع واللف حول السفن الكبرى . ويذكر ذلك المؤرخ وصفا مسهبا عظيم القيمة لما كان فى سفن الحرب من الآلات والسلاح فكان بها عدد القذف "مجانيق وآلات رمى الحجارة" وكان فى بعضها صروح عالية فوق ظهرها حتى إذا ما جاءت السفن بحذاء أسوار محصنة استطاع المهاجمون أن يكونوا هم والمدافعون على علو سواء وأمكنهم أن يثبوا من تلك الصروح الى الأسوار، أو أن يقيموا قنطرة على الفضاء القليل الذى بينها ويعبروا عليها الى حصون الأسوار .

وأعظم شأنا من هذا ما جاء فى كتب (سبيوس) من الوصف الصريح لما شهده من تلك السفن الكبرى، وأنها كانت مجهزة "بآلات تقذف النار"، وهى آلات ترمى بالنار المهلكة المعروفة (بالنار الاغريقية) وكانت مزيجا قويا من مواد سريعة الالتهاب وكانت تشتعل اشتعالا شديدا لا يمكن إطفاؤه ولعلها كانت فوق ذلك

---

(١) هذه الأرقام واضحة فى النسخة المخطوطة من كتاب (سبيوس) كما قال لى المستر (Conybeare) ولا أرى داعيا الى الشك فيها ولو أن السياق يفيد أن عدد السفن الكبرى ٣٠٠ كل منهما يحمل ١٠٠٠ رجل و ٥٠٠٠ طرادة كل منها يحمل ١٠٠ رجل فيكون ذلك كله ٨٠٠٠٠٠ رجل أرسلوا بالبحر لغزو بيزنطة ما عدا من أرسلهم معاوية بالبر الى (خلقيدونية)، وهذا بالطبع عدد غير ممكن . على أننا اذا قللنا من عدد السفن فانه قد كان عليها شيء كثير من السلاح والآلات التى يذكرها (سبيوس) وكذلك من الخيام والمؤونة ولعلها كانت كذلك تحمل خيلا ولا بدّ قد شغل كل هذا جزءا كبيرا من السفن .

ذات قوة على النسف والتمزيق، وكانت لذلك تحدث تخريبا كبيرا وخوفا شديدا . ولكن أكبر مايسترعى النظر فيما جاء فى كتاب (سبيوس) من ذلك الوصف أنه يقول إن السفن التى بنيت فى مصر بعد الفتح العربى بأمر العرب كانت مجهزة بالمجانيق لقذف المواد الملتهبة وهى المواد التى قيل إن تجهيزها كان الى القرن السابع على الأقل سرا مكنونا اختص به أهل بيزنطة . وقد جرت العادة أن يقولوا إن أوّل من اخترع النار الأغريقية رجل اسمه (قلّينيكوس) وهو مهندس فى مدينة (هليوبولس) ويقولون فى تسرع إن (هليوبولس) المقصودة هى التى بالشام وليست هى المدينة القديمة الشهيرة بمصر . أما المؤرّخ (جبون) فانه يعتمد على ما جاء فى كتاب (قيدرينوس) ويقول أن (قلينيكوس) كان مصريا ولكنه يزعم خطأ أن (هيلوبولس) كانت عند ذلك أطلالا بالية[(١)] . وإننا لا يمكن أن نتصوّر أنه كان من الممكن أن تبنى سفن فى الاسكندرية بعد فتح العرب لمصر بما لا يزيد إلا قليلا على عشرين سنة، ثم أن تجهز بتلك الآلات التى تقذف النار الإغريقية ، اللهم إلا اذا كان اختراع مزيج تلك النار وعمل آلاتها أصله فى مصر ذاتها .

ومهما كان من أمر هذه النار فانه لا شك على كل حال فى أن صناعة بناء السفن كانت عظيمة فى الاسكندرية فى النصف الأوّل من القرن السابع، وأنها لم تضمحل عند ما انتهى أمر الدولة البيزنطية فى مصر . وفى هذا ما يدل على أن الصانع القبطى فى هذه الصناعة وفى غيرها من الصناعات الكبرى فى وادى النيل كان مستقلا بنفسه بغير إرشاد ولا تسيير من الروم إذا لم نقل إنه كان فى الحقيقة الصانع المعلم .

قد ألجأنا هذا الفصل المجمل فى كلامنا على الفنون والآداب فى الاسكندرية حوالى وقت غزو الفرس لمصر الى أن نخوض فى تاريخ ما سبقه وما جاء بعده من

---

(١) أنظر كتاب "Decline & Fall" الباب ٥٢ هامش ٢ وفيه "وقد أتى قيدرينوس بهذا الصانع من أطلال هليوبولس وكانت الكيمياء العلم الخاص بالمصريين" . وقد كتب (ليو) كذلك كلمة مستفيضة فى "النار الاغريقية" (الجزء الحادى عشر صفحة ٤١٩) أنظر كذلك كتاب الأستاذ Bury "Later Rom. Emp." (الجزء الثانى صفحة ٣١١، ٣١٩) .

العصــور ولكنا قصدنا الى ذلك قصدا لأمرين : أولهما أن نبين على وجه الإجمال والتقريب ما كانت عليه المدنية المـادّية فى هذا العصر، وثانيهما أن ندل على أن سير تلك المدنيـة كان متصلا ولم يقطعه على الأقل فتح الفرس للبـلاد . فان جيوش كسرى لم تسبب أذى كبيرا للتحف الكبرى فى العاصمة سواء كان ذلك بنيانا أو علما، فان غزاة الفرس لم يكونوا هم الذين دمروا مكاتب الاسكندرية إذا كانت لم تزل الى ذلك الوقت باقية، وكانت المنارة الكبرى منارة (فاروس) إحدى عجائب الدنيا السبع لاتزال الى ذلك الوقت ماثلة مشرفة فيما بين المدينة والبحر، تكلل هامتها سحب من الدخان فى النهار، ولهب من النيران بالليـل . ولم يهدم من أبنية الاسكندرية ما اشتهرت به المدينة من المعابد القديمة وساحات العمد الفسيحة والقصور التى لاتقع تحت حصر، بل إن الكنائس ذاتها التى كانت فى داخل أسوار المدينـة لم يمسسها أذى يستحق الذكر وكان المصلون يزدحمون فى الكنيسة الكبرى كنيسة (القيصريون)[1] أو فى كنيسـة القدّيس (مرقص) حيث كانت رفاة (رسـول مصر) لا تزال فى مقرّها يعلوها المذبح المنيف .

(١) تدل شهادة الحجاج بعد هذا العصر على أن كنيسة القدّيس مرقص بقيت سالمة . وقد بقيت بعد الفتح العربى الثانى للاسكندرية وفيه على ما يظهر تهدّمت كنيسة القيصريون .

الفصل التاسع

جهـاد أصحاب الصليب للفرس

هرقل يطلب الصلح — يمتنع سفره الى قرطاجنه — يصح العزم على حرب فارس — إرسال وفد الى كسرى وإخفاقه — إرسال بعث الى قليقيا — القيادة فى البحر — ما حدث فى كنيسة أيا صوفيا — ينتهى الحرب بالقضاء على قوة الفرس — إرجاع الصليب — انتصار هرقل

بلغت الحال بهرقل مبلغا سيئا وهوى ملكه حتى صار لا يتعدّى أسوار عاصمته . فكانت جموع التتار أو الهون وما اليها من قبائل الهمج تضرب فيما يلى قسطنطينية من الغرب وذلك من ناحية القارة ، وقد كانت تلك الجموع من قبل تنتقل هناك لا يقف أحد فى سبيلها حتى جاءت عند ذلك تدب حول أبواب المدينة ذاتها ، وكانت الجيوش الفارسية تقتحم آسيا الصغرى وتجتاح ما فى طريقها حتى فتحت (خلقيدونيه) على الساحل الأسـيوى للبوسفور تجاه القسطنطينية[١] ، وذلك بعـد أن بسطت يدها على فلسطين والشام ومصر . وخيبت عنـد ذلك الآمال التى أشرقت على الناس عنـد تولية هرقل أو علتها سحابة داكنة ، إذ رأوا أو خيل اليهم أنه قد ذهبت عن ذلك العاهل همته الشماء التى مهدت له سبيل العرش ، وحل محلها الفتور واليأس . وكان أوّل شىء فعله بعد استيلائه على الملك أن بعث الى كسرى يتوسل اليه أن يصالحه ، فما كان نصيبه من ذلك إلا الدفع والرفض[٢] بازدراء .

(١) قد وصف (تيوفيلاكت) موضع (خلقيدونية) وصفا دقيقا (الجزء السابع صفحة ١٥ ثم الثامن صفحة ١٤) (Teubner. Classics, ed. de Boor)

(٢) قال (سبيوس) إن كسرى قال عند ذلك "أن الدولة لى وقد غصبها ثم هو يرسل الآن الينا أموالنا هدية ولكنا لن نصبر حتى نأتى به الى قبضة يدنا" وقتل الرسل ولم يرسل الى هرقل جوابا .

والظاهر أن هرقل خارت نفسه وضاع منه الأمل فى الخلاص منذ عرف أن مصر قد انفصلت عن دولته ، وضاع ما كان يأتى من تلك الأرض الغنية من الجزية من أموال وقمح ،ورأى أن خزائنه خاوية من المال والغلال ،وحوله أعداء ضارية تحصره وتهدّد أسواره ، ولم يكن دونها من حماة إلا جند خائر الهمة منفرط النظام ،وسوّلت له نفسه أن يهرب ناجيا . وفى ذلك مايعزز رأى من يقول إنه كان يحس أن لا قبل له بحمل أمور تلك الدولة وهمومها ، وان وقع المصائب قد صدع نفسه فذهب بما فيها من الشهامة والهمة ،و إنه قد انخلع قلبه وتحطم منه ما كان صلبا . وقد ثبت عند الناس أنه قد وطد العزم على أن ينضو التاج ويعود الى موطنه فى أفريقيا . ولو كان ذلك لحق للناس أن يذكروا ردّ فوكاس عليه إذ قال "وهل أنت من يحكم خيرا من هذا ؟ " على أن الأمر فيه ما يدعو الى الظن أن هرقل إنما كان يريد نقل مقرّ الحكومة الى قرطاجنة ، حتى يقدر أن يجهز نفسه فى متسع من الوقت والمجال قاصدا أن يعود بعد ذلك ليستردّ أرض دولته فى آسيا .

ومهما يكن من الأمر فقد سافرت سفينة تحمل الأموال والتحف التى كان يريد حفظها قاصدة قرطاجنة فلما بلغت (بنطابولس) نزلت بها كارثة فغرقت . وعند ذلك علم (سرجيوس) بطريق القسطنطينية بما عزم عليه هرقل ، فأحفظه ذلك وحال بين الأمبراطور وبين إتمام ما كان ينوى . وليس لنا من سبيل إلا الحدس لمعرفة ما كان بينهما ، فلا ندرى بأية لهجة كلمه ولا بأية قوّة أثر فيه فجعله ينصاع لرأيه ، وينزل عن عزمه الأوّل . ولكن المحقق عندنا هو أن البطريق نفخ فى الأمبراطور روحا جديدا وجعله يقسم له على المذبح الأكبر فى الكنيسة الكبرى أن يؤدى أمانته وأن يقاتل فى سبيل تخليص الدولة من أعداء الصليب (1) .

ولا شك أنه قد طرأ على الأمبراطور منذ ذلك الحين تغير مشهود ، ولا ندرى سبب ذلك التغير الذى أحدث أوّل حرب صليبية كبرى ، أكان سببه لسان

(١) كتاب ليبو "Histoire du Bas Empire ed. de Saint Martin" (الجزء الحادى عشر صفحة ١٩ و ٢١) .

(سرجيوس) وبلاغته فى الموعظة، أم كان ما شهده تحت القبة الكبرى فى كنيسة (أياصوفيا) مما يثير النفس، أم كان بارقة من الأمل لمعت له من تغير فى حال عدوّه، أم كان السبب كل ذلك وقد اجتمع وصحبه نهوض من وهدة اليأس التى تردّى فيها. وكان ذلك أمرا طبيعيا فى رجل مثله كان له عقل راجح يحكمه مزاج غلبت عليه الأعصاب . أما الناس فقد رأوا منه على الأقل رجلا ينضو عن نفسه الضعف والخمول كما تنضو الأفعى عنها أديمها، وعاد الى ما كان عليه من خُلق الزعيم القوى، وأظهر من شيم الملوك ما هو جدير بولاء الناس وخضوعهم، وأصبح وليس فى نفسه إلا أن يجمع كل ما عنده من الموارد ويتجهز به للحرب مع الفرس .

ومع ذلك فقد اتخذ الحيطة فى أعماله، فبينما كان يستعدّ للحرب عوّل على أن يفاوض قائد الفرس فى أمر الصلح[1]، فزاره بنفسه فى مدينة (خلقيدونية) . وقد نصح الناصحون للامبراطور أن يوفد رسلا الى كسرى يطلب منه الصلح، وقالوا إنه لا بد يجيبه الى ذلك، فأرسل ثلاثة من خاصته وبعث معهم كتابا لا يزال باقيا الى اليوم، وأرسل معهم هدايا ذات قيمة، وأدى الرسل أمانتهم وأفضوا بالكتاب الى الملك الأعظم، فقبل منهم الهدايا ولكنه أجابْ على الكتاب ردّا قاطعا جاهما إذ قال :

(١) جاء فى كل من (ديوان بسكال) وكتاب (تيوفانز) لفظ (شاهين)*(٢٠) أنه الاسم وقال (نيقفوروس) أن الاسم هو (سايتوس)*(٢٠) أى شاهين وهو الذى يعزى اليه فتح مصر (أنظر ماسبق فى هامش صفحة ٦٣) وقد جاء بوضوح فى ديوان بسكال أن (ساين) هو فاتح (خلقيدونية) الأوّل وجاء فيه بوضوح مثل ذلك أن (خوريام) ويسميه (سالقاراس)*(٢٠) أى (شهر – ورز) هو الذى كان قائد الفرس فى فتح خلقيدونية بعد عشر سنوات وقال انه وصل هناك سنة ٦٢٦ ولا يمكن أن يكون الخبران صحيحين ولكن الخلط بين شاهين وشهر – ورز محير وليس عجيبا ويسمى جبون القائد الأخير (Sarbaraza) ويتكلم بعد ذلك بصفحتين عن قائد اسمه (Sarbar) والاسمان علمان على شخص واحد ولو أن الظاهر أن (جبون) لا يعرف ذلك . وقد جعل جبون (ساين) قائدا فى (خلقيدونية) ويجعله يسير مع رسل هرقل ويقول إن كسرى سلخه حيا ولكن (تيوفانز) يقول إنه مات من الغم والمرض بعد هزيمته ببضع سنين وقد مثـل كسرى بجثته . ويقول (سبيوس) إن شاهين أغار على (قبادوقيا) فى سنة ٦١٠ ثم اشترك بعد ذلك مع خور يام ولكن (سبيوس) يقول إن (خوريام) سار عند ذلك الى (خلقيدونية) وقاد الجيوش هناك ويذكر المقالة التى قالها هرقل عنـد ذلك فى (خلقيدونية) وهذا هو الحق لا شك فيه اذ كان (شاهين) فى مصر .

"قل لمولاك إن دولة الروم من أرضي وما هو إلا عاص ثائر وعبد آبق ولن أمنحه سلاما حتى يترك عبادة الصليب ويعبد الشمس"(١) .

فأحدثت تلك السبة المقصودة فى ردّه هـذا هزة عنيفة أيقظت نفوس الروم من رقدتها ، وأظهرت لهم من جديد أن تلك الحرب كانت دينية . فثارت حفيظة القوم وتملكتهم الحماسة ، فوجد الامبراطور فيهم عند ذلك ما شاء لتمام خطته الجديدة . وقد قيـل إن هرقل عنـد ما أرسل رسـله الى كسرى قد بعث الى أعدائه من الهمج ليهادنهم الى حين(٢) ، فأمن بذلك أن يأتيه العدوّ من ورائه من ناحية الأرض المتصلة بالعاصمة . وقد روى أنه اتفق فيما بعد مع قبيلة من قبائل الترك فى شمال بلاد الفرس على أن يمدّه شيخها بأربعين ألفا من خيله ، وأن يجزيه نظير ذلك بأشياء منها أن يزوّجه بأخته (أودوقيا) . ولكن هذا العهد لم ينفذ لموت شيخ القبيلة الذى اتفق معه . على أنه من أشق الأشياء أن نجـد الدليل القاطع على وجود السلام فى غرب العاصمة(٣) فان قبائل الآقار كانت لا تزال تجوس خلال الديار فى سنة ٦٢٢ أو سنة ٦٢٣ تخرّب فيها ، وكادوا يوقعون بهرقل نفسه ثم يأخذون العاصمة بمكيدة دنيئة دبروها . ثم جاء جيش من الآقار عدّته ثلاثون ألفا فى سنة ٦٢٦ وحاصر المدينة حليفا للفرس الذين

(١) قد أورد (تيوفانز) بعض هـذا الرد وأورد المؤرّخون الفرس البعض الآخر . (أنظر الجريدة الأسيوية السلسلة السادسة ١٨٦٦ الجزء السابع صفحة ٢٠١) وقال (سعيد بن بطريق) إن كسرى لما ضيق على القسطنطينية أرادت المدينـة أن تسلم اليه ولكن هرقل أرسل اليه ١٠٠٠ تالان (وكل تالان نحو مائتى جنيه) من الذهب والفضة وألف عذراء وألف حصان وألف خلعة من الحرير . وقد أخذ عنه (جبون) هذه القصة ولعلها غير جديرة بالتصديق فهى تتناقض مع بقاء الفرس عشر سنين فى (خلقيدونية) وهذا أمر غير متنازع فيه ، ولم يفسر (جبون) ذلك التناقض . ولا يذكر (ديوان بسكال) شيئا من ذلك مع أنه كتب فى ذلك العصر . ولعل هذه القصة لا تزيد على أن تكون رواية متأخرة لقصة الوفد الذى ذكرناه فى متن كتابنا وقد روى (سبيوس) رواية أخرى عن خبر كتاب كسرى الى الأمبراطور .

(٢) يجعل (قيدز ينوس) هذا الصلح فى السنة الحادية عشرة من حكم هرقل أى فى سنة ٦٢١ أو سنة ٦٢٢

(٣) لعل رواية (تيوفانز) عن هذا الأمر صحيحة ولكن من الشاق أن يدرك الانسان تواريخه أو يوفق بينها وبين ما جاء فى الكتب الأخرى هذا مع اعتبار الخطأ الثابت فى طريقته فى التاريخ فان الهجوم على هرقل اذا وقع فى سنة ٦٢٣ فان عودته الى القسطنطينية من ميدان القتال واقامته بهـا بضعة أسابيع لا بد تكون قد وقعت فى الشتاء .

كانوا فى مدينة (خلقيدونية) وكان قائدهم عند ذلك على مايلوح هو (شهر – ورز) الذى قدم منذ قليل . وعلى ذلك لم يكن السلم بين الروم والآفار سلما صحيحا ولم يدم طويلا . وأكبر الظن أن هرقل كان على بينة من أمر العهد الذى كان بينه وبين الآفار عالما بقدره الحقيق موقنا أن سلامة عاصمته أثناء غيابه إنما تكون بقوة حصونها وسهر السفن الحربية على سلامتها . وكان إقبال الناس على الحرب عند ما ندبهم اليها عظيما، فاستطاع أن يجمع جيشا كبيرا ويجهزه، وبلغت عدته مع من اجتمع اليه فيما بعد مائة وعشرين ألفا . وكانت خطته أن يبدأ أول شىء فيختار ميدانا يستطيع أن يدرّب فيه جنوده ويعوّدهم النظام ويعلمهم حركات الحرب واستعمال السلاح، وفى أثناء ذلك يجمع فى خزائنه الذخائر والمؤن الكثيرة . فاذا ما تم له ذلك وأصبح جيشه صالحا للقتال خرج قاصدا الى قلب بلاد الفرس ليطعنها فيه . ولهذا عزم على أن ينقل جيشه الى خليج (أيسوس) فى الركن الشمال الشرقى من البحر الأبيض المتوسط، وأن يجعل (قليقيا) مقرّه . وكانت تلك منه جراءة عظيمة ساعده عليها أنه كان يملك ناصية البحر لا منازع له فيه وأن وراءه من السفن عددا جد عظيم .

وإنه ليتبين من هذا أكبر خطأ وقع فيه الفرس ، فانهم لو كانوا أعقبوا انتصارهم الأول فى البر بتعلم حرب البحر والانتصار فيه لما استطاع أحد أن يدفعهم عن ملك دولة الروم[(١)] . وقد كان من حسن حظ المدنية المسيحية أن الفرس لم يكونوا من أهل البحار ولم يعرفوا عند ذلك مقدار حاجتهم الى ملك البحر اذا هم شاءوا أن يتم لهم النصر، وأن يبقوا على ما فتحوه . وقد جاء فى كتاب (سبيوس) أن كسرى عند ما بعث ردّه الشنيع الى هرقل أمر جنده أن يعبروا الى (بيزنطة)، فجهزوا عددا كبيرا من السفن وأعدّوا عدّتهم للحرب فى البحر، فلما سار أسطول الفرس قابلتهم سفن الروم الكبيرة فصدمتهم صدمة انهزموا لها هزيمة قبيحة، ومات منهم أربعة آلاف

(١) قد سعى كسرى بعد احتلال (خلقيس) أن يجهز أسطولا ولكن الأشياء التى أعدّها لبنائه ضاعت فى حريق فعدل عن ذلك الأمر .

رجل[١]، وتحطمت سفنهم كلها ووقع فى نفسهم الفشل "فلم يجرأوا بعد ذلك على مثل هذا العمل" وظلوا مقيمين نحوا من عشر سنوات لا ينتفعون بما فى يدهم من ثغور البحر أمثال (خلقيدونيـة) وميناء الاسكندرية العظيمة وما اليها من موانى الشام وموانى بلاد المغرب فى (ليبيا) و (پنطاپولس)، وكانوا يستطيعون لو شاءوا أن يجمعوا فى هـذه المواضع سفنهم و يعدّوها للحرب فيسيطروا بهـا على بلاد البحر الأبيض المتوسط . فقد كانوا يستطيعون أن يجهزوا من الاسكندرية وحدها أسطولا به عدّته ورجاله يناجزون به أساطيل الروم و ينابذونه على سواء فى أمل النصر . ولكنّ الفرس كانوا جنودا اعتادوا حرب البر، فلم يفطنوا الى قيمة البحر والسيادة فيه، فلم يتعلموا من الحوادث درسا تعلمته جمهورية الروم القديمة بعد لأى، ولكنها منذ لقنته برعت فيه واستفادت منه أثناء حربها مع قرطاجنة، وهو الدرس الذى تلقنته العرب فيما بعد سريعا فى فطنة وذكاء قبـل أن ينتهى ذلك القرن السـابع . وعلى ذلك فقد ظلت جنود الفرس مرابطة بالشاطئ ثابتة عليه، وكان أثرها فى الحرب ضئيلا لا ترزأ عدوّها بالهجوم إلا قليلا . فرأى هرقل بعد قليل أنه يستطيع أن يتركها حيث هى لا يعبأ بها، فكان الروم الى ما بعد عشر سنوات من فتح الفرس مدينـة (خلقيدونية) يسـيرون بسفنهم آمنين لا يخشون شيئا فى المضيق بين جنود الفرس على ضفة وجنود الهون على الضفة الأخرى[٢] .

وقبل أن يبـدأ هرقل رحلته حول آسيا الصغرى أعدّ العدّة لكى يجهز ما يلزم لهـا من النفقة ، وذلك بأن اقترض من الكنائس كل ما تستطيع اقراضه من كنوز عظيمة من آنية الذهب والفضة، ثم سكها نقودا . وكانت تلك وسيلة سيئة فيها كثير من الاسراف أمدّ بها خزائن الدولة، ولكن لعله لم يكن دونه من وسيلة سواها . فلما أن تم الجهاز استخلف هرقل على الحكم ولده وجعل عليـه وصيين وهما البطريق

(١) وقد ذكر (توما الأرظرونى) أنه قد قتل ٤٠٠٠ جندى مدرّع (أنظر كتاب Brosset "Collection d'Historiens Armeniens" الجزء الأوّل صفحة ٨٢) .

(٢) ديوان بسكال (مينى .Pat. Gr الجزء ٩٢ المجموعة ١٠١٤) .

(سرجيوس) والنبيل (بونوس)، ثم انتعل نعلا أسود ودخل الكنيسة الكبرى وخرّ ساجدا يصلى لله يسأله المعونة والبركة فيما هو مقدم عليه (١) . وكان ممن شهد صلاة الأمبراطور رجل اسمه (جورج البيزيدى) وكان شماس الكنيسة وسادنها فقال : " أسأل الله أن تصبغ نعلك فى دماء عدوك حتى يصبح نعلك الأسود وقد احمر لونه " وتلك لعمرى دعوة تقى نغتفرها لشاعر الملك (٢) لا لقسيس الجيش و إمامه . اذ يظهر أن (جورج) هذا الذى ذكرناه قد سار مع الجيش شاعرا وقسيسا فى وقت واحد . وبدأ هرقل رحلته فى يوم الاثنين يوم عيد الفصح لسنة ٦٢٢ (٣) ، فسارت سفنه من العاصمة نحو الجنوب ، فلقيت فى سبيلها عاصفة تكشف هرقل فيها عن نفس لها ثبات القائد ورباطة جأشه، وقوة النوتى وصبره على مقابلة الأخطار . ثم سارت السفن تشق حيازيمها الماء حتى بلغت مرساها بغير أن تنزل بها نازلة .

---

(١) جاءت هذه القصة فى (قيدرينوس) وقد ذكر الكلمات التى قالها هرقل فى صلاته .

(٢) يمكن أن نجد فى كتاب (مينى) "Pat. Gr." الجزء ٩٢ تلك القصائد السخيفة التى قالها الشاعر (جورج البيسيدى) فى حروب الفرس والآثار ونحن موردون هنا بعض أسطر من «هرقليته» التى تحتمل الترجمة وهى تصف الروح التى أحياها هرقل :

خشى الروم من الفرس وقد	هربوا فى الحرب من وقع الأسل
وغدوا والجبن من عادتهم	منذ حل الخوف فيهم والفشل
من سوى قولك أحيا موتهم	فكساهم ثوب عزم وأمل ؟
من سوى عزمك قد بدلهم	باعثا فى كل قلب ما انخذل ؟
ما سوى حزمك قد أنشرهم	بعد أن كانوا كأحجار الجبل
يثقلون الأرض من كثرتهم	ثم لا يغنون فى أمر جلل

(٣) قد أورد (تيوفانز) تاريخ تلك السنة إيرادا دقيقا وهو يقول إنها هى السنة التى ظهر فيها محمد أى سنة الهجرة وهى سنة ٦٢٢ وجاء نفس التاريخ فى (ديوان بسكال) وعلى ذلك نستطيع أن نجعله علما فى مفازة هذا العصر المجهول . وقد ذكر (جورج البيسيدى) وكان مع هرقل فى سفره فى البحر، ثم ذكر (تيوفانز) و (قيدرينوس) أن الأمبراطور غادر العاصمة فى يوم الفصح (الاثنين) . والظاهر أن (جبون) يأخذ هذا عنهم ولكنه يجعل الفصح يوم الثلاثاء وهذا بلا شك خطأ فى فهم ما جاء فى النص اليونانى "Feria Secunda" والعيد الأول "Feria Prima" هو بالطبع يوم الأحد وقد خلط (تيوفانز) بين الجملة الأولى والجملة الثانية .

وهبط من فيها من الجند الى البر وأقاموا معسكرا فى مدينـــة (ايسوس) وحلت منهم جماعة فى شعب (پيلى) وهو على الحدّ الفاصل بين الشام و (قاليقيا)[(١)] .

وليس قصــدنا أن نصف ما كان من الحوادث فى مدّة السنوات الست التى كان هرقل يشن فيها الغارة على بلاد الفرس . فقد كانت جنوده مظفرة منذ بدأ القتال ، واستطاع أن يجعل ممن معــه من الجند — ولم يكن فيهم كبير أمل فى مبدأ أمرهم — جيشا جليلا . فكان كمن اتخذ من مادة خسيسة سيفا حساما ثم جعله فى يده يبطش به فى عدوّه بطش بطل مغوار بارع فى القتال . وكان هرقل ذا أيد وقوة ، نجــدا هيكلا ، ماهرا فى نزال القرين ، تملأ قلبه الغيرة ويثور به إيمــان قوىّ بأنه فارس الصليب ، وعليه أمانة يؤدّيها فى نصرته ، ويؤثر أن يشارك جنده فى تحمل المشاق . وكانت له فى الجيش هيبة يملك أمره وزمامه ، فاذا اختط خطة كانت سريعة موفقة وإذا طرأ طارئ كان رابط الجأش مالكا أمر نفسه . ولهذا وذاك مما بدا من صفاته صار بين الناس المثل الأعلى للزعيم واستطاع أن يغلب عدوّه فى موطن بعد موطن وينتصر انتصارا لا مثيل له .

وكانت غزوة (قليقيا) كأنها الوتد يشق قلب الأرض التى كان الفرس يملكونها عند ذاك فيما بين النيل والبوسفور . وفى السنة التالية أرسل بعث آخر الى (طرابزون) فكان كأنه وتد آخر أرسل ليلاقى أخاه آتيا من شمال آسيا الصغرى . فكان دفع هذين البعثين عظيما ، ثم توالت الوقعات فاضطر الفرس أن يدعوا جيوشهم من الاسكندرية و (خلقيدونية) لتنصرهم . ولا ندرى متى كان ذلك ولكن المؤرخين مجمعون على أن فتح كلا المدينتين كان فى وقت واحد ، وتخليتهما كذلك فى وقت واحد . ويختلفون بعض

---

(١) قد أورد (جورج البيسيدى) قولا عاما غير مستوف . وأما (سبيوس) فانه يؤيد هــذه الرواية ويتممها . وقد ذكر (سبيوس) أن الوقعة التى كانت فى جوار أنطاكية لم تكن هزيمة لأحد الجانبين على أنه قد قتل فيها خلق كثير منهما ثم رجع الروم الى (پيلى) فهزموا فيها الفرس بجلاء الفرس الى (طرسوس) ففتحوها وفتحوا (قليقيا) جميعها . فهل معنى هذا أن الحملة أخفقت فيما قصدت اليه ؟

أما (جورج البيسيدى) فانه لا يذكر شيئا عن مثل هذه النتيجة ولكنه يذكر أن الأمبراطور عاد الى بيزنطة .

الاختلاف فى مدّة حلول الفرس بهما، فيقول المكثر إنها كانت فى كلا الحالين اثنى عشرة سنة ويقول المقلل عشر سنوات . ولن نخطئ الصواب خطأ بعيدا اذا نحن جعلنا تاريخ جلاء الفرس عن ضفاف البوسفور والنيل كليهما فى أوّل سنة ٦٢٧ (١) للميلاد .

وتكللت أعمال الحرب بفتح (دستجرد) فى فبراير سنة ٦٢٨ وهى مدينة على ثمانين ميلا من المدائن وهى (اقتيسبون) نحو الشمال . وفى الرابع والعشرين من ذلك الشهر فرّ كسرى هاربا هربا مهينا ثم قبض عليه وسجن ولقى على يد خلفه (شيرويه) عذابا شديدا وذلا ثم قتله بعد أيام من ذلك . وأحرق قصر كسرى فلم يبق منه شىء وذهب طعمة للحريق كل ما به من التحف والكنوز (٢) التى لم يستطع نقلها، وأطلق من كان فى السجون من أسرى مصر والشام وهم كثيرون وفيهم (زكريا) بطريق بيت المقدس . وأعيد الصندوق الذى كان به الصليب المقدّس لم يمسسه

(١) جاء فى (ديوان بسكال) أن مجىء الآفار والخاقان الى بيزنطة كان فى ٢٩ يونيه سنة ٦٢٦ و يقول إن ذلك كان بعد وصول (شاه — ورز) ليتولى القيادة فى خلقيدونية . وقد أخفق الحصار لأن سفن الروم بقيت مسيطرة على البحر فحالت دون ما كان فى النية القيام به من اجتماع الآفار والفرس واشترا كهما فى القتال فاضطر الخاقان الى الرجوع خاسئا ومعه جنوده وقد نال منهم الفشل وفتك بهم الجوع وما مضت سنتان بعد ذلك حتى انتهى القتال .

(٢) يظهر (تيوفانز) الأسف لتدمير "أبدع الأبنية وأعلاها فنا وأجمل القصور" ويذكر ما كان هناك من حدائق الحيوان و بيوت الطيور . و يقول إنه قد ضاعت فى الحريق مقادير عظيمة من عود الند والبهار والسكر والزنجبيل والكتان والحرير والطنافس والمعادن النفيسة . و يذكر الكتاب من أهل الشرق أخبارا مبالغا فيها عن الأموال والعجائب التى كانت فى قصر كسرى فجاء مثلا فى "Tarikh Rogum Persiae" (صفحة ١٦٠) أنه قد كانت هناك آلة تتحرك بنفسها بها مرصد ينبئ بالمطر والرعد وغير ذلك وجاء فى «تاريخ جاهان آرا» (ترجمه السير و . أوسلى صفحة ٦١) أن كسرى كان عنده فى قصره ١٥٫٠٠٠ جارية تعرف الغناء و ٨٠٠٠ رجل فى حاشيته و ٢٠٫٥٠٠ من الخيل و ٩٦٠ فيلا . وكذلك كان عنده كاس لا ينضب الماء منه و يد مبسوطة من العاج اذا وضعها فى الماء عند ميلاد طفل انقبضت وأنبأت عن طالعه وقطعة من الذهب لينة كالشمع ومنديل اذا لحقه الوسخ وضع فى النار فعاد نظيفا انظر كذلك كتاب (جبون). "Decl. And Fall" الجزء الثامن صفحة ٢٣٠ (طبعة ادنبرج سنة ١٨٤٨) .

سوء الى هرقل[1] ، وانتهى القتـال إلى صلح بين دولتى الروم والفرس . وهكذا انتهت تلك الحـرب الصليبية الكبرى بنصر (عجيب) قل مثله فى التاريخ فيما يثـيره فى النفوس .

وجاءت البشرى يحملهـا رسل الامبراطور بانتهاء الحـرب والنصر فى يوم عيـد العنصرة الذى كان فى الخامس عشر من شهر مايو من السـنة ذاتها وقرئت من منبر

(١) ليس من الواضح هل استرجع هرقل الصليب من شيرويه فى الحال فقد جاء فى "Col. d'his. Armeniens (Brosset) الجزء الأول صفحة ٨٦ أن هرقل دعا خوريام (شاه ـــ ورز) ووعده بملك فارس إذا جاء له بالصليب . وجاء فى (بروسيه) بعد ذلك فى هامش أن خوريام كان فى (خلقيدونية) وقتئذ وأظنه مخطئا فى ذلك لأسباب : (١) ترك خوريام (خلقيدونية) قبل سقوط كسرى(أنظاردرا پيرون صفـحة ٢٥٨)، (٢) اذا لم يكن الأمر كذلك لم يكن الوعد ممكنا إلا بعـد موت (شيرويه) . وقد جاء فى (درا پيرون) أن هرقل عاد الى قصره بقرب (خلقيدونيـه) ونزل قائده (تيـودور) ليأتى بالصليب من (خوريام) . فلما أتم (تيودور) ذلك عاد به الى القصر فحمله هرقل فى البحر وسار ظافرا الى القسطنطينية وكان هذا بعد أربعة أشهر أى فى ١٤ سبتمبر سـنة ٦٢٨ (صفحة ٢٧٦ — ٧) ويمكن أن يختلط هذا التاريخ بتاريخ عيـد إعلاء الصليب فى بيت المقدس . وقد اختلف (سبيوس) فى ذلك مع اتفاقه فى أن هرقل أخذ الصليب من (خوريام) وليس من (شيرويه) وأما بعد ذلك فانه يصف أن هرقل لقى (خوريام) بنفسه ووعده بملك فارس فى يوم موت (شيرويه) فى أغسطس سنة ٦٢٨ فى نظير تسليمه الصليب اليـه . فأقسم (خوريام) على ذلك فذهب إلى المدائن فقتل الملك الطفل (أردشـير) وكثيرا من الأشراف ووجد الصليب وبعث به مع رسل الى هرقل سريعا واذا صح هذا لم يمكن أن يكون الصليب قد وصل الى هرقل قبل عيد الميلاد من سنة ٦٢٨ بزمن طويل أو بزمن ما . ولكن ليس من الواضح لم لم يأخذ هرقل الصليب من (شيرويه) بل طلبه من (خوريام) ولم كان (خوريام) أقدر على الاتيان به أو أرغب فى ذلك . ويجدر بنا أن نذكر أن (سبيوس) يقول إن (خوريام) كان فى الاسكندرية عند ما أتاه كتاب هرقل يدعوه الى لقائه . ولا شك فى أن هذه كانت اسكندرية الشام لأسباب : (١) اعتاد (سبيوس) اذا أراد اسكندرية مصر أن يذكرها «اسكندرية المصريين» . (٢) لا بد أن يكون (خوريام) قريبـا فان القصة التى تركته فى (فيادوقيا) تقول إنه كان لا يزال «فى الغرب» بعد أن فتح هرقل (المدائن) وأنه رفض أن يساعد كسرى . (٣) ينكر الطبرى ذهاب (شاه ـــ ورز) الى مصر ويقول المسعودى فسار اليه من أنطاكية من بلاد الشام شهريار (طبعة باربييه دى مينار الجزء الثانى صفحة ٢٣٣) .

كنيسة أياصوفيا[1] . وكان لهـذا النصر وقع كبير فى نفوس الكتاب فى ذلك العصر

(١) قد أدّى لنا (ديوان بسكال) خدمة جليلة بأن قال عرضا إن يوم ١٥ مايو وهو يوم الاحتفال كان أيضا يوم (أحد العنصرة) فذلك يثبته تاريخا علما فى حوادث ذلك العصر والظاهر أن هذه الحقيقة لم يدركها أحد الادراك الواجب ولكنها مع ذلك حقيقة ذات شأن كبير فان السـنة الوحيدة التى وقع فيها يوم ١٥ مايو فى يوم أحد هى سنة ٦٢٨ وتدل البيانات فى «كنز التواريخ» على أن يوم الفصح من عام سنة ٦٢٨ هو يوم ٢٧ مارس وما دام الأمر كذلك فلا بدّ أن يقع عيـد العنصرة يوم ١٥ مايو وهذا اتفاق صريح مع ما جاء فى الديوان فكما أن تاريخ بدء هذه الحرب التى قام بها هرقل قد ثبت وقوعه فى سنة ٦٢٢ لأنه كان فى سنة هجرة سيدنا محمد قد ثبتت كذلك نهايته بوقوعها فى يوم العيد المذكور فى الديوان . والمدّة بين بدئه ونهـايته ست سنوات وهو ما ينص عليه كل المؤرّخين وعلى ذلك يثبت لنـا هذا الأمر . وقد جاء ما يؤكد هـذا التاريخ فى كتاب (Drapeyron) صفحة ٢٦٧ ولكنه فى الصفحة السابقـة على تلك قد ذكر الخطاب الذى قرىء فى كنيسة (أياصوفيا) فى يوم ١٥ مايو وقال إنه قد كتب فى أرمينية بعد يوم ٨ مايو ! وأما (تيوفانز) فانه يقول ان الحرب انتهت فى سـنة ٦٢٦ ويجعل زيارة الامبراطور لبيت المقدس فى السنة نفسها ومقدّمة الكتاب الذى كتبه (زكريا) من أسره تفيد أن موت كسرى كان فى سنة ٦٢٧ (مينى "Pat. Gr." الجزء ٨٦ المجموعة ٣٢١٩ وما بعـدها) وأن عودة (زكريا) كانت فى الربيع التالى سـنة ٦٢٨ ولكن أين كان زكريا فى هذه الأثناء ؟ إنه لم يذهب مع الامبراطور بغـير شك الى القسطنطينية وقد جاء فى كتاب (تاريخ جاهان آرا) (صفحة ١٢٥ هامش ٢) أن موت كسرى كان فى ٢٠ جمادى الأولى سنة ٧ وهذا تعيين دقيق ولكن هذا التاريخ يوافق ١٥ سبتمبر سنة ٦٢٨ وهذا غير مقبول فان الأدلة قائمة على أن ذلك كان فى شهر فبراير ولكنا اذا خطأناه فى الشهر وجب أن تكون السنة أيضا مخطئة لأنه فبراير سنة ٦٢٨ كان فى سنة ٦ للهجرة ويقول المؤرخ العربى (مكين) أن خلع كسرى وموته كان فى سنة ٥ للهجرة ولكن الكاتب فى الجريدة الأسيوية (السلسلة ٦ الجزء ٧ سنة ١٨٦٦) يأخذ بما جاء فى (سبيوس) وسواه من الكتاب الأرمن ويجعل مدّة حكم كسرى من ٥٩٠ الى ٦٢٨ وهـذه التواريخ تتفق كل الاتفاق مع ما جاء فى (الطبرى) وهو حجة فيما رواه عن تاريخ الفرس . وهو يقول إن هجرة سيدنا محمد كانت فى سنة ٣٢ من حكم كسرى أى سنة ٦٢٢ وأن موت كسرى كان فى السنة الثامنة والثلاثين من حكمه أى سنة ٦٢٨ ، وان اتفاق هؤلاء المؤرّخين المختلفين مع ديوان بسكال لجـدير بان يعدّ برهانا قاطعا على أن التاريخ الذى عزل فيه كسرى وقتل هو شهر فبراير سنة ٦٢٨ ومع ذلك فان هذا التاريخ لا يتفق كل الاتفاق مع التاريخ الذى أخذنا به لفتح الفرس بيت المقدس وهو سنة ٦١٥ إلا اذا قلنا مدّة الفترة التى كانت فيها المدنيـة خاضعة للفرس وهى تقدّر عادة تقديرا غير دقيق فتجعل أربعة عشر عاما وهـذا المجموع لا يمكن أن يعدّ صحيحا إلا اذا اعتبرنا أن الجزء من سنة ٦١٥ كأنه سنة كاملة وان الجزء من سنة ٦٢٨ كذلك كأنه سنة كاملة .

ولا شك أنه قد أقيم من أجله ما اعتادوا إقامته فى ذلك المكان العظيم فى مواسمهم الجليلة وحوادثهم الكبرى من احتفال باهر وزينة بالغة (١) .

ولكن الامبراطور اضطر الى البقاء حينا فى بلاد الشرق كى يتم عمله فى القضاء على عدوه ونشر السلام على بلاده فلما أن خرجت جنود الفرس الباقية فى حصون الشام وآسيا الصغرى عن بكرة أبيها وعادت الى بلادها تحت حراسة جنوده وعاد البطريق (زكريا) الى مقره فى بيت المقدس عاد هرقل الى وطنه بعد أن غاب عنه ست سنوات قضاها فى نضال وقتال ودخل القسطنطينية مظفرا منصورا يحمل معه الصليب المقدّس الذى خلصه ممن لا يعبدون الله .

(١) يجب على كل من يهتم بأمر هذا الأثر العظيم من فن البناء البيزنطى أن يقرأ كتاب "St Sophia Cons." (Lc Lethaby & Swainson) ففى هذا الكتاب أخبار كثيرة عن تاريخها ووصف بنائها وعلى الخصوص فيه وصف كثير للحراب .

الفصل العاشر

إعـــــلاء الصـــليب

حج هرقل إلى بيت المقدس ومعـه الصليب — اليهود فى طبرية — احتفل باعلاء الصليب فى كنيسة القيامة — أعلى ما بلغه الامبراطور من المجد فى حياته — يوافق على مقتـلة فى اليهود — صوم هرقل — موت البطريق (زكريا) — خلفه (مودستوس) — رأى الامبراطور فى توحيـد مذاهب الدين — قيرس مطران فاسيس يولى بطارقة الاسكندرية

فى السنة التالية وهى سـنة ٦٢٩ سار الامبراطور يقصد الحج الى بيت المقدس فى أول الربيع ، وأراد عند ذلك أن يعيد الصليب الى محله ، وكان فى هذه الأثناء مودعا فى كنيسة أياصوفيا .

وقد ذكر التاريخ حادثتين فى رحلته هذه : الأولى أن بعض المؤرخين يذكرون أنه قد أتى عنـد ذلك رسول الى حمص[1] (ويقول بعضهم الى أذاسة) من قبل النبي محمد عليه الصلاة والسلام[2] بكتاب يدعو فيه هرقل الى الاسلام ، ولعل هذه الحادثة لم تقع عند ذلك بل كانت قبل ذلك فى حياة الملك الأعظم (كسرى) . وأما الحادثة الثانية فهى أن الامبراطور عند ما بلغ طبرية أرسل اليـه يهودها وفدا معهم الهدايا العظيمة يطلبون منه عهدا يضمن لهم السلامة . فقد ذكروا ما أتوا من الجرائر

(١) ذكر الموضعان كلاهما ولكن ليس من المحتمل أن يكون هرقل قد حاد عن طريقه وذهب الى (أذاسة) ولو أنه ذهب الى تلك المدينـة وأقام بها مدة طويلة فيا بعد والحق أن البلدين يكثر الخلط بينهما فى أخبار هذا العصر ولكنا نظن أن تلك الرواية لا موضع لهـا هنا فان الكتب قد وصلت الى هرقل قبل آخر سنة ٦٢٧) أنظر ما جاء بعد فى هامش ٢ صفحة ١٢٤ وفى هامش (٢) صفحة ١٢٥) .

(٢) إضافة (النبي) والصـلاة عليه إضافة من عند المعرب وقد سار على هذه السنة فى ذكر اسم الرسول عليه الصلاة والسلام جريا على عادة المسلمين .

فى المسيحيين وخشوا أن يقتاد الامبراطور منهم، ولكنه منّ عليهم بالعهد وكان من حرص اليهود وحيطتهم أن أخذوا منه بذلك العهد كتابا .

وسار الامبراطور بعد ذلك فى سبيله الى أن لاحت له المدينة المقدّسة عن بعد، ومن السهل أن نتصوّر سير موكبه فى خيل تلمع عدّتها[١] من حديد يبرق وألوية على الخيل تخفق، ومن رماة بالنبال وكماة فى يد كل رمحه وعليه درعه وقد احتقب كنانته، وفى وسطهم سار هرقل فى خاصته[٢] وهم جميعا قطعة تتلألأ من الذهب وزاهى الألوان، حتى اذا ما اقترب من المدينة خرج اليه موكب من القسوس والرهبان وعلى رأسهم (مودستوس)، يحملون الأناجيل والشموع والمجامر، كما كانت عادتهم فى احتفالاتهم، وجاءت من ورائهم جموع كبيرة من الأهلين . وهكذا سار حتى بلغ الباب الذهبى[٣] فى الجانب الشرقى من المدينة، وكان فى انتظاره هناك البطريق (زكريا) فسلم عليه وأظهر الخضوع ثم أخذ يعنفه على فخامة ملبسه، وأمره أن يخلع رداءه الارجوانى ويطرح ما عليه من الذهب حتى يقترب من المواضع الطاهرة بما يليق بها من الخضوع والخشوع . وسار الامبراطور المظفر بعد ذلك

(١) كانت عدّة الفارس الرومانى المعتادة فى ذلك الوقت لأمة من الصلب ودرع وقفازان وحذاءان من الصلب (أنظر كتاب Oman "Art of war in the Mid. Ages." صفحة ١٨٤ وما بعدها). وقد قال الكاتب إن العدة التى يصفها (موريق) فى كتاب (Strategicon) سنة ٥٧٨ هى نفسها العدّة التى يصفها (ليو الحكيم) فى كتاب (Tactica) سنة ٩٠٠ للميلاد وكانت الأعلام كذلك تحمل بأمر حربى وقد ذكرت كثيرا — ذكرها مؤرخو اليونان وكثيرا ما كان المسلمون والروم يحملون ألوية من الحرير .

(٢) روى (سبيوس) أن الأمبراطور استصحب كل حاشيته فى هذه الرحلة ويمكن أن ندرك صورة من موكب سيره اذا قرأنا وصف ما كان معتادا فى القرن الخامس فى كتاب الأستاذ (Bury) فكان "حول الجسم كله ثوب ثمين من النسيج القرمزى وكانت رسوم الأفاعى تلمع فوق ثيابه الحريرية وكانت عدّة جواده كلها من الذهب فاذا ماركب فوق سرج أبيض كالثلج كان يحيط به الحرس يحملون الرماح لها أسنة من الذهب والدروع فى وسطها الذهب وفيها عيون من الذهب" (انظر كتاب "Later Rom. Emp." الجزء الأوّل صفحة ١٩٦) .

(٣) سدّ هذا الباب الذهبى فى القرن الثانى عشر ولم يستعمل إلا فى يوم أحد السعف وفى الاحتفال باعلاء الصليب وذلك لأن هرقل دخل منه وهو عائد يحمل الصليب المقدّس راجعا به من الأسر الفارسى (أنظر كتاب "Pal. Pil. Text. Soc." الجزء السادس مدينة بيت المقدس صفحة ١٤) .

فى لباس الحاج المنيب الى ربه، وكان يرى أينما ولى وجهه آثار الخراب الذى جره الفرس على البلاد منذ أربعة عشر عاما . ثم شكر (مودستوس) على ما بذله فى سبيل الاصلاح والعمارة ولاسيما إعادته بناء كنيسة القيامة وكنيسة الرأس وكنيسة قسطنطين، ثم كان بعـد ذلك الاحتفال الأكبر المشهور باسم (إعلاء الصليب) ولا تزال ذكراه الى اليوم تحييها الكنيستان الشرقية والغربية كلاهما فى يوم ١٤ سبتمبر .

وتروى قصة عن الصليب المقدّس أنه بقى محفوظا فى صندوقه تحليه الجواهر، ولم تقع عليـه نظرة نجسة من أعين الكفار فى مدّة وقوعه فى يد الفرس، حتى أن كسرى نفسه لم يجرؤ على أن يدير مفتاح ذلك الكنز الطاهر أو يكشف غطاءه . وأكبر الظن أن الصليب لم تدركه يد التدمير لأمرين : أولها أن الملك كان يخشاه ويحترمه مع أنه كان غير مسيحى، وكانت خشيته ناشئة من وهم خرافى، وثانى الأمرين أن الصليب كان له فى نفسه قيمة مما فيه من الذهب والجوهر الذى يحيط به، وكان كسرى يحب جمع التحف وآثار الفن . وعلى أى حال قد أرجع الصليب الى كنيسة القيامة ووضع فيها على المذبح فى احتفال باهر فخم .

وليس من الوهم أن نرى فى هذا الاحتفال الباهر باعادة الصليب أعلى ما بلغه الامبراطور من المجد فى حياته، فقد أدرك عند ذلك قصارى السلطان والهيبة، وطبق ذكره الآفاق . ولعله أحس عند ذلك أنه قد أدّى أمانته وأتم أمره، فقد قضى من قبل عشر سنين كان فيها مخذولا ذليلا، يهوى به خور عجيب فى النفس، وهوت معه دولته حتى رغمت، وضاعت منها قطعة بعد قطعة لا تحتمل أن تلمسها جيوش الهمج حتى تتداعى، فلم يبق منها إلا أسوار العاصمة وما يليها من شريحة صغيرة من البحر تفصل بينها وبين جموع العدوّ الضاربة حولها . ثم نهض كما ينهض الحالم من سباته فأعجب العالم بما أظهر من مضاء فى العزيمة وقوة فى الجهاد، ومن حماسة ثائرة ورأى فى الحرب باهر، ومن سرعة فى بت الرأى وهيبة تخضع لها الرجال . وتلك، لعمرى صفات جعلته سيد قوّاد عصره لا يدانيه مدان، وسارت الجيوش التى جمعها تحت لوائه يهديها بهدى عقله الراجح، فغلبت الفرس وكانوا من قبـل مغلبين وأزاحت

نيرهم عن الدولة من ضفاف البوسفور الى شواطئ (نهر الرس)، ومن ثم الى الأردن فالنيـل . وفوق هذا وذاك استطاع أن يحفظ المسيحية من خطر كاد يدهمها من الوثنية إذ كانت على وشك أن تجتاحها . وأرجع من ملك الوثنيين أعز رمز لدين المسيح، فكان إرجاع الصليب الى مشهده فى المدينة المقدسـة بمثابة الخاتم ضم الأمبراطور المظفر الى الغازى الموفق فى جهاده فى سبيل الدين . فقد خلص دولة الروم وحفظ دين المسيح بعد أن كانا على شفا جرف هار من الضياع والدمار .

غير أنه منذ ذلك الوقت أخذ حظه يتعثر وخلقه يهن و يضمحل . وكان أول ما أمر به فى أمور السياسة أن نكل باليهود تنكيلا فظيعا انتقاما منهم، وكان الناس والقسوس كلاهما يتسابق بالوشاية الى الامبراطور بهذا الشعب و إيغار صدره منهم، يتهمونهم بأشنع من تهم الفرس، وأنهم كانوا أشد منهم فتكا بالمسيحيين وأفظع منهم جرما فى تدمير الكنائس و إحراقها، ولسنا ندرى لعل تلك التهمة كانت صحيحة أو فى شيء كثير من الصحة، فانه لأمر ما قد بادر اليهود الى أخذ عهد من الأمبراطور يؤمنهم، وإنهم ولاشك كانوا عند ذلك يحملون فى قلوبهم للمسيحيين عداوة أشد مما كانوا يحملون لجيرانهم من أهل الوثنية . على أن هرقل لم يسارع الى الأمر بل كان غير راغب فى الاقدام على نقض عهـده . فقال له قائل إنه إنما أعطى العهد قبل أن يعلم بحقيقة ما كان منهم وإنه ما كان ليحفظ عهدا مع قوم خدعوه عنه، وانه لو كان قد علم بما فعله اليهود من فتك بالمسيحيين بالسيف والنار، لما تردد فى أن يقسو عليهم ويشتد فى حكمهم الى غير ذلك من الأقوال . وما زالوا به حتى أزالوه عن رأيه ما بعلو ضجيجهم وإما بالتماس الحجج لاحلاله من عهده، ولعل كلا الأمرين قد اجتمع على ذلك . فأمر أن يجلى اليهود عن بيت المقدس و يمنعوا أن يعودوا بعد ذلك الى ما بعد أسوار المدينة بثلاثة أميال . ولكن ذلك النفى لم يكن أشد عقوبة نزلت بهم فإنه يلوح لنا أن هرقل قد أجاب المسيحيين من رعيته الى كل ما طلبوه من الانتقام، وهناك وقعت فى اليهود مقتلة تشبه أن تكون عامة (١). ولكن البطريق ومطارنته أرادوا

(١) جاء فى المقريزى أن اليهود قتلوا "حتى لم يبق منهم أحد فى دولة الروم ومصر والشام إلا من هرب أو اختفى" وهذا معناه أن المذبحة امتدت الى جميع أنحاء الدولة (أنظر ترجمة ملان صفحة ٧٠) ونجد تلك القصة أيضا فى كتاب سعيد بن بطريق .

أن يزيلوا وساوس الأمبراطور وأن يطيبوا نفسه ويطمئنوا نفوسهم إلى ما كان، فبعثوا الى المدائن جميعها كتبا يأمرون فيها أن يصوم الناس أسبوعا وأن تكون تلك سنة أبد الدهر . وما زالت تلك السنة باقية الى يومنا هذا فان أوّل أسبوع من الصوم الكبير عند القبط لا يزال اسمه (صوم هرقل) . ويمكن أن نقول إن القبط قد اشتركوا فى تلك المقتلة لما كان بهم من ذحل وموجدة على اليهود منذ أيام فتح الفرس للاسكندرية .

والظاهر أن الامبراطور قضى الشتاء فى بيت المقدس . ويمكننا أن نستنتج من تاريخ الصيام المذكور أن مقتلة اليهود كانت فى أوّل العام الذى بعده أى عام ٦٣٠ وقد مات فى ذاك الشتاء البطريق (زكريا)(١) وولى مكانه على عرش البطرقة (مودستوس) عن رضى من الملك والناس جميعا .

ولسنا ندرى أى البطريقين كان صاحب الرأى فى مقتلة اليهود التى لطخت ذكر هرقل، ولا شك فى أن كلاهما قد رضى عنها وأقرها . ولكن الأمبراطور عند ما أزمع السير الى عاصمته استصحب (مودستوس) ليساعده على إقرار أمور الكنيسة وإعادتها إلى سابق عهدها بعد أن رجعت بلاد الشام إلى دولة الروم، وليعمل على رد

(١) جاء فى كتاب (Acta Martyris Anastasii) (طبعة Usener صفحة ١٢) أن هرقل جاء الى بيت المقدس فى الخمسة عشرة الثالثة فى السنة الثانية والعشرين من حكمه (وهذا يوافق السنة التى أوّلها سبتمبر سنة ٦٢٩) وأنه بينما كان هناك جاء جاثليق الفرس بكتاب إلى الامبراطور وآخر الى (مودستوس) وكان قد اختير قبيل ذلك بطريقا . وهذا تاريخ ثان ثابت دقيق ورد فى كتاب مؤرّخ كان يعيش فى ذلك العصر . وقد جاء فيه عرضا وعلى ذلك لا سبيل الى الشك فيه . وليس اعتقاد ذلك المؤرخ فى الخوارق والمعجزات بسبب يدعونا الى الشك فى صدقه فى مثل هذا الأمر إذ لا نرى باعثا يبعثه على الخطأ فيه فاذا صدّقنا هذا التاريخ علمنا أن موت (زكريا) لم يكن بعد شهر فبراير أو مارس سنة ٦٣٠ لأن هرقل لم يكن ليقيم فى بيت المقدس أشهرا كثيرة ولأن (مودستوس) أختير بطريقا قبل أن يرحل هرقل عن ذلك الموضع . وقد قيل أن مدّة ولايته كانت اثنتين وعشرين سنة وهذا يتفق مع وقت اختياره المعروف فى سنة ٦٠٩ . وقد استشهد (انستاسيوس) فى أيام كسرى فى ٢٢ يناير سنة ٦٢٨ وكتبت ترجمة حياته فى الغالب بعد موته بقليل وعلى ذلك فلنا أن نعدّها مؤكدة لجعل تاريخ دخول هرقل فى بيت المقدس فى ١٤ سبتمبر سنة ٦٢٩ .

الكنائس التى كان كسرى قد جعلها للنسطوريين[١] والمنوفيسيين وإرجاعها إلى أصحاب مذهب الدولة (الأرثوذكس). وكان مما قصد إليه الأمبراطور من صحبة البطريق أن يساعد كذلك فى التماس الوسيلة لجمع مذاهب الدولة المتنضلة وتوحيدها، وكان هذا من أعز ما يتمناه الامبراطور. وقد بدا له الأمر ممكنا إذ كان عند ذلك بطل المسيحية وناصرها .

ولكن (مودستوس) توفى فى شتاء سنة ٦٣٠ — ٦٣١ ولم يل إلا تسعة أشهر[٢]، فلم يجد هرقل بعده بين المطارنة من يوافق رأيه فى أمر الكنيسة كل الموافقة، ولهذا ترك مكان البطريق شاغرا . ولم يكن أحد ليستطيع أن يزيله عن رأيه وهو التوفيق بين اليعاقبة والملكانيين وهما حزبا الكنيسة : أولهما حزب الخوارج، والثانى حزب الجماعة . وكان سرجيوس القسطنطيني يرى رأى الملك فى التوفيق فاعتز ذلك الرأى به وهو الرجل الذى عرف بالقوة والاقدام . وكان سورى المولد وهو صاحب صورة التوفيق التى أقرها هرقل، وكانت تلك الصورة تقضى بأن يمتنع الناس عن الخوض فى الكلام عن كنه طبيعة (السيد المسيح) وعما إذا كانت له صفة واحدة أم صفتان ولكن عليهم أن يشهدوا أن له إرادة واحدة أو قضاء واحدا . وكان الامبراطور منذ سنة ٦٢٣ عند ما كان فى أرمينيا قد اتفق مع (بولص) زعيم الدين، وكان أثر ذلك الاتفاق أن توحدت الكنيستان كنيسة الدولة وكنيسة أرمينيا . وبعد أربع سنوات من ذلك زار (اللازيين) . ودعا (قيرس) مطران (فاسيس) الى مذهبه الجديد فوجد منه قبولا . وفى ذلك الوقت عرض رياسة الدين فى أنطاكية على (أثناسيوس) على شرط

---

(١) روى (مكين) أن كسرى اضطر أهل مدنية (أذاسة) الى اتباع مذهب اليعاقبة فى سنة ٦٢٥ وقد كان طبيب كسرى واسمه حنا من اليعاقبة وقد حمل كسرى على الاعتقاد أن الناس اذا بقوا على مذهب الدولة كانوا أحرياء أن يوالوا دولة الروم بخيرهم كسرى بين الموت وتغيير مذهبهم . وجاء أيضا فى (قيدرينوس) أن الكنائس التى أعطاها كسرى للنسطوريين فى (أذاسة) أعادها هرقل للملكانيين وهم أصحاب مذهب الدولة .

(٢) جاء فى كتاب (سعيد بن بطريق) أن المدة كانت تسعة أشهر ويقول نيقفوروس إنها كانت سنة وقد خلفه بعد تلك المدة (صفرونيوس) وهو الذى كان فى سنة ٦٣٣ فى مجلس الاسكندرية (راهبا) من الرهبان ولعل ولايته كانت سنة ٦٣٤ ولو أن (ابن بطريق) يذكر أن المحل ظل شاغرا مدة ست سنوات .

أن يقر ما أقره مجمع (خلقيدونية)، وأن يأخذ بتأويل الموحدين (المونوثيليتيين). والظاهر أن الرؤساء الثلاثة اجتمعوا بالأمبراطور فى (هيراپولس) وكانت نتيجة مناظرتهم فى ذلك الاجتماع أن أقروا شرط التوفيق إقرارا كاملا. وكان المتوقع عند ذلك أن يسود السلام الكنيسة وترتق فتوقها المتسعة.

ولعل هذا الوفاق كان فى صدر عام ٦٣١ [(١)] وأعقبته ولاية (قيرس) بطرقة الدين فى الاسكندرية. وقد أمره الأمبراطور أن يجمع المذهبين القبطى والملكانى فى المذهب الموفق الذى ابتدعته حكمة المجلس الأمبراطورى. وكانت خطة الأمبراطور الى ذلك الوقت موفقة توفيقا أعظم مما توقعه أحد، وجاءت اليه الأنباء من مصر فى أول الأمر مبشرة بالنجاح، فقد وصف (قيرس) نجاحه وصفا بليغا حتى لكان يخيل إلى الناس أن هرقل قد بدأ باسترجاع دولته وجمع شملها بعد أن نزعها الفرس من يده ومزقوها كل ممزق، ثم ثنى بعد ذلك بالحلم الذى كان يتمنى تحقيقه فى حياته وكاد يتم له الأمر كما يشتهى. فانتصر فى القتال نصرا عظيما فغلب الكفار وحمى منهم المسيحية. وإنه ليكون نصرا أعظم لو استطاع أن يحل السلام والوئام على الكنيسة، وأن يزيل ما فيها من مواضع الخلاف [(٢)] ويربط بين المسيحيين فيجعلهم إخوانا فى دين واحد. وكان الصليب الذى استرجعه من العدوّ رمزا ماثلا أمام عينيه، ولا عجب إذا لاح له فوقه الخيال الذى لاح لعينى سلفه العظيم وهو (فز إما بالموت وأما بالحياة) [*(٢١)]. فقد كان الصليب أداة نصره فى الحرب وكان يستلهم من الصليب وحيه وإلهامه فى أمور الدولة بعد أن ساد السلام.

(١) إن (دراپيرون) صفحة ٣٠٣ كما بينا مخطىء خطأ واضحا فى جعل اللقاء بين الأمبراطور و(أثناسيوس) فى هيراپولس فى سنة ٦٢٩. وفوق ما ذكرناه من الأدلة نقول إنه قد جاء فى (قيدرينوس) أن هرقل فى السنة العشرين من حكمه أمر فى هيراپولس أمرا ينهى عن اتباع مذهب الطبيعة الواحدة أو الطبيعتين وذلك بعد تردّد طويل منه بين مذهب (المونوفيسيين) ومذهب الدولة الأورثوذكسى. وقد كان قراره بغير شك فى سنة ٦٣١ فى حين أنه لم يخرج الأمر إلا بعد بضع سنوات من ذلك.

(٢) اقتبس (دراپيرون) فى صفحة ٣٠١ ما يأتى عن اليونانية. (أن من يحمل الهمج على التزام السلام يحمل كذلك الأحزاب على التزام السكينة. حذار من الأحزاب) [*(٢٢)].

الفصل الحادى عشر

دعوة النبي محمد (عليه الصلاة والسلام)

اتفاق فى الزمن بين النبي وهرقل — كتب النبي إلى ملوك العالم وأمرائه وما أجابوا به — وقعة (مؤته) — هزيمة (تبوك) — موت النبي واتحاد بلاد العرب — كنيسة صنعاء — البعث إلى الشام — أسباب فوز الاسلام — رأى المسيحيين

ما أكثر عجائب التاريخ وعبره، ولكن قلما حدث فيه من العجائب ما هو أكثر عددا أو أعجب أمرا مما كان فى عهد هرقل . وقد اتفق عند ما بدأ هرقل عهد ولايته أمر الأمبراطورية أن بدأ النبي محمد دعوته وأخذ فى نشرها وذلك فى سنة ٦١٠.(١) وقد كان مقدورا أن تكون دعوة النبي أكبر ما يصدم هرقل و يهدم ما بناه . وقد لاقى كل من هذين العظيمين فى أول حياته تخذيلا عظيما وأخطارا جمة صحبته نحوا من اثنتى عشرة سنة، ثم خرج كل منهما من هذه المحن وقد قويت نفسه واستعدت للعمل العظيم الذى كانت مقبلة عليه . فى سنة ٦٢٢ سار هرقل فى سريته إلى قليقيا فضرب أول ضربة فى سبيل إستنقاذ الصليب المقدس و إعادته إلى الدولة الرومانية من الفرس ، وفى هذه السنة عينها هاجر النبي من مكة الى المدينة و بدأ بذلك عصر الجهاد فى سبيل تخليص بيت الله الحرام وفتح بلاد العرب لدعوة الإسلام، فكان هذا الحدث مبدأ التاريخ الإسلامى أبد الدهر .

(١) ولد النبي فى سنة ٥٧٠ وعلى ذلك كان عمره وقتئذ نحو أربعين سنة وقد اتفق فى ذلك كتاب العرب وكانت سن هرقل أقل من ذلك بسنوات ثلاث أو أربع ونقول هنا إننا كتبنا هذه الفقرة من الاتفاقات قبل أن تتاح لنا فرصة الاطلاع على كتاب (درا بيرون) الجليل "L'Empereur Heraclius et L'Empire Byzantin" راجع صفحة ٣١٨ و ٣١٩) .

وليست هذه كل وجوه الاتفاق فإن النبي والملك كلاهما صحبه نصر لا تكاد تثلمه هزيمة مدّة ست سنين بعد سنة ٦٢٢.[(١)] وكان النبي يرقب بلهف حوادث القتال الطويل بين الروم والفرس، وكان قد آلمه نصر الفرس فى مبدأ الأمر فى سنتى ٦١٤ و ٦١٥ لأن ذلك كان انتصارا لعبدة الأوثان على قوم من أهل الكتاب. فلما رجع النصر إلى الروم — وما كان أعجب ذلك — واستطاع هرقل أن يمحق سلطان الفرس بعد حرب ضروس استمرّت ست سنوات، بعث ذلك فى النبي آمالا كبيرة لغزو الطائفتين والتغلب عليهما وقد تضعضعت قوّة الغالب منهما والمغلوب، ورأى أن الله قد مهد بذلك للاسلام طريق النصر والفتح. ولهذا نستطيع أن نقول إن الساعة التى بلغ فيها هرقل أعلى ذروة مجده كانت ساعة البشرى العظيمة للنبي (عليه الصلاة والسلام).

وكان النبي قبل ذلك رأى أنه قد آن له أن يرسل الى أمراء العالم يدعوهم للدخول فى الدين الجديد، فبعث كتبا اليهم فى سنة ٦٢٧[(٢)] وختمها بخاتمه على ماجرت

(١) لا يخفى أن نصر النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن لمدّة ست سنوات بل استمر إلى نحو عشر سنين الى قبيل لحوقه بربه (المعرب).

(٢) فى هذا التاريخ بعض الشك كما هى العادة فالظاهر أن أكثر مؤرّخى العرب يجعلون السنة التى كتب فيها النبي تلك الكتب سنة ٦ للهجرة وأوّلها ٢٣ مايو سنة ٦٢٧ للميلاد (انظر ما كتبه Evett. تعليقا على كتاب أبى صالح صفحة ١٠٠ هامش ٣) أما (Sale & Ockly) فيجعلان تاريخ ذلك سنة ٦٢٩ ولكنهما يناقضان ذلك بجعل ملك الفرس عند ذلك كسرى (أبرويز) وهو المتوفى سنة ٦٢٨ (شهر مارس) ومن المعلوم أن النبي قصد الى مكة غازيا فى فصل الربيع فى العيد وقد كتبت الخطابات بعد عودته من الغزوة التى انتهت بالهدنة مع قريش. فلا بدّ أن تكون الغزوة قد وقعت فى سنة ٦٢٧ حتى يمكن أن يبلغ كتابه الى كسرى قبل عزله فى مارس سنة ٦٢٨ كما يقتضيه الخبر. فان الطبرى لا يدع مجالا للشك فى أن الملك الذى بعث اليه النبي بالجواب كان كسرى (أبرويز) وأن الخطاب جاء اليه قبل موته بشهور أى لا بد أن يكون ذلك قبل نهاية سنة ٦٢٧ وعلى ذلك فنحن مسوقون الى أن نقول إن الخطابات أرسلت فى تلك السنة. وعلى ذلك يكون هرقل قد جاءه الخطاب فى سنة ٦٢٧ أما القول الآخر الذى يجعل غزوة النبي فى ربيع سنة ٦٢٨ فيدعو الى رفض رواية الطبرى رفضا صريحا وذلك أمر عظيم صعب وفوق ذلك فان عملنا هذا يحملنا على صعاب أخرى وذلك لأن الخطابات ما كانت لترسل قبل شهر مايو وقد كان هرقل عند ذلك فى أرمينيا وهذا القول مبنى على تصديق رواية ابن اسحاق اذ يقول ان جميع الخطابات أرسلت فى وقت واحد وقد يكون كتاب فارس أرسل قبل كتاب هرقل بسنة على أن مثل ذلك الرأى غير قريب وان خيرا لنا الاعتماد على مارواه مؤرّخو العرب فى ذلك الشأن.

عليه عادة أهل الشرق وكان نقش ذلك الخاتم « محمد رسول الله » وكانت الكتب جميعها تدعو الى الدخول فى الاسلام والشهادة بأن محمدا عبد الله ورسوله . وأرسلت تلك الكتب الى أمراء اليمن وعمان(١) واليمامة والبحرين والى الحارث (ابن أبى شمر الغسانى) أمير العرب على حدود الشام والى (جرج) وسمى (المقوقس) فى الكتاب خطأ وهو حاكم الاسكندرية ونائب الملك فى مصر(٢) والى نجاشى الحبشة والى كسرى ملك الفرس والى هرقل قيصر الروم(٣) .

فأما أمراء العرب فقد ردّ اثنان ردّا حسنا وأسلما وهما أمير (اليمامة) وأمير (البحرين)، وأما أميرا اليمن وعمان فقد ردّا ردّا فاحشا(٤) فدعا عليهما النبي . وأما النجاشى فقد أجاب جوابا حسنا ولم يبعد ولكنه لم يسلم . ولعل هذا موضع لأن نقول إن الحبشة هى البلاد التى لم يفتحها الاسلام دون كل البلاد التى أرسل النبي اليها الرسل .

(١) قال ابن اسحاق (نقلا عن الدكتور (Kœlle) فى كتابه "محمد والاسلام" صفحة ١٩٤ و ٣٣٢ و ٣٣٣) إن الرسول الذى حمل خطاب النبي الى عمان هو (عمرو بن العاص) فاتح مصر فى المستقبل . ولكن يلوح لنا أن ذلك خطأ لأن عمرا لم يدخل الاسلام فى ذلك الوقت (أنظر تعليق المعرب فى هامش ٤

(٢) ابن اسحاق وهو الذى نأخذ عنه هذه الأخبار يقول قولا صريحا (وهذا بلا شك خطأ) إنه كان بمصر رجل اسمه المقوقس وقال انه كان حاكم مصر الحقيق فى ذلك الوقت وهذا الرجل إما أن يكون قد ولاه هرقل عند خروج الفرس من مصر وإما أن يكون هرقل قد أقره على ولايته التى كان عليها مدة حكم الفرس ولكن الصعاب تحيط بكل هذه الخطابات وتواريخها ومن الممكن أن تكون قد أرسلت فى أوقات مختلفة كلما سنحت الفرص . (أنظر تعليق (Hamaker) على الواقدى صفحة ٢٤ هامش ٥

(٣) اذا قرأنا كتب العرب وجب علينا أن نذكر أنهم يذكرون لفظ "الروم" ويفضلونه على "الاغريق" أو "البيزنطيين" وأهمية الاسم الأول واضحة من أن العرب كانوا لا يكادون يطلقون على أهل الدولة الا لفظ "الروم" وانا نعلم رأى الأستاذ (Bury) فى النعى على المؤرخين الذين يسمون دولة الروم فى ذلك العصر بغير هذا الاسم (انظر مقدمة كتاب "Later Rom. Emp."). ولكن مع ذلك لم أتردّد فى أن أذكر "الحكومة البيزنطية" والمؤرخين "الإغريق" وقد كان أهل الدولة يسمون أنفسهم الروم وكان لفظ "الاغريق" عندهم سبة مرادفة لقول "وثنى" .

(٤) جاء فى كتاب الطبرى غير هذا اذ قال فى حوادث السنة الثامنة أن (عمرو بن العاص) أرسل الى (جيفر) و (عباد) ابنى جلندى (بعمان) فصدّقا النبي وأقرا بما جاء به . ويذكر الطبرى أن اسلام عمرو كان فى السنة الثامنة وهذا يؤيد أن رسالة النبى الى عمان لم تكن فى السنة السادسة كما يقول المؤلف (المعرّب) .

وأما (عظيم القبط)[١] فقد وعد أن يرى لنفسه رأيا فى الأمر وأكرم الرسول وهو (حاطب ابن أبى بلتعه اللخمى)، وبعث معه هدية عظيمة كان فيها جاريتان (مارية) و(شيرين) وبغلة سماها النبى (دلدل) ويزعم بعضهم خطأ أنها كانت أوّل بغلة عرفت فى بلاد العرب[٢]، وكذلك كان بين ما أهدى حمار اسمه (نفور)[٣] ومقدار من المال[٤]. فأما (مارية) فقد أسلمت وتزوّجها النبى عليه الصلاة والسلام وأحبها وماتت سنة ٦٣٦ فلم تشهد فتح مصر وخضوعها للعرب.

وأما رد كسرى فقد كان على طريقة أخرى اذ شق كتاب النبى ومزقه وهو غضبان قد تولى كبره، وكتب الى بازان[٥] عامله على إقليم (حمير) يأمره "إبعث إلىّ

(١) قد بينا فى ذيل الكتاب عن "المقوقس" أن ذلك لقب أطلق خطأ على الحاكم فى هذا العصر ويجب علىّ هنا أن أرجع عن الرأى الذى بينته فى تعليق على أبى صالح (صفحة ٨١ هامش ٤) فان وظيفة من أرسل اليه النبى خطابه كانت بلا شك أعلى من وظيفة حاكم اقليم وحاكم قسم فانه لم يكن سوى "حاكم مصر" ولقبه أغسطاليس وان ارسال النبى الكتاب اليه لدليل على عظم شأنه أما الرأى الذى يجعل ذلك الحاكم حاكم قسم فانه يصل بالقائلين به الى حدّ السخف فقد كتب المستر (ملن) فى تعليق له على هذا الأمر فى كتابه "Eg. under Rom. Rule" صفحة ٢٢٤ — ٢٢٥) "ولعل جورج كان حاكما على اقليم (أغسطمنيكا) فانه اقليمه غير معروف وقد ذكرت أسماء ولاة مصر وأسماء حكام اقليم الوجه البحرى وأركاديا (الصعيد) فى ذلك الوقت فى كتاب (حنا النقيوسى) فى موضع آخر وان مقامه فى الناحية الشرقية من مصر يجعله أول عظيم تأتى اليه كتب النبى" وردا على ذلك نقول ان الحكام الثلاثة الذين ورد ذكرهم ما هم إلا حكام حربيون وانه لما لا يقبله العقل أن يقول قائل ان النبى كان يعرف كل شىء عن ملك فارس وعن حاكم الدولة الرومانية وعن جميع أمراء العرب ورؤسائهم وأما حاكم مصر فلا يعرف عنه شيئا، بل أرسل كتابه بغير قصد فأسلم الى أول من لقى الرسول من حكام الأقاليم ثم ردّ عليه ذلك الحاكم. على أن مؤرّخى العرب يجعلون الذى أرسل اليه الخطاب أكبر حاكم فى مصر وهذا هو الحق.

(٢) لعله يشير الى رواية ابن سعد عن محمد بن عمر عن موسى ابن محمد بن ابراهيم عن أبيه قال "كانت (دلدل) بغلة النبى صلى الله عليه وسلم أوّل بغلة رؤيت (فى الاسلام) أهداها له المقوقس وأهدى له معها حمارا يقال له (عفير) فكانت البغلة بقيت حتى كان زمن معاوية" ولا شك أنه فرق بين قوله أوّل بغلة رؤيت "فى الاسلام" وبين قوله أوّل بغلة رؤيت فى "بلاد العرب" (المعرب).

(٣) جاء فى كل الروايات التى رأيناها أن اسمه (يعفور) أو (عفير) (المعرب).

(٤) أبو صالح (صفحة ١٠١) ويزيد بعض المؤرخين أنه أهدى اليه سمنا وعسلا كذلك.

(٥) لعله من المفيد أن نذكر هنا تاريخ حكم الفرس فى بلاد العرب على وجه الاختصار فقد كانت اليمن منذ القرن الرابع تحت حكم المسيحيين مع أن أهلها كان أكثرهم من اليهود ودخلت فى القرن السادس تحت =

برأس هـذا الرجل الذى بالحجاز[1] " . فقال النبي عند ما بلغه ما فعـله كسرى بكتابه " مزق ملكه " فكانت نبوءة ودعوة عليه وما مضى بعد ذلك إلا زمن قصير حتى تحققت[2] .

أما ما كان من أمر هرقل فلسنا ندرى ما كان يدور بنفسه إذ هو خارج من مواكب الاحتفال عند مقدمه إلى عاصمة ملكه بعد فتوحه فى آسيا ، أو عند ما كان يسير وفى ركابه الظفر يشق بلاد الشام نحو بيت المقدس ، حاملا معه الصليب الأعظم ، أكان عند ذلك يذكر ما وقع له وهو فى معسكره منذ حين إذ طلع عليه جماعة من فرسان البدو وعليهم رئيسهم (دحية بن خليفة) الكلبي يحمل إليه كتاب النبي ؟

= حكم الحبشة ولما أراد أهلها أن يخلعوا نير الحبشة أرسلوا رسولا من قبلهم (سيف) الى امبراطور الروم فلم يرض أن يساعد قوما يريدون أن يثوروا على دولة مسيحية . فذهب سيف الى بلاد الفرس فى سنة ٥٧٤ واحتال على (أنو شروان) فجعله يرضى بأن يرسل معه جيشا من أهـل السجون عدتهم ٣٦٠٠ وجعل عليهم (هرزاد الديلانى) وانتقلت هـذه السرية فى ثمان سفن تحمـل كل منها ٤٥٠ رجلا غير المؤونة والعـدة فلما نزلوا دخل معهم كثير من الناس وفتحوا صنعاء عاصمة البلاد وقد ثار أنصار الحبشة بعد بضع سنين فأرسل اليهم كسرى جيشا آخر بقيادة القائد عينه ، فهزمهم وطرد الحبشان من بلاد اليمن فانقضت بذلك دولة حمير وأصبحت بلاد اليمن مع حضرموت ومهرة وعمان تحت حكم الفرس . وأخبار هذا العهد واضحة الدلالة على أن حكم الفرس كان عادلا لا يكاد أحد يحس له وطأة وكان أتباع ديانة اليهود وديانة النصارى أحرارا فى التعبد على دياناتهم (أنظر (Capt. R. L. Playfair's History of Arabia Felix) (بومباى ١٨٥٩) صفحة ٧٢ — ٧٧ وانظر (Wright's Christianity in Arabia) صفحة ١٧٥ — ١٨٩ وكانت مملكة الحيرة كذلك خاضعة للفرس وقد تنصر أميرها (النعمان أبو قابوس) وحكم من ٥٨٩ الى ٦١١ وكان فى مبدأ أمره وثنيا يضحى بالآدميين . ولما تم تعميده صهر تمثالا من الذهب للآلهة فينوس (الزهرة) كان قومه يعبدونه وهـذه القصة واردة فى كتاب (Evagrius) الجـزء السادس البـاب ٢٢) ويقول (Wright) انها تتفق اتفاقا ظاهرا مع ما ورد فى كتب العرب .

(١) أخترنا أن نستعمل بعض لفظ رواية ابن جرير الطبرى عدا ما جاء من ذكر القتل فانه غير مذكور بها فان الأصل الانجليزى فيه خروج كثير اذ قال عن النبي على لسان كسرى (The impostor) (المعرب).

(٢) لعل هـذه الملاحظة حقيقيـة وهى تدل دلالة واضحة على أن الذى جاءه الكتاب كسرى وليس (شيرويه) فقد حكم (شيرويه) ستة أشهر آخرها أغسطس سـنة ٦٢٨ وجاء بعده الطفل الضعيف الذى قتله (شاه — ورز) وهو القائد الذى اختاره هرقل للملك عنـد ما رأى أن الملك محتاج الى رجل قوى وكان هذا فى صيف سنة ٦٢٩ ؛ وقد ظهر أن (شاه — ورز) ظالم من أجفر الطغاة وقتل فى أوائل سنة ٦٣٠ وهذه التواريخ على ما يظهر لها ما يعززها ولكنها مع ذلك متنازع فيها .

لا شك أن الأمبراطور قد سمع بما أجاب به من قبل ملك الفرس ولعله كان عند ذلك قد أتاه نبأ مقتل رسول النبي فى مؤته[1]، ولكنه مع ذلك أرسل ردا حسنا حتى أن بعض مؤرخى العرب خلق من ذلك قصة منمقة سخيفة عجيبة يذكر بها إسلام هرقل ولم يكن شيء أبعد من ذلك الأمر عنه . وماذا عسى كان يدفعه إلى تصديق ما أتى به زعيم عربى لم يعرفه وذلك فى حين كان ملكا سيد الكتائب الكثيرة التي عركتها الحرب فأصبحت ضارية صعبة المراس .

وعلى ذلك فقد سار هرقل فى سبيله ولم يعكر شيء صفاءه ولم يعر أمر تلك الرسالة إهتماما . ولكن فيما كان هرقل يسير فى موكبه من الباب الذهبي بين الطرق المتعرّجة قاصدا إلى الكنيسة القائمة على جبل الزيتون ليقيم بها الصليب الذى استنقذه، وفيما كانت الناس فى بيت المقدس يبكون مما فى نفوسهم من سورة قد غلبت عليهم جميعا حتى لقد بكى من كانوا منهم ينشدون أناشيد النصر[2]، كانت سرية من ثلاثة آلاف فارس أرسلها النبي تسير فى الصحراء إلى مؤته لتثأر لرسوله الذى قتل . ومن ذلك الحين بدأت الحرب مع الدولة الرومانية فلم تنته حتى كانت سنة ١٤٥٣ وفيها سلمت القسطنطينية للاسلام، ونقش اسم النبي العربى حيث هو اليوم على جدران الكنيسة الكبرى كنيسة (أيا صوفيا) . وقد جاءت جنود الدولة فالتحمت بجيش العرب يقوده زيد بن حارثه قرب (مؤته) وكانت صدمة القتال عنيفة فقتل أكثر القادة حتى ولى القيادة خالد بن الوليد واستطاع بما له من مهارة فائقة فى الحرب ورأى سديد أن يحفظ المسلمين من القتل، وقد سمى من ذلك الحين بسيف الله، فانحاز بمن بقى منهم وسار الى المدينة فى أسف شديد . ولكن النبي

(١) لا يمكن أن يكون المقصود هو (دحية الكلبي) فانه عاد الى النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن أدّى رسالته الى قيصر . ولكن لعله يقصد أنه أغار عليه قوم وهو فى الطريق فسلبوا ما معه وقد يكونون قتلوا أحدا ممن كان فى صحبته (المعرب) .

(٢) ذكر (سبيوس) ما كان يشمل الناس من الفرح فى ذلك اليوم ثم ذكر بعد ذلك بكاءهم ونحيبهم وذرفهم للدمع وذكر أن ذلك عمهم جميعا من الامبراطور والأمراء والجنود وأهل المدينة حتى "لم يكن أحد يغنى أناشيد الصلاة" .

تلقاهم ولم تفلل الهزيمة من عزمه، وما أتى آخر شهر أكتوبر حتى جهز عمرو بن العاص فى سرية صغيرة و بعثه الى أكناف الشام، وانتظر كى يتم نشر الدعوة فى بلاد العرب ثم يخرج الى من حوله فيناجزهم فى حرب عظيمة. وقد تم له فتح مكة ثم انتصر فى حنين فسار ذكره وسادت هيبته بعد ذلك كل ربوع بلاد العرب .

ثم أخذ فى إعداد جيش وجاهر بأنه لغزو فلسطين يدفعه إيمانه وما فى قلبه من شعور قوى بأمانته الى الاستهانة بما قد يلقى من العقبات . ولكن كثيرا من أصحابه استصعبوا الأمر فدل ذلك على أن ايمانهم لم يعصمهم من هيبة هرقل . وكان يحب أن يجتمع عنده مائة ألف رجل مجهزين بالعدد، ولكن لم يجتمع اليه إلا ثلاثون ألفا، وتخلف عنه المنافقون والمعذرون الذين ادعوا المرض هربا. وسار فى هذا الجمع الى (تبوك) وهى فى نصف الطريق الى مؤته فأقام بها عشرة أيام ولم يلق كيدا، ولعل ربيئته قد حملت اليه من الأخبار ما جعله لا يتقدم الى الشمال الى أبعد من ذلك، أو لعله عاد لقلة الزاد والماء معه، فانه قد عاد الى المدينة وقضى بها عاما يعد جيشا لغزوة جديدة . وفى أثناء مقامه فى (تبوك) عقد عهودا مع كثير من أمراء العرب وأرسل خالدا فى أربعمائة فارس الى أمير (دومة) النصرانى فنزل عليه على غرة منه وأسره. ثم أسلم ذلك الأمير وأخذ منه النبي أرضه ومدينته وحصنه وثلاثة آلاف من الإبل وأربعمائة درع[1] .

وعلى كل حال فان غزوة (تبوك) وإن لم يصل النبي منها الى غرضه من لقاء الروم لم تؤخر سير الإسلام، فقد تتابع أمراء العرب إلا قليلا منهم على الدخول فى الإسلام، وشهد ذلك العام دخول الناس جميعا تحت لوائه، ومن ثم سمى « عام الوفود» . وكانوا جميعا يتبعونه و يرونه سيدا وقائدا ورسولا من عند الله، بعضهم يرى ذلك صدقا عن عقيدة وإيمان و بعضهم يتراءى ذلك خوفا ونفاقا. وفى عام ٦٣٢ حج[2]

(١) أنظر كتاب الدكتور Koelle "محمد والاسلام" (صفحة ٢٠٧ — ٢١٠) .

(٢) وقيل أن تاريخ ذلك ٩ مارس "الظاهر أن هذا ثابت لا خلاف فيه" أنظر كتاب المستر . ل ميشيل "Egn. Calendar" صفحة ٣٥

النبي الى مكة حجة الوداع، وقام بين المؤمنين لا يحصرهم عدّ وعلمهم شعائر الحج الى الكعبة التى أصبحت بيتهم الحرام بعد أن كانت معبد الأوثان، وقرّر شعائر الحج التى لا تزال متبعة الى اليوم. وبعد شهرين من منصرفه من الحج أخذ يدعو العرب الى غزو الروم وجعل قيادة الجيش إلى أسامة ابن مولاه زيد الذى قتل فى وقعة (مؤتة)، ولكنه مرض بعد ثلاثة أيام من عقده لأسامة على الجيش وكان مرضه بالحمى وتوفى من مرضه ذاك بعد قليل .

على أن وفاة النبي لم تضعف الإسلام بل شدّت ساعده، فانه اهتز حينا ولكنه كان راسخ الأساس، فلم تكن تلك الهزة التى جاءته من داخل جزيرة العرب لتحدث فيه أثرا. وقد مات النبي بعد أن أتم ما تاقت إليه نفسه فى حياته وإن لم يكن ذلك فى الوقت الذى كان فيه على ذروة النصر والقوة. فكان فى ذلك على غير ما كان عليه هرقل عند موته . وكان النبي لا يشعر عند موته بما يعكر صفاءه من أنه أخفق أو أنه قد مضى عزه وتقادم العهد على نصره، بل إنه لو أتيح له أن يطلع على الغيب لعرف أنه قد ألف بين قومه وألبهم فأصبحوا وقد خلفهم قوة ذات بأس فى الدين وذات أثر فى السياسة وأنها ستفتح العالم بعد وفاته .

وكانت بلاد العرب قد صارت يدا واحدة قبل موت النبي، وقد انقطع بسقوط كسرى ما كان بين الفرس واليمن وجنوب أرض العرب من علاقة السلطان، فى حين أن هرقل لم يعمل على تقوية سلطانه وتحديده فى شمال الجزيرة بل تركه كما هو ظلا غير حقيق من الهيبة. ولا شك فى أن جل نصارى العرب كانوا على المذهب (المونوفيسى) وأنهم لذلك كانوا لا يثقون برأى الامبراطور فى السياسة، على أنهم كانوا ضعفاء لا يستطيعون دفع أعداء الدولة(1) .

وإذا كان ثم شىء يتم به جمع جزيرة العرب لتصبح يدا واحدة تحت سلطان واحد، فقد قام به أبو بكر خليفة رسول الله وقد بايعه الناس بعد النبي . ففى سنة واحدة

(١) أنظر كتاب ريت Early Christianity in Arabia صفحة ١٨١

أرسل (أسامة) فى بعث إلى الشام وكان موفقا منصورا، وأرسل خالدا ذلك القائد الشهم المغوار فقضى على مسيلمة الكذاب الذى ادعى النبوة فى بلاد اليمن، وكان النبي قد أوصى وهو على فراش الموت ألا يبقى فى بلاد العرب إلا دين الاسلام، والظاهر أن ذلك تم بلا تريث ولا مهل، فقد أخرج المسيحيون من الجزيرة ولم يبق منهم فيها أثر. وكذلك قضى على ما كان عندهم من العلوم والفنون والآداب[1].

وليست لدينا صورة كاملة عن الفنون فى بلاد العرب إذ ذاك ولكنا نستطيع أن نعرف شيئا عن تقدمها مما يروى لنا من وصف كنيسة صنعاء وهى التى نالها المسلمون بالأذى وهدموها، وهى من بناء (أبرهة الأشرم) عامل ملك الحبشة على بلاد اليمن، وذلك بعد منتصف القرن السادس بقليل. ويروى أن الملك كان شديد العناية بأمر بنائها وزخرفتها فكان يقضى الوقت كله نهارا وليلا فيها، وكانت تشبه كنائس الروم فى رسمها، فكانت الأعمدة العالية من المرمر الثمين تفصل ما بين وسطها وجناحيها وكان ما فوق الأعمدة من القباب وأعالى الجدران يزينه زخرف بديع من فسيفساء الذهب والألوان، وتحليها الصور. وأما أسفل الجدران فقد كان يغطيها إفريز من المرمر، وكذلك كانت الأرض، وكان المرمر من ألوان مختلفة منسقة تنسيقا جميلا. وكان المحراب يفصله حاجز من آبنوس مطعم بالعاج بديع النقش، وكانت نقوش الذهب والفضة تغطى البناء من داخله. وكانت الأبواب تغطيها صفائح من الذهب مساميرها من الفضة، أو صفائح من الفضة عليها مسامير كبيرة من الذهب. وأما الأبواب التى كانت تفضى الى المحاريب الثلاثة فقد كانت تغطيها صفائح كبيرة من الذهب عليها حلية من الجواهر، وكان على كل صفيحة من تلك صليب بارز من الذهب والجوهر

(١) هذا كان فى أول عهد عمر. وروى الطبرى أن أول بعث بعثه عمر بعث أبي عبيد ثم بعث يعلى بن أمية إلى اليمن وأمره باجلاء أهل (نجران) لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه بذلك ولوصية (أبي بكر) رحمه الله بذلك فى مرضه وقال "إئتهم ولا تفتنهم عن دينهم ثم أجلهم من أقام منهم على دينه وأقرر المسلم وامسح أرض كل من تجلى منهم ثم خيرهم البلدان وأعلمهم إنا نجليهم بأمر الله ورسوله أن لا يترك بجزيرة العرب دينان فليخرجوا من أقام منهم على دينه منهم ثم نعطيهم أرضا كأرضهم اقرارا لهم بالحق على أنفسنا ووفاء بذمتهم الخ (المعرب).

فى وسطه شكل خزامى من حجر أحمر وتحيط به زهور زخرفية من الذهب والجواهر ، أو من الميناء المختلفة الألوان . تلك كانت الكنيسة العظمى التى ساعد (چستنيان) (أبرهة) فى بنائها[١] ولم تكن كنيسة (أيا صوفيا) ذاتها بأعلى زينة ولا أبدع فى الصناعة منها .

ولعل هـذا الوصف المجمل يحمل الينا صورة من المدنيـة التى وجدها الاسلام فى بلاد العرب ، غير أن العرب كانوا عند ذلك لم يقبلوا على الصناعات والفنون ، ولم ينم لهم ذوق فيها ، ولذلك لم يدرك المسلمون من تلك الثروة العظيمة ومن ذلك الجمـال البارع إلا أنها كانت للغنيمة إذا كانت مما يغنم ، أو للتحطيم ان كانت صورا أو دمى . ولسنا نعرف على وجه البت فى أى وقت كان هدم هذه الكنيسة وسواها من أبنية النصارى . ويقول (ريت) إنه إن بقى فى جزيرة العرب أحد من النصارى فى سنة ٦٣٢[٢] فانه لم يبق بها إلا قليل ، ولم تكن الأبنية وقتئذ لتترك كما هى أو تتخـذ مساجد للسلمين كما حدث فى غير ذلك الوقت وفى البلاد الأخرى ، لأن الاسلام كان فى أول أمره شديد الوطأة على الدين المسيحى وآثاره يمحوها و يعفى أثرها كما كان قبل ذلك يوقع باليهود وعبدة الأوثان . ولا شك فى أن المسلمين كرهوا ما فى كنائس النصارى من كثرة الصور والرسوم المنقوشة بالألوان ، فحق لهم بعض الحق أن يخلطوا بين المسيحية وعبادة الأوثان . ومهما يكن من ذلك الأمر فقد أصبح المسلمون جميعـا فى جميع بلاد العرب وقبلتهم الكعبـة وإمامهم القرآن ، قد ضمهم دين واحد وحكم واحد فى عبـادة إله واحد ، سواء أكانوا قبل ذلك نصارى أو يهـودا من الفرس أو السودان أو العرب .

---

(١) أنظر كتاب (أبى صالح) صفحة ٣٠٠ — ٣٠١ وهامشها وقد يفهم من قوله وجود كنيسة كبرى فى أيامه ولكن من المؤكد أنه أخذ عن الطبرى ولعله أخذ عن نسخة خطية أقدم مما عندنا اليوم .

(٢) أنظر (أوكلى) صفحة ١٨٧ ومع ذلك فهو ينقل عن (أسمان) أن صنعاء كان لها أسقف فى القرن الثامن وأن اليمن كان له قسيس فى القرن العاشر . ولعل الأسقف كان أسقفا اسما وكان منفيا أو غريبا وقد نجد وصفا حسنا للسيحية فى العرب قبل الاسلام فى كتاب (F. M. E. Pereira) "Historia das Martyres de Nagran."

وكانت دولة العرب التي قامت عندذلك دولة حلفاء عدّة يضمها حكم جمهورى، وذهبت مكة بزعامتها. وقد رأى (أبو بكر) وزعماء المسلمين ما رآه النبي من قبل، وذلك أنهم إذا شاءوا أن يحفظوا على الدولة تماسكها ويتموا عليها اتحادها فلا بد لهم أن يبعثوا البعوث لغزو ما يليهم من البلاد. وكانت بلاد فلسطين للعرب بلادا موعودة كما كانت تلك الأرض موعودة لليهود، أرضا تفيض لبنا وعسلا. وكان حب القتال غريزة فى العرب، وقد زادهم توقدا إيمانهم بأن عليهم واجبا دينيا يؤدّونه. فاجتمعت لهم صفتان ما اجتمعتا فى قوم إلا صار بأسهم شديدا فلما اجتمعتا للعرب أصبحوا ولا يكاد شيء يقف فى سبيلهم.

وكتب أبو بكر الى رؤساء القبائل من العرب لانتداب الناس الى المدينة ليخرجوا للقتال، وقال لهم إنه بعث اليهم ليخبرهم أنه قد عزم على أن يرسل المؤمنين الى بلاد الشام لينتزعوها من أيدى الكافرين، وأنه يعلمهم أن الجهاد فى الدين طاعة لأمر الله[1]. فما هو إلا قليل حتى اجتمع لديه جيش عظيم، ثم عقد عليه ليزيد بن أبى سفيان، وكان عمرو بن العاص على قسم منه[2]. وكان عمله هذا جراءة عظيمة فانه حادّ دولتى الفرس والروم وأغزى العرب بلادهما. ولكن الأمر كان أهون فى الحقيقة مما يلوح للناس، فانه من الخطأ أن نتصور أن العرب قبل الاسلام كانوا كلهم يعبدون الأوثان، كما أنه من الخطأ أن نتصورهم جميعا فى عزلة عن العالم تفصلهم عنه مفازات الصحارى، ويعيشون فى أرضهم لا يعرفهم أحد، ثم جاء الاسلام فقوى جموعهم على اقتحام الفيافى والخروج الى أمم العالم يغزونها، فليس شيء أبعد من هذا عن الحقيقة. ولا شك فى أن ضعف أسدى الروم والفرس وما كان بين النصارى من الشحناء

---

(١) أوكلى صفحة ٩٣.

(٢) جاء فى رواية الطبرى: "فأمد عمرا ببعض من اجتمع اليه وأمره على فلسطين وأمره بطريق سماها الخ وكتب الى الوليد (بن عقبة) وأمره بالأردن وأمدّه ببعضهم ودعا يزيد بن أبى سفيان فأمره على جند عظيم هم جمهور من انتدب له وفى جنده سهيل بن عمرو وأشباهه من أهل مكة وشيعه ماشيا واستعمل أبا عبيدة بن الجراح على من اجتمع وأمره على حمص وخرج معه وهما ماشيان والناس معهما وخلفهما" (المعرب).

والبغضاء ، وما انبعث فى نفوس العرب من الإيمان وما كان فيهم من حب الفىء والغنيمة فى هذه الحياة ، وما كانوا يأملونه من نعيم الآخرة، لا شك فى أن ذلك كله كان عاملا قويا على فوز غزاة العرب فى غزاتهم . ولكن لعله قد كان أكبر من كل ذلك أثرا فى فوزهم أنهم كانوا يمتون بصلات وشيجة من قرابة الجنس الى طائفة كبيرة من أهل البلاد التى غزوها، فقد كان العرب منذ الأزمنة الغابرة ينزحون الى ما يلى بلاد الفرس والشام ، وإلى ما بعد الحدّ الفاصل بين الاقليمين من الشرق، فيقيمون بتلك الأرض أحيانا ويضربون فى أنحائها أحيانا أخرى ، وينتجعون بلاد الدولتين فيجوسون خلالها التماسا للتجارة أو يشنون عليها الغارة (١). وكان بعض هذه القبائل العربية يدين لهرقل بطاعة لا تتعدّى اسم الطاعة، وعلى مثل تلك الحال كان بعضهم مع كسرى . على حين كان بعضهم معتزلا لا الى هؤلاء ولا الى أولئك . وكانوا جميعا لا يحجمون عن نصرة أى الدولتين بسيوفهم إذا تبين لهم وجه النفع معها (٢). وكانت طلائع جيوش هرقل من العرب فى حين أن منهم قوما كانوا يغيرون على آسيا الصغرى ، وهم قوم "طوال الشعر" ذكرهم (جورج البيسيدى (٣)) . وكان أوّل نصر لهرقل يوم انتصر على هؤلاء ، وقيل إن جل جيش الروم فى (مؤته) كان من العرب، وكانت منهم كتيبة خيل بارعة مع كسرى تساعده على فتح الشام ومصر .

فوجد الاسلام على ذلك بين هؤلاء العرب الضاربين على التخوم عدّة عظيمة من رجال الحرب شبيهين بما كان فى بلاد العرب ذاتها من جنده . فما كان على المسلمين إلا أن يدخلوا هؤلاء العرب فى الاسلام، ويشعروا قلوبهم عقيدتهم، ويثيروا فيهم

(١) نقرأ فى أخبار القرن الرابع نفسه أن العرب كان لهم شأن يذكر فى الدفاع عن القسطنطينية وصدّ القسوط عنها (أنظر كتاب الدكتور Hodgkin وهو "Italy and Her Invaders" الجزء الأوّل صفحة ٢٨٤ (أكسفورد ١٨٩٢) .

(٢) وهكذا يقول (زكريا المتليني) أن العرب أغاروا على أرض الدولة الرومانية بأمر من ملك الفرس (صفحة ٢٠٦) ثم فى صفحة ٢٣٢ نقرأ عن "أهل بلاد العرب" وأنهم يحاربون مع جستنيان ليخمدوا ثورة السماريتانيين .

(٣) كتاب "De Exped. Pers. Acro." الجزء الثانى صفحة ٢٠٩

روحه فيصحبوا لهم عيبة ومسلحة . ولم يكن الأمر فى أوّله بالهين فقد كان أكثر هؤلاء العرب نصارى[١]، وكان كثير منهم يقاتلون مستميتين فى سبيل دولة الروم ودين المسيح[٢]، غير أنه قد كان منهم من آثر علاقة الجنس ، أو كان غير حريص على دين لم يفقـه فيه، فى حين أنه قد كانت منهم طائفة انحازت على حذر، فلم تكن مع هؤلاء ولا مع أولئك، متربصة حتى يتبين لها لمن الغلبة، فتكون مع الظافر وهى آمنة . ومهما يكن من الأمر فقد كانت صلة الجنس تجعل رجحان الميل الى المسلمين .

ولعلنا نجد عذرا اذا نحن سقنا بعد ذلك رأيا آخر نمهد به بجملين وذلك أن فوز المسلمين كان له سبب آخر ألا وهو ما حل بالمسيحيين من الخذلان والوهن، وهو يعدل فى شدته ما كان عند المسلمين من إيمان وقوّة . قال (فيدرينوس) "على حين كانت الكنيسة تحتوشها الملوك ومن لا يخشون الله من القسوس خرج من الصحراء عملاق ليعاقبنا على ذنوبنا" هـذه كلماته التى ذكر فيها نشأة الاسـلام وهى كلمات قليلة ولكنها تدل على أن المسيحيين كانوا يشعرون أن محمدا كان رسـولا من الله ، أو هو على الأقل سوط من الله أرسله عليهم . وهذا شعور يظهر على لسان كثير ممن كتب من المسيحيين فى ذلك الوقت، أمثال (سبيوس) الأرمنى[٣] . وانه لأمر معروف

(١) كان القديس (سيمون استيليتس) عربى المولد وهو مثل من أمثلة التعصب فى المسيحية وانا والحق نشعر بشىء من التردّد فى وصفه بهذا الوصف لأنه قد ضحى تضحية مدفوعا بدافع طيب وان كان مخطئا .

(٢) أنظر مثلا رواية (أوكلى) عن وقعة اليرموك صفحة ١٩٤ وما بعدها وانظره كذلك لما جاء عن العرب المسيحيين فى صفحات ١٤٤ — ١٤٥، ١٧٢، ٢٢٨ — ٢٢٩، ٢٣٢ الخ ويحكى (حنا مسكوس) قصة رجل غريب لقى امرأة أعرابية فسألها عفوا قائلا "مسيحية أم وثنية ؟" (Pr. Spit. Cap. 163) وهذا كان بالطبع قبل الاسلام ولكن بعض طوائف العرب المسيحيين بقيت فى فلسطين الى ما بعـد فتح العرب لها فان (أبا الفرج) يذكر أسقفا لقبائل المسيحيين فى أول القرن الثامن (كتاب أبى الفرج تاريخ الكناس) (الجزء الأول المجموعة ٢٩٤) .

(٣) نورد قوله وهو قول عجيب : " فى ذلك الوقت ظهر رجل من ولد اسماعيل اسمـه محمد كان تاجرا وقال للناس إن الله أرسله بدعوة الحق — ولما كانت الدعوة من الله اجتمع الناس بأمره ودانوا لشريعته وهجروا عبادة الأوثان الباطلة وتابوا الى الله الحى القيوم الذى ظهر لأبيهم ابراهيم وقد أمرهم محمد ألا يأكلوا الموقوذة ولا يشربوا الخمر ولا يكذبوا ولا يزنوا" والعجب فى أن (سبيوس) كان مسيحيا وكان فوق ذلك أسقفا .

انه اذا نزلت بقوم نازلة من هزيمة قالوا ان ما أصابهم كان عقابا على ذنوبهم . وان من فكر وجد أن هذا القول لم يخطئ الصواب ولم يبعد عن الحقيقة ولكن يلوح لنا أن في قول هؤلاء الكتاب شيئا من الحزن المبرح أكثر مما نراه فى مثل هذه الأحوال. فإنهم يحسبون أن النصارى قد وزنوا والعرب فى كفتين فرجح العرب وشالت كفتهم، وأن المسيحيين قد أصبحوا غير جديرين بأن يكونوا دون غيرهم هداة الناس الى سبيل الله . وليس من العسير أن تدرك كيف قوى الاسلام بما وقع فى قلوب المسيحيين من هذا الخوف وتوقع البلاء، فقد كان قسوسهم وجندهم فى ذلك سواء . وقد كان (لوقا) الذى أسلم مدينة حلب للعرب ممتلئ القلب بما علمه قسيس من أنه كان محتوما أن يفتح العرب البلاد، وكان (بازل) الذى أسلم مدينة صور قد أخذ عن الراهب (بحيرى) ما جعله يترك الروم ويوصى أهل الدولة الرومانيـة[1] بدين الاسلام . وهتان الروايتان قد جاءتا عن طريق العرب، وقد تكونان هما وأمثالها أقاصيص وهمية لا حقيقة لها، ولكنها تدل على أمر واحد لاشك فيـه ولا يكذبه التاريخ ، وذلك أنه قد شاعت نبوءة بين بعض المسيحيين فارتجفت لها أفئدتهم، وهى أن الاسلام حق وأن نصره محقق .

---

(١) كتاب (أوكلى) صفحة ٢٣٠ و ٢٥٢

الفصل الثانى عشر

فتـــح العـــرب للشـام

هرقل لا يدع فرصة تفوته — رحلته إلى أذاسة — اضطهاده للخارجين على مذهب الدولة — يولى (صفرونيوس) بطريقا لبيت المقـدس — وفود التهنئة إلى (هرقل) — حلف العـرب واليهود — فتح دمشق — (خالد) يهزم (تيـودور) — وداع هرقل للشـام — استنقاذ الصليب الأعظم — تسـليم بيت المقـدس لعـمر

لما انقضى مقام هرقل فى بيت المقدس وعاد أدراجه إلى الشمال فى (فلسطين)، لم يكن بعد قد بدا له ما فى الاسـلام من خطر عليه . وقد كان النبى (عليه الصلاة والسلام) عند ذلك قد فاز ونشر الاسـلام فى جزيرة العرب، وبلغ ظل الاسلام أكناف الدولة الرومانيـة . ولكن الامبراطور لم يرفى ذلك إلا ما اعتادت الدولة أن تصمد له من غارات أهل الصحراء، وكان هذا أمرا مألوفا . فإنه لو أدرك عند ذلك حقيقة مافى ثنايا الاسلام من الخطر، لكان قد سارع إلى منازلته، ولعله كان يستطيع أن يقضى على دولة العرب فى أول نشأتها ويمحو أثر الاسلام (١) من التاريخ لو كان اتخذ الحيطة وأعدّ العدّة قبل فوات وقتها . وكانت قوة عقله تمكنه من ذلك وعنده موارد المـال لاتزال مع ما نزل بها من ضعف كافية لمـا كان دونه .

ولكن قضى الله أن ذلك لا يكون . فإن واجبه كان يناديه أن يسرع بالسير من الجنوب، وكان قلبه مهموما بأمر البلاد التى على أكناف الدولة وتنظيمها حسب نصوص المعاهدة مع الفرس، وكذلك كان عليه أن يدبر أمر الأموال وأمر الحكم فى كل البـلاد الشرقية التى اضطربت أمورها فى مدّة سنوات الحـرب الست .

(١) جاء فى الأصل : « ويمحو اسم محمد » .

وكان فوق كل ذلك يحب أن ينفــذ ما اختمر فى ذهنه منــذ زمن طويل من أمر الديانة المسيحية وتوحيد مذاهبهــا ، حتى يقوم التوحيد على الوفاق لا على الجــبر والاضطرار . وكان يظن أن زعماء الكنيسة يستطيعون أن يخلقوا صورة جديدة من المذاهب تخلب الألباب وتسحرها، فإذا ما تم له صهر مذاهب الخارجين وأهل الشقاق والخــلاف وأخرج منها مذهبا خالصا مصفى لا يدخل إليــه الخلاف من بين يديه ولا من خلفه ، كانت عند المسيحية قوّة لا تقف دونها قوّة أعداء الدولة والصليب !

وسار الامبراطور عند منصرفه من بيت المقدس إلى جزيرة ما بين النهرين[١] وكان طريقه عن دمشق فحمص فمدينة (بيرويه) فهيراپولس فأذاسة . وكانت (أذاسة) موطن آبائه وكانت موطن القديس (أفريم) أبى الكنيسة (السورية)[٢]، وكذلك كانت مشهد اليعاقبة (المونوفيسيين) لأنها كانت مقرّ (يعقوبوس بارودايوس) . وكان ذلك المذهب هو السائد فى الأديرة المجاورة وعدّتها ثلثمائة ، وفى معظم بلاد أرمينيا والشام ومصر. وكانت اذاسة فوق كل ذلك موضعا ذا خطر عظيم فى السياسة لوقوعها بين دجلة والفرات ، وقربها من بلاد الأرمن والفرس وسوريا، فلم يكن بلد أصلح منها لمــا عزم عليه الامبراطور من الأمور .

وحوادث هذه المدّة ذات عقد يتعذر على المرء أن يحلها ، فإنه قد يستبين خيطا منها فى ديوان من الدواوين، وبضعة خيوط أخرى فى ديوان ســواه، ولكن تلك الخيوط لا صلة بينها ، ولذلك يصعب على الانسان مهما أوتى من الصــبر والأناة أن يسوّيها ويجمع بينها . وعلى كل حال فإنا نستخلص أنه فى سنة ٦٣١ ذهب الامبراطور إلى (هيراپولس) وبدأ فيهــا تحقيق ما كان يرجو انفاذه من توحيــد الكنيسة، واختار (اثناسيوس) رئيسا لأساقفة (أنطاكيــه) وجعل (قيرس) رئيسا

(١) ســبيوس .

(٢) درا پيرون صفحة ٢٨٦ وانظر كذلك صفحة ٢٩٩ لمــا سيأتى بعد .

لأساقفة الاسكندرية . غير أنه أخطأ خطأ كبيرا فى اختيار (قيرس) هذا ، وسنصف بعد قليل سيره الى مصر ، ونرى أى نكبة حلت فى تلك البلاد بما كان الامبراطور يسعى لتحقيقه من الآمال . فإنه لقى مقاومة ومخالفة من كل جانب ، فخالفه الزعيم الملكانى (صفرونيوس) وشيعته ، وخالفه كذلك كل القبط قسوسهم وعامتهم . وسنرى بعد ذلك كيف انقلب (قيرس) فقلب للقبط ظهر المجن ، وحارب مذهبهم اذ رأى أنه لم يستطع أن يدخلهم بالحسنى فى المذهب المونوفيسى ، وشرع يحملهم على الخروج من مذهبهم جبرا واضطرارا بالعسف والاضطهاد .

وكان الأمر فى بلاد الشام على ما كان عليه فى مصر إذ أخفق سعى الامبراطور هنالك ، فأراد حمل الناس على ما أراد بالاضطهاد ، فكان (قيرس) بعسفه واضطهاده يهدم ما بناه هرقل بحروبه وفتوحه ، ويمهد السبيل للاسلام فى مصر ، على حين كان الاضطهاد فى الشام يمهد السبيل له هناك . غير أن الأمر فى بلاد الشام لم يبلغ من الشدّة ما بلغه فى مصر ، فقد كان (أثناسيوس) صاحب كياسة وأناة وكان (قيرس) خلوا منهما . وكان لوجود الإمبراطور نفسه فى الشام أثر فى تخفيف حدّة الخلاف ومنع الخروج[1] ولكن لم يمض كبير زمن حتى ظهر الضرر المحقق الناشئ من سعى الإمبراطور

(١) يورد أبو الفرج (ابن العبرى) رواية مخالفة لهـذه لما كان بين الامبراطور وأنستاسيوس من العلاقة (تاريخ الكنائس الجزء الأول المجموعة ٢٧١ — ٤) ويقول ان الامبراطور حرم من الاتصال بالمؤمنين فى أذاسة وأن فى (مبوج) جاء (اثناسيوس) ومعه اثنا عشر أسقفا وعرضوا مذهبهم على (هرقل) فقرأه ومدحه ولكنه أوعز اليهم أن يقبلوا مذهب (خلقيدونيه) ولما أبوا ذلك كتب (هرقل) أمرا الكل الدولة قال فيه :

"كل من يأبى الطاعة للجمع يجدع أنفه وتصلم أذناه ويهدّم منزله" فدخل كثيرون عقب ذلك فى مذهب المجمع وسار أهل حمص وسواها فارتكبوا كثيرا من أعمال الوحشية وأحرقوا كثيرا من الكنائس والأديرة وان من الصعب أن نفهم سبب هذا ولكن هـذه الرواية جاءت فى كتاب رجل لا يعرف عنه ميل الى آراء المونوثيليين التى كانت تعزى الى (اثناسيوس) والتى كان بلا شك يعتقدها ولكنه قد خرج عليها فيما بعد وأما فيما يتعلق بالصعوبة الأخرى وهى أن (اثناسيوس) كان بطريق أنطاكية قبل أن يتفق أى اتفاق مع (هرقل) فقد رأينا أن زيارته لمصر بصفته بطريق أنطاكية كانت بسنة ٦١٥ ونظن أن تفسير الأمر كله كما يأتى : لما فتح =

فى أمر الكنيسة . وقد توسل الحبر القدير (صفرونيوس) الى (قيرس) توسلا حارا ليعدل عن عسفه فلم يجده ذلك شيئا ، فسافر الى القسطنطينية لكى يخاطب البطريق (سرجيوس) فى ذلك الشأن ، وكان (سرجيوس) من خير من ولى أمر الكنيسة الشرقيـة وأوضحهم عقلا . ولكنه كان صاحب المذهب المونوثيـلى الذى أراد به التقريب بين المذاهب ، ولم يكن ليستطيع إنكار ذلك المذهب ، وحاول أن يقنـع (صفرونيوس) أو يستميله بكل ما أوتى من قوة فى الحجة وبلاغة فى الخطاب وخلابة فى الخلق ولكنه لم يفلح وعاد (صفرونيوس) الى الشام آسفا كثيبا .

ولعـله ذهب بعد ذلك الى (هرقل) ليبذل معه من الجهـد مثل ما بذل مع (قيرس) و (سرجيوس) ، ولكن لايذكر التاريخ حدوث ذلك اللقاء بينهما . أما نحن فنرى أنه لا بدّ أن يكون قد حدث ذلك اللقاء فهـو يتفق مع سائر ما نعـرف من الحوادث ، و بغير حدوثه لا يمكن أن نفسر العلة التى من أجلها اختار (هرقل) (صفرونيوس) ليكون كبير أساقفة (بيت المقدس) ، وقد بقى ذلك المنصب شاغرا منذ مات (مودستوس) فى سفره الى الشمال مع الإمبراطور . ومهما يكن من الأمر فانه من المحقق أن (صـفرونيوس) لم يخفف من وطأة عداوته للمذهب المحـدث مذهب الوفاق ، وكان من أول ما قام به بعـد ولايته أنه جمع رجال الكنيسة وقال فيهم كلمة طعن فيها بدعة الإمبراطور وندّد بها فى غير حيطة ولا هوادة ، وحكم بالخروج على البطارقة الذين اتبعوها (١) ، لأن (صفرونيوس) لما قبل أن يلى إمرة الدين فى بيت المقدس كان يظن من غير شك أن الإمبراطور سيعدل عن بدعة (المذهب المونوثيلى) ويعود الى مذهب السـنة (الأرثوذكسى) ، فى حين أن الإمبراطور كان يظن أنه

= الفرس بلاد الشام فى سنة ٦١٤ عزل (اثناسيوس) عن ولاية الدين فعلا وان لم يكن شرعا وما كان ليعود الى ولايته إلا بعد الصلح بأمر من (هرقل) وقد رضى الامبراطور باعادته مع أنه (مونوفيسى) على شروط الاتفاق الذى وقع بينهما فرضى (اثناسيوس) بهذا ولكنه بعد رجوعه الى الولاية رأى أنه لا يستطيع أن يحمل الناس على ما ركب هو فرجع عن الاتفاق رجوعا صريحا — فقابل الامبراطور ذلك بأن أمر بالاضطهاد .

(١) انظر ما كتبه صفرونيوس فى مقالة (Epistola Synodica ad Serguim) وقد ذكرها مينى فى كتابه (Pat. Gr.) الجزء ٨٧ (٣) المجموعة ٣١٩٣ .

سيستميل (صفرونيوس) باختياره للولاية الدينية كما استمال (اثناسيوس) من قبل . ولعل هـذه كانت أشأم زلة زلهـا (هرقل) لا تفوقها إلا زلته الأولى وهى اختيار (قيرس) . وليس من المبالغة أن نقول إنها تكاد تكون السبب فى ضياع فلسطين كما كان اختيار (قيرس) سببا فى ضياع مصر .

إنه من الممكن أن نلتمس لهرقل العذر فى زلاته هـذه اذا نحن ذكرنا أنه إنمـا اقتحمها اقتحاما وهو يقصد الى غاية سامية ويدفعه باعث نبيل . ولكن على أى حال قد أدّى الأمر فى مصر والشام الى أن الإمبراطور عند ما أخفق فى سعيه عمد الى التضييق على معارضيه تضييقا مرا، ولم تبق إلا خطوة واحدة بين هذا التضييق وبين الاضطهاد . ولم تكن نفسه الوثابة لتتردّد فى أمرها وقد جرح الفشل عزتها فأثارها . قال أبو الفرج : "ولمـا شكا الناس الى هرقل لم يجب جوابا، ولهذا أنجانا الله المنتقم من الروم على يد العـرب فعظمت نعمته لدينا أن أخرجنا من ظـلم الروم وخلصنا من كراهتهم الشـديدة وعداوتهم المرة[(١)] . على أن كنائسنا لم ترجع إلينا لأن العرب أبقوا كل طائفة من المسيحيين على ما كان فى يدها عند فتحهم للبلاد" . وإنه لمن المحزن أن يقرأ الانسان مثل هذا الترحيب من قوم مسيحيين بحكم العرب وزعمهم أن ذلك كان تخليصا لهم ساقه الله إليهـم ليخرجهم به من حكم إخوان لهم

(١) انظر الكتاب المذكور فى موضع ذلك القول صفحة ٢٧٤ فان أبا الفرج كتب كرجل (مونوفيسى) سورى . ويظهر الكاتب نفس الروح فى مواضع أخرى (انظر مجموعة ٢٦٦ و ٢٦٧) . وفيها يقول ان كسرى انضم الى المونوفيسيين السوريين فطرد أتباع مذهب خلقيدونية من الأساقفة من الأرض وأعاد كل الكنائس التى كان (دومتيان) أسـقف (ملتينا) قد أخذها من المونوفيسيين فى أيام موريق فمحا ذكر الخلقيـدونيين من حدود الفرات شرقا فان الله قد أخذهم بجريرتهم فنالوا على يد الفرس جزاء ما جنوه من الآثام . وهذه هى القصة القديمة للسيحيين اذ يضحون ببلادهم وشعبهم ودينهم لكى يفوزوا على شيعة منافسة لهم من شيع المسيحيين وهكذا نجد مطرانا نسطوريا بعد أخذ دمشق بخمسة عشر عاما يقول فى كتابه "وهؤلاء العرب الذين أعطاهم الله السلطان فى أيامنا لا يحاربون دين المسيح بل هم يدافعون عن ديننا ويجلون قسوسنا وقديسينا ويهبون الهبات لكنائسنا وأديرتنا" وكانت الكنيسة الكبرى فى دمشق اذ ذاك يستعملها المسلمون والمسيحيون على حدّ سواء (انظر كتاب دى جوجه "Conquête de la Syrie" صفحة ٨٤) .

فى المسيحية . ولكن ذلك يظهر بجلاء قاطع أن سعى الامبراطور فى توحيد طوائف الكنيسة كان سعيا باطلا غير ممكن وأنه لا شك جرّ عليه الدمار والوبال .

بقى علينا أن نذكر الزلة الشائنة الكبرى وقد سبق أن أشرنا اليها وهى مقتلة اليهود، وكانت تلك أولى زلاته من الوجهة التاريخية، وكانت كذلك أوّل ماجنى منه الثمر الوبيل . فانه بعد احتفال إعلاء الصليب فى بيت المقدس بزمن يسير أمر بنفى اليهود أو قتلهم فأتى بعضهم نبأ ذلك فهرب من استطاع الى الصحراء فيما بعد نهر الأردن وتربصوا هناك الدوائر بأعدائهم . وكانت قلوبهم تتقد بنار الغيظ وطلب الثأر وهم على تربصهم هذا، حتى لاحت لهم أعلام الاسلام وهى طالعة فرحبوا بهذه الجموع التى جاءت تطلب قتال الدولة الرومانية .

وفيما كانت السحب الدكناء تتعالى بعضها فوق بعض على أفق الدولة كانت أعمال هرقل قد طبقت شهرتها الخافقين، وجعل الملوك من أقاصى الأرض فى الشرق والغرب من الهند ومن فرنسا[1] يرسلون اليه الرسل والهدايا الثمينة وآيات الاعجاب . ولكن الامبراطور ما لبث أن عرف أن القضاء يسخر منه، فانه ما كادت تمثل بين يديه آيات خضوع العالم وإعجابه حتى كان العرب يقرعون أبواب الشام قرعا عنيفا وحتى كان ابنه من صلبه (أثالاريك) يكيد له مشتركا مع ابن أخته (تيودور) وجماعة من الأرمن يريدون خلعه ثم قتله . وقد فشا أمر المتآمرين، أفشاه أحدهم وكان عقاب المجرمين أن قطعت أنوفهم وأيديهم[2] اليمنى إلا من ثم عليهم فانه جوزى بحكم أخف وطأة وهو النفى وذلك لأنه لم يوافقهم على أمر قتل هرقل[3] .

ويلوح لنا أنه قد حدث بعد هذا وبعد سفر هرقل الى أذاسة أن اجتمع اليهود فى تلك المدينة، وقد روى (سبيوس) أن قبائل اليهود الاثنى عشرة كان لكل

(١) (Drapeyron) صفحة ٢٢٨

(٢) اذا أردت قراءة شىء عن فظاعة بعض هذه العقوبات التى لاتزال فى القانون اقرأ كتاب الأستاذ (Bury) "Later Rom. Emp." الجزء الثانى صفحة ٣٩٠ وكذلك ما جاء فى هامش ص ٥٢٩ من كتاب جبون الذى نشره الأستاذ الجزء الخامس على القانون الرومانى الاغريقى .

(٣) جاءت هذه القصة بتفصيل عظيم فى كتاب سبيوس .

منها من ينطق بلسانها فى ذلك الاجتماع . ورأى اليهود أن المدينة خالية من الجنود، فان جنود الفرس خرجوا منها ولم تحل محلهم مسلحة من الرومان، فأغلقوا أبواب المدينة، واصلحوا حصونها وحادّوا الأمبراطور وجنوده . فحاصرهم هرقل ولم يلبثوا أن نزلوا على حكمه فمن عليهم ولم يشتط فى شرطه، بل سمح لليهود أن يعودوا آمنين الى موطنهم . ولكنهم لم يطيعوا بل ذهبوا الى الصحراء واتفقوا مع جند الإسلام وصاروا لهم أدلاء فى تلك البلاد.[1] ولا بد أن ذلك كان فى سنة ٦٣٤ حين كان العرب قد دخلوا بلاد الفرس بقيادة خالد بن الوليد .

فلما اتفق اليهود مع العرب طلب الى هرقل أن يعيد أرض المعاد الى أبناء ابراهيم، وهدّد أنه إن لم يفعل أخذوا منه تراثهم وزيادة، ولم يكن لهذا الطلب إلا رد واحد وهو الحرب . وهزم الروم بقيادة (تيودور) فى (جبته) وأعقب ذلك انهزامهم الأكبر عند (اليرموك) فى أوّل سبتمبر سنة ٦٣٤، وقد مات أبو بكر قبل ذلك فى شهر يوليه وولى الأمر بعده الخليفة عمر بن الخطاب، وكان العرب قد فتحوا (بصرى) وجاءوا بعد اليرموك الى دمشق وهى العاصمة القديمة لبلاد الشام، فحاصرها خالد حتى أسلمها لهم حاكمها (منصور) على عهد ضمن لأهلها سلامتهم وما يملكون، وأبقى فى أيديهم كنائسهم لا ينازعهم فيها منازع، وكان هذا فى سنة ٦٣٥، وقد روى أحد المؤرخين[2] "إن جميع المطارنة والبطارقة فى كل البلاد لعنوا (منصورا) هذا لأنه ساعد المسلمين"

(١) ورد هذا الخبر فى (سبيوس) ويوافق مؤرخ آخر أرمنى اسمه (جيفوند) على أن اليهود دعوا العرب ليخرجوا الروم من فلسطين وكان (جيفوند) من أهل القرن الثامن وقد طبعت منه ترجمة فرنسية فى باريس نشرها (شاه نزاريان) فى سنة ١٨٥٦ ويقول (درابيرون) صفحة ٣٢٧ أنه حدثت مذبحة جديدة لليهود فى (أذاسة) ويروى الخبر عن سبيوس ولكنى لم أجد مثل هذا الخبر فى سبيوس ويظهر أن ثورة اليهود هذه هى ثورة العرب التى وصفها ثيدرينوس وقال إنها حدثت بعد موت النبى . وكان هؤلاء العرب فى خدمة الأمبراطور لكى يحرسوا طرق الصحراء فلما قطعت عنهم وظائفهم «أساءهم ذلك ونزحوا الى قومهم وذهبوا الى أرض غزة قاصدين الى الصحراء التى فى طريق جبال سيناء» * (٢٣) .

وعلى أى حال قد ساعدت هذه الثورة التى قام بها العرب جيوش المسلمين كما ساعدهم خروج اليهود على الدولة واذا أردت أن تقرأ عن اضطهاد هرقل لليهود اضطهادا مطردا فاقرأ كتاب الأستاذ (Bury) (Later Rom. Emd) الجزء الثانى صفحة ٢١٥

(٢) هو سعيد بن بطريق .

وكان هرقل قبل تسليم المدينة قد أرسل جيشا عظيما بقيادة أخيه (تيودور) وكان جيشه أكبر عددا من جيش المسلمين، فقاتل خالدا أشد قتال وظل النصر متردّدا بين الفريقين حتى انتهى الأمر بفوز المسلمين وانهزمت جيوش الروم فلم يبق لها أثر. وجاءت أنباء الهزيمة إلى هرقل وهو فى أنطاكية[1]، فعرف أن الأمر قد أفلت من يده وأن الله قد خذل الامبراطورية وأصبح غالب الفرس الوثنيين وقد غلبه العرب الذين لا يتبعون دين المسيح[2]. ومما زاد ألمه شدة علمه أنه ارتكب خطيئة بزواجه من ابنة أخته (مرتينة)، وأن جسمه آخذ فى الاعتلال والانحلال. ولسنا نجد تفسيرا غير هذا نبين به سبب قعوده وتهاونه، فقد كان من قبل رجلا تلقاه أبدا فى الصدر كلما ثارت الحرب ودعاه الناس لاتذين بسطوته فى القتال ودرايته بكل أموره. ولو لاقاه خالدبن الوليد "سيف الله" منذ ست سنوات للقى فيه قرنا كفيئا، ولكان فى حربه أغزر حيلة وأبرع مكيدة، ولصمد لشجاعة قواد العرب البدوية فزلزلها وأوقع بها. ولكنه (فى ذلك الوقت الذى جاء فيه العرب) لم يتحرك ولم يقد جيشا ليلقاهم به، فكأن يده كانت عند ذلك مغلولة وكأن عقله كان مفلوجا. وقد جمع (كبار) قومه فى حفل حافل فى كنيسة انطاكية يستشيرهم فيما يعمل، فقام شيخ أشيب وقال "إن الروم يعذبون اليوم لعصيانهم كتاب الله وتطاحنهم فيما بينهم وتخاذلهم ولما يرتكبونه من الربا والقسوة — وكان حتما عليهم أن يؤخذوا بذنوبهم" فكان قوله هذا فصل الخطاب، فأحس الامبراطور من نفسه بضعف الجسم ووهن العقل، ورأى الحظ يتعثر به، وعرف أن مقامه بالشام قد أصبح لا غناء فيه، فرحل عنها الى القسطنطينية فى البحر فى شهر سبتمبر من سنة ٦٣٦[3]، وقال إذ هو راحل "وداعا

(١) لعل هذه هى الرواية المستقربة ولكن (قيدرينوس) يقول أن تيودور عاد بعد هزيمته الى ملك أذاسة ويقول جون وقوله عجيب "وقد أيقظته من سباته فى قصره فى القسطنطينية أو فى أنطاكية غزوة الشام" (الفصل ٥١).

(٢) جاء فى الأصل كلمة (The unbelieving Saracens) وهذه لا يمكن ترجمتها حرفيا لأن ذلك يغير الحقيقة.

(٣) أنظر كتاب (De Goeje) وهو (Conquête de La Syrie) صفحة ١٠٢ وقد جاء فيه أن تاريخ سير هرقل كان فى شعبان سنة ١٥ للهجرة ولكن الدليل على أن سفره كان فى البر غير قاطع.

يا بلاد الشام وداعا ما أطول أمده". وإن في تلك القالة المعروفة التي قالها لرنة من الأسى، وكأننا بها تحمل ما كان يدور في نفسه من أن مجده الغابر ونصره الباهر قد انتهيا بعد بالخذلان والعار، وإنه إذ يقولها ليودع عزه وسطوته. وإن ذلك ليذكرنا بنابليون وما أحس به من الألم إذ هو على ظهر السفينة (بلريفون) ينظر الى وطنه فرنسا نظرته الأخيرة (١). والحق أن فيما بين ذينك القائدين العظيمين لشبها من وجوه عدّة في اضمحلال جسمهما وضياع قوّتيهما على القتال. ولكن نابليون ظل إلى آخر مواقعه وهو ملك يقود جيوشه، في حين أن هرقل أضاع قواه سدى في نضال لا فائدة فيه أراد به توحيد الكنيسة، فلم يستطع أن يجمع ما بقى من قوى الدولة أو يقود جندها إذا ما أزفت ساعة الخطر واشتدت الأزمة. فبقى في شدّته ثلاث سنين خبت فيها آماله وذوت قوّته وصوّح نشاطه، وعلا أمر الاسلام تحت بصره وسمعه ولم يتحرك لمقاومته، فما زال الاسلام يعلو حتى طوى دولته تحت ظله.

ويذهب معظم المؤرّخين مذهب مؤرّخى اليونان، أو لعلهم أخطأوا تأويل ما قصدوه في رواياتهم، فيقولون إن هرقل صحا بغتة من سباته واندفع الى بيت المقدس لا يلوى على شيء لكى ينجى الصليب المقدّس من أيدى أعدائه (٢). وليس ثمت

(١) أنظر كتاب لورد روزبرى "نابليون" صفحة ١١٢ (طبعة لندن ١٩٠٠).

(٢) قال درابيرون في صفحة ٣٢٩ "وقد جرى هذا الطريد القوى الى جبل الزيتون فنزع الصليب المقدّس من البطريق صفرونيوس صاحبه وسار في لبنان بين الناس الذين أدهشهم صنعه" وقد أخذ نبذا من نيقفوروس وتيوفانز وقيدرينوس وسويداس — ويذهب (ليبو) الى هذا الرأى ويقول الأستاذ (بورى) في كتاب الدولة الرومانية المتأخرة (الجزء الثانى صفحة ٢٦٦) "إنه استطاع مع قرب العرب أن يسرع أن بيت المقدس ويأخذ الصليب اذ عزم على أن يحول بينه وبين الوقوع في يد الذين لا يؤمنون بالمسيح" وإنى أجرأ فأقول إن هذا كله وهم ولنبدأ بما قاله نيقفوروس فان كل ما قاله عن حركات هرقل خطأ في خطأ فانه يقول إن هرقل أخذ الصليب الى بيت المقدس قبل أن يعود ظافرا الى القسطنطينية ويقول إنه أسرع بالاحتفال باعلانه ثم حمله بعد ذلك الى القسطنطينية! ويقول إن هرقل جاء الى الشرق عند ما جاء العرب وخربوا ما حول أنطاكية وفيما كان لا يزال في الشرق فتح العرب مصر! وواضح أن نيقفوروس لا يمكن أن يعتمد عليه في ذلك العصر لما يقع فيه من الخلط الذى لا رجاء معه في الاعتماد عليه ومع ذلك فانه لم يذكر العبارة التى نسبت اليه. وكذلك الاشارة الى تيوفانز فانها لا مبرر لها فانه يقول إن الامبراطور لما غادر الشام يائسا "أخذ معه الخشب المقدّس (الصليب) وذهب الى القسطنطينية" ولم يذكر في ذلك كلمة =

ما يدل على تلك الرحلة إلا ما روى من أن هرقل حمل معه الصليب وهو عائد الى القسطنطينية . ولا شك فى أنه فعل ذلك ، غير أنه لم ينقذه بأن ذهب الى بيت المقدس ، ولا يمكن أن نتخذ من قول (فيدرينوس) وأمثاله ممن يسوقون القول جزافا لا يتحرّون فيه الدقة دليلا يقوم لحظة واحدة فى وجه رواية (سبيوس) وهى رواية واضحة دقيقة . فإن (سبيوس) يقول إن العرب بعد وقعة اليرموك جازوا نهر الأردن ، وكانت هيبتهم تسبقهم فتقع فى قلوب أهل تلك البلاد ، فكانوا يذعنون خاضعين . وقال "وفى تلك الليلة" يقصد الليلة التى أعقبت بلوغ أنباء قدوم العرب اليهم "أخذ أهل بيت المقدس الصليب الأعظم وكل ما كان فى الكنائس من الآنية وجملوا كل ذلك عند الساحل ثم وضعوها فى سفينة وبعثوا بها الى دار الملك بالقسطنطينية" ولم يذكر فى روايته كلمة واحدة عن هرقل . ولكن لاشك أن تلك السفينة التى كانت تحمل الكنوز المقدّسة سارت الى الشمال ولحقت بالامبراطور . وكان لحوقها به إما فى بعض الثغور التى مر بها فى طريقه الى عاصمته اذا كان سفره بحرا وإما لحقته بقصره فى (هييريا) على مقربة من خلقيدونية وكان قد أقام بها مدّة من الزمن وهو فى اضطراب ومرض يفتت عليه الأكباد (١) . فلما سار الى العاصمة حمل معه الصليب فأعاده الى كنيسة القدّيسة صوفيا . وكان الناس قد فرحوا من قبل أشدّ الفرح بذلك الصليب

= عن سفره الى بيت المقدس .

ولما نقل فيدرينوس عن تيوفانز أضاف بعد كلمة (أخشاب) * (٢٥) كلمة (من بيت المقدس) * (٦٢٥) ولكن هذه الاضافة ناشئة من محض استنتاج منذ عرف أن الصليب ترك فى بيت المقدس .

وقال (سويداس) بعد ذكر حفلة إعلاء الصليب "ثم أرسله الامبراطور الى القسطنطينية" وعلى ذلك فلا يبرر أحد ممن نقل عنهم دابيرون رأيه الذى ذهب اليه .

ويجدر بى أن أقول أن تيوفانز لا يزيد شيئا على نيقفوروس فكلاهما لا يصح الاعتماد عليه فى تاريخ هذه السنوات القلاقل فانه مثلا يجعل هرب هرقل قبل وقعة اليرموك وقبل فتح العرب دمشق ويجعل غزو مصر بعد فتح دمشق مباشرة وأن وصف تيوفانز لما حدث بمصر كله غير صحيح فوق أنه ناقص فالحقيقة أن هؤلاء المؤرّخين البيزنطيين فى وصفهم فتح مصر يضللون التاريخ أكثر من هذا يتهم له .

(١) كان مرضه الذى يسمونه (Hydrophobia) أو «كره الماء» قد أصابه فى (هييريا) وكانت علته فى الحقيقة الخوف من الفضاء الفسيح أيا كان وليس الخوف من الماء .

ورحبوا بمقدمه ظافرا ورأوا فيه سر نجاح هرقل، ثم عاد اليهم بعد ذلك والحزن مخيم على الناس وهم يرون فى عودته اليهم رمزا لإخفاق مليكهم وخيبته . ويقيننا أن الأقدار لم تسخر من هرقل سخرا أقطع حدّا ولا أمرّ مذاقا من هذا على كثرة ما أنزلته به من النكبات .

إذن تتضح لنا الحقيقة وهى أن الصليب لم ينتزع نزعا من يد صاحبه البطريق صفرونيوس بل إنه أرسله مختارا مع سائر تحف الكنيسة ، نزل عنها للامبراطور لكى يحفظها عنده، ولم تكن ثمت وسيلة لحفظها غير هذه . فقد كان بالاسكندرية عدوه قيرس لا يزال على ولايته ، وكانت مصر فوق ذلك قريبة العهد بغزو الفرس وكان يتهدّدها الخطر من فتح العرب ، ولكن القسطنطينية صمدت لكل عواصف الحدثان فى الحروب الماضية ولم يستطع عدوّ أن ينال منها ، فكانت على ذلك هى البلد الذى لا يقهر فوق أنها كانت عاصمة الدولة .

وإذا صح أن إرسال الصليب والتحف كان عملا يقصد به صفرونيوس أن يدل على ولائه لهرقل ، لكان ذلك آخر ما قدّمه له فى حياته من الولاء ، فإن مدينة بيت المقدس كانت عند ذلك يحاصرها خالد ، ثم جاء له أبو عبيدة بعد بضعة أيام ممدّا . وكان بالمدينة شيء كثير من المؤونة وكانت أسوارها قد أصلحت وحصنت بعد خروج الفرس منها ؛ فلما جاء العرب اليها ظلوا حولها عدّة أشهر يحيطون بأسوارها ، ويرامون جندها بالسهام ، ويقاتلون من خرج اليهم منهم . ولكنهم لم يستطيعوا أن يرزأوها إلا يسيرا لأنهم كانوا لا عهد لهم بالحصار فى حروبهم ، ولم تكن لهم عدد لصدع الأسوار . ولم يستغرق الفرس فى فتحها من قبل أكثر من ثمانية عشر يوما ، وأما عند ذلك فقد ظل خالد بن الوليد نفسه مقيما حولها وهو يحرق الإرم غيظا لا يستطيع شيئا إذ يتطلع الى حصونها وآطامها . وقد اختلف الرواة فى مدّة حصاره ، والظاهر أنها استطالت مدّة الشتاء كله ، شتاء سنة (٦٣٦ — ٦٣٧) ولعلها كانت أطول من ذلك . ولكن لم يكن عند أحد شك فى نهاية الأمر ، فان العرب إن عجزوا عن فتح المدينة عنوة بالهجوم فان أهل المدينة

لم تكن بهم قوة على رفع حصارهم عنها، ولم تأت من قبل الرومان أنباء تجعلهم يؤملون فى النجدة ، بل كانت الأنباء تترى بالمصائب والنكبات . فحل فى قلوب أهل بيت المقدس من الخيبة واليأس مثل ما حل من قبل فى قلب هرقل .

فلما أن صار الأمر الى ذلك فاوض البطريق الشيخ صوفرونيوس[١] قوّاد العرب من فوق الأسوار ، ولعله كان يحس عند ذلك أن المدينة لن تستطيع البقاء بعد ذلك طويلا، لنفاد المؤونة وقرب وقوع المجاعة بها، واتفق على أن يسلم المدينة على شرط أن يأتى الخليفة عمر بنفسه ليكتب عهدها .

ولا حاجة بنا أن نعيد هنا القصة المعروفة قصة مجىء عمر الى الشام على جمل، وكان أشعث أغبر خشن الملبس والهيئة، حتى اقتحمته عيون مترفى الروم، ثم ختم العهد وزار الأماكن المقدّسة يصحبه صفرونيوس . فالتفت ذلك البطريق الى أصحابه وقال لهم باللغة اليونانيـة : "حقا إن هـذا هو الرجس الآتى من القفر الذى ذكره النبى دانيال" وكانت هذه آخر قالة وردت عن ذلك البطريق "صاحب اللسان المعسول فى الدفاع عن الدين"[٢] وقد شهد مرة ثانيـة فى آخر حياته أسر بلاد صهيون، وكان حزنه وألمه لذلك الأسر الأخير سببا فى الإسراع به الى قبره .

(١) كان صفرونيوس بحسب ما يصوّره لنا (حنا مسكوس) فوق السبعين عند ذلك .

(٢) كان هذا لقبا لصفرونيوس . أنظر كتاب Mansi وهو (Conciliorum Nova Collectio) (الجزء العاشر مجموعة ٦٠٧) .

الفصل الثالث عشر

الاضطهاد الأعظم للقبط على يد قيرس

بنيامين يدعى لولاية الدين فى القبط — (جرج) البطريق الملكانى خليفة أندرونيكوس — حب الناس لبنيامين و إصلاحه — خروج الفرس من مصر — يختار (قيرس) بطريقا للاسكندرية وهرب بنيامين — يصير (صفرونيوس) زعيم المعارضين من الروم لقيرس ولكنه لا يستطيع شيئا — مقاومة القبط — لم يفهم القبط مذهب هرقل — عودة حكم الروم كاملا فى مصر — اضطهاد السنين العشر — حوادث شتى — أثرها العام فى تمهيد السبيل لفتح العرب

قد وصفنا فيما مضى ما كان من أمر الامبراطور منذ يوم احتفاله بالنصر فى بيت المقدس وقد بلغ ذروة مجده، الى أن ودع أنطاكية وقد أصبح ذلك العاهل الكبير ولا حول له ولا قوة، ضعيف العقل واهى القوة، غرق فى غمرات الخيبة والحزن. ثم رأينا سحابة ترتفع على أفق فلسطين من الجنوب، ثم تعلو شيئا فشيئا كما يعلو المارد فى قصص العرب، فإذا بشبح الاسلام (١) قد صار هيكلا ضخما يزيد على الأيام نماء، ثم يناضل دولة الروم فى الشام حتى ينضلها وتصير اليه دمشق ثم بيت المقدس. وقد ألممنا إلمامة خفيفة بالأسباب التى اجتمعت على إحداث هذا التغيير الذى عجب منه العالم. وقد كان وصفنا لهذه الحوادث قصيرا، وكان لا بد لنا منه اذا أردنا أن نعرف حقيقة الحوادث التى كان لمصر فيها أثر كبير. ولكن ذلك الوصف مع ذلك قد شط بنا عن حوادث وادى النيل شططا بعيدا، وما أحرانا أن نعود الآن الى تلك البلاد لنصف ما كان فيها من الحوادث منذ أول الحرب التى بقيت ثائرة مدة ست سنوات، وكانت نهايتها موت كسرى. وليس لدينا من أخبار هذه المدة إلا النذر

(١) فى الأصل "مهد".

اليسير وهذا ما نأسف له ، والقليل الذى لدينا منها غير واضح . فنحن مضطرون الى أن نتلمس طريقنا فيما دوننا منها، مهتدين ما استطعنا بهدى نورها الضئيل .

كان من القليل الذى نجا من التدمير من الأديرة فى جوار الاسكندرية (ديرقبريوس) وكان فى وسط بستان من النخيل على مقربة من شاطئ البحر فى الشمال الشرقى من المدينة، ومن الأبنية التى نهبها الفرس[(١)]. وكان فى ذلك الدير شاب اسمه (بنيامين)، من سلالة أسرة قبطية موسرة من قرية فرشوط فى البحيرة، وقد جاء اليه وترهب فيه على يد رئيسه الشيخ (تيوناس)، فجد فى تحصيل العلم، وكان ذكى الفؤاد. فما كان إلا قليل حتى نبغ وبذ معلميه فى العلم والتقوى. وكانت عادته أن يقوم الليل فى العبادة فى كنيسة الدير. ويروى فى القصص أنه كان يوما فى قيامه فسمع صوتا يناديه أنه سيكون راعى أتباع المسيح . فلما سمع (تيوناس) قالته أمره أن يحذر الوقوع فى حبائل الشيطان. ثم قال له ينصحه إن مثل هذا الأمر لم يقع له ولا لأحد من إخوانه فى مدة خمسين سنة قضاها فى دير (قبريوس) ، على أنه مع ذلك صحبه الى الاسكندرية، ومثل به بين يدى البطريق القبطى (أندرونيكوس) . فأعجب البطريق بما كان عليه (بنيامين) من القدرة وقوة النفس ، واستبقاه فى المدينة معه ، وعاد (تيوناس) الى الدير وحده، ثم دخل بنيامين بعد ذلك فى زمرة القسوس، وبقى مع البطريق، وكان أمينه وصاحب ثقته "وساعده فى أمور الكنيسة وتصريف أحوال ولاية الدين" .

وكان دخول (بنيامين) الى دير (قبريوس) قرب عيد الميلاد من سنة ٦٢١ ، ولم يبق فى خدمة البطريق (أندرونيكوس) إلا شهورا ثم مات البطريق، وأوصى أن يكون هو خليفته . وقيل إن (بنيامين) كان إذ ذاك شابا ولعله كان فى السنة الخامسة والثلاثين من عمره[(٢)]، ولكن رداء البطارقة ألقى على عاتقه فى حفله المرسوم فى كنيسة القديس مرقص .

(١) أنظر ما سبق فى هامش صفحة ٦٧ وهذه القصة من كتاب (ساويرس) ترجمة حياة البطارقة (بنيامين) النسخة المخطوطة بالمتحف البريطانى صفحة ١٠٢ وما بعدها .

(٢) مات (بنيامين) فى ٨ طوبه سنة ٦٦٢ بعد ولاية تسع وثلاثين سنة وجاء نفس التاريخ فى (ساويرس) ٨ طوبه (أى ٣ يناير) لموت (أندرونيكوس) ومع أن هذا الاتفاق غير محتمل فان موت =

وقد رأينا فيما سلف أن (أندرونيكوس) لم يخلعه فتح الفرس من ولايته في حين أن (حنا الرحوم) بطريق الملكانيين هرب عند ذلك ومات في هربه ذاك في جزيرة قبرص. وكان خليفة (حنا) على ولاية أمر المذهب الملكاني اسمه (جورج) ولكن سلطان الروم كان عند ذلك قد ذهب عن مصر وليس لدينا دليل كاف يدلنا على أن استخلاف (جورج) على ولاية المذهب الملكاني وقع قبل سنة ٦٢١ وأقل من ذلك ما لدينا من الأدلة على تعيين الوقت الذى ذهب فيه ذلك البطريق الى الاسكندرية[(١)] وأنفذ فيها أمر ولايته. بل إنا نشك في أنه جاء الى مصر حقيقة وحل بها، فانه كان لا يرجو ترحابا لا من القبط ولا من الفرس. ولم يكن في مجيئه الى مصر من فائدة إلا اذا عاد جيش الروم اليها فأرجع فيها أمر الدولة وأقر فيها مذهب الملكانية. ثم دارت الدائرة وجلا الفرس عن مصر في أول سنة ٦٢٧

= (أندرونيكوس) قد يكون مع ذلك وقع في يوم من شهر طوبه واذا اعتبرنا أن ولاية (بنيامين) من يناير سنة ٦٢٣ الى يناير ٦٦٢ وذكرنا ما قاله عنه (ساويرس) وذلك أنه كثيرا ما كانت تعتريه أسقام الهرم في آخر أيامه خلصنا الى أنه كان عند وفاته لا تقل سنه عن خمسة وسبعين عاما وما كانت قوانين الكنيسة لتسمح بأن يختار بطريق إلا اذا كانت سنه على الأقل خمسا وثلاثين سنة فلا بد أنه كان "في منتصف العمر".

(١) أنظر الهامش السابق في صفحة ٤٨ وقد قال (سعيد بن بطريق) إن جورج هرب في سفينته عند ما بلغه أن المسلمين هزموا الروم وفتحوا فلسطين وساروا الى مصر (Annales ed. Pococke) الجزء الثاني صفحة ٢٦٦) ولكن هذا الخبر ينهدم اذا نظرنا في تواريخه ولعله وهم حقيقته خبر هرب (حنا الرحوم) ولكن (حنا النقيوسي) (طبعة زوتنبرج صفحة ٥٧١) يذكر (فيليادس) أخا البطريق جورج ثم بعد ثلاث صفحات (٥٧٤) تأتي هذه الكلمات "وقبل مجيء البطريق قيرس كان الحاكم (أنستاس) قد أكرم جورج الذى اختاره (هرقل الأصغر) ولما كان وجلا هرما شمل نفوذه كل الأمور وقد ترك له البطريق نفسه سلطته" وقال زوتنبرج في تعليقه على ذلك كان يجب أن يقال "هرقل الأكبر" بدل "هرقل الأصغر" ويتفق معه في هذا الرأى الدكتور شارل فالظاهر على ذلك أن جورج المذكور هنا هو البطريق جورج. واذا كان الأمر كذلك كان ما يأتي: (١) لم يمت جورج في سنة ٦٣٠ ولا في سنة ٦٣١ بل حل محله قيرس. (٢) إنه كان يعيش في الاسكندرية في مدة ولاية قيرس. (٣) إنه كان مع تخليه عن الولاية ذا نفوذ شخصي عظيم. (٤) إنه كان على وفاق مع قيرس وقام وكيلا عنه في أثناء غيبته أو منفاه من مصر. وكل هذا جديد وجدير بالذكر ولكن من الصعب أن لا نصدّق ذلك التأويل الذى أوّلنا به لغة حنا أو أن نرد شهادته.

وذلك عند ما أزمتهم الهزائم على يد هرقل . وقد ذكر فى التاريخ أن حكم الروم عاد الى مصر فى تلك الفترة التى بين ذلك التاريخ وبين الوقت الذى ولى فيه (قيرس) على مصر، فمن الجائز أن يكون البطريق (جورج) قد دخل الاسكندرية فى ذلك العام سنة ٦٢٧ وبقى بها كما يظهر من كتاب (حنا النقيوسى) حتى حل محله (قيرس) نفسه ، وصار بطريقا بدله . ولكن أغلب الظن فى رأينا أن دخول (جورج) الى الاسكندرية لم يكن عند ذلك بل كان بعده بزمن، وذلك لأنه لما وقفت رحى القتال بين الروم والفرس فرغت بعض كتائب الروم شيئا فشيئا من مشاغلها، واستطاع الروم أن يعيدوا الجند الى مصر ، ولكن من البعيد أن يكون وقوع ذلك قبل سنة ٦٢٩ بزمن طويل . ولعل جورج لم يبلغ الاسكندرية إلا فى ذلك العام، ولعله لم يبق فى ولايته إلا سنة أو سنتين، لأنه مات بعد ذلك أو عزل . فاذا كان الأمر كذلك سهل علينا أن ندرك السبب الذى من أجله كان ذكره فى ما تخلف من أخبار الكنيسة غير واضح وكانت أحواله غير جلية[١] .

عند ما مات (أندرونيكوس) كبير أساقفة القبط فى أواخر سنة ٦٢٢ أو أوائل سنة ٦٢٣ كان حكم الفرس فى مصر غير مزعزع لا يخشى عليه من شىء من قبل هرقل ولا من كرّة الدولة الرومانية على يديه . حقا لا يشك إلا قليلا فى أن ذلك البطريق قد سمع قبل موته أنباء سفر هرقل فى رحلته الأولى فى البحر، ومروره برودس ذاهبا إلى (قليقيا)، وأكبر الظن كذلك أن أهل الاسكندرية كانوا عند ذلك يرددون فيما بينهم ما سمعوه من قوافل العرب عن ظهور النبى فى مكة . ولكن ما كان لأحد أن يذهب به الظن ويحمله الخيال — ولو كان ظننا بعيد الخيال — الى أنه لن تمر عشرون سنة حتى يكون الفرس قد أخرجوا من مصر إذ يجليهم الروم عنها، ثم يعود

---

(١) لا يشك (رينودوه) فى الخبر السائر عن موت جورج ولكن قلمه زل فكتب (Post Gregorii) بدل (Post Georgii mortem) (تاريخ بطارقة الاسكندرية صفحة ١٦١) . ويرى (جوتشمت) أن موت جورج ربما كان فى يونيه سنة ٦٣١ (الجزء الثانى صفحة ٤٧٥ من (Kleine Shriften)

الروم بعد ذلك فيقهر سلطانهم وتخبو نيرانهم و يمحى أثرهم على يد الكتائب الشعثاء من جنود الإسلام .

وقد وافق اختيار (بنيامين) لولاية الدين هوى فى قلوب الناس فاننا إن شككنا فى حكمته وحسن رأيه فى آخر أمره، لا يمكن أن ننكر أنه كان حبيبا الى الناس عزيزا عليهم، وأنه قد بقى على محبة الناس له وإجلالهم إياه لم ينقص من ذلك شىء على تغير الأحوال وتقلب الصروف . وكانت مدّة ولايته أكثر عهد فى تاريخ القبط تقلبا وأعظمه حوادث . لكنه لم يتساهل فى أمر الدين ولم يغض عن رذيلة فى الخلق، فشرع منذ أوّل أمره يأخذ قسوسه بالشدّة إذا هم جاز وا حدود الحمى فى حياتهم، وما كان أكثر من يفعل ذلك منهم، ثم جعل يقضى على السوء الذى حل فى مواضع كثيرة ولم يستطع الأساقفة أن يتلافوه إذ منعتهم من ذلك ضجة الحرب ومشاغله . وقد زار بابليون[1] مرة قبل ولايته فلما ولى البطرقة أرسل كتابا الى أساقفته قال لهم فيه :

"لقد رأيت فى مقامى فى حلوان و بابليون جماعة من أهل العناد والكبر وكانوا قسوسا أو شمامسة، وما أشدّ ما كرهت نفسى أفعالهم . وإنى باعث بكتابى هـذا إلى الأساقفة جميعا آمرهم أن ينظروا مرة فى كل شهر فى أمر كل من عندهم ممن لم تمض عليه عشر سنوات فى زمرة أهل الدين" . قال صاحب الديوان[2]: "وقد دل بخطابه هذا على أنه كان كبير الأساقفة حقا ." ثم أظهر أمره بعد ذلك ظهورا أجلى وأوضح عند ما نفى من الدين جماعة من رجال الكنيسة فى إقليم بابليون . وقد أعقب كتابه بزيارة وجاء فى الأخبار أنه فى أثناء زيارته تلك سار راجلا من بابليون "يصحبه (أبامينا) أسقف حصن بابليون و (بليهيو) أسقف حلوان وجمع كثير من الناس"

(١) وهذه بلا شك بابليون مصر فى الجهة التى يطلق عليها خطأ اسم "Old Cairo" .

(١) وقلنا مرة غير هذه أن الخطأ واقع فى الاسم الانجليزى ولكن التسمية العربية لا خطأ فيها فهى "مصر القديمة" (المعرّب) .

(٢) أنظر النسخة القبطية المخطوطة فى مكتبه Bodlein (Clar. Press b. 5) وترجمة (اميلنو) المسماة "قطع قبطية لخدمة تاريخ فتح مصر" فى الجريدة الأسيوية سنة ١٨٨٨ و إنه من سوء الحظ ألا يبقى من هذه الترجمة القديمة القبطية لتاريخ حياة بنيامين إلا قطعة صغيرة كهذه .

وذهب إلى رجل اشتهر بالعصيان ليحاسبه على ما أجرم، ودعا عليه فأرسل الله على داره نارا من السماء . وكان الناس يتلقونه أفواجا أينما سار لينالوا من بركته .

وبقي على حاله هذه يطهر الكنيسة ويجزى المسيء من أهلها فعرف الناس في كل البلاد أن دونهم رجلا يعتد به . ولا شك في أنه عمل على إعادة وحدة الكنيسة القبطية وعلى أن يعيد إليها إطمئنانها واستقرارها بعد أن زعزعتها حوادث السياسة في ذلك الوقت، أو كادت تهدمها . وقضى بنيامين أربع سنين أو خمسا (١) في سلام تحت ظل الفرس في الاسكندرية . وهناك رأى (شاهين) وقد دعاه سيده (كسرى) ليعمل إذا استطاع على مداركة أمره، ثم رأى بعد ذلك جنود الفرس تجلو عن مصر عند ما غلب هرقل ملكهم وقهره، ولسنا ندرى كيف كان نظره الى هؤلاء الكفرة وقد رآهم يحملون الرماح وينتكبون القسى وهم خارجون من الباب الشرقى للمدينة العظمى، ولا ما دار بنفسه وهو يتوقع عودة الروم بعد ذلك .

وأكبر الظن أن أكثر الفرس خرجوا من مصر في أول سنة ٦٢٧، وأن البعض القليل منهم قد بقي في مسالح متفرقة إلى سنة ٦٢٨، وخرجوا بعد ذلك عند ما تم الصلح مع هرقل . وعاد في ذلك الوقت سجناء المصريين الى ديارهم قافلين من (دستجرد) وما إليها من مدائن آسيا، ولعل هرقل قد أرسل جيشا بعد أن دخل القسطنطينية ظافرا منصورا — أرسله في البحر في شتاء (سنة ٦٢٨ — ٦٢٩) ليحتل مصر ويعيد أمر الدولة الرومانية من فلسطين إلى بلاد (بنطابوليس) .

وإنا لا يسعنا إلا أن نقر بأن هرقل إنما كان من أحسن الناس قصدا عند ما بعث قيرس الذى كان أسقف (فاسيس) في بلاد القوقاز، وولاه رياسة الدين في الاسكندرية . ولكن عمله هذا كان خطأ كبيرا وكان له أسوأ العواقب . فقد

(١) يقول (ساويرس) على وجه البت ان الفرس أقاموا في مصر مدة ست سنوات بعد اختيار (بنيامين) وذلك يجعل تاريخ مقامهم في مصر الى سنة ٦٢٨ ولكنا نرى أنه من المستحيل قبول مثل هذا الرأى فان كل شيء يدل على أن خروج الجيش الفارسي الأكبر كان في أوائل سنة ٦٢٧

كان المسيحيون جميعا قد اتفقوا اتفاقا عجيبا عند ما رأوا حرب هرقل وجهاده مع الفرس ذلك الجهاد المدهش، وكانوا يرقبونه وأنفاسهم خاشعة فى الصدور من عظم ما كان فى نفوسهم . فلما أن هزم الكفار وخلص بيت المقدس منهم وعلا أمر الصليب فرح المسيحيون بالنصر على اختلاف نحلهم من قبط وملكانيين، وكذلك أظهروا سرورهم جميعا بما حل باليهود من النقمة واشتركوا كلهم فيما أمرهم به زعماؤهم من التوبة تكفيرا عن ذنبهم هذا، فكانت تلك الساعة فرصة من ذهب لو اغتنموها لأدّت إلى وفاق دائم ووئام حق . وقد فطن هرقل إلى هذا وكان يعرف تعلق أهل ذلك العصر بأن يكون لهم شعار يحفظونه وقالة يقولونها، غير أنه لم يفطن إلى أن مذهبه الذى حاول به التوفيق قد يأباه أهل مصر، ولم يعرف أن أهل مصر إذا أبوا ذلك المذهب كان شر الطرق إلى ضمهم إلى الجماعة أن يرغمهم عليه ويقذف به فى حلوقهم إذ قد كرهوا مرارة مذاقه منذ ذاقوه . وعلى أى حال قد كانت هذه خطته فى مصر والشام، وكان من رأى ذلك العصر أن أمور الدين والعقيدة مما ينبغى للدولة أن تقوم عليه ويصدر الناس فيه عن أمرها . ولم يكن الامبراطور فى هذا الشأن أحكم رأيا من أهل عصره، فعقد النية على أن يظهر المذهب الذى ابتدعه رؤساء الدين الثلاثة فى دولته على كل ما عداه من المذاهب المخالفة له، متوسلا إلى غرضه هذا بكل الوسائل حسنها وقبيحها .

ولكنه مع عزمه هذا كان كمن يسعى الى المصائب سعيا . وذلك أنه اختار (قيرس) دون سواه إذ كان ذلك الرجل نحسا أنكد النقيبة، أخفق الامبراطور بشؤمه فى سعيه لتوحيد المذاهب فى مصر، ثم عسف فى الحكم حتى صار اسمه مفزعا للقبط كريها عندهم مدّة عشر سنين أمعن فيها ما استطاع فى اضطهاد مذهبهم، حتى استحال بعد أن يبقى فى القبط ولاء لدولة الروم، وكان ظالما أساء فى حكمه حتى كره الناس دولته، ومهد السبيل بذلك الى فتح العرب للبلاد . وكان فوق كل ذلك خائنا فاذا ما اشتد الكرب وجد الجدّ أسلم البلاد الى أعدائها . كان هذا هو الرجل الذى ذاع سوؤه وقبح ذكره وهو المعروف فيما بعد فى تاريخ مصر باسم (المقوقس) . وقد بقى

ذلك الحاكم فى التاريخ سرا خفيا استعصى على المؤرّخين أن يعرفوا اسمه أوقومه ولكن قد أصبح اليوم من الثابت أنه هو قيرس دون سواه [١] .

والظاهر أن (بنيامين) لم يستشره أحد فى رأى القبط وما ينتظر منهم أن يفعلوا لقاء ما يراد إدخاله من البدعة الجديدة عليهم . وكان خطأ فاحشا ألا يستشيره أحد فى ذلك فان المذهب الجديد كان محتوما عليه ألا يلقى فى مصر نجاحا . فما هو إلا أن قدم (قيرس) الاسكندرية فى خريف سنة ٦٣١ حتى هرب البطريق القبطى [٢] . وقد جاء فى إحدى القصص أن ملكا أتى (بنيامين) فى نومه فأنذره أن يهرب مما هو لا بد واقع من العسف ، وهذا يدل على الأقل على أن ذلك البطريق كان قد عقد النية على أن يرفض ما جاء به (قيرس) قبل أن يفضى به اليه ، وعرف ما سيكون وراء ذلك من الآثار . وكان عزمه ذلك غير متزعزع سواء أكان عارفا بحقيقة ما جاء به (قيرس) أم كان غير عارف بها . ففى الحق قد رأى القبط فى مقدم (قيرس) إيذانا لهم بحروب يثيرها الروم على عقيدتهم . وقد دبر (بنيامين) أمور الكنيسة قبل أن يغادر ولايتها ، وجمع جمعا من القسوس والرعية وألقى فيهم خطابا "يحضهم فيه على أن يثبتوا على عقيدتهم حتى يوافيهم الموت" ثم كتب الى أساقفته جميعا يأمرهم بالهجرة إلى الجبال والصحارى ليتواروا فيها حتى يرفع الله عنهم غضبه . وأنبأهم أن البلاد سيحل بها وبال وأنهم سيلقون العسف والظلم عشر سنين ثم يرفع ذلك عنهم .

(١) واذا أراد القارئ أن يرى البرهان على هذه العبارة فانا مرشدوه الى ما كتبناه فى ذيل الكتاب تعليقا على هذا الأمر .

(٢) قد جاءت عباره عجيبة فى هامش ١ صفحة ٢١٥ من الجزء الثانى من كتاب الأستاذ (Bury) "Later Rom. Emp." وذلك أن (بنيامين) هرب من الفرس ومن ثم وصل الى نتيجة أن "القبط المنوفيسيين لم يكونوا جميعا راضين عن الحكم الفارسى" فان العبارة مخطئة وكذلك النتيجة التى استنتجت منها . فان (بنيامين) لم يهرب من مصر إلا بعد جلاء الفرس عنها بنحو ثلاث سنوات أو أربع بعد مقامهم بها طويلا (أنظر الديوان الشرقى) ، وكتاب (رينودوه تاريخ بطارقة الاسكندرية الفصل الأول) ، وكتاب (أبى صالح صفحة ٢٣٠ هامش ٢) وكتاب مكين (صفحة ٣٠ و ٤٠) ، وكلها تدل دلالة واضحة على أن هرب (بنيامين) حدث قبل وفاة هرقل بعشر سنوات واذا أردت مراجعة استنتاج الأستاذ (Bury) فارجع الى ما كتبناه قبل ذلك فى الصفحات (٧٤ — ٨٠) حيث أظهرنا أن الرأى الذى يعزو الى القبط عطفا على الفرس رأى غير حقيق .

هذا ما بعث به فى خطابه اليهم ولما أنفذه سافر من الاسكندرية خفية تحت جنح الليل لا يصحبه إلا رفيقان . وخرج من المدينة من الباب الغربى وسار يمشى إلى مريوط ومن ثم ذهب إلى (المنى)(1) وهى قرية فى واحة عند مفترق الطريقين طريق الاسكندرية ووادى النطرون وطريق الطرانة وبرقة . ولا بد قد كانت تلك القرية عند ذلك مدينة عظيمة فإنها بقيت إلى ما بعد ذلك بقرون، وكان المسافر فى الصحراء والقفار إذا طلع عليها عجب من عظيم كنائسها وفخم بنيانها(2). ولاشك أن البطريق دخل يصلى فى الكنيسة العظمى بها كنيسة (القديس مينا)، واستراح

(1) هذه هى الصورة التى يوردها (ساويرس) ولكن (كاترمير) يرى فيما نظن أن المدينة كلها كان اسمها (مينا) باسم القديس الذى سميت باسمه الكنيسة الكبرى هناك (Mem. Geog. et Hist.) الجزء الأول صفحة ٤٨٨ وقد ورد هذا الاسم واضحا فى النسخة الخطيه بالقاهرة هكذا "منى" وليس (مينا) .

(2) توجد فى باريس نسخة مخطوطة من كتاب لجغرافى عربى مجهول (نقل عنها كاترمير فى الفصل الأول) وفيها تفاصيل عجيبة عن (المنى) أو (مينا) يجدر بنا ذكرها . "بعد الخروج من الطرانة على طريق برقة يمرّ الانسان بالمينا وهى عبارة عن ثلاث مدائن مهجورة فى وسط صحراء رملية ولا يزال بناؤها قائما ويكمن العرب فيها للسافرين، وفيها يرى الانسان قصورا عالية حسنة البناء وأكثرها قائم على عقود فوق أعمدة و يعيش الرهبان فى بعضها وبها بعض الآبار ولكن ماءها قليل و يرى الانسان فيها كنيسة (القديس مينا) وهى بناء عظيم فيه عدد كبير من التماثيل والصور المتقنة الصنع وتوقد بها الشموع ليلا ونهارا وفى نهاية البناء مقبرة كبيرة عليها تمثالين لجملين من المرمر فوقهما تمثال رجل من المرمر وقد جعل رجلا فوق كل منهما و إحدى يديه مبسوطة والأخرى مقبوضة و يقال إن هذا تمثال (القديس مينا). وعلى يمين الداخل الى الكنيسة نرى عمودا عظيما من الرخام نقش عليه مشهد به صورة (المسيح) و (حنا) و (زكريا) وقد أقفل باب المشهد و يرى بها كذلك صورة للعذراء (مريم) عليها ستاران وكذلك صور الأنبياء وفى خارج الكنيسة صور لأنواع الحيوان وللناس فى أعمالهم من كل صنف ومن بينها صورة تاجر رقيق فى يده كيس نقود مفتوح. وفوق وسط الكنيسة قبة تحتها ثمانية تماثيل قيل إنها تماثيل الملائكة وعلى مقربة من تلك الكنيسة مسجد يصلى فيه المسلمون والأرض التى حولها ذات زرع من أشجار الفاكهة والكروم، وفى كل عام ترسل مدينة الفسطاط ألف دينار للانفاق على هذه الكنيسة" وقد أورد كاترمير فى كل المواضع التى استعملنا فيها لفظ "صورة" لفظا آخر وهو "تمثال" والتماثيل المنحوتة كانت ولا تزال محرمة وانا على يقين من أنه يقصد أنها صور لا تماثيل أو على الأقل حيث يكون المقصود صور القديسين أو الملائكة، ولا يمكن أن ننفى وجود التمثال القائم على جملين ولعله بقية من آثار الاغريق هو والقصور والأعمدة وقد يكون القبط قالوا عنه فيما بعد إنه القديس مينا ولكن وصف هذه المدينة جميعه شائق وموضعها اليوم مجهول ولعله فى الشمال الغربى من بحيرات النطرون والى الجنوب من مريوط مباشرة (والمدينة الأخيرة موضعها الآن أطلال فتكون على ذلك واقعة على الطريق الذى كان اسمه "طريق الحاج" الآتى من شمال افريقيا .

قليلا بها ثم مضى فى سبيله الى جبل اسمه برنوج[١]، وأصبح عند ذلك قريبا من أديرة وادى النطرون . ولكنه رآها مقفرة لا يكاد يكون فيها أحد، فإن تلك الأديرة لم تعد الى ما كانت عليه بعد ما حل بها من التخريب منذ ثلاثين عاما[٢]، وكان البدو لا يبيحون لأحد أن يعيد بناء كنائسها ولا أن يقيم بها عدد كبير، فلم يكن فيها مقام للبطريق . وكان يحس فوق ذلك أنه مازال على مقربة من العاصمة فلا هو يأمن على نفسه ، ولا هو مقيم بين ظهرانى قومه ليدفع عنهم وينصرهم . فرأى أن يسير الى الأهرام، ثم تركها وصعد الى صعيد مصر سائرا على جانب الصحراء ، وما زال حتى بلغ مدينة قوص[٣] ولاذ هناك بدير صغير بالصحراء غير بعيد من تلك المدينة . وقد ظل هذا الدير مشهورا بمقامه فيه مدّة قرون بعد ذلك .

وكان هرب (بنيامين) فى نفس الوقت الذى جاء فيه (قيرس) الى الاسكندرية أو قريبا منه . ولم نجد كلمة واحدة فى خبر من الأخبار تدل على أن (قيرس) سعى مرة الى أن يتقرب الى بطريق القبط أو يتفق معه، فالظاهر أن مجيئه الى مصر قد شرد قسوس القبط فزعين . وقد صار بطريقا من قبل الدولة الرومانية فى الاسكندرية، وزاد سلطانه بأن صار واليا على حكومة مصر من قبل الامبراطور[٤]، ولا شك أن قبض (قيرس) على رياسة سلطتى الدنيا والدين معا هو الذى زعزع أمر بنيامين، فإن ذلك جعله يوشك أن يكون ذا سلطان مطلق . ولما قدم قيرس فى أول الأمر تظاهر بأنه إنما جاء مسالما، وجعل يبين للناس كنه المذهب الجديد (المونوثيلى)

(١) انظر اميلنو (Geog. copte) صفحة ٣١٩ — ٢١ و يقتبس المؤلف من نسخة مخطوطة عربية فى باريس ١٣٩ مجموعة ٩٧ فى وصف وصول (بنيامين) الى ذلك الموضع .

(٢) فى زمن البطريق (دميانوس) وقد أعيدت هذه الأديرة بعد الفتح العربى وقد احتفل بنيامين نفسه بافتتاح كنيسة القديس مكاريوس احتفالا عظيما كما جاء فى ساويرس .

(٣) انظر ما كتبه كاترمير عن قوص (Mem. Geog. et Hist.) الجزء الأول الصفحات ١٩٢ و ٢١٦) وفيها تعليق مفيد يشرح موقع المدينة و يذكر بعض قصص عجيبة عن السحر وتعاويذ الأفاعى المتصلة بالمدينة وقد جاء فى كتاب أبى صالح (صفحة ٢٣٠) ذكر الدير الذى لجأ اليه بنيامين ولكنه لا يسميه .

(٤) أوردنا بعض الدليل على اجتماع سلطان الدنيا والدين لقيرس فى ذيل الكتاب وليس ثمت مجال للشك فى هذا الأمر .

وهو المذهب الذى كان الامبراطور يطمع أن يزيل به ما أحدثه مجلس خلقيدونية من الشقاق بين الناس . فكان عليه أن يستميل الى المذهب الجديد أقباط مصر أولا واتباع المذهب الملكانى ثانيا. ولكن الظاهر أن مذهبه لم يلق منذ أول أمره توفيقا، فقد أساء هو بيانه وإيضاحه، وأساء الناس فهمه وتلقوه لقاء سيئا. فأما أتباع المذهب الملكانى فقد رأى كثير منهم أن المذهب الجديد نقض تام لمذهب خلقيدونية، وأما القبط فإن من سمع منهم بالبدعة الجديدة قال إن المذهب الجديد مادام قد سلم بأن الله له إرادة واحدة وفعل واحد، فانه لا بد له أن يسلم بأن له كذلك طبيعة واحدة، وعلى ذلك فإن (قيرس) إنما جاء فى الحقيقة مسلما بالمذهب (المونوفيسى).

ولما أراد قيرس أن يزيل ماعلق بالأفهام من الخطأ جمع مجلسا فى الاسكندرية وطرح عليه الأمر ليتناظر المجتمعون فيه وليتناقشوا فى مسائله . وفى ذلك المجلس جاء صاحبنا (صفرونيوس) وكان قد عاد الى مصر وصار زعيم المعارضين من الملكانيين، واجتهد جهده أن يثنى (قيرس) عما عزم عليه من البدعة، تارة بالحجة وطورا بالتوسل والرجاء. وقيل إن (قيرس) أجابه جوابا لينا[1] وطلب إليه أن يرجع الى البطريق الأكبر (سرجيوس) بالقسطنطينية، ليزيل ما فى نفسه من الشكوك. ولكن (صفرونيوس) لم ينثن وانتهى المجلس الى إقرار البدعة، ووسم من لا يقبلها بتسع سمات شائنة . والظاهر أن (قيرس) لم يكن أثناء ذلك على ما ينبغى أن يكون عليه والى السلطان من الكياسة والرحمة، وقد جاء يدعو الى السلم والوفاق، فإنه كان لا يلق من يقاومه إلا بقوة من العزيمة تدعمها قوة السلطان، فى حين أن مثل تلك المشكلات الدينية فى مصر لم يكن لها أن تحل إلا بالدهاء وحسن الاحتيال . على أن الذنب فى الاخفاق

(١) جاء فيما كتبه الدكتور (Murdock) تعليقا على (Mosheim) (الطبعة الحادية عشرة صفحة ٢٥٦ هامش ١) أن صفرونيوس كان كثير التواضع إذ ركع وجعل يتوسل إلى قيرس ألا يغالى فى الأمر وأن قيرس كان معه كثير التساهل . وإنا نشك فى هذا فقد كان صفرونيوس شديد الغيرة فى سيرته أبيا عن المهانة "فقد صاح صيحة عالية ظهر فيها ألمه الشديد وانفجر الدمع من عينيه ورمى بنفسه إلى أقدام قيرس يتوسل إليه ويرجوه ألا يعلن ما أراد اعلانه من الأسباب التسعة للعن ولكن قيرس لم يعر سمعه لتوسله" (أنظر منسى الجزء العاشر المجموعة ٦٩١) .

كان ذنب كلا الفريقين، فقد كان (قيرس) عاتيا متكبرا، فى حين كان القبط على شىء من العناد وقلة البصر، وذلك اذا نحن سلمنا بأن (قيرس) قد أوضح لهم المذهب الجديد وبين كنهه لهم . فإنه لم يكن ثم فرق كبير بين مذهب القبط (المونوفيسى) والمذهب الجديد (المونوثيلى)، لو طرح كلاهما أمام أعين عامة الناس . حقا يجب علينا ألا ننسى أنه لا تزال الى اليوم بين المسيحيين فرق وشيع؛ وكثيرا ما يكون بينها شديد العداوة وكبير الخلاف مع انعدام ما يوجب ذلك فى حقيقة الأمر . ولكن القبط فى ذلك الوقت قد ارتكبوا خطأ كبيرا برفضهم ما عرض عليهم من أمر توحيد المذاهب، وكان خطؤهم ذاك سببا فى مصائب عظيمة تحل بهم .

وقد يرى البعض أن المذهب الجديد كان بدعة وضلالة، ولم يكن من المتيسر نشره ، ولكن مهما يكن حكمنا على هذا المذهب الذى ابتدعه هرقل وبطارقته الشرقيون الثلاثة، ومهما تكن صورته التى أطلع القبط عليها، وسواء كانوا على الحق أو على الباطل، فإنهم تلقوه بكراهة شديدة بادئ ذى بدء . فلم يطيقوا أن يخطر ببال أحد أن يغير ذرة من أصول عقيدتهم أو لفظا من شعارهم وعدّوا ذلك خيانة لدينهم واستقلالهم بأمره . وقد كان استقلالهم فى أمور الدين أكبر ما تتعلق به نفوسهم، فإنهم لم يعرفوا الاستقلال القومى قط[1]، ولعلهم لم يحلموا يوما بمثل ذلك الأمل . وأما الاستقلال فى أمر الدين فقد ناضلوا من أجله، وجاهدوا فى سبيله، لم ينثنوا عن ذلك فى وقت من الأوقات منذ مجلس خلقيدونية . وكانوا حريصين على بلوغ ذلك الغرض لا تغفل عنه قلوبهم، ولا يحجمون عن بذل كل شىء فى سبيله مهما عظم . ذلك هو سر حوادث تاريخهم جميعا .

ولما رأى (قيرس) أنه لم يستطع أن يستميل القبط بالخداع ، ولا أن يحملهم على ما أراد برميهم بالكفر واللعنة، لجأ إلى ما هو أشدّ من ذلك . ولا نقدر أن ننكر أن هرقل كان شريكه فيما لجأ اليه من العسف، ولكن الامبراطور حاول مرة أخرى

(١) لا بد أن المؤلف يقصد قبط مصر فى عهد المسيحية ولا يتعدّى ذلك الى العصور الفرعونية القديمة (المعرب) .

بعد ذلك أن يصل إلى غرضه من توحيد المذاهب، فان سرجيوس لما رأى أن الناس لم يقبلوا المذهب القائل بأن لله إرادة واحدة وفعلا واحدا ينفذها به اقترح أن يقر الناس بأن الله له إرادة واحدة، وأما المسألة الأخرى وهى نفاذ تلك الإرادة بالفعل وهل ذلك الفعل واحد أو مزدوج فيرجأ القول فيها ويمنع الناس أن يخوضوا فى مناظراتها . ثم أرسل إلى البابا فى رومة وهو (هونوريوس) فأخذ منه إقرارا لهذا الحل و إن شئت فقل إنه لم يكن حلا ولكنه كان هروبا وتخلصا من المشكلة . ثم جعل ذلك فى رسالة رسمية وبعث بها إلى جميع جهات العالم الشرقى وتقدم اليهم أن يعتقدوه ويتبعوه، وأمر البطريق سرجيوس حنا قائد الشرطة أن يحمل صورة من الأمر إلى (قيرس) وأرسل معه هدية[1] صليبا له قدر عظيم من القداسة . ولكن أثر تلك الرسالة لم يكن سوى أن زاد المعارضة والرفض، ورأى الإمبراطور أن (صفرونيوس) عدو لسعيه[2] لا يفل حده ولا تخور همته، وقد كان حاول من قبل أن يستميله أو يسكت لسانه بأن اختاره بطريق بيت المقدس، فلم يغنه ذلك شيئا . وأما القبط فقد وجدوا أن الصيغة الثانية للمذهب الجديد إذا كان فيها ما يخالف الصيغة الأولى فهى أشد منها قبحا وأكره مذاقا .

وإنه لمن أبعد الأمور أن تكون الصيغة الأولى للمذهب، أو الرسالة التى بعثت فيها الصيغة الثانية له، قد بلغت أقباط مصر فى غير الاسكندرية . فان ما تخلف من أخبار القبط لا أثر فيه لذكر صيغة المذهب الجديد، أو أن شيئا مثل ذلك عرض

(١) ورد ذكر هذه الصيغة الأولى للمذهب الجديد فى كتاب (Harduin) وهو "Concilia Eccles. His." الجزء الثالث صفحة ١٣٩١ انظر كذلك كتاب (Mosheim) صفحة ٢٥٦ (الطبعة الحادية عشرة) وقد أفاض قيرس عند ارسال الرد بوصولها اليه وقد ذكر هذا الرد (Drapeyron) صفحة ٣٨٩ وهو يذكر اسم الرسول الذى حمله . وقد ورد ذكر الصليب فى ديوان (حنا النقيوسى) صفحة ٥٧٤ ولعله كان يدخله جزء مما يسمى (الصليب الحقيق) .

(٢) قال قيدر بنوس عند ذكر موت صفرونيوس إن البطريق مات بعد أن حارب هرقل حربا عظيمة بعد أن ناضل سرجيوس والمونوثيليتيين .

عليهم . ولعل هذا أبعث ما فى الأمر للحزن والأسى، إذ لا يذكر فى ذلك العصر كله فى أثناء الاضطهاد إلا شىء واحد وهو أن الروم كانوا يخيرون الناس بين قبول مذهب خلقيدونيه بنصه — وهو كتاب (ليو) — وبين الجلد أو الموت، ولم يكن فى عقول مؤرخى القبط إلا هذا الاعتقاد يدوّنونه فى دواوينهم . فيلوح من ذلك أن قيرس أحس بإخفاقه فى سعيه من مبدأ الأمر وكان يودّ أن يحمل القبط على المذهب الذى تقرّر مهما تكلف فى سبيل ذلك، فلم يعبأ بعد بما أدخله الامبراطور على هذا المذهب من التهذيب، بل كان يعرض على الناس أحد أمرين لا تعقيد فيهما وهما قبول الدخول فى الجماعة أو الاضطهاد .

وكانت البلاد كلها عند ذلك تحت يد (قيرس) المقوقس يصرفها كيف شاء، وكان جيش الرومان مرة أخرى يملك مصر. فكانت طرق الاسكندرية البراقة تتجاوب جوانبها بأصداء الكتائب البيزنطية إذ تسير فيها ، وعادت جنود الروم الى الأسوار العظيمة أسوار المدينة وآطامها ووضعت عليها آلات حربها، وبعثت المسالح الى مدينة الفرما (بلوز) وهى ثغر الطريق الآتية من فلسطين الى مصر، وإلى بلاد مصر السفلى مثل أثريب ونقيوس، وكذلك إلى الحصن العظيم حصن (بابليون) بقرب ممفيس، ومن ثم عاد سلطان الروم فانتشر على بلاد الفيوم ووادى النيل حتى بلغ الحدود من الجنوب عند أسوان فى أسفل الجنادل. وكانت كل تلك الجنود والكتائب عند أمر (قيرس) ماثلة لإنفاذ أمره إذا ما دعاها . ولم يتحرّك القبط بطبيعة الحال عند ما عاد جند الروم الى البلاد، ولكنهم وجدوا بعد قليل أن حكم الفرس إن لم يكن مما يحب ويرغب فيه فإن حكم الروم الجديد لم يكن حدثا يحمدونه ويفرحون من أجله : فقد وجدوا فيه أنواع العقاب وصنوف العذاب، فكأنهم وقد خرجوا من حكم الفرس الى حكم الروم قد رفع عنهم التعذيب بالسياط ليحل بهم تعذيب آخر من لسع العقارب . إذ بينا كان غزاة الفرس بعد أن استقرّ بهم الأمر فى البلاد لا يحولون على الأقل بين القبط وبين التدين بما يشاءون من الدين، جاء (قيرس) المقوقس فعوّل على أن يحرمهم تلك الميزة الكبرى وينزعها من أيديهم .

وابتدأ الاضطهاد الأعظم عند ذلك . ويتفق المؤرخون جميعا على أنه بقى مدّة عشر سنوات أى أنه بقى كل مدّة ولاية قيرس رياسة الدين . فان أكبر الظن أن مجمع الاسكندرية كان فى شهر أكتوبر من سنة ٦٣١، وقد بدأ عهد الاضطهاد بعد ذلك بشهر واحد أو بشهرين . ولا يشك أحد فى فظاعة ذلك الاضطهاد وشناعته، فقد جاء فى كتاب (ساويرس) "لقد كانت هذه السنين هى المدّة التى حكم فيها هرقل والمقوقس بلاد مصر، وقد فتن فى أثنائها كثير من الناس لما نالهم من عسف الاضطهاد والظلم، ومن شدّة العذاب الذى كان يوقعه هرقل بهم، لكى يحوّلهم على رغمهم عن مذهبهم إلى مذهب خلقيدونية . فكان يعذب بعضهم ويعد البعض أحسن الجزاء، ويمكر بالبعض ويخدعهم" وقد جاء فى ترجمة حياة البطريق القبطى (إسحق)[1]، وكانت كتابتها سنة ٦٩٥، أنه فى شبابه لقى قسا اسمه يوسف كان ممن شهروا بين يدى (قيرس) وجلد جلدا كثيرا لأنه شهد شهادة الحق . وكذلك كان أخو (بنيامين) ممن عذبوا ثم قتل غرقا. وكان تعذيبه بأن أوقدت المشاعل وسلطت نارها على جسمه، فأخذ يحترق "حتى سال دهنه من جانبيه إلى الأرض"[2]، ولكنه لم يتزعزع عن إيمانه، فخلعت أسنانه ثم وضع فى كيس مملوء من الرمل وحمل فى البحر حتى صار على قيد سبع غلوات من الشاطئ، ثم عرضوا عليه الحياة إذا هو آمن بما أقرّه مجلس (خلقيدونية)، فعلوا ذلك ثلاثا وهو يرفض فى كل مرة، فرموا به فى البحر فمات غرقا . وقال الكاتب الذى كتب ترجمة حياة بنيامين "ولكنهم بفعلهم هذا لم يقهروا (ميناس) الذى مات شهيدا بل قد غلبهم هو بصبر الايمان المسيحى" .

(١) تاريخ البطاريق القبطى اسحق (صفحة ١٢) تأليف اميلنو . وترجمة اميلنو لا تظهر الفعل فى قوة دلالته على الزمن الماضى التام (كما يقول المستركروم) وذلك الزمن الماضى التام (Pluperfect tense) له دلالة كبرى فى تعيين التاريخ فانه عند ما حدث الاجتماع كان الاعتراف أمام قيرس قد حدث من قبل . ومات اسحق فى سنة ٦٩٣ كما بينا فى الذيل (ف) .

(٢) هذا الخبر عن (ساويرس) (النسخة المخطوطة بالمتحف البريطانى صفحة ١٠٤ الكتاب العاشر) وتتفق نسخة القاهرة معها فى ذلك الخبر .

واليك دليلا آخر جاء فى ترجمة حياة صمويل (القلمونى)(١) وقد كتبت تلك الترجمة فى أيام (قيرس) . وجاء فيها وصف جلى لما فعله (قيرس) نفسه من الأفاعيل فى هذا الاضطهاد، ولهذا كان لنا العذر اذا نحن نقلنا هنا بعض ما جاء فيها فى شيء من الافاضة. تصف القصة أن البطريق (قيرس) جاء الى الدير فوجده خلاء ممن فيه إلا من خازنه، فقبض عليه وجلده وأخذ يسأله، فقال له الخازن: "لقد جمع صمويل الزاهد رهبان الدير وخطب فيهم فأطال ووصفك بالكفر وبأنك يهودى من أتباع (خلقيدونيه)، ولا تؤمن بالله، وبأنك لست أهلا لأن تقيم الصلاة ولا أن يعاملك المؤمنون . فلما سمع الرهبان قوله هذا هربوا قبل مقدمك" فلما سمع الكفار الفاسق ما قاله الخازن ثار ثائره وعض شفتيه من الغيظ وسب الخازن والدير ورهبانه ومضى عنه . قال كاتب الترجمة "ولم يعد للدير بعد ذلك الى يومنا هذا(٢)" .

(١) نشر هذه الترجمة (اميلنو) فى "Mon. pour servir à l'his. de l'Eg. Chret. aux IVe-VIIe Siècles" (Mem. Miss. Arch. Franç. au Caire) الجزء الرابع وصفحة ٧٧٤ وما بعدها .
وأما عن التاريخ فانظر التعليق التالى .

(٢) هذا القول يدل على أن النسخة الأصلية المخطوطة قد كتبت قبل موت قيرس فى سنة ٦٤٢ فقد مات صمويل فى قلمون بعد أن تنبأ بقدوم العرب وانتهاء غزوتهم بنصر المسيحيين (الجريدة الأسيوية ١٨٨٨ صفحة ٣٨٤) ومن هذا نستنتج أن تاريخ حياته كتب فى أول الفتح وقبل أن يظهر انتصار العرب أى أنه كتب فى أوائل سنة ٦٤٠ وكانت تواريخ الحياة تكتب عادة وتلق بصفتها مديحا بعد موت قديس عظيم أو رجل كبير من أهل الدين فلنا أن نقول إن صمويل مات سنة ٦٣٩ و يقول (Pereira) إنه قيل إن صمويل لق فى قلمون رجلا اسمه جريجور اسقف قيس و إن ساويرس يذكر مقابلة بين رجل اسمه جريجور اسقف قيس وبين البطريق حنا السمنودى (سنة ٦٨٠ — ٩) .

و إن البطريق اسحق بعد اختياره واقرار عبد العزيز له دخل الاسكندرية فى سنة ٦٨٥ وكان معه عند ذلك رجل اسمه (جريجور) أسقف قيس وهذا التاريخ الأخير يجب أن يكون سنة ٦٩٠ بدل سنة ٦٨٥ ولكن هذا التصحيح يقوى حجة (پريرا) وهى أن هؤلاء الأشخاص الثلاثة الذين اسمهم (جريجور) إذا كانوا شخصا واحدا كما تدل عليه الأدلة وإذا كان صمويل قد مات سنة ٦٣٩ وجب علينا أن نقول إن جريجور بقى على الأسقفية أكثر من خمسين سنة وليس هذا بمستحيل بالطبع ولكنا بدل أن نقول إن موت صمويل كان بعد هذا التاريخ نقول إنه من الجائز أن يكون بمصر فى ذلك الوقت رجلان اسمهما جريجور كما قد كانت عند ذلك مدينتان كل منهما اسمها قيس واحدة منها فى الشمال على ساحل البحر والأخرى عند البهنسا فى الجنوب .

(أنظر كتاب كاترمير "Mem. Geog. et His." (صفحة ١٤١ و ٣٣٧ من الجزء الأول) وقال أبو صالح إن جريجور أسقف قيس أنشأ كنيسة فى حلوان (صفحة ١٥٦) .

فلما ذهب رجع الإخوان إلى ديرهم آمنين ، وأما الكاوخيوس (المقوقس) ذلك البطريق الدعى فقد ذهب إلى الفيوم والغيظ يأكل قلبه ، ودعا هناك أصحابه وأتباعه وأمرهم أن يأتوا له بالعابد (الأبا صمويل) مكتوف اليدين من خلاف ، وأن يضعوا فى عنقه طوقا من الحديد ، وأن يدفعوا به كما يدفع باللصوص . فذهبوا إلى الدير الذى كان فيه وقبضوا عليه .

وذهب صمويل مستبشرا فى صحبة الله وهو يقول "سأمنح إن شاء الله اليوم الشهادة بأن يسفك دمى فى سبيل المسيح"، ثم جعل يسب المقوقس لا يخشى شيئا . وأدخله الجنود عليه ، فلما رأى المقوقس ذلك الولى أمر جنده أن يضربوه حتى سال دمه كما يسيل الماء ثم قال له : "صمويل أيها الزاهد الشقى . من ذا أقامك رئيسا للدير وأمرك أن تعلم الرهبان أن يسبونى ومذهبى ؟ ." فقال له العابد (الأبا صمويل) "إن البر فى طاعة الله وطاعة وليه البطريق (بنيامين) وليس فى طاعتك والدخول فى مذهبك الشيطانى — يا سلالة الطاغوت ويايها المسيخ الدجال" فأمر (قيرس) جنده أن يضربوه على فمه وقال "لقد غرك يا صمويل أن رهبانك يجلونك ويعلون من شأن زهدك ولهذا تجرأت وقويت نفسك . ولكنى سأشعرك أثر سبابك للعظماء إذ سولت لك نفسك ألا تؤدى لى ما ينبغى عليك أن تؤديه لعظيم رجال الدين وكبير جباة المال فى أرض مصر" فأجابه صمويل "لقد كان إبليس من قبل كبيرا على الملائكة ولكن كبره وكفره فسقا به عن أمر ربه . وهكذا أنت أيها الخادع (الخلقيدونى) فان مذهبك مذموم وإنك أشد لعنة من الشيطان وجنوده" فلما سمع المقوقس ذلك امتلأ قلبه بالغيظ على ذلك الولى وأومأ إلى الجند أن يقتلوه . وقصارى القول أن ذلك الكفار أراد أن يقتل الولى ولكن حاكم الفيوم خلصه من يديه ، فلما رأى قيرس أن صمويل نجا منه أمر به أن يطرد من جبل نكلون[1] .

---

(١) كانت نكلون وهى بالعربية (النقلون) فى جوار قلهون على ساعتين الى الجنوب الغربى من مدينة الفيوم . وأما الدير المسمى دير الخشب فقد وصفه أبو صالح (صفحة ٢٠٥ — ٢٠٦) وذكره متصلا بدير القلمون وقد وصفه كذلك المقريزى (انظر الكتاب صفحة ٣١٣ — ٣١٤) ولكن الظاهر أنه اندثر من =

وقد جاء مثل هــذا الخبر فى الترجمة الأثيوبيــة لحياة (الأبا صمو يل) وقد جاء فيهــا ذكر رجل اسمه (مكسميانوس) وأنه أتى الى دير صمو يل فى الصحراء ومعــه مائتا جندى وأنه أعطاه كتابا يؤمن فيه بالإيمــان بمذهب خاقيدونيه (١) فمزقه صمو يل ورمى به من باب الكنيسة وهو يقول "ليس لنا من رئيس إلا بنيامين ولعنة الله على ذلك الكتاب الكفار الذى جاء من الامبراطور الرومانى ولعنة الله على مجمع خلقيدونيه وكل من آمن بمــا أقره" فضرب صمو يل حتى ظن أنه مات ثم غودر ولكنه عاد الى نفســه وسار الى القلمون حيث عاد لمحــادثه لقيرس وما أعقبهــا كما أسلفنا وصفه (٢) .

و إذا كان مثل هذا العسف يجرى فى الصحارى فمــا بالنا بما كان يحدث للقبط فى بلاد مصر السفلى والصعيد ـــ فلقد كان حظ من يأبى منهم أن يتخلى عن عقيدته أو ينازع قيرس فى أمره أن يجلد و يعــذب أو يلقى به فى السجن أو يلقى الموت . فكانت تقام أساقفة للملكانيــة فى كل بلد من مصر حتى انصنا (٣) من بلاد الصــعيد

= زمن (انظر كذلك كاترمير (Mem. Geog. et Hist.) (الجزء الأول صفحة ٤١١ و٤٧٣) ، وكتاب أميلنو (Geog. Copte) (صفحة ٢٧٣) ، والجريدة الأسيوية نوفبر سنة ١٨٨٨ صفحة ٣٩٨ ، وكتاب (Pereira) "حياة الأنبا شنوده" (صفحة ٣٦ ـــ ٤٠) وقد أخطأ (Pereira) فى أنه جعل القلمون على مســيره ١٥ ميــلا (أو ٢٩ كيلومترا) من الاسكندرية آخذا ذلك من كتاب (Rosweyde) (Vitae Patrum lib. X. C. 162) فإما أن نقول أنه قصد ١١٥ ميلا بدلا من ١٥ و إما أن القلمون الذى يقصده هو دير آخر وليس الدير الذى بالفيوم . وقد جاء فى (Bulletin de l'Institut Franç. d'Arch. Or.) (الجزء الأول صفحة ٧٢) أن دير النقلون فى الجبــل شرق كوم بشا وأن دير القلمون عند سفح الجبل فى مدخل الفيوم وأنه كان فيه اثنتا عشرة كنيسة .

(١) أنظر (Pereira) صفحة ١٤٢

(٢) الكتاب نفســه صفحة ١٤٦ ولم يسم قيرس صراحة ولكنه سمى الحاكم وكانت له سلطة الدين وسلطة الدنيا على مصر كلها فليس من شــك فى أنه كان قيرس و يجدر بنا أن نذكر هنا أن الديوان القبطى الذى نقلت عنه تلك الحادثة قد جاءت فيه هذه الكلمات "لما أتت الأنباء الى المقوقس عن طريقة معاملته لكتاب ليو دبر له مكيدة وقبض عليــه وضربه ضربا شديدا وقال له "اعترف أن مجلس خلقيدونيــه كان على الحق حتى أطلق سراحك" أنظر الجريدة الأسيوية نوفبر سنة ١٨٨٨ صفحة ٣٩٧) .

(٣) كانت (انصنا) وهى (أنتنويه) عنــد ذلك عاصمة (التيبائيــد) وكانت تجاه هرمو بولس مجنا الى الشمال من لاكو بولس (وهى سيوط) فالظاهر أن سلطان قيرس لم يكن عظيما فى جنوب سيوط .

فى حين كان قسوس القبط يقتلون أو يشردون فى أنحاء الأرض يلتمسون فيها ملاذا . وكان السعى حثيثا غير منقطع وراء بنيامين، ولكن لم يعثر عليه فى مكان . وقد جاء فى كتاب (ساويرس) أنه كان ينتقل من دير محصن الى آخر . وجاء فى ترجمة حياة شنوده[1] ما يفهم منه أن بنيامين لجأ الى دير الأنبا شنوده وهو الدير العظيم المعروف بالدير الأبيض، على أن هذه الرواية تختلف عما تواتر من الأخبار عن أنه إنما لاذ بدير فى الصحراء قريب من (قوص) . ولعل الدير الأبيض كان مع قوة حصونه ومنعة أسواره العظيمة غير كفيل بحماية بنيامين مدة طويلة لقربه من النيل، فى حين أنه كان يستطيع أن يجد ملاذا آمنا لا تصل إليه أيدى أعدائه فى جبال صحراء قوص، وما بها من المغاور الكثيرة والكنائس المنقورة فى الصخور .

وليس من العجيب أن يفتتن كثيرون ممن لم يستطيعوا الهجرة والهرب وأن يخضعوا لما شاء قيرس منهم، فقد كان حكمه حكم إرهاب . وإذا كان القبط لم تخمد نفوسهم فما كان لشعب بأجمعه أن يستشهد فى سبيل الدين . فدخل جماعة من الأساقفة

(١) هذه الترجمة باللغة العربية وقد نشرت مع ترجمة لها فى (Mem. Miss. Arch. Franc.) (الجزء الرابع (١) صفحة ٣٤٠) وجاء ذكر ما وقع بين بنيامين وقيرس على صورة نبوءة ويجدر بنا أن نذكر ذلك هنا " سيخرج الفرس من مصر ثم سيقوم «الدجال» (وهو الاسم المعتاد للمسيخ المفسد) وسيذهب أمام إمبراطور الروم وبعد أن يحصل منه على الرياستين رياسة الدنيا ورياسة الدين سيدخل مصر ويملك أرضها وملحقاتها وسيحفر الخنادق ويبنى الأسوار حول المدن فى الصحراء . وسيخرب الشرق والغرب وسيحارب الراعى أكبر أساقفة الاسكندرية والوالى على دين المسيحيين فى أرض مصر وسيهرب منه ذلك الراعى الى أرض (تيمان) حتى يعود الى ديرك وهو حزين متألم وعندما يعود الى هناك سأعيده الى حاله وأرجعه الى عرشه " .

وانظر ماقيل فى الدير الأبيض فى كتابنا (Anc. Copt. Ch.) الجزء الأول صفحة ٣٥١ وانظر الكتاب الجليل كتاب المرحوم (و. دى بوك) وهو (Materiaux pour servir à l'arch. de l'Eg. Chret.) صفحة ٣٩ وما بعدها . ولعل دير شنودة الذى ذكر هو الذى فى قوص وذكره أبو صالح ولكن ذلك الكاتب يفرق بينه وبين الدير الذى لجأ اليه بنيامين تفريقا واضحا .

فى المذهب الجديد مذهب عدوّهم ومن هؤلاء أسقف (نقيوس)[١] واسمه (قيرس) وأسقف الفيوم (فكتور)، ولا شك أن عدواهم انتقلت الى سواهم. أما من لم يستطع الهرب من الناس والخروج الى الصحراء وكان مع ذلك غير راض عن ترك مذهبه فقد لجأ الى التقية ، وأظهر غير ما يبطن حتى لقد بقيت فى الاسكندرية ذاتها بقية من القبط فى سنى الاضطهاد العشر ، مع أنهم لم يكن لهم بها إمام من مذهبهم اللهم إلا قس واحد من أهل مريوط اسمه (أجاتو) ، وكان كل يوم يخاطر بحياته فى سبيل دينه . فكان يخفى نفسه فى لباس نجار ويسير فى أنحاء المدينة فى النهار يحمل على ظهره كيسا قد وضع فيه آلاته وعدّته ، فاذا ما جاء الليل ذهب الى الكنيسة كى يقيم شعائر العبادة لإخوانه القبط . وقد صار هذا القس فيما بعد أكبر أصدقاء بنيامين وخلفه بعد موته على ولاية الدين .

وروى أن دير (مطره) ويسمى بدير (السقونية) نجح فى مقاومة (قيرس) ، وكان ذلك الدير فى الاسكندرية أو قريبا منها ، وكان السبب فى أنه بقى على عهده لم يتغير أن كل رهبانه كانوا مصريين خلصا ليس فيهم غريب واحد[٢] .

والظاهر أن المصريين سعوا مرة الى التخلص من (قيرس) مع ما كانوا عليه من الصبر والاحتمال الطويل ، فقد أثار حفيظتهم ما رأوه من فعله ، إذ تارة ينهب أوانى كنائسهم الثمينة لا يرقب فيها إلا ولا ذمة ، وتارة يضربهم أو يسجنهم . فاجتمع أتباع الطريقة (الجايانية) فى كنيسة (دفاشير) بقرب مريوط ، وتآمروا على قتل ذلك الظالم . ولكن سمع بهذا الاجتماع (ضابط) رومانى اسمه (أودوقيانوس) وهو أخو (دومنتيانوس)، وكان عدوا شديد العداوة للقبط ، فأرسل جندا وأمرهم أن يذهبوا الى المتآمرين فيقتلوهم . فكان ذلك وقتل الجنود بعضهم وجرحوا منهم

(١) تذكر النسخة المخطوطة فى المتحف البريطانى لكتاب (ساويرس) "قيرس أسقف (سفنوس)" ولكن نسخة القاهرة المخطوطة تذكر (نقيوس) وهذا حق . وأما المقريزى فانه يذكر بطرس بدل (قيرس) .

(٢) ساويرس نسخة المتحف البريطانى المخطوطة صفحة ١٠٧ (الكتاب ١١) .

البعض بسهامهم، وقطعوا أيدى طائفة منهم بغير أن يسمعوا منهم شهادة أو يقوموا معهم بشيء يشبه القضاء، وبذلك قضى على المكيدة ونجا قيرس من الخطر[١].

وقد أوردنا هذه القصص جميعها لكي ندل بها دلالة واضحة على شدة الاضطهاد وعنفه. وإنه ليخيل للانسان أنه من المستبعد أن يبقى مثل هـذا الاضطهاد عشر سنوات، ولكن هذا هو الحق الذى لا مراء فيه. فقد جاء فى ديوان (حنا النقيوسى) ما يأتى: "وظل قيرس الى ما بعـد موت هرقل عند ما عاد الى مصر" (وذلك فى سنة ٦٤١ بعد نفيه من البلاد أو غيابه عنها فترة)، "لم يذهب عنه حقده على عباد الله ولم يمتنع عن اضطهادهم بل زاد قسوة على قسوة". وقد جاء مثل هـذا القول فى كتاب (ساويرس) إذ قال: "فكان هرقل كأنما هو ذئب ضار يفتك بالقطيع ولا يشبع نهمه، وما كان ذلك القطيع إلا طائفة (التيودوسيين)[٢]". ولكن ما كان الاضطهاد إلا ليزيد من استطاعوا مقاومته إيمانا على إيمانهم، بدل أن يفتنهم عنه ويقضى عليه. فكانت الشدائد تتوالى بمذهب القبط والمصائب تفتك بأصحابه، ولكنه ظل قويا لم تلن قنـاته، وبقى أكثر الناس على إيمانهم ثابتين أقوياء. ولكن حدّ ذلك البطش كان قد بلغ نفوسهم فثلمها وجعل الداء ينخر فى جراحهم مدّة ظلم تلك السنوات العشر وظلامها فكان ذلك سببا فى ضياع كل أمل فى عودة السلام

(١) حنا النقيوسى صفحة ٥٦٦ ويقول زوتنبرج بحق أن الفقرة التى بها هذا الخبر خارجة عن موضعها فان هذه الحادثة كانت قبل غزوة المسلمين. انظر ماقاله أميلنو فى (دفاشير) (Geog. Copte) صفحة ١٢٢، وقد سبق ذكرنا لهذا الموضوع (صفحة ٢٤) عند ذكر ثورة نيقيتاس.

(٢) هـذا القول عجيب وهو يدل على أنه فى أيام (ساويرس) كان القبط لا يزالون يسمون أنفسهم (التيودوسيين) وأن لفظ «القبط» فى الحقيقة كان مرادفا للفظ «تيودوسيين» وكان «الجيانيون» طائفة صغيرة فى وقت قيرس (أنظر هامش صفحة ٢٧) ومع ذلك فالأستاذ (Bury) عند ما ذكر تولية قيرس يقول إن "أوّل عمل قام به هو أن يستميل اليه الطائفة الكبرى طائفة التيودوسيين أو (الفطار تولاتريين) أنظر كتابه (Later Rom. Emp.) (الجزء الثانى صفحة ٢٥١).

والوفاق بين الطائفتين المتنازعتين ، إذ استفحل الأمر واستمر مرير العداوة والكراهة لسلطان الدولة البيزنطية ودينها جميعا .

وليت شعرى ماذا كان يدور بنفوس أهل مصر إذ ذاك ، وبأى عين كانوا ينظرون الى تلك الحركة العظيمة التى ثارت فى بلاد العرب ، فما زالت حتى قرعت بلاد الشام وهزت مدائنها هزا . إنا نقول ، وإن قولنا لما يشرف القبط ، إننا لا نجد أقل دليل يبعثنا على الظن أنهم نظروا الى تلك الحركة نظرة الميل والرضى . على أنهم لا بدّ قد بلغهم أن المسلمين يدعون للمسيحيين أمور دينهم ، ولعلهم قد خطر بقلوبهم عند ذلك أن الخضوع للسلمين قد يخفف من الآلام التى نغصت عليهم حياتهم ، وأن نير المسلمين قد يكون أخف حملا من نير الملك الأصيل فى دين المسيح وهو هرقل . لا شك فى أنهم قد كرهوا دين الاسلام ، وتدل على ذلك كل صفحة من صفحات تاريخهم ، ولكن سيف (قيرس) قطع آخر ما كان يربطهم الى الدولة الرومانية من أسباب الولاء ، وذلك لكثرة ما لاقوه فى مدّة السنوات العشر من الظلم الذى نزل بهم الى حضيض من الشقاء لا أمل معه . فرأوا فى مجىء المسلمين نازلة أرسلها الله لينتقم لهم بها من ظالميهم .

وهكذا دفع سوء الحكم خير بلاد الدولة الإمبراطورية الى مأزق ما أضيقه ، ولسنا نستطيع أن نعرف جناية من هذه ، أهى جناية هرقل وقد أطاعه المقوقس فيما أمر به من الشر ، أم هى جناية المقوقس وقد عصا سيده وخان أمانته . فمن الجلى أن هرقل كان يقصد فى مبدأ أمره الى قصد نبيل ، فما كان أعظم أن يخلع على الكنيسة من السلام مثل ما خلع على الدولة ، ولكنه لم يعرف ثبات الناس على أديانهم وحرصهم عليها ، ولم يعرف أن الدين كان متغلغلا فى أعمق لجاج الدولة ، وأنه إذا شاء أن ينزعه منها بالقوّة كان فى ذلك أشد الخطر على حياتها . وكذلك كان اختياره لمن ينفذ له أغراضه غير موفق ، فقد أرسل الى مصر رجلا ليعيد السلام فاذا به ظالم عات ، وأرسل كلمة يقصد بها نشر السلام فلم يؤدها الرسول أو لم يسمع بها الناس . وأما الاضطهاد

فلا شك فى أنه قد وافق عليه وأقره، ولكنه قد يكون أقره بعد أن لم يجد عنه محيصا ، فى حين أن قيرس لجأ الى العسف بادئ ذى بدء ولم يلجأ الى وسيلة سواه . ومهما يكن من شىء فقد كان رأى الإمبراطور فى القضاء على اختلاف المذاهب بأمر يأمر به، رأيا بعث به الخيال والوهم . فقد ظن أنه يستطيع بكلمة سحر يقولها أن يهدئ العواصف الثائرة من الخلاف فى المذاهب، فرأى أنه زاد العاصفة شدّة، ولم يستطع الصبر على الخيبة ولم يرض أن يدع الأمور الى الزمن ويلزم جانب الاعتدال ، فعزم أن يسعى للسلام بخوض حرب دينية فى مصر والشام . فكان بعمله هذا يمهد السبيل فى القطرين لمطلع جنود الإسلام .

الفصل الرابع عشر

مسير العرب الى مصر

عمرو بن العاص يفضى الى الخليفة برأيه فى فتح مصر — تردّد عمر فى السماح له — الكتب التى بعثت يطلب بها رجوعه وفتحها عند العريش — اقامة يوم الأضحى هناك — خلق القائد العربى — طوله وصفة جسمه — دحض ماقيل من وصفه بأنه تمتام — تاريخ حياته — دخوله فى الاسلام وبعث النبى به على سرية من سراياه — قصص عدّة تبين صفاته .

الظاهر أنه بعد أن سلم البطريق (صفرونيوس) الشيخ مدينة بيت المقدس سار عمر بن الخطاب الخليفة وعمرو بن العاص القائد وذهبا كلاهما نحو الشمال . وقد ارسل عمرو مددا للعرب المحاصرين لقيصريه[(١)]، أما عمر فقد أقام فى دمشق . ولعل عمرا قد أفضى اليه برأيه فى فتح مصر منذ كانا فى بيت المقدس، ولكن الخليفة رأى أن وقت ذلك الفتح لم يحن بعد . فلما ظهر العرب وانتهت الحرب أو كادت عاد عمرو الى عرض رأيه، وجعل يبين للخليفة ما كانت عليه مصر من الغنى وما كان عليه فتحها من السهولة، وقال له إنه ليس فى البلاد ما هو أقل منها قوة[(٢)] ولا أعظم منها غنى وثروة، ثم قال له إن (اريطيون) حاكم الروم على بيت المقدس — وكان قد هرب من المدينة قبل تسليمها اليهم — قد لاذ بمصر، وإنه كان يجمع فيها جنود الدولة، وإن على العرب ألا يضيعوا الوقت بل أن يوقعوا به قبل أن يستفحل الأمر[(٣)]، وإن

---

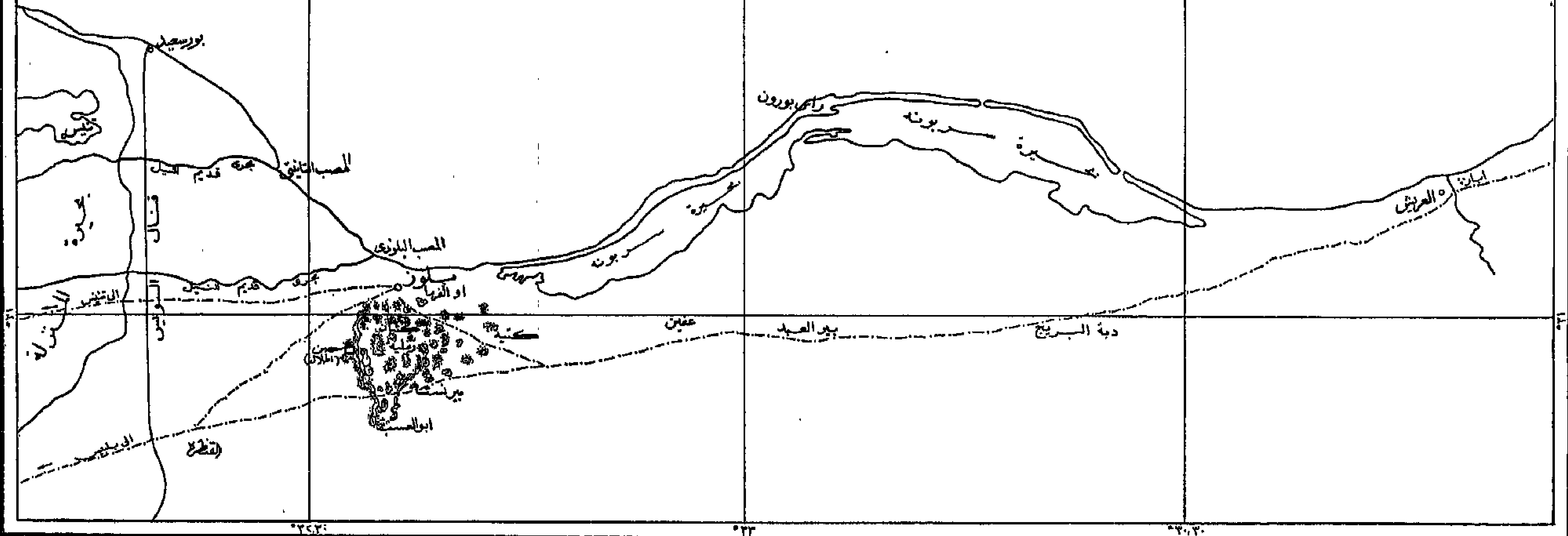
(١) أنظر كتاب "Conquête de la Syrie" De Goeje صفحة ١٣٠، وقد جاء فى ابن خلدون وابن الأثير أنه "لما أخذ عمر بيت المقدس سار عمرو الى مصر" ولكن البلاذرى وهو أسبق منهما وأثبت يقول إن مسير عمرو كان عند حصار قيصرية وهو يروى رواية يفهم منها أن عمرا سار بغير علم عمر، وروى رواية أخرى أن عمرا كان فى مسيره مؤتمرا بأمر الخليفة، ويروى المقريزى الروايتين معا .

(٢) أخذنا هذا عن معجم البلدان لياقوت (الجزء الثالث صفحة ٨٩٣) .

(٣) الطبرى نشرة زوتنبرج الجزء الثالث صفحة ٤١١

خريطة الأقليم
بين
العريش وتنيس

ميل ٠ ٥ ١٠ ١٥ ٢٠ ٢٥



مصر بعد ذلك تكون قوة للسلمين إذا هم ملكوها . وكان اجتماع القائد بالخليفة فى (الجابية)(١) بقرب دمشق وذلك فى خريف سنة ٦٣٠ للميلاد، وكان العرب لا يزالون على حصار مدينة قيصرية .

وقد رأى عمر أن فتح مصر فيه خير للسلمين، ولكنه ظن أن عمرا يقلل من شأن ما يلقاه من الصعوبة فى فتحها، وكان فى ذلك الوقت لا يستطيع أن يضعف جند الشام بأن يبعث منهم جيشا كافيا لفتح مصر. فلما طلب منه عمرو أن يسير إلى مصر بجيش من ٣٥٠٠ أو ٤٠٠٠ رجل وعده أمير المؤمنين أن يفكر فى الأمر، فإنه كان لم يستقر على رأى فى ذلك . ثم عاد عمرو بن العاص إلى قيصرية وكان قسطنطين ابن هرقل قائد الجند بها . فبعث الخليفة وراءه بكتاب مع (شريك بن عبده)(٢) يقول له فيه إنه قد رضى بغزو مصر، وتقدم اليه أن يجعل الأمر سرا وأن يسير بجنده إلى الجنوب سيرا هينا . فسار عمرو بن العاص فى الليل فى جيش صغير من الخيل ولم يحدث له حدث حتى صار عند الحدود بين مصر وفلسطين، وسار بعد ذلك حتى صار عند رفح(٣) وهى على مرحلة واحدة من العريش بأرض مصر. فأتت عند ذلك رسل تحث المطى تحمل رسالة من الخليفة .

(١) المقريزى نقلا عن ابن عبد الحكم ولعل هذا أقرب ما قاله سعيد بن بطريق أن عمر كان قد عاد الى المدينة وهناك كتب الى عمرو يأمره بالسير الى مصر .

(٢) جاء اسمه ذلك فى المقريزى إذ قال "ويقال إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب الى عمرو بن العاص بعد ما فتح الشام أن اندب الناس الى المسير معك الى مصر فمن خف معك فسر به وبعث به مع شريك بن عبده" . وفى الأصل الانجليزى تحريف مطبعى لاسمه فقد ورد فيه هكذا (Sharikh. b. 'Ah dâb) (المعرب) .

(٣) أنظر وصف هذه الأماكن فيما كتب فى طبعة (Hamaker) للواقدى صفحة ١٠٥ وانظر كتاب كاترمير "Mem. Geog. et Hist." الجزء الأول صفحة ٥٣ وكتاب (شمپليون) "L'Eg. sous les Pharoans" الجزء الثانى صفحة ٣٠٤ وأميلنو " Geog. Coptes " صفحة ٤٠٤ وكتاب أبى صالح صفحة ٧٠ وقد جاء فى النص العربى للواقدى أن عمرا "ترك الصحراء وجعل الحصون التى فى طريقه الى مصر عن يمينه وهى رفح والعريش والعداد والبقارة والفرما (صفحة ٨) ولكن هذه العبارة غير مستقربة فى ذاتها ولا توافقها الكتب الأخرى وقد جاء فى ابن الأثير أن عمرا عند ما كان فى هليوبولس أرسل أحد قواده لحصار الفرما وآخر لحصار الاسكندرية ولكن ما ذكره عن فتح مصر كله مضطرب مختلط .

ففطن عمرو إلى ما فيها وظن أن الخليفة لابد قد عاد إلى شكه فى الأمر خاشيا من الاقدام والمضى فيما عزم عليه . وقد كان الخليفة كلم عثمان وأفضى إليه بما يرى من المخاطر فى تلك الغزاة، فأجابه عثمان قائلا إن تلك الغزاة كانت عظيمة الخطر، وزاد على ذلك أن قال إن عمرو بن العاص فيه جراءة وتهوّر، وإنه لا بد يقتحم بالناس المخاطر ويرمى بهم إلى الهلكة . فخشى عمر بن الخطاب خشية عظيمة وعوّل على أن يأمر ابن العاصى بالرجوع إذا كان ذلك ممكنا . ولكنه أحس أن جيش العرب إذا دخل مصر كانت عودته عنها خذلانا وسبة للسلمين إذ يكون ذلك بمثابة الفرار من العدوّ، وعلى ذلك أرسل كتابه وتقدّم فيه إلى عمرو بن العاص أن يعود إذا كان بعد فى فلسطين، فإذا كان قد دخل أرض مصر فليسر على بركة الله، ووعده أن يدعو الله له بالنصر وأن يرسل له الأمداد(١) . أما عمرو فقد كان بدأ أمره ولم يكن بالرجل الذى ينقض ما بدأ فيه، وعرف أن ذلك الكتاب الذى لحق به لم يأته بالرضا عما هو فيه، ولهذا لم يأخذه من الرسول حتى عبر مهبط السيل الذى ربما كان الحدّ بين أرض مصر وفلسطين، وبلغ بسيره الوادى الصغير الذى عند العريش . وهناك أتى له بالكتاب فقرأه، ثم سأل من حوله "أنحن فى مصر أم فى الشام" فقيل له "نحن فى مصر" فقرأ على الناس كتاب الخليفة ثم قال "إذن نسير فى سبيلنا كما يأمرنا أمير المؤمنين"(٢) .

ولا شك فى أن عمرا لقى من الناس الجواب الذى كان يرغب فيه .

(١) لعل هذه خير رواية لهذا الحادث الذى خلط فيه المؤرخون العرب خلطا شنيعا وقد اخترتها من بين روايات المقريزى . وأما ابن عبد الحكم ومن أخذ عنه من المؤرخين فيقولون إن عمر وافق على سير عمرو إلى مصر ثم قال له " سأرسل اليك بعد قليل كتابا فاذا أمرتك فيه بالرجوع فارجع إلا إذا كنت قد دخلت فى أرض مصر فاذا كنت قد دخلت فيها فسر على بركة الله " واذا صح هذا كان منهجا من مناهج الحمق ولكن عمر ليس ممن يوصفون بمثل هذا الوصف والحقيقة بغير شك هى أن عمر وافق وهو متردّد على سير عمرو إلى مصر ثم ندم على ذلك فأرسل وراءه يأمره بالرجوع إذا كان ذلك مستطاعا بغير ضرر لاسم العرب . وقد روى ابن بطريق ثلاث روايات لهذه القصة ويمكن أن نشبهها بما رواه المقريزى .

(٢) جاء فى المقريزى : " قال عمرو فان أمير المؤمنين عهد إلى وأمرنى إن لحقنى كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع ولم يلحقنى كتابه حتى دخلنا أرض مصر فسيروا وأمضوا على بركة الله" . وقد أورد المقريزى روايات أخرى يصدق بعضها ما ذهب اليه المؤلف . (المعرب) .

ولنا هنا ملاحظة غريبة وهى أن العريش وإن كانت تعدّ عادة من بلاد مصر لا يخلو أمرها من الشك[١]، غير أن سياق القول يدل على أنها كانت خلوا من جيش الروم مع أنها كانت مدينة ذات حصون، وكانت أسوارها لا تزال منها بقية ماثلة بازاء البحر إلى القرن الثالث عشر، وكذلك كانت أطلال الكنيستين العظيمتين القديمتين . وكان يقال فى ذلك الوقت إن أجود أنواع المرمر وأعظم العمد التى فى القاهرة كانت تأتى من العريش[٢] وما أعجب هذا . وقد روى بعض المؤرّخين أن سور مصر العظيم كان يبدأ من هناك ويتجه إلى القلزم (وهى السويس)، ثم يتجه مع شاطئ النيل الشرقى إلى الجنوب حتى الجنادل الأولى . ويقال إن من بنى ذلك السور هو (سيزوستريس) وقد سماه العرب (سور العجوز)؛ ولكنه كان قد تهدم منذ زمن طويل حتى أنه لم يعق سير الجند فى القرن السابع . وقد بقيت من أطلاله إلى اليوم قطع عند جبل الطير وفى مواضع أخرى فى مصر[٣] .

وقد أقام جيش العرب الصغير عيد الأضحى فى العاشر من ذى الحجة من عام ١٨ للهجرة وهو اليوم الثانى عشر من ديسمبر سنة ٦٣٩[٤] للميلاد، وهو عيد القربان وعيد الحج عند المسلمين، وكان الاحتفال غير خال من الجد والرونق بين هؤلاء العرب

---

(١) قد بين كاترمير فى الفصل الأول أن الحدود كانت عند (الواردة) وضبطها كذلك وجاء فى كتاب البلدان لليعقوبى (المتوفى سنة ٩٠٠) (Bibl. Geog. Arab ed. de Goeje) (الجزء الثامن صفحة ٣٣٠) "يذهب الآتى من فلسطين الى مصر أوّلا الى الشجرتين عند الحدود ثم إلى العريش فى إقليم الحدود ثم إلى (البقارة) (هكذا) ثم الى (الواردة) بين كثبان الرمل ثم الى (الفرما) وهى أول مدينة مصرية وبعدها مدينة (جرجير) ثم فاقوس ثم مدينة (غيفة) حتى يبلغ الفسطاط .

(٢) أنظر كتاب أبى صالح صفحة ١٦٧

(٣) أبو صالح صفحة ٥٩ هامش ٤ وقد ذكر فيه (ديودور وسعيد بن بطريق وبعض كتاب العرب .

(٤) هذا التاريخ أورده ابن عبد الحكم وهو يتفق مع التواريخ الأخرى المعروفة فيمكن أن نعتبره ثابتا وتجنبا للتكرار الذى لا حاجة اليه يجب علينا أن ندل القارئ على مقالة "عن تاريخ الفتح العربى" فى آخر هذا الكتاب .

الذين كانوا يسيرون مع زعيمهم العظيم تربطهم به روابط النسب والولاء، وذلك مع ما كانوا عليه من قلة — إذ كانوا لا يعدون أن يكونوا كتيبة من جند الصحراء — ومع عظيم ما جاءوا له إذ جاءوا لفتح بلاد الفراعنة. وكان أكثر من مع عمرو من الجند من قبيلة (عك) وأن كان الكندى يقول إن ثلث الناس كانوا من (غافق)(١). ويروى ابن دقماق أنه قد كان مع جيش العرب جماعة ممن أسلم من الروم وقد سماهم فى كتابه، وقال أيضا إنه قد كان مع جيش العرب جماعة ممن أسلم من الفرس الذين كانوا باليمن، ولعل هؤلاء جاءوا فيما بعد مع الأمداد التى بعث بها الخليفة الى مصر(٢).

والآن فلننصرف الى عمرو نفسه — فأى رجل كان هو بين الرجال ؟ فقد جاء فى الأخبار كثير من أقواله وذكر صفاته، وإذا نحن أردنا أن نكتب تاريخ فتح العرب لمصر كان لزاما علينا أن نكتب شيئا عن قائد ذلك الفتح. كان عمرو بن العاص فى نحو الخامسة والأربعين من عمره فى وقت غزو مصر(٣). وكان قصير القامة، قوى البنية، معود الجسم احتمال المشقة مرن الأعضاء. وقد ساعده ذلك على أن يبرز فى أفانين الفروسية والضرب بالسيف، وهى الفنون التى اعتاد أهل الفروسية فى الغرب أن يقرنوها باسم العرب(٤). وكان عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين، له عينان سوداوان ثاقبتان سريعتا التأثر سواء أكان ذلك فى حال الغضب أم فى حال السرور وفوقهما حاجبان غزيران، ودون ذلك فم واسع. وكان

(١) ياقوت الجزء الأول.

(٢) ابن دقاق الجزء الرابع صفحة ٥٤، ويقول عن هؤلاء الفرس أنهم بقية الجيش الذى كان كسرى أرسله الى اليمن بقيادة (باذان) أو (هورزاد) أنظر ما سبق ذكره فى صفحة ١٢٦ هامش ٢

(٣) لعل هذا خير رواية عن هذا الأمر كما حاولت أن أبين فى الذيل الخامس ناقضا فى ذلك قول بعض المؤرخين الذين يقولون إنه كان أكبر سنا من ذلك.

(٤) ابن قتيبة وابن خلكان وأبو المحاسن هم الذين نقلنا عنهم ذلك وكتابا المؤلفين الأولين عبارة عن قاموسى تراجم للحياة وقد ترجم ما جاء عن عمرو فى كتاب ابن خلكان ترجمه (De Slane) ويصف أبو صالح (صفحة ٧٨) وصفا آخر أو وصفين لعمرو بن العاص ولعله أخذهما عن ابن عبد الحكم.

وجهه ينم عن القوة فى غير شدة، وتلوح عليه لائحة البشر والأنس، وكان يخضب لحيته بالسواد. هذا كل ما رواه لنا المؤرخون من وصف مظهره. ولعل وصفه بأنه تمتام كان وصفا غير صحيح. حقا إن أبا المحاسن روى[1] عن عمرو ذلك العيب، وقال إنه العيب الوحيد فى جسمه. ولكنه كان معروفا بسرعة رده وحدة ذهنه فى الإجابة المسكتة، كما كان معروفا بطول خطبه وبلاغتها. فالظاهر من ذلك أن من وصفه بأنه تمتام كان واهما، ولعل ذلك الوهم كان أثر خلط وسوء فهم. فقد روى[2] عن عمر ابن الخطاب أنه سمع مرة رجلا يتلجلج فى الكلام فقال "أشهد أن خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد". وليس معنى هذا أن عمرا كان تمتاما بل يقصد بذلك القول أن الله تعالى خلق الأبكم والمفصح كلاهما. وذلك مثل ما روى عن عمرو بن العاص نفسه اذ أحرج صدره أحد الجهلاء يوما فقال يعرض به "إنه كذلك من مخلوقات الله تعالى". ولكن قول عمر بن الخطاب قد أخرجه جماعة من كتاب العرب عن معناه وأولوه بأن المقصود منه أن عمرا كان يتلجلج فى كلامه. ولو قصد عمر ابن الخطاب ذلك لكان قوله لا معنى له، وفيه اعتداء على عمرو، وذلك لا يتفق مع مكانة عمرو فى قومه وما عرف عنه من الفصاحة فى الكلام. ولو كان متصفا بذلك العيب لكان من المستبعد أن يختاره النبى عليه الصلاة والسلام من أول إسلامه ويجعله من كبار قواده وأن يكون يوما ما زعيما عظيما بين الناس. وبعد، فان عمرا كان فوق ذلك كله إماما يؤم الناس فى صلاتهم، وظل كذلك الى آخر أيامه. وإن الشرع الاسلامى ينص على أنه لا يصح للتمتام أن يصلى بالناس[3].

(١) من العجيب أننا عدنا الى النسخة المطبوعة فى دار الكتب المصرية لكتاب أبى المحاسن "النجوم الزاهرة" فلم نجد ذكرا لهذا العيب ثم وجدنا فيه وصفا حسنا لعمرو فى ترجمته فى الكتاب الأول صفحة ٦٢ وما بعدها. وكل ما روى عنه يدل على الفصاحة والبلاغة. وقد ذكرت كلمة عمر "أشهد أن خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد" ولكنها ذكرت هناك على سبيل الدلالة على فصاحة عمرو (المعرب).

(٢) هذه القصة مأخوذة عن ابن الحجر ولو أنه بغير شك نقلها عن كتب قبله.

(٣) قد قتل خارجة بن حذافة بينما كان يصلى بالناس نائبا عن عمرو لمرضه. أنظر ما جاء بعد فى فصل الخاتمة وانظر ما كتبه الماوردى فى الشريعة الاسلامية فى كتاب الأحكام السلطانية. الباب التاسع "باب إمامة الصلاة" صفحة ١٧١ وما بعدها.

وعلى ذلك يكون ماروى من أن عمرا كان متصفا بذلك العيب خبرا غير جدير بالتصديق .

وأما سائر صفاته فقد جاء من أخباره وأقواله ما يدل عليها وعلى حوادث حياته . فقد كان من قريش، ونسبه معروف[(١)]. وكان إسلامه فى السنة السابعة أو الثامنة للهجرة . ويروى عن إسلامه خبر أو إثنان فقد سئل مرة[(٢)] "ماعاقك عن الاسلام تلك المدة الطويلة مع رجحان عقلك؟" فأجاب أنه كان فى أول أمره يخشى سوء رأى مشيخته، فلما كبر وميز أخذ نفسه بالهوادة فى معارضة النبى . وقد أرسلت اليه قريش واحدا من قومها يسأله عن إسلامه فجعل عمرو يسائل من جاء يسأله فقال له : "أى الناس على دين الحق — أهم العرب أم الفرس أم الروم؟" فقيل له "بل العرب" فقال "أنحن أكثر منهم مالا أم هم أكثر منا؟" فقيل له "بل هم" فقال له "فأى فضل اذن للعرب على الفرس والروم اذا لم تكن ثم حياة فى الآخرة . فانهم قد ذهبوا بخير هذه الحياة الدنيا جميعا" ثم قال عمرو إنه قد أسلم وآمن بالنبى واليوم الآخر وبالعقاب والثواب بعد الموت وعزم على ترك الباطل من دين العرب القديم . وقيل إن عمرا أسلم منذ كان فى الحبشة وإن إسلامه كان على يدى جعفر بن أبى طالب .

وروى فى الخبر أن عمرا قال مرة للنبى "يارسول الله إنى أبايعك على أن يغفر لى مامضى من ذنبى" فقال له النبى "إن الاسلام والهجرة[(٣)] يجبان ما كان قبلهما" فكان عمرو لا يرفع عينه من وجه النبى عرفانا منه لصنيعه وكان يقول "والله ما كنت أملأ عينى منه أو أنظر الى وجهه ما أردت، إلا رأيت الحياء فى وجهه[(٤)] .

(١) جاء نسبه فى كتاب ابن قتيبة هكذا : عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سهم بن هصيص بن كعب ابن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، ويضيف أبو المحاسن الى ذلك "أبو عبد الله القرشى السهمى الصحابى" .

(٢) ابن الحجر .

(٣) ليس معنى هذا أن عمرا كان ممن هاجر فانه اذا كان معناها هذا كانت القصة مشكوكا فيها .

(٤) قول المؤلف هنا مضطرب ولسنا نعرف مصدر روايته هذه ولعله لم يحسن فهم النص العربى الذى يدل على حياء عمرو من النبى وليس حياء النبى منه . فقد جاء فى كتاب "النجوم الزاهرة" لأبى المحاسن ما يلى =

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يرى فى عمرو رأيا حسنا، وقد قال فيه يوما إنه من خير المسلمين وأكثرهم ثقة(١)، وقال فيه أيضا إنه من "صالحى قريش"، وكان يحبه لحسن رأيه ولشجاعته. وكان لعمرو أخ من أبيه اسمه هشام قتل يوم اليرموك، وقد سئل عمرو عنه فقال "حسبكم أن أقول إن أمه أم حرملة عمة عمر بن الخطاب وأمى عنزية، وكان أحب الى أبى منى وبصر الوالد بولده ما قد علمتم، وأسلم قبلى واستبقنا الى الله فاستشهد يوم اليرموك وبقيت بعده(٢)".

وكان أكبر ما امتاز به عمرو أن النبي نفسه عقد له على بعض سراياه، وقال له عند ذلك إنه قد أمره على الناس ودعا له بالسلامة والغنيمة. فقال عمرو عند ذلك انه لم يسلم للمال بل أسلم لوجه الله. فقال له النبي إن المال الحلال خير ما يرزأ المؤمن. وأكبر الظن أن عمرو بن العاص لم ينس تلك الحكمة فيما بعد. وكان على قيادة كتيبة من الكتائب فى يوم السلاسل، فأرسل يستمد النبي فأرسل اليه مائتى رجل فيهم أبو بكر وعمر وعليهم أبو عبيدة بن الجراح، فلما أقبلوا عليه قال عمرو "أنا أميركم وأنتم لى مدد". فقال أبو عبيدة "لا بل أنا أمير على من معى وأنت أمير على من معك". فأبى عمرو هذا فقال أبو عبيدة "لقد قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تختلفا وإنك إن عصيتنى أطعتك" فقال عمرو "فانى آبى أن أطيعك" فسلم عليه أبو عبيدة عند ذلك بالأمارة ووقف وراءه فى الصلاة.

= جاء ... "ان عمرو بن العاص قال: يا رسول الله أبايعك على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى" قال: "ان الاسلام والهجرة يجبان ما كان قبلهما" قال عمرو: "فوالله ما ملأت عينى منه ولا راجعته بما أريد حتى لحق بالله (حياء منه)". ولعل المؤلف قد رأى ترجمة لهذا القول أساء مترجمه فهمه. ويعزز هذا ما جاء فى الطبقات الكبرى لابن سعد فى نهاية هذا الحديث وهو قوله "ولو سئلت أن أنعته ما أطقت لأنى لم أكن أطيق أن أملأ عينى منه اجلالا له».

(١) جاء هذا الخبر عن عقبه بن عامر رواه أبو المحاسن والنواوى وبينهما اختلاف قليل (المؤلف).

(٢) لعل المؤلف يشير الى ما روى عن عقبة بن عامر إذ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أسلم الناس وآمن الناس عمرو بن العاص" رواه الترمذى. ويفهم من ذلك الحديث أن المقصود بآمن الناس إنما هو الايمان لا الثقة. وقد جاء فى الأصل الانجليزى (Most trustworthy of men) وهو غير المقصود من الحديث على ما يظهر (المعرب).

(٣) هذا النص أخذناه من نسخة من كتاب "المعارف" لابن قتيبة بدار الكتب المصرية (المعرب).

وقد عقد النبي لعمرو بعد وقعة السلاسل على عمان فظل عليها حتى لحق النبى بربه. وبعد سنة أو سنتين من ذلك جعله أبو بكر أحد القواد الذين سيرهم الى الشام، وفى تلك الحروب نما أمره وذاع اسمه فى معرفته بمكيدة الحرب والشجاعة. وقد آلمه تقديم أبى عبيدة عليه إذ أمره عمر فى أول خلافته. ولكن لعل أجلى ما جاء فى وصفه ما قاله هو عن نفسه دفاعا عند ما سمع أن بعض الناس يعذل معاوية على تقديمه إياه(١) قال "انى من تمثل يوم صفين بقول من قال :

إذا زاغت الأبصار حولى رأيتنى وطرفى ثبيت لم يكل ولم يغض
وأغمضت عينى منذ خابوا ولم يكن عن الموت يوم الروع ما كان من غمضى

وقدعلمتم أنى الكرار فى الحروب، وأنى الصبور على غير الدهر، لا أنام عن طلب، كأنما أنا الأفعى عند أصل الشجرة. ولعمرى لست بالوانى أو الضعيف، بل أنا مثل الحية الصماء لاشفاء لمن عضته، ولا يرقد من لسعته. وإنى ما ضربت إلا فريت ولا يخبو ما شببت. عرفنى أصحاب يوم الهرير أنى أشدهم قلبا وأثبتهم يدا أحمى اللواء وأذود عن الحمى. فكأنى وشانئى عند قول القائل :

وهل عجب ان كان فرعى عسجدا إذا كنت لا أرضى مفاخرة العشب"

وإن مثل هذا القول ليظهر الرجل فى اعتداده بنفسه ومعرفته لمقدارها. ولا شك فى أن عمرا قد أظهر شيئا من قلة التعفف فى الخلاف الذى أعقب يوم صفين فقد روى الذهبي أنه هتك ما كان معاوية يتستر به من النفاق والادعاء فى أيام وقعة صفين، إذ قال "يا معاوية أحرقت قلبي بقصصك. أترى أننا خالفنا عليا لفضل منا عليه ؟ لا والله إن هى إلا الدنيا نتكالب عليها. وايم الله لتقطعن لى قطعة من دنياك أو لأنابذنك" ولا يسع المطلع على ما كان منه فى أمر التحكيم إلا أن يرى فى عمله خيانة وخدعة لأبى موسى، فكان أبو موسى كلما صلى قرن دعاءه بلعن عمرو، وكان يقول له

(١) هشام ابن الكلبي هو المؤلف الذي أخذنا عنه هذه القصة ولا شك أن هذا الحادث قد وقع فى عصر متأخر من حياة عمرو وبعد فتح مصر (المؤلف). (٢) قد حاولنا جهدنا أن نأتى بالنص لهذا القول فلم نوفق مع كثرة بحثنا فاضطررنا الى ترجمة المعنى (المعرب).

" ما مثلك ياعمرو إلا كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث " فقال له عمرو " وما مثلك أنت إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا[(١)] " .

وقال ابن الحجر إن أحد أصحاب عمرو قال عنه " ما رأيت رجلا يعرف كلام الله معرفته ولا رجلا أكرم نفسا ولا أشبه سرا بعلانية منه " . وقال رجل اسمه جابر[(٢)] " لم أر رجلا أقرأ لكتاب الله من عمر وصحبت معاوية فما رأيت رجلا أحلم منه ، وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا أبين طرفا ولا أكرم جليسا " وإنا موردون هنا خبرا أو اثنين من أخباره لندل بهما على كرم نفسه وصراحته وحبه لجمال النسق[(٣)] : فقد لامه بعضهم مرة على أنه يركب بغلة هرمة قبيحة المنظر فقال له " لامللَ عندى لدابتى ما حملتنى ولا لامرأتى ما أحسنت عشرتى ولا لصديق ما حفظ سرى[(٤)] " وقيل إنه وقع مرة بينه وبين المغيرة بن شعبة كلام فاغتاظ المغيرة وسبه ، فقال عمرو وقد ثارت ثائرته " يا آل هصيص أيسبنى ابن شعبة " فقال عبد الله ابنه وكان قريبا " إنا لله . دعوت بدعوى القبائل وقد نهى عنها " فقبل الوالد تأنيب ابنه وأعتق ثلاثين رقبة يكفر بها عن ذلك . وسمع يوما وهو أصغر من ذلك سنا إذ كان بالمدينة خطبة من خطب زياد فلما رأى بلاغتها قال " لله در هذا الغلام لو كان من قريش لساق العرب بعصاه[(٥)] " .

(١) روى هذا أبو المحاسن عن الذهبى .

(٢) فى الأصل الانجليزى تحريف مطبعى إذ جاء اسمه جابر هكذا (Gabiz) (المعرّب) .
روى أبو المحاسن فى كتابه عمن روى عن جابر صاحب عمرو أنه قال " ... وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا أبين (أو قال) أنصع ظرفا منه ولا أكرم جليسا ولا أشبه سرا بعلانيه منه " .

(٣) الأصل الانجليزى (Musical Measure) ولا يرد ذكر لقصة تدل على حبه للغناء فلعل قصد المؤلف بجمال النسق أيا كان ولو كان فى خطبة بليغة ومثل ذلك ما ذكر بعد من إعجابه بخطبة زياد (المعرّب) .

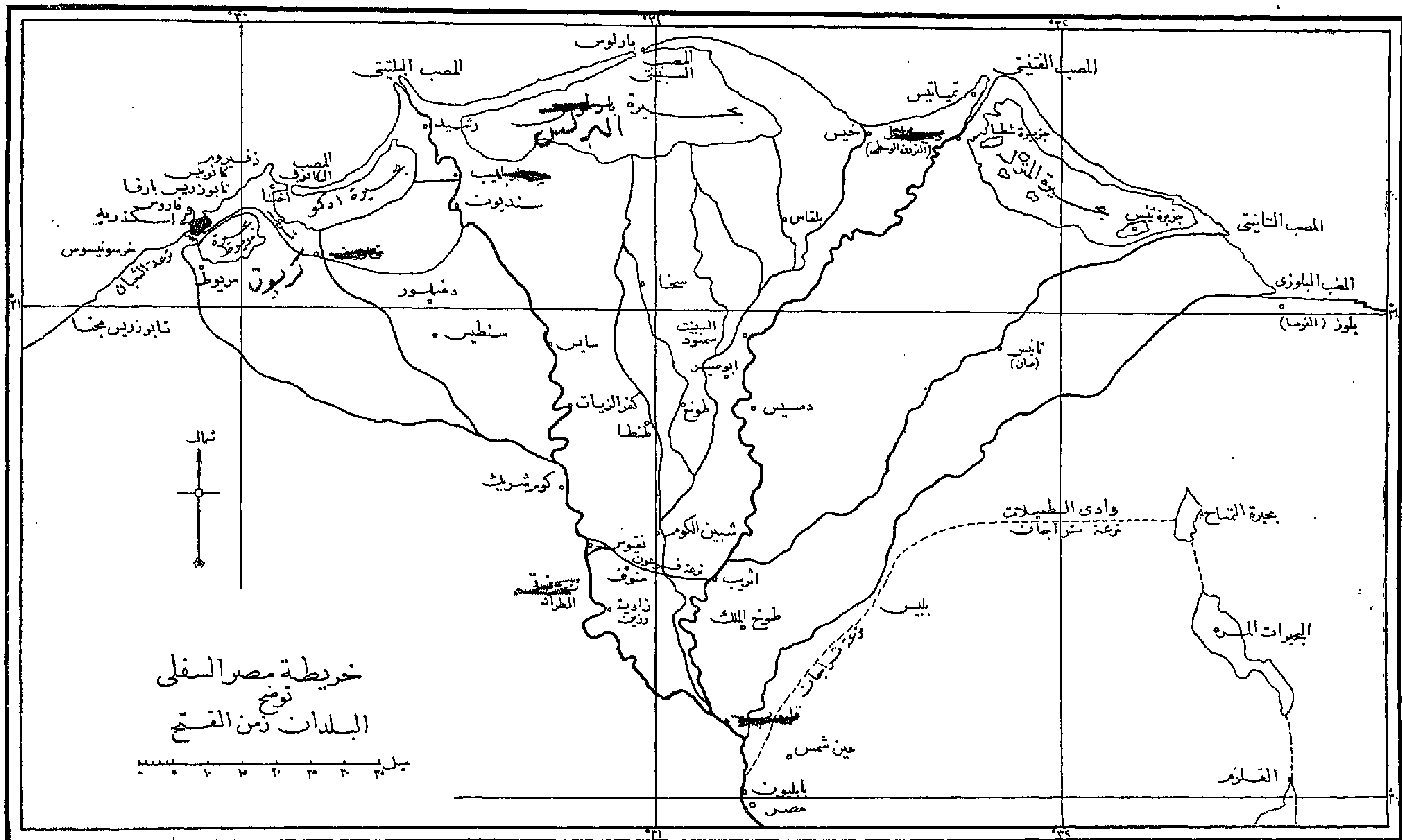
(٤) جاءت زيادة بعد ذلك فى كتاب أبى المحاسن " أن الملل من كواذب الأخلاق " (المعرّب) .

(٥) هذه القصة من كتاب (اليمن) لعمارة (طبعة كاى) صفحة ٢١٩ وقصة البغلة مأخوذة من كتاب أبى المحاسن (المؤلف) .
قد أخذنا النص الذى أوردناه هنا من كتاب الآداب السلطانية وهو كتاب (الفخرى) لابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى (المعرّب) .

ولو أردنا لأتينا بغير هـذه الأخبار ولكن حسبنا ما أوردناه منها ففيه الدلالة على ما كان عليه عمرو بين الرجال فإذا نحن قرنا بعض خلاله إلى بعض رأينا أنه كان قوى الجسم ذكى العقل ، تجيش نفسه فتدفعـه ، وله قوة من عزمه كالحديد إذا عزم ، وكان شجاعا لا ينكل ، ولكنه كان يؤثر الأناة ويعلم أن الرأى أوّل والشجاعة فى المحل الثانى ، وكان فى أمر الدين والعبادات على تقى وصلاح ، وإذا كانت مطامع هذه الدنيا غررت به فى بعض أيامه وعصفت بقلبه فقد بقى فيما عدا ذلك شريفا نبيل النفس . وكان فى العلم على ما كان عليه أهل عصره ، وعرف بين العرب بأنه من أحدهم ذهنا[1] ومن أكملهم عقلا . وكان يحب الغناء حبا جما ويقبل عليه ويطرب للشعر . وكان خطيبا بليغا وله خيال خصب فاجتمعت فيه صفات المحارب والشاعر وجواب الآفاق والرجل الصالح . فكان واضح الباطن والظاهر نبيل المقاصد والفعال وكان محببا مؤلفا يملك قلوب الناس ويستهوى أفئدتهم شأنه فى ذلك شأن عظماء الرجال الذين يخلب حبهم أفئدة الناس فإذا إعجابهم ولاء وإخلاص .

هـذه صفة القائد الذى جاء فى فرسان أربعة آلاف بايعوا أنفسهم على نزع مصر من يد القياصرة .

(١) مكين صفحة ٣٩ وانظر كذلك ما جاء عن عمرو فى كتاب (W.Nassau Leis) وهو (Conquest of Syria in Biblica Indica) الجزء الأوّل .



خريطة مصر السفلى
توضح
البلدان زمن الفتح
ميل
٠ ٥ ١٠ ١٥ ٢٠ ٢٥ ٣٠ ٣٥
شمال
بارلوس
المصب السبنيتي
المصب البلبتي
المصب الفتنيتي
رشيد
بحيرة البرلس
بحيرة ادكو
المصب الكانوبي
زفيريوم
كانوبيس
فاروس
اسكندرية
خرسونيسوس
مريوط
سنديون
دمنهور
سنطيس
سايس
بلقاس
سخا
سمنود
ابوصير
كفر الزيات
طنطا
دمسيس
كوم شريك
شبين الكوم
نقيوس
منوف
اثريب
زاوية رزين
طوخ الملك
بلبيس
عين شمس
بابليون
مصر
تانيس (صان)
جزيرة تنيس
المصب التانيتي
المصب البلوزى
بلوز (الفرما)
وادى الطميلات
ترعة تراجان
بحيرة التمساح
البحيرات المره
القلزم

الفصل الخامس عشر

أوّل الحـــرب

ما فعله قيرس — دحض ما قيل من أن العرب انصرفوا على جزية تعطى لهم — حصار الفرما وأخذها — السير فى الصحراء الى بلبيس — أخذ تلك المدينة بعد حرب شديدة — وصول العرب الى (تندونياس) وهى (أم دنين) — مناجزات لم تسفر عن نصر — ما كان المسلمون فيه من الخطر — عزم عمرو على غزو الفيوم — أخذ (تندونياس)

نذر أهل مصر بغزوة العرب وسمع المقوقس (قيرس) بسير هؤلاء الأعداء أولى البأس ، وكان قبل ذلك قد أعدّ شيئا من وسائل الدفاع لحفر خندقا حول حصن بابليون العظيم بقرب ممفيس، وزاد فى تحصين الحصون الأخرى، ورمّ أسوار كثير من المدائن التى كانت غزوة الفرس هدمت منها[١] . وليس من الصدق قول القائل إن (قيرس) اشترى العرب فصرفهم عنه بجزية وعدهم بها ، وقد قال هذا الخبر أو أشار اليه المؤرّخ (تيوفانيس)[٢] . وإنه من سوء الحظ أن مؤرّخى اليونان يتخبطون فى ظلمة لا يصفون حقيقة ما كان من الحوادث فى ذلك العصر، ولا يعرفون ما كان منها أوّلا وما كان منها بعد .

---

(١) هذا ظاهر من نص النبوءة فى تاريخ حياة شنوده (Mem. Mess. Arch. Franc.) (الجزء الرابع (١) صفحة ٣٤٠) .

(٢) (Corp. Hist. Scrip. Byzant.) الجزء ٤٤ صفحة ١٦٧ :

"ثم ساروا الى مصر ولما سمع قيرس أسقف الاسكندرية بغزوتهم نهض واتفق معهم على صلح خوفا من طمعهم وعدهم فيه أن تدفع مصر جزية قدرها ٢٠٠,٠٠٠ دينار كل عام فأنجى مصر من تخريبهم مدّة ثلاث سنوات ثم اتهمه الأمبراطور بأنه يدفع الذهب المصرى الى العرب" ثم يورد بعد ذلك قصة مجىء منويل وحلوله محله وسنعود الى ذكر ذلك فى آخر هذا الكتاب .

وأضل من (تيوفانيس) المؤرخ (نيقفوروس)(١) وأبعد من كلا الاثنين عن الحق (الديوان الشرقى)(٢). فانهم جميعا لم يفحصوا الحوادث التى يصفونها ولم يدركوا حقيقتها. فلا فائدة فيها لأنها تخلط فى التواريخ خلطا فاحشا وتقلب الحقائق وتمسخها. بل إنها قد أضلت كل من اهتدى بنورها من الكتاب المحدثين وقذفت بهم فى المجاهل(٣). وحسبنا فى هذا المقام أن نقول إنه ليس ثمت كلمة صدق واحده فيما رواه

(١) يقول إنه " بينما كان هرقل لا يزال فى الشرق أرسل حنا قائد (برقينه) ليقاتل العرب فى مصر " وهو يذكر بعض مواقع ويذكر طلب الصلح من عمرو وقد قال إنه عرض على عمرو أن يتزوج من ابنة الامبراطور ويتنصر ويقول إن كل هذا كان قبل أن يبارح هرقل بلاد الشام أى قبل سبتمبر سنة ٦٣٦ فى حين أن العرب كانوا عند ذلك لم يفكروا بعد فى غزو مصر.

(٢) جاء فى هذا الديوان أن العرب عند ما أتوا مصر أجلى هرقل كل الجنود الذين كانوا فيها حتى أسوان ودفع للسلمين الجزية لمدة عشر سنوات حتى استنفد كل ما كان فى الخزائن وإنه لمن الصعب أن نعرف أى سنوات عشر يقصدها ذلك الديوان ولعل هذه العبارة تشير الى الشام " واذا كان المقصود منها أن هرقل دفع عن مصر الجزية لمدة عشر سنوات كان لنا أن نقول إن هذا قول لا أساس له ومن العجيب أن نجد النسخة المخطوطة التى فى القاهرة من كتاب (ساويرس) تورد هذا الخبر عينه بلفظه إلا أنها تجعل المدة ثمانى سنوات بدل عشر والقصة التى فى النسخة المخطوطة بالمتحف البريطانى بالغة حد السخف وإنه من الواضح أن الكاتب القبطى للديوان الشرقى كان ينقل عن (ساويرس) ولا بد أن (ساويرس) نقل عن بعض مؤرخى اليونان قصة هذه الجزية ولكنه لم يكلف نفسه عناء التوفيق بينها وبين ما ذكره عن غزوة العرب ولا عن اضطهاد قيرس وهذه القصة التى تذكر فيها هذه الجزية لا ترد فى أى تاريخ من تواريخ العرب.

(٣) لعل خير مثل لهذا التضليل هو كتاب ليبو "Hist. du Bas Emp" فانه لا يمكن أن يعتمد عليه من صفحة ٢٧٢ فى الجزء الحادى عشر فهو يجعل حوادث (منويل) قبل غزوة عمرو وقد ضل (Drapeyron) كذلك فى كتابه "L'Empereur Herac." (صفحة ٣٩٦) وكذلك المؤرخون الانجليز من (جبون) الى (بيورى) وقد أخذ ثانيهما عن (ليبو) خبر غزوة منويل (Later Rom. Emp.) (الجزء الثانى صفحة ٢٦٩ هامش ٣) وكذلك المستر (ملن) فى كتابه (Eg. Under Rom. Rule) (صفحة ١١٥) فانه يقول إن العرب دفع غزوهم فى أول الأمر بما كان يدفع اليهم من المال ويذكر نص ما قاله (Paulus Diaconus) (الجزء الثامن عشر صفحة ٥٧٩) فى حين أن كتاب (Paul) لا قيمة له ولا يصح الاعتماد عليه. وقصته فى هذا الشأن منقولة عن (تيوفانز) وهو كما بينا عديم الدقة فى كل ما يتعلق بفتح العرب وقد لخص فى مقال بمجلة (Asiatic Quarterly Rev.) كل ما كان يحسب تاريخا لغزوة عمرو لخصه كاتب شرقى لا بأس بمقدرته وهو (س. خدابخش) يوليه سنة ١٩٠١ وقد قال " ولم يقابل عمرو كما يقابل العدو بل رحب به الناس كمخلص وقد كان البطريق قيرس بالاتفاق مع المقوقس! يأملان =

هؤلاء اليونانيون عن دفع المقوقس غزوة العـرب بجزية من المـال يعطيها لهم . ولا يرد لفظ واحد يشير إلى هذا الأمر فى كتاب كتبه أحد أهل الشرق سواء أكان فارسـيا أم سريانيا أم قبطيا أم من العرب . اللهم إلا (ساويرس) وقد نقل عن (الديوان الشرقى) . والقصة كلها قائمة على خطأ وقع فيه مؤرّخو اليونان، فهى صورة مشوّهة ممسوخة مما وقع بعد ذلك بزمن طويل وسيأتى ذكر ذلك فى حينه، ولم يكن لنا بد من أن نبدأ بدحض هذا القول، وإذ فعلنا ذلك فلنمض فى سبيلنا من وصف مسير عمرو فى الصحراء .

غادر العرب العريش وما حولهـا من بساتين النخيل وساروا فى الطريق إلى الغرب بعيدين عن البحر، فإن الطريق بعد العريش تسلك قطعة من الصحراء تتخللها بعض عيون وقرى، وهى الطريق القديمة المؤدّية الى مصر، شهدت من قدم مصر قبل أن يلوح فجر العمران، كما شهدت مقدم إبراهيم ويعقوب ويوسف وقمبيز والإسكندر وكليوبترة (١) وأسرة المسيح، ثم وطأتها جيوش الفرس فى غزوتها منذ حين . وكانت فوق ذلك فى كل الأوقات طريق التجار وأهل الأسفار والحاج تتردّد عليها القوافل بين آسيا وأفريقيا . وقبل أن تبلغ الطريق مدينة الفرما ببضعة أميال تنحدر إلى الشمال الغربى فتقتحم الكثبان وهى التـلال المتنقلة من الرمال ولم يلق العرب أحدا من جنود الروم حتى اقتربوا من المدينة .

ومدينة (بلوز) اسمها بالقبطية (برمون) ويسميها العرب (الفرما) وكانت على نهد من الأرض على نحو ميل ونصف من البحر، وكان لها مرفأ لعله كان متصلا بالمدينة

= أن يدرأوا شرور الحرب بدفع جزية سنوية للعرب . وكان هذا منهما سخفا وبلاهة ولكن هرقل أبى هذا وأرسل منويل للدفاع عن ذلك الاقليم الخ . وإنه لا يكاد يوجد بهـذه العبارة حرف واحد صحيح ويمكن أن نقول ذلك عن رواية (أبوكلى) لفتح العرب ولعل تلك الرواية هى السبب فى أكثر الروايات الفاسـدة فى التواريخ الحديثة وإنك لتجد فى (درابيرون) مثالا لمـا يمكن أن تؤدّى اليه هذه الآراء الفاسدة عن قيرس وهـذه الأخبار الكاذبة عن الجزية إذا ما وصلت إلى كاتب واسع الخيال فانه يذكر أن قيرس كان "سوريا ماكرا" استطاع أن يوقف غزو العرب عند برزخ السويس بأن دفع جزية مقدارها ٢٠٠،٠٠٠ دينار استدين بعضها باسم المقوقس ! (أنظر كتاب (L'Empereur Heraclius) (صفحة ٣٩٦) .

(١) حنا النقيوسى صفحة ٤٠٧ .

بخليج يجرى من البحر . وكان فرع من النيل اسمه الفرع (البلوزى) يهوى الى البحر بقربها . وكانت مدينة قديمة قوية الحصون بها كثير من آثار المصريين القدماء كما كان بها كنائس وأديرة[١]، وكان لها شأن كبير إذ كانت مفتاح مصر من الشرق تشرف على طريق القادم من الصحراء، وتملك ناصية البحر ويجرى اليها فرع من النيل يؤدّى الى مصر السفلى . ومع كل ذلك فالظاهر أنها لم تكن منيعة فإن الفرس وقد كانوا مبرزين فى فنون الحصار لم يعانوا مشقة كبرى فى فتحها، ولعلهم دكوا أسوارها وخربوا من حصونها كما خربوا كنائسها . ولكن الروم نذروا بمجىء العرب منذ زمن ولقد كان فى استطاعتهم إذا شاءوا أن يرمموا ما تهدّم من أسوارها .

ولم يكن عند العرب الذين جاءوا مع عمرو شىء من عدّة الحصار، ولم يكن لهم علم بطرقه، وما كانوا ليستولوا على المدينة إلا بالمهاجمة وفتح الأبواب، أو بالصبر عليها الى أن يضطر الجوع أهلها أن ينزلوا اليهم . وليس لنا علم بعدد جندها ولكن من الواضح أن العرب كانوا فئة قليلة، فما كانوا ليقدروا على حصارها من كل جوانبها، فكانت مسلحتها تهبط اليهم بين حين وحين لقتالهم . واستمرت الحرب متقطعة مدّة شهر، ويقول أحد المؤرخين بل شهرين[٢]، ثم خرج اليهم جنودها مرة ليقاتلوهم ولما عادوا لائذين الى مدينتهم تبعهم العرب فملكوا الباب قبل أن يقتحموه، وكان أوّل من اقتحم المدينة من العرب (اسميقع بن وعلة السبائى)[٣] . وقد روى المقريزى

(١) أنظر كتاب "أبى صالح" صفحة ١٧٦ وما كتبناه هناك تعليقا ويمكن أن نضيف هنا أن قبر جالينوس الطبيب بالفرما كما ذكر الأصطخرى (Bibl. Geog. Arab. ed. Goeje) (الجزء الأوّل صفحة ٥٣) وفى الوقت الحاضر توجد فى موضع الفرما تلال حمراء يمكن أن تظهر عن بعد من قناة السويس وتوجد بعض أطلال أبنية يقال إنها رومانية وإننا لنرجو أن يكشف موضع هذه المدينة كشفا علميا .

(٢) جاء فى ياقوت أن المدّة كانت شهرين وأما ابن بطريق والمقريزى وسواهما فيقولون انها كانت شهرا .

(٣) الكندى ونقل عنه السيوطى (المؤلف) .

(٣َ) وصحة الرواية ليست عن الكندى ونقل عنه السيوطى مباشرة بل ان القضاعى نقل عن الكندى وأخذ السيوطى قول القضاعى فى كتابه (حسن المحاضرة) وقد جاء فيه ما يلى : "وقد لخص القضاعى فى كتابه الخطط قصة فتح مصر تلخيصا وجيزا فقال ومن خطه نقلت لما قدم عمرو بن العاص ... ... =

وأبو المحاسن أن قبط الفرما ساعدوا العرب أثناء الحصار، ولكن ذلك غير صحيح، ولعل هذا رجوع الى القصة القديمة التى تعزو الى القبط ظلما مساعدتهم للفرس . ولم يرد ذكر لهذه المساعدة فى كل ما كتب قبل القرن الرابع عشر، ولعل ما ذكرناه من ذكر أخذها عنوة يكفى لتفنيد هذا الزعم . ولو ساعد القبط العرب لمـا أحرق هؤلاء السفن وهدموا الحصن(١)، ولمـا فعلوا ما فعـله الفرس من قبلهم من تخريب الكنائس الباقية فى الفرما(٢). ولنا فوق ذلك دليل آخر على كذب هذا الزعم وهو ماقاله (حنا النقيوسى(٣)) فى ديوانه، وكان حنا من الأحياء قرب ذلك العهد . قال ان القبط لم يساعدوا المسلمين إلا بعـد أن استولوا على الفيوم وإقليمها . ولسنا ندرى على التحقيق فى أى وقت كان هذا، ولكن من الجلى أنه لم يكن إلا بعـد فتح حصن (بابليون) ولم تكن تلك المساعدة إلا مساعدة قليلة لا تعدو بعض الأمور .

فلمـا ملك العرب الفرما صار فى أيديهـم معقلا يؤمن لهم الطريق المؤدّية الى بلادهم، ويضمن لهم سبيل الرجوع اذا نزلت بهم هزيمة . وقد فطنوا بعد فتح الفرما الى ماهم مقبلون عليه من الأمر الخطير اذا أتيح لهم فتح حصن بابليون والاسكندرية العظيمة، ولا بدّ أن يكون عمرو قد أدرك أنه لن يستطيع شيئا اذا لم يوافه عمر بن

= كان أوّل موضع قوتل فيه الفرما قتالا شديدا نحوا من شهر ثم فتح الله عليه . قال أبو عمرو الكندى : وكان أوّل من شدّ على باب الحصن حتى اقتحمه اسميفع بن وعلة السباى واتبعه المسلمون فكان الفتح (المعرب) .

ملاحظة — جاء فى الأصل عقب ذكر ابن وعلة هنا : "وقد روى عنه المقريزى" ولكنا لم نجد لهذا الرجل رواية نقلها أحد عنه والظاهر أن المؤلف لا يشـير اليه بقوله "وقد روى عنه المقريزى" بل يشير الى الاسم الذى جاء فى الهامش وهو الكندى (المعرب) .

(١) النسخة المخطوطة بالمتحف البريطانى من كتاب (ساويرس) (صفحة ١٠٥) وقد أعيـد بناؤها فيما بعد ولم تدمر نهائيا إلا على يد بلدوين الأوّل إذ دمرها قبل تقهقره فى سنة ١١١٨ للميلاد .

(٢) أبو صالح صفحة ١٦٨

(٣) صفحة ٥٥٩ ويل (Weil) الذى ينقل هـذا الخبر ويبالغ فيه ضـدّ القبط فى كتابه (Geschichte der Chalifen) لم ير كتاب (حنا النقيوسى) وهو على أى حال مصنف وليس بالباحث أو الناقد فى تاريخ ذلك العصر .

إلخطاب بما وعنده من الامداد وكان يعرف أن الامداد لن تستطيع أن تخلص اليه الا عن طريق الفرما [(١)] . ولم يكن معه من الجنـد من يقدر على أن يخلفه فى المدينة ليحرسها ، وعلى ذلك لم يكن له بد من هدم أسوارها وحصونها حتى لا يستفيد بها العـدو لوعاد إلى تملكها . ولسنا ندرى ما كان يصنعه الروم فى هـذه الأثناء ، فأغلب الظن أن (قيرس) كان موقنا أن المسلمين لا بد لهم أن يسيروا إلى مصر بعـد أن تخلص لهم الشام ، وأن الأمر واقع لا محالة . فكان الحزم يقضى عليه أن يقيم الأرصاد والربط فى الصحراء، حتى أكناف العريش على الأقل ، حتى يأتيه العـلم بمسير القوم إليه فى حينه ، ليستطيع التعبية ويسير للقائهم بمن معه جميعا عند الفرما . ولو أرسـل الروم عشرة آلاف من جندهم ليقاتلوا عمرا أثناء سـيره ، أو جمعوا ذلك الجيش تحت حصن المدينة ، لـما عجزوا أن يهزموا تلك الفئة القليـلة من أعدائهم العرب ، على أن ذلك لو حدث لـما حال بين المسلمين وبين فتح البـلاد أمدا طويلا . ولكن الروم لم يصنعوا من ذلك شيئا ، بل اعتمدوا على من فى المدينـة من الجنـد فى أمر الدفاع عنها . وقد يقال إن العرب قد بغتوهم فى أول الأمر ، وإنهم لم ينذروا بمسيرهم عند ذلك ، ولكن الروم لم يتحركوا فى أثناء الحصار وقد لبث شهرا ، فلم يبعثوا أحدا لنجدة المدينة أو تخليصها . فكان قعودهم عن الفرما وإسلامهم

(١) هـذا الرأى ينقض قول ابن خلدون العجيب إذ يقول "لحاصر العرب عين شمس (هليوبولس) وأرسلوا ابرهة بن السفاح لحصار الفرما وعوف بن مالك لحصار الاسكندرية" . (كتاب العبـر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب) الخ (ملحق الجزء الثانى صفحة ١١٤) ولكن رواية ابن خلدون لا يصـدقها أحد فهو مثلا يقول إن أول موضع أتى اليه العرب هو (باب اليون) ومن هناك يقول إن عمرا سار الى مصر فهو يخلط بين الفرما وبابليون ثم بعد ذلك يجعل عين شمس موضع حصار طويل فهو يخلط بينها وبين بابليون كذلك والظاهر أنه نقل عن عدة كتب مخطوطة ولعله صحيحها بغير أن يفهم شيئا من تاريخ تلك المواضع أو مواقعها . ويقول ابن الأثير "وأول موضع فتح هو بابليون ثم سار عمر والى مصر" (أنظر طبعة تورنبرج الجزء الثانى صفحة ٤٤٠) .

ويجدر بنا أن نذكر هنا أن المقريزى يروى عن سيف بن عمر أنه قد أرسلت من عين شمس سرية الى الاسكندرية ولكن يظهر أن مثل هذه السرية تكاد تكون مستحيلة ولو كانت ممكنة لكانت عملا فى نهاية الحمق من الوجهة الحربية .

لها أول ما ارتكبوه من خطل فى تلك الحرب ، وقد كانوا يسـتطيعون اتقاء هذا . وعلى ذلك يصح لنا أن نقول إن ذلك القعود أوّل ما ارتكبه (قيرس) من خيانته العظمى لدولته ، فلعله كان عند ذلك قد عوّل على أن يعمل على فصل بطرقة الإسكندرية وشقها عن القسطنطينية بالاتفاق مع العرب وإعانتهم على دولته . ولسنا نجد غير هذا الرأى ما نفسر به مسلكه ولا سيما ما وقع منه بعد ذلك .

كان عند ذلك قد مضى نصف شهر يناير من عام ٦٤٠ للميلاد وذلك العام الميلادى يكاد يتفق مع سنة ١٩ من الهجرة[١] — ثم سار عمرو فى سبيله ولم ينقص عدد جيشه إذ لحق به من البدو من عوّض عليه الذين قتلوا فى المناجزة الأخيرة أو لقد زاد عليهم ، وقد لحق به هؤلاء البدويون حبا فى القتال وطمعا فى الغنيمة[٢] . وسار من السبخة التى حول الفرما إلى أرض تليها يغطيها رمل قد خالطه الصدف الأبيض حتى بلغ مدينة (مجدول) القديمة[٣]، وهى فى الجنوب الغربى من الفرما . ومن ثم سار الى موضع يقع على قناة السويس مكانه الآن (القنطرة) ، وفى ذلك الموضع تصير الأرض فدفدا صلبا يغطيه المدر تعترضه مواضع ينبت فيها العشب ، أو غياض من ماء أجاج ينبت فيه القصب والغاب . وقد لزم العرب جانب الصحراء ولعلهم قصدوا الى مدينة الصالحية ، مخالفين فى ذلك أكثر من عداهم من فاتحى مصر . فان قمبيز مثلا سلك طريقا أخرى إذ ضرب الى الغرب من بعد الفرما الى (سنهور) و(تانيس)

---

(١) أوّل عام سنة ١٩ للهجرة هو ٢ يناير سنة ٦٤٠ وآخرها يوم ٢٠ ديسمبر سنة ٦٤٠

(٢) قال المقريزى إن قبيلة زاشـدة وبعض قبائل لخم لحقت بعمرو عند جبل الجلال وفى القرن الماضى فى سنة ٥٦٥ ذكر انتونيوس الشهيد وقد مر بهذا الطريق فى حجة إلى الأماكن المقدسة أن هناك صنما عظيما للعرب وأنهم يقيمون عيدا فى جبل (هريب) ويذكر القبائل المغيرة وضربها فى الصحراء بقرب (فرا) ولعلها هى الفرما (أنظر كتاب (Pal. Pil. Text Soc.) (الجزء الثانى صفحة ٣٠ — ٣٣) . وأما قبائل لخم فكانت غير عربية (أنظر ابن دقماق الجزء الرابع صفحة ٥) .

(٣) الظاهر أن (Jacques de Vitry) يقصد (مجدول) فى قوله "ووراء الفراميا (الفرما) مدينة أخرى قديمة فى الصحراء بقرب الساحل "ولكنه كثير الخلط إذ يقول بعد ذلك" وبعدها مدينة بلبيس وهى التى تسمى (بلوز) وهى على خمسة بردمن الساحل" (أنظر Pal. Pil. Text Soc. الجزء الحادى عشر صفحة ١٤

ومن ثم الى (بوباستيس) فى مصر السفلى (١). ولكن فى وقت غزو العرب كانت مياه بحيرة المنزلة قد طغت على ماحولها فأصبحت الطريق من هناك صعبة المسلك، وكان جيش عمرو كله من الفرسان، ولم يكن عندهم شيء من وسائل بناء القناطر على الترع والأنهار. ثم سار عمرو من الصالحية أو (القصاصين) الى الجنوب فاجتاز تلال وادى الطميلات (٢) فى موضع قريب من مكان اشتهر اليوم بوقعة كانت فيه وهى وقعة التل الكبير. فلما خرج من الوادى لم يبق دونه إلا سيرهين حتى يبلغ بلبيس.

وقد بدا من الروم فى ذلك الموضع شيء من المقاومة، وكانت طلائعهم قد خرجت ترقب قدوم العرب من الصحراء، ولكنها لم تحاول إلا مناوشة ليس فيها كبير قتال. والظاهر أن قصة بعث المقوقس باثنين من الأساقفة وهما أبو مريام (أو أبو مرتام) وأبو مريم لمفاوضة العرب لم تكن سوى قصة بعث بها الوهم (٣). فلم يكن بين الأساقفة، أحد بتلك الأسماء، ولعل تلك القصة لم تنشأ إلا من الخطأ العظيم الذى وقع فيه مؤرخو العرب عند ما قرأوا أخبار هذه الحوادث، وقد اختلطت فيها حوادث التاريخ بالخرافات اختلاطا فاحشا، ومسخها النساخون عند نقلهم منها منذ لم يتحروا فيها الدقة. ولكننا مع ذلك نستطيع أن نقول إنه قد جاءت جماعة عليها أحد الأساقفة، وإنهم فاوضوا عمرا فى ذلك الوقت. ويقول الطبرى فوق هذا إن عمرا طلب الى القبط أن يساعدوا المسلمين لما كان بينهم وبين العرب من قرابة

(١) حنا النقيوسى صفحة ٣١٢ والأسماء العربية الحديثة لهذه البلاد هى (سنهور) و (صان) و (تل بسطة أو الزقازيق).

(٢) هذا العبارات من (ساويرس) (النسخة المخطوطة بالمتحف البريطانى) صفحة ١٠٥ ونقل عنه أبو صالح صفحة ٧١ ولا أرى تلالا أخرى هناك يمكن أن يقصدها غير تلال وادى الطميلات وقد جاء فى النسخة الخطية التى بالقاهرة أنهم «أخذوا التلال» (الجبل) وقد يكون معنى ذلك أنهم ساروا فى الصحراء.

(٣) يظهر أن ابن الأثير صاحب هذه القصة وقد بحثها ونقضتها فى ذيل الكتاب فى الباب الذى أفردته بالمقوقس (المؤلف).

ولكن هذه القصة موجودة فى غير ابن الأثير فمثلا تجدها فى تاريخ ابن جرير الطبرى وهو قبل ابن الأثير ولكنه يجعلها عند ذهاب العرب إلى قصر بابليون (المعرب).

فى النسب إذ تجمعهم (هاجر) . ولكن القبط قالوا إن هذه قرابة ما أبعدها ، فأمهلهم عمرو أربعة أيام ليأتوا اليه بما استقروا عليه ، ولكن ما كان قائد الروم لينظر فى مثل هذا القول . ولعل ذلك القائد الذى يسميه العرب أرطبون وصحة اسمه (أريطيون) هو نفسه حاكم بيت المقدس[(١)] ، وكان قد هرب الى مصر كما رأينا قبيل تسليم المدينة لعمر بن الخطاب . عوّل أريطيون قائد جيش الروم على أن يناجز العرب . فما يشعرون فى اليوم الثانى بعد المفاوضة إلا وقد بيتهم بياتا شديدا . ولكن الدائرة دارت عليه فهزم وتمزق جيشه[(٢)] . غير أن العرب لبثوا عند بلبيس مدة شهر حدث فى أثنائه قتال كثير وقتل من العرب فيه عدد ليس بالقليل ، ويقال إن الروم خسروا ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير[(٣)] .

وصار عمرو بعد ذلك على مسيرة يوم من مفترق فرعى النيل ، فمرّ بمدينة (هليو بولس) سائرا على جانب الصحراء ، ثم هبط الى قرية على النيل إسمها (أم دنين) وكانت إلى الشمال من حصن (بابليون) ، وموقعها اليوم فى قلب (القاهرة)[(٤)] . ولكن

---

(١) أنظر ما سبق فى صفحة ١٧٣ وظاهر فى الاسم تحوير (أريطيون) إلى (أرطبون) . وقد ذكر أبو المحاسن الاسم الصحيح .

(٢) ابن خلدون .

(٣) يمكننا أن نصدّق ما يأتى من القصة اللذيذة قصة أرمنوسة ابنة المقوقس التى ذكرها الواقدى فانه يذكر أنها كانت فى طريقها الى قيصريه لتزف الى قسطنطين بن هرقل ، فلما علمت أن قيصريه قد حاصرها العرب عادت الى مصر بما كان معها من الخدم والمال فما وصلت الى بلبيس حتى جاءتها جيوش عمرو وحاصرتها وقيل ان عمرا أكرمها وأعادها الى أبيها بما كان معها من الجواهر . ولا حاجة بى إلى إضاعة الوقت فى تفنيد هذه القصة فان مجرد العلم بأن المقوقس كان بطريق الاسكندرية كاف لدحضها وقد جاءت القصة فى كاترمير (Mem. Hist. et Geog.) (الجزء الأوّل صفحة ٥٣) . وقد بنى عليها القس المحترم (ش . ه . بوتشر) روايته التاريخية "أرمنوسة المصرية" ويجدر بنا هنا أن نذكر أن أبا صالح قال إن "أرمنوسة" هى الاسم المصرى القديم لمدينة أرمنت (صفحة ٢٧٩) . وقد ذكر ابن عبد الحكم بغير دقة أنها امرأة المقوقس وذكر كرما كان لها أغرقته فصارت منه بحيرة مريوط وانه لما يؤسف له أن هذه القصص التى يمليها خيال ألف ليلة وليلة مما يجب علينا إبعاده عن التاريخ .

(٤) نظن أنه ليس من شك من أن هذا الموضع الذى يسميه العرب (أم دنين) هو الذى يسميه (حنا النقيوسى) (تنونديس) فانه إذا أزيل الحرف الأوّل منها وهو دليل على المؤنث فى اللغة القبطية صار=

جيش الروم كان عند ذلك قد تنبه إلى الخطر، وما كان ليرضى أن تقع تلك القرية فى يد الغزاة وهى موضع حصين يجاوره مرفأ على النيل فيه سفن كثيرة، وفى ذلك ما فيه من القيمة فى الحرب. وكان أمير الجيوش الرومانية فى مصر واسمه (تيودور) رجلا نكولا عاجزا فى الحرب، ولم يتبين له إلا عند ذلك أن تلك الحروب لم تكن غارة من غارات البدو بل كانت حربا مخطرة. ولعل (قيرس) المقوقس حاكم مصر وبطريق الاسكندرية الامبراطورى أسرع عند ذلك مع (تيودور) إلى حصن بابليون وجمعا فيه جندا ليعبئا منه جيشا لحرب العرب. وكانت فى أم دنين مسلحة قوية، ولهذا كان فى استطاعة الجيش الرومى الأكبر الذى فى الحصن أن يهبط فى أى وقت شاء إلى العرب ثم يعود إذا شاء إلى حصنه آمنا وراء أسواره العظيمة. ومضت على ذلك أسابيع عدّة فى مناوشة وقتال خفيف، لم يؤذ الروم أذى كبيرا ولكنه قلل من عدّة المسلمين بمن كان يقتل منهم، لا سيما وقد أجهضهم القتال من قبل حتى صاروا فى قلة لا تستطيع إتمام ما جاءت له من الفتح.

والحق أن عمرا كان عند ذلك فى حرج مخطر. وكان قد أرسل يتجسس البلاد وعرف أنه لن يستطيع أن يفتح حصن (بابليون) أو أن يحاصره بمن بقى معه من الناس، بل رأى أنه لن يستطيع فتح مدينة مصر، وكانت متصلة بالحصن تكاد تحيط بجوانبه. وكان المسلمون قد جاءوا إلى مصر راغبين فى القتال واثقين فى شجاعتهم

= التشابه بين الاسمين عظيما. وقد أخطأ زوتنبرج (صفحة ٥٥٧ هامش ٢) بأن جعل (تنونديس) الى جنوب حصن بابليون فان سياق الخبر يجعل ذلك غير مستقرب. ولكن قد جاء فى ياقوت والمقريزى صراحة أن (أم دنين) هى المقس على الضفة الغربية للخليج (خليج تراجان) وعلى نهر النيل ويقول المقريزى إنها كانت ميناء مصر فى وقت الفتح. ومن المعلوم أن المقس كان فى الموضع الذى فيه اليوم حديقة الأزبكية وقد كان النيل عند ذلك يجرى بجوار حصن بابليون ودير (أبى سيفين) فكان مجراه الى شرق المجرى الحالى بكثير وكان بعد مروره بالكبش يتجه شمالا الى ذلك الموضع (المقس) وعلى ذلك فقد كان الحصن الرومانى (تنونديس) هناك قرب الأزبكية ومعه ميناء مصر ومراسيها وكان هناك ميدان القتال الذى حدث ولعل اسم (تنونديس) مشتقا كما ذكر المسيو (كزانوفا) من اللفظ القبطى ϯⲁⲛⲧⲱⲛⲓⲁⲥ, وقد كان الاسم العربى صدى لذلك الاسم الذى لم يفهم معناه وليس من العجيب أن يكون النيل قد غير مجراه هكذا فى مدّة اثنى عشر قرنا وإن ابن دقماق لا يترك فى ذلك الأمر شكا (أنظر كذلك كتاب Cairo للاستاذ (لين پول) (الشكل فى صفحة ٢٥٦).

وحسن بلائهم فى الحروب، غير أنهم لم يلقوا فوزا متصلا فى جميع المواقف الأخيرة كما كانوا يتوقعون. وكان عمر بن الخطاب قد وعدهم بالأمداد فأرسل عمرو اليه يستحثه على إرسالها، ولكنها أبطأت عنه، وكان كل يوم من أيام إبطائها غنما لأعدائه، حتى أصبحت كفتا الحرب متردّدتين، وخيل إلى الناس أن النصر فى إحداهما لايدرى أحد أيتهما ترجح[1]. ولكن ذلك الخطر ما كان ليرد القائد العربى عن قصده، فلم تكن من شيمته أن ييأس أو يفتر، فلمــا رأى أنه لن يستطيع فتح حصن بابليون بمن معه. وهو ما كان يرمى اليه، عوّل على أن يسير إلى وجه آخر كان فيه ما فيه من الجراءة. ولم يكن ذلك سوى غزو إقليم الفيوم، وهو إقليم خصب على نحو خمسين ميلا إلى الجنوب فى الجانب الغربى للنيل، وهو العدوة القصوى، ولم يكن له على ذلك بد من أخذ (أم دنين)، ولو لوقت ما، فعوّل على أن يفعل ذلك مهما لقى فى سبيله. ولسنا نعلم كيف أخذ ذلك الموضع، ولكنا نعلم أنه كلف من معه من الناس مشقة كبرى. نعلم ذلك من قصة تروى عن ذلك العصر[2]، إذ قيل إن عمرا رأى جمــاعة يخيمون فى القتال، فجعل يذمرهم ويحثهم فقال له رجل منهم "إنا لم نكن (حجارة)[3] أو حديدا" فقال له عمرو "اسكت فما أنت إلا كلب" فقال الرجل "إذن فأنت أمير الكلاب" فكان جوابه هذا باعثا على ضحك من حوله وأعرض عنه عمرو فلم يجازه على ذلك.

---

(١) و يقر كتّاب العرب بذلك فيقول المقريزى "إنه قد كان قتال شديد عند (أم دنين) وإن الفتح أبطأ على المسلمين". وجاء فى كتاب أبى المحاسن قول أشدّ من هذا "كان قتال شديد ولم يدر الناس لمن تكون الغلبة" (المؤلف).

(١ً) راجعنا كتاب أبى المحاسن فلم نجد به إلا اللفظ نفسه "فأبطأ عليهم الفتح" ولعل المؤلف اطلع على ترجمة فيها تصرف لهذا المؤلف (المعرب).

(٢) لم نعثر على مصدر يعزو هذه القصة إلى وقعة أم دنين ولم يذكر المؤلف مصدره الذى أخذ عنه هذا، وكل ما عثرنا عليه يدل على أنها وقعت فى قتال العرب مع الروم وكان المقوقس حاضرا فيه فأغلب الظن أن ذلك كان أثناء حصار بابليون. وبعض المؤرّخين يذكر صراحة أن تلك القصة وقعت أثناء الحرب فى عين شمس ومن هؤلاء ابن الأثير. (المعرب).

(٣) هذه زيادة عن النص الانجليزى زدناها إذ هى تتفق مع الاصطلاح العربى وقد جاءت فى كتاب "النجوم الزاهرة" (المعرب).

ولكن مهما كان من أمر القتال وشدته فقد أتم العرب ما قصدوا اليه وأخذوا (أم دنين)، فملكوا بذلك منزلا على النيل جعلوا فيه مسلحة منهم، واستطاع عمرو أن يأخذ من السفن ما يكفي بقية جنده لاجتياز النهر[1].

(١) نجد أن ديوان (حنا النقيوسى) عمدتنا الأعظم يبدأ هنا بوصف حركات العرب مع أنه لا يذكر شيئا قبل ذلك عن أول غزو العرب ومما يؤسف له أن ذلك الجزء الذى أغفله يقع فيه تاريخ حكم هرقل كله من أول توليته إلى هذه النقطة . وإنه لمن أعظم الخسائر أن تضيع كل الصحائف التى فيها وصف حروب الفرس والاحتلال الفارسى لمصر وسنى الاضطهاد الأعظم العشر وإن ما بقى بعد ذلك مختلط مشوه الترتيب ومن المؤكد أن بعض فصول الكتاب نقلت من موضعها وأن بعض الجمل قد نقلت من مواضعها فى بعض الفصول وأن التكرار والحذف فى بعض المواضع يزيد الحيرة والارتباك ولكن يظهر أنه لا شك فى أن غزوة الفيوم حدثت فى الوقت الذى وصفناه وعلى الصورة التى أوردناها وليس ذلك موجودا فى أى كتاب عربى. حقا إن السيوطى ذكر نقلا عن ابن عبد الحكم على ما يظهر أن عمرا بعد فتح مصر أرسل جرائد الخيل الى القرى التى حولها ولكن الفيوم بقيت سنة لا يعلم المسلمون عنها شيئا (حسن المحاضرة صفحة ٨٥) وهذا نقض لما جاء فى كتاب حنا ولكننا لا نتردد فى أن نأخذ عن الكاتب المصرى الذى كتب فى القرن السابع . وأما البلاذرى (وقد كتب فى القرن التاسع أى بعد حنا بمائة وخمسين سنة) فانه يجعل فتح هليوبولس وفتح الفيوم والأشمونين والصعيد كلها بعد سقوط حصن بابليون (فتوح البلدان صفحة ٢١٧) ولكن الخطأ واضح فيما يخص هليوبولس ويمكن أن نقيس عليه خطأ مثله فيما يتعلق بسواها وقد ذكر كاترمير خبر المقريزى الذى رواه عن ابن عبد الحكم عن فتح الفيوم (Mem. Hist. et Geog.) الجزء الأول صفحة ٤٠٧ وما بعدها .

الفصل السادس عشر

وقعـــة هليـــوپولس

غزوة عمرو فى إقليم الفيوم — موقع الروم — فتح البهنسا — مقتل حنا قائد المسلحة — سير الروم من (نقيوس) الى (بابليون) — يلقى عمرو بعض الإخفاق فى غزوته ثم يعود — وصول أمداد المسلمين — اجتماع جنود العرب عنـد هليو بولس — سير جيوش الروم من (بابليون) للناجزة — خطة عمرو — هزيمة الروم — عودة العرب لأخذ (أم دنين) وفتح الفيوم — معاملة قوّاد الروم

سار عمرو بمن معه الى الجنوب بعد أن عبروا النهر سالمين، وكان سـيرهم بجوار المزارع حتى بلغوا (ممفيس) . وكانت تلك المدينة القديمة قد اضمحل أمرها منذ بناء الاسكندرية — ولم يبق منها اليوم باق — على أنها كانت فى وقت غزوة العرب لا تزال أطلالها ماثلة فى الموضع الذى كانت فيه عاصمة لدولة الفراعنة، وكانت فيها مساكن عدّة لا تزال آهلة . وكانت فى الجانب الآخر من النيل مدينة نمـا أمرها وزاد سكانها حتى لقد كان يطلق عليها اسم ممفيس[١] أحيانا ، وتلك هى مدينة مصر، وكان أكثرها الى جنوب حصن بابليون . ولعل العرب رأوا عنـد ذلك لأوّل مرة وهم فى الجـانب

(١) قد ورد ذكر آثار ممفيس فى كتاب ابن الفقيه (القرن العاشر) إذ سمع من أحد الشيوخ المعمرين عن قصر عظيم من كتلة واحدة من الصخر وقد علق على ذلك تعليقا غريبا اذ قال "وممفيس مدينـة فرعون لهاسبعون بابا وأسوارهامن الحديد والنحاس" (Bibl. Geog. Arab) الجزء السادس صفحة ٥٨ و ٧٣) وقال اليعقوبى (وهو قبله بقليل) إن "مدينة ممفيس متهدّمة" وقد كانت المدينة التى حول قصر الشمع محلة مصرية قديمة فقد وجدت بها آثار فرعونيـة وكان عند الباب الجنوبى للحصن تمثال مصرى معروف ووجدت حجارة فى أسوار الحصن عليها نقوش هيروغليفية وكان اسم المدينـة " مصر " ولكن الظاهر أن " مصر " و" منف " كانا يستعملان مترادفين فى بعض الأحوال فقد قال عبد اللطيف "وتوجد الآثار التى بمصر القديمة وهذه المدينة بجوار الجيزة التى وراء الفسطاط وكانت مسكن الفراعنة ومقر ملوكهم" (ed. G. White) (صفحة ١١٧) ولفظ مصر له معنى فى إطلاقه فمثلا "المصران" استعملها ابن خلكان يقصد الكوفة والبصرة بمعنى (المدينتين) (أنظر طبعة de Slane) (الجزء الرابع صفحة ٢٠٤) ولكنه فى مصر كان عادة يطلق على المدينة التى على الجانب الشرقى للنيل فى جوار حصن بابليون .

الغربى للنيل مدينة مصر واضحة تشرف عليها صروح حصن بابليون سامقة فوق ماء النهر من وراء جزيرة الروضة . وإن نفسا كنفس عمرو لا بدّ أن تكون قد ثارت بها سورة الشجون إذ يرى عن يمينه الأهرام، وعن يساره نهر النيل وحصن بابليون، وحوله أطلال ممفيس . وأما من كان معه من الناس فأكبر الظن أنهم ما كانوا إلا غزاة البادية يسيرون بين آجام النخيل لا يعبأون إلا قليلا بما حولهم من آثار الحضارة الغابرة، ولا يلتفتون الى ما دونهم من بناء الروم أو البيزنطيين .

وأما سيرهم فليس لدينا علم بين بوصفه . وكان حاكم مدينة بيوم (الفيوم) اسمه (دومنتيانوس) وأما حاكم الإقليم فاسمه (تيودوسيوس)، وكان عند ذلك مع حاكم الاسكندرية (أنستاسيوس) فى بعض بلاد مصر السفلى بقرب (نقيوس)، ووكل أمر الدفاع عن الإقليم الى (حنا)[1] قائد كتيبة (الخفر)، وهى كتيبة من أهل البلاد. وكان تحت إمرته رجل آخر اسمه (حنا المـاروسى) . وقد وضع الجنود عند ثغور الفيوم التى يدخل الى الاقليم منها، وحرست حراسة حسنة، وأقام الروم ربيئة لهم فى حجر اللاهون[2] ليرصد العدوّ ويعرف أخباره ومسيره، ويحمل أنباء ذلك الى (حنا) وكان مقيما قرب شاطئ النهر . ثم أرسلت سرية من الفرسان والرماة الى العرب لتحول بينهم وبين السير، ويلوح لنا أن جنود العرب لم يقووا على أن يخلصوا ممن لاقاهم من الروم، فعدلوا الى جانب الصحراء وجعلوا يستاقون ما لاقوا من النعم، فأخذوا منها

(١) جاء فى (زوتنبرج) (صفحة ٥٥٤ هامش ١) أن حنا هذا هو حنا حاكم برقة أو برقينه الذى جاء ذكره فى (نيقفوروس) ولقد بينا أن أخبار غزوة العرب فى كتاب نيقفوروس ليست جديرة بالاعتماد (صفحة ١٨٤) ومع ذلك فقد كان حنا هذا رجلا كبير الشأن ولدينا ما يحملنا على الظن أنه كان مرسلا من قبل هرقل ولقد كان هو بعينه "قائد الرديف" الذى أتى بنص المذهب الجديد موفدا من (سرجيوس) الى (قيرس) وهو الذى حمل مع هذا النص الصليب الذى جاء ذكره فى (حنا النقيوسى) انظر ما سبق فى صفحة ١٦١ وهامشها) .

(٢) اذا أردت معرفة أخبار هذا الموضع فارجع الى كتاب الدكاترة "Hunt & Grenfell" وهو "Fayoum Towns and their Papyri" (صفحة ١٣ شكل ١٨) واللاهون على بحر يوسف على نحو عشرة أميال من مدينة الفيوم وكانت عند مدخل الوادى الذى بين الجبال المحيطة بكورة (أرسنويه) وكانت موضعا ذا شأن فى الأمور الحربية للدفاع عن الاقليم (أنظر المسعودى صفحة ٣٨٥ — ٦) .

عدداً عظيما ، وما زالوا كذلك حتى بلغوا مدينة اسمها البهنسا ففتحوها عنوة وقتلوا من وجدوا بها من رجال ونسوة وأطفال[١] . ثم سمع عمرو بأن (حنا) كان يسير وراءه فى قلة مع خمسين من فرسانه يرقبون سيره، فبعد به عمن وراءه من جنده ثم كر عليه مباغتا . فلما رأى (حنا) ذلك وأن الخطر محدق به أراد أن يعود سريعا إلى عسكره فى (أبو يط[٢])، وهى واقعة على النيل على مسافة قليلة من موضعه ، فكان يسير بجنوده فى الليل ويكمنون بالنهار فى النخيل والآجام ، ولكن عمرا علم بمكمنه إذ دله عليه أحد شيوخ البدو[٣]، فحاصره ومن معه وقتلهم فلم يدع منهم أحدا . فقتل فى ذلك (حنا) قائد الكتيبة ووكيله لأن العرب لم يتخذوا منهم أسرى .

فلما بلغ القائد (تيودور) نبأ هذه النكبة بكى وأعول، ثم هب بعد ضياع الوقت فحشد من دونه من الجنود وبعث بهم صعدا فى النهر إلى جزيرة (الكيون)، ثم أسرع (انستاسيوس) و(تيودوسيوس) بالعودة من (نقيوس) إلى حصن (بابليون) ليساعدوا من به، وأرسلوا من الحصن سرية جعلوا عليها قائدا اسمه

(١) لم يكن من مذهب العرب ولا مما يوصيهم به الدين والخلفاء أن يقتلوا طفلا أو امرأة — ولعل ذلك خطأ من (حنا النقيوسى) دفعه اليه كرهه لأعداء بلاده ودينه ولو حدث شيء من ذلك لما تردد مؤرخو العرب فى وصفه فانهم لا يدعون شيئا إلا وصفوه حتى ولو كان شديدا عليهم (المعرّب) .

(١) (حنا النقيوسى صفحة ٥٥٥) ويجب أن نصدّق خبر المذبحة ولم تكن بمخالفة لقانون الحرب فى تلك الأيام وسنجد أمثلة غيرها من نوعها . والبهنسا المقصودة هنا هى فى كورة الفيوم بالطبع وليست البهنسا المعروفة التى فى موضع المدينة القديمة " Oxyrhynchus " فقد كانت تلك على بعد خمسين ميلا الى الجنوب من بعد بهنسا الفيوم (أنظر اميلنو) "Geog. Copte" صفحة ٣ (المؤلف) .

(٢) موضع (أبو يط) غير معروف فيقول (زوتنبرج) إنها هى المدينة المعروفة بذلك الاسم فى إقليم (Lycopolis) (أسيوط) ولكن هذا محال إذ أن هذا المكان فى جنوب البهنسا وقد بين أميلنو فى كتاب (Geog. Copte) (صفحة ٣) أن هناك موضعين باسم (أبو يط) والمدينة المقصودة هنا لابدّ أن تكون فى مديرية بنى سويف فى الوقت الحالى وهى قريبة من (بوصير كوريدوس) فى الشرق من جبل اللاهون .

(٣) جاء فى ترجمة زوتنبرج « رئيس الشيعة » ولكن الدكتور شارل يترجمها « رئيس عصابة اللصوص » ولا شك أن المقصود بذلك أهل الصحراء المغيرين .

(ليونتيـوس) إمدادا للعسكر فى (أبويط) . فلما بلغ (ليونتيـوس) مضرب العسكر فى (أبويط) وجد المصريين حيال العرب، ووجد أن (تيـودور) قد لاذ بجنوده فى مدينة الفيوم، يخرج منها بين حين وحين فيهوى إلى العرب فى البهنسة يقاتلهم . وكان (ليونتيوس) رجلا سمينا خاملا لا علم له بالحرب، فخيل إليه أن العـرب لن يلبثوا أن يهزموا ويخرجوا من ذلك الإقليم، ولهذا خلف نصف جنده مع (تيودور)، وعاد بالنصف الآخر إلى حصن (بابليون) ليروى لأولى الأمر فيه ما شهده .

ولا شك أن العرب لم يستطيعوا فتح مدينة الفيوم، وأنهم عادوا أدراجهم إلى الشمال منحدرين مع النهر، وكان (تيودور) قد أمر بالبحث عن جثة (حنا) وكانت قد ألقيت فى النهر، فانتشلها الناس فى شبكة، ثم حنطت ووضعت على سرير وحملت فى النيل الى حصن (بابليون) تحيط بها آيات الحزن، ومن ثم بعثوا بها إلى هرقل (١) . وقد حزن الامبراطور لهزيمة (حنا) وقتله حزنا شديدا وبعث الى القائد (تيودور) يظهر له موجدته وغضبه عليه ، فعرف ذلك القائد أن الإمبراطور لم يغضب عليـه إلا أن وشى به (تيودوسيوس) و (انستاسيوس)، وأبلغا الامبراطور عنه أنه السبب فى قتل (حنا)، ومن ثم وقعت فى نفسه عداوة شديدة لهذين الرجلين .

ولكن العـرب لم يعودوا من الفيوم منـذ أحسوا بالفشـل وحده . فلعمرى لقد يكون ابن العاص أتم فى غزوته تلك أكثر مما كان يطمع فيه . فقـد أخرج جيشه من مأزق وقع فيه عنـد (أم دنين)، وانتقل به إلى موضع أكثر أمنا، ولقى فى غزوته فوزا كثيرا ونصرا فى مواطن عدة، وإن لم يحرز انتصارا عظيما، وشغل جنده مدة فقطع عليهـم مدة الانتظار إذ جاءته الأمداد بعـد ذلك بعد أن طال إبطاؤها

---

(١) وهـذا الحادث يدل على أن حنا كان موفدا مـن قبل الامبراطور نفسـه لغرض معين وكان (تيودور) بغير شـك يعتمد على مقـدرة حنا فى الحرب ولذلك اهتم اهتماما عظيما لموته . وقد بينا فيما سبق (صـفحة ١٦٢ هامش ١) البراهين المباشرة على أن حنا كان هو الذى جاء يحمـل نص المذهب الجـديد وأرسل معه الامبراطور صليبا له قداسة عظمى .

عليه ، فلما بلغه نبأ مجيئها عاد أدراجه بالمسلمين ليلقوها . أما (تيودورن) فانه جاء كذلك الى الشمال مع جنوده الى حصن (بابليون)، وقد اجتمع به الجند من كل جهات مصر فأصبح فيه جيش عظيم .

وكان أوّل مسير عمرو إلى الفيوم نحو أوّل شهر مايو، وقضى فى غزوته بضعة أسابيع أضاعها الروم ضياعا بل خسروا فيها خسارة كبرى ، وغنم العرب فيها غنما عظيما . ولعل قدوم أمداد المسلمين التى بعث بها عمر بن الخطاب كان فى السادس من شهر يونيه[1]، والتقى الجميع قريبا من هليوبولس ، وكان الأمير على المدد الزبير بن العوّام ابن عمة النبي وصاحبه وأحد رجال الشورى الستة ، وكان معه أربعة آلاف رجل . ثم جاء فى عقبه كتيبتان كل منهما من أربعة آلاف رجل، فكان جميع من جاء من الأمداد اثنى عشر ألفا[2] . وقد علم الروم أن النيل يعلو فى مجراه العميق فى وسط الصيف ، ولهذا أرادوا أن يناجزوا المسلمين بمن اجتمع منهم قبل أن يفيض النهر، ولكنهم عجزوا كل العجز عن أن يحولوا دون اجتماع جيوش المسلمين المتفرقة، مع

(١) قد بينا فى مقالنا « تاريخ فتح العرب » أن الرواية القبطية تجعل هـذا التاريخ يقع فى وقت غزو العرب لمصر وعلى ذلك لا يمكن أن يتفق مع مجىء عمرو الأوّل الى مصر ويمكن أن يكون هذا تاريخ مجىء جيش الامداد .

(٢) إختلف الرواة فى عدد الأمداد فقال ابن عبد الحكم إنها كانت ٤٠٠٠ ، وقال البلاذري ١٠٬٠٠٠ أو ١٢٬٠٠٠ ، وقال ياقوت ١٢٬٠٠٠ ، وأورد المقريزى نقلا عن الكندى خبرا رواه يزيد أن جيش عمرو كان ١٥٬٥٠٠ وتفصيل ذلك أن جيشه الأوّل كان ٣٬٥٠٠ ثم زاد ١٢٬٠٠٠ ، وقال السيوطى على اليقين إن الإمداد جاء أرسالا الى أن بلغ ١٢٬٠٠٠ وهـذا ما رآه المقريزى . وقال إن كتيبة منها كانت مع الزبير وعددها ٤٬٠٠٠ وهذا يفسر السبب الذى جعل مؤرخى العرب يقولون إن الامداد كلها كانت ٤٬٠٠٠ ، ومن العجيب أن (حنا النقيوسى) يقول إنها كانت ٤٬٠٠٠ ويزيد على ذلك أن قائدها كان اسمه (والوآريا) وكان أسود وهو من الهمج ولا نستطيع أن تعرف الاسم المقصود على أنه قد كان منهم قائد أسود وهو عبادة فى إحدى الكتائب . وقال زوتنبرج إن (والواريا) هذا تحريف ظاهر، وقال ياقوت إن كلا من عبادة بن الصامت ، والمقداد بن الأسود ، ومسلمة بن مخلد كان على ألف رجل وإن الزبير مثلهم وإنه لا يوجد نوع من الخلط إلا وقع فيما كتبه العرب وعلى ذلك فليس عجيبا أن نرى المقريزى يؤجل وصول الامداد وهى ١٢٬٠٠٠ مع الزبير — الى الوقت الذى كان العرب يحاصرون فيه حصن بابليون .

أنهم كانوا يملكون حصن بابليون ، وكان نهر النيل فى يدهم ، وعادوا إلى مسلحة (أم دنين) فملكوها . فلو كان عندهم علم بالحرب وحزم فى الرأى لاستطاعوا أن يمنعوا عمرا من العبور إلى الجانب الشرقى ، فكانوا يجعلونه بذلك فى معزل عمن جاء يمده ، ولعلهم كانوا يستطيعون بذلك القضاء عليه .

ولكنهم لم يفعلوا ذلك مع كل ما كان لديهم من ميزة عليه ، واستطاع عمرو أن يعبر النهر إما عنوة وإما على غرة منهم . وأغلب الظن أنه عبر النهر فى موضع أسفل من موضع (أم دنين) الى الشمال منها ، لأن ترعة (تراجان) كانت عند ذلك مطمومة منذ أهمل أمر حفرها وكريها ، ولم تكن لتعوق سير العرب حتى فى وقت فيض النيل . وكان عمرو قد علم بأن أمداد المسلمين سائرة فى طائفتين ميممة شطر (عين شمس) وهى (هليو بولس) ، وعلم أن مقامه فى الجانب الغربى مخطر[1] . والحق أنه فزع خوفا من أن يفطن الروم إلى الأمر فيحولوا بينه وبين الاتصال بالمدد الذى جاء به الزبير ، ولكن (تيودور) ضيع الفرصة على عادته ، فلم يضرب الضربة القاضية ، واستطاع عمرو أن يسير للقاء المدد ويبلغ عسكر المسلمين فى هليو بولس وقد امتلأت قلوب أصحابه عزة وبشرا بما وفقوا اليه من الفوز فى غزوتهم .

كانت هليو بولس فى الأزمنة القديمة إحدى مدن مصر الكبرى واسمها (أون)[2] . ويتردّد ذلك الاسم فى قصص موسى ، وكان لا يزال باقيا يطلقه القبط عليها فى القرن السابع ، ويفيد ذلك الاسم معنى (مدينة الشمس) . ولا شك أن اليونان أخذوا ذلك

(١) قد وقع نقل وتشويه فى عبارة الفصل الثانى والستين من كتاب حنا بجعله غير ممكن الفهم (صفحة ٥٥٦) . وقد جاءت فيه عبارة تشير الى السير لفتح الفيوم وهى "فتركوا المدن الحصينة واتجهوا الى موضع اسمه (تونديس) وساروا فى النهر" ثم جاءت بعدها عبارة تشير الى فتح مصر والجملة التى بعد ذلك تشير الى الرجوع من الفيوم . وإنا فى أشد الحاجة الى ترتيب جمل النص على يد ناقد بصير . ولكن على كل حال يمكن أن ندرك مما جاء فى هذا الوصف أن عمرا كان يحس قلقا من الحال التى كان فيها .

(٢) كتب شامبوليون الأصغر تعليقا على هذا الموضوع .

(L'Eg. sous les Pharoans t. ii PP. 36. 41)

المعنى فجعلوا اسمها عندهم (هليو بولس) . وقد احتفظ العـرب كذلك بذلك المعنى فجعلوا اسم الموضع (عين شمس)[١]. وكانت هذه المدينة معروفة بعظمة آثارها كما كانت معروفة بأنها قبلة لأهل العلم وكعبة للدين . ولما زارها (سترابو) قبل ذلك الوقت بستة قرون كان الناس هناك يدلونه على المواضع التى كان أفلاطون يتلق فيها العلم من قبل . على أن الزمن عند ذلك كان قد غير المدينة وجرت صروفه وحروبه وحصاراته ذيل العفاء على أكثر معابدها وتماثيلها ، فلما أتى العرب لم يكن باقيا من مجدها القديم إلا قليل من نسوى أسوار مهدّمة ، وتماثيل (لأبى الهول) قد دفن نصفها تحت الثرى ، وعمود واحد مما يعرف (بالمسلة) ولا يزال باقيا الى اليوم ذكرى من ذلك العالم الغابر .

وكانت المدينة على نهد من الأرض ، يحيط بها قديما سور غليظ لا يزال أثر منه باقيا الى اليوم[٢]. ولم يكن لها خطر فى الحرب فى ذلك الوقت ، ولكنها كانت تستطيع المدافعة ، وكان فيها ماء كثير ، وتصلح لإمداد الجيش بالمؤونة ، ولهذا اتخذها عمرو مقرّا وجعل يتجهز منها لما هو مقبل عليه من القتال . وقد وصفنا فيما سلف من قولنا مقـدم (تيودور) الى حصن بابليون وأنه جعل يحشـد فيه الجنود من بلدان مصر السفلى ، ولكن لعله ما أتم حشد الجيش الذى كان يستطيع به قتال العرب والخروج به الى عين شمس حتى كانت الأمداد التى بعث بها عمر بن الخطاب قـد بلغت عمرو بن العاص ، فأصبح بها أميرا على جيش عدّته خمسة عشر ألفا ، من بينهـم

(١) الظاهر أنه قد غلب الاسم الجديد (المطرية) على الاسم القـديم (عين شمس) والموضع معروف للسياح من أجل شجرة العذراء والعين التى استراحت الأسرة المقدّسة بجوارها .

(٢) جرت العادة أن يقال إن هليو بولس هى (أون) ولكن الخريطة الحديثة الحربية تجعل (أون) فى موضع تل اليهودية وهليو بولس فى موضع تل الحسن . وآثار تل اليهودية على نهد من الأرض يحيط بها سور ساذج من اللبن فى حين أنه لا يزال فى تل الحسن سور قوى علوّه عشرون قدما ولا بدّ أن عمرا قد ضرب عسكره فى الموضع الأخير فان تل اليهودية على اثنى عشر ميلا الى الشمال بعد ذلك . وقد علا كل سطح ذلك السهل بضعة أقدام منذ القرن السابع و يدل على ذلك العمق الذى توجد فيه المسلة اليوم والعمق الذى توجد فيه الآثار الأخرى اليوم تحت مستوى سطح السهل .

طائفة من أكبر فرسان الاسلام وشجعانه[(١)]. ولسنا نعرف عدد الجيش الذى حشده الروم إلا بالظن والحدس. وقد عرفوا حق المعرفة ما كان عليه عدوهم من الشجاعة، فقد سمع قبطى مرة وهو يقول ما أعجب أمر هؤلاء العرب، فانهم أتوا الى مصر فى قلة من الناس يريدون لقاء الروم فى كتائبهم العظيمة. فأجابه آخر من القبط إن هؤلاء قوم لا يتوجهون الى أحد إلا ظهروا عليه حتى يقتلوا أخيرهم[(٢)]. وتروى قصة أخرى وهى أن الروم كانوا لا يقدمون على القتال ويقولون : ما لنا من حيلة فى قوم غلبوا كسرى وهزموا قيصر فى بلاد الشام. على أن هذه القصص قد جاءت عن طريق العرب وإنا نشك كثيرا فى صحة القصة الأخيرة، فان الروم كانوا أكثر عددا وان جيوشهم التى كانت على قدم القتال لم تكن بأقل من عشرين ألفا — عدا من كان فى الحصون.

كانت خطة عمرو أن يجعل الروم يخرجون اليه فيقاتلونه فى السهل وهم بعيدون عن حصن بابليون، فلما أحس (تيودور) من نفسه القوة جعل يناجز العرب، وسار اليهم بجيوشه نحو (هليوبولس)، وكانت على مسافة ستة أميال أو سبعة من عسكر العرب. وكان على الخيل (تيودوسيوس) و(انستاسيوس)، ولكن أكثر الجمع كانوا رجالة بعضهم رماة وبعضهم يحملون الرماح. وكانت ربيئة العرب قد أسرعت فحملت الى عمرو ما عزم عليه الروم، فاستطاع أن يوجه جنوده الى مواضعها ويعبئهم للقتال.

(١) ذكر ابن عبد الحكم كما جاء فى كتاب أبى المحاسن الأسماء الآتية للصحابة الذين شهدوا فتح مصر. الصحابة : عمرو وابنه عبد الله والزبير وعبدالله بن عمر وسعد بن أبى وقاص (وهذا مختلف فيه) وخارجة بن حذافة وقيس بن أبى العاصى السهمى والمقداد بن الأسود وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ونافع بن عبد قيس الفهرى وأبو رافع مولى رسول الله وابن عبدة وعبدالرحمن وربيعة ابنا شرحبيل بن حسنة ووردان مولى عمرو.

الأنصار : عبادة بن الصامت ومحمد بن مسلمة وأبو أيوب خالد بن يزيد وأبو الدرداء عويمر بن عامر ويسمى عويمر بن يزيد. وقد أتى نفس الكاتب بأسماء أخرى ممن شهد الفتح. ومن هم أقل من هؤلاء ذكرا بين العرب (أنظر النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة)

(Luged. Bat I885-6) Matthes ، Juynbull

(٢) أبو المحاسن صفحة ٨

فسار هو من هليو بولس مع أكثر الجمع من العرب للقاء الروم، ولكنه أرسل تحت الليل كتيبتين : إحداهما الى (أم دنين)، والأخرى وعليها خارجة بن حذافة الى مكان واقع الى الشرق، ولعله كان فى ثنية الجبل[1] بقرب الموضع الذى فيه اليوم قلعة القاهرة. فكان سير الروم على ذلك بين هذين الكمينين من العرب وكان عمرو قد أمرهما أن يهبطا على جانب جيش الروم ومؤخرته اذا سنحت لهم الفرصة[2].

وخرج الروم من بين البساتين والأديرة التى كانت الى الشمال الشرقى من الحصن وانتشروا فى السهل[3] وكان ذلك فى الصباح الباكر ولم يكن عندهم علم بمكيدة عمرو

(١) ولعل هذه هى الحادثة التى ذكرها المقريزى فى غير موضعها حيث يقول إن عمرا أرسل ٥٠٠ فارس بقيادة (خارجة بن حذافة) وأمرهم أن يكمنوا فيهبطوا على العدو اذا خرج من بين الأديرة قال : "فساروا بالليل ودخلوا مغاربنى وائل قبل الصباح" فلما بدأت الوقعة بعد الفجر نزلوا على مؤخرة الروم بغتة وأكملوا ما بدأ من اضطرابهم واختلال أمرهم .

(٢) . يقول (زوتنبرج) إنه لا يستطيع فهم الموقعة نظرا للمسافات التى بين هذه المواضع وقد أخطأ بجعل تنونديس (أم دنين) الى جنوب بابليون بدل أن يجعلها فى شماله . ولا شك أن (حنا النقيوسى) جعلها أبعد الى الشمال الغربى ولهذا يقول إن المكان الآخر فى شمال بابليون ولكنا فيما عدا الاعتراضات الأخرى لو وضعنا كمين عمرو فى جنوب بابليون لجعلنا خطته فى منتهى الجهالة فى حين تكون كتيبة أخرى من جيشه فى الشمال ومعظم جيشه فى هليو بولس وفوق ذلك كان حصن بابليون ومعسكر الروم يسدان الطريق الذاهب الى الجنوب . ولو قلنا إن عمرا ذهب الى لقاء العدو ولم يبق فى عسكره لانتظاره هناك لذهب الاعتراض بيعد المسافة . ولقد نسى (زوتنبرج) فوق هذا أن النيل كان يجرى فى موضع شرق مجراه الحالى بكثير . فاذا نحن وضعنا كمينا عند (أم دنين) (الأزبكية) وآخر عند القلعة أو الجبل الأحمر صارت خطة الموقعة واضحة ولنا كلمة أخرى فقد كانت هليوبولس قديما تغطى مساحة أكبر مما يمكن تصوره اليوم وهذا واضح ليس فقط من الأطلال الباقية بل من شهادة ابن دقاق إذ يقول صراحة "وكانت عين شمس فى الزمن الماضى مدينة عظيمة متسعة متصلة بمصر القديمة التى فى موضع الفسطاط فى الوقت الحاضر" (الجزء الخامس صفحة ٤٣) ومعنى هذا أنه لا بد قد كانت المسافة بين أرباض المدينتين قصيرة على أن أرباضهما كانت عبارة عن منازل وكنائس متفرقة .

(٣) يظهر لمن يطلع على هذا الوصف الذى وصفنا به موقعة عين شمس أنها على اختلاف كبير مع ما جاء فى الطبرى (أنظر طبعة زوتنبرج الجزء الثالث صفحة ٤٦٣) فقد جاء فى الطبرى : (١) أن الوقعة كانت بعد فتح حصن بابليون . (٢) أن المقوقس كان مع جيش القبط فى عين شمس وقد أزمع السير الى مصر . (٣) أن جيش عمرو سار الى أبواب عين شمس . (٤) أن جيش القبط تشتت عند أول صدمة وخسر عددا عظيما بين قتيل وأسير . (٥) أن العرب غنموا غنيمة عظيمة وأرسلوا الأسرى الى المدينة . وإنه ليكون =

بل رأوا أنه كان يسير اليهم فى جمعه آتيا من هليوبولس . ثم حدث اللقاء بعد ذلك ولعله كان فى مكان وسط بين معسكرى الروم والعرب عند الموضع الذى اسمه اليوم (العباسية) . وكانت كل من الطائفتين موقنة بأن ذلك اليوم سيكون يوم الفصل فى أمر مصر، فكانت كل تقاتل قتال المستميت . فلما حمى وطيس القتال وعض الناس على النواجذ أقبلت كتيبة خارجة تهوى من مكمنها فى الجبل، كأنما هى عاصفة تجتاح مؤخرة الروم . فلما رأى الروم أنهم قد أخذوا بين جيشين من عدوهم، وقع الفشل فى صفوفهم، واتجهوا بعض الاتجاه الى يسارهم نحو (أم دنين)، فلقيهم الكمين الآخر فظنوا أنه جيش عربى ثالث . فانتثر نظامهم وحلت بهم الهزيمة، ففروا لا يلوون

= من الإسراف أن نكذب خبرا مثل هذا الخبر المفصل ولكنا فوق مانشعر به من ضرورة الأخذ بما جاء فى كتاب حنا الذى كان قريبا من ذلك العهد يظهر لنا أن الطبرى قد أخطأ خطأ فى وصف البلاد فان وصفه للوقعة صحيح ولكنها لم تكن وقعة عين شمس والدليل على هذا : (١) ترتيب الحوادث فان هذه الوقعة لا يمكن أن تكون بعد فتح مصر فى حين أن مواقع أخرى يمكن أن تقع بعد ذلك وقد وقعت فعلا بعد فتح مصر . (٢) الطبرى نفسه يكشف عن خطئه بوصفه عين شمس بأنها كانت " مدينة عظيمة فى بلاد القبط وأنها واقعة فى الغرب" ومعنى هذا إما أن يكون أنها فى غرب النيل أو فى غرب مصر السفلى، ولكن عين شمس لا يمكن أن توصف بأحد هذين الوصفين وعلى ذلك فالظاهر أن الوصف السابق انما هو وصف بعض المواقع التى كانت فيما بين بابليون والاسكندرية وقد وقعت فى الغرب وسيأتى ذكر هذا فيما يلى .

وقد كانت غلطة الطبرى سببا فى خلط كثير من مؤرخى العرب مثل ابن الأثير وابن خلدون (وقد كان الطبرى غريبا عن مصر لا يعرف كثيرا من وصف بلدانها) وهذا مثل جديد من الأمثلة الدالة على ما يجده الانسان من الخلط فى وصف حوادث هذا العصر حتى فى خير الكتب المعتمدة والدالة على ما يجب على المؤرخ الذى يعالج وصف هذا العصر من التمحيص والمقارنة. ولكنا نرى أن هناك سببا بسيطا فى مثل هذا الخطأ الذى يقع فيه سوى هذا من المؤرخين العرب فانا اذا وجدنا أن ابن الأثير يذكر أن قواد العرب حاصروا عين شمس و يقول إن (الزبير) تسورها (وسنرى أنه انما تسور قصر الشمع) نجد أنفسنا حيال خلط شبيه بما سبق ذكره وسبب كل ذلك اسم (بابليون) فان العرب أو بعضهم فهموا ذلك الاسم على أنه باب ال (أون) أو (باب أون) و (أون) هى عين شمس (الاسم العربى لهليوبولس) ومن هنا نشأ الخلط بين المكانين فان البلاذرى يذكر أن الفسطاط كانت عند الفتح اسمها (أليون) . وقال المؤرخون بعد ذلك أن اسمها كان (اليون) وأخذوا ذلك اللفظ على أن معناه (أون) وهى (عين شمس) فبنى على هذا الخطأ أنه قد حوصرت عين شمس ونقلت الحوادث من بابليون اليها . وفى رأينا أنه لم يسبق أحد الى هذا التفسير وأنه يفسر كثيرا من الصعاب التى نلقاها فى تواريخ العرب وقد أسىء فهم اللفظ الرومانى (بابليون) فصار فى صور متعددة مثل (باب اليون) ومدينة (ليون) و (قصر اليون) و (باب اللوق) و (لونيا) و (أليون) .

على شيء يطلبون النجاة من سيوف العرب وهى تلمع كأن وميضها وميض البرق . فاستطاع الأقل منهم أن يبلغ الحصن برا فيلوذ به، وكثير منهم ساقهم الفزع الى النهر فنزلوا فى السفن وعادوا الى الحصن، ولكن طائفة كبيرة هلكت . واستولى العرب بعد انتصارهم على (أم دنين) مرة أخرى، وقد قتل فى الوقعة كل من كان بها من الجنود إلا ثلثمائة . ولاذ كل من نجا من الروم بحصن (بابليون) وأغلقوا عليهم الأبواب، ولكنهم منذ علموا بما أصاب اخوانهم الروم من القتل حملهم الخوف على أن يتركوا الحصن فساروا فى النهر الى (نقيوس) .

وليس فى الأخبار ما يذكر عدد القتلى من الجانبين ، ولكن من المعروف أن أمير الجيش (تيودور) والحاكمين (تيودوسيوس) و (انستاسيوس) لم يقتلوا . على أنه قد بقى من الروم فئة لا بأس بها اجتمع اليها من كان فى الحصن فى أثناء القتال، فصارت منهم جميعا مسلحة قوية تستطيع الدفاع عنه . ولكن النصر أفاد العرب فوائد جمة، فقد أصبحت مدينة مصر فى قبضة يدهم بغير قتال، وكانت من قبل يحميها الجيش الذى فى الحصن[1]، وأصبحوا يملكون ناصية شاطئ النهر من ناحيتى الحصن من أعلاه ومن اسفله، ونقلوا عسكرهم بعد من هليوبولس فضربوه فى شمال الحصن وشرقه بين البساتين والكنائس، وذلك هو الموضع الذى صار يعرف بالفسطاط فيما بعد . وقد صار جيش العرب بعد ذلك النصر كافيا لحصار (بابليون) لا يعوقه عائق من التضييق عليه، بعد أن قضى على جيش الروم فلم تبق منه إلا الفلول التى لاذت بالحصن أو هامت على وجهها فى بلاد مصر السفلى . ولما بلغت أنباء نصر العرب الى الفيوم غادرها من بها من المسالح، فخرج (دومنتيانوس) عند ما علم بذلك من المدينة فى الليل وسار الى (أبو يط)، ثم نزل فى النهر بجنوده وجدّ هاربا الى (نقيوس)، ولم يخبر أهل (أبويط) بما كان منه من ترك الفيوم لأعدائه لا يدافع عنها أحد .

(١) عنوان الفصل الخامس والستين من ديوان حنا هو "كيف استولى المسلمون على مصر فى السنة الرابعة عشرة من الدورة القمرية" ولكن لم يرد وصف للاستيلاء فى ذلك الفصل وهذا مثل من مائة مثل مما يدل على نقص الكتاب وتغيير مواضع أخباره .

ولما بلغ نبأ (دومنتيانوس) وهزبه الى عمرو بن العاص بعث كتيبة من جنده عبروا النهر، وفتحوا مدينتي (الفيوم) و(أبو يط)، وأحدثوا فى أهلها مقتلة عظيمة وأصبح ذلك الإقليم تحت الحكم الاسلامى منذ ذلك الحين .

ولما قضى عمرو بذلك على كل من وقف له من الفيوم وخلص له أمرها ، أرسل جنوده الى موضع اسمه (دلاص)[1]، رآه أصلح المواضع للنزول من النهر الى ذلك الإقليم ،وأصبح العرب بذلك الى حين سادة النهر،وكان هذا أثرا عظيما من آثار النصر. غير أن الروم كانوا لا يزالون يملكون جزيرة الروضة وهى جزيرة ذات حصون تتصل بحصن بابليون، تسير بينهما السفن والقوارب، و بقيت الأسفار على ذلك فى النهر على عادتها يكاد لا يعوقها عائق، لأن العرب لم يكونوا من أهل البحار إذ لم يحذقوا بعد تسيير السفن، وكانوا فى شغل مما هم فيه من القتال والفتح فى الأرض . وعاد عمرو فأمر بجرائد الخيل بالعودة اليه[2]، وكان أنفذهم يجوسون خلال البلاد بعد وقعة عين شمس، ثم أمر (أبا قيرس)[3] حاكم دلاص أن يمدّ المسلمين الذين كانوا بالفيوم بالسفن ليتنقلوا فيها من الجانب الغربى الى الجانب الشرقى،وكان يقصد بذلك أن يفتح كل إقليم مصر وهو الإقليم الذى كان يلى مفترق فرعى نهر النيل .

(١) كانت (دلاص) على الضفة الغربية للنيل فى جنوب (ممفيس) وهى الى شرق مدينة الفيوم وهى بالقبطية (تيلوج) وباليونانية (نيلوبولس) (انظر "اب أميلنو "Geog. Copte" صفحة ١٣٦) .

(٢) جاء فى السيوطى نقلا عن ابن عبد الحكم "بعد إتمام فتح مصر (مدينة مصر) أرسل عمرو جرائد الخيل الى القرى المجاورة" وجاء فى ديوان حنا عند وصف الوقت عينه " بجمع جنوده ليرسلها فى وجوه مختلفة" وهذا اتفاق واضح .

(٣) وهذا هو (أبا كيرى) الذى جاء ذكره فى ديوان حنا صفحة ٥٥٩) وقد حار (زوتنبرج) فى ذلك الاسم فقال "وليس من المؤكد أن يكون هذا اللفظ علما على شخص" ولكن كل شك قد زال عند كشف وثائق (قره باسك) "Papyrus Erzherzog Rainer: Fuhrer durch die Ausstellung" ورقم ٥٥١ منها هو خطاب من خارجة المشهور (انظر ما سبق فى صفحة ٢٠٣) كتبه الى (أبا قيرس) حاكم (هرقليو بولس مجنا) . ورقم ٥٥٨ منها مكتوب باليونانية والعربية بتاريخ ٢٥ أبريل سنة ٦٤٣ وهو من عبد الله بن جابر الى (كريستوفوروس) و(تيودورا كيوس) ابنى (أبا قيرس) عينه . وهذا الخطاب الأخير أقدم وثيقة إسلامية فى مصر ان لم يكن أقدم ما فى العالم ورقم ٥٥٤ يذكر ذلك الاسم أيضا .

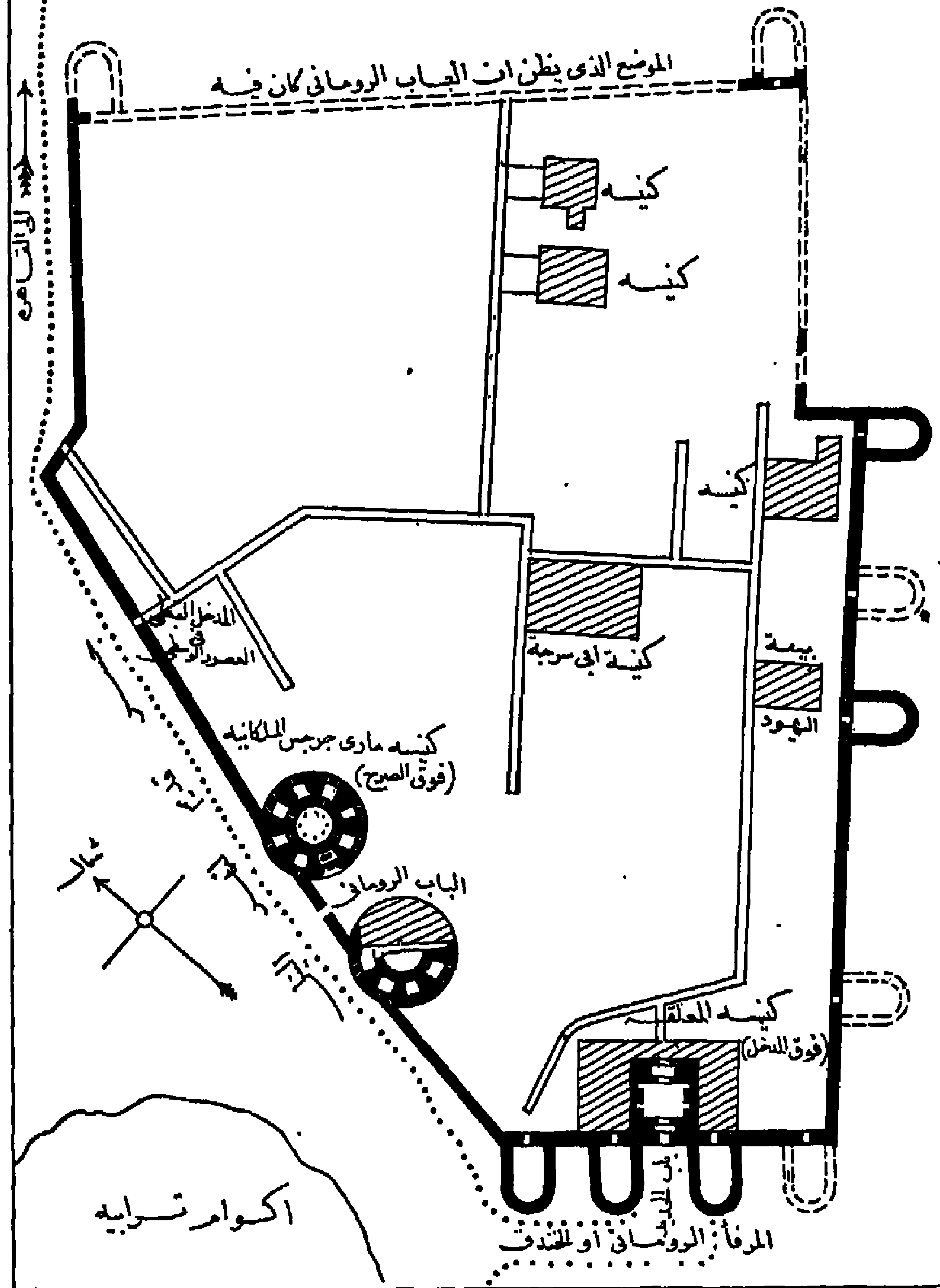
ولعل وقعة عين شمس كانت فى النصف من شهر يوليه سنة ٦٤٠، وقضى العرب فى فتح الفيوم نحو أسبوعين . وعلى ذلك لم يبدأ فتح مصر السفلى قبل شهر أغسطس . وكان عمرو يطمع أن يبسط يده الى هناك قبل أن يحول فيض النيل بينه وبين ذلك . وأما ما كان من أمر (جورج) حاكم إقليم مصر فاما أن يكون قد وقع فى الأسر عند فتح مدينة مصر أو أنه أذعن للعرب وخضع لأمرهم . فالحق أن الرهبة من العرب أخذت عند ذلك بقلوب الناس فى كل البلاد، ولا سيما ما كان منها على كثب من سيوفهم، اللهم إلا المواضع ذات الحصون .

غير أن مصر السفلى كانت تشقها الترع الكثيرة وكان بعض هذه الترع لا يمكن اجتيازه خوضا، فجاء الأمر الى (جورج) أن يقيم قنطرة على الترعة عند قليوب، وقال حنا النقيوسى : "وأخذ الناس يساعدون المسلمين"[(١)] وانه لمن سوء الحظ أن قول الأسقف هنا ليس بالواضح البين . غير أنا اذا قرنا ذلك القول مع سائر ما جاء فى ديوانه رأينا أن معناه لا يزيد على أن الناس قاموا بتلك المساعدة إذ أمروا بها، أى أنها لم تكن مساعدة الراغب المختار بل عمل المجبر المضطر . وفى الحق أنا لو أنعمنا النظر لرأينا فى قول الأسقف نفسه ما يدل على ذلك دلالة واضحة فانه بعد أن قال إن العرب فتحوا المدينتين الكبيرتين (أتريب) و (منوف) وملكوا ريفهما و بسطوا سلطانهم على إقليم مصر كله، قال "انهم لم يكفهم هذا بل أمر عمرو أن يؤتى بالحكام من الروم مجموعة أيديهم فى الأصفاد وأرجلهم فى القيود، ثم أخذ من الناس أموالا عظيمة وضاعف عليهم الجزية، وأمرهم أن يأتوا له بالأعلاف لخيله وظلمهم ظلما كثيرا" وليس من العجيب أنه بمثل هذه الشدّة قضى على كل مقاومة وجعل الناس لا يعصون له أمرا ، ولكنا لا نجد كلمة واحدة تدل على أنه قد كان بين أهل مصر من وقع مجىء المسلمين فى قلوبهم إلا موقع الخوف والرعب .

(١) صفحة ٥٥٩ الفصل ٦٣، وترجمة زوتنبرج هكذا : "وقد كان عند ذلك بدؤهم بمدّ يد المساعدة للسلمين" . وفى ذلك خروج على الأصل الذى لا يزيد على "و بدأوا يساعدون المسلمين" ونرى أن المساعدة كانت محدودة ومعينة لغرض خاص ولم تكن مساعدة عامة .

على أن مدينة (نقيوس) — وكانت على الفرع الغربى للنيل — بقيت بنجوة من العرب بعد أن أخذوا (أثريب) و (منوف)، وذلك لأنها كانت ذات حصون قوية وأسوار منيعة، فما كانت لتؤخذ حتى يحاصرها العرب حصارا تاما، ولم يستطع العرب ذلك عندئذ إذ كانوا لا يملكون العدّة لحصار ولا يتسع لهم الوقت له. وعلى ذلك بقيت (نقيوس) كأنها حلقة تصل من كانوا فى حصن (بابليون) بمن كانوا فى الاسكندرية. غير أن كبار الروم الذين كانوا فيها لم يستطيعوا البقاء بها عند ما جاءتهم أنباء فتوح العرب وفوزهم، فهاجروا الى العاصمة ولم يغادروا فى المدينة إلا (دومنتيانوس) فى قلة من الناس للدفاع عنها، وبعثوا الى (داريس) فى سمنود يأمرونه أن يحفظ ما عنده من البلاد التى بين فرعى النيل. وعند ذلك زاد الخوف وذعر الناس، وغلب الرعب على كل بلاد مصر، فأخذ الخلق يفدون أفواجا من كل حدب الى الاسكندرية تاركين أرضهم وبيوتهم وما فيها من زرع وضرع ومتاع. وبذلك خرج أهل مصر من عهد المقوقس (قيرس) واضطهاده الذى عصف بهم عشر سنين الى عهد آخر من الخوف والفزع.

ولكن عمرا لم يكن عند ذلك ليستطيع أن يسير الى الشمال فى أثر تلك الأفواج الهاربة، فان النيل كان آخذا فى مدّه يعلو به الماء علوا سريعا فى أواخر شهر أغسطس، فأصبحت البلاد لا يمكن السير فيها. وكان فوق ذلك لا يريد أن يخلف وراءه ذلك الحصن العظيم حصن (بابليون) بغير ردء من جنوده يدرأ عنه، واذا هو شاء أن يجعل من جنوده ردءا كان لا بدّ له أن يخلف جانبا عظيما من جيشه، فلا يبقى له بعد ذلك من الناس من يقدر بهم على فتح الاسكندرية. فلم يكن له مفرّ من أن يعمد بعد ذلك الى فتح حصن (بابليون).



حصن بابليون الرومانى
(قصر الشمع)
نقلا عن البقايا التى كانت موجوده سنة ١٨٨٢
قدم
الموضع الذى يظن ان الباب الرومانى كان فيه
كنيسه
كنيسه
كنيسه
كنيسة ابى سرجة
بيعة اليهود
كنيسه مارى جرجس الملكانيه
(فوق الصيح)
الباب الرومانى
كنيسه المعلقه
(فوق المدخل)
اكوام ترابيه
المرفأ الرومانى او الخندق
شمال

الفصل السابع عشر

حصن بابليون

ما عليه الحصن الآن — موقعه ومنعته — صروحه وأبوابه — الباب الحديدى — جزيرة الروضة — منشأ الحصن وأصل تسميته — ما فيه من الكنائس

بقى من حصن بابليون الى نحو أوائل القرن العشرين ما يدل على ما كانت عليه هيئته وعظمة خطره . وكان الفضل للقبط فى حفظ تلك البقية إذا جتمعت لهم كنائس عدّة فيه منذ أوّل عهد المسيحية، لأنهم وجدوا وراء أسواره منعة لهم فى أيام المحنة والشدّة، وكانت كل أسوار الحصن للقبط إلا ما كان منها للملكانيين وهو موضع كنيسة (مارجرجس)، وإلا ما كان منها لليهود وهو موضع بيعتهم . والظاهر أن المسلمين لم يحفلوا بالمحافظة على ذلك الأثر مع ما كان له من الخطر فى أيام فتحهم ومع كثرة ما كتبه مؤرّخوهم عنه .

ولكنه خرب تخريبا يرثى له منذ احتلال الانجليز لمصر اذ شعر أهله عند ذلك بالاطمئنان والأمن . فقد أصبح الأمر مستقرا لا حاجة معه الى الأسوار المنيعة وجعل القبط واليونان واليهود وكأنهم يتبارون فى هدم أسواره كلما بدا لهم فتح باب فى ناحية أو إقامة بناء فى جانب منه . فاذا نحن قلنا إن السنين الثمانى عشرة الاخيرة قد شهدت من تهديمه أكثر مما شهدته القرون الثمانية عشر التى قبلها لم يكن فى قولنا شىء من المبالغة .

فلما أن انتهى الأمر الى ذلك وحدث الضرر الذى كان يخشى تدخلت الحكومة و بسطت حمايتها على ما بقى منه، ولكن ما أقل ما قد بقى منه .

وموضع ذلك القصر المتهدّم فى ما يسمى اليوم (مصر القديمة)[1]، وكان باقيا من الأسوار ثلاثة جوانب لم يكد يمسسها أذى منذ بضع سنين، ولكن لم يبق منها اليوم إلا قطع من جانبين اثنين، وأما الثالث فقد شوّه ومسخ مسخا. وكان سمك أسواره ثمانية عشر قدما. وكان بناؤها من الآجر والحجارة طبقة من هذه وطبقة من تلك. وكان محيط الأسوار على شكل مربع غير منتظم، ولكننا لا نستطيع البت فى أمر سعته ومساحته حتى تكشف جدران الجانب الرابع وهو الجانب الذى لم يبق منه أثر. ويتخلل كلا من الجانبين الجنوبى والشرقى من أسوار الحصن أربعة أبراج بارزة، بينها مسافات غير متساوية، وكانت ثلاثة من هذه الأبراج الأربعة التى إلى الجنوب لاتزال ظاهرة الى عهد قريب، وأما الآن فإن أحدها قد تهدّم واندثر ولم يبق إلا اثنان، ونستطيع أن نرى بينهما الباب العظيم القديم الذى كشف مما كان علاه من الأقذار والأتربة الى نحو ثلاثين قدما[2]. وأما الجانب الغربى فلم تكن به بروج، ونستطيع أن ندرك علة ذلك متى عرفنا أنه فى وقت بناء الحصن كان ماء النيل يجرى تحت أسواره، فكانت السفن ترسو تحتها، وقد بقيت الحال كذلك إلى أيام فتح العرب: وكان للحصن باب آخر فى تجاه النهر ولعله كان بين الصرحين العظيمين المستديرين الذين بقيا إلى عهد قريب، لم يبلغ منهما التهدّم مبلغا كبيرا إلا فيما انتابهما فى المدّة الأخيرة من التغير. وأما اليوم فقد بقى من أحدهما أثر فى حين لم يبق من الآخر شىء تراه العين، لأنه دخل فى بناء مربع أقامه أبناء العرب فى العصر الحديث. وكان كل صرح من هذين الصرحين دائريا يبلغ قطره نحو مائة قدم، وكان فى داخله دائرة أخرى من البناء، وتقطع ما بين الدائرتين الخارجة والداخلة جدران من البناء.

(١) جاء فى الأصل الإنجليزى "now miscalled old Cairo" ومعناه: «فيما يسمى الآن خطأ القاهرة القديمة» والواقع أن الخطأ واقع فى التسمية الانجليزية وحدها اذ أن اسم ذلك الخط بالعربية «مصر القديمة» وليس «القاهرة القديمة» كما هو فى الانجليزية. ولهذا آثرنا أن نحذف من الترجمة لفظ «خطأ» إذ لا خطأ فى التسمية العربية كما هو ظاهر (المعرّب).

(٢) المؤرّخون والأثريون مدينون على السواء دينا عظيما من الشكر الى ماكس هرتز بك لما قام به من العمل الجليل بحفظ هذا الباب وإظهاره للعيان.

تقسمه الى ثمانية أقسام، كان فى كل منها سلم حجرى صاعد إلى أعلى البناء . وأما علو الأسوار فكان على وجه الإجمال نحو ستين قدما كما أظهره الحفر الحديث ، ولكن الحصن كله مطمور اليوم الى نحو ثلاثين قدما فيما تخلف حوله من أثر العصور المتتالية عليه . وأما الصروح فكانت أعلى من ذلك ، فكان الصاعد الى أعلاها يشرف على منظر عظيم يبلغ مداه الى المقطم من الشرق ، والى الجيزة والأهرام وصحراء لوبيا من الغرب ، والى قطع كبيرة من نهر النيل من الشمال والجنوب ، وكان الناظر من هناك فى وقت غزوة العرب ، وذلك قبل أن تبنى القاهرة ، لا يقف شىء دون بصره حتى يبلغ مدينة عين شمس (١) .

وكان بين الصرحين الكبيرين سور ساتر ينفذ منه الباب الذى ذكرناه آنفا ، ولكن ذلك الباب ليس هو الذى يكثر مؤرخو العرب من وصفه و يقرنونه باسم المقوقس ، فإن الباب الذى يقصدونه هو الجنوبى وهو الذى نراه اليوم ماثلا . وأما ذلك الباب بين الصرحين فقد تهدّم أو طمر فى الأرض فلم يبق اليوم له أثر . وهذه حقيقة أصبحت ثابتة لا ريب فيها ، لأن البحث الحديث قد أظهر أمرا عجيبا وهو أن النيل نفسه أو فرعا قصيرا منه كان فى وقت الفتح يبلغ الى الباب الأكبر الجنوبى ، (وهو ما يسميه العرب بالباب الغربى (٢)) والى مرسى السفن الذى كانت ترسو عليه السفن الرومانية . وكان لذلك المرسى درج يهبط منه إلى الماء كلما تغير علو النهر . وإن وجود هذا المرسى الى اليوم لدليل على دقة وصف مؤرخى العرب فى بعض الأحيان لما يرون . ولعل ذلك كان حال الباب الذى كان بين الصرحين المستديرين الذين كانا تجاه جزيرة الروضة . ولكن من الثابت أن ذلك الباب الجنوبى — باب كنيسة

(١) قد حقق مؤلف هذا الكتاب ذلك . وقد جاء وصف مفصل لهذه الصروح فى كتاب "Ancient Coptic Churches" وقد أثبتنا هنا رسم أجزاء السور التى كانت باقية الى قبيل احتلال الانجليز لمصر وفيه تغيير يسير .

(٢) وليس فى الواقع وصفه الباب بالغربى دقيقا كما أن وصفه بالجنوبى ليس صحيحا فان جهات البوصلة مخالفة لذلك . على أن الجانب المواجه للقاهرة أجدر بأن يسمى الشمالى والجانب المواجه لحلوان الجنـوبى .

المعلقة — هو الذى يرد ذكره فى أخبار مؤرّخى العرب ويسمونه (الباب الحديدى). وتدل على هــذا أدلة كثيرة : (أوّلها) أن البحث قد كشف عن المرسى الذى كان هنالك فى النهر عند ذلك . و(ثانيها) أن الباب الذى لا يزال باقيا الى اليوم فيه مجرى عميق منقور فى البناء كانت جوانب الباب تجرى فيه إذ يدلى من عل . وكان ذلك الباب إما مصنوعا من الحديد أو عليــه غطاء من صفائح الحديد . و (ثالثها) أن المقريزى[(١)] ينص على أن الباب الحديدى هو الباب الغربى (الذى نسميه نحن فى كتابنا هذا بالباب الجنوبى) ، فى حين أن ابن دقماق[(٢)] — وكان يعيش فى عصر المقريزى. يقول إن الباب الغربى هو الباب الذى يلى كنيسة المعلقة .

ومن أغرب مايذكر هنا أن ذلك الباب الحديدى الذى يلى المرسى القديم كان الى سنة ١٤٠٠ للميلاد لا يزال مدخل الحصن الذى يلجه الناس منه ، وكان السوق الذى يسمونه « السوق الكبير » واقعا الى جوار ذلك الباب، وكانت هناك طريق تنفذ من ذلك الباب ممــا يلى كنيسة المعلقة ، ثم تسلك الحصن كله حتى تخرج من أسواره من باب فى الشمال فى تجــاه جامع عمرو . وكان الى جوار ذلك البــاب الحديدى كذلك مخفر بنانة ، ولعــله كان ذلك البناء الرومانى المنفصل عن الحصن ، وقد بقيت للآن منه بقية صغيرة . ومع أن عبارة ابن دقماق يفهم منها أن الحصن

(١) الخطط : الجزء الأول صفحة ٢٨٦

(٢) الجزء الرابع صفحة ٢٥ و٢٦ ولا يصف الكاتب الحصن ولكنه يسمى الأبواب والطرق والمساجد والكنائس التى كانت فيه وأنا موردون بعض ما جاء فيه فى هذه الفقرة الهامة . قال عن «طريق المعلقة» إنه الطريق الذى يمر أسفل كنيسة المعلقه وهو الباب الذى يدخل منه الآتى من السوق الكبير إلى الحصن الرومانى المسمى قصر الشمع . وقال عن « طريق الحجر » إنه يدخل اليه من مخفر البنانه ومنه يدخل إلى الحصن وهو الباب (الشمالى) الشرقى للحصن . وأما الطريق السابق فهو (الجنوبى) الغربى وسيأتى ذكر الأبواب الأخرى فيا بعد إن شاء الله . وقال عن «طريق محط القرب» إنه يدخل اليــه من سوق السماكين ومن سوق القصابين وهذا هو الباب الشمالى (الغربى) للحصن وهو آخر الأبواب المشهورة فى الحصن .

فالباب الذى سميناه بالجنوبى أســفل المعلقة يسميه ابن دقماق الغربى وذلك لاخطأ فيه ولكنه فيــه شىء من التجوز والتكلف (أنظر ما ســبق فى صفحة ٢١١ هامش ٢) (وانظر كذلك ابن دقماق الصفحات ١٥، ١٦، ٣٠، ٣٣، ٤٠، ٨١، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٧، ١٠٨) .

كانت له أبواب عدّة أخرى فإنه لا يذكر إلا بابا آخر وهو فى الجانب الغربى ولعله كان الباب بين الصرحين . وما دام الأمر كما وصفنا فإنه يكون من الثابت أن السور الغربى كان على النيل وأن السفن كانت تبلغ الباب الحديدى . ولكن النهر فى هذه الأيام قد بعد بعدا كبيرا عن أسوار الحصن، وعلت الأرض حوله فطمرت نصف أسواره، فذلك النصف من الأسوار قد بقى تحت الأرض محفوظا الى اليوم لم تعصف به يد الهدم ولعله ينكشف يوما ما مما علاه فيظهر للعين .

وكانت جزيرة الروضة كذلك ذات حصون ومنعة فى ذلك العصر، وكانت تزيد فى قوّة حصن بابليون وخطره الحربى بأنها كانت فى وسط النهر تملك زمامه . ويظهر من قول ابن دقماق[1] أن العرب غزوا تلك الجزيرة فى أثناء حصارهم لحصن بابليون، فلما خرج الروم من هناك هدم عمرو بعض أسوارها وحصونها فبقيت مجرّدة عاطلة حتى أعاد ابن طولون بناء أسوارها فى عام ٨٧٦ ليجعلها مقرّا لخزائنه وقصره الخاص . وكانت تلك الجزيرة تتخذ لغرض آخر فكان يسميها العرب فى العصور المتأخرة (جزيرة دار الصناعة) . وقد بنى مقياس النيل فى الطرف الجنوبى منها فى سنة ٧١٦ للميلاد بدل مقياس قديم كان فى حصن بابليون .

وكان الاقليم الذى الى شرق الحصن فى وقت الفتح مزارع فسيحة، وكانت الى شماله الحدائق وحوائط الكرم، وفيما يليها الى الجبل الشرقى كنائس وأديرة متصلة الى الموضع الذى به اليوم جامع ابن طولون وقلعة الكبش . وقد بقيت بعض هذه الكنائس وتلك الأديرة الى اليوم بعضها داخل سور القاهرة وبعضها خارجه، مع أن الملك الناصر بن قلاوون[2] هدم أكثرها فى القرن الرابع عشر .

---

(١) الجزء الرابع صفحة ١٠٩، أنظر كذلك كتاب (.E. W. Lane) "Cairo Fifty Years Ago" صفحة ١٣٢ (لندن ١٨٩٦) وقد ذكر فيه الكاتب بقايا سور عظيم له بروج مستديرة من عمل الرومان كان ظاهرا فى أيامه على الجزيرة .

(٢) أخذنا كل هذه الفقرة عن المقريزى (الخطط الجزء الأوّل صفحة ٢٨٦) ويقول أيضا "وكان هذا الحصن مطلا على النيل وتصل السفن الى بابه الغربى الذى كان يعرف بباب الحديد... فانحسر بعد الفتح =

وأما منشأ بناء الحصن فقد ذهبنا فيه الى رأى[1] ظهرت صحته فيما بعد عند ما نشر ديوان (حنا النقيوسى)، وذلك الرأى هو أن أوّل من بناه الأمبراطور الرومانى (تراجان) فى العام المتمم للمائة من الميلاد، وقد جاء فى ديوان حنا أن اليهود ثاروا بالاسكندرية مرة فأرسل اليهم (تراجان) جيشا عظيما وجعل أميره (مرقيوس تربو)، ثم جاء بنفسه الى مصر وبنى بها حصنا وجعل فيه قلعة منيعة قوية وجعل فيها ماء كثيرا[2] . ولعل هذه الكلمة الأخيرة يقصد بها ما حفره من الآبار عند الصرح المستدير وفى مواضع أخرى من الحصن . ثم قال بعد ذلك إن أصل ذلك الحصن كان بناء أقامه (بختنصر) وسماه باسم عاصمة ملكه (بابليون)، وذلك عند ما غزا مصر . فأقام تراجان أسوار الحصن على أساسه وزاد فى بنائه[3] . وعلى كل حال فلا شك فى أن البناء القائم اليوم بناء رومانى، ولا نظن أن تراجان جعل بناءه على نسق بناء كان فى ذلك الموضع من قبل .

على أنه من المحقق أنه قد كان فى تلك الجهة حصن قديم، فقد جاء استرابو[4] الى مصر قبل عهد تراجان بنحو مائة وثلاثين عاما، وقد ذكر أنه رأى حصنا قويا على نهد من الصخر . وقال إن السبب فى تسميته أن جماعة من أسرى بابل كانت مقيمة فيه . وقال ديودور[5] إن ملك مصر (سيزوستريس) جاء بجماعة من أسرى البابليين

= بأعوام ماء النيل عن أرض تجاه الحصن والجامع العتيق (الى الغرب)" وقد ذكر أبو صالح بعض كنائس فى هذه الجهة بقيت بعد الفتح بمدة طويلة ولكنه يقول إن عمرو بن العاص هدم عددا كبيرا من الكنائس هناك (صفحة ١٣٣) .

(١) "Ancient Coptic Churches" الجزء الأوّل صفحة ١٧٨

(٢) صفحة ٤١٣

(٣) من العجيب أن يذكر المقريزى الخبر نفسه بغير خلاف كبير ولكنه يقول إن الحصن قد هدمه بختنصر ثم بناه الحاكم الرومانى (أرجاليس بن مقراطيس) على أساسه الأوّل (الخطط الجزء الأوّل صفحة ٢٨٧) والظاهر أن الاسم المقصود (اركلاوس بن مرقاتس) ولعله كان والى تراجان أو لعله كان المهندس الذى تولى البناء .

(٤) (Geog. lib. XVII C. 1 § 35)

(٥) ديودور الصقلى (تاريخ) الكتاب الأوّل الفصل ٥٦ ، ٣

وأنزلهم فى قصر، فأطلقوا على القصر اسم المدينـة التى جاءوا منها . ويقول المؤرخ (يوسفوس)(١) إن الحصن لم يبن الا فى أيام غزوة الفرس فى حكم الملك قمبيز . وقال (ابن بطريق)(٢) : إن (آخوس) وهو (أرتخشيارش أو خوس) هو الذى بنى الحصن. واذن نستطيع أن نقول إنه قد كان على مقربة من موضع الحصن القائم فى الوقت الحاضر حصن قديم كانوا يطلقون عليـه اسم (بابليون) مدّة قرون طويلة قبل أيام تراجان. ولكنا بينا فى موضع آخر(٣) أن ذلك الحصن القديم كان على نهد صخرى كما قال سترابو، وكان ذلك الى الجنوب من الموضع الذى به الحصن اليوم. (ولا يزال ذلك النهد الصخرى الى اليوم ماثلا يرى) . ولعل ذلك النهد الصخرى وما جاوره كان داخلا فى مدينة مصر فى وقت غزوة العـرب ، وكانت مصر اذ ذاك تتصل شمالا بموضع الحصن الرومانى، ولعلها كانت تتصل بها بعد ذلك . وكان حول الحصن خندق أعاد المقوقس (قيرس) حفره واتخذ عليه قنطرة متحركة(٤) . وانا نظن أنه كان لا يزال بمدينة مصر فى ذلك الوقت كثير من مبانى المصريين القدماء، فإن الباحثين اليوم يعثرون فى كثير من الأحياء على حجارة كبيرة وعليها نقوش بالخط الهيروغليفى .

وقد سبب اسم (بابليون) ارتباكا كبيرا لكتّاب العرب، وبقى ذلك الاسم الى اليوم ولكنه لا يطلق على الحصن نفسه، فاسمه الآن «قصر الشمع» بل يطلق على دير صغير على مسافة قليلة من الحصن نحو الجنوب وهو (دير بابليون) . وكان اسم

(١) Ant. Jud. ii. I5.

(٢) أنظر كتاب أبى صالح صفحة ١٧٧ هامش ٣ وقد أخذنا منـه كلمات (ابن بطريق) وقد رأى (Vansleb) فى سنة ١٦٧٢ بقايا هيكل عظيم من بيوت النار الفارسية قيل إن الذى بناه هو (ارتخشيارش أوخوس) "Nouvelle Relation d'un Voyage fait en Eg. P. 240" وكانت الأطلال بغير شك فى داخل قصر الشمع .

(٣) "Ancient Coptic Churches" (الجزء الأول صفحة ١٧٢ — ١٧٥).

(٤) يذكر (ساويرس) بين أعمال قيرس أنه حفر خنادق ويقول أبو المحاسن "وكانت الروم قد خندقوا خندقا حول الحصن وجعلوا له أبوابا (وتلك الأبواب هى القناطر التى تؤدّى الى الأبواب) وقال أبو صالح (صفحة ٧٣) وحفر أهل الفسطاط خندقا لصدّ العرب .

الحصن باللغــة القبطية فى وقت الفتح (بابلون ـــ آن ـــ خيمى) ومعناه (بابليون مصر) [1] فكان من السهل تحريفه فى اللغة العربية لأن أول جزء منه « باب » ويمكن أن يفهم أن الجزء الثـانى منه مضاف الى الأول وقد سبقت الاشارة الى هــذا [2] .
وليس من السهل أن نعرف أصل تسميته بقصر الشمع فىاللغة العربية، فقد يكون لفظ «الشمع» تحريف للكلمة القبطية (خيمى)، ولكن قد نصت الأخبار على أنه قد كان فى حصن (بابليون) القديم هيكل للنار، وأنه قد بنى هيكل آخر مثله فى صرح من الصروح بالحصن الرومانى وذلك فى مدّة تملك الفرس للبلاد فى القرن السابع . ونجد فى كتاب ياقوت ذكر (قبة الدخان) [3]، ولعل منشأ ذلك أن الصروح العاليــة كانت تتخذ فى وقت الحروب مراقب تبعث منها الاشارات، فلعله قد جعل على أحد الصرحين أو عليهما معا منائر توقد فيها النيران للاشارة، فنشأ من ذلك اسم قصر الشــمع [4] . ومهما يكن من أمر العرب وتحريفهم لاسم الحصن فقــد ظل كتاب أوربا فى القرون الوسطى يطلقون على ذلك الموضع اسم (بابليون) وليس اسم مصر، وحفظوا تلك التسمية الى ما بعــد بناء القاهرة، فصاروا يطلقون على مدينة مصر اسم (بابليون) ويسمون حاكمها (سلطان بابليون) [5] .

(١) ⲃⲁⲃⲩⲗⲱⲛ أو ⲃⲁⲃⲩⲗⲱⲛ ⲡⲭⲏⲙⲓ أو ⲛⲭⲏⲙⲓ: أنظر كتاب شمپوليون "L'Egypte Sous Les Pharaons" الجزء الثانى صفحة ٣٤ ولا يوجد دليل يعزز ما ذهب اليه من أن لفظ ⲃⲁⲃⲏⲗ كان مســتعملا فى مصر فلا يرد ذلك فى كتب القبط ولا كتب العرب ولكن اسم ⲭⲏⲙⲓ هو ⲕⲉϣⲣⲱⲙⲓ وقد جاءا مترادفين فى نســخة مخطوطــة نماها "Zoega" فى كتابه "Cat. Codd. Copt." صفحة ٨٨

(٢) أنظر ما سبق فى هامش (٢٠٤) .

(٣) ولكن يظهر أن ياقوت أخطأ فهم الاسم فانه يذكر حصنا اسمه قصر أليون أو قصر الشام أو قصر الشمع (الجزء الرابع صفحة ٥٥١) .

(٤) نقل المقريزى عن الواقدى أنه قال إنهــم كانوا يوقدون مشعلا على الحصن فى أول يوم من كل شهر اذا دخلت الشمس فى برج جديد وأن الحصن بناه أحد الفراعنة واسمه الريان وهذا غير مستغرب من الواقدى فهو صاحب القصص الخيالية .

(٥) انظر مثلا كتاب "Marino Sanuto" وسواه من المؤلفين الذين جمعت كتبهم معا فى الجزء التاسع والعشرين مما نشرته جمعية "Pal. Pil. Text Soc."

وبعـد فلنا كلمة أخرى فانه لم يرد لنا إلا القليـل من أخبار ما كان فى داخل الحصن من البناء فى وقت حصار عمرو له ، ولكنا نعـرف أنه قد كان به مقياس للنيـل بقيت آثاره الى أيام المقريزى (١) . وكذلك نعرف أن بعض ما بقى به الى اليوم من الكنائس كان عند ذلك قائما تصلى فيه جنود الروم، نضرب لذلك مثل الكنيسة الكبرى كنيسة (أبو سرجة)، ولعل منها كذلك كنيسة (المعلقة) نراها اليوم بعـد ان مضى عليها من الدهر ثلاثة عشر قرنا (٢) .

(١) وقال عن دير البنات فى قصر الشمع "وكان هناك مقياس النيل قبل الاسـلام ولا تزال توجد آثار منه الى يومنا هذا" (نقله أبو صالح عن الخطط فى ذيل الكتاب صفحة ٣٢٥) .

(٢) الظاهر أنه لا محل للشك فيما يخص أباسرجة . على أنه عندما كتبنا كتاب "Coptic Churches" لم نجرأ على أن نذهب الى أن شيئا من هذه الأبنية قديم مثل هذا القدم وقد ذكر (أبوسرجه) حوالى سنة ٦٩٠ فى كتاب أميلنو "Vie du Pat. Isaac" صفحة ٤٦ ونعـلم كذلك من القطعـة التى وجدت عن حياة بنيامين أنه كان عند الفتح أسقف لحصن بابليون وأسقف لحلوان وهذا دليل قوى على كثرة عدد الكنائس فى هـذه الجهة (واذا أردت الاطلاع على ما يتعلق بالحصن فانظر كتاب "أميلنو" "Geog. Copte" صفحة ٧٥ وما بعـدها ، وكتاب (كاترمير) "Mem. Geog. et Hist." الجزء الأول صفحة ٤٥ وما بعـدها ، صفحة ٧١ وما بعـدها ، وكتاب "Hamaker" « فتوح مصر للواقـدى » هامش صفحة ٩٠ وما بعدها وصفحة ٤١ ، وهامش صفحة ١١٠ ، متن صفحة ٦٠ ، وقد ذكر فيهـا أن المعلقة قد افتـداها القبط من عمرو وقد كتبت لوحة ذكر عليها ذلك . على أن الكنيسـة وان وجدت يشك الانسان فى أنها كانت على ما هى عليـه الآن فوق الباب الرومانى فانـ الأسوار الخارجية ليست رومانية فى شىء وجزء من الكنيسـة قائم على أسوار بنائها يجعـل استعمال الباب غير ممكن وعلى ذلك فهى مبنية بعد الفتح العربى وقد أخطأ الواقدى إذ قال إن (دير بولص) هو قصر الشمع وبه المعلقة ودير بولص الذى ذكره هو ولا بدّ الدير الصغير الواقع خارج الحصن واسمه (دير بولص) وهو قائم على غور بين الأطلال التى فى جنوب الحصن . وتجـد صورة حسـنة للبـاب الجنوبى كما كان قديمـا فى كتاب (ر . هاى) "Illustrations of Cairo" (لندن ١٨٤٠) ولكنا لا نعرف رسمـا للبناء كما كان فى الأصـل إلا ما رسمه (بوكوك) وهو فى منتهى عدم الدقة . وان الرسم الذى تحضره الآن لجنة حفظ الآثار العربية سيخلد ذكرا قيما للبـاب الرومانى على الأقل . وتوجد بالحصن بيعة لليهود كانت فى الأصل كنيسة مسيحية ترجع الى ما قبل الفتح وهى ذات دلالة عظمى . وقد هدمها اليهود حديثا ليقيموا محلها مكانا آخر لعباداتهم وقد هدم اليهود كذلك جانبا عظيما من الصور .

الفصل الثامن عشر

حصار حصن بابليون وفتحه

حال القبط — قيرس المقوقس يحصر فى الحصن — ضعف قيرس أو خيانته — عبوره الى الروضة ومفاوضته لعمرو — رأى الروم فى العرب — عبادة بن الصامت — رسول عمرو يذهب الى الروضة للفاوضة — شروط العرب ورفض الروم لها — استئناف القتال واتفاق الفريقين على الصلح وبعث قيرس بشروطه الى الامبراطور — استدعاء قيرس وعزله ونفيه — رفض هرقل للصلح واعادة الحصار — نقص النيل — القتال فى مصر السفلى — موت هرقل — تسوّر الزبير الى الحصن — تسليم المسلحة الرومانية على عهد — فتك الروم بقبط مصر فتكا فظيعا

عاد عمرو منذ أوّل شهر سبتمبر إلى حصن بابليون وجهز نفسه لكى يضيق عليه الحصار، وكان ذلك الحصن منيعا على أعدائه ولا بدأن تطول بهم مدّة حصاره، إذ كانوا لا علم لهم بحيل الحصار، وليس معهم من عدّته شىء، فى حين أنه كان حصنا تحيط به أسوار عظيمة وصروح عالية يحيط بها من ورائها نهر النيل، إذ كان الخندق الذى حولها عند ذلك مليئا بالماء. وكان العرب قد غنموا بعض آلة الحرب فى غزاة الفيوم ومن حصن تراجان فى منوف، ولكنهم كانوا لا خبرة لهم بأمرها، ولا علم عندهم بطرق إصلاحها إذا هى اعتراها الفساد، ولهذا لم يضربوا بها مسلحة الحصن إلا ضربا يسيرا[1] مع أنه قد كان دونهم نهد من الأرض على نحو مائتى ياردة (ثلثمائة ذراع) إلى جنوب الحصن، وهو موضع إذا وضعوا عليه آلة الحصار كان فيه رجحان لهم وقوة.

وقد قلنا فيما سبق إن الحصن كان على جانب النهر يتجه إليه بأطول جوانبه، تحف به المياه فى وقت الفيض، وكان الباب الحديدى تجاه الخندق والمرسى فى الجهة الجنوبية من الحصن، وكان فى تجاهه جزيرة الروضة يتصل طرفها الجنوبى بالحصن.

(١) ذكر واحد أو اثنان من مؤرّخى العرب أن عمرا وضع مجانيق حول الحصن ولكن لم يرد شىء يدل على أنها كانت ذات فائدة للحاصرين.

يجسر من السفن، ولا سيما فى أيام السلام. ولسنا ندرى اذا كان ذلك الجسر قد ترك فى إبان الحرب كما كان عليه من قبل، ولكنا على يقين من أن القناطر فوق الخندق بقيت مشدودة الى جانب الباب الحديدى فى مأمن من الخطر، وأن السفن كانت تمضى بين الحصن والجزيرة بغير عائق . فإن عمرا لم يستطع بعد أن يملك زمام النهر مع كل ما كان من انتصاره، لأن أتيّه الهدار لا يقوى عليه من هم أخبر من العرب بتسيير السفن . ولو أتى عمرو الى الحصن من جانب النهر لاستاقت مياهه السفن التى أتى فيها أو لأغرقها من فى الحصن من رماة المنجنيق .

ولا خلاف بين مؤرّخى العرب أجمعين فى أن المقوقس (وهو البطريق قيرس) كان بالحصن[1] عند ابتداء الحصار، وكان تيودور كذلك بالحصن قبل وقعة عين شمس. ولا ندرى اذا كان قد حضر الوقعة بنفسه أم لم يحضرها، ولعله كان هناك ثم لحق بالهاربين بعد الهزيمة ولاذ بالاسكندرية . وعلى ذلك كان (قيرس) القائد الأكبر فى الحصن وهو خليفة هرقل على مصر، ولكن القائد الذى كان يدبر أمر الجنود هو من يسميه العرب (الأعيرج)[2] ولعل ذلك تحريف منهم لاسم (جورج) . ولو كان

(١) ابن عبد الحكم وابن بطريق وياقوت والمقريزى وأبو المحاسن كلهم متفقون على أن المقوقس كان فى الحصن ولكنهم يختلفون طبعا فى تعيين شخصه .

(٢) أنظر الذيل الثالث عن المقوقس والخلط كثير فيما يخص القائد فالطبرى مثلا يقول إن المقوقس عظيم القبط جعل (ابن مريام) قائدا للحصن (والطبرى يجعل تسليم الاسكندرية يقع قبل حصار مصر أو بابليون) وهذا أمر عجيب فان المقوقس كما نعلم هو قيرس عدوّ القبط الأعظم ومضطهدهم وابن مريام هو كما أظهرنا البطريق القبطى الذى كان مختبئا فى الصعيد فكل ما يمكن أن يفهم من رواية الطبرى أن الحاكم الحقيق كان بطريقا وقد كان هذا البطريق هو قيرس بغير شك وهذه الحقيقة تنقض ما قاله (سعيد بن بطريق) إن المقوقس منع أموال مصر منذ حاصر كسرى قسطنطينية . فان قيرس لم يأت الى مصر الا بعد هزيمة الفرس وموت كسرى بثلاث سنوات وإنا لم نعبأ بأن نلاحظ هذا الخطأ الذى وقع فيه (ابن بطريق) إلا لأن المؤرخين الحديثين أخذوا به وظنوه صحيحا . فان (جبون) فى الفصل الحادى والخمسين يجعل المقوقس "أحد أعيان الأغنياء المصريين" وانه كان يتطلع الى الاستقلال فى مدة حروب فارس . ثم يقول "ان سوء تصرفه فى أمانته عرضه لمقت هرقل" . وكذلك يجعل الأستاذ (Bury) المقوقس "قبطيا كان يحكم مصر للملك الفارسى" (Later Rom. Emp. صفحة ٢١٤ الجزء الثانى) . ويقول انه بعد ذلك صالح عمرا (أنظر كذلك ما سبق فى صفحة ١٨٤ هامش ٢) . وقد بينا فيه ما قاله أحد المؤرخين الحديثين عن "البطريق قيرس بالاتفاق مع المقوقس" فالحقيقة ان كشف الغطاء عن حقيقة المقوقس يؤثر أعظم الأثر فى تاريخ هذا العصر .

الأمر كذلك لكان هـذا الرجل خلاف الحاكم (جورج) الذى أمره عمرو أن يقيم له جسرا على ترعة قليوب . وكان فى الحصن قائد آخر بقى فيه طول مدّة الحصار وهو (أودوقيانوس) أخو (دومنتيانوس)[1] . ولعل كل الجنود التى كانت تحت إمرة جورج تبلغ الخمسة آلاف أو الستة آلاف لا يمكن أن تزيد على ذلك كثيرا، وكان بالحصن كثير من الأزواد والذخائر من كل نوع ، وكان قد اجتمع به عدد عظيم من غير الجند من أهل مدينة مصر والأديرة المجاورة، ولكن أغلب الظن أن هؤلاء أخرجوا عن طريق النهر ليوسعوا على الجنود . ويجدر بنا هنا أن نذكر أن كل الكنائس التى كانت فى داخل الحصن كانت تؤمها قسوس على المذهب (الخلقيدونى) أو الملكانى، ولم يبح لأحد هناك أن يتعبد على غير ذلك المذهب، فان قيرس كان لا يزال على عهده العدوّ الأكبر لمذهب القبط، وبقى على ذلك إلى آخر أمره . وإن فى وجوده بالحصن لأقوى دليل إذا احتاج الأمر إلى دليل على أنه لم يبق بالحصن من القبط إلى من أزالهم الاضطهاد عن عقيدتهم . بل إن الروم أساءوا الظن ببعض هؤلاء فوضعوهم فى السجن وأنزلوا بهم فيه نكالا فظيعا كما سترى فيما بعد .

ومن ذلك نعرف أن مؤرّخى العرب ومن قال قولهم إنما يمسخون الحقيقة ويقلبونها قلبا إذ يقولون إن جند الحصن أو كل من كان به كانوا من القبط . فان القبط لم يكونوا فى شىء من القتال ولا الجيوش، وكان الاضطهاد فى مدّة السنوات العشر قد شطر مذهبهم وفرّقهم، فكان منهم من ذهبوا أفرادا وجماعات فهربوا الى الجبال والكهوف أو أووا الى الصحراء أو لاذوا بالأديرة الحصينة فى الصعيد . وأما أقباط مصر السفلى وبابليون والاسكندرية فقد اضطروا الى الدخول فى مذهب الدولة ولم يغن عنهم شيئا ما كان فى قلوبهم من كره لما دخلوا فيه . وقد كتب مؤرّخو العرب بعد الفتح بقرون فكانوا يذكرون جيوش المصريين وقوّاد المصريين لا يميزون بين القبط والروم، فكثرت من ذلك زلاتهم وعظم خلطهم. فعلينا أن نبين

---

(١) حنا النقيوسى صفحة ٥٧٠

هنا بيانا لا شك فيه أنه لم يكن فى ذلك الوقت شيء اسمه القبط فى ميدان النضال، ولم تكن منهم طائفة لها يد فيه، بل كان القبط إذ ذاك بمنجاة عنه قد أذلهم (قيرس) وأرغم أنوفهم . فليس من الحق فى شيء أن يقول قائل إن القبط كانوا يستطيعون أن يجتمعوا على أمر أو ينزلوا الى القتال أو يصالحوا العرب .

وكان حريا بقيرس عند ذلك أن يدرك كيف خذل مصر وأضعفها عن لقاء أعدائها، مهما كان فى قلبه من عوامل الضغن على القبط . فقد أدّى عسفه الى شيء يظنه من يراه توحيدا لمذاهب الدين، وما هو كذلك . فانه بعسفه قد قطع أسباب المودّة بين الحكام والرعية قطعا، فما كان له أن يتوقع من القبط خيرا بل كان خير ما يقع منهم له أن يعتزلوا جاهمين فينظروا الى نضال بين طائفتين كلاهما غريب عنهم كريه فى أعينهم . لقد كان أمر الروم يضعف وقوة جيوشهم تخور ، وأملهم فى النصر وتخليص مصر يخبو شيئا فشيئا . أكان هذا ما قصده (قيرس) وسعى اليه؟

كان المقوقس آمنا الى حين فى قصره المنيع تحيط به مياه النيل. وكانت مجانيق الروم أقوى أثرا مما كان يرميه المسلمون الى الحصن من حجارة وسهام . ولكن ما كانت تلك الحال لتبقى فان الماء فى الخندق كان لا بد له أن يهبط بعد حين، وقد أدّى صبر العرب وشدّة بأسهم فى القتال الى خور فى عزيمة من بالحصن واختلاف فى رأيهم . فما مضى شهر من الحصار حتى جمع (قيرس) من وثق بهم من رؤوس الحرس ودعا معهم أسقف بابليون الملكانى، واستشارهم سرا فى الأمر وبسط لهم رأيه . وكان ذلك فى أوائل شهر أكتوبر سنة ٦٤٠ ؛ وقال لهم إن الدبرة فى الحرب كانت عليهم فقضى أعداؤهم على أكبر جيوشهم، ثم أتوا لحصارهم بما لا قبل لهم به، من قوم أكثر منهم عددا وأشدّ فى الحرب بأسا . وقال إنه لا يتوقع أن يأتى اليهم مدد يرفع عنهم الحصر قبل مضى أشهر، وإذا كان الحصن يستطيع المقاومة والصبر وهو أمر لاشك فيه، فان عقبى الحرب كانت كذلك لا شك فيها، وما كانت تلك العقبى إلا وبالا عليهم . ومنذ كان الأمر كذلك كان خيرا لهم أن يفدوا أنفسهم بالمال فيعطوا

أعداءهم مقدارا منه ليرحلوا عنهم، فاذا هم استطاعوا ذلك وأمكنهم أن يبعدوا العرب عن البلاد بمال يبذلونه لهم كان فى ذلك كل الخير، إذ يخلصون مصر فتعود الى دولة الروم. وجعل قيرس يفتلهم فى الذروة والغارب بمثل هذه الحجج يسوقها فى بيانه الخالب الذى عرف به، حتى تبعه من اجتمع معه من القوم، فاتفقوا على أن يمضوا فى الأمر إذا استطاعوا كما شاء قيرس منهم. ولكن كان من الحزم ألا يزعجوا أهل الحصن من الجنود وممن كان رأيهم المضى فى الحرب الى أن يفنوا، فاستقر رأى المجتمعين على أن يذهب قيرس وأصحابه تحت ستار الليل الى جزيرة الروضة بغير أن يحس بهم أحد، ويبعثوا الى قائد العرب بما أرادوا فيفاوضوه ولم يطلع على الأمر مطلع (١).

تم الأمر بعد ذلك على أبلغ الكتمان، ففتح الباب الحديدى المفضى الى النيل واستقل الخارجون السفن من هناك، فعبروا الى الجزيرة ونزلوا فى الموضع الذى أنشئت فيه فيما بعد دار الصناعة. ولعل (جورج) قائد حرس الحصن كان معهم فى تدبيرهم هذا، ولكنه قد بقى فى الحصن حتى اذا ما نذر أحد بخروج قيرس وفشا خبر خيانته فى الناس كان هو هناك ليخمد الخبر ويقضى على ما يشاع (٢). وقد أمر قيرس

(١) لا حاجة بنا الى أن نطيل فى بيان الأسباب التى دعتنا الى عدم الأخذ برواية (ابن بطريق) الباطلة وهى أن المقوقس كان يميل الى القبط فخدع الحراس الروم وأخرجهم خفية من الحصن لكى يسلمهم الى عمرو وفى ذلك مصلحة القبط وأنه عمل لا آخر له اذا نحن أردنا أن ننقد الروايات المختلفة التى جاءت فى بتن الكتاب عن هذا الحادث ولكنا نتبين أمرين صحيحين فى كل هذه الروايات : (١) أن الذى بدأ المفاوضة هو بطريق أو أسقف. (٢) أن المقوقس خرج الى جزيرة الروضة فى وقت فيضان النيل. وقد اختلف الرواة فى أوقات تدخل الأسقف وكذلك قال بعضهم ان الخروج الى الروضة كان بعد شهر من أول الحصار وقال البعض إنه كان بعد فتح الحصن ولكن الذين يذهبون الى هذا الرأى الأخير أنفسهم مثل ياقوت والسيوطى يذكرون أن ذلك كان فى وقت الفيضان وهذا خطأ إذ أنه ثبت بلا نزاع أن أخذ الحصن كان فى أوائل أبريل وهو وقت انحطاط النهر ولكن حدوث المفاوضة فى وقت الفيضان قد اتفق فيه الرواة وهذا الاتفاق غير مقصود فهو يدعو الى تصديق الخبر ويعزز صدق من ذكر من الرواة أن المفاوضة كانت بعد شهر من أول الحصار وقد بدأ الحصار حوالى أواخر أغسطس فبعد ذلك بشهر يكون فى أواخر سبتمبر وعند ذلك يكون النيل حقيقة فى أعلى فيضانه وعلى ذلك يكون تاريخ هذا الحادث قد ثبت بدليل لا بأس بقوته.

(٢) جاء فى المقريزى أن الآراء مختلفة فى وجود (جورج) مع المقوقس ويقول السيوطى إنه بقى فى الحصن أولا ثم لحق بالمقوقس.

أن ترفع قناطر الحصن حتى يأمن خروج النـاس منه اذا هم علموا بخروجه وذعروا من أجله . ولمـا بلغ جزيرة الروضة[١] أرسل الى عمرو جماعة كان منهم أسقف (بابليون). فلقيهم عمرو وأكرمهم فأدّوا رسالتهم فقالوا[٢] :

„ إنكم قوم قد ولجتم فى بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا . وإنما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدّة والسلاح، وقد أحاط بكم هـذا النيل وإنمـا أنتم أسارى فى أيدينا، فابعثوا الينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه . ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفا لطلبتكم[٣] “. فلم يبعث عمرو جواب ما أتوا به، وحبس الرسل عنده يومين حتى يروا حال المسلمين إذ أبيح لهم أن يسيروا فى العسكر ويروا ما فيه، ثم بعث عمرو بردّه مع الرسل وقال : „ ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال إما أن دخلتم فى الإسـلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا وإن أبيتم فأعطيتم

(١) يجب أن نذكر أن المجرى الذى فى الجانب الشرقى للجزيرة وهو الذى بين الجزيرة والحصن كان عند ذلك فى اتساع المجرى الغربى وهـذا واضح من كتاب ”السفرنامه“ وقد جاء فيه صراحة أن هذا كان الحال بعد ٤٠٠ سنة من الفتح (سنة ١٠٤٧) ولكنه يذكر أن التيار فى المجرى الشرقى ضعيف وهـذا يدل على أنه قد بدأ الطين يسدّه . أما اليوم فالمجرى الشرقى ضيق جدّا والنيل يجرى كله تقريبـا فى المجرى الغربى؛ ورأس الجزيرة اليوم من جهة الجنوب فى موضعها القديم وقد كانت دائما تحمى من فعل التيار ببناء سور متين من الحجر. من أجل السفرنامه أنظر “Relation du Voy. de Nasiri Khusrau” صفحة ١٥٣).

(٢) قد أخذنا هذا النص عن المقريزى مع أن فى آخره شيئا من الاختلاف عن النص الانجليزى (المعرب)

(٣) هذا الكلام من المقريزى ويتبع وصفه فى أكثر الأحوال وقد ذكر هو والسيوطى وأبو المحاسن روايتين مختلفتين لذلك الاجتماع فالأولى أن عمرا دخل الحصن ليفاوض وأنه قد دبرت مكيدة للايقاع به عنـد خروجه . ولا نشك فى تكذيب هذه الرواية ووصفها بأنها اختلاق ووهم ونقول هنا أن هـذه القصة نفسها قد ذكرها (ابن بطريق) عن غزة فى فلسطين* (انظر كتاب ”فتوح مصر“ Hamaker صفحة ٨٤ من الذيل) . وأما الرواية الثانية فهى التى ذكرناها فى متن آبنا ويجدر بنا أن نذكر هنا أن الرواية الأولى نفسها تذكر أن المفاوضة التى قام بها عمرو فى الحصن لم تسفر عن شىء فالروايتان على ذلك متفقتان فى شىء واحد وهو أن أول مفاوضة فى الصلح سعى اليها الروم لم تنجح .

الجزية عن يد وأنتم صاغرون وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين " .

ففرح قيرس لعودة الرسل إذ كان قد خاف عند ما حبسهم عمرو، وجعل يقول لأصحابه أترون أن العرب يقتلون الرسل ويستحلون ذلك فى دينهم . ولما جاء الرسل جاءوا وقد وقع فى نفوسهم ما عند العرب من بساطة وإيمان فقالوا " رأينا قوما الموت أحب الى أحدهم من الحياة والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة . إنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم . مايعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد منهم من العبد وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد . يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم[(١)] " . وقد رأى قيرس مع ما اشترطه العرب من الشروط التى لا هوادة فيها ولا مفاوضة أن يبدأ فى ذلك الوقت بعقد الصلح ، اذ كان العرب تحصرهم مياه النيل قبل أن يهبط النهر ويستطيعوا السير والانتقال ، فيجوسوا خلال البلاد . فأرسل إلى عمرو أن يبعث إليه جماعة من ذوى الرأى ليعاملهم ويتداعى معهم إلى ماعساه يكون فيه صلح ، فبعث عمرو عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت . وكان عبادة أسود شديدا ، وأمره أن يكون متكلم القوم ، ولا يجيب الروم الى شىء دعوه إليه إلا إحدى هذه الخصال الثلاث .

فركب العرب السفن إلى الروضة ، فلما دخل عبادة على المقوقس هابه وقال : " نحوا عنى ذلك الأسود وقدّموا غيره يكلمنى[(٢)] " فقال العرب جميعا " إن هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما وهو سيدنا وخيرنا والمقدّم علينا ، وإنما نرجع جميعا إلى قوله ورأيه ،

(١) أخذنا هذا النص عن المقريزى لأن المؤلف قال انه سيتبع وصفه وقد جاء فى الأصل الانجليزى " انهم يأكلون على (مطاياهم) " فكأنه فهم (ركبهم) " بضم الكاف " بمعنى ما يركب وقد يفهم من اللفظ أنهم بسطاء يأكلون على (ركبهم) " بفتح الكاف " وهم جلوس على الأرض (المعرب) .

(٢) جاء فى الأصل الانجليزى " نحوا عنى هذا الأسود فانى لا أقدر أن أكلمه " وقد آثرنا أن نجىء برواية المقريزى الذى نقل عنه المؤلف (المعرب) .

وقد أمره الأمير دوننا بما أمره، وأمرنا أن لا نخالف رأيه وقوله " ثم قالوا فكان قولهم عجيبا عند المقوقس إن الأسود والأبيض سواء عندهم لا يفضل أحد أحدا إلا بفضله وعقله وليس بلونه . فقال المقوقس الرقيق لعبادة أن يتكلم برفق حتى لا يزعجه فقال له عبادة " إن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود كلهم أشد سوادا مني[1] ... وإني ما أهاب مائة رجل من عدوي ، لو استقبلوني جميعا، وكذلك أصحابي . وذلك إنما رغبتنا وهمتنا في الجهاد في الله واتباع رضوانه وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في دنيا ولا طلب للاستكثار منها ... ... لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه لليله ونهاره وشملة يلتحفها ... ... لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاؤها ليس برخاء . إنما النعيم والرخاء في الآخرة[2] " . فوقع هذا القول في نفس المقوقس وقال لأصحابه "هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل... إن هذا وأصحابه قد أخرجهم الله لخراب الأرض" ثم أقبل على عبادة فقال" أيها الرجل الصالح . قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك، ولعمري ما بلغتم ما بلغتم وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا و رغبتهم فيها . وقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده . قوم معروفون بالنجدة والشدة . ما يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل ، وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم[3] ... ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين، ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار فتقبضونها وتنصرفون الى بلادكم ..."

فقال عبادة : " يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك. أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وانا لا نقوى عليهم فلعمري ما كان هذا بالذى تخوفنا به ... وإن كان ما قلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم وأشد لحرصنا عليهم،

(١) جاء في الأصل الانجليزي "مثلي في السواد" وقد آثرنا نقل ما جاء في المقريزي (المعرب).

(٢) عن المقريزي مختصرة بحسب ما يوافق الأصل الانجليزي (المعرب) .

(٣) في هذه الكلمة بعض زيادات عن الأصل الانجليزي لم نستطع حذفها لاتصالها بسائر القول ولا شك في أن المؤلف نقل عن المقريزي نقلا مبتورا (المعرب) .

لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته، وما شىء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك، وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، ولأنها أحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا. وإن الله عز وجل قال لنا فى كتابه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين. وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده إلى بلده ولا الى أرضه ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا هم فيما خلفه وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده، وإنما همنا ما أمامنا ... فانظر الذى تريد فبينه لنا فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك اليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيتها شئت ولا تطمع نفسك فى الباطل. بذلك أمرنى الأمير وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل الينا ... الخ"[1]. فأراد (قيرس) أن يستنزله عن شىء أو أن يجعله يقبل شيئا مما عرضه عليه فلم يقدر على شىء، بل وقع قوله على آذان صماء لما يقول. وقال عبادة يرد عليه بعد أن نفد صبره ورفع يديه إلى السماء " لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شىء ما لكم عندنا من خصله غيرها فاختاروا لأنفسكم"[2].

فاجتمع عند ذلك المقوقس بأصحابه فقالوا : " أما الأمر الأول فلا نجيب اليه أبدا فلن نترك دين المسيح الى دين لا نعرفه " وبذلك أبوا شرط الإسلام فلم يبق إلا الجزية عن يد وصغار أو الحرب. قالوا: "فانا إذا أذعنا للسلمين ودفعنا الجزية لم نعد أن نكون عبيدا وللموت خير من هذا" فقال عبادة لهم إنهم إن دفعوا الجزية كانوا آمنين على أنفسهم وأموالهم وذراريهم، مسلطين فى بلادهم على ما فى أيديهم

(١) نقلنا نص خطاب عبادة أيضا عن المقريزى بحسب ما يتفق مع ما أراده المؤلف من المعانى وتركنا ما لم يورده منها (المعرب).

(٢) هذا النص الأخير مأخوذ عن رواية ابن عبد الحكم فى كتاب أبى المحاسن « النجوم الزاهرة » (المعرب).

وما يتوارثونه فيما بينهم، وحفظت لهم كنائسهم لايتعرض لهم أحد فى أمور دينهم . فلما قال عبادة ما قال مالت نفس المقوقس (قيرس) إلى الاذعان، فقد كان وقع فى قلبه أن المسلمين لا بد منتصرون فذهب ذلك بجرأته وقوة نفسه . ولكن المسيحيين لم يكونوا جميعا على ما كان عليه بطريق الاسكندرية الرومى، ويلوح لنا أن (جورج) قائد جنود الحصن أتى عند ذلك فلحق بالمجتمعين، ولقى المقوقس من أصحابه عزما شديدا على القتال ورفض ما كان يراه من الإذعان . وهنا ينسدل ستار على الحوادث كما يحدث فى كثير من الأحيان فى تاريخ هذا العصر . فلم يبق لنا إلا أن نتلمس ما كان ونتحسس أخباره من وراء ذلك الستار[1] .

---

(١) لا نجد مثلا أوضح فى دلالته على خلط كتاب العرب من وصفهم نهاية هذا الاجتماع (ونحن مضطرون للاعتماد عليهم وحدهم لأن كتاب حنا لا يرد فيه شىء عن ذلك) فقد قال المقريزى إن شروط عمرو لم تقبل وإن العرب ألحوا فى الحصار وإن الحصن فتح فى أيام الفيضان ثم حمل المقوقس أصحابه على الموافقة على رأيه من صلح العرب . وكتب الى عمرو أن الروم والقبط قد أبوا الموافقة من قبل ثم عادوا فرضوا بدفع الجزية . ولكن من الواضح أن ترتيب الحوادث هنا ترتيب فاسد فان الحصن قاوم الى شهر إبريل وقد جاء مثل هذا الخبر فى كتاب أبى المحاسن ولكنه يذكر أن المقوقس عرض الصلح باسم القبط ولكن ذلك كان عن غير رضى منهم فأبوا أن يقروه فعاد العرب الى الحصار وفتح الحصن وقتلت فيه مقتلة عظيمة وقال ان ذلك كان فى وقت الفيضان أيضا ثم تم الصلح بعد ذلك . وأما ياقوت فانه أوضح فى قوله فقال عند ذكر الاجتماع الذى كان مع عبادة إن المقوقس صالح عمرا عن القبط والروم وإنه جعل أمر الروم خاصة الى ملك الروم فأرسل اليه عقد الصلح . ثم قال إن أهل العلم من المصريين فى أيامه يقولون إن الأمر لم يتم حتى قابل عبادة المقوقس . ولكن ياقوت نفسه يقول ان فتح الحصن كان عنوة فى وقت الفيضان وإن مقابلة عبادة للقوقس وقعت بعد زمن يسير من أول الحصار . فكل من هذه الروايات تختلف عن الحقيقة المعروفة فى شىء أو أشياء ولكنا نستخلص منها : (١) أن المقابلة كانت فى وقت فيضان النيل (فى أوائل أكتوبر) . (٢) إنها انتهت باختلاف فى الرأى وعاد العرب الى الحرب . (٣) أن الدائرة كانت على الروم فجعلتهم يفكرون فى العودة الى المفاوضة . (٤) أنه قد عقد بعد ذلك صلح وجعل رهن اقرار الامبراطور وأرسل اليه بغير إبطاء لاقراره .

ونعلم أن هرقل أبى ذلك الصلح وقد ذكر مؤرخو العرب ذلك ولكنهم يذكرونه عند ذكر فتح الاسكندرية وهذا خطأ منهم لأسباب : (١) أن هرقل كان قد مات عند ما فتحت بالاسكندرية . (٢) أن صلح الاسكندرية كان عن أمر الملك الحاكم عند ذلك . وقد ذكر البلاذرى فى أثناء تلخيصه المضطرب للروايات المختلفة رواية صحيحة فقال إن الصلح الذى عقده عمرو مع المقوقس لم يقره هرقل وأرسل جيشا الى الاسكندرية وأقفلت أبوابها واستعدت للحصار . وكذلك يرد ذكر الصلح بين عمرو والمقوقس وأنه كان =

ويظهر لنا أن كبار الروم عندما اختلف رأيهم على قبول شروط العرب أو رفضها طلبوا أن يهادنهم العرب شهرا ليروا فيه رأيهم، فأجابهم عمرو جوابا قاطعا إذ قال إنه لن يمهلهم أكثر من أيام ثلاثة . غير أن عمل المقوقس لم يلبث أن ذاع بين الناس، فلما رجع أصحابه الى الحصن عائدين من الروضة اذا بالناس قد ثار ثائرهم على المقوقس، وأبى جند الإمبراطور إلا القتال، وظهر أمر الذين كانوا يأبون الإذعان، واستقر الأمر على هذا سريعا، فما انتهت أيام الهدنة الثلاثة حتى أخذ أهل الحصن يتجهزون للخروج الى المحاصرين يناجزونهم، ولم يبعثوا ردا الى عمرو . وفيما كان عمرو فى اليوم الرابع بعد انتهاء الهدنة يفكر فيما يصنع اذا بالروم قد خرجوا اليه فوق قناطرهم، فأخذوا جنود المسلمين على غرة . غير أن تلك البغتة لم تذهل العرب فأسرعوا الى سلاحهم وقاتلوا الروم قتالا شديدا وقاتل الروم يومئذ مستبسلين . غير أن العرب تواردوا اليهم منذ نذروا بهم فتكاثروا عليهم، فما استطاعوا إلا أن يتراجعوا حتى دخلوا الى الحصن بعد أن قتلت منهم مقتلة عظيمة .

أما المقوقس فانه ما زال رأيه من الاذعان والتسليم للعرب مستقرا فى قلبه . وكان مشئوما مشترك العقل، فرأى فى انهزام الروم فرصة له إذ أن من عصوه ونبذوا رأيه احتكموا الى السيف وحاربوا مستبسلين كما ينبغى لجنود الروم أن يحاربوا، وأخذوا عدوّهم على غرة، ولكن ذلك لم يغنهم شيئا بل أخذتهم سيوف عدوّهم . ورأى المقوقس وهو خليفة الامبراطور على مصر أن النصر على هؤلاء العرب لن يتأتى له، وزادته تلك الهزيمة الجديدة يقينا أنه لن يستطيع طرد العدوّ من البلاد . ثم رأى من كانوا يعصون رأيه وينادون بالقتال قد ضعفت نفوسهم، فلم يلق منهم بعد عصيانا، وأذعنوا له مرغمين جاهمين، على أن يعيد الكرة على عمرو فيبعث إليه

= فى بابليون فى الأخبار المضطربة فى كتاب (ابن بطريق) فذلك الصلح على ذلك يمكن أن نعتبره صحيحا ولكنا لا نعرف الظروف الحقيقية التى أحاطت به عند عقده إذ قد ضاعت أخبارها . وقد جاء ذكر الهجوم بعد هدنة ثلاثة أيام فى الطبرى ولكنه يخطئ مثل سائر مؤرخى العرب بأنه لم يجعل مدة فاصلة بين الهدنة وبين فتح الحصن فى النهاية .

فى أمر الصلح . وإنه لمن العجيب أن شروط عمرو لم تتبدل، ولا يستطيع قائل أن يقول إن العرب كانوا يبدلون شرطهم، لم يفعلوا ذلك فى أوّل الحرب ولا فى آخره . وكانت الخصلة التى اختارها الروم هى الجزية والإذعان . فعقد الصلح على أن يبعث به الى الامبراطور فاذا أقره نفذ، وأخذ قيرس على نفسه أن يبعث به الى هرقل . واتفق الروم والعرب على أن تبقى الجيوش حيث هى الى أن يجىء رد هرقل، ولا سيما الحصن فقد اتفقا على أن يبقى مع الروم الى أن يقرّ هرقل الصلح .

سافر المقوقس عند ذلك مسرعا فى النهر حتى بلغ الاسكندرية، وبادر بأن بعث الى الامبراطور كتبا يبين فيها ما كان منه، ويعتذر عنه بأن الحاجة ألجأته الى ما لجأ اليه من صلح العرب، ويسأله أن يقرّ الصلح حتى يكفى مصر شر الحرب ووبالها . وليس بعجيب أن يكون هرقل قد حار فى أمر تلك الكتب التى جاءته من المقوقس، فانها لا تبين اذا كان الصلح خاصا بحصن بابليون، أو أنه كان صلحا على ترك بلاد مصر جميعها حتى الاسكندرية للعرب، ولا تبين هل يبقى العرب فى البلاد بعد أخذ الجزية، أو يرحلون عنها . فهل كان معنى ذلك الصلح نزع مصر من دولة الروم وإسلامها لأعداء المسيحية؟ لقد كان الامبراطور منذ شهور يلوم قواده ولا سيما (قيرس) خليفته على مصر لأنهم فرطوا فى الأمر، حتى استطاعت فئة قليلة من العرب أن ترفع ألويتها فى مصر وتغلب جيوش الدولة وتحادها . فاذا به وقد بعث اليه بصلح ليس يدرى هل معناه رشوة العدوّ بمال يأخذه على أن يخرج عن تلك البلاد، أم معناه إسلامها له فيبقى ذلك العدوّ سيد الأرض يجبى له خراجها ويتنعم بقمحها وبخيراتها . عجب الامبراطور ولم يدر ما الذى أدّى الى ذلك الاذعان وعزم على أن يدعو (قيرس) المقوقس ليحاسبه على ما كان منه فى مصر .

فبعث اليه رسالة يأمره فيها بأن يأتى اليه على عجل . ولعل ذلك كان فى وسط نوفمبر . ولم تكن الرسالة مما يطمئن اليه القلب . ولعل المقوقس قد أحس بما أجزم وخشى العاقبة منذ جهز فى نفسه ما يقوله لمولاه إذا هو حاسبه . فلم يكن لأحد سواه علم بما أدّى من أمانته وما آختان منها، ولا بما اتبع من أوامر مولاه بنصها

أو بالمقصود منها وما عصاه فيها فى مدّة ولايته، فى تلك السنين العشر — سنى العسف والاضطهاد . ولكن شيئا واحدا لم يخف عن أحد وذلك أنه قد جاء إلى مصر يقصد الى قصد دينى فلم يوفق فيه بل أخفق إخفاقا وبيلا، وجر إخفاقه هذا على حال مصر السياسية نكبة جليلة وخطبا عظيما . ولا بد أن يكون ذلك الرجل قد أحس بأن إسراعه إلى اليأس من أمر الروم وإقباله على مفاوضة العدوّ — لا بل سعيه إلى ذلك سعيا حثيثا — كل ذلك وصمه بمظنة السوء وجلله بشبهة الخيانة . وما كان ليستطيع النجاة من مثل هذا الفكر مهما صوّر لنفسه من حسن قصده، ومهما خادعها بتزويق نيته وتزيينها . لا بد أن يكون قلب ذلك الرجل قد جاش بمثل هذه الأمور عند ما بلغ حضرة الامبراطور فى القسطنطينية . ولقى الامبراطور وما كان أهوله من لقاء، إذ لم يكن له بد من أن يقر بأنه رضى بأن يلقى أموال مصر إلى العرب[1] . على أنه مع ذلك جعل يدافع عن فعله، ولعل ذلك كان خداعا وتصنعا، فقال إن العرب قد يحملون على الخروج بعد من مصر، وإن الجزية التى دفعها إليهم يسهل عليه أن يجبى مقدارها من متاجر الاسكندرية وبضائعها، فيعوّض ذلك ما خسرته خزائن الدولة . وأما فيما سوى ذلك فقد كان المقوقس لا يرى موضعا للأمل، إذ كان العرب قوما لا يشبهون سائر الناس فى شىء . فهم عند حدّ قولهم لا يعبأون بأمر من أمور هذه الحياة الدنيا ولا متاعها، لا يطلبون منها إلا لقمة يسدّون بها رمقهم وشملة يسترون بها أبدانهم . فهم «قوم الموت» يرون ربحا فى أن يقتلوا، لأنهم يرون فى ذلك الشهادة التى ينالون بها الجنة، فى حين أن الروم يحبون متاع الحياة الدنيا ويحرصون عليه . وقال للامبراطور لو رأيت هؤلاء العرب وبلاءهم فى القتال لعرفت أنهم قوم لا يغلبون . فليس لنا من سبيل خير من الصلح مع عمرو قبل أن يفتح حصن بابليون عنوة وتصبح البلاد غنيمة له .

(١) هذه هى الحقيقة التى نقلها (تيوفانز) عن موضعها وأوّلها فأساء تأويلها فكانت أساس قصة الجزية التى دفعها (قيرس) للعرب قبل فتحهم كيما يشترى سلامته من غزوهم وإن خبر إرسال (منويل) ليستمر فى حربهم وهو خبر الحادث الذى جعله (تيوفانز) يقع فى ذلك الوقت إنما هو حادث وقع بعد ذلك بزمن طويل وبعد أن مات هرقل بمدّة طويلة وسيأتى ذكر هذا فى أواخر هذا الكتاب .

بمثل هذه الأقوال أدلى المقوقس بحجته، وقد جاء فى كتاب (نيقفوروس) أن الامبراطور قبل أن يبعث إلى (قيرس) ليسير إليه كان قد وجه اليه (ما رينوس) ليشترك معه فى الرأى، لعلهما يجدان سبيلا على العرب، وجاء فيه أيضا أن (قيرس) عندما بعث إلى الامبراطور يعرض عليه دفع الجزية طلب إليه أن يزوج عمرو بن العاص من (أودوقيا) أو إحدى بناته الأخرى، فإذا هو رضى بذلك تنصر ابن العاص. وتلك لعمرى قصة لا تصدق فما هى إلا عودة ضالة إلى قصة سابقة قيلت منذ سنين ألا وهى قصة تزويج (أودقيا) لملك الخزر. فما كان (قيرس) ليجهل ما كان عليه المسلمون فى إسلامهم من ثبات لا زعزعة به، واعتقاد لا هوادة فيه. وإن قصة يقال فيها إن عمرو بن العاص يتنصر لهى قصة ضل فيها الوهم ضلالا بعيدا. وليس ثمت أثر لمثل هذا الخبر فى كتاب آخر كائنا ما كان. ولكن هرقل ثار ثائره بغير أن يعرض عليه المقوقس أمر ابنته وتزويجها. وما كان فى حاجة إلى مثل هذا ليتقد غضبه، فقد دهاه ما كان من أمر جنده، وعظم غيظه أن ينهزم منهم مائة ألف ليس أمامهم من العرب إلا اثنا عشر ألفا. فاتهم المقوقس — ولا بأس أن نسميه بهذا الاسم حتى فى عاصمة الروم - اتهمه بأنه خان الدولة وتخلى للعرب عنها. ثم حكم عليه بأنه مرتكب مجرم، وما كان دونه إلا الموت جزاء ذنبه. ثم شرع يقرعه و يؤنبه على ما كان منه قائلا إنه لم يكن أكثر غناء من بعض فلاحى مصر، ونعته بالجبن والكفر وأسلمه الى حاكم المدينة فشهره وأوقع به المهانة[(١)] ثم نفاه من بلاده طريدا.

ولابد أن رفض الامبراطور للصلح كان فى هذه الأثناء قد بلغ العرب وهم فى حصار الحصن، قرب نهاية عام ٦٤٠، وانتهى بذلك أمر الهدنة وعاد القتال، وعض الفريقان على النواجذ من الأضراس. وكان النيل عند ذلك يهبط سريعا وهبطت بهبوطه المياه التى فى الخندق، وكلما هبطت خبت معها آمال من فى الحصن إن

(١) جاء فى كتاب (نيقفوروس) لفظ (أسيئت معاملته) والظاهر أن معناه ما ذكرناه وليس معناه التعذيب، كما جاء فى كتاب (لوكيان).

لم تخب شجاعتهم . فلما فرغ الخندق من مائه استعاض الروم عنه بأن رموا فى قاعه حسك الحديد، وجعلوا ذلك الحسك كثيفا عند مدخل أبواب الحصن ولا بد قد كان المسلمون لقاء ذلك يسعون إلى طم الخندق وهدم جوانبه فيه حتى ينفذوا منه . غير أننا لا نعلم إلا قليلا مما كان فى أثناء ذلك الحصار، فلا نجد غير ذكر الترامى بالآلات والضرب بالدبابات وخروج جنود الحصن الى العرب وهجوم العرب على من بالحصن، ولكن من الجلى أن العرب كانوا لا علم لهم بفنون الحصار وآلاته، ولذلك كان أثر حصارهم فى الحصن ضئيلا بطيئا . ولسنا ندرى لعل حصارهم وإن كانوا ضيقوا به على الحصن من جانب البر لم يكن ذا أثر من جانب النهر . ولكن يلوح لنا أن العرب لقوا شيئا من المساعدة فى ذلك الحصار من جماعة لعلهم من أهل الفيوم بعد فتحها، وكانوا أحابيش من الحزبين الأخضر والأزرق[1] فكانت عصبة من الحزب الأخضر يقودها (ميناس)، وأخرى من الأزرق يقودها (كزماس بن صمويل) تعبران النهر ليلا الى الروضة فتنهبان فيها، أو تهبطان على ما قد يكون بالنهر من سفن الروم أثناء عبورها إلى الحصن أو رسوها إلى جانب الباب الحديدى، فكانت هذه الغزوات تؤذى مسلحة الحصن أذى كبيرا وتنقص من هيبة الروم وسلطانهم فى النهر .

ولم يكن حصار المسلمين من جانب البر نفسه على ما ينبغى من الحذر واليقظة، فقد خرج مرة جماعة من حرس الحصن ففجأوا عبادة والزبير[2] فى صلاتهما ، فوثب الرجلان إلى فرسيهما وحملا على الروم . فلما رأى الروم أن العدو لاحق بهم جعلوا يلقون مناطقهم وحليتهم ليشغلوه بذلك عن طلبهم، وعدوهم لا يلتفت إليه حتى دخلوا

(١) حنا النقيوسى صفحة ٥٦٨

(٢) لم يرد فى كتاب مما رأينا ذكر لابن الزبير بل ترد القصة خاصة بعبادة . وقد ذكر المؤلف أنه أخذ القصة عن (أبى المحاسن) ولكنا راجعنا كتابه "النجوم الزاهرة" فلم نجد إلا ذكر "عبادة بن الصامت" وحده (المعرب) .

الحصن، وأصيب عبـادة إصابة خفيفة من حجر رمى به من فوق الحصن[١] . فرجع القـائدان المسلمان ولكنهما لم يلتفتا إلى ما ألقاه الروم بل عادا إلى موضعهما فأتمـا صلاتهما وخرج الروم إلى متاعهم يجمعونه .

وقد روى الواقدى رواية عن قتال فى موضع آخر، قال إن المسلمين كانوا فى يوم جمعة قد اجتمعوا للصلاة، وسار بينهم عمرو بن العاص يحرضهم على القتال، فرآهم ربيئة الروم وحمل إلى قومه فى الحصن خبر اجتماعهم . فلما انتهى عمرو من خطبته نزل عن منصته الساذجة التى كان قائمـا يخطب عليها، وأم المسلمين فى الصلاة . وفيما هم كذلك هبطت عليهم جنود الروم بغتة وهم عزل ليس معهم السـلاح فأوقعوا بهم[٢] .

ولمـا مضى الشتاء قل خروج الروم من الحصن وقتالهم للمسلمين ، فى حين كثر هجوم المسلمين على الحصن وزاد شدّة، واشتدّت وطأة الحراسة والقتال على الروم وخارت قواهم عن الدفاع . على أن حصونهم ما زالت على عهدها لم يصدع الحصار منهـا إلا قليلا . ثم فتك المرض بأهل الحصن[٣] فقل عددهم ولم يأتهم المدد، يتطلع حراسهم وهم فوق صروحهم إلى ما حولهم من الآفاق فلا يجدون أثرا يلوح من رماح الروم ودروعهم طالعا من بين قباب الأديرة البيضاء التى تملأ السهل فى شمال الحصن .

---

(١) جاء هـذا الخبر فى كتاب (أبى المحاسن) وهو أقرب الى التصديق من قول المقريزى إذ قال إن جنود الروم عادوا الى الحصن فرماهم عبادة من فوق السور وعاد بعد ذلك (المؤلف) .

(١ً) فهم المؤلف أن عبارة المقريزى يقصـد بها أن عبادة هو الذى رمى بالحجارة من فوق الحصن مع أن العبارة فى المقريزى هى : " حتى دخلوا الحصن ورمى عبادة من فوق الحصن بالحجارة فرجع " ومن هـذا يتضح أنه لا فرق بين ما جاء فى أبى المحاسن وما جاء فى المقريزى وإنمـا الخطأ ناشئ من قراءة "ورمى عبادة" بصيغة البناء للعلوم مع أن الواضح أن الفعل "رمى" مبنى للجهول (المعرب) .

(٢) (Ed. Hamaker. P. 104. Notes) وقد جاء فى متن ذلك الكتاب صـفحة ٥٥ أسماء كثيرين من المسلمين الذين استشهدوا فى أثناء الحصار .

(٣) جاء ذكر هذا المرض فى كتاب ياقوت ولنا أن نصدّق هذا الخبر مع أنه مقرون بخبر آخر لا يمكن تصديقه وهو أن عدد الذين قتلوا داخل الحصن بسهام المسلمين كان ١٢٠٠٣

وكان النهر عنــد ذلك قد هبط وجفت الأرض، وإذا كان ثم أمل فى قدوم جيش من الروم لإمداد الحصن فقد كان ذلك وقته وتلك فرصته .

ولعــل ذلك هو الوقت الذى بلغ فيه عمرا أن الروم قد أعدّوا جيشا فى مصر السفلى بين فرعى النيل، وجعلوا عليه (تيودور) . فلم يُقم عمرو حتى يقبل عليه العدوّ، بل ترك من جيشــه جماعة تكون ردءا عند الحصن، ثم سار على الفرع الشرقى للنيل وعبر النهر عند أثريب وتوجه نحو سمنود . فبعث (تيودور) باثنين من قوّاده ليدافعا عن المدينة فاتصلا بجنودهما بمن كان فى المدينة من الحرس، غير أن هؤلاء لم يرضوا أن يتبعوا الروم فى قتال العرب . والتقى الجمعان مع هذا على كثب من سمنود ودارت الدائرة على المسلمين وعلى من كان معهم ممن أسلم من النصارى، وقتل من هؤلاء وأولئك خلق كثير، ورأى عمرو أنه لن يستطيع أن يصيب البــلاد الشمالية بشىء كبير إذ كانت تحميها الخنادق والترع دون جرائد الخيل العربية . فعاد أدراجه الى بوصير وجعل حولهــا الحصون ثم رمم حصون (أثريب) و(منوف) وجعل فيها مسالح من المسلمين ثم عاد الى حصار الحصن . ولكن (تيودور) لم يستطع أن يستفيد شيئا من وراء انتصاره فى ذلك القتال ولم يقــدر على أن يبعث من جنــده إمدادا يبلغ الحصن أو يقترب منه (١) .

ولعل عجز (تيودور) وقعوده عن مواصلة الحرب كانا عن خيانة أصحابه وتركهم له . ولسنا ندرى ما كان حال الجند الذين كانوا حرسا فى المدائن، فلا نعلم كم كان

(١) هذه القصة ليست خالية من الشك فقد جاءت فى كتاب حنا النقيوسى فى الفصل الرابع عشر بعد المــائة وهو مضطرب كل الاضطراب فقد جاء فيه أن عمرا سار فى وجهه ذلك "وترك فى حصن بابليون قوّة كبيرة" ثم جاء فيه أن الروم كانوا مالكين لمدينة (نقيوس) . وقد رأى زوتنبرج أن الواجب تغيير النص حتى يكون معناه "عند حصن بابليون" أو "أمام حصن بابليون" بدل أن يكون "فى حصن بابليون" وهذا غير سبيل للخروج من هذه الصعوبة فاذا لم يكن ذلك مقبولا كان لا بدّ لنا من أن نقول إن سير عمرو فى هذا الوجه كان فيما بين سقوط حصن بابليون وسقوط (نقيوس) ولكن المــدّة بين هذين الحادثين مدّة قصيرة لا تكفى لذلك وعلى هذا فانا نرى أن هذا الرأى يكاد يكون غير ممكن فالحقيقة أن ذكر الحوادث فى هــذا الفصل والفصول التى بعــده من كتاب حنا مضطرب كل الاضطراب مقلوب رأسا على عقب و يكاد يكون إرجاع أخبارها الى ترتيب صحيح أمرا مستحيلا .

منهم من القبط وكم كان من الروم . بل إن المؤرخين ينسون أمرا فلا يذكرون عنه شيئا، وذلك أن الروم لا بدّ قد امتزجوا بالمصريين فى مدّة القرون التى أقاموا فيها بمصر، واختلطت دماؤهم وتقاربت أسباب التواصل بينهم، وكان القبط يكرهون الدولة ولهم فى ذلك كل العذر، وكان بعض الروم لم يتغلغل الولاء لدولتهم فى قلوبهم، فكانوا لا يتورعون عن مساعدة العرب اذا ما رأوا فى ذلك نفعا لأنفسهم، يفعلون ذلك حتى ولو لم يدفعهم دافع من اختلاف فى الدين مع قومهم . و إنا موردون هنا خبرين من أخبار أمثال هؤلاء وقعا فى هذا الحين . فالأوّل قصة قائد اسمه (كلاچى) لحق بالمسلمين وغادر قومه، فسعى (تيودور) حتى لقيه وجعل يثنيه عما هو فيه بالحجة الدامغة، حتى حمله على الرجوع وكان قد ترك زوجه وأمه رهينتين فى الاسكندرية، فافتداهما واشترى عفو (تيودور) عنه بمبلغ من المال، ثم تسلل بجنوده تحت الليل من بين عسكر المسلمين ولحق (بتيودور)، فأرسله الى (نقيوس) ممدّا لمن فيها من الجند مع القائد (دومنتيانوس) . وأما الخبر الآخر فقصة الخائن التائب (سبنديس)[1] فانه مثل (كلاچى) تسلل من عسكر المسلمين فى الليل وسار الى دمياط وكان عليها قائد اسمه (حنا)، فأرسله حنا الى نائب الحاكم بالاسكندرية وبعث معه بكتاب، وقد أقرّ (سبنديس) بذنبه والدموع تنحدر من مآقيه، وقال "لقد كان منى ما كان منذ ألحق حنا بى العار بأن ضرب وجهى ولم يرع حرمة سنى، فلحقت بالعرب بعد أن كنت خادم الدولة الأمين"، وفى هذا ما يدل على ما كانت عليه أسباب الوطنية من الوهن وما كان عليه الروم من الضعف فى أمر دينهم .

ومر اليوم بعد اليوم ولا شىء يبشر أهل الحصن ولا كتاب يدخل الى قلوبهم الرجاء . فلم تبلغهم إلا أنباء سوء وشوم . فقد بلغهم نبأ غضب هرقل على المقوقس، ونقضه لأمر الصلح وحكمه عليه بالنفى، ولكن لم يبعث الامبراطور أحدا من جنوده الذين كان بهم معجبا، ولم تغن عن الحصن شيئا أوامره التى بعث بها الى قواده .

(١) هذه الأسماء بلا شك محرّفة ولكنا نوردها هنا كما جاءت فى كتاب حنا النقيوسى .

غير أن الناس ما زالوا يعللون النفس بالآمال إلى أن سمعوا يوما تكبيرا عاليا فى عسكر المسلمين، وذلك فى أوائل شهر مارس سنة ٦٤١ . فلما استطلعوا الأمر عرفوا أن هرقل قد مات . فخارت عند ذلك نفوسهم، ولم يكن ذلك لأنهم صوروا لأنفسهم ما لا بد أن يعقب موته من الاضطراب فى الدولة، بل لأنهم قد ذهب عنهم ملكهم الشيخ وكان باسلا فى الحرب، فكان فى ذهابه عنهم ذهاب لأمرهم وخور فى عزيمتهم، وقد قال أحد مؤرخى العرب "فكسر الله الروم بموته"(١) وحسبنا بقوله هذا دليلا على ما أحدثه موته من الأثر فى جند مصر . وأما العرب فقد زادهم نبأ موته شدة وجرأة وضاعف من همتهم فى فتح الحصن .

ولكن قد بقى الحصن بعد ذلك شهرا لا يسلم، فلما أبطأ الفتح قيل إن الزبير وهب الله نفسه وأقبل مع جماعة يقودهم لفتح الحصن بعد أن أعد لذلك الأمر عدته . وكان الخندق قد طم جزء منه استعدادا للهجوم، ولم يعق العرب عن ذلك دفاع أهل الحصن، وكانوا يفتك بهم المرض ويقعد بهم اليأس . ولكن ساعة الهجوم بقيت سرا : فلما جاء وقتها أقبل الناس سراعا تحت جنح الليل(٢)، ووضع الزبير سلما على السور ولم يفطن إليه أحد(٣)، فما شعروا إلا والبطل العربى على رأس الحصن يكبر وسيفه فى يده .

(١) عن السيوطى وهو يأتى بالتاريخ المخطئ أى سنة ١٩ للهجرة ثم يذكر التاريخ الصحيح رواية عن الليث وهو عام ٢٠ للهجرة (٦٤١ للميلاد) و يورد (مكين) نفس القول و يخطئ الخطأ عينه فى التاريخ وهو مثل السيوطى يقول ان أخبار موت هرقل جاءت فى أثناء الحصار بالاسكندرية بدل (بابليون). وقد مات هرقل فى ١١ فبراير سنة ٦٤١ أى قبل بدء حصار الاسكندرية بشهور و يخطئ المقريزى نفس الخطأ ولكنه يقول "واستأسدت العرب عند ذلك وألحت بالقتال على أهل الاسكندرية" .

(٢) اليعقوبى هو المؤرخ الوحيد الذى يذكر أن الهجوم كان بالليل . أنظر "Ibn Wâdhih qui dicitur al Ja'cûbî Historiae" (طبعة M. T. Houtsma الجزء الثانى صفحة ١٦٨)

(٣) ليس من السهل أن نعرف فى أى موضع وضع سلم العرب فان المقريزى وأبا المحاسن يذكران أنه كان بقرب الموضع الذى كان معروفا فى أيامهما باسم "سوق الحمام" و يقول ياقوت إنه كان بقرب الموضع الذى بنى فيه فيما بعد "بيت أبى صالح الحرانى" بقرب حمامات "أبى نصر السراج" بجوار السوق المتقدم الذكر . و يقول ابن بطريق إنه كان بجوار سوق الحمام ثم يقول إنه كان فى الجانب الجنوبى من =

وتحامل الناس اليه من داخل الحصن، غير أن السهام أمطرتهم من العرب فى خارجه، واستطاع بذلك أصحاب الزبير أن يصلوا اليه فوق السلم و يطأوا أسواره بأقدامهم . والظاهر أن الروم كانوا يتوقعون هجوم العرب من ذلك الجانب، فبنوا حائطا تعترض الممشى فوق السور من جانبي ذلك الموضع، فلما جاء العرب الذين صعدوا إلى الحصن وأناموا من كان هنالك من حرسه وملكوا رأسه، ألفوا طريقهم مسدودة يعترضها ذلك الحائط، فلم يجدوا سبيلا الى السلم ليهبطوا منه إلى قلب الحصن . ورأوا أنفسهم قد بلغوا رأس الأسوار ثم لا سبيل لهم وراء ذلك، وكانت تلك فرصة للدافعين ولو كان فى قلوبهم بقية من القوة لاستطاعوا أن يرموهم بسهامهم، فيردّوا ذلك النفر أو يقضوا عليهم . ولكنهم ما كانوا ليفعلوا شيئا من ذلك وقد بلغت أرواحهم التراقى، فاجتمع كبارهم على عجل فى أوّل الصباح الباكر فسألوا عمرا الصلح، وعرض (جورج) قائد الجند فى الحصن أن يسلم على أن يأمن كل من هناك من الجند على أنفسهم . فقبل عمرو منهم الصلح وخالفه الزبير خلافا شديدا فى ذلك، وقال له إنه كان على وشك أن يفتح الحصن عنوة، وقال "لو صبرت قليلا لنزلت من السور الى داخل الحصن ولكان الأمر على ما نشتهى". ولكن عمرا لم يلتفت إلى ما قاله وكتب عهد الصلح على أن يخرج الجنـد من الحصن فى ثلاثة أيام، فينزلوا بالنهر ويحملوا ما يلزم لهم من القوت

= الحصن وهو تفصيل يتفق مع ما قاله البلاذرى فان هذا المؤرّخ بعد أن وصف مجىء الزبير وهو بالطبع آت من الشمال يقول إنه وضع السلم على "الجانب الآخر" أى الجنوبى ولكن الموضع المسمى "سوق الحمام" كان فى الغالب جزءا من مدينة الفسطاط وقد زالت الآن زوالا تاما والظاهر لنا أن الهجوم كان على مقربة من الركن الجنوبى الغربى من الحصن ولا تزال الأسوار هناك قائمة .

ولا شك فى هذه الحادثة فى نظرنا فالبلاذرى يذكر أنه عند اختطاط الفسطاط بنى الزبير لنفسه بيتا بها فورثه ابنه وقال انه لا يزال فيه السلم الذى صـعد عليه الحصن (وذلك فى القرن التاسع) . ويقول ياقوت إنه يقال إن سـلم الزبير كان محفوظا فى منزل بسـوق وردان حتى احترق المنزل فى سنة ٣٩٠ (حوالى سنة ١٠٠٠ للميلاد) .

ويذكر ياقوت سـلما آخر ويقول إن شرحبيل بن حجيرة المرادى صـعد عليه فى موضع بقرب "شارع الزمارين" ولكن هذه الدلالة قد ضاعت مع مدينة الفسطاط .

لبضعة أيام، وأما الحصن وما فيه من الذخائر وآلات الحرب فيأخذ العرب كل ذلك[١] ويدفع أهل المدينة للسلمين الجزاء .

وكانت حملة العرب الأخيرة على الحصن فى يوم الجمعة السابق لعيد الفصح وذلك فى السادس من أبريل سنة ٦٤١ وكان خروج الروم منه فى يوم الاثنين وهو عيد الفصح[٢] . وفى مدّة تلك الأيام الثلاثة جمع الروم السفن من جزيرة الروضة ووضعوا فيها المؤونة وأخذوا فى التجهز للهبوط فى النيل الى مصر السفلى . ولقد

(١) كان من أصعب الأمور أن تؤلف قصة لفتح بابليون فان خبر صعود الزبير أسوار الحصن جاءت أوّلا من ابن عبد الحكم ولكن مؤرّخى العرب غيروها و بدلوا فيها حتى خرجوا بها إلى حدّ السخف فيقول المقريزى إن الروم قد هربوا عند ما سمعوا صياح المسلمين وفتح الزبير الباب فدخله العرب فخاف المقوقس وعرض الصلح ودفع الجزية . على أن المقوقس لم يكن هناك عند ذلك وليس من المعقول أن يفاوض فى الصلح لو فتح الحصن عنوة . وقد روى أبو المحاسن القصة على هذه الصورة عينها والسيوطى مثلهما فى الخلط فانه يذكر أن المسلمين لما دخلوا الحصن أرسل المقوقس إلى عمرو يعرض عليه الصلح ولكن الرواية التى ذكرناها هنا مأخوذة عن الطبرى و إنها لواضحة وقريبة إلى الذهن فلسنا نتردّد فى قبولها ولو أن ذلك المؤرّخ قد خلط فى كثير من أخبار الفتح . و يجدر بنا أن نذكر أن المؤرّخين متفقون على أن مدّة الحصار كانت سبعة أشهر فى حين أنهم يختلفون فى ذكر التسليم و يخلطون بينه و بين تاريخ الصلح الذى عقده (قيرس) ولم يقره الامبراطور . وعلى ذلك يجعل ذلك التاريخ فى وقت فيضان النيل . وقد ضل (Weil) فى هذا الأمر فى كتابه "Geschichte der Chalifen" فهو يجعل الفتح فى وقت الفيضان و ينقض قول القائلين إن مدة الحصار كانت سبعة أشهر . ولكن تواريخه كلها مخطئة فمثلا يقول إن عمرا وصل إلى بابليون فى يناير . و رواية الطبرى يتمها ما جاء فى كتاب (حنا النقيوسى) فان الفصل المضطرب الرابع عشر بعد المائة يذكر الوقت الحقيق لتسليم حصن بابليون ولكنه لا يذكر وصفا للحصار (المؤلف) .

(١ ً) رجعنا إلى الطبرى فلم نجد به تفصيلا كالسابق وكل ما جاء به أن الزبير دخل الحصن "حتى خرج على عمرو من الباب معهم" أى مع أهل الحصن الذين فتحوا الباب عندئذ وخرجوا إلى عمرو مصالحين . (المعرب)

(٢) جاء ذكر يوم الاثنين وهو عيد الفصح واضحا فى كتاب حنا النقيوسى وهو لا يذكر يوم الجمعة الطيبة ولكن : (١) يوم الجمعة هو العيد الأسبوعى للسلمين ومن القريب الى الذهن أن يعمد فيه الزبير الى عمله تقربا الى الله . (٢) يذكر حنا بوضوح أن جنود الحصن أبيح لهم إخلاء الحصن فى مدّة يوم أو يومين لأنهم استطاعوا فى عيد الفصح أن يرتكبوا فظائعهم التى ذكر أنهم ارتكبوها مع القبط المسجونين ويجدر بنا أن نذكر أن ابن عبد الحكم يذكر خطابا أرسله عمر بن الخطاب الى عمرو يشكو فيه من إبطاء فتح الاسكندرية (ولعل المقصود إبطاء فتح بابليون) وقد جاء فى الخطاب قوله وليكن ذلك (أى الهجوم) عند الزوال[١] يوم الجمعة فانها ساعة تنزل الرحمة ووقت الإجابة .

وقد ذكر السيوطى هذا الخبر (صفحة ٦٢) ونعلم أن هجوم الزبير كان وقت المساء [المؤلف] . =

كان أشد لحزن جيش المسيحيين أن آخر يوم لهم فى الحصن هو يوم الفصح (يوم القيامة)، وكأننا بهم وقد اجتمعوا فى الكنائس قبل أن يخرجوا والحزن سائد عليهم والذل ضارب فيهم لما أصابهم من الهزيمة على يد المسلمين . ويجدر بنا أن نذكر هنا أن كبار الروم لم يتعظوا بما كان ولم ترق قلوبهم لما نزل بهم من ذهاب أمر المسيحيين فى مصر، ولم تقع فى نفوسهم حرمة ليوم الفصح الذى خرجوا فيه، فبقيت فى صدورهم العداوة والشحناء المذهبية لم يذهب منها شيء . وقد ذكرنا من قبل أنهم سجنوا فى أول الحصار كثيرا من القبط الذين كانوا فى الحصن ، وذلك لأنهم أبوا أن يتركوا دينهم أو لأنهم رابهم منهم أمر . فلما جاء يوم الفصح الذى كان فيه الخروج من الحصن جعله الروم يوم وقعة ونقمة من هؤلاء المسجونين التعساء ، فسحبوهم من سجونهم وضربوهم بالسياط وقطع الجند أيديهم ، أمرهم بذلك كبيرهم (اودوقيانوس) . ولا عجب مع هذا أن نجد الأسقف المصرى يسبهم فى ديوانه حانقا ويسميهم "أعداء المسيح الذين دنسوا الدين برجس بدعهم وفتنوا الناس عن إيمانهم فتنة شديدة لم يأت بمثلها عبدة الأوثان ولا الهمج ، وعصوا المسيح وأذلوا أتباعه . فلم يكن فى الناس من أتى بمثل سيئاتهم ولو كانوا من عبدة الأوثان"(١) . ويصف الأسقف المصرى أنين أولئك الأسرى الذين مثل بهم وبكاءهم إذ يساقون مطرودين من الحصن يشيعهم السباب . وأنه ليس بغريب مع ذلك من مثل الأسقف المصرى أن يقول إن فتح الحصن للسلمين لم يكن إلا عقابا من الله على مافعله الروم من الأفاعيل فى القبط، ولو أن مثل هذا القول ليس مما يصح فى الأذهان . على أن ذلك الأمر له معنى إذ يدل على ما كان بين شيعتى المذهبين المسيحيين من عداوة لا تحل عقدتها ، بقيت فى قلوبهم لم تخب ولم تخمد نارها مع ماظهر من ثمار اختلافهم وعواقب تخاذلهم من فوز الاسلام وعاق أمره .

= (٢) ترجم المؤلف لفظ "الزوال" فى خطاب عمر خطأ بلفظ "evening" ومعناه "المساء". والمقصود طبعا من الزوال وقت الظهر أى وقت صلاة الجمعة وهو الذى يعتقد المسلمون أنه وقت "تنزل الرحمة ووقت الاجابة" وعلى ذلك يظهر لنا أن حجة المؤلف فى الهامش السابق قائمة على خطأ (المعرب) .

(١) حنا النقيوسى صفحة ٥٦٧

الفصل التاسع عشر

السير الى الاسكندرية

معاهدة بابليون — صفتها وحدودها — درس العرب لأهل البلاد — من أسلم من النصارى — إصلاح الجسور المقامة على النيل — سير جيش العرب الى الشمال — يقصد العرب الى نقيوس — وقعة الطرانة — جبن (دومنتيانوس) وفراره — فتح العرب لنقيوس — المقتلة هناك — المضى فى السير — وقعات كوم شريك وسنطيس وقريون — هزيمة الروم وارتداد تيودور — وصول المسلمين الى الاسكندرية — رأيهم فى المدينة منذ رأوها وعجزهم عنها — فتوح عمرو فى مصر السفلى — عجزه عن أخذ سخا — سيره الى طوخ ودمسيس ورجوعه الى بابليون — نقض أوهام المؤرخين

انتهى حصار بابليون فى اليوم التاسع من أبريل سنة ٦٤١ بعد أن لبث سبعة أشهر، وهذا أمر قد ورد جليا فى أخبار العرب . على أن جل مؤرخيهم إن لم يكونوا كلهم يخلطون الصلح الأخير الذى سلمت به الروم الحصن بعد أن نفى المقوقس من مصر، بالصلح الذى حدث قبل ذلك فى أوان الفيضان بعد بدء الحصار ببضعة أسابيع، وهو الذى عقده المقوقس ولم يقره الامبراطور . وإنا نستطيع أن نتبين أصل ذلك الخطأ بعد أن انكشف لنا التاريخ الحقيق، كما نستطيع أن نتبين ما نشأ عن ذلك الخطأ من خلط آخر لم يكن أقل منه شأنا . فليس فى التاريخ مواضع وقع عليها خلاف أشد مما وقع فى أمر مصر وهل كان فتحها عنوة أو صلحا . ويقصد هؤلاء الكتاب بلفظ مصر أحيانا كل البلاد وأحيانا حصن بابليون . وقد أوضحنا فيما سلف أن الحصن يمكن الاختلاف فيه فقد وقع فيه حادثان : أحدهما فتح بالقوة فان الزبير علاه وكان ذلك سببا فى تخذيل الروم وتسليمهم . وأما الآخر فان الفتح لم يكن كله عنوة بل إن حملة الزبير إنما أدت الى أن يسلم أهل الحصن ويصالحوا . على أن قصارى الأمر لم يكن غير تسليم عن أمان وصلح، وقد بين الصلح للروم شرط الخروج . وعلى ذلك فلا مناص لنا من أن نفند قول من يقول إن العرب فتكوا

بمن كان فى الحصن، فما ذلك إلا حديث خرافة أساسه قول من قال إن الحصن أخذ عنوة [١].

ولكن الصلح الذى أبرم عند بابليون لم يكن إلا عهدا حربيا، ولم يكن عقدا سياسيا. فقد رضى فيه عمرو بأن يشترى الحصن ويدفع ثمنا له تأمين من كانوا فيه، وخروجهم منه بغير أن يسلموا أو يدفعوا الجزية؛ وإنما دفع الجزية من بقى من أهل المدينة. وإذ كان ذلك العهد لا يمس إلا مدينة مصر والحصن فقد كانت الجزية قليلة ومؤقتة، فقال مؤرخ إنها كانت دينارا لكل من جنود العرب ولباسا [٢]، وكانوا فى أشد الحاجة اليه. وهذا القول يتفق مع ما أورده مؤرخ آخر إذ قال [٣]: إنه قد بقى فى مصر بعد فتح الحصن جماعة كبيرة من جنود القبط. فلما رأى هؤلاء ما كان عليه العرب من الرثاثة قالوا "ما أرث العرب وأهون عليهم أنفسهم ما رأينا مثلنا

(١) جاء فى كتاب ابن بطريق أنه بينما كان الجنود يتقهقرون الى الروضة قتل منهم المسلمين وأسروا وغنموا ويتفق معه المقريزى فى أنه "قتل كثير من الناس وأسرت طائفة منهم" ومن المحتمل أن يكون قد حدث قتل ولكن السيوطى يقول "إن المسلمين فتحوا الحصن وقتلوا من فيه" وهذه رواية مختلفة وهو يذكر فوق ما ذكره أبو المحاسن إذ قال "عند ما أخذ الحصن قتل خلق كثير" ولا يمكن تصديق ما جاء فى المقريزى والسيوطى أن عدد القتلى من الروم الذين أصابتهم سهام المسلمين بلغ ١٢و٣٠٠ ممن كان بالحصن بعد انتهاء الحصار.

(٢) يذكر المقريزى حديثا لابن وهب نقلا عن عبد الرحمن بن شريح جاءت فيه هذه العبارة وهى قريبة الى الأذهان. وكانت الملابس عبارة عن جبة وبرنس وعمامة وخفين فاذا قلنا إن عدد العرب كان عند ذلك قد نقص الى ١٢,٠٠٠ أمكن أن نفسر ما ذكره بعض الكتاب من أن الجزية قد بلغ قدرها ١٢,٠٠٠ دينار ويخطئ من يقول إن هذا هو مجموع الجزية التى فرضت على مصر جميعها وسبب ذلك أن اسم مصر يطلق كما هو حادث فى كثير من الأحوال على القطر كله فيسمى باسم المدينة.

(٣) المقصود هو الطبرى وعند ما يذكر الجنود القبط نظن أنه يقصد المصريين الذين كانوا فى الجيش الرومانى وهم كتيبة "الحرس الوطنى" وهى كتيبة كانت موجودة بغير شك كما يدل عليه كتاب حنا النقيوسى وإن العبارة التى ذكرها عمرو مشيرا للقرابة والنسب لا يكون لها معنى إذا قصد بها الروم وإنه من العدل أن نذكر أن الطبرى يذكر لفظ القبط فى أحوال كثيرة لا يمكن أن يكون المقصود فيها غير الروم وعلى كل حال ليست هذه القصة ذات شأن كبير غير أنها تبين شيئا من خلق عمرو.

دان لهم[1]». فلما سمع عمرو مقالتهم دعا جماعة من كبارهم الى وليمة فنحر جزورا[2] وصنع لهم المرق بالماء والملح وجعل ذلك أمامهم وقد جلس القبط الى جانب العرب فجعل العرب ينهشون اللحم نهشا حتى بشع القبط ذلك وعادوا بغير أن يأكلوا . فلما كان اليوم الثانى أمر عمرو قوامه أن يأتوا بألوان الطعام فى مصر، وأن يهيئوا منها وليمة عظيمة ، ففعلوا ذلك وجاء أهل مصر فجلسوا إلى ذلك الطعام وأصابوا منه. فلما فرغوا من أكلهم قال عمرو للقبط[3]: «أننى أرعى لكم من العهد ما تستوجبه القرابة بيننا، وقد علمت أنكم ترون فى أنفسكم أمرا تريدون به الخروج، فخشيت أن تهلكوا . فأريتكم كيف كان العرب فى بلادهم وطعامهم من لحم الجزر، ثم حالهم بعد ذلك فى أرضكم وقد رأوا ما فيها من ألوان الطعام الذى قد رأيتم . فهل تظنون أنهم يسلمون هذا البلد و يعودون إلى ما كانوا فيه ؟ إنهم يسلمون قبل ذلك حياتهم و يقاتلونكم على ذلك أشد القتال . فلا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة وادخلوا فى الإسلام أو ادفعوا الجزية وانصرفوا الى قراكم[4]» .

(١) نقلنا هذه الكلمة عن الطبرى لأن نصه أقرب النصوص الى المعنى الوارد فى الأصل الانجليزى — على أن المؤلف لم يذكر الموضع الذى نقل عنه تلك القصة (المعرب) .

(٢) جاء فى الطبرى «فأمر بجزر فذبحت الخ» وهذا أقرب الى الأذهان مما جاء فى الأصل الانجليزى من أنه «نحر جزورا» وكذلك يقول الطبرى ان الأكل انما طاف على العرب وحدهم ولم يذكر مشاركة القبط لهم (المعرب) .

(٣) قد راجعنا ما جاء فى الطبرى وآثرنا أن ننقل عنه بعض نص الخبر وفيه خلاف كبير وتصرف فى اللفظ ولكن لب المعنى قريب من الأصل الانجليزى . وقد جاء فى الطبرى ذكر يوم ثالث وأن عمرا دعا فيه أهل مصر وعرض عليهم جنوده فى السلاح ، ولعل هذا أكبر ما فى القصة مما قصد اليه عمرو ولكن المؤلف لم يورد ذكر هذا العرض الحربى . وأما ما قاله عمرو بحسب رواية الطبرى فهو : «إنى قد علمت أنكم قد رأيتم أنفسكم فى شىء حين رأيتم اقتصاد العرب وهون تزجيتهم فخشيت أن تهلكوا فأحببت أن أريكم حالهم وكيف كانت فى أرضهم ثم حالهم فى أرضكم ثم حالهم فى الحرب . فظفروا بكم وذلك عيشهم وقد كلبوا على بلادكم قبل أن ينالوا منها ما رأيتم فى اليوم الثانى فأحببت أن تعلموا أن من رأيتم فى اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثانى وراجع إلى عيش اليوم الأول» (المعرب) .

(٤) يذكر ابن الأثير رواية مخالفة لهذا الخبر فانه يقول إن عمرا علم أن القبط تكلموا فى العرب وفقرهم وخشونة عيشهم فخشى أن يدفعهم ذلك الى الثورة فعزم على أن يخيفهم بأن يظهر لهم الفرق بين ترف مصر وخشونة عيش العرب و يبين لهم أنهم بهذه الخشونة استطاعوا أن يغلبوا من هم أكثر منهم عددا من جند =

وهذه القصة عجيبة إذ أنها تظهر جانبا آخر من الخلق يختلف عما سمعناه من قول عبادة بن الصامت من احتقار هذه الحياة ونعيمها، وهو القول الذى عجب له قيرس وردّده . ولتلك القصة شأن آخر وذلك أنها تدل دلالة واضحة على أن بعض القبط أخذوا عند ذلك يختارون الإسلام ويفضلون الدخول فيه على دفع الجزية، فقد رأى هؤلاء أن الإسلام يجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، ويساويهم بالفاتحين فى شرف محلهم ويجعلهم إخوانهم فى كل شىء يسهم لهم فى الفىء، ولا يفرض عليهم الجزاء . فكان فى ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول فى الإسلام لا سيما وقد طحن المقوقس عقيدتهم طحنا، وحطم يقينهم باضطهاده . وكذلك دخل فى الإسلام كثير من الروم بعضهم جنود وبعضهم ممن حل فى مصر منهم . وفى هؤلاء يقول حنا النقيوسى "قوم ارتدوا عن دينهم المسيحى ودخلوا فى دين البهائم" . وكان هؤلاء المسلمة يتظاهرون بأنهم من أشد الناس فى أمر الدين يدفعهم ذلك إلى مساعدة إخوانهم العرب المسلمين على استصفاء أموال المسيحيين الذين أخرجتهم الحرب من ديارهم، وصاروا يستبيحون لعنهم ويصمونهم بأنهم "أعداء الله"(1). ولكن هؤلاء الذين أسلموا لم يكونوا إلا قليلا وبقى

= عدوّهم وقد كان لهذا أثر كبير فى المصريين فقالوا إن العرب قوم لا يغلبون وقد وطأونا تحت أقدامهم . فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال إن عمرا يقاتل بالقول ويقاتل غيره بالسيف . (المؤلف)

(1) حنا النقيوسى صفحة ٥٦٠ وقد جاء فى كتاب أبى صالح خبر عجيب وهو أن الجهة القريبة من مصر الى الجنوب وكانت تسمى "الحمراء" زمنا طويلا سميت كذلك لأنها موضع الراية الحمراء التى أقامها العرب عند فتحهم لمصر وكان يجتمع حولها من يستأمن الى المسلمين ويسير خلفهم (صفحة ١٠٢) ولكن ابن دقاق فى وصفه أخبار مدينة الفسطاط يقول إن الحمراوات الثلاث كانت تسمى بذلك لأن الروم كانوا يسكنونها فقد كانت فيها خطط بلى بن عمر بن الحاف بن قضاعة، وبنى بحر، وبنى سلامات(1 ً)، ويشكر بن لخم، وهذيل بن مدركة، وبنى نبيد، وبنى الأزرق؛ وكانوا من الروم (الجزء الرابع صفحة ٥). ولست أدرى ما العلاقة بين "الحمراء"(1 ً) وبين "الروم" . ولكن قد جاء فى الكتاب أن هؤلاء الروم ويهودى اسمه "روبيل" تبارزوا من الشام الى مصر وكانوا من غير العرب من أهل الشام الذين أسلموا قبل وقعة اليرموك .

(1 ً) جاء فى المقريزى اسم "بنو سلامان" وليس "بنى سلامات" و"بنو نبه" وليس "بنى النبيد" (المعرب) .

(1 ً) يظهر أن المؤلف لا يعرف أن العرب كانوا يسمون الرومان بالحمر والصفر . (المعرب) .

جمهور القبط على دينهم يزدرون الذين خرجوا من نصرانيتهم، وينفرون من ذلك الدين الجديد الذى دخلوا فيه، وهذا ظاهر فى قول الأسقف المصرى "حنا". ويجدر بنا أن نعيد هنا ما سبق لنا قوله، وذلك أن القبط فى ذلك العصر لم يكن لهم زعيم يأتمرون بأمره ولا جماعة يلزمونها. فلم تكن بهم قدرة على أن يتعاونوا على أمرهم، فكان الرجل منهم يرى لنفسه وكانت الطائفة منهم يرون لأنفسهم بين حين وحين، ولكن لم يكن فيما بينهم تساند أو تعاون إذ لم يكن لديهم سبيل الى توحيد قصدهم أو التكاتف فى السعي اليه. وعلى ذلك فمن أكبر الخطأ أن يقول قائل إن القبط عامتهم دخلوا فى عهد الصلح الذى كتبه عمرو عند فتح بابليون، فإن ذلك العهد إنما دخل فيه أهل ذلك الموضع. على أن شروط ذلك الصلح نفسه عرضت فيما بعد على من كانوا على كثب من تلك الناحية. فإن عبد الله بن حذافة السهمى سيره عمرو الى عين شمس ليعامل أهل المدينة والكورة التى حولها[1]. وهذا يدل على أن المسلمين عند فتحهم للمدينة أول مرة لم يأخذوا أمرها فى يدهم ويقيموا فيها حكم الاسلام.

ولكن هذا الصلح أحدث فى دولة الروم أثرا كبيرا، مع أنه لم يكن إلا صلحا مقصورا على جماعة صغيرة. وسبب ذلك مكانة ممفيس أو بابليون، فإنها وإن لم يبق لها المحل الأول فى البلاد إذ مضى عليها زمن طويل وليست هى عاصمة البلاد، كانت لا تزال ذات شأن عظيم إذ كانت باب إقليم الصعيد وإقليم مصر السفلى. وكان حصنها منيعا لا يكاد ينال، فإذا هو وقع فى يد عدوّ دانت له بلاد الصعيد جميعا وهابته بلاد مصر السفلى فى الشمال. ولسنا ندرى ما ذا كان قواد الروم يصنعون طول مدّة الشتاء وما الذى حملهم على أن يخلوا ما بين المسلمين وبين الحصن حتى استطاعوا على مر الزمن أن ينزلوا من فيه. ولكنا نعلم حق العلم أن الروم ضعفت قوتهم وخارت عزيمتهم عند ما فتح العرب ذلك الحصن، فى حين أن العرب زادوا قوة وجرأة،

(١) أخذنا هذا عن البلاذرى والخبر بلا شك صحيح وهو أصل الخلط بين أول فتح هليوپولس وبين خضوعها الأخير وذلك الخلط هو الذى يفسد رواية الطبرى وغيره. وقد ذكر أبو المحاسن أن الناس الذين شملهم هذا العهد كانوا قليلين وهم ٦٠٠٠ نفس ولكنه يروى عن عبد الله بن لهيعة أنه قال ان الذين فرضت عليهم الجزية كانوا ٨٠٠٠ (صفحة ١٩).

وأصبح فى يد عمرو ملك الفرما و بلبيس وأتريب وعين شمس . فكان باسطا سلطانه على الجانب الشرقى كله من مصر السفلى، فلما دان له الحصن صار سلطانه ثابتا على مجمع النهرين، و جمع فى يده أزمة وادى النيل الأوسط، وتم له بذلك الشطر من فتح مصر.

و إنا نرى أن عمرو بن العاص بعــد ما فرغ من فتح الحصن أمر بإقامة الجسر من السفن فى النهر، أو بقول آخر أمر بإعادة إقامته بين الحصن والروضة، و بين الروضة والجيزة، فوصل بذلك بين شاطئ النهر واستطاع أن يملك ناصيته و يشرف على ما ينتقل فيه من السفن والبضائع . وهذا على خلاف ما جاء فى كتب التاريخ إذ جاء فيها أن عمرا أمر بذلك قبــل فتح الحصن . وكان عمرو شديد الرغبة فى أن يسير جنوده نحو الاسكندرية، بعد أن طالت مدّة إقامتهم بالعسكر فى مصر. وكان يعرف أنه لن تمرّ ثلاثة أشهر حتى يكون النيل قد أخذ يعود إليــه مدّه وفيضه ، فكان الوقت دونه غير متسع وفى ضياعه مضيعة وخسارة، فأرسل الى عمر بن الخطاب يصف له ما كان ويستمدّه . على حين شرع يدبر أمر المدينة التى فتحها وما حولها من إقليمها . وأخذ يرمم بناء الحصن وجعل فيه مسلحة من المسلمين عليهم خارجة بن حذافة السهمى (١) .

وما كان أعظم سرور عمرو إذ رأى نفسه على ظهر جواده مرة أخرى يسير مع جيشه إلى وجه جهاد، وقد جعلوا الحصن وراء ظهورهم وساروا نحو الشمال يتبعون شاطئ الفرع الغربى للنيل . وتركت خيمة القائد فى مكانها فإنه عندما أزمع السير وأمر الجند أن ينزعوا خيمته وجدوا فى رأسها عش يمامة قد باضت . فقال عمرو "لقد تحرم هذا اليمام منا بمتحرم فأقروا هذا الفسطاط فى موضعه حتى يفرخ و يطير". وقيل إن عمرا ترك على الفسطاط حارسا يمنع تلك اليمامة أن يمسها أحد بأذى (٢) .

(١) قد سبق أن ذكرنا أن هذه العبارة التى ذكرها المؤرخون العرب قد دعمتها وثيقة تخلفت من ذلك العصر رقم ٥٠٣ من مجموعة "Karabacek" وهى "Papyrus Ergherzog Rainer : Fuhrer durch die ausstellung".

(٢) قد أوردنا رواية ياقوت لهذا الخبر المعروف وهى تتفق مع الوقت الذى ترك فيــه عمرو حصن بابليون وهو آخر أبريل و إنا لنتبين فى تلك الرواية صورة الحقيقة والصــدق فقد كان الجوار والاعتصام به مقدّسا عند المسلمين ولو كان المستجير عدوّا .

وليس من اليسير أن نصف سير العرب فى وقتهم ذاك، فإن ديوان حنا النقيوسى لا يذكر من حوادث تلك المدة إلا قطعا من الأخبار لا نظام لها. وإذا نحن جمعنا تلك القطع وأردنا أن نجعل منها قصة متصلة كان فيها اختلاف كبير عما يرويه مؤرخو العرب. على أننا نستطيع أن نوفق بعض التوفيق بين تلك الروايات المتضاربة، لا سيما وإنا نجد اتفاقا عجيبا بينها فى بعض المواضع.

ولا شك أن أول ما قصد اليه عمرو فى سيره نحو الإسكندرية كان مدينة نقيوس، وكانت مدينة ذات شأن عظيم وحصنا ذا منعة وقوة(١)، وهى على الشاطئ الشرقى لفرع النيل الغربى الذى هو فرع رشيد، على مسيرة يوم من حصن بابليون، وعلى ساعتين من مدينة منوف، وكانت منوف إذ ذاك فى ملك العرب. وكانت نقيوس فوق عظمها مدينة قديمة بها الآثار الجليلة من أيام الفراعنة، وكانت مقر أحد كبار رؤوس الدين المسيحى، ولها مكانة حربية كبرى فى حفظ الطريق بين حصن بابليون والاسكندرية. فكان لابد للروم أن يجتمعوا هناك مرة أخرى للقاء العرب.

---

(١) قد بينا فى هامش صفحة ١٦ أن موضع نقيوس القديمة هو القرية الحديثة المسماة (شبشير) وهى فى الشمال الغربى من منوف على نهر النيل.

(٢) إن اسم وردان الذى لا يزال محفوظا فى قرية على الجانب الغربى للنيل إذا أضفنا اليه ما جاء فى المقريزى من الأخبار بدا لنا أن عمرا سار أولا على الجانب الغربى للنيل فى مسيره إلى نقيوس. حقا إن هذا الطريق كان قليل العقبات وأسهل سيرا من الأرض التى بين فرعى النيل وهى تعترضها الخلجان والترع ما دام عمرو واثقا من أنه يستطيع عبور النيل عند الطرانيس أو بنى سلامة. وقد قال المقريزى "وكان عمرو حين توجه إلى الإسكندرية خرب القرية التى تعرف اليوم بخربة وردان واختلف علينا السبب الذى خربت لأجله. فحدثنا سعيد بن عفير أن عمرا لما توجه إلى نقيوس عدل وردان لقضاء حاجته عند الصبح فاختطفه أهل الخربة فغيبوه ففقده عمرو وسأل عنه وقفا أثره فوجدوه فى بعض دورهم فأمر بإخرابها وإخراجهم منها (وقيل كان أهل الخربة رهبانا كلهم فغدروا بقوم من صحابة عمرو ووجه اليهم وردان فقتلهم وخربها فهى خراب إلى اليوم)" (المؤلف).

ملاحظة: آثرنا ذكر رواية المقريزى بتمامها إلى آخر الرواية الثانية وقد اقتصر المؤلف على الرواية الأولى واختصر الثانية من أول "وقيل كان أهل الخربة الخ" (المعرب).

والظاهر أن عمرا ابتدأ سيره أولا على الضفة الغربية للنهر من ناحية الصحراء، ففيها مجال أوسع لخيله لا يعوقها هناك ما يعترض مصر السفلى من الترع الكثيرة . وكان الروم على توقع أن يفعل ذلك فلا قوة هناك، وكان أول ما التحموا بجيشه عند مدينة قديمة معروفة وهى (طرنوتى) أو (طرنوط)، أو كما يسميها العرب (الطرانة). وكان فى تلك المدينة فرضة يعبر النيل عندها فى الذهاب الى الاسكندرية (١)، وفيها كذلك بدء الطريق المؤدية الى أديرة القبط فى صحراء لوبيا . فكان لابد للروم على ذلك من أن يقفوا وقفة فى الدفاع عنها . فقاتلوا العرب هناك (٢) وأبلوا بلاء حسنا غير أنهم انهزموا واستطاع عمرو أن يستأنف السير الى مدينة نقيوس .

وقد مر بنا أن مدينة نقيوس على الشاطئ الشرقى للنهر على مقربة من الموضع الذى تتصل فيه بالنيل الترعة التى بين أثريب ومنوف . وكان عمرو لا يستطيع أن يتركها على جانبه ويسير عنها، إذ هى حصن منيع . فعبر النهر اليها حتى إذا ما فتحها عاد الى الغرب وواصل السير، وكانت تلك فرصة دون القائد الرومانى (تيودور) إذا أراد المناجزة، ولكنه لم يغتنمها فلم يخرج للعرب بنفسه فى عامة جيشه، بل أرسل القائد الجبان الضعيف (دومنتيانوس) ليذود عن نقيوس، وبعث معه كتيبة ضعيفة . وكان عند (دومنتيانوس) كثير من السفن قد أعدّها لكى يدافع بها عن المدينة، أو لكى يهبط بها على جيش عمرو فى أثناء عبوره للنهر، وكان عمرو لا بدّ له من

(١) أنظر كتاب أميلنو "Geog. Copte" صفحة ٤٩٣ وقد جاء فيه "كان هناك الموضع الذى عزم اباتير أن يعبر فيه النيل فى مجيئه من الاسكندرية الى حصن بابليون فى مصر" وقد ذكر فيه المراجع الأخرى .

(٢) قد ذكر ياقوت هذه الوقعة وقال إن عمرا حارب الروم فى وقعة عند (طرنوط) . وقد أخطأ المقريزى خطأ غريبا فى ذلك الأمر فانه عند ما ذكر سير عمرو من بابليون الى الاسكندرية قال (الجزء الأول صفحة ١٦٣ طبعة بولاق) "فلم ير أحدا حتى بلغ مريوط فلقى فيها طائفة من الروم" ثم قال بعد بضعة أسطر من ذلك إن عمرا بقى فى مريوط فى حين كانت طلائعه عند كوم شريك ! ويمكن أن يصحح ذلك الخطأ بأن نجعل (طرنوط) محل (مريوط) وهو الصحيح . وهذا الخطأ يوضح لنا نوع الخطأ الذى يضلل التاريخ من جراء تحريف الكتاب أو النساخ الذين يجهلون وصف البلاد .

عبور النيل اذا فتح المدينـة، واذا هو فشل ولم يفتحها كان أغلب الظن أنه يحاول العبور . غير أن قائد الروم عند ما رأى المسلمين على كثب منه خانه جنانه، وترك جيشـه وسفنه ولاذ فى سـفينة هاربا نحو الإسكندرية . فلمـا رأى الجنود أن قائدهم يفر عنهم ذلك الفرار وضعوا سلاحهم وهبطوا إلى الترعة سراعا[١]، وقد أذهلهم الخوف، يريدون أن يقتحموها أو يبلغوا السفن فيها . ولكن عدوى خوفهم أعدت نوتية السفن فلم يأبهوا لشيء إلا لسلامتهم، فخلوا سفنهم مسرعين وهبطوا بهـا إلى الشمال يطلبون النجاة، فعمد كل منهم الى قريته . وعند ذلك طلع العرب على جنود الروم وهم فى المـاء بغير سلاح فقتلوهم عن آخرهم، فلم ينج منهم إلا رجل اسمه (زكريا) بدت منه شجاعة عظيمة عند ذلك، ولعل نجاته كانت لمـا بدا منه من الشجاعة . ثم دخل العرب المدينة من غير مقاومة إذ لم يكن فيها جندى واحد يقف فى سبيلهم، ومع ذلك فقد أوقعوا بأهلها وقعة عظيمة . قال حنا النقيوسى " فقتلوا كل من وجدوه فى الطريق من أهلها ولم ينج من دخل فى الكنائس لائذا ولم يدعوا رجلا ولا امرأة ولا طفلا[٢]، ثم انتشروا فيما حول نقيوس من البلاد فنهبوا فيها وقتلوا كل من وجدوه بها، فلما دخلوا مدينة (صوونا) وجدوا بها (إسكوتاوس) وعيلته وكان يمت بالقرابة الى القائد (تيودور)، وكان مختبئا فى حائط كرم مع أهله، فوضعوا فيهم السيف فلم يبقوا على أحد منهم . ولكن يجدر بنا أن نسدل الستار على ما كان فإنه لا يتيسر لنا أن نسرد كل ما كان من المسلمين من المظالم بعد أن أخذوا جزيرة نقيوس فى يوم الأحد وهو الثامن عشر من شهر (جنبوت) فى السنة الخامسة عشرة من سنى الدورة[٣]" ويقع ذلك التاريخ فى اليوم الثالث عشر من شهر مايو سنة ٦٤١

(١) هذا الوصف يدل على أن الترعة كانت فى شمال نقيوس ويثبت أن موضع نقيوس هو شبشير .

(٢) أغلب الظن أن هذه مبالغة من الكاتب (حنا النقيوسى) دفعته اليها غيرته وحقده على الغالبين من العرب اذ كان من أول أصول العرب فى الحرب ألا يقتلوا من استسلم وألا يقتلوا أمرأة ولا شيخا ولا طفلا يأمرهم بذلك دينهم ويحضهم عليه أمر خلفائهم الأولين الى القواد والجنود (المعرب) .

(٣) حنا النقيوسى صفحة ٥٦٨ ولأجل معرفة التاريخ يرجع الى الذيل الرابع لكتابنا هـذا وقد قال زوتنبرج أن اسم المدينة هو (صا) ولكن صا هى مدينة (سايس) القديمة وهى فى الشمال عند دمنهور، وكانت =

وقد أثبتنا هنا نص قول الأسقف القبطى لأنه يدل على ما كان عليه القبط من قلة حب للعرب الفاتحين، ولكى نظهر أنهم ما كان لهم أن يحبوهم، وقد كان منهم ما كان . وقد كانت نقيوس معقلا من معاقل الدين القبطى، ولا شك أن الناس كانوا مع ما نزل بهم من الاضطهاد لا يزالون على عقيدتهم يضمرونها فى قلوبهم، ولو أظهروا الخروج منها تقية لما نالهم من عسف قيرس . وكان العرب فى وقعتهم لم يفرقوا بين قبطى ورومى، وليس فيما وصلنا من أخبار ذلك لفظ واحد يدل على أن القبط كان لهم شأن آخر فى معاملة العرب . وكذلك ليس من شك فى أن الشقاق والاضطراب قد دهما البلاد واجتاحاها كما يجتاح الطاعون الأرض، فلم يمض طويل زمن حتى عمت الفوضى واندلع لهيب الحرب الأهلية بين أهل مصر . فكان ذلك ضغثا على أبالة فانقسمت مصر السفلى الى حزبين: حزب مع الروم، وحزب يريد أن يتفق مع العرب . ولسنا ندرى اذا كان الفارق بين ذينك الحزبين فارقا من جنس أو من مذهب أو من تشيع سياسى . على أننا نرجح الرأى الأخير . وقد أصبح من الأمور المعتادة فى ذلك النضال بين الحزبين أن يتقاتل الناس وينهب بعضهم بعضا، أو يحرقوا البلاد فى حين كان العرب ينظرون الى كلا الحزبين نظرة الازدراء، ولا يأمنون لأيهما ولا يتعاهدون مع أحد منهما .

ولما فتحت مدينة نقيوس[1] وتفرقت السفن الرومانية التى كانت بالنيل هناك، أصبح الطريق خاليا من العقبات دونهم اذا شاءوا السير الى الاسكندرية . وكان جيش الروم عند ذلك يقوده (تيودور) ويتراجع به شيئا فشيئا نحو تلك العاصمة .

وأقام عمرو فى نقيوس بضعة أيام ثم عبر النيل الى الغرب ، ولكنه قبل أن يستأنف سيره أرسل أحد رجاله وهو شريك ليتتبع العدو المنهزم . وكان

= لا تصل اليها يد العرب عند ذلك . وقد جاء فى عنوان ذلك الفصل أن اسم المدينة هو (صوونا) . وقد أخذنا هذا الاسم وأخذنا اسم (Esquâtâos) الذى ذكره زوتنبرج فجعلناه (Scutœus) فانه كان لا بد من وجود حرف متحرك فى أول الكلمة حتى يمكن نطقها فى اللغة العربية وقد نقل كتاب حنا الى الأثيوبية عن اللغة العربية .

(١) لا يعرف المؤرخون العرب شيئا عن هذا الحادث وهم يمرون عليه بغير ذكر شىء عنه . وأما موقعة نقيوس التى جاء ذكرها فى كتاب ياقوت فهى الموقعة التى حدثت فى أثناء ثورة منويل .

الطريق على جانب النيل الأيسر ممـا يلي الصحراء ، وكان دهسا للخيـل ، فلحقت طلائع المسلمين بالروم عند موضع على ستة عشر ميلا إلى الشمال من الطرانة . ولكن المسلمين وجدوا عدوّهم أكثر عددا ممـا كانوا يحسبون ، فلم يستطيعوا أن يهزموهم بحملتهم الأولى، بل لقد قيـل إن القتال استمر ثلاثة أيام، واستطاع الروم مدّة أن يردوا العرب و يلجئوهم إلى نهد من الأرض ظلوا عليـه حينا، والروم تحمـل عليهم حملات شديدة وقد أحاطوا بهم من كل جانب. فلما رأى شريك ما يحدق بالمسلمين من الخطر بعث مالك بن ناعمة ليخرج على فرس له أشقر لا يشق له غبار، وأمره أن يقتحم العدوّ أو يدور حوله حتى يأتى عمرو بن العاص فيحمل إليه النبأ، ففعل مالك ذلك وأراد جماعة من الروم أن يلحقوا به فأعجزهم . ولمـا بلغ عمرا ما يهدّد شريكا من الخطر أرسل إليه الإمداد سريعا . وقيل إن العدوّ فرّ هاربا عند ما بلغـه مجيء ذلك الإمداد. ومهما يكن من أمره فقد نجا شريك مما كان فيه، ولم يستطع الروم أن يغلبوا تلك الجريدة العربية، فأضاعوا بذلك فرصة كما أضاعوا من قبل كل فرصة أتاحها الحظ لهم. وقد سمى ذلك الموضع الذى وقع القتال فيه باسم القائد العربى فهو معروف إلى اليوم باسم (كوم شريك)[1] .

وسار عمرو يدفع العـدوّ أمامه، ولعله سار إلى الشمال الغربى على جانب الترعة التى تلى الصـحراء حتى بلغ الدلنجات ، ومنهـا سار إلى الشمال فى تجاه دمنهور . فوجد الروم مرة أخرى يعترضون سبيله عند سنطيس[2] ، وهى على ستة أميال

(١) نقلنا هذا الخبر عن المقريزى و يظهر أنه ينقل عن ابن عبد الحكم وقد جاء فى (Ockley) ذلك الاسم الغريب (كرام الشريك) على أنه اسم الموضع ولكن كل ما ذكره ذلك المؤلف عن فتح العرب خلط وتحريف وتحوير يضارع ما جاء به المؤرخون العرب ويسمى ابن بطريق ذلك الموضع باسم (كرم شريك) ولكن من المستبعد أن يكون قد وجد كرم هناك .

(٢) جاء اسم هـذا الموضع فى المقريزى هكذا (سلطيس) وجاء ذلك الاسم فى ترجمة ابن بطريق هكذا (Salstan) وهو تحريف ظاهر وقد قال (Weil) عنـد ذكره ذلك الاسم سلطيس انه لا بد أن يكون (سماتيس) أو كما زعم (Ewald) أنه (سنطيس) ولا شك أن الاسم الأخير هو الصـحيح وسنطيس قرية كبيرة فى نحو منتصف المسافة بين كريون وكوم شريك .

فى جنوب دمنهور. ووقعت هناك وقعة شديدة انهزم فيها الروم وتقهقروا أمام العرب. ولم يحاولوا أن يقفوا لعدوّهم فى دمنهور أو يملكوها، بل تدافعوا نحو الشمال فانتهى بهم الانهزام الى الطريق الأعظم المؤدّى إلى الاسكندرية، فعبروا الترعة وكانت عند ذلك لا يكاد يوجد بها شىء من الماء، ثم ساروا حتى أظلهم حصن (كريون) بعد مسيرة نحو عشرين ميلا . وكانت مدينة (كريون) آخر سلسلة من الحصون بين حصن (بابليون) والإسكندرية وكان لها شأن عظيم فى تجارة القمح سوى ما كان لها من خطر عظيم فى الحرب، إذ كانت تشرف على الترعة التى عليها جل اعتماد الإسكندرية فى طعامها وشرابها. ولكن حصونها لم تكن فى المنعة على مثل ما كان عليه حصن بابليون ولا ما كان عليه حصن نقيوس[1]، مع أن الروم رمّموا حصونها وزادوها قوّة . ومهما يكن من الأمر فقد عوّل (تيودور) على أن يقف هناك وقفته الأخيرة، ولم يكن فى وسعه أن يختار مكانا أليق من ذلك . فكانت حصون المدينة تساعد الجنود وتشدّ أزرهم، وكان جنوده أكثر عددا من العدوّ، وكانت الترعة تحميهم من بين أيديهم، وكان الطريق من ورائهم يفضى الى الاسكندرية ومن السهل عليهم حفظه .

(١) فيما يتعلق باسم كريون انظر اميلنو (Geog. Copte) صفحة ٢١٧ وفيه يذكر الصورة القبطية ϫepeⲩ والاسم اليونانى (انظر)*(٢٧) (كذا) ولكنه لا يذكر الاسم الأشهر وهو (Choereum)، وجاء فى حنا النقيوسى فصل ٦٧ أن الترعة العذبة (ويسميها فى عنوان الفصل ترعة كريون) قد حفرتها كليوبطره ويقول بروكوبيوس فى كتابه (The Buildings of Justinian) أن النيل لا يجرى الى الاسكندرية ولكنه بعد مدينة (كيريوم) يعرج الى اليسار وقد حفر القدماء مجرى عميقا من (كيريوم)، وأجروا فيه جزءا من ماء النيل ليصل الى بحيرة (مارية) وليس هذا المجرى صالحا فى أى جزء من أجزائه لسير السفن الكبرى فالقمح ينقل فى (كيريوم) من السفن الكبرى الى قوارب تحمله الى الاسكندرية. "Palestune Pilgrims. Text Soc." (الجزء الثانى صفحة ١٥٢) ويقول حنا على وجه التخصيص أن ترعة كليوبطره كانت صالحة للسفن الكبار ولكن السير فيها كان بحسب حال الماء . وقال ابن حوقل : ان (كريون) كانت فى أيامه مدينة عظيمة جميلة على ضفتى ترعة الاسكندرية وكان التجار يركبون منها القوارب الى الفسطاط فى وقت الصيف إذا علا النيل ... وفى المدينة حاكم تحت إمرته مسلحة من الفرسان والمشاة (عن كاترمير "Mem. Geog. et Hist." الجزء الأوّل صفحة ٤١٩) .

وقد قاتل جنود الروم فى هـذا الوقت قتالا شـديدا حتى شهد بذلك مؤرخو المسلمين أنفسهم، ولم يخذلهم ما أصابهم من قبل من النكبات من سـقوط بابليون ونقيوس فى يد عدوهم، ولا ماحل بهم من خيانة بعض قوادهم أو جبانتهم. ولم يكن الروم فى قلة إذ أتتهم الأمداد من وراء البحر من (قسطنطينية)، وكان قائدهم (تيودور) غير متهم فى شجاعته ولا إقدامه فى القتال، غير أنه لم يكن قائدا ذا رأى فى الحرب. وقد عرف الناس جميعا فيما يحيط بذلك الموضع كما عرف الجنود الذين كانوا بالاسكندرية أن ذلك اليوم، يوم كريون، له ما بعده، فأتت الكتائب تترى من كل مكان الى لواء الروم من سنطيس ومن مدائن أبعـد منها، مثـل (خيس) و (سخا) و (بلهيب)(1). ولم تكن تلك الوقعة قتال يوم انجلى عن مصـير (كريون)، بل كان قتالا شديدا استمر بضعة عشر يوما، وحدث فى وقت من أوقاته أن وردان مولى عمرو المعروف كان يحمل لواء المسلمين، فأصابت عبد الله ابن عمرو جراحة شديدة وكان الى جانبه، فأجهضته شدة القتال، فسأله أن يرتد قليلا يطلب الروح. فقال له وردان: "الروح تريد؟ الروح أمامك وليس خلفك" ثم أقبلا على القتال.

(1) نقلنا هذا عن البلاذرى (صفحة ٢١٠) وهو يجمع القبط والروم فى معركة كريون. أما سخا فهى بين فرعى النيل على نحو عشرين ميلا فى الشمال الغربى من سمنود ولا نستطيع أن نجد موضعا فى خرائط مصر الحديثة يشبه اسمه اسم بلهيت (أو بلهيب كما جاء فى ياقوت وهو أصح) وهذا وفق الاسم القبطى ;πελϩιπ ولكن الموضع كان معروفا وحدثت فيه ثورة للقبط سنة ١٥٦ هجرية (كاترمير "Recherches" صفحة ١٩٨) وقد بحث كاترمير فى موضعها فى (Obs. sur Quelques Points de la Geog. de l' Eg.) صفحة ٤٥ وما بعدها وهو يبين أن ابن حوقل يجعلها على ست (ساكات) الى الشمال من سنديون على نهر النيل عند ملتق فرع صغير بفرع رشيد فاذا جعلنا الـ (ساك) نحو ميل وربع كانت بلهيب (كما جاء فى كاترمير) على مقربة من (منطوبس كما يسميها هو) ولكن الاسم الموجود على خريطة الدومين هو (مطوبس) ومن الظاهر أن بلهيب كانت على الجانب الغربى للنهر وليست على الشرق وقد زال الفرع الصغير من زمن طويل وصار موضعه مستنقعا ولكن هناك قرية صغيرة اسمها (ديبى) فى الموضع المطلوب ولعل هذا الاسم صدى للاسم القديم (بلهيب) وهى عند ثنية النهر على نحو عشر أميال أو اثنى عشر ميلا الى جنوب رشيد وقد أخطأ اميلنو (Geog. Copte) فى صفحة ٣١٤ اذ قال إن الملتقى الذى ذكره ابن حوقل كان قديما عند مدينة (ديروط) فان ديروط قريبة من (سـنديون) ولو أنها على الناحية الأخرى من النهر ولعل أميلنو لم يحسن قراءة كاترمير. وكانت خيس فى جوار دمياط أنظر كاترمير (Mem. Geog. et Hist.) الجزء الأول صفحة ٣٣٧، ويذكر ياقوت (فرطسا) أو (قرطسا) بين البلاد التى قاومت عمرا ثم يقول ان عمرا صالح (بلهيب).

فلما سمع عمرو بما أصاب ولده بعث اليه من يسأل عن حاله فتمثل عبد الله بأبيات من الشعر يطمئن بها والده (١)، فلما سمع عمرو بذلك قال "إنه ابنى حقا". وحمل المسلمون مرة بعد مرة حملات شديدة (٢)، ولكن الفتح أبطأ عليهم وصلى عمرو بالناس صلاة الخوف . ويلوح لنا أن تلك الوقعة لم تكن نصرا لاحدى الطائفتين بل تساوت فيها الكفتان ، ولكن مؤرخى العرب يقولون إنها كانت نصرا عظيما للسلمين . ومهما يكن من الأمر فلا شك فى أن المسلمين لاقوا نصرا بعد قتالهم فى تلك الأيام العشرة، وذلك أنهم استطاعوا أن يفتحوا مدينة كريون وحصنها وهزموا الروم عنها . ولا نستطيع أن نقول شيئا عما حدث بعد ذلك فى ارتداد تيودور . فلا ندرى أكان ارتداد جنوده انهزاما لا يلوون فيه على شىء حتى بلغوا أبواب الاسكندرية، أم كان تقهقرا وئيدا فى نظام . على أن ديوان (حنا النقيوسى) يشتم منه أن التقهقر كان وئيدا وهو لعمرى قول لايتهم صاحبه .

ولا بدّ قد خسرت الطائفتان كلتاهما فى ذلك القتال بين الطرانة وكريون خسارة كبرى، وكان الروم أقدر على احتمال تلك الخسارة من العرب. واذا نحن حسبنا ماتركه العرب من المصالح فى (بابليون) وسواها من بلاد مصر السفلى، يتضح لنا أن عمرا ماكان ليستطيع السير الى الاسكندرية ما لم تكن قد أتته أمداد عظيمة فى الشتاء المنصرم أو فى الربيع . فلم يكن ليجرأ أن يطلع على الاسكندرية بأقل من خمسة عشر ألفا . وإنه لأقرب للحق أن نجعل عدد جيشه عند ذلك عشرين ألفا . ولما فتح العرب كريون خلا أمامهم الطريق الى الاسكندرية ، ولم يبطئ عمرو

(١) جاء فى المقريزى أنه تمثل بهذا البيت وحده :

أقول لها اذا جشأت وجاشت * رويدك تحمدى أو تستريحى

ثم ذكر الأبيات التى من بينها هذا البيت ونسبها الى قائلها عمرو بن الأطنابه . (المعرب)

(٢) ذكر المقريزى هذا الخبر وهو الذى أخذنا عنه مدّة الأيام العشر للقتال ولم يذكر البلاذرى إلا وقعة عند كريون . وأما حنا النقيوسى فمن سوء الحظ أنه قد اجمل هنا واختصر فقال إن عمرا أرسل جيشا عظيما من المسلمين الى الاسكندرية فلكوا كريون فسار من فيها مع قائدهم تيودور الى الاسكندرية .

إلا ريثما يستريح جنده من عناء القتال الأخير ، ثم سار فى سبيله ولم يلق كيدا حتى بلغ الاسكندرية .

ولا بدّ أن كثيرين ممن كان فى جيش العرب عند ذلك رأوا جميل المدائن فى فلسطين والشام مثل أذاسا ودمشق و بيت المقدس وقد يكون منهم من وقعت عينه على أنطاكية الشهيرة أو رأى عجائب تدمر ، ولكن ذلك كله لم يكن شيئا اذا قيس بعظمة المدينة التى تبدّت لهم عند ذلك ، وهى عظمة بارعة نادرة ، تجلى لهم إذ يسيرون بين الحدائق وحوائط الكروم والأديرة الكثيرة بأرباضها . فقد كانت الاسكندرية حتى فى القرن السابع أجمل مدائن العالم وأبهاها ، فلم تبدع يد البناء قبلها ولا بعدها شيئا يعدلها اللهم إلا رومة وقرطاجنة القديمتين . فما سرحت العين لا تقع إلا على أسوار وحصون لا نظير لها ، بقيت بعد ذلك قرونا وهى مثار إعجاب من رآها من أهل الأسفار . وكانت تشرف وراء هذه الأسوار والحصون بدائع من قباب ومن عمد بعضها أسطوانى وبعضها مربع (مما يسمى بالمسلات) ، تقوم فوق قواعدها ، ومن تماثيل ومعابد وقصور تتلألأ وتتألق ، فإذا ما تياسرت[1] رأيت دون ذلك معبد السرابيوم ، وقد أناف بسقفه المذهب والقلعة التى كان يشرف فوقها عمود دقلديانوس[2] ، فإذا ما تيامنت بدت لك الكنيسة العظمى كنيسة القديس مرقس تليها العمد المربعة التى سميت (مسلات كليو بتره)[3] ، وكانت عند ذلك قد عمرت نيفا وألفى عام وذلك ضعفا عمر المدينة نفسها . وفيما بين يسارك و يمينك كان البناء الجليل يبدو ظاهره مشرقا و يلوح من ورائه ذلك الأثر العظيم المعروف باسم (فاروس) ، وكان الناس يعدّونه إحدى العجائب السبع فى العالم وحق لهم أن يفعلوا . وما كان

(١) جاء العرب إلى المدينة من ناحية الجنوب الشرقى .

(٢) البرهان على أن العمود المعروف بعمود پومپى كان على القلعة ما قام به من البحث حديثا المسيو (بوتى) مدير المتحف الاسكندرى .

(٣) كان مقدورا لهذه المسلات أن يسلبها البريطانيون والأمريكانيون من مصر . واحداها اليوم على شاطئ نهر التاميز ، والأخرى فى نيو يورك وكانتا حملتا من هليو بولس قديما فى أيام أغسطس وكان علو الواحدة منها ٦٨ قدما فكان أعلاها على الأقل يمكن رؤيته على مسافة من خارج الأسوار .

هـذا الجلال الفائق والجمال البارع وما يبدو من عظمته وقوته إلا ليقع من قلوب غزاة الصحراء موقعا عجيبا، وقد رأوا ما رأوا من المدينة التي جاءوا يفتحونها[1] .

وكانت مسلحة المدينة عند ذلك نحوا من خمسين ألفا، وكان الأقوات وفيرة فيها إذ هي على البحر، ولم يكن فيه للمسلمين بعد سفينة واحدة تنقص من سلطان الإمبراطور عليه. وكانت الأسوار منيعة تحميها الآلات القوية، وهي الآلات التي رأيناها في زمن (نيقتاس) تفتك بأسطول العدو في النهر وتغرق سفنه. ولم يكن عند العرب شيء من آلات الحصار إذ لم يستطيعوا نقل ما غنموه منها قبل ذلك من الروم، ولم تكن لهم خبرة ودراية في فنون الحصار وحربه. وعلى هذا كان في يد الروم من العدة والعدد ما يستطيعون به أن يقووا على حرب فرسان المسلمين، وليس لهم من العدة إلا سقيمها. على أن العرب كانوا قبل ذلك قد فتحوا الفتوح العجيبة في مصر الشام، فلم تقف دونهم حصونها، فكانوا كلما ذكروا ذلك امتلأ قلبهم إيمانا وقوة ووثقوا من أن العاقبة لهم. ولكن ذلك الإيمان كان بطيء الأثر، فإن عمرا عندما حمل بجيشه أول مقدمه على أسوار المدينة كانت حملته طائشة غير موفقة، فرمت مجانيق الروم من فوق الأسوار على جنده وابلا من الحجارة العظيمة، فارتدوا باعدين عن مدى رميها، ولم يجرأوا بعد ذلك

---

(١) تروى قصة أن عمرو بن العاص جاء الاسكندرية قبل ذلك فقد قيل إنه في صغره أنجى حياة شماس رومي مرتين: فرة أنجاه بأن أعطاه ماء وقد أشرف على الهلاك عطشا. وأنجاه أخرى بأن قتل أفعى كانت على وشك أن تلسعه في نومه فوعده الشماس بأن يعطيه ألفي قطعة ذهبية (١٠٠٠ جنيه) جزاء له على إحسانه اذا هو جاء معه إلى الاسكندرية فصحبه عمرو على ذلك فلما كان في المدينة وجد قوما يلعبون بكرة عليها نقش التاج في ميدان السباق فاشترك معهم ووقعت الكرة في كمه وقد روى مؤرخو العرب "أن هذا شيء لم يحدث من قبل لأحد إلا صار حاكم مصر" ولم تكن تلك الجائزة أقل أجزاء القصة نصيبا من الخيال فان عمرا قد يكون زار مصر من قبل من أجل تجارته وقد يكون اشترك في لعب بالكرة يسمى فيه الظافر "ملكا" ويمكن أن نقرأ هذه القصة في كتابي (Weil ، Ockley) وهي منقولة عن ابن عبد الحكم وقد أخذها المقريزي عنه مفصلة. وتروى رواية أخرى تجعل لقاء عمرو للشماس في بيت المقدس وأخرى تجعل ذلك بقرب الاسكندرية وقد جاء في أبي صالح (صفحة ٧٥) "وقد زار عمرو مصر من قبل في أيام الجاهلية وعرف الطرق المؤدية اليها منذ كان يتاجر هناك مع رجل من قريش" وهذا أقرب الى الحقيقة. ونجد خبر المقريزي في كتاب الخطط الجزء الأول صفحة ١٥٨ .

على أن يتعرّضوا لقذائفها. وقنع المسلمون أن يجعلوا عسكرهم بعيدا عن منالها وانتظروا أن يتجرأ عدوّهم ويحمله التهوّر على الخروج اليهم .

وليس فى أيدينا من الأخبار الموثوق بها ما يدل على وقوع قتال من هذا القبيل، فليس فى ديوان (حنا النقيوسى)[1] شىء آخر فى وصف القتال بالإسكندرية سوى ما ذكرناه من تهوّر عمرو فى حملته الأولى، وما أصاب العرب من فعل المجانيق التى لم يطيقوا عليها صبرا فارتدوا. ولا نستطيع أن نفهم من ذلك الإغفال إلا أمرا واحدا وهو أنه لم يكن ثمت حصار للاسكندرية بالمعنى الصحيح . فقد كان البحر يحمى المدينة من جهة الشمال، وكانت الترعة وبحيرة مريوط يحميانها من الجنوب، وكان إلى غربها ترعة (الثعبان)، فلم يبق من فرج إلا شرقها وجنوبها الشرقى، ولم يستطع المحاصرون أن يقتربوا من الأسوار من ذلك الفرج فلم يكن لهم بد من أن يقنعوا بالوقوف والرصد ولم يكن رصدهم تاما ولا مجزيا . وعلى ذلك لم يتحقق للعرب حصار المدينة حتى من جانب البر . ومع ذلك فقد كان لوقوف العرب بعسكرهم على كثب من المدينة أثر كبير، إذ كانوا هناك يحادون الروم ويقطعون صلتهم بسائر البلاد. ولسنا نعرف عين الموضع الذى كان فيه عسكرهم، فإن تعيين ذلك من أشق الأمور. فقد قال السيوطى إنه كان "فيما بين الحلوة وقصر فارس وما بعده"، وقصر فارس كان فى الجهة الشرقية[2] ولعل الفرس قد بنوه ليستعينوا به على الحصار. فانا نعرف أن دقلديانوس لم يستطع أن يحدث أثرا فى حصون المدينة حتى بنى قلعة فى شرقها[3]، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يقتحم المدينة وأسوارها المنيعة التى لا تكاد تنال إلا بجيش قوى ظل على الحصار

(١) صفحة ٥٧٠ .

(٢) أنظر ما سبق فى هامش صفحة ٨١ والقول الذى أشرنا اليه من قول ابن العبرى . وقد اتفق أبو الفداء مع السيوطى فى حين أن ابن عبد الحكم يقول إن العرب بعد أن أقاموا فى الحلوة شهرين ساروا الى المقس على الجانب الغربى .

(٣) حنا النقيوسى صفحة ٤١٧ وأقواله جديرة بالذكر : "ولم ينجح فى أخذ الاسكندرية إلا بعد أن بنى قلعة المدينة وأقام هناك مدة طويلة ثم أتى اليه بعض أهل المدينة ودلوه على موضع يدخل منه اليها ولكنه لم يستطع أن يقضى على مقاومة المدينة إلا بجيش كبير بعد عناء شديد" .

زمنا طويلا، وكان فى داخل المدينة خونة يساعدونه . فلا بد لنا من أن نقول إن المسلمين عجزوا عن أن يقوموا بعمل ما وقنعوا بالوقوف والمرابطة فى عسكرهم ، ولم يكن عسكرهم حيث كان إلا مرصدا يرقبون فيه عدوهم . ولعمرى إننا لفى شك من أن العرب أقاموا عسكرا فى جوار الاسكندرية، فلعلهم لم يبعدوا به عن مدينة كريون .

مضى عند ذلك أكثر شهر يونيه ولم يكن قائد العرب بالرجل الذى يخادع نفسه عن المدينة ويعلل نفسه باستطاعة فتحها عنوة . فقد علم حق العلم أنه لن يستطيع أخذها بالهجوم، وإنما كان واثقا من شيء واحد، وهو أن أصحابه إذا خرج لهم العدو وناجزهم القتال صبروا وثبتوا وغلبوه، وإن كان أكثر منهم عددا . وعلى ذلك عوّل على أن يخلف فى عسكره جيشا كافيا للرباط، وأن يسير هو مع من بقى من الناس فيضرب بهم فى بلاد مصر السفلى، قبل أن يتعذر على المسلمين السير بها (١) إذ كان فيض النيل يقترب أوانه . وكان الروم قد هاجروا من حول الإسكندرية فصارت قصورهم البديعة ومنازلهم الجليلة فيما وراء أسوار المدينة فيئا للعرب، فغنموا منها غنيمة

(١) لعلنا لا ينبغى أن نمر على عبارات مؤرخى العرب فى قبط هذا العصر بغير أن نقول كلمة فيه . فقد قال ابن عبد الحكم إن القبط ساعدوا العرب فى كل ما احتاجوا اليه وإن رؤساء القبط حفظوا الطرق وأقاموا لهم الجسور وفتحوا الأسواق فى سيرهم الى الاسكندرية وقد نقل عنه المؤرخون الآخرون هذا الخبر ولكن من سوء الحظ أن ابن عبد الحكم يغير ترتيب الحوادث ولا نستطيع أن نعتمد على هذا القول ونذهب الى أنه يدل على حالة عامة كان القبط عليها فى هذا الوقت وفى الوقت عينه نقول كما قلنا من قبل إن تلك المساعدة قدمها مسلمة القبط كما قدمها غيرهم من القبط الذين أرغموا على الخدمة ولكنا لا نشك فى أن هذه العبارة إنما يقصد بها مساعدتهم للعرب فى وقت ثورة منو يل والبلاذرى أقل جدارة بالتصديق إذ يقول إن العرب منذ جاءوا الى الاسكندرية أراد القبط فى المدينة أن يصالحوهم فطلب المقوقس هدنة ولكن العرب أبوا ذلك عليه ثم يقول ان المقوقس أراد أن يخيف العرب بإيهامهم أن عدد من بالمدينة من الجند عظيم فحمل على الأسوار النساء والأطفال وأمرهم أن يجعلوا بوجوههم الى داخل المدينة وأن يجه الرجال بوجوههم نحو العدو فأرسل اليه عمرو عند ذلك يقول " اننا لم ننتصر بكثرة العدد فقد لقينا ملككم هرقل وقد علمت بما كان" فعرف المقوقس صدق قوله ونصح الناس بالاذعان فلامه الناس على خوفه وخيانته وأبوا إلا القتال . وكل هذا خيال محض فقد كان المقوقس منذ زمن فى المنفى وهذه القصة انما هى صدى ما حدث فى حصن بابليون وقد كان بعض الروم والقبط يلحقون بالعرب أفرادا ولكن جماعتهم لم تساعد العرب ولم تنضم اليهم .

عظيمة وهدموا كثيرا منها ليأخذوا خشبها وما فيها من حديد، وأرسلوا ذلك فى سفن بالنيل إلى حصن (بابليون) كى يقيموا به جسرا ليعبروا عليه إلى مدينة لم يستطيعوا من قبل أن يعبروا إليها[(١)] .

ولم تكن السرية التى سار بها عمرو بن العاص فى مصر السفلى سرية كبيرة، فما كان يتوقع كيدا كبيرا ولا قتالا شديدا اللهم إلا عند البلاد المحصنة، ولم يكن فى الوقت متسع لحصارها لو شاء . وكان عمرو إنما يريد القفول إلى (بابليون)، ولكنه أحب أن يعلم أهل مصر السفلى بقربه ويشعرهم شوكته . فسار إلى كريون ومن ثم إلى دمنهور ثم سار إلى الشرق يجوس خلال الإقليم الذى يعرف اليوم باسم الغربية ، حتى بلغ (سخا) . وكان ذلك الموضع إلى شمال المدينة الحديثة (طنطا) على نحو اثنين وعشرين ميلا منها، وقد ظل إلى ما بعد ذلك الوقت بزمن طويل وهو قصبة الإقليم، وكان موضعا حصينا[(٢)] . ولم يفلح عمرو فى تحقيق ما كان يريده من النزول على تلك المدينة بغتة وأخذها على غرة، ورأى العرب أنفسهم مرة أخرى وقد عجزوا عن أخذ مدينة تحيط بها الأسوار وتكتنفها المياه . فساروا نحو الجنوب ولعلهم اتبعوا (بحر النظام) حتى بلغوا (طوخ) وهى على نحو ستة أميال فى الشمال الغربى من موضع

(١) نقلنا هذا عن حنا النقيوسى الفصل الخامس عشر بعد المائة وقد أساء تأويل هذا وصححه زوتنبرج وهو مخطئ (فى هامش ١ صفحة ٥٦٢) فقد قال زوتنبرج ان الواجب تصحيح العبارة الآتية "فذهب عند ذلك ولحق بجنده الذين كانوا فى حصن بابليون وحمل اليهم الغنائم التى غنمها من الاسكندرية وكان قد هدم مساكن أهل الاسكندرية الذين هربوا" وجعل لفظ (بابليون) بدلا من "حصن بابليون" ولكن القول الأخير لا خطأ فيه فقد كان العرب يملكون الحصن . ثم قال ان قوله "الغنائم التى غنمها من الاسكندرية" وقوله "أهل الاسكندرية" خطآن آخران فى الترجمة . ولكن الغنائم التى أخذت من ضواحى الاسكندرية يصح أن يقال إنها أخذت من الاسكندرية وليس من تعسف فى أن نسمى الناس الذين يسكنون ضواحى الاسكندرية من " أهل الاسكندرية " ونتفق مع زوتنبرج فى أن نقول إننا لا نستطيع فهم القول الذى يصف الغرض الذى أخذ له الخشب والحديد فلا يمكن أن يكون المقصود من "مدينة النهرين" هو جزيرة الروضة بل لابد أن يكون ذلك بلدا فى مصر السفلى ولا بد أن يكون من الضرورى للوصول اليها أن تقام جسور .

(٢) جاء فى ياقوت أن سخا حصن كورة الغربية وفيها مقام الوالى وقد فتحها خارجة بن حذافة عند فتح عمرو لمصر (الجزء الثالث صفحة ٥١) ولكن خارجة كان قائدا على الحصن "بابليون" وقد قال حنا النقيوسى بوضوح صفحة ٥٦١ إن عمرا لم يستطع أن يحدث أثرا ما فى سخا عند ذلك ولم يفتحها إلا فيما بعد . وسخا من المواضع القليلة فى مصر السفلى التى ذكرها العرب وحنا النقيوسى جميعا .

(طنطا). ومن (طوخ) ساروا إلى (دمسيس)[١]، وقد ارتدوا كذلك عن هاتين القريتين ولم يستطيعوا فتحهما ولم يجد أهلهما مشقة فى صد العرب . ويرد مع هذه الأخبار ذكر غزوة للقرى التى على فرع النيل الشرقى، قيل إن العرب قد بلغوا فيها مدينة دمياط، ولعل تلك الغزوة كانت على يدى سرية عمرو فى هذا الوقت نفسه . ولم يكن من أمرها غير إحراق المزارع، وقد أوشكت أن ينضج ثمرها، فلم تفتح شيئا من المدائن فى مصر السفلى . ولنذكر أن العرب قضوا فى عملهم فى هذا الإقليم اثنى عشر شهرا[٢] إلى ذلك الوقت . وبعد تلك الغزاة التى أوقع فيها عمرو بالبلاد وغنم منها عاد إلى حصن (بابليون) ومن معه دون أن يجنى كبير فائدة، وإن لنا لدلالة فى غزاته تلك فى مصر السفلى، وما لاقاه فيها من القتال فى مواضع كثيرة، وعجزه فى جل ما حاوله من الفتح فى بلاد الشمال القصوى . فان ذلك يزيدنا برهانا على ما تحت أيدينا من البراهين على فساد رأيين يذهب إليهما الناس : أولهما أن مصر أذعنت للعرب بغير أن تقاتل أو تدافع، وثانيهما أن المصريين رحبوا بالفاتحين ورأوا فيهم الخلاص والنجاة مما هم فيه .

(١) قال حنا النقيوسى فى وصف هذا الأمر : ’’وسار الى سخا والى (طوخو — دمسيس)‘‘ (ترجمة زوتنبرج) ويزعم أميلنو أن الاسم الأخير تحريف فى اللغة الاثيوبية بخلط الاسمين العربيين ’’طوخ‘‘ و’’دمسيس‘‘ بأن جعل حرف العطف (الواو) آخر حروف الكلمة الأولى (Geog. Copte) صفحة ٥٢٥ وهذا قول مقنع . وأما طوخ فان فى مصر السفلى على الأقل ست قرى بهذا الاسم طوخ الاكلام فى الدقهلية، وطوخ دلكه، وطوخ بلفطه، وطوخ طنبشا فى المنوفية، وطوخ الملك فى القليوبية، وطوخ مزيد فى الغربية؛ ولعل الأخيرة هى المقصودة هنا نظرا لموضعها . وأما (دمسيس) واسمها الآن (ميت دمسيس) فعلى نحو ستة أميال الى شرق طوخ مزيد وهى على الجانب الشرقى لفرع دمياط وقد جاء اسمها خطأ فى خريطة الدومين (١٨٨٨) للوجه البحرى فجعلت هناك (ميت رمسيس) بالراء وهى غلطة عجيبة وقد أوردها (نيبور) على الصورة الصحيحة (ميت دمسيس) أنظر كتاب (Voyage en Arabie Etc.) صفحة ٧١ الجزء الأول .

(٢) جاء فى ديوان حنا النقيوسى أن عمرا ’’قضى اثنتى عشرة سنة فى حرب المسيحيين فى شمال مصر السفلى ولكنه أخفق فى فتح بلادهم (ترجمة الدكتور شارلس) ويزعم زوتنبرج أن المقصود لا بد أن يكون سنتين بدل اثنتى عشرة سنة ولكن هذا يكون خطأ فى تاريخ الحوادث ولكنا اذا قرأنا اثنى عشر شهرا بدل اثنتى عشرة سنة كان التاريخ صحيحا فان الوقت كان عند ذلك شهر يوليه سنة ٦٤١ وقد بدأ القتال فى مصر السفلى لفتح بلادها بعد وقعة هليوبولس وكانت فى يوليه سنة ٦٤٠

الفصل العشرون

حـــــوادث القســـطنطينية

آخر أيام هرقل — قسطنطين وهرقل الثانى يليان الأمر مع الامبراطورة — رجوع قيرس من المنفى — موت قسطنطين — عصيان فلنتين — خطة إرجاع قيرس الى الاسكندرية — البواعث التى دفعت قيرس الى الاذعان للعرب — تولية قنسطانز — مرتينة ترى الصلح مع المسلمين — تيودور وقيرس يرجعان الى مصر — خطة تيودور فى الحرب الى ينطابوليس وحبوطها — نزولها فى الاسكندرية

فيما كانت هذه الحوادث التى نصفها تجرى فى مصر كانت القسطنطينية تشهد من الغير أجلها . ولقد أشرنا من قبل إشارة موجزة الى موت هرقل وقلنا إنه حدث فى آخر أيام حصار بابليون . وقد كان منذ وداعه المحزن لبلاد الشام فى سنة ٦٣٦ يقيم فى عزلة فى مدينة (خلقيدونية) ، وجعل يسترجع قوة عقله شيئا فشيئا بعد أن كان قد مسه شيء من الخبل من قبل ، حتى لقد استطاع بعد أن يعالج أمور دولته فى أوربا ويحل مشكلاتها ، مبديا فى ذلك شيئا مما عهد فيه من الكياسة و إصالة الرأى فى أمور السياسة . ولكن جسمه كان قد اعتل ، وزاد فى سقمه وآلام دائه ما كان ينتاب الدولة من المصائب والنكبات تلى إحداها الأخرى . فمصائب فى الشام تليها نكبات فى مصر ، ورأى الدولة وقد فقدت بيت المقدس ثم أنطاكية وقيصرية ، ثم نزعت كل بلاد الشام عنها وأخذها العدوّ . فأحب أن يخلص مصر من ذلك العدوّ لما يعرفه من عظم شأنها فى دولته . وكانت الحرب الطاحنة التى استمرت طوال السنين قد استنزفت أموال الدولة ورجالها ، ولكنه كان لا يزال يستطيع أن يبعث من جيوشه وخزائنه المنتقصة أمدادا كبيرة للدفاع عن النيل . ويقول مؤرخو العرب إنه كان عازما على قيادة تلك الجيوش بنفسه[(١)] ، غير أنهم إذ يقولون ذلك لا يذكرون أن

(١) مثل السيوطى فانه يقول "ورسل ملك الروم تختلف الى الاسكندرية فى المراكب بمادة الروم وكان ملك الروم يقول لئن ظفرت العرب على الاسكندرية أن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم لأنه ليس =

غزو مصر لم يقع إلا قبل موته بسنة تزيد قليلا، وأنه كان عنـد ذلك صريعا لدائه الذى قضى عليه، وقد سلبه السقام قوّته ونشاطه إذا لم نقل إنه قد سلبه القدرة على الحركة ذاتها. ثم مات الامبراطور فى يوم الأحد الحادى عشر من فبراير من سنة ٦٤١ (١) بعد أن حكم إحدى وثلاثين سنة وكان عمره إذ ذاك ستة وستين عاما، وكانت وفاته قبل فتح حصن بابليون بشهرين .

وهكذا ختمت تقلبات عجيبة الحوادث فى حياة عظيمة . وكان هرقل يقصد فى حياته قصدا، وذلك أن يعيد بناء ماتهدّم من الدولة الشرقية. وكان لا أمل فى نجاحه عند ما ابتدأ ذلك العمل، غير أنه أتمه أوخيل إلى الناس أنه أتمه، وكان إتمامه إحدى العجائب التى قد تبلغ حدّ الإعجاز. ولكن فشله ابتدأ حيث كان انتصاره، فان البناء

= للروم كنائس أعظم من كنائس الاسكندرية وإنما كان عيد الروم حين غلبت العرب على الشام بالاسكندرية (يقصد عيد الفصح) فقال الملك لئن غلبوا على الاسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكها فأمر بجهازه ومصلحته لخروجه الى الاسكندرية حتى يباشر قتالها بنفسه إعظاما لها وأمر ألا يتخلف أحد من الروم وقال ما بقى للروم بعد الاسكندرية حرمة فلما فرغ من جهازه صرعه الله فأماته وكفى المسلمين مؤنته" (صفحة ٧٠) .

ونفهم من التاريخ الذى أورده ومن سياق كلامه أنه يقصد هرقل الأكبر .

(١) يمكن أن نعتمد على ثبوت هذا التاريخ ولكن الاضطراب المعهود ماثل فى هذا الأمر مثوله فى غيره فقد قال تيوفانز وقيدر ينوس إن التاريخ هو ١١ مارس فى السنة الرابعـة عشرة من سنى الدورة القسطنطينية بعد أن حكم ثلاثين عاما وعشرة أشهر وهـذا مستحيل لأن حكمه ابتدأ فى أكتوبر والديوان الشرقى يجعل موت الامبراطور فى ٩ فبراير أو (١٥ أمشير) بعد حكم احدى وثلاثين سنة وخمسة أشهر والتاسع من فبراير يقع حقيقة فى ١٥ أمشير ولكن مدة الحكم التى ذكرها اذا أحصيناها نجد آخرها فى مارس سنة ٦٤٢ ولكن (نيقفوروس) يجعل مدّة حكمه ثلاثين سنة وأربعة أشهر وستة أيام بالضبط وقد ولى هرقل الأمر فى ٥ أكتوبر سنة ٦١٠ "Later Rom. Emp." (الجزء الثانى صفحة ٢٠٦) . فاذا أحصينا تلك المدّة التى جاء بها نيقفوروس من أوّل حكمه كان موته فى ١١ فبراير سنة ٦٤١ وكان هذا يوم أحد وهو ما يقوله الديوان الشرقى فى حين أن ٩ فبراير الذى جاء فى هذا الديوان كان يوم جمعة . وقد جاء التاريخ الصحيح فى (ليبو) ولكن ناشر كتابه (Saint Martin) وكتابه هو (Histoire du Bas Emp.) علق تعليقا فى صفحة ٢٨٣ من الجزء الحادى عشر فضل فيه التاريخ المخطئ الذى جاء به تيوفانز وقيدر ينوس وقال "ولما كان المؤرخون لم يورد أحد منهم التاريخ الصحيح كان لا بد أن ما جاء فى هذا النص تاريخ مخطئ" ويجدر بنا أن نضيف بعد أن حنا النقيوسى يقول إن موته كان فى شهر (يكاتيت) وهو فبراير عند الروم ويقول انه كان فى العام الرابع عشر من سنى الدورة وسنة ٣٥٧ للشهداء، وهو تاريخ دقيق فى كل ما جاء فيه .

الذى أقامه لم يكن متماسك الأجزاء، وكانت جريرته فيه أنه أخطأ وضل، فحل ما كان يجدر به عقده، وقطع ما كان يجب عليه أن يصله من أواصر التعامل والاشتراك بين الناس فى حياتهم، ومن روابط الدين. وكانت تلك لعمرى روابط كفيلة بأن تجمع الناس وتوحد كلمتهم لو أحسن الحاكم وتسامح فى حكمه، وأباح للناس مايشاءون من أمور دينهم. وإن من أعجب ما اتفق وقوعه فى التاريخ أن يقع خطأ هرقل فى سياسته فى الوقت الذى قامت فيه دعوة الاسلام الجديد فى مجاهل بلاد العرب. ولكن هكذا جرت مشيئة الله فى قدره وقضائه فى العالم. وعاش هرقل حتى تبدى له خطؤه الذى قارفه، أو لقد استطالت به الأيام كى يندب سوء حظه الذى أفسد عليه أعماله وأحاط بثمارها. وقد كان فى أمور الدين يسير على ما تعارف عليه الناس فى زمنه، وكان فى ذلك سوء حظه، إذ لم يرتفع فوق ذلك ولم يبتدع فى سياسة الدين خطة جديدة تصلح لعصره وما جدّ فيه من الأحوال. وإنه لجدير بنا أن لانلومه بل نرحمه ونعطف عليه لما لحق به من الفشل، وحسبه ما لابد قد لاقاه من غصة الندم فوق ما كان به من ألم الداء فى آخر أيامه. وقد عهد قبل أن يموت بما يؤول اليه الأمر بعده، فجعل ابنه قسطنطين يقسم الأيمان على أن يعفو عمن كانوا فى السجن والنفى، وأن يرجع كل طريد طرده.(١) ودفن الامبراطور فى كنيسة (الرسل المقدّسين) وبقى قبره مفتوحا ثلاثة أيام، وقد جعل مع جثمانه تاجه الذهبى فنزعه قسطنطين عنه ثم أعاده اليه. هرقل الثانى ووهبه للكنيسة(٢).

ولى الأمر بعد هرقل بعهد منه ولداه، قسطنطين ولد زوجه (أودوقية)، وهرقل ابن زوجه الأخرى مرتينه، وجعلت الامبراطورة شريكة لهما، ولكن ذلك الاشتراك لم يكن مما يتيسر الحكم معه، وما كانت الإمبراطورة مرتينه لترضى بمثل هذا الاشتراك فى الحكم وهى من هى، ذات العزم القاطع التى حكمت الدولة لايكاد يشاركها أحد

---

(١) سبيوس.

(٢) نيقفوروس وهو الذى قال إن التاج قدر بسبعين رطلا من الذهب.

فى أواخر أيام زوجها . وكان قسطنطين أكبر الأخوين وآثرهما عند الناس ، وكان من حزبه خازن الدولة (فلاجريوس) و (قلنتين) الذى جعل عند ذلك قائدا ، وبعث ليكون قائد الجند فى آسيا الصغرى[١] ، وعلى ذلك لم توفق مرتينه فى سعيها فى أمر ولدها هرقل أو (هرقلوناس) كما كانوا يسمونه تمييزا له ، بل وجدت فى سعيها ذاك مقاومة شديدة . وكان البطريق سرجيوس قد سبق الامبراطور إلى أجله ، واختير لولاية أمر الدين بعده راهب اسمه (پيروس) . ويلوح لنا أنه كان فى أوّل أمره مع قسطنطين ممالئا على مرتينه ، فبايع لقسطنطين بالملك ولم يشرك معه مرتينه ولا أحدا من أولادها[٢] . ولكن داود و (مارينوس) عملا على اختطاف (پيروس) وحملاه سرا إلى جزيرة فى غرب أفريقيا[٣] .

وقد قام قسطنطين بانفاذ أمر أبيه فأرسل أسطولا عظيما ليعيد (قيرس) من منفاه[٤] ، وكان يود الاجتماع به كيما يستشيره فى أمر مصر ، وكانت مرتينه تلح فى إرجاعه اذ كانت

(١) أخذنا هذا عن سبيوس وقد علق الأستاذ (بيورى) على ذلك بحق بقوله "ويخيم على تاريخ خلفاء هرقل ستار كثيف من الظلمة " ويأسف لأنه ليس ثمت مؤرخون ممن كانوا يعيشون فى ذلك الوقت (Later Rom. Emp.) (الجزء الثانى صفحة ٢٨١) ولكن سبيوس وحنا النقيوسى يكادان يكونان معاصرين وكلاهما يذكر طائفة عظيمة من أخبار هذا العصر وكان سبيوس بلا شك يكتب على الأكثر أخبار أرمينية . وأما حنا فقد كان ميدان أخباره واسعا غير أن معظم عنايته كان بأخبار مصر بطبيعة الحال وكلاهما على أى حال صعب على الافهام .

(٢) حنا النقيوسى صفحة ٥٦٤ وعبارته واضحة ولكنها تناقض ما يقرره التاريخ وعلى ذلك كان (بورى) يقول ان "مرتينه كانت على وفاق وثيق مع البطريق المونوثيلى (پيروس) أنظر الكتاب السابق الذكر صفحة ٢٨٢ ولا بد أن يكون (پيروس) قد غير رأيه ودخل فى حزب غير حزبه الأول فقد أورد حنا نفسه صفحة ٥٧٩ خطابا قيل انه أرسل من مرتينه وپيروس الى داود (المترجويم) يحرضانه على قتال الفرع الأكبر من أسرة هرقل .

(٣) لعل المقصود هو (مالطة) أو (جوزو) .

(٤) قال المستر بروكس فى مقالة له فى (Byzantinische Zeitschrift) تعليقا على هذه الفقرة من كتاب حنا (١٨٩٥ صفحة ٤٤١) ان الأسطول انما أرسل لاحضار قيرس من القسطنطينية الى خلقيدونية ولكن كلمات حنا هى "بجمع قسطنطين عددا عظيما من السفن وأرسلها بقيادة قيريوس وسلاكريوس لاحضار البطريق قيرس اليه" ومن المحقق أن مثل هذه الرحلة القصيرة لا تدعو الى أسطول كبير فلا بد أن قيرس كان فى منفاه واذا كنا لا نعرف أين كان ذلك المنفى فانا لا نشك فى أنه كان منفيا . ويعزو حنا استرجاع قيرس الى مرتينه فهى التى حرضت قسطنطين على ذلك بغير شك .

عالمة بما ينطوى عليه قلبه من الولاء لها والمواتاة فى مقاصدها وأمانيها . ولا نعرف عن يقين متى كان اجتماع قسطنطين (بقيرس)، ولا ما انتهى اليه أمر ذلك الاجتماع، لأننا لا نعرف أين كان منفاه ولا المدّة التى استغرقها رجوعه من ذلك المنفى إلى عاصمة الدولة . وقد دعى كذلك (تيودور) من مصر لكى يشير على الامبراطور بما يراه، واستخلف (انستاسيوس)[1] على حكم الاسكندرية ومدائن الساحل التى لم يفتحها المسلمون الى ذلك الوقت . وكان من رأى (تيودور) ألا يدخل الروم فى أى صلح مع العرب، ومهما يكن من رأى (قيرس) ومشورته فى ذلك الأمر فقد استطاع تيودور أن يحمل الامبراطور على أن يعد بارسال أمداد كبيرة الى مصر فى أثناء فصل الصيف . ثم أمر الملك بتجهيز السفن لنقل الجنود وما كاد كل ذلك يعدّ حتى مرض قسطنطين مرضا مخطرا، وكان منذ ولى الملك يضعف جسمه ويعتل، ثم مات فى الخامس والعشرين من شهر مايو من سنة ٦٤١ بعد أن حكم مائة يوم . ولا نعرف هل مات الموت المعتاد أم قد فتك به غدرا على يد الامبراطورة مرتينة . وإن تهمة الفتك به لتردّد فى أخبار ذلك العصر[2]، وقد جهر بها ابنه قنسطانز فاتهم الامبراطورة معلنا .

أما مرتينه فقد اتخذت موت قسطنطين ذريعة توسلت بها إلى المبايعة لابنها (هرقلوناس) بملك الدولة ، وأرادت أن تملق الناس فأنفذت تعيد البطريق

(١) لقد تصرفنا هنا بعض التصرف فى قول حنا النقيوسى بأن بدلنا موضع الاسمين فقد جاء فى الأصل "أنه أرسل أمره الى أنستاسيوس ليأتى اليه وترك تيودور على حراسة الاسكندرية ومدائن الساحل" (صفحة ٥٦٤) ولكنا نرى أن هذين الاسمين قد بدل وضعهما : (١) لأن تيودور كان القائد العام ورئيس أنستاسيوس . (٢) لأنه جاء فى صفحة ٥٧٤ أن أنستاسيوس كان حاكم الاسكندرية فعلا قبل عودة قيرس . (٣) لأنه جاء فى صفحة ٥٧٣ أن تيودور كان مع قيرس فى رودس فى طريقه عائدا الى مصر .

(٢) يقول حنا أن مرض قسطنطين بدأ عند توليته ولكن موته كان من قىء دموى ولعله نشأ من انفجار عرق . ويوافق نيقفوروس على أن مرضه طالت مدّته والظاهر أن تيوفانز يتهم بيروس بتدبير موته مع مرتينه ولكن بيروس كان فى منفاه ولم يكن مع مرتينه فى تدبيرها ولعل المقصود هو قيرس فان هذين الاسمين كثيرا ما يختلطان (أنظر هامش زوتنبرج على صفحة ٥٦٤ من كتاب حنا) وأكبر الظن أن هذه التهمة لا أساس لها وقد جاءت فى سبيوس عبارة عجيبة اذ قال ان قسطنطين مات وقد خدعته أمه .

(بيروس) من منفاه . ولكن ذلك النصر الذى صادفته أثار فى قلوب الناس حقدا لم يلبث أن أشعل نار العصيان ، فما سمع (ڤلنتين) بما حدث من موت قسطنطين وماتبعه من عزل (فلاجريوس) ، حتى جاء بجيشه الى (خلقيدونيه) ، وكانت مرتينة هنالك ، وطلب اليها إرجاع (فلاجريوس) . وقد لقى مساعدة على طلبه ومواتاة من جند الامبراطورة ، ثم رضى به هرقلوناس وأقره فى خطاب ألقاه . غير أن ڤلنتين لم يقنع بما أصاب من النصر بل عبر المضيق مع (دومنتيانوس) وصحبهما جماعة من أعيان الدولة حتى بلغوا العاصمة ، فبايعوا لابن قسطنطين وهو (قنسطانز) الثانى وجعلوه شريكا (لهرقلوناس)(١) فى الحكم .

ويلوح لنا أن هرقلوناس كان قبل تلك الثورة التى ثارها (ڤلنتين) قد أعدّ العدّة لارجاع (قيرس) الى حكم الاسكندرية ، ولا بد أن المبايعة لقنسطانز كانت فى أوائل سبتمبر من سنة ٦٤١(٢) ، وذلك بعد أن سافر قيرس فى وجهه الى مصر . وكانت مع قيرس طائفة كبيرة من القسوس ، ولم ينقص شيئا من سلطانه الدنيوى بل أباح له الامبراطور أن يصالح العرب ، وأن يقضى على كل قتال بعد ذلك فى البلاد ، وأن يعمل على إقرار الأمر فيها وإدارة شئونها . وإنا لنلمح من ثنايا ما تقدّم به الامبراطور إليه أنه كان لا يزال يساوره الأمل فى أنه يستطيع الإبقاء على سلطان الدولة فى مصر ، ولكنه من غير شك قد حمل الامبراطور وهو غرير لا رأى له

(١) يقول سبيوس أن ڤلنتين قبض على مرتينه عندما وصل الى قسطنطينية وقطع لسانها وقتلها وقتل معها أولادها وألبس قسطنطين الأصغر التاج . و يقول حنا النقيوسى (صفحة ٥٨٠) ان الجند ثاروا فى بيزنطة يقودهم تيودور وهو الذى قبض على مرتينه وأولادها الثلاثة ورمى عنهم التيجان وجدع أنوفهم ونفاهم الى رودس وهاتان الروايتان مختلفتان ولكنهما تصفان ثورة ڤلنتين الثانية التى كانت فيما بعد والظاهر أن سبيوس يقول ان (ڤلنتيان) و (ڤلنتين) كانا شخصا واحدا (الفصل الثانى والثلاثون) ولكن الأستاذ (بورى) يشك فى ذلك فى كتابه (Later. Rom. Emp.) (الجزء الثانى صفحة ٢٨٧) ولكنا نظن أن أسبابه ليست وجيهة فى ذلك .

(٢) يدلل المستر بروكس (الكتاب الأول صفحة ٤٠٤ هامش ٢) على أن مجمع رومه الذى عقد فى ٥ أكتوبر سنة ٦٤٩ قيل عنه إنه كان فى السنة التاسعة من حكم (قنسطانز) ولكن قنسطانز لم يتوج على أنه الحاكم وحده على الدولة إلا بعد ذلك فى نوفمبر .

على الإذعان للعرب والتسليم لهم، كما حمل على رأيه هذا مجلس الشيوخ المستضعف، ورجال البلاط وهم من أهل العجز والخور. ولا ندرى أكان فى ذلك يصدر عن نية طاهرة أم كان يرمى عن مكر وخديعة. ومن الجلى فوق ذلك أنه استمال الامبراطورة مرتينه الى رأيه الضعيف، لا سيما وقد كان أنصارها ممن يرون مصالحة العرب مهما كلفهم الأمر، وكانت هى أبدا فى سياستها ترمى الى التسليم والإذعان، وذلك رأى قيرس الذى ظل يجاهر به فى كل حين.

أما ما كان يجول فى قرارة نفس ذلك البطريق من مختلف النزعات فأمر لا يصل اليه الحدس ولا يبلغه التصور، فقد أظهر الجبن والضعف اذا لم يكن قد أظهر الخيانة منذ أشهر عدّة، قبل أن ينقسم الناس ويتفرّقوا شيعا فى أمر ولاية الملك بعد قسطنطين، ذلك التفرّق الذى كاد يبلغ حدّ الحرب الأهلية. فماذا كان الدافع له على الفرار من ميدان أعماله، وإن شئت قلت الهروب من جرائر سعيه. فقد قضى عشر سنين وهو يعسف بقبط مصر حتى بدا منهم ما يشبه الاذعان، ولكنه كان يعرف أنهم لن يلبثوا أن يعودوا الى عقيدتهم اذا ما رفع عنه وطأته. فهل كان قد أدرك عند ذلك أن سياسته فى العسف والاضطهاد كانت جناية لم تلق نجاحا؟ إنه لا شىء أبعد عن الحقيقة من تصوّر هذا. وإنه لأقرب الى الحقيقة أن نقول إنه قد أيس من أمر الدولة فى مصر منذ رأى ما حل ببلاد الشام. ومنذ بلغ به اليأس ذلك المبلغ عوّل على أن يسعى لكى يباح مذهبه الدينى فى مصر، لا بل سعى الى أكثر من ذلك، فقد طمع فى أن يثيبه المسلمون على مساعدته لهم بأن يبسطوا يده على الكنيسة القبطية فى مصر، ويكون عند ذلك مالكا للأمر ليس لأحد فى القسطنطينية سلطان عليه.

إذن كان (قيرس) يريد أن يزيد فى سلطانه الدينى بالإسكندرية، ويقيمه على إطلال الدولة بعد خرابها. ولسنا نجد رأيا آخر أكثر ملاءمة لما بدا منه، فهو خير رأى نستطيع به أن ندرك ما كان بينه وبين عمرو من صلات خفية، وما قارفه من

خيانة دولته الرومانية . فلنصفه بأنه كان خائنا للدولة فى سبيل ما توهمه صلاحا للكنيسة .

وقد قنع بأن يتبع خطوات الإمبراطورة أو أن يشير عليها برأيه، وخالف أمر دينه وهو يحظر أن يلى الملك من ولدوا من زواج غير مباح وأن والدليل واضح على أن قيرس عاد الى مصر ومعه جيش قد أعدّ إمدادا لجند مصر يساعدهم على قتال العرب، اذا لم يسفر الأمر عن صلح معهم، ولعل ذلك الجيش قد أرسل معه ليكون قوة لحزب الامبراطورة بين جند مصر . وأرسل معه قائد جديد لمسلحة الشرطة اسمه قسطنطين ليحل محل القائد المعزول (حنا) . وأما (تيودور) فانه بين أحد أمرين: إما أن يكون قد رحل فى الوقت عينه الى مصر، و إما أن يكون قد ذهب الى جزيرة (رودس) عند مقدم (قيرس) وأقام بها حتى يوافيه البعث فيلحق به . وكانت الامبراطورة (مرتينه) بتلك الجزيرة كذلك، ولا ندرى علة مقامها فيها أكان ذلك هربا من وثبة (ڤلنتين) وظهور أمر ثورته، أم كان عن ذعر أصابها عند ما علمت بمبايعة (قنسطانز) . ولعلها أرادت أن تجتمع (بقيرس) و (تيودور) كى يشيرا عليها بما يريانه فيما جدّ من الحوادث . وعلى أى حال فقد كانت قمينة أن يقلق بالها لما كان حولها من اختلال الأمور فى العاصمة، واختلاف الكلمة واضطراب الأحوال بين رجال الحاشية .

وقد كان ڤلنتين فى كيده وغدره عدلا (لقيرس)، لا يتورّع فى وسيلة ولا يقف عند حدّ . وكان قد سبر قلوب الجند وفحص عما للامبراطورة فيها، فألفى أن الكثيرين لا يحملون لها إلا نفاقا ورياء، وأن حبها والإخلاص لها لم يتغلغل فى نفوسهم . ووضع يده فى خزائن (فلاجريوس) فأنفقها فى العطاء لجند مصر يستميله اليه، وأوقع بينهم الفرقة والعداوة فجعلوا بأسهم بينهم، وكفوا عن قتال المسلمين . فكانت الحرب الأهلية على ذلك قد اشتعل لهيبها، ولم تكن بحرب بين القبط والروم[1]، بل بين طائفتين من

(١) أنظر ماسبق فى صفحة ٢٤٩

جيش الدولة. وكان (تيودور) ذا شأن عظيم فى عين الثائرين، وكان لا بدّ لهم أن يستوثقوا من أنه معهم وأنه لن يعين الإمبراطورة . ولم يكن ثمت شيء يستحيل فى مثل تلك الحال المضطربة وما فيها من مكائد ومكر. وكان (تيودور) يخفى فى نفسه آمالا يتمنى أن يحققها، فجاءته فى (رودس) رسالة فى السر بعث بها اليه (ڤلنتين) يحضه على أن يخذل الإمبراطورة وينقض ماعقد لها من ولائه، وعلم أن (ڤلنتين) قد بعث بمثلها الى (پنطاپولس) والى سائر بلاد الدولة، ورأى أن يد الكيد تعمل فى التفريق بين الجنود الذين جاءوا الى مصر مع (قيرس)، فأعمل الفكر فى أمره حتى استقر به على أن يقطع اتصاله بالإمبراطورة ويرحل خفية الى (پنطاپولس) . ولسنا ندرى ما الذى دفعه الى هذا العزم، فقد يكون أراد الإعتزال والإبتعاد عن العواصف المقبلة، وقد يكون أراد التشبه بهرقل فى المخاطرة بنفسه فى سبيل التاج، فيقيم دولة جديدة فى قرطاجنة . وقد يكون اعتزم أن يستجم القوة ويجمع المال ويقف بالمرصاد لما تجلى عنه الحوادث، فمنذ كره أن يذعن للمسلمين أراد أن يستعد بجيش يهبط به عليهم من قرطاجنة . وكان تدبيره أن ينفصل فى ظلام الليل عن الأسطول الذى مع (قيرس)، ولم يعلم بذلك إلا ربان السفينة التى كان فيها . والظاهر أن ذلك الربان وعده بانفاذ ما أراد ثم ندم على وعده، وادعى أن الريح تصد السفينة عن المضى فى تجاه پنطاپولس . ففشل تدبير (تيودور) ورأى نفسه مع سائر السفن مصاحبا (لقيرس)(١) فى ميناء الاسكندرية، قبل أن يطلع نهار (يوم الصليب المقدّس)، وذلك فى الرابع عشر من سبتمبر من سنة ٦٤١

(١) قد عالجنا مسألة تاريخ عودة قيرس ووصوله الى الاسكندرية فى الذيل الذى كتبناه عن تاريخ الفتح العربى وقد وجدنا بعد كتابته أدلة جديدة تدعم اعتقادنا أنه جاء مع تيودور فى اليوم الذى ذكرناه ومن المحتمل أن تيودر قد جاء على سفينة أخرى غير سفينة قيرس ولعله تسلل من رودس بغير أن يخبر قيرس بخطته فاذا صح ذلك فلا بدّ أن تكون سفينة قيرس قد لحقته فى طريقه .

الفصل الحادى والعشرون

تسليم الاسكندرية

الحرب الأهلية بمصر — الاضطرب فى العاصمة — وصول قيرس — موكبه الحافل الى القيصريون — خطبته هناك — استئناف اضطهاد القبط — رحلة قيرس الى بابليون فى السر — أحوال مصر العليا — اجتماع قيرس وعمرو — يوافق قيرس على تسليم المدينة — صلح الاسكندرية — شروط ذلك الصلح بحسب مختلفة الروايات — رواية حنا النقيوسى — النص العربى وتعليق المؤرخين العرب عليه

حدث فى أثناء غياب قيرس فى منفاه أن ثارت بمصر فتنة بين الناس، يتقد لهيبها بين حين وحين، فثار القتال مرة بين أهل كورة مصر وأهل الكور التى فى الشمال، ثم عاد السلام بينهم بعد أحداث كثيرة، وما كاد الأمر يستقر حتى استعر القتال فى العاصمة ذاتها . وكان كبار الروم أحزابا وشيعا، تباعد بينهم الإحن و يغرى بينهم التحاسد . وكان حرص كل من الحزبين الأخضر والأزرق على القتال فيما بينهم أعظم من حرصهم على حرب العدو الرابض عند أبواب مدينتهم . فكان (دومنتيانوس) الذى أسلم الفيوم و (نقيوس) يناصب (ميناس) العداء وينافسه فى التطلع الى القيادة العامة فى الجيش، وكان (ميناس) يحقد على (أودوقيانوس) أخى (دومنتيانوس) لما كان منه من شنيع الأفاعيل بالقبط الذين كانوا فى حصن بابليون[1] فى يوم عيد الفصح المشهور، وكان (تيودور) لا يزال غاضبا على (دومنتيانوس) لما كان من جبانته فى الهروب من (نقيوس) تاركا جيشه ومتخليا عن واجبه . وأنه لمن العجيب أن يبقى (دومنتيانوس) فى منصبه لم يؤاخذ أو يقتص منه بالقتل، فليس غضب رئيسه

---

(١) وهذا يدل بغير شك على أن ميناس كان قبطيا أو أنه كان يميل الى القبط وميناس هذا الذى ذكره حنا (صفحة ٥٧٠) لابد أن يكون غير ميناس حاكم مصر السفلى فى أيام هرقل (صفحة ٥٧٧) وقد وصف بأنه كان يكره القبط وهذا الاختلاف فى الميول دليل قاطع على أن الأسماء لا تدل على شىء من ميول الناس بكونها أسماء قبطية أو غير قبطية .

عليه بالجزاء الوفاق على ما جناه . ولعله لم ينج مما كان يحق عليه من القصاص إلا لمحاباة الامبراطورة له ولقرابته من قيرس إذ كان صهرا له بزواجه من اخته . على أن (دومنتيانوس) لم يرع فى (قيرس) إلا ولا صداقه، ولم يحفظ له جميلا ، إذ كان لا يظهر له إلا ازدراء وحقدا غلب عليه عقله . وكان معه الحزب الأزرق، فاتخذ من رجاله عصبة استعان بها فى نضاله ، فلما رأى (ميناس) ذلك استعدّ له بمثل عدّته فاتخذ من الحزب الأخضر له عصبة .

وفيما كان الأمر على هذا التحرّج المخطر، نزل الى الاسكندرية رجل اسمه (فيليادس) وكان حاكم الفيوم وأخا (لجورج) وهو سلف (قيرس) على بطرقة المذهب الملكانى . وكان (ميناس) قد أحسن الى (فيليادس) ولكنه أساء جزاءه، وكان (فيليادس) فوق هذا مقارفا للخيانة إذ كان يضع يده فى الأموال العامة، وكان الجند يكرهونه كراهة تعدل حبهم (لميناس) . ولم يمض زمن طويل حتى اشتدّ الأمر وتأزمت الأزمة ، ففيما كان (ميناس) يوما يصلى باخوانه الأقباط فى الكنيسة الكبرى كنيسة (قيصريون)، إذ ثار أهل المدينة بفيليادس يريدون قتله . ولكنه فرّ منهم ولجأ الى منزل صديق له فاختبأ فيه ، فذهب الثائرون الى بيته فنهبوه وأحرقوه ، وكانوا من الحزب الأخضر، وعند ذلك أخرج (دومنتيانوس) اليهم عصبته من الحزب الأزرق، والتقت العصبتان فى قتال شديد فى طرق المدينة فقتل منهم ستة وجرح كثيرون ، ولم يستطع (تيودور) أن يقضى على الفتنة إلا بعد مشقة وعناء . وبعد أن انتهى الأمر أعيد الى (فيليادس) ما سلب منه ، وعزل (دومنتيانوس) من مرتبته فى الجيش . ولكن يلوح لنا أنه أعيد فيما بعد الى ما كان عليه، وذلك بعد أن أمر (تيودور) بالعودة الى القسطنطينية . فالحقيقة أن (دومنتيانوس) كان مع عداوته لقيرس يرى رأيه فى السياسة، وكانا كلاهما سواء فى تقريب الامبراطورة والحظوة عندها ، وكان كلاهما يشير عليها ويزين لها رأى الإذعان للعرب .

ولنذكر هنا أن (حنا النقيوسى) يصف نضال الأحزاب فى الاسكندرية وكأنما يقر بأنه عاجز عن إدراك أسبابه . فان سياق قوله يدل على أن منشأ ذلك النضال كان بعضه من عداوات خاصة، وبعضه كان من أثر الشيع السياسية . على أنه يذكر بعد ذلك أن بعض الناس يذهبون الى أن اشتداد ذلك النضال واستعار لهبه إنما يرجع الى اختلاف المذاهب الدينية . ولكنه لا يوضح الأمر ولا يجلو الظلمة عن حقيقة ذلك النضال، فلا ندرى أكان بين (المونوفيسيين) و (الملكانيين)، أم كان بين (الملكانيين) و (المونوثيليين)، أم بين اليهود والمسيحيين، فالحق أن الأمر مشكل لا يستبين المرء فيه وجها للرأى، ولكنا إذا ذكرنا أن كثيرين من أهل مصر السفلى والصعيد أتوا الى الاسكندرية لاذين، وإذا ذكرنا أن (حنا النقيوسى) يروى لنا خبر اجتماع القبط بكنيسة (القيصريون) للصلاة[1]، إذا ذكرنا ذلك أمكن أن نقول إن عدد القبط فى الاسكندرية زاد فى ذلك الوقت زيادة كبرى، وأنهم استطاعوا أن يتنسموا شيئا من نسيم الحرية وأن يعود الى نفوسهم شىء من القوة منذ غاب المقوقس عنهم فى منفاه، وارتفع عنهم عسفه واضطهاده . فلعلهم عند ذلك شعروا من أنفسهم بالقوة فرموا سهمهم مع الرامين، يناصرون من أحبوا ويحاربون من كرهوا ويلقون بدلوهم فى دلاء الإسكندرية، التى كانت تضطرم من عداوة الأحزاب ونضالها . وإن تعجب فعجب أن يقرأ الانسان نبأ نزول المقوقس بالاسكندرية فى ذلك الصباح من شهر سبتمبر، وأن أهل المدينة طرا ملكهم الفرح فخرجوا "يظهرون سرورهم ويشكرون الله على عودة بطريق الإسكندرية[2]، وتوافد الناس من كل

(١) ما كان ليصف أية صلاة أخرى غير الصلاة القبطية بقوله «اجتماع المؤمنين» (صفحة ٥٧١).

(٢) هذه كلمات الدكتور شارل فى ترجمته للنص الأتيوبى . وليس أدل من هذا الوصف لعودة قيرس على نقاء ضمير حنا النقيوسى وقلة تحيزه ولقد كان من السهل عليه أن يصف مقابلة الناس له بالفتور أو أن يغفل ذكرها ولكن حنا يصفها بأنها كانت بحفاوة عظيمة وأن السرور لم يكن سرورا بمقدم قيرس شخصه بل بمقدم "بطريق الاسكندرية" صفحة ٥٧٤ ومن العجيب أن أميلنو يعلق على ذلك القول تعليقا يلوم فيه الكاتب على وصفه فيقول "وفيما عدا ذلك فانى فى عجب عظيم من حنا النقيوسى وهو الأسقف اليعقوبى اذ يصف قيرس بأنه بطريق الاسكندرية وهو الذى كان يجب عليه أن يذمه و يلعنه فى حين أن (بنيامين) وهو البطريق الحقيق فى نظره كان فى ذلك الوقت طريدا فى الصعيد (حياة البطريق القبطى إسحاق صفحة ٧١ XX) ولكنا نرى أن صراحة حنا تزيد من ثقتنا فيه واعتمادنا على أخباره كمؤرخ .

جانب يحيونه ويكرمونه من رجال ونساء كبارا وصغارا، فما كنت تسمع كلمة تخالف ولا همسة خوف . ولكن ما كان للقبط أن يدخل الى قلبهم فرح بمقدم (المقوقس)، بل ما كان لهم أن يبقى أمل فى قلوبهم من وراء عودته . ولا يسعنا على هذا إلا أن نذهب الى نتيجة من هذا القول، وذلك أن القبط ما كانوا فى الاسكندرية مهما بلغ عددهم إلا فئة قليلة ضائعة بين أهلها الكثيرين لا يحس أحد بها .

أما قيرس فانه عمد قبل أن تصحو المدينة و يذيع بين أهلها نبأ مقدمه، فذهب سرا مع (تيــودور) الى دير رهبان (التبنيسى) ولعله كان قريبــا من الموضع الذى نزل فيه من البحر (١) . وأمر باقفال باب الدير، وأنفذ الى (ميناس) يدعوه للحضور الى الدير، فلما جاء جعله (تيودور) قائد مسلحة المدينة وعزل (دومنتيانوس) عن تلك القيادة، فأسرع أهل المدينــة الى إخراجه منها . وكانت عودة قيرس فى مثل اليوم الذى أقيم فيه الاحتفال بإعلاء الصليب، وقصد بذلك أن يعيــد الى نفوس جنــد الروم ما ضاع من قوتها، وقد بذل الجهد فى الانتفاع بتلك الذكرى ما وجد الى ذلك سـبيلا . ولنذكر أنه عندما بعث حنا قائد الشرطة الى مصر وقد وجهه إليها هرقل يحمل المذهب الدينى الشهير الى (قيرس) حمل معه الى البطريق صليبا من أجل الصلبان شأنا، لعله كانت فيه قطعة من الصليب الأعظم نفسه (٢)، وقد أودع هذا الأثر الثمين فى دير رهبان (تبنيسى) . فلا عجب اذا حمله (قيرس) فى موكبه الى الكنيسة العظمى كنيســة (القيصريون) ، التى أقيمت فيها صلاة التحية . وقــد فرشت النمارق فى طريق ذلك الموكب من الدير الى الكنيسة ، وكانت الرايات والألوية من الحرير تخفق فوق رأس (قيرس) إذ يســير بين عبق البخور وترتيــل

(١) كان (Tabennesi) موضعا على عشرة أميال من (Tentyris) وهى (دندرة فى الصعيد) وكان مقر أخوة طائفة (الباخوميين) أنظر كاترمير (Mem. Geog. et Hist.) الجزء الأول صفحة ٢٨١ وأميلنو (Geog. Copte) صفحة ٢٦٩ وما ذكره هؤلاء من المؤلفات . ولقد كانت هذه الطائفة قبطية محضة ولكن الدير الذى كان فى الاسكندرية استولى عليــه قيرس وجعله للملكانيين و إلا فان من فيه من الرهبان لا بد كانوا بين الألوف الكثيرة التى نزعها الاضطهاد من مذهب القبط .

(٢) أنظر ما سبق فى صفحة ١٦٢ هامش ١ وصفحة ١٩٦ هامش ١

الأناشيد، وازدحمت طرق المدينة العظمى بالناس على سعتها حتى ركب بعضهم بعضا، ولقى الحبر الأعظم مشقة كبرى فى السير فى ذلك الزحام الى الكنيسة. ولكن الموكب سار على أى حال سيرا وئيدا حتى بلغ (المسلتين) المصريتين القديمتين فمرّ بينهما ثم سار فى فناء ذى أروقة الى أن بلغ باب كنيسة قيصريون فولجه داخلا.

ولما أن صار فى الكنيسة أقام الصلاة وجعل عيد الصليب[1] وإعلاءه موضوع خطبته كما ينبغى له، وكانت الكنيسة الشرقية فى ذلك الوقت ولا تزال إلى وقتنا هذا تحتفل بهما معا. وإنه لمعنى جليل ذلك المعنى الذى جعله (قيرس) قطبا لخطبته، معنى يخلع على قائله رونقا إذا أعوزته الفصاحة، فما بالك بقيرس وهو رب البيان والبلاغة. فجعل يذكر الناس بحوادث الماضى وما فيها من عجب، منذ قام هرقل بجهاده فى سبيل الصليب حتى ظفر به فأعاده من يد أعدائه الفرس، ثم أقامه فى بيت المقدس فى ذلك اليوم المعهود يوم النصر والفوز. ولقد كان قيرس يرمى إلى غرض من سوق تلك القصة، فما كان ذلك القصد الذى رمى إليه؟ لقد صار بيت المقدس فى أسر المسلمين عند ذلك، وقد صار المسلمون على أبواب الاسكندرية ذاتها، فكان الأمر على مثل ما كان عليه من البلاء والشدة عند ما كان كسرى يملك فلسطين والشام ومصر. فهل تجرأ قيرس فى خطبته على الاشارة إلى المغزى الذى تدركه الافهام من قصة جهاد هرقل؟ وهل أثار فى قلوب سامعيه الأمل فى الخلاص

---

(١) لا بد ان هذه الفقرة فى كتاب حنا (صفحة ٥٧٤) قد لحقها تحوير أخرجها عن معناها وقد أساء تأويلها زوتنبرج فجعلها هكذا: "وقد فتح (؟) الحوض الذي كان فيه الصليب المقدّس الذى جاءه قبل نفيه من القائد حنا. وقد أخذ كذلك الصليب المحترم من دير الـ (Tabennesiotes)" وقد وضع زوتنبرج نفسه علامة الإستفهام بعد عبارة (وقد فتح) فانه قد رأى أن الجملة كلها صارت بذلك لا معنى لها. وأما الدكتور شارل فيترجمها هكذا "ومدح البئر الذى وجد فيه الصليب المقدّس على يد هلينا" والكلمات التى تأتى بعد ذلك فى نظرنا قد تغير موضعها فان قيرس لم يبعث إليه حنا بالصليب المقدّس نفسه قبل منفاه وما كان هرقل ليرسله الى مصر ولم يرسله اليها وهو أعظم الآثار وأقدسها فالصليب الذى أتى إلى قيرس كان الصليب الذى حفظه رهبان (Tabennesi) وعلى ذلك فالعبارة يجب أن تكون هكذا "ثم حمل أيضا (الى القيصريون) من دير رهبان (Tabennesi) الصليب الذى كان قد جاءه من القائد حنا" وهذا يصبح له معنى بعد أن كانت العبارة لا معنى لها.

والإيمان بالنصر واستفزهم إلى جهاد عدوّهم باسم الصليب ؟ إنه ما كان ليجرأ على ذلك وقد خذل الصليب وعوّل على أن يذله للاسلام ويحنيه لألويته . إنه قد يكون تحاشى الاقتراب من أمور السياسة فى خطبته ، ولكن لا شك فى أنه فى خطبته ذلك اليوم لم يزح عن قلبه ما كان يثقله من الأسرار .

ولكن لم تنته تلك الصلاة إلا على كدر ونحس . فإن المصلين أقبلوا بعد الخطبة على الصلاة فقرأ الشماس بدل ما كان يجب عليه قراءته من الأناشيد فى ذلك اليوم مزمورة أخرى فيها اشارة لرجعه البطريق ، يريد بذلك أن يتملقه ويهنئه . فلما سمع الناس ذلك ضجوا قائلين إنه قد خالف السنن وتطيروا به على البطريق . وجاء فى تلك القصة أنهم قالوا إن البطريق لن يشهد عيدا للفصح بعد ذلك[1] . ولا شك أنهم قد رأوا عليه تغيرا واعتلالا إذ كان النفى قد أسقم جسمه ، وكان السير فى الزحام ذلك اليوم قد أتعبه ، ثم أجهدته بعد ذلك الخطبة وما بذل فيها . ولا بد فوق كل ذلك أن وجهه كان ينم عما كان فى قلبه من أشجان تجيش به فتمزقه ، فقد كان يرى الناس من حوله يثقون به ويرفعون ذكره ويرونه نصيرا لهم ومعينا فى محنتهم ، وكانوا جميعا عند ذلك قد طهرت قلوبهم وامتلأوا إيمانا بالصليب حتى ليجاهدون فى سبيله ويلقون النصر على وعده ، ولكن فيما كانوا والآمال تطلع عليهم وتملأ نفوسهم ، كان الحبر الأعظم يحس فى نفسه وكسا ووهنا ويشعر فى قلبه الوخز الأليم ، إذ كان مقبلا على خيانتهم بعد قليل ، مقدّما على خذلان الصليب والايقاع بدولة الروم . لقد كان فى مقامه ذاك بين شجون شديدة تنتابه ، ولا غرابة أن ينم مظهره الكليل على ما كان يثقله ويهزهز نفسه العاتية ، وأن يرى الناس فى أمارات وجهه أمارات الموت .

قضى قيرس مدة قصيرة بعد مقدمه يعالج طائفة من أمور الدين والدولة كان لا بد له من الاسراع بمعالجتها فى الاسكندرية ، ويلوح لنا أن (أنستاسيوس) كان الحاكم

(١) قد ذكرنا فى ذيل الكتاب عن تواريخ حوادث الفتح العربى أمر اتفاق عودة قيرس وعودة تيودور ، وذكرنا فيه تاريخ اليوم الذى غنى القسوس فيه المزمورة التى كانت فى غير موضعها .

المدنى للمدينة فى مدّة غياب (قيرس) . ومن الجائز أن يكون (جورج) الذى استخلفه (قيرس) عند خروجه من مصر على ولاية الدين هو بعينه البطريق الذى كان قبله[(١)] ، وكان (جورج) عند ذلك شيخا كبيرا . ولكنه كانت له فى قومه عزة ، وكان كل الناس يظهرون له الإجلال والإعظام لا فرق فى ذلك بين حاكم المدينة ومن هم دونه ، ولم تكن له يد فى اضطهاد القبط . وفى الحق أن القبط تنفسوا الصعداء منذ رحل عنهم قيرس ومنذ انقطعت الصلة بين سلطان الروم وبين قطع كبيرة من بلاد مصر . ولكن (قيرس) لم ينس بعد عودته ما كان فى قلبه من الحفيظة على ديانة القبط ، فكان يرضى بالإذعان للعدو وإسلام البلاد له ومصالحة من لا يؤمنون بدين المسيح ، ولكنه ما كان ليرضى بأن يسالم القبط أو يعفو عنهم . فاستل سيفه مرة أخرى ، ولم يلن قلبه لما حل به من مصائب الدهر ونوازله ، بل عاد إلى عسفه بالقبط وظلمه لهم بقلب لا رحمة فيه ، وجعل يوقع بمن كان منهم فى منال يده[(٢)] .

وإنه لمن العجيب أن يرى المقوقس جدوى فى العودة إلى اضطهاده وعسفه . فلعله كان يتستر وراء ذلك ليدارى عن أهل الاسكندرية حقيقة أغراضه وهى إسلام بلاد مصر جميعها للعرب . ولا شك فى أنه كان فى ذلك ينفذ أمرا من مليكه ، ولكن أى أمر ! لقد كان أمرا غصبه من مليك لا حول له ولا طول ، وتوصل إليه بالخداع والدناءة ، حتى أنه لم يستطع أن يظهره لكبار قادة الدولة فى الاسكندرية ، ولا أن يعلنه للناس . فخرج وحده ذاهبا إلى حصن (بابليون) ، أو لعله قد استصحب جماعة

---

(١) هـذا مجرّد احتمال فيقول حنا النقيوسى أن هرقل هو الذى اختاره ولكنه لم يذكر العمل الذى اختاره له ولكنه كان أحد عملين : إما أن يكون بطريقا أو حاكما على المدينة وقول حنا يفيد الأمر الأوّل (أنظر ما سبق فى صفحة ١٥١ هامش ٢) ولكن اذا كان جورج هذا حاكما أيكون هو جورج الذى ذكر العرب أنه كان الحاكم فى سنة ٦٢٧ وقت ارسال النبي كتابه الى مصر وهو (جورج بن مينا) الذى سمى المقوقس خطأ ؟

(٢) حنا النقيوسى صفحة ٥٦٦

من قسوسه كانوا على علم بسره، وكان النيل عند ذلك مرة أخرى فى أوان فيضه[1]، وذلك فى أواخر شهر أكتوبر بعد نحو عام من صلح بابليون الذى لم يتم، إذ مزقه الامبراطور الشيخ (هرقل) فى غضب وحنق. وكان عمرو بن العاص عند ذلك قد عاد منذ قليل إلى (بابليون)، ولا ندرى فيم قضى الوقت إلى ذلك الحين، أقضاه فى قتال بلاد مصر السفلى قتالا لم يخرج منه بطائل، أم قضاه فى غزو بلاد الصعيد يقود سرية إليها بنفسه[2]. وليس أمر السرية ذاتها بموضع للشك فقد خرجت كتيبة صغيرة من المسلمين الى الصعيد حتى بلغت مدينة (انطنويه) المعروفة الآن باسم (انصنا) وكانت إذ ذاك عاصمة إقليم (طيبة)، وكانت جنود الروم لا تزال منها بقية فى ذلك الإقليم. فذهب الناس الى حاكم الاقليم وهو (حنا) وكلموه فى الأمر وطلبوا إليه أن يقفوا لقتال العرب، ولكن (حنا) أبى كل الأباء أن يقف للقتال، ثم استولى على الأموال العامة التى جمعت وحملها معه وخرج بجنوده ضاربا فى الصحراء الى الغرب يقصد الاسكندرية، إذ لم تكن به رغبة أن يلقى مالقيه جنود الفيوم. وكان يرى من نفسه العجز عن مناجزة المسلمين، وعلى ذلك لم يلق العرب مشقة كبرى فى فتح بلاد الصعيد. وقال حنا النقيوسى فى وصف ذلك الفتح ان المسلمين عند ما رأوا ضعف الروم وعداوة الناس للامبراطور (هرقل)، لما أوقعه من الاضطهاد والعسف بأهل مصر كلها ودينهم الصحيح بتحريض قيرس البطريق الخلقيدونى، زادت جرأتهم واشتد ساعدهم فى القتال[3]. والحق أن القبط لم يحبوا العرب ولكنهم فى الصعيد كانوا يحملون فى قلوبهم أشدّ الضغن على من اضطهدهم وعذبهم، حتى أن أهل الفيوم بعد أن استقرت بهم الحال فى حكم العرب على دفع الجزية، بلغ الأمر بهم أن صاروا

(١) اذا علمنا أن المقوقس فاوض العرب مرتين فى أوان فيضان النيل اتضح لدينا سبب الخلط الذى وقع فيه العرب بين حصار بابليون وحصار الاسكندرية ورأينا فى ذلك عذرا لهم.

(٢) جاء فى كتاب ابن قتيبة أن عمرا عاد من مصر السفلى فى ذى القعدة سنة ٢٠ هجرية (وذو القعدة يقع بين ١٢ أكتوبر ٦٤٠ — ١٠ نوفمبر سنة ٦٤١) ولكن حنا النقيوسى يجعل عودته قبل ذلك و يقول إنه ذهب بنفسه الى الصعيد صفحة ٥٦٢.

(٣) حنا النقيوسى (الفصل الأوّل).

يقتلون من وجدوه من جنـد الروم . وكان أهل البلاد التى فى جنوب الفيوم أقل رغبة من هؤلاء فى نصرة الروم .

ولكن القائد العربى كان قد عاد الى بابليون بعـد أن فتح بلاد الصعيد أو على الأقل بلاد مصر الوسطى كيما يستريح بأصحابه فى أوان فيض النيـل . وفيما كان هنـاك فى ذلك الحصن وافاه (قيرس) ، وقد جاءه يحمل عقـد الإذعان والتسليم . فرحب به عمرو وأكرم وفادته ، ولما علم منه ماجاء من أجله من أمر الصلح قال له «لقد أحسنت فى الشخوص الينا» . فقال البطريق له إن الناس قد عوّلوا على دفع الجزية كيما تقف رحى الحرب . ثم قال "إن الله قد أعطاكم هذه الأرض فلا تدخلوا بعد اليوم فى حرب مع الروم"[1] . ولعل المفاوضة والمشاورة قد استطالت مدّة أيام كعادة أهل الشرق فى مفاوضاتهم ثم انتهى أمرها الى صـلح اتفق فيه الجانبان على شروطه جميعا ، وكتب بها عقد فى الثامن من شهر نوفمبر من سنة ٦٤١ ، ولنسم هذا الصلح صلح الاسـكندرية كى نميز بينه وبين الصلح السابق الذى عقد فى بابليون ، فان هذا الصلح الجديد إنمـا كان خاصا فى معظم شروطه بالاسكندرية وتسليمها ، وقد تم به فتح العرب لبلاد مصر . واختلفت الروايات فى ذكر شروط هذا الصلح ولكن حنا النقيوسى أورد أكبرها وهى :

(١) أن يدفع الجزية كل من دخل فى العقد .

(٢) أن تعقد هـدنة لنحو أحد عشر شهرا تنتهى فى أوّل شهر بابه القبطى الموافق للثامن والعشرين من شهر سبتمبر من سنة ٦٤٢[2] .

---

(١) جاء فى آخر قول قيرس فى ذلك الكتاب ما يلى : "لم تكن بيننا وبينكم عداوة قبل اليوم" . ويضيف زوتنبرج لفظ «طويلة» وصفا للفظ «عداوة» ولكن هـذا لا يصحح النص المخطئ ولا بدّ أن النسخة المخطوطة فيها شىء من الخطأ .

(٢) هذا تمـام أحد عشر شهرا من الشهور القمرية وهى أقل إذا حسـبت بشهور الروم (انظر ذيل الكتاب عن تاريخ حوادث الحرب) . .وقد جاء ذكر الهدنة واضحا فى ابن الأثير ولكنه يجعلها مدة قصيرة تكفى لمكاتبة الخليفة عمر ومجىء ردّه عمـا سئل عنه فى أمر الأسرى .

(٣) أن يبقى العرب فى مواضعهم فى مدّة هذه الهدنة على أن يعتزلوا وحدهم ولا يسعوا أى سعى لقتال الاسكندرية وأن يكف الروم عن القتال .

(٤) أن ترحل مسلحة الاسكندرية فى البحر ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعها على أن من أراد الرحيل من جانب البر فله أن يفعل على أن يدفع كل شهر جزاء معلوما ما بقى فى أرض مصر فى رحلته .

(٥) أن لا يعود جيش من الروم الى مصر أو يسعى لردّها .

(٦) أن يكف المسلمون على أخذ كنائس المسيحيين ولا يتدخلوا فى أمورهم أى تدخل .

(٧) أن يباح لليهود الإقامة فى الاسكندرية .

(٨) أن يبعث الروم رهائن من قبلهم مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من غير الجند ضمانا لانفاذ العقد .

ولم يورد المؤرّخ القبطى هذه الشروط على هذا الترتيب الذى أوردناها به فانما قصدنا بترتيبها هكذا أن نجعلها سهلة المأخذ . ففى الشرط الأوّل ضمان للقبط فى أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وأباحه لهم أن يتدينوا كما شاءوا بحسب شعائر دينهم ، فإن دفع الجزية والأموال جعلهم (أهل ذمة) لهم هذه الحقوق على الفاتحين . وقدّرت الجزية بدينارين على كل رجل إلا على الشيخ العاجز والولد الصغير ، وقد بلغت الجزية إثنى عشر ألف ألف دينار وذلك نحو ستة آلاف ألف من الجنيهات[1] . وكان على أهل مصر فوق هذه الجزية أن يدفعوا الأموال على أرضهم

(١) قد اختلف العرب فى تقدير عدد القادرين من الذكور من أهل مصر واختلف تقديرهم للجزية بين ١٢٬٠٠٠ دينار وثلثمائة ألف ألف دينار ولكن التقدير الأقرب الى التصديق هو ١٢٬٠٠٠٬٠٠٠ وكان الخراج فى أوّل الأمر يؤخذ عينا وهذا يبرر ما جاء فى الأخبار عن أن القبط أمدّوا العرب بالمؤونة بعد فتح بابليون . وقال أبو صالح إن عمرا فرض جزية سنوية قدرها ٢/٣ ٢٦ درهم ولكنه كان يفرض على أهل اليسار من الناس دينارين وثلاثة أرادب من القمح وقال ان ما كان يؤخذ من الجزية بهذه الطريقة بلغ ١٢٬٠٠٠٬٠٠٠ دينار سوى ما كان يفرض على اليهود من أهل مصر (صفحة ٧٥) ولكنه قال فى صفحة ٧٤ غير ذلك وتلك لا شك رواية نقلها عن مصدر آخر .

وعقارهم . وأما الشرط الثالث فالأجدر بنا أن نجعله خاصا بالاسكندرية، فإن (قيرس) وان كان قد صالح العرب بالنيابة عن أهل البلاد كلها ما كان ليضمن أن ترضى بما رضى به كل مدينة وكل طائفة، وما كان العرب ليمنعوا من قتال من قاتلهم من أهل البلاد ولا سيما وقد وقع قتال فى مدّة الهدنة فى بعض المواضع التى لم ترض بالتسليم ففتحت عنوة .

ويلاحظ القارئ أن رواية (حنا النقيوسى) لا تذكر شيئا عن موعد حلول أوّل قسط من الجزية، ولا عن مواعيد ما يلى ذلك منها ولكنه يدل دلالة واضحة على أن العرب طلبوا أول قسط منها عاجلا ويتفق معه فى ذلك المؤرخ العربى ابن خلدون إذ يذكر ذلك ذكرا صريحا(١) .

والآن قد بلغنا مبلغا نستطيع معه أن ندرك ماوقع فيه مؤرّخو العرب من الخلط والاختلاف عندمعا لجتهم مسألة يحبون الخوض فيها وهى مسألة فتح مصر، وهل كان عنوة أو صلحا . ولا بد لنا هنا من أن نذكر أمرا وقع بالاسكندرية فيما بعدونعجل به قبل موضعه، وهو أن الروم عادوا اليها فأخذوها بعد ثلاث سنوات أو أربع من وقت مصالحة قيرس وتسليمه للعرب . ثم فتحها العرب مرة أخرى وكان فتحها هذه المرة عنوة لا صلحا . فدوننا الآن إتفاق عجيب فى حوادث عدّة . فقد أراد المقوقس أن يسلم حصن بابليون فى أوان فيض النيل وكان ذلك بعقد وعهد : فلم يرض به الإمبراطور وأبى الموافقة عليه، فبقى الحصن إلى أن هاجمه العرب، ولكن قبل أن يدخل فيه الفاتحون خرج أهل الحصن فسلموا لهم ونزلوا على عقد وعهد . ثم سلمت الاسكندرية كذلك فى أوان فيض النيل وكان تسليمها صلحا، وذلك بغير أن تجد كيدا كبيرا من القتال . ولكن الروم عادوا الى الاستيلاء عليها بعد أن بقيت فى حكم العرب مدّة، ولم يخرج الروم منها بعد ذلك إلا بعد حصار انتهى بفتحها عنوة .

(١) يقول حنا إن العرب جاءوا بعد الصلح بمدة وجيزة ليأخذوا الجزية من الاسكندرية . ويقول ابن خلدون عند ذكر شروط الصلح أن أهل مصر كان عليهم أداء الجزية عند الاتفاق على العقد وإذا ما انتهى أوان الفيض وهذا الخبر له دلالة أخرى وهى أن عقد الصلح كان فى أوان الفيض .

فإذا نحن راجعنا هذه الحوادث العجيبة وذكرنا أن أوّل من كتب تاريخ الفتح من مؤرّخى العرب كتبه بعد نحو مائتى عام منه، وإذا ذكرنا أنه من أشق الأشياء أن تبقى هذه الحوادث على حقيقة صورتها وهى صور متشابهة فيها الاتفاقات العجيبة، فتبقى مدّة قرنين لا حافظ لها إلا الرواية وأكثرها أحاديث شفوية، إذا ذكرنا ذلك لم يكن عجبنا من ذلك الخلط الذى وقع فى الرواية والتشويه الذى أصابها، بل كان أعجب العجب أن نجد بقية من الحقيقة لا تزال محفوظة فى نتف كثيرة من الأخبار مهما كان اضطرابها وانقطاع نظامها وصلتها، وذلك لأن عهدنا بكتاب العرب لا يحسنون تفهم التاريخ ولا يدركون نظامه ولا يعبأون بأحكام الصلة بين حوادثه. فنستطيع الآن أن ندرك السبب الذى من أجله نجد بعضهم يذكر فتح حصن بابليون صلحا وبعضهم يذكر أن فتحه إنما كان عنوة، وكذلك ندرك السبب الذى من أجله نجد مثل هذا الاختلاف فى فتح الاسكندرية. فالواقع أن كلا من الروايتين صحيح من جانب واحد ولكن صحتهما لا تتم إلا بعد إضافة وتعديل.

وقد رأينا من المستحسن أن نفحص روايات بعض المؤرخين من العرب الذين أتوا فى أخبارهم بشىء من التفاصيل شيق لذيذ، ومن هؤلاء (البلاذرى) وهو من مؤرخى القرن التاسع. فانه يروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال إن عمرا اجتمع بأصحابه من زعماء المسلمين بعد أن فتح حصن بابليون عنوة، واستشارهم فيما اراده من مصالحة المصريين. ثم عقد معهم صلحا على أن يفرض دينارين على كل رجل قادر منهم، وأن يجعل على أصحاب الأرضين ضريبة (١) يؤدّونها عن أرضهم، واشترط عليهم فوق ذلك أن يأتوا لكل رجل من المسلمين بكسوة كاملة كل عام. وطلب إليه الحاكم (المقوقس) أن يدخل فى ذلك العهد كل بلاد مصر، ولكن أبيح لمن شاء من الروم أن يخرج من البلاد. ويقول البلاذرى وهو مخطئ فى قوله إن هذا الصلح قد نقضه الإمبراطور، فإنه من الواضح أن الصلح الذى يذكره هو صلح

(١) ذكر أن هذه الضريبة كانت ثلاثة أرادب من القمح وقسطين من الزيتون وقسطين من العسل وقسطين من الخل وكان ذلك يجمع وتجعل فى بيوت المال (صفحة ٢١٥).

الإسكندرية . ونجد هذا المؤرخ فى موضع آخر يدل على أن مصر إنما فتحت عنوة ، فيروى أن عمرو بن العاص خطب مرة على المنبر فقال "لقد جلست مجلسى هذا فى هذا البلد وليس لأحد فيه على عهد ولا عقد ، إن شئت قتلت وإن شئت سبيت" وهذه الرواية إذا صحت كانت دليلا على أن القبط لم يكن لهم من الأمر شىء وأن العقد إنما كان بين العرب والروم . ولقد كان هذا صحيحا فإن العقد كان بين الروم والعرب ، على أن القبط كانوا داخلين فيه . وقد ذهب (البلاذرى) إلى هذا الرأى وجعل يدلل عليه فإنه يذكر أن معاوية كتب إلى وردان يأمره بزيادة الجزية على القبط فأجابه وردان أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك ، لأن فيه نقضا للعهد الذى لهم . وكذلك يذكر رواية عن أحد ولد الزبير أنه قال "لقد أقمت فى مصر سبع سنوات وتزوجت فيها وكان الناس فيها يفرض عليهم من الأموال ما لا طاقة لهم به فآذاهم ذلك مع أن عمرو بن العاص كان قد عقد لهم عهدا جعل لهم فيه شروطا معلومة" . ويقول البلاذرى بعد ذلك إن فى الأخبار سوى ذلك مما يدل على أنه كان بين العرب والمصريين عهد ولكنه مع ذلك لم يقدر على أن يمحو من ذهنه أن الإسكندرية لم تفتح عنوة مع إقراره "بأن عمرو بن العاص لم يقتل أهلها ولم يسبهم بل جعلهم أهل ذمة" . والفتح عنوة لا يتفق بحال مع جعل أهل المدينة أهل ذمة ، فاقرار البلاذرى بأن أهل الإسكندرية كانوا أهل ذمة دليل على أنه عند ما ذكر فتح الإسكندرية وقال إنه كان عنوة إنما كان يقصد الفتح الثانى .

وقد جاء فى كتاب الطبرى ذكر شروط ذلك الصلح وهو يسميه صلح عين شمس بدل أن يسميه صلح الإسكندرية وذلك خلط عجيب منه[(1)] . وإليك نصها كما جاءت فيه : "هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينتقص ولا تساكنهم النوبة . وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح

(١) راجع الذيل السابع الذى ألحق بالكتاب فى ذلك الموضوع .

وانتهت زيادة نهرهم، خمسين ألف ألف[1]. وعليهم ما جنى لصوتهم (لصوصهم) فان أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة . وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ، ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم . ومن أبى منهم واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا . عليهم ما عليهم إثلاثا فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم[2] . على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين . وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسا وكذا وكذا فرسا على ألا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة " . وشهد عليه الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر[3] .

وهذا النص للصلح ليس فيه خلاف عما جاء فى كتاب (حنا النقيوسى) وإن كان كلا النصين لا يشمل كل ما جاء فى النص الآخر، فالحق أن كلا من النصين يكمل الآخر . وقد جاء فى كتاب ياقوت عن ابن عبد الحكم أن مصر فتحت كلها صلحا وفرضت الجزية دينارين على كل رجل من أهل مصر، على أن لا تزاد . ثم جعلت على أصحاب الأرض ضريبة يؤدونها خراجا من ثمار أرضهم وفرضت على أهل

(١) وهذا بلا شك غير صحيح .

(٢) ترجم المؤلف هذا القول بما يفيد أن الجزية تدفع على ثلاثة أقساط كل منها ثلث مقدار الجزية . وعلق على ترجمته أن هذا ما فهمه من الفقرة الغامضة وهى " وعليهم ما عليهم إثلاثا فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم " .

(٣) قد وردت هذه الشروط فى كتاب ابن خلدون وقد أخذها عن الطبرى ولكن الظاهر أنها غير موجودة فى وصف فتح مصر فى نسخة الطبرى الموجودة الآن أنظر طبعة زوتنبرج الجزء الثالث صفحة ٤٦١ وما بعدها ومع ذلك فانه يفهم من الطبرى أن الإسكندرية قد فتحت صلحا .

(٣) يرد ذكر هذا العهد فى أكثر كتب التاريخ ويجعله المؤرخون صلحا بين العرب والروم بعد وقعة عين شمس وليس صلح الإسكندرية . ومن العجيب أن المؤلف يزعم أن نسخة الطبرى الحالية لا تأتى بذكر هذا الصلح ولكنه موجود فيها وقد أخذنا نصه عنها (المعرب) .

(٣) وقد ألف المؤلف رسالة جديدة اسمها "The Treaty of Misr in Tabary" وفيها رجع عن رأيه هذا وقد جاء ذكر ذلك فى الملحق السابع فليراجع (المعرب) .

الاسكندرية جزية وضريبة على عقارهم . وأما مقـدار تلك الجزية وتلك الضريبة فقد جعل أمره فى يد الحاكم لأن مدينتهم فتحت عنوة بلا عقد ولا عهد . ولا شك أن فى هـذا القول خلط بين الفتح الثانى للمدينة الذى كان عنوة والفتح الأول الذى كان صلحا . وخير ما قيل فى هذا الشأن ما جاء فى كتاب المقريزى فإنه أثبت الآراء المختلفة وأوضحها إيضاحا عظيما وأسند كل رأى الى صاحبه[1] ، وأقوى الأدلة فى كل ذلك هى ما دلت على أن الفتح كان صلحا . وإن خير ما نلخص به الأمر كله أن نورد ما قاله شيخ من القدماء إذ سمع رجلا يقول إنه لم يكن لأهـل مصر عهد فأجاب " ما يبالى إلا يصلى من قال إنه ليس لهم عهد[2] " .

---

(١) الخطط الجزء الأول صفحة ٢٩٤ وقد ذكر بعض مواضع صالح العرب فيها القبط ولكن قيل إن القبط جعلوا فى عقدهم العام شروطا ستة : (١) الا يخرجوا من ديارهم . (٢) ألا يفرق بينهم وبين أزواجهم . (٣) ألا يطردوا من قراهم . (٤) ألا تنزع منهم أرضهم . (٥) الا تزاد عليهم الجزية . (٦) أن يحموا من عدوهم .

ويظهر أن هذه الشروط غير مرتبة ترتيبا عقليا وليست دقيقة ولا يذكر فيها شىء عن حرية دينهم ولا بد أن ذلك كان من شروط الصلح .

وقد روى عن زيد بن أسلم أنه قال : إن الخليفة عمر كان عنده صندوق فيه كل عقود الصلح ولم يكن بينها عقد لأهل مصر وقال ابن شهاب[(١ م)] إن مصر أخذ بعضها عنوة وبعضها صلحا ولكن عمر جعل أهلها جميعا ذمة فمثلا لما أراد عبد الله بن سعد أرضا فى مصر دفع ثمنها لأن البلاد كانت فتحت صلحا ويذكر مالك بن أنس وعبـد الله بن لهيعة ونافع بن يزيد أن مصر فتحت عنوة . وأما الليث وعبد الله بن جعفر ويحيى بن أيوب وسواهم فيقولون الحق وهو أن فتحها كان صلحا .

(٢) قد نقلنا هذا النص عن كتاب النجوم الزاهرة لأبى المحاسن (المعرب) .

(١ م) قال المؤلف (Ibn Shihah) ويقرأ ذلك الاسم (ابن شيحة) ولكن المقصود بلا شـك هو (ابن شهاب) فلا بد أن الاسم قد حرف فى الكتابة الانجليزية بابدال الأخيرة هاء (h) وإبدال الهاء الأولى حاء (ḥ) لتقارب صورة هذه الحروف (المعرب) .

الفصل الثانى والعشرون

فتـــح بـــلاد الســاحـــل

عمرو يرسل الى عمر بن الخطاب بفتح الاسكندرية — تاريخ ذلك الفتح — يفضى قيرس بنبأ الصلح الى زعماء الاسكندرية — وصول رسل العرب — يذيع النبأ بين النـاس — سخط العامة واقناعهم — نقد خيانة قيرس — موقع الاسكندرية الحـربى — أثر موت هرقل — إقرار هرقلوناس للصلح — بناء مدينة الفسطاط الاسلامية — بناء جامع عمرو — إعادة حفر ترعة تراجان — القتال فى شمال الدلتا — الاستيلاء على إخنا و بلهيب والبرلس ودمياط وتنيس وشطا وسواها — قصـة شطا وتاريخ فتحها وأهمية ذلك التاريخ — بعض غلطات تاريخية وتفنيدها

لـمـا انتهى أمر الصلح أوفد عمرو بن العاص معاوية بن حُدَيج الكندى وأمره أن يحمل أنباء ما حدث الى عمر بن الخطاب(١)، فطلب معاوية منه أن يكتب معه كتابا فقال له عمرو ”ماذا عسانى أفعل بالكتاب؟ ألست امرءا عربيا تقدر على وصف أمر شهدته؟“ فسار معاوية فى رحلته الطويلة فى الصحراء حتى بلغ المدينة، ووافق مقدمه وقت الظهر فأناخ راحته عند باب المسجد ودخل . وفيما هو هناك خرجت جارية من بيت عمر، فلما رأت رجلا غريبا عليه وعث السفر سألته عن اسمه فقاله لهـا ثم قال إنه جاء يحمل رسالة من عمرو بن العـاص . فعادت الجارية الى الدار فما لبثت أن جاءت اليه مسرعة حتى سمع معاوية خفق نقابها على أقدامها إذ تجرى اليه، ثم أمرته أن يتبعها الى البيت . فلما جاءه سأله عمر عن الأنباء فقال له ”خير

(١) هكذا ورد اسم الرسـول فى البـلاذرى وهو الأصح وذكر المقريزى أنه ابن خديج وهو يذكر خبر إرساله على إنه وقع عند فتح الاسكندرية الثانى ولكن المقريزى (أو الذى يروى عنه وهو ابن لهيعة) يقول ان إرسال معاوية سبق خطاب عمرو الذى يصف فيه الاسكندرية . وقد كتب ذلك الخطاب عند دخول العرب أول مرة الى المدينة وفوق ذلك كان عمر قد مات قبل الفتح الثانى إذ دفن فى أول المحرم سنة ٢٤ للهجرة (٧ نوفمبر سنة ٦٤٤)، أنظر ابن الأثير الجزء الثالث صفحة ٣٨ فوضع ذلك الخبر حيث وضعناه على الصحيح .

يا أمير المؤمنين فتح الله علينا الاسكندرية". فقام معه عمر حتى عاد الى المسجد وأذن المؤذن للصلاة، فأقام عمر صلاة الشكر لله على ما أولى، ولما عاد مع معاوية الى داره صلى مرة أخرى ثم طلب الطعام، فقدّم له خبز وزيت يؤتدم به فوضع ذلك أمام الضيف فأصاب منه شيئا خفيفا على استحياء، ثم أتى بتمر فوضع له، وكان هذا أكبر ما عند الخليفة من لذائذ الطعام وأطايبه . ثم اعتذر معاوية بأنه لم يبادر الى حمل نبأ الفتح لأنه ظن عمر نائما وقت القيلولة، فقال له عمر : بئس ما قلت وبئس ما ظننت(١)، لئن نمت النهار لأضيعن الرعية ولئن نمت الليل لأضيعن نفسى فكيف بالنوم مع هذين .

وهكذا أرسل نبأ الفتح الى المدينة وهكذا تلقاه الخليفة فيها بغير زينة ولا ضجة، وما كان أعظم الفرق بين هذا وبين ما حدث فى الاسكندرية عند ما أتاها ذلك النبأ .

أمضى عهد الصلح فى (بابليون) فى يوم الخميس الثامن من شهر نوفمبر من سنة ٦٤١(٢)، وكان لا بد له من إقرار إمبراطور الروم كما كان لا بد له من إقرار خليفة المسلمين عمر، وكان فى مدّة الهدنة وهى أحد عشر شهرا متسع يكفى لذلك وما يلزم له من الرسوم، ثم عاد قيرس مسرعا الى الاسكندرية يحمل معه كتاب الصلح .

وكان أوّل ما عنى به أن يرسل شروط الصلح الى (تيودور) وهو القائد الأعلى، ثم الى قسطنطين وهو قائد الحرس، ومن أعجب الأمور أن (تيودور) لم تكن له يد فى مفاوضة الصلح ولم يحضر كتابته فى (بابليون)، مع أنه كان حاكم المدينة من قبل

---

(١) فى رواية المقريزى بئس ما قلت (أو بئس ما ظننت) (المعرب) .

(٢) قد ذكرنا الأسباب التى من أجلها اخترنا ذلك التاريخ فى الذيل . وقد ذكر الأستاذ (لين بول) عن الطبرى عبارة زيادة وهى أن طلب الصلح جاء الى عمرو وهو فى بلهيب وأنه أرسل الى الخليفة فى ذلك وأن المسلمين انتظروا ردّه فى ذلك الموضع عينه وهو (بلهيب) والخبر على هذه الصورة غير محتمل فانه يخالف ما جاء فى ابن قتيبة وحنا النقيوسى وكلاهما يقول إن عمرا جاء الى بابليون فى ذلك الوقت وانه لمن المستبعد أن يكون جيش عمرو قد بقى هذه المدّة كلها فى موضع واحد فالحقيقة كانت بغير شك أن عقد الصلح كان فى بابليون وإن إقرار الخليفة جاء الى عمرو وهو فى بلهيب .

الإمبراطور. والحقيقة أن كل ما يمس (تيودور) محير مدهش، فلسنا ندرى من أمره شيئا حتى لنجهل هل كان قد علم بعزم (قيرس) فى تسليم المدينة للعرب قبل أن ينفذه. فاذا كان قد علم بذلك فلا بد إنه قد غير رأيه وأصبح من أشياع الصلح مع العرب. وأما إذا كان غير عالم بذلك فمن أعجب الأمور أن يسارع الى الموافقة على أمر لا يمكن أن نصفه إلا بأنه كان تسليما شائنا.

وكانت أنباء ذلك الصلح الذى عقد فى طى الخفاء تتردّد بين رؤساء موظفى الحكومة وبين زعماء الناس فى العاصمة، يتناقلها بعضهم عن بعض همسا ووسوسة، يفضى بها الرجل الى من يأمنه ويطمئن اليه. وأما العامة فانهم ظلوا فى جهالة لا يعلمون من أمره شيئا، وأرسلت الرسائل الى الامبراطور هرقلوناس تفضى اليه بشروط الصلح وطلب اليه أن يقرّها. والظاهر أن القائدين كانا كلاهما يعززان ذلك الصلح ويوافقان على طلب إقراره، وإن فى تعزيزهما له وموافقتهما عليه لحجة يمكن الاستناد عليها فى تبرير ما أتاه قيرس ورفع الوزر عنه بعض الشيء. على أنه من المعلوم ما كان عليه (تيودور) من العجز فى قيادة الحروب وضعف الرأى فيها، فموافقته على الصلح على ذلك لا قيمة لها، وحكمه فى أمر الحرب مدافع لا يعتمد عليه. ومهما يكن من الأمر فان (قيرس) عند ما أحس بأنه مهد السبيل الى اعلان الأمر فى الاسكندرية، دعا كبار قوّاد الجيش وعظماء رجال الدولة، ولما انعقد عقدهم جاءوا وعليهم (تيودور) و (قسطنطين)، حتى إذا مثلوا بين يدى البطريق (قيرس) أظهروا له الولاء وأعلنوا له الطاعة. ولنا أن نصوّره لأنفسنا، وقد جلس فى أبهته واتخذ زينته وجعل يبين لهم ما تضمنه الصلح من شروط بما أوتى من فصاحة وبراعة، ويسهب فى ذكر الضرورة التى استوجبت عقده وما فيه من مزايا، فما زال حتى فاز بما أراد من حمل سامعيه على الإيمان بقوله، ولكنه كان فوزا ما أشأمه.

وبهذا خطا (قيرس) خطوة جديدة فى سبيل إنفاذ خطته فى الإيقاع بمصر. على أنه ما كان ليستطيع أن يبقى خطته فى ستر الخفاء بعد ذلك طويلا، فعلم الناس بما كان. ولكن علمهم لم يأت عن قالة قالها (قيرس)، ولا إشاعة تردّدت وذاعت بينهم، بل

علموا بالأمر بغتة وقد فجأهم طلوع فئة من العرب على المدينة . فدقت الأبواق إيذانا بمقدمهم ، وأسرع الناس من كل جهة ليقفوا فى أماكن الدفاع من الأسوار والحصون ، ولكن العرب ساروا على خيلهم لا يلوون على شيء ولا يعبأون بالضجة . وجاء قواد الروم عند ذلك بعد أن كانوا قد قضوا على حماسة الجنود وإقدامهم ، فجعلوا يهدئون من روع الناس وينادون فيهم أن لا جدوى فى القتال ولا أمل من ورائه . وقبل أن يقترب العرب حتى يصيروا على مدى رمى المجانيق أبصرهم الناس وهم يحملون أعلام الهدنة والسلام ، فأشير إليهم بعلامة الرد فاقتربوا ، حتى إذا ما صاروا بحيث يسمعون ويسمع منهم أفضوا الى جنود الروم بما كان . وما كان أشد عجبهم ودهشتهم مما علموا ، إذ عرفوا عند ذلك أن العدو لم يأت ليقاتلهم بل أتى ليحمل الجزية التى اتفق عليها مع (قيرس) المقوقس فى عقد الصلح الذى طلبه من العرب وكتبه معهم على تسليم المدينة . فهاج الناس وثار ثائرهم لما سمعوا وذهبوا غير مصدقين حتى أتوا قصر البطريق ، فاطلع عليهم منه بعد لأى ، وكان الخطر فى تلك اللحظة محدقا بحياته إذ تهافت الناس إليه يريدون أن يحصبوه .

غير أن كبر سنه وعلو مكانته خذلا الناس عنه ، وحمياه من الخطر . فأشار الى الناس إشارة فهدأوا ، ثم استطاع الكلام واستعان بما أوتى من بلاغة وفصاحة على تخفيف جنايته وتهوين خيانته فى مقالته التى قالها بين الناس . وجعل يبرر ما كان منه قائلا إنه إنما اضطر إلى ركوب الصعب اضطرارا إذ لم يكن بد منه ، وما قصد إلا مصلحة قومه وفائدة أبنائهم فان العرب قوم لا يقوم لهم شيء إلا غلبوه ، وقد أراد الله أن يملكوا أرض مصر ، فما كان للروم إلا أن يصالحوهم ، فانهم إن لم يفعلوا جرت الدماء فى طرق مدينتهم ونهبت أموالهم وقتلوا ، ومن بقى منهم حيا خسر ما كان يملك وضاع أمره . ولكن الصلح حقن دماءهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم ودياناتهم . ومن أراد أن يعيش فى أرض مسيحية كان له الخيار فى ترك الإسكندرية ، وما كان أمر الخيار بين الهجرة من مصر وبين الإذعان للسلمين بالأمر الهين . فلم يتمالك

البطريق دمعه بل بكى وهو يطلب من الناس أن يصدّقوا إنه إنما بذل جهده فى أمرهم، وأن عليهم أن يرضوا بالصلح الذى عقده من أجلهم يقصد به صلاح حالهم .

بهذا استطاع (قيرس) مرة أخرى أن يفوز برأيه المشئوم، فإذا بالناس وقد عادوا الى رأى الجيش ورضوا بالتسليم والنزول بمدينتهم العظيمة للعرب، على شرط العقد الذى تم . وجعل الثائرون يتلاومون على ما اقترفوا من الوثوب والحنق على ذلك الحبر الطاهر، فى حين كان يسعى جهد طاقته ليحول بينهم وبين الهلاك على يد الغزاة. وأخذوا يجمعون قسط الجزية التى فرضت عليهم وزادوا عليها مقدارا كبيرا من الذهب، ووضع ذلك المال فى سفينة خرجت من الباب الجنوبى الذى تدخل منه الترعة وذهب به قيرس بنفسه ليحمله الى قائد المسلمين[(١)] .

وبذلك تم فتح الإسكندرية، وإذا حسبنا تاريخ ذلك وجدنا أن أداء ذلك القسط الأوّل من الجزية قد يكون فى أوّل المحرّم من سنة احدى وعشرين من الهجرة، وذلك هو اليوم العاشر من ديسمبر من عام ٦٤١ . وليس فى مصادر التاريخ ما يثبت ذلك التاريخ وينص عليه صراحة، ولكن الرواية التى تناقلها العرب تجعل فتح المدينة فى ذلك اليوم . ولعل منشأ تلك الرواية كان عمن حضر ذلك اليوم وشهد إذ عان أهل الإسكندرية بحملهم أوّل قسط من جزيتهم، ومع ذلك فإن مؤرّخى العرب يجعلون أوّل المحرّم فى يوم الجمعة مع أن أوّل المحرّم لم يقع فى يوم جمعة فى ذلك العام ولا فى عام قريب منه إلا فى عام ٦٤٥ . وعلى ذلك يكون لنا أن نقول إن الرواية لا يمكن أن تكون صحيحة فى كل أجزائها، بل لقد تكون كلها غير صحيحه . ولكنا نتردّد فى الأمر ونحمل أنفسنا على القول إنها لا بد أن يكون لها أساس من الحقيقة، لأنها رواية من أثبت الروايات فى أخبار الفتح العربى[(٢)] . وعلى أى حال فانه من المفيد أن نوجه الأنظار

(١) لم يرد هذا فى متن الكتاب (انظر صفحة ٥٧٦) ولكنه جاء فى عنوان الباب العشرين بعد المائة صفحة ٣٥٨ من كتاب حنا النقيوسى .

(٢) يرى المستر (ا . و . بروكس) أن هذا التاريخ يوافق حقيقة الفتح الثانى للاسكندرية وهو يجعله فى يوم الجمعة أوّل المحرم سنة ٢٥ للهجرة (٢٨ أكتوبر سنة ٦٤٥) ولكنا سنورد الحجج التى تنقض هذا الرأى فى فصل تال .

إلى اتفاق عجيب آخر يلوح من خلال ما اختلط من تواريخ ذلك العصر، ولعله يفيدنا في بيان أسباب ذلك الخلط بعض التبيين، وذلك أن بعض مؤرخي العرب يقرر أن فتح الإسكندرية لم يقع إلا بعد ثلاث سنين من دخول جيش عمرو في مصر، في حين أن طائفة سواهم تقول إن فتح حصن بابليون وفتح الإسكندرية وقعا كلاهما في عام واحد وهو العام العشرون من الهجرة . ومع ما يظهر من الخلاف بين الطائفتين نقول إن كلاهما على الحق، فقد سلم حصن بابليون في شهر أبريل من عام ٦٤١، وسلمت الاسكندرية في شهر نوفمبر من ذلك العام ، وكلا التاريخين واقع في سنة عشرين . ومن جهة أخرى قد دخل عمرو في أرض مصر في عام ٦٣٩ من الهجرة ، ولكن جيشه لم يدخل الاسكندرية إلا بعد ثلاث سنوات من ذلك، أي في شهر أكتوبر من عام ٦٤٢ عند ما انقضت مدة الهدنة وهي أحد عشر شهرا . وأنه لما يسر النفس أن تفوز بكشف الحقيقة من وراء هذا الغطاء من خلاف يخمرها .

وماذا عسانا نقول في هذا الصلح العجيب فليس في طاقتنا أن نملك أنفسنا ونلزم القصد في القول اذا ما أردنا أن نصف فعلة المقوقس، وما أتاه ذلك البطريق من المكر السيء، وما كان له من الصلة الغريبة بقائد العرب وحرصه المدهش في كل وقت من أوقات القتال مع المسلمين على أن يسرع بالاذعان والتسليم لهم . فليس مر الأيام بمستطيع أن يمحو عن ذكره وصمة جنايته في خيانة دولة الروم، والقصد الى تضييع أمرها بعد أن لطخته من قبل جريرة حمقه وقسوته في اضطهاد القبط مدة أعوام عشرة . فالحق أنه لو كان منذ ولي أمر الدين قد قصر همه على هدم سلطان الروم وتضييع أمرهم في مصر لما سار الا على سيرته تلك، ولما سلك إلا السبيل الذي سلكه . وإنه ليملؤنا العجب إذ نراه يسارع تلك المسارعة الى اغتنام فرصة الخيانة والإيقاع بمصر، وهي فرصة ماسنحت له إلا من جرائر أفعاله ، وما تهيأت إلا من عاقبة سوء حكمه . ولا يخفف من جرمه أن يقول قائل إنه كان يأتمر بأمر مولاه الامبراطور هرقلوناس، وقد خوّل له أن يعقد ذلك الصلح . فلقد كان من

أهون الأشياء على مثل قيرس أن يحمل مثل هذا الملك على رأيه، وهو ملك مستضعف لاعلم له بأحوال مصر، تسير به مشيئة أمه أنى شاءت .

ولم يكن صلح الاسكندرية أول العهد بخيانته، بل لنا بها عهد منذ أشهر في حصن (بابليون)، وحسبنا بما كان منه في أمر هذا الحصن ردا على من يريد الدفاع عنه بأنه إنما نزل على حكم الضرورة فى الحرب . فاذا كان العرب عند طلوعهم على الاسكندرية قد بسطوا سلطانهم على أكثر بلاد مصر، فان الأمر لم يكن كذلك وهم واقفون حول حصن (بابليون) فى الوقت الذى أراد فيه أن يعقد معهم صلحه الذى أنكره الامبراطور. وبعد فلم تكن الاسكندرية قد نزل بها من حرب العرب ضيق، وكانت بلاد الساحل جميعها الاتزال بمنجاة عنهم . وقد حاول جيش المسلمين أن يصدم تلك العاصمة فى أول الأمر فارتد عنها عاجزا مخذولا . وقد ذكرنا من قبل أنه ليس فى الأخبار مايحملنا على الظن أن ذلك الجيش قد أقام عسكره على مقربة منها، ويدلنا على ذلك دليلان : أولهما إغفال ديوان حنا لذكر عسكر لهم هناك، وثانيهما قوله إن أهل المدينة عند ما رأوا الفئة من المسلمين التى أتت لتحمل الجزية انزعجوا وثاروا . ولو كان المسلمون على مقربة بحيث يراهم أهل الاسكندرية من فوق أسوار مدينتهم كل يوم مدّة شهور كما يقول مؤرّخو العرب، لما حدث مثل ذلك الانزعاج عند اقترابهم . فالحق أن مؤرّخى العرب يخلطون فى هذا الأمر بين تسليم الاسكندرية الأول وفتحها عنوة فى المرة الثانية إذ أنهم فى المرة الثانية حاصروا المدينة حصارا صحيحا نوعا ما، وأما تسليمها الأول فلم تكن ثمت ضرورة من ضرورات الحرب تدعو إليه[1] .

---

(١) إنه لمما يؤسف له أن يزيل الإنسان كل هذا النسيج من القصص الذى نسجه خيال العرب فى أخبار حصار الاسكندرية ولكنا لانرى مفرّا من ذلك فالظاهر أن الحق يلوح من ثنايا ما ذكره السيوطى عن كتاب عمرو إلى الخليفة عمر وهو يذكر فيه أن عدد من مات من المسلمين فى هذا الحصار كان اثنين وعشرين مع أن هذا الخطاب قد قيل إنه كتب بعد فتح المدينة الثانى والقصة المعروفة عن عمرو ومولاه وردان ووقوعهما أسيرين فى أثناء حملة حملها العرب على المدينة وارتدوا عنها ما هى إلا خرافة فقد ذكرت هذه القصة عينها عن هذين الرجلين فى دمشق وقد ذكرهما ابن بطريق كلاهما وجعل ختام حصار الاسكندرية أن العرب طردوا الروم منها فهربوا فى البحر والبر . وجاء فى رواية أخرى مثل وصف هذه القصة وأنها قد =

وإنا نعيد هنا ما سبق لنا قوله أن الاسكندرية كانت من المنعة بحيث لا تكاد تنالها قوة عمرو ومن جاء معه من الجنود، فكان دور أسوارها نحو تسعة أميال أو عشرة، ثلاثة منها مما يلي البحر وأكثر ما بقي منها تحميه الغياض والبحيرات والترعة. وإذ كان العدو لا يستطيع أن يقترب إلا من جزء يسير من تلك الأسوار فقد كان من السهل على جند المدينة أن تجعل همها دفع حملاته على هذا الجزء. وإن العرب لو استطاعوا إسكات ما على الأسوار من المجانيق القوية المريعة، وقدروا على الاقتراب منها، لما أمكنهم أن يصدعوا الأسوار بما لديهم من الوسائل وما كان أقلها وأضعفها. وإنا لا نكاد نعرف في تاريخ الاسكندرية أنها أخذت مرة عنوة بغير أن يكون أخذها بخيانة من داخلها.

فمن ذلك نرى أن ذلك الصلح الذي عقده قيرس لم تكن ثمت من ضرورة في الحرب تدعو اليه، ما دامت أساطيل الروم تسيطر على البحر، والعرب بعد أبعد الناس عنه لا يمر بخاطرهم أن يتخذوا فيه قوة. قد يقول قائل إن فتح بابليون قد أوهن الروم وإن جنودهم امتلأوا هيبة من العرب منذ رأوا أنهم لم يصبروا على لقائهم في موطن من المواطن منذ ابتدأت الحرب، وإن الجيش الروماني كان لا يثق في قواده ولا يرى منهم إلا الجبانة والعجز. وهذا كله صحيح لا شك فيه. ولكن كان في الاستطاعة تغيير الحال بأن ترسل جنود غير تلك الجنود وقواد غير أولئك القواد لا تزال في جنانها شدة وفي قلوبها قوة، غير أن ذلك لم يسع اليه أحد. فإن الدولة منذ مات عنها هرقل لم تجد حاكما يلم شعثها ويصرف أمورها ويحملها على سبيلها. وكان أهل الاسكندرية شيعا وطوائف، تقطع ما بينهم الأحقاد والأطماع، فما

= وقعت في حصار غزوة بفلسطين والظاهر أن منشأ هذه القصة ما ذكره ابن عبد الحكم من الأقاصيص الخيالية وقد قال المفتي الأكبر للديار المصرية في تعليق له على الطبري أعطاه لمؤلف هذا الكتاب "ولم يرد في هذا الوصف أيضا ذكر لوقعة عند الإسكندرية وقد جاء في الأخبار المروية أن هذه الوقعة لم تقع إلا بعد ثورة في سنة ٢٥" وهذا هو الحق بغير شك. ولكنه من المفيد أن نذكر ما قاله أبو صالح (صفحة ٧٦) أن عدد المسلمين الذين قتلوا في فتح مصر سوى من قتل منهم في الحصار (ولا ندري أي حصار هذا) كان ١٢٫٣٠٠ وهو تقدير معتدل لمن قتل في المواقع الكثيرة في هذه الحرب الطويلة.

كانت تخلو من هيعة أو وثبة. وجاء بعد ذلك موت هرقل فزاد الحال سوءا إذ شطر حكومة قلب الدولة شطرين ليس بينهما إلا الشحناء والعداوة . فالحق أن موته «كسر شوكة الروم» كما قال المؤرخ العربى، ولكنه كسرها كسرا أبلغ مما قصده ذلك المؤرخ، فان الدولة أغفلت بعده همها الأكبر وهو الدفاع عن حياتها . فشغلتها دسائس (مرتينه) ومكائد (قلنتين) فتركت مصر تجرى فى قضائها، وكانت الاسكندرية إذ ذاك قطب الحوادث يدور عليها أمر مصر ومصيرها ، فلم تجد فى الدولة من يأخذ بيدها . ولو وجدت نصيرا يمدها لنجت من عدوها ولناجزته بعد ذلك على سواء حتى تخرجه من أرض مصر .

لسنا ننكر أن الروم عند فتح الاسكندرية لم يكن لهم أمل فى أن يهاجموا العرب ويخرجوهم من البلاد، ولكن الاسكندرية كانت تطيق الصبر على الحصار مدة سنتين أو ثلاث ريثما يلى الأمر حاكم صلب القناة. فاذا ما كان ذلك لم يكن بالمستبعد أن تعود مصر الى الروم، ولا يمنع من ذلك ما كان من أثر الماضى وجرائره التى أدت الى تمكن العرب فى البلاد تمكنا تصعب زلزلته . فالأمر لم يكن بعد قد أفلت من يد الروم الى حيث لا يرجع اليهم. وقد كان قيرس صاحب الجريرة فى ضياع مصر لا يجديه دفاعه واعتذاره بأن الجيش كان خائر النفس، وأن الناس كانوا شيعا وفرقا لا تجتمع لهم كلمة. فما كان ينبغى النزول عن الاسكندرية بل كان أوجب الأمور الاحتفاظ بها مهما كان فى سبيل ذلك من مشقة، ولكن قيرس أسلمها للعدو خفية وعفوا بغير أن تدعوه الى ذلك ضرورة .

ولا نزال نسائل النفس عن السبب الذى حمل أهل الاسكندرية على قبول ذلك الصلح، والمبادرة الى الرضى عن قيرس بعد أن كانوا قد وثبوا به وأرادوا أن يحصبوه لما رأوا من خيانته . فقد كانوا معروفين بالنزق والتقلب فى الأحوال، ولكنهم لم يكونوا صادرين عن نزق فى انصرافهم عن دولتهم وصدوفهم عنها ورضائهم بالاذعان لحكم الاسلام. وليس ثمت إلا رأى واحد فوق ماسبق لنا ذكره نفسر به

ما كان منهم ، وذلك أنهم كانوا قد سئموا من كثرة ما أصابهم من الحدثان وكرهوا فساد الحكم الذى أثقل كواهلهم مدة أربعين عاما ، وقالوا فى أنفسهم لعلنا نجد فى حكم المسلمين قرارا واطمئنانا نأمن فيه على ديننا فلا نكره على شىء فيه وعلى أموالنا فلا نتحمل من الخراج والجزية إلا قدرا نطيقه . ولعل أكبر ما حملهم على الرضى بحكم العرب رفع ما كان يبهظهم من الضرائب ، فقد كان الروم يجبون من مصر أموالا يتعذر علينا أن نعرف مقدارها ، ولكنها كانت بلا شك كثيرة الأنواع ثقيلة الوطأة شديدة الأذى . فأحل العرب محلها الجزية وخراج الأرض ، ومهما يكن من مقدارها فقد كانت لها فضيلة البساطة ، وكانت ثابتة المقدار محدودة القصد ، وكانت أقل فى جملتها مما كان يجبيه الروم ، أو لقد خيل الى الناس أنها كذلك . ومنذ كان شعور المصريين الوطنى ضئيلا كان تأثرهم بما يمس أموالهم شديدا . ولعل ما كان الناس يتوقعونه من العرب من تخفيف حمل الضرائب كان من أكبر العوامل على فوز المسلمين فى فتوحهم جميعها . وأما فى الإسكندرية فلعل هذا الأمر كان أعظم الأمور أثرا (١) . على أن ما طمع فيه أهل الإسكندرية من تخفيف هذه الأحمال لم يتحقق لهم بل خاب أملهم خيبة ما كان أمرها .

أقر الامبراطور عهد الصلح ولعل ذلك كان آخر ما أتاه فى حكمه ، إذ انتهى فى ذلك الشهر عينه وهو نوفمبر . ويلوح لنا أن عمرو بن العاص كتب شروط ذلك الصلح وأفضى بها إلى أهل مصر ، وكانت تلك الشروط تعدهم بالأمن على أنفسهم وأموالهم وذمتهم وكنائسهم وصلبهم ، وبحمايتهم من أهل النوبة وسواهم من أعدائهم متى دفعوا الجزية (٢) . ولكن المقاومة لم يخب لهبها ولم يخذلها ما كان من تسليم الإسكندرية

(١) ذكر المستر (ملن) فى كتابه "Egypt Under Roman Rule" طائفة عظيمة من أخبار الضرائب ولكنه لا يذكر جملة مقدار ما كان مفروضا على أهل الاسكندرية أو على المصريين فى ذلك الوقت ولا يذكر هل كان أهل الاسكندرية لا يزالون على ما كانوا عليه أيام حكم الرومان من الاعفاء من الجزية كما كانت الحال فى أيام (يوسفوس) . انظر صفحة ١٢٢

(٢) أخذنا هذا الخبر عن أبى المحاسن وهذا نقله عن ابن كثير وقال ابن كثير إن ذلك كان بعد فتح عين شمس ولكن هذا خطأ فالشروط التى يذكرها هى عين شروط صلح الاسكندرية ويزيد على ذلك أن =

العظمى، ولا ما وعد به عمرو من الشروط الحسنة. فقد بقيت بعض البلاد فى شمال مصر السفلى ترفع لواء الروم ولاترضى بالتخلى عنه، مع أن فتح الإسكندرية كان قد قضى على الأمل كله فى دولة الروم، وأصبح بعدها من أشدّ الحماقة أن تصر طائفة على القتال وتأبى الدخول فيا دخل فيه سائر الناس من العهد. فكان لابد للعرب من فتح تلك البلاد حتى يتم لهم الأمر، وكان عمرو قد فرغ مما يشغله و يستطيع السير اليها فى أى وقت شاء.

وكان عمرو فى هذه الأثناء منصرفا الى عمل آخر فى بابليون إذ عزم على أن يبنى للسلمين مدينة جديدة فى السهل الذى يلى الحصن الرومانى، بينه و بين جبل المقطم وكان موضع عسكره. وقد روى البلاذرى أن الزبير هو الذى اختط المدينة واتخذ فيها لنفسه دارا، وجعل فيها السلم الذى صعد عليه الى سور الحصن، و بقى فيها ذلك السلم حتى احترق فى حريق. وأما ياقوت فانه يذكر أربعة نفر أمرهم عمرو أن يقوموا على اختطاط المدينة وتقسيمها[1] بين أحياء العرب وقبائلهم. ومهما يكن من الأمر فلا شك فى أن الذين اختطوا المدينة الجديدة و بنوها كانوا من القبط، إذ لم يكن عند ذلك فى العرب من له علم بذلك الفن ولا دراية به. ومن الجلىّ أن اسم الفسطاط الذى سميت به المدينة اسم أعجمى، وقد اختلف فيه مؤرخو العرب، فهم يقولون إجمالا إن معناه (الخيمة)[2] تتخذ من الأدم أو من الجلد، وكان عمرو يتخذ لنفسه خيمة منها، أو يقولون إن معناها الموضع حيث يجتمع الناس. وجاء فى رواية

= أهل مصر جميعا دخلوا فى ذلك الصلح وهذا على وجه الاجمال يصح قوله عن صلح الاسكندرية على أنه لا شك فى أنه لا يصح قوله عن أى صلح آخر ولم يكن ثمت أى صلح عقد فى عين شمس. (المؤلف)

(٣) راجع الذيل السابع (المعرب)

(١) معاوية بن حديج وشريك بن سمى وعمرو بن قحزم وجبريل بن ناشرة.

(٢) يشك أبو صالح فى هذا التأويل و يقول انها سميت بالفسطاط وهو مجتمع الناس ولم يقم العرب خيمة اذ لم يكن لهم عهد بذلك (صفحة ٧٤).

أن كل مدينة فسطاط . وقد أورد ياقوت ستة أوزان لذلك اللفظ(١) . ويمكننا أن نقول إن علاقة ذلك الإسم بسرادق عمرو وبقصة اليمامة فيها شيء من الصحة فان لفظ (فساط) يرجع بنا الى اللفظ البيزنطى (٢٨*) وهو اللفظ الرومانى (Fossatum) ، وكان فى وقت الفتح لفظا شائعا على العسكر . وكان الرومانيون فى حصن بابليون بلا مراء إذا ذكروا موضع عسكر العرب سموه "الفساطون" (٢٩*) فأخذ عنهم العرب ذلك اللفظ . وإنه لمن أعجب الأمور أن يظهر ذلك الرأى للناس كأنه جديد مستغرب(٢) .

وانه لمن البعيد أن تكون مدينة الفسطاط قد جعلت عند اختطاطها مدينة عظيمة أو أنه كان يقصد منها أن تكون عاصمة للمسلمين(٣) ، فقد كان انحصار

(١) الفُسطاط والفِسطاط والفُسّاط والفِسّاط والفُستاط والفَستاط . ولكى نعرف الأدلة على أن الكلمة مشتقة من اللفظ الرومانى (Fossatum) انظر كتاب سفوكابيز "القاموس البيزنطى" (٣٠*) ولعل العرب سموا هذا اللفظ فى الشام كما سموه عند حصن بابليون وأكثر ما يطلق على ما يتصل بالمدن المحصنة ولعل هذا الاتصال هو الذى جعل بعض العرب يذهب الى أن الفسطاط معناها المدينة (انظر خطط المقريزى الجزء الأول صفحة ٢٩٦) والخبر الذى أشرنا اليه فى المتن ورد فى ياقوت إذ يقول إنه قد جاء فى الحديث ما معناه أن عليكم الاجتماع فان يد الله فوق الفسطاط ومعنى ذلك المدينة التى يجتمع الناس فيها وعلى هذا فان كل مدينة فسطاط ويقول ابن الفقيه أن البصرة كان يطلق عليها اسم الفسطاط .

(٢) يقرب الدكتور (وليس بدج) الى الحقيقة فى كتابه الصغير المسمى (النيل) صفحة ١١٢ (ت . كوك وولده لندن سنة ١٨٩٠) ومع أنه يقول فى تعليق له ان اللفظ العربى فسطاط صورة أخرى من فساط وهو لفظ يونانى بيزنطى (٣١*) فانه يقول فى المتن أن الفسطاط معناه الخيمة وإنه لمن المشكوك فيه أن يكون العرب قد اتخذوا الخيام فى حروبهم فى ذلك الوقت ولكنا مع صرف النظر عن هذا الشك نرى أن القول إن معنى الفسطاط (العسكر) قول قائم على أدلة تاريخية ولغوية قوية فهو فى حكم الثابت المقرر .

(٣) تاريخ انشاء الفسطاط مختلف فيه طبعا فالظاهر أن البلاذرى يزعم أنه كان بعد فتح بابليون فى حين أن أكثر المؤرخين يجعله بعد فتح الاسكندرية عندما أبى عمر أن يبيح لعمرو المقام فى الاسكندرية ونرى أنه من المحتمل أن يكون بناء المدينة قد بدأ بعد صلح الاسكندرية كما ذكرنا فى متن الكتاب وأنها زادت فيما بعد حتى صارت مدينة وعاصمة ذات شأن كبير عند ما قضى عمر بعدم المقام فى الاسكندرية ونرى أن (Weil) قد أخطأ إذ قال إن بناءها كان بعد ما دخل العرب الاسكندرية كما أنه أخطأ إذ زعم أن الاسكندرية فتحت عنوة وقد قال أبو المحاسن صراحة أن عمرا بنى الفسطاط فى سنة ٢١ هجرية بعد فتح الاسكندرية وقد وقع شتاء (٦٤١ – ٢) بعد ١٠ ديسمبر فى سنة ٢١ للهجرة .

الجنود فى الحصن مما أفسد حالهم ونغص عليهم عيشهم، وما كان من العدل ولا من المستحسن أن يخرج المسلمون أهل مصر من ديارهم ليحلوا محلهم . وعلى ذلك فقد رأى العرب أنهم يستطيعون البناء خارج أسوار الحصن لا يخافون شيئا، بعد أن وضعت الحرب أوزارها وأمنوا الكيد أن يأتيهم من جانب ذلك الاقليم . ولكن المدينة وإن ابتدأت صغيرة، نمت نماء سريعا بعد سنة من انشائها منذ أبى الخليفة عمر أن يبيح لعمرو أن يتخذ الإسكندرية عاصمة، فاتسعت عند ذلك فسطاط مصر وكانت تسمى بالاسمين معا، حتى عمت الفضاء الفسيح الذى نرى به اليوم تلك الأكوام من الأقذار فى جنوب القاهرة، ومنذ ذلك الوقت صارت عاصمة مصر. ثم نشأت بعد ذلك ضاحية فى ظاهر الفسطاط من قبل الشمال وكان اسمها العسكر، وانتقلت إليها قاعدة الحكم . ثم تلا ذلك بناء القطائع فى شمال العسكر بناها أحمد بن طولون واتخذ فيها الطولونيون قصورا لهم[(١)] . فلما انقضت دولة الطولونيين رجعت العسكر الى شأنها الأول حينا من الدهر، ثم قضى عليها فى أواخر القرن العاشر إذ جاء الفاطميون الى مصر وبنوا لهم عاصمة جديدة وهى مصر (القاهرة) أى المنصورة. وقد أخذ أهل البندقية الوصف (القاهرة) ولم يأخذوا الاسم (مصر) ونقلوه محرفا الى لغات أوربا وهو (كيرو) .

وإنا نرى الى اليوم جامعا عتيقا فى شمال الحصن الرومانى المتهدم ويبعد عنه بقليل، وهو أقدم مسجد فى مصر يؤمه السفار ويعرفونه، فلا حاجة بنا الى اثبات وصفه هنا، ونظن أن انشاءه كان فى ذلك الشتاء من سنتى ٦٤١ و ٦٤٢[(٢)] وقد اختار عمرو لبنائه الموضع الذى كان فيه لواؤه[(٣)]، وصار يعرف باسم مسجد

(١) معنى لفظ القطائع ما يقطع من الأرض للأمراء (fiefs) وقد ترجم كاترمير من المقريزى وصفا بديعا لذلك الحى المسمى بهذا الاسم وما كان فيه من الأبنية الجميلة (Mem. Geog. et Hist.) صفحة ٤٥٨ وما بعدها من الجزء الثانى وجاء قبل ذلك وصفه للعسكر (صفحة ٤٥٢) .

(٢) جاء فى المقريزى ما يفيد أن ذلك اللواء لم يكن لواء جيش عمرو بن العاص بل كان راية أقامها لبعض البطون إذ لم يكن لكل بطن منهم من العدد ما ينفرد بدعوة من الديوان فكره كل بطن منهم أن يدعى باسم قبيلة غير قبيلته فجعل لهم عمرو راية ولم ينسبها إلى أحد فقال يكون موقفكم تحتها الخ (المعرب) .

(٣) جاء هذا التاريخ (٢١ هجرية) فى ياقوت وأبى المحاسن .

أهـل الراية[١] . وكان ذلك الموضـع بين بساتين وكروم[٢] تلى شاطئ النهر[٣] ، وقد حل فيه قبـل بناء الجامع أبو عبد الرحمن قيسبة بن كلثوم ، فلما طلبه عمرو منه نزل عنه صـدقة للمسلمين . وكان المسجد من أوّل ما يجب على المسلمين اتخاذه . ولقد كان جامع عمرو فى الأصـل مسجدا ساذجا ، وكان ذرعه خمسين ذراعا فى ثلاثين وسقفه مطأطأ ، وكانـ أمامه فضاء ، ولم يجعل له صحن ، ومدّ الطريق حوله وجعلت له ستة أبواب . ثم ظهر ضيقه بالمصلين فكان الناس يصطفون للصلاة فى الفضاء الذى أمامه . وقيل ان الذين أقاموا القبلة كانوا ثمانية[٤] من أصحاب الرسول : فيهم الزبير ، والمقداد بن الأسود[٥] ، وعبادة بن الصامت ؛ وكانت قبلته منحرفة الى الشرق انحرافا أكثر مما هى عليه اليوم . ولمـا تم بناؤه وضع فيه منبر وكان عمرو يقوم عليه فى خطبته[٦] حتى تقدّم إليه الخليفة عمر يعزم عليه فى كسره ، ولامه على أنه يطأ رؤوس المؤمنين إذ يقوم عليه والمسلمون جلوس تحت عقبيه . وقد زيدت فيه زيادات كان أولهـا ما زاده مسلمة بن مخلد فى سنة ٦٧٣ للميلاد[٧] فإنه مدّه الى جهة الشمال وفرشه بالحصر بدل الحصباء ، وبنى فيه صومعة عند كل ركن من أركانه . وجعل فيه منائر نقش عليها

(١) جاء هـذا فى ياقوت وإن الخبر الذى يذكر أن هـذا موضع راية عمرو وليس موضع خيمته هو الأقرب ، وهذا يقرر الرأى الذى يقول إن اشتقاق ذلك الاسم (الفسطاط) من اللفظ الرومانى (٣٢*) .

(٢) السيوطى عن ابن عبد الحكم .

(٣) أنظر كاترمير (Mem. Geog. et Hist.) الجزء الأوّل صفحة ٧١ وما بعدها وقد علق هامكر على الواقدى (Expugnatio Memphidis) صفحة ١٣٢ من الذيل ففنـد عبارته التى قال فيهـا إن المسجد بنى فى موضع كنيسة مسيحية وهـذا الخطأ ولا شك قد نشأ من أن بعض الأعمدة التى أدخلت فى بناء هذا المسجد فيما بعد أخذت من بعض أبنية مسيحية .

(٤) هذا عن السيوطى و يقول غيره بل ثلاثين وآخرون يقولون ثمـانين .

(٥) جاء فى الأصل الانجليزى القداد بن الأسود وهو تحريف (المعرب) .

(٦) يذكر أبو المحاسن نقلا عن ابن عبـد الحكم خطبة طويلة خطبها عمرو وهى على الأقل خطبـة بديعة اللفظ .

(٧) يذكر ياقوت والسيوطى سنة ٥٣ للهجرة فى حين أن أبا المحاسن يكتب سنة ٦٣ وهذا التاريخ الأخير محرّف من غير شك .

اسمه، وزاد عدد المؤذنين وأمرهم أن يؤذنوا للفجر إذا مضى نصف الليل(١) . وأمر ألا يضرب فيه بناقوس(٢) عند الفجر كما كان يفعل أولا . وفى حوالى سنة ٦٩٦(٣) أمر عبد العزيز بن مروان بهدم جزء منه ، ولعله أمر بهدم الزيادة التى زيدت فيه، وأعاد بناءه . ثم أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بعد ذلك فى سنة ٧١١(٤) واليه قرة بن شريك أن يهدم المسجد كله ويعيد بناءه، فصار بعد ذلك إلى صورته التى بقى إلى اليوم محتفظاً(٥) بجلها مع ما دخل عليه من التغيير فيما بعد(٦) .

ولا نعرف إلا قليلا من وصف البناء الذى بناه الناس فى الفسطاط، فقد كانت أكثر المنازل من اللبن ثم علا فيها البناء حتى صار الى طبقات أربع أو خمس . فإذا

(١) هذا مأخوذ عن المقريزى وقد جاء فى الأصل الانجليزى وأمرهم أن يؤذنوا (عند الفجر) ولعله تصرف من المؤلف لأنه نقل هذا عن المقريزى لاتفاق باقى النص معه (المعرب) .

(٢) الناقوس هو آلة من الخشب كان يستعمل عند المسيحيين قبل الأجراس ولا يزال الى اليوم مستعملا فى كثير من بلاد الاسلام حيث تكره الأجراس أو تحرم وقد ذكر أبو المحاسن خبر إبطال المسلمين فى مصر لاستعمالها وكانت النواقيس تتخذ أحيانا من المعدن وهى عبارة عن قطعة من الحديد أو النحاس معلقة فى خيط أنظر كتاب (Vensleb) "His. de l'Eglise d'Alex." (صفحة ٥٩) وكتاب بتلر "Anc. Cop. Ch." (الجزء الثانى صفحة ٧٩ — ٨٠) وكتاب (Pereira) "Vida do Abba Daniel" (صفحة ٥٠ هامش ١) وكتاب (Hamaker) "Expugn. Memph." صفحة ١٦٦ وما بعدها وقد ورد فيه هذا الأمر بتفصيل عظيم .

(٣) سنة ٧٧ للهجرة . (٤) سنة ٩٢ للهجرة .

(٥) هكذا قال السيوطى حوالى سنة ١٥٠٠ للميلاد ومن الثابت أنه لم يدخل بعد ذلك تغيير كبير عليه بعد هذا التاريخ .

(٦) ودخلت عليه زيادة فى سنة ٧٥٠ عند ما كان صالح بن على حاكما على مصر ثم فى أيام هرون الرشيد حوالى سنة ٧٩١ ثم زيدت عليه زيادات فى سنة ٨٢٦ فى زمن عبد الله بن طاهر وفى سنة ٨٧١ فى زمن أبى أيوب أحمد بن محمد ولكن ما زاده عبد الله بن طاهر تهدم سنة ٨٨٤ على أثر حريق فأعاده السلطان المجيد خمارويه وأدخلت عليه تحسينات عدة فى القرن العاشر ولكن الخليفة المجنون الحاكم بأمر الله شوهه بأن نزع عنه الفسيفساء وجعل مكانه طلاء أبيض من الجير وإذا أراد القارئ الزيادة من هذا الوصف فانا نصف له تاريخا مفصلا ووصفا لمسجد عمرو فى مقالة بديعة كتبها المستر (ا . ك كوربت) فى جريدة الجمعية الملكية الأسيوية (شهر اكتوبر سنة ١٨٩٠ الجزء ٢٢) وتجد مع ذلك المقال رسوما وايضاحات وتجد أيضا وصفا دقيقا بديعا للسجد فى كتاب ابن دقماق (الجزء الرابع صفحة ٥٩ و ٦٧) وقد وجدت النسخة المخطوطة منه وطبعت بعد ظهور مقال المستر كوربت .

أردنا أن نصوّر لأنفسنا صورة تلك المنازل كان لا بد لنا أن نصوّرها قطعا عظيمة من البناء، قائمة على غير استواء ولا نظام، تدعمها أعمدة رومانية لا شيء فيها من الزينة ولا من جمال التنسيق، تشبه كل الشبه ما هو موجود أو ما كان لا يزال فى مدينة رشيد من البناء منذ عشرين عاما . وقيل إن بعض هذه المنازل الكبرى كان يسكن فيه نحو مائتى فرد وكانت الطبقة السفلى مما يلى الأرض لا يسكنها أحد إلا قليلا . وقيل إن خارجة بن حذافة النائب المعروف الذى كان عمرو ينيبه عنه كان أوّل من اتخذ لداره مشربة أو طنفا ، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو أنه ما فعل ذلك إلا ليشرف على من حوله و يطلع على عوراتهم وسرهم ، وأمره أن يهدمها . وقد بنيت فى الفسطاط حمامات كان يسمى أحدها (حمام الفار) إذ كانت صغيرة حقيرة البناء إذا قيست بحمامات الرومان العظيمة .

وكان لا بد للمدينة فوق مسجدها ومنازلها وحماماتها أن يكون لها مقبرة ، وقد رويت فى ذلك قصة عجيبة وذلك أن قيرس المقوقس بعث إلى عمرو أن يبيعه قطعة من الأرض عند سفح الجبل بسبعين ألف دينار ، فلما سئل عن سر ذلك الثمن العظيم قال إنه قد جاء فى كتبهم أن ذلك الموضع روضة من رياض الجنة . فلما علم عمر بن الخطاب بذلك قال إنما روضة الجنة حيث يدفن المؤمنون وأبى ذلك البيع على المقوقس ، وأمر بجعل تلك الأرض مقبرة للمسلمين . وقد دفن فيها فيما بعد عمرو بن العاص وأربعة من الصحابة .

ثم أقبل عمرو على عمل عظيم آخر وهو حفر خليج تراجان (١) . وكان ذلك الخليج يخرج من النيل إلى شمال بابليون بقليل فيمرّ بمدينة عين شمس ، ثم يسير فى وادى

(١) قد خالفنا الكندى بجعل حفر قناة تراجان فى هذا الشتاء من عام (٦٤١ — ٢) فانه يقول إن ذلك كان سنة ٢٣ للهجرة وهى تبدأ فى نوفبر سنة ٦٤٣ ولكن من المعلوم أنه قبل موت عمر فى ذى الحجة سنة ٢٣ كانت السفن المصرية تأتى إلى بلاد العرب تحمل البضائع اليها ولا يعقل أن كل هذا الخليج يمكن أن يحفر و يجهز لسير السفن فى أقل من سنة و إنه من الممكن طبعا أن هذا العمل عمل فى الشتاء الذى قبله أى سنة (٦٤٢ — ٣) ولكن هذا التاريخ غير محتمل فقد كان عمرو عند ذلك مشغولا فى فتح بنطابولس وفوق =

الطميلات الى موضع القنطرة حتى يتصل بالبحر الأحمر عند القلزم[1]، وقد أهمل الروم أمره حتى سدّه الطين . وكان أقدم عهدا من حكم تراجان وإنما سمى باسمه لأنه أعاد كريه وأصلحه كما عزم عمرو بن العاص على أن يفعل به عند ذلك . وقد أظهر العلامة (قيل[2]) أن جزءا منه إن لم يكن كله يرجع الفضل فى حفره الى فرعون مصر (نخاو)، وهو الذى حفر خليجا فى برزخ السويس من البحر الأبيض الى البحر الأحمر، وقد أصلحت الترعة مرة أخرى فى مدّة بطليموس الثانى (فلادلفوس) ولكنه جعلها تنفصل من النيل عند (فاقوس) بعد أن كانت تنفصل عنه عند (بو بسطة) .

= ذلك نرى أنه لاشك فى أن حنا النقيوسى يقصد أن يذكر أن هذا العمل كان فى شتاء (٦٤١ — ٢) فهو يذكر على الأقل أن البدء فى حفره كان فى مدة حياة قيرس وقبل مسير العرب إلى بنطابولس وهو يقول إن ذلك كان بعد أن استولى العرب على البلاد ولكن من الواضح أن حنا يعتبر الفتح العربى قد تم قبل موت قيرس أى فى هذا الوقت . ولا يوجد شىء من الوجاهة فى صحة قول من يقول إن موضع ذكر هذا العمل فى كتاب حنا (صفحة ٥٧٧ — ٨) يدل على غير ذلك التاريخ لأن كتاب حنا غير مرتب ترتيبا حسنا وقد يقال إن العرب لم يملكوا مصر ملكا تاما بصلح الاسكندرية وهذا صحيح إذا تقيدنا بالألفاظ ولكن الأمر الواقع أن فتح مصر كان عند ذلك قد تم تقريبا إلا فى أقصى الشمال من مصر السفلى وفوق ذلك قد جاء فى البلاذرى ما يعزز التاريخ الأول وهو شتاء (٦٤١ — ٢) فانه يقول (صفحة ٢١٦) إن فى عام المجاعة (سنة ٢١ هجرية) كتب عمر الى عمرو يأمره أن يرسل الجزية عينا (أى من القمح وغيره من الأشياء) الى المدينة بالبحر وقد بقيت على ذلك مع انقطاع فى بعض الأحيان الى أيام أبى جعفر المنصور وهذا لا يدل على أن الخليج تم حفره فى ذلك العام (٢١ هجرية) التى تنتهى فى ٢٩ نوفمبر سنة ٦٤٢ ولكنه يدل على أن عمرا عرف قيمة مثل ذلك الخليج الذى يجعل طريق البحر متصلا فعلى الاجمال نرى أن الدليل قوى على أن بدء حفر ذلك الخليج كان فى أوائل سنة ٦٤٢ وذلك على رغم ما ذهب اليه (Weil) ولعله لم ينته قبل سنة ٦٤٣ ولكن (Weil) يذكر أن ابن عبد الحكم ذكر فى وصفه المفصل أن عمر ذهب الى (الجار) وهى فرضة المدينة ليرى مجىء السفن الآتية من مصر وهذا يدل على أن ذلك الخليج كان تاما ومستعملا قبل وفاة عمر (نوفمبر ٦٤٤) ولعله تم فى شتاء (٦٤٣ — ٤) واستعمل فى فيضان سنة ٦٤٤ لأوّل مرة .

(١) أنظر كاترمير "Mem. Geog. et. Hist." الجزء الأوّل صفحة ١٧٦ وما بعدها .

(٢) "Geschichte der Chalifen" الجزء الأوّل صفحة ١٣٠ وما بعدها ويشير (Weil) الى الجزء الثانى صفحة ١٥٨ من كتاب (Mannert) وهو (Geog. der Gr. und Romer) الجزء العاشر (X. I S.) صفحة ٥٠٣ وما بعدها ومقال (Letronne) فى مجلة العالمين (XXVII) ٢١٥، وتجد بعض الأخبار عن ذلك فى كتاب أبى صالح صفحة (١٧٢ — ٣) وهوامشها وهامش صفحة ٨٨ وقد ردم حديثا مجرى الخليج الواقع فى القاهرة ويجرى فيه اليوم طريق الكهرباء .

ولسنا نعرف الوقت الذى حفر فيه جزء الترعة الذى بين بوبسطة وبابليون . على أن هذه الترعة لم تكن ذات غناء كبير لأن الماء لم يكن يجرى فيها إلا عند فيض النيل. ولما أهمل أمرها أصبحت من بعد القرن الثانى للميلاد غير صالحة لسير السفن، وكان لا بد للرمل أن يسدها بالسقوط فيها إذا ما قل تعهدها والاعتناء بأمرها: وقيل إنها كانت فى ذلك الوقت خفية الأثر حتى احتاج عمرو الى من يدله على موضعها من القبط فأجازه برفع الجزية عنه . ولكن سرعة حفرها وإعادتها إلى الصلاح تدلنا على أن بعض مجراها الذى طوله تسعون ميلا كان لا يزال صالحا. على أن مثل ذلك الاسراع لم يكن عجيبا إذ كان يعمل فيها عدد عظيم من أهل البلاد يساقون الى ذلك كأنهم أرقاء، يسوقهم من ورائهم مقدّمون وخول على ما جرت به سنة أهل مصر منذ أقدم الأزمان . ويلوح لنا أن العرب لجأوا الى هذه السخرة بشدّة لم تعهد من قبل حتى لقد وصفهم (حنا النقيوسى) وصفا شديدا وتناولهم بالقول القاذع فقال "وكان نيرهم على أهل مصر أشدّ وطأة من نير فرعون على بنى اسرائيل، ولقد انتقم الله منه انتقاما عادلا بأن أغرقه فى البحر الأحمر بعد أن أرسل صنوف بلائه على الناس والحيوان، ونسأل الله إذا ما حل حسابه لهؤلاء المسلمين أن يأخذهم بما أخذ به فرعون من قبل[1]" ولكن الظاهر أن هذه الشدّة إنما جاءت عفوا فى وقت الفتح ولم تكن صفة ثابتة لحكومة عمرو فى مصر .

وقيل إن عمرا كان ينوى حفر خليج بين بحيرة التمساح والبحر الأبيض المتوسط فيكون بذلك قد قطع البرزخ بالبحر كما هو اليوم، ولكن عمر بن الخطاب أبى عليه ذلك وأنكره قائلا إنه يمكن الروم من السير الى البحر الأحمر وقطع السبيل على من أراد الحج، وليس فى هذه القصة شبهة تمنع من تصديقها .

ولم ينصرف القائد العربى كل الانصراف الى هذه الأعمال السلمية فلم تشغله عن أمور الحرب والقتال، فانه رأى البلاد قد صارت الى الإذعان للعرب منذ عهد

(١) حنا النقيوسى صفحة ٥٧٨

الاسكندرية لاينقص من سلطانهم عليها إلا بعض بلدان فى شمال مصر السفلى، ولا سيما ما كان منهـا على شاطئ البحر إذ أبت أن تدخل فيما دخل فيه الناس من العهد. وكان لعمرو أن يسير اليها إذا شاء فيقاتلها ولو كان ذلك فى مدّة الهدنة، ويلوح لنا أنه قد وجه لقتالها جيشا فى ربيع سنة ٦٤٢؛ ومن العسير أن نصف ما كان من سير جيش العرب لا سيما وأن حنا النقيوسى لا يذكر شيئا من أمر القتال فى هذه المدة، فلا بد لنا من الاعتماد على مؤرخى العرب وما جاء فى أخبارهم، ومن أشـق الأمور فهمها أو الربط بين أجزائها.

فلا نجد مع هذا ندحا من أن نلجأ الى التصور والحدس، فنقول إن جيش العرب لا بد قد سار من كريون نحو الشرق على ساحل النهر. وكانت فى الاقليم الذى كان يعرف بالحوف الغربى مدينة اسمها (إخنا) ليست بعيدة عن الاسكندرية[1]. وكان حاكمها اسمه (طلما) فأتى اليه كتاب من عمرو يعرض عليه فيه شروط الصلح الذى صالح عليه (قيرس)، ولكنه لم يقنع بما جاءه فى ذلك الكتاب، فأرسل الى عمرو يطلب الاجتماع به، فسأله عن مقدار الجزية. فلم يطق قائد العرب احتمال هذه المراجعة وأشار الى كنيسة قريبـة وقال "لو أعطيتنى من الركن الى السـقف ما أخبرتك إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم[2]". ولا بدّ أن (طلمـا) كره هذا الرد وعزم على ألا يذعن، وعلى ذلك سار المسـلمون إلى (إخنا) وما لبثوا أن أرغموها على التسليم لهم. وقد أخذوا منها أسارى كثيرة وبعثوا بهم الى الخليفة عمر فى المدينة، مع أن تلك القرية سلمت إليهم صلحا بعقد وعهد.

(١) ياقوت الجزء الأول صفحة ١٦٦ ولسنا نستطيع أن نعرف موضع (إخنا) على الخرائط الحديثة ولا بين أسماء القرى..

(٢) هـذا القول يخالف كل المخالفة الاتفاق المعقود الذى حدّد الجزية وجعلها لا تتغير وإذا صح أنه قيل عند ذلك كان لا بدّ ناشئا من غضب ولكن الأقرب الى العقل أن هذه الكلمات إنمـا قيلت فيما بعد عند ما ضيق الحصار على إخنا وكان لا بدّ لهـا من التسليم وفى هذه الحالة يكون قول عمرو له مبرر إذ يكون عمرو غير مقيد بصلح الاسكندرية بعد أن أبته تلك المدينة وقاتلت العرب حتى فتحوها عنوة.

وقد حدث مثل ذلك لمدينة (بلهيب)[(١)]، وكانت مدينة منيعة فى جنوب رشيد تبعد عنها بضعة أميال. والظاهر أن عمرا أتاه هناك رد الخليفة عمر باقرار صلح الإسكندرية[(٢)]. فقرأ عمرو كتاب الخليفة على الناس وقد جاء فيه أن يخير الأسرى، فمن رضى الدخول فى الاسلام منهم أطلق سراحه وصار للمسلمين أخا. فيروى أنه دخلت فى الإسلام طائفة كبيرة من الأسرى، وكان المسلمون يكبرون فرحا كلما أسلم منهم أحد. ولكن لم يقع مثل هذا كثيرا أن يسلم جماعة مرة واحدة فى مقام واحد، بل إن هذا الأمر ليس له نظير فى وقت آخر، ولو صح أنه وقع لكان الباعث عليه طمعا عظيما فى أمر من أمور الدنيا، فى قلوب لم تكن عقيدتها ثابتة، ولعل تلك القصة قد داخلها تحريف ومبالغة.

ويذكر مع صلح (إخنا) صلح آخر عقد مع (قزمان) — ولعله قزماس — حاكم رشيد وصلح مع (حنا) حاكم البرلس[(٣)]. ويلوح لنا أن العرب ساروا من بعد البرلس على شاطئ البحر حتى بلغوا دمياط[(٤)] ولم يقف لهم حاكم المدينة (حنا)، وأصبح العرب بفتح دمياط مسيطرين على منافذ النيل إلى البحر جميعا. ثم فتحت (خيس)

---

(١) أنظر ماسبق فى هامش ١ صفحة ٢٥٢ ويسمى البلاذرى هذا الموضع بلهيت وهذا خطأ نقله أبو المحاسن والسيوطى ولكن ياقوت يذكر الاسم الصحيح.

(٢) قد سبق لنا ذكر الأسباب التى دعتنا الى مخالفة ماجاء فى قصة بلهيب التى جاءت فى صفحة ١٠ من كتاب الأستاذ (لين پول) "مصر فى القرون الوسطى" بأنه من المستحيل من الجهة التاريخية والجهة الجغرافية أن يكون عمرو قد قضى مدة الهدنة هناك.

(٣) كانت رشيد بالطبع مشرفة على مدخل فرع النيل الغربى و بلهيب مشرفة على المجرى الذى بين فرع رشيد والاسكندرية وكانت البرلس مدينة على مصب الفرع السبنيتى للنيل ولا تزال المدينة و إقليمها محتفظين بهذا الاسم الى اليوم مع أن فرع النيل السبنيتى قد طم منذ زمن طويل وتكون من ذلك بحيرة لا يحجزها عن البحر إلا قطعة ضئيلة من الرمل وقد ذكر المقريزى أسماء البلاد اخنا والبرلس ورشيد مجتمعة.

(٤) جاء فى البلاذرى ذكر فتح دمياط فقال إن البعث الذى أرسل الى تنيس ودمياط وتونة ودميره وشطا ودقهلة وبنا و بوصير كان أميره عمير بن وهب الجمحى و إنه أقرب من الاحتمال أن يكون عمرو قد وكل قيادة هذا البعث الى أمير نائب عنه ولا يذكر البلاذرى أى قتال بل يقول إن عميرا صالح أهل تلك البلاد على شروط الصلح العام الذى صالح عليه عمرو.

فى الإقليم المعروف بالحوف بقرب دمياط[1]، وأكبر الظن أن سلطان العرب صار يمتد عند ذلك على كل بلاد مصر السفلى، اللهم إلا بلادا قليلة كانت فى الجزائر التى فى زقارق بحيرة المنزلة الفسيحة .

وكانت الأرض التى تغطيها مياه تلك البحيرة الى ما قبل الفتح العربى بقرن[2] واحد لا تضارعها فى بلاد مصر كلها أرض أخرى فى جودة هوائها وخصبها وغناها، إلا إذا قلت بلاد الفيوم فقد تكون عدلا لها . وكانت أرضها ترويها ترع لا تنضب مياهها تأتى من النيل، فكانت تنبت نباتا يانعا من القمح والنخيل والأعناب وسائر الشجر . غير أن البحر طغى عليها فاقتحم ما كان يحجزه من كثبان الرمل، وكانت المياه تزيد طغيانا عاما بعد عام حتى عمت السهل الوطىء كله، ولم يبق فوق وجهها إلا عدد من الجزائر بعد أن أكلت المياه ما كان هناك من حقول وقرى، فلم ينج منها إلا ما كان عاليا لا تناله المياه . وأعظم ما نجا من قرى تلك الأرض مدينة (تنيس) الشهيرة، وكانت مدينة لها شىء من الاتساع والكبر، وكانت ذات بناء جميل تجود بها صناعة المنسوجات الدقيقة . وكانت فى البحيرة التى تخلفت مدائن أخرى اشتهرت ببراعة صناعها فى النسيج مثل (طونه) و (دميرة) و (دبيق)، ولكن لم تبلغ إحداها

---

(١) يختلف مؤرخو العرب كثيرا فى أسماء البلاد التى قاومت العرب فيذكر البلاذرى بلهيت (وهى بلهيب) والخيس وسلطيس فى موضع ويذكر فى موضع آخر كما رأينا أسماء البلاد سخا وبلهيت والخيس وسلطيس ويقول إنها ساعدت الروم فى وقعة سنطيس ويضم ياقوت الى هذه البلاد مدينة (فرطسا) ويقول إن عمرا بعد أخذ الاسكندرية أسر أهل تلك البلاد وبعث بهم الى المدينة ويعين ياقوت موضع الخيس ويذكر المقريزى عقود صلح مكتوبة مع إخنا ورشيد والبرلس وسلطيس ومسيل وبلهيب وكذلك يقول السيوطى وأما الخيس فيجب أن تكون المدينة التى يصفها ياقوت فى الجزء الثانى صفحة ٥٠٧ بأنها فى الحوف الغربى وأن الذى فتحها خارجة بن حذافة وقد وصف الحوف الغربى بأنه بقرب دمياط فى حين أن الحوف الشرقى كان مما يلى الشام ولكن الخيس فى الوصف الذى نقله كاترمير (Mem. Geog. et Hist.) الجزء الأول صفحة ٢٨٧ وما بعدها يظهر أنه فى شرق الفرما ولعله موضع آخر .

(٢) فى سنة ٢٥١ من التاريخ القبطى واذا أردت معرفة شىء عن أخبار هذه البلاد التى غمرتها البحيرة فارجع الى كاترمير (Mem. Geog. et Hist.) الجزء الأول صفحة ٢٨٧ وما بعدها وقد ترجم كاترمير كثيرا من قول المقريزى والمسعودى .

مبلغ (تنيس) إذ كانت تضارع دمياط وشطا فى دقة منسوجاتها وجودة أنواعها فما كان فى البلاد كلها غير (تنيس) و (دمياط) ما يستطيع أن يخرج ثوبا من الكتان النقى يبلغ ثمنه مائة دينار (أى خمسين جنيها) . وقد ذكر المسعودى فى تاريخه أن ثوبا صنع هناك للخليفة من عرض واحد بلغ ثمنه ألف دينار، وكان مصنوعا من خيوط الذهب مخلوطة باليسير من دقيق الكتان . وقد ورد فى الأخبار كذلك أن تجارة (تِنيس) مع العراق وحده بلغت من عشرين ألف دينار الى ثلاثين ألفا فى السنة الواحدة، ولكن ذلك كان قبل أن تقضى عليها الضرائب الفادحة .

كانت تِنيس على جزيرة[1] فسيحة وكانت تصل اليها من الجنوب ترعة اسمها بحر الروم، ولعلها كانت بقية فرع النيل التنيسى الذى كان يبلغ (الصالحية) . وكان الاتصال كذلك سهلا فى الماء بينها وبين الفرما ، أو على الأقل بينها وبين (الطينة) وهى ثغر الفرما على ساحل البحر . وقيل إن (تنيس) كان لا يزال بها الى القرن العاشر آثار قديمة سوى ما كان بها من المساجد وعدتها مائة وستون، تزين كلا منها مئذنة عالية ، وما كان بها من الكنائس وعدتها اثنتان وسبعون كنيسة . وكان بها من الحمامات ستة وثلاثون ، وكانت لها أسوار حصينة فيها تسعة عشر بابا مصفحة بالحديد الثقيل[2] . وقيل إن الموتى فى الجزائر الأخرى كانت تحمل فى الماء الى جزيرة (تنيس) لتدفن بها والظاهر أن هذه الموتى كانت تحنط هناك . وقد زارها بعد ذلك بقرن الرحالة الفارسى (ناصرى خسرو)[3] فى عام ١٠٤٧ للميلاد

(١) يزعم كاترمير أن اسم هذه المدينة مشتق من اللفظ اليونانى (نيسوس) وقد أضيفت فى أوله علامة التأنيث القبطية فاذا صح ذلك كان لا بد أن تلك البلاد غمرت من زمن بعيد قبل القرن السادس وفى الحق أن (كاسيان) وكان فى مصر فى سنة ٣٩٠ — سنة ٣٩٧ للميلاد يقول على وجه البت أن (Thinnesus) يحيط بها من جميع جهاتها بحر أو منافع ملحة حتى أن أهلها كانوا يعتمدون كل الاعتماد على البحر فى الانتقال من مكان الى مكان وكانوا يأتون بالطين فى السفن إذا أرادوا أن يوسعوا أرضا ليبنوا عليها بناء .

(٢) كاترمير الجزء الأول صفحة ٣٢٩ ولكنه يقول إن مساحة المدينة كانت ميلا مربعا فقط وهذا خطأ ظاهر وقد دمرت (تنيس) فى سنة ٦٢٤ للهجرة فلم يبق منها إلا الاطلال ولا تزال الجزيرة تعرف بهذا الاسم عينه ولا تزال عليها آثار قديمة .

(٣) أنظر (السفرنامه) طبعة (C. Schefer) صفحة ١١٠ وما بعدها .

فعجب مما رآه من ثرائها ورواج أسواقها فهو يذكر أنه كانت بها عشرة آلاف متجر ونحمسون ألفا من الناس. وكانت فى مراسى جزيرتها ألف سفينة ولم يكن بها شىء من الزرع بل كانت تعتمد فى كل أقواتها على تجارتها . وكان النيل اذا علا وفاض طرد ما حول الجزيرة من مياه البحر الملح، وملأ بالماء العذب ما كان فيها من الصهاريج ومخازن الماء الدفينة فى الأرض، وكانت تلك كافية لشرب الناس طول الحول. وقد بلغت منسوجات القبط البديعة ذات الألوان شأنا عظيما لم تبلغه فى وقت من الأوقات . فكان للسلطان مناسج خاصة به تنسج فيها الأثواب له وحده . وكان الثوب لعمامته تبلغ نفقته أربعة آلاف دينار، ولكن الأثواب التى كانت تصنع للسلطان لم تكن مما يعرض فى الأسواق. وقد طلب إمبراطور الروم أن يأخذ (تنيس) ويعوض عنها بمائة مدينة من مدائن دولته ولكنه لم يجب الى ذلك . وكان مما يصنع فى تلك المدينة سوى هذه الأثواب الملكية نوع من الأثواب اسمه (بوقلمون)، وكان من الحرير المتغير اللون، وكانت لمعته زاهية حتى قيل انه كان يبدو فى ألوان متغيرة فى كل ساعة من ساعات النهار. وكانت صناعة السلاح المتخذ من الصلب من الصناعات التى كادت تبلغ فى تنيس مبلغ منسوجاتها، فكانت على ذلك مدينة من أعجب المدائن وأعظمها شأنا .

ويروى فى القصص أن حاكم (تنيس) كان فى وقت الفتح العربى رجلا من العرب النصارى اسمه (أبو طور)، وأنه خرج لقتال المسلمين على رأس عشرين ألفا من القبط والروم والعرب، فلقيهم فى سيرهم إلى (تنيس) بعد أن فتحوا دمياط[1]، فناجزهم فى مواطن

(١) كاترمير الجزء الأول صفحة ٣٠٧ نقلا عن المسعودى ولا بد أن يكون جيش العرب قد جاء فى الماء ومن السخف إن يقال إن حاكم تنيس استطاع أن يجمع ٢٠٫٠٠٠ رجل أو ينقلهم فى البحيرة ولكن الأرقام فى الكتب العربية يجب ألا تؤخذ ويسلم بها بنصها ويجب علينا بغير شك أن نقرأ هذا العدد ٢٠٠٠ فحسب وقد يكون (أبو طور) من اختراع الخيال ولم يذكر اسم سواه من قواد العرب النصارى فى مصر ولكن هذه القصة جاءت فى كتاب تاريخ لكاتب عربى قديم ومع أن ذلك الكتاب إنما كتب بعد هذه الحادثة المذكورة بثلثمائة عام فان المسعودى نفسه على ما يظهر ينقلها من كتاب تاريخ لمدينة دمياط ولكنه لا يوجد اليوم .

كثيرة قبل أن يظفر العرب ويهزموا جيشه ويأخذوه أسيرا . ومنذ تم لهم ذلك فتحوا المدينة وغنموا أموالها وقسموها ثم ساروا إلى (الفرما) . ومهما يكن من أمر تلك القصة ومبلغها من الصدق أو الخطأ فإنها تحوى أمرين لهما قسط وافر من الثبوت وهما أن (تنيس) دخلت فى سلطان المسلمين فى ذلك الوقت، وأن صناعتها لم يلحق بهـا فتحهم أذى بنفسه . ولم يجد المسلمون ما يحبب إليهم المقـام فى هذه المدينة ولا فى أشباهها من الجزائر التى كانت فى وسط هذه البحيرة تساورها أمواهها الزرقاء مثل (تونه) و(بورا) و(دبيق). وعلى ذلك نستطيع إن نقول إن هذه الجهات ظلت على دينها النصرانى زمنا طويلا بعد ذلك لايكاد يمسها دين الاسلام[1]، ثم قضى عليها وزالت أخبارها من التاريخ وكان ذلك فى وقت نستطيع أن نعينه .

كانت جزيرة (تنيس) مكشوفة للغزو من البحر على أنها كانت محصنة فيها رباط قوى، وأمر صلاح الدين باخلائها فى سنة ١١٩٢، ثم جاء الملك الكامل فى سنة ١٢٢٧ فهدم حصونها وأسوارها حتى تركها أطلالا[2] .

ونتصـل بفتح هذه الجهات قصـة أخرى يجدر بنا أن نشير إليها فإن المقريزى عند ذكره مدينـة شطا يصفها بأنها مدينـة بين (تنيس) و(دمياط) .

(١) ذكر فى سنة ٨٢٤ للميلاد أن (ديونيسيوس) بطريق أنطاكية ساقته الرياح وهو فى السفينة الى ميناء (تانيس) وقيل إنه قد خرج اليه منها ٣٠٠٠٠ من المسيحيين للترحيب به فرحين وقد رحب به بطريق الإسكندرية وجماعة من الأساقفة وقالوا إنه لم يأت إلى مصر بطريق من بطارقة أنطاكيـة منـذ أيام ساويرس ولكن ديونيسيوس كان أحفظ منهـم للتاريخ فذكرهم بزيارة أثناسيوس وكانت فى أوائل القرن السابع وقال لهم إنه قد تم عند ذلك الاتحاد الرسمى بين الكنيستين (أنظر ابن العبرى الجزء الأول فصل ٣٦٠) والمقصود بميناء تانيس لا بد أن يكون الميناء الذى عنـد مصب الفرع التانيتى للنيل وهو بالطبع أقرب الى تنيس منه الى مدينة تانيس وهى أبعد منها فى داخل الجزيرة والاسم العربى الآن صان أو صان الحجر وأثر موضع الميناء لا يزال موجودا على الشاطئ بين الفرما وبورسعيد .

(٢) نجد وصفا حسنا للآثار فى كتاب Ghillebert de Lannoy وهو "Oeuvres receuillies et Publiées" لواضعه (Ch. Potvin) فى (Louvain) سنة ١٨٧٨ (صفحة ١٣٨ – ٩) . وقد نقل عنه (Schefer) فى الجزء الأول .

ويقول إن اسمها مأخوذ عن رجل اسمه شطا بن الهموك عم المقوقس (١)، وهذا الاشتقاق لا حقيقة له . وتذكر القصة بعد ذلك أن العرب عندما حاصروا دمياط وفتحوها خرج إليهم حاكمها (شطا) ومعه ألفان من الناس ، فأظهر إسلامه ، وقد كان من قبل عاكفا على درسه والنظر فيه زمنا طويلا . ثم إن ذلك الرجل لما رأى أن العرب أبطأ عليهم فتح (تنيس) جمع جيشا من البرلس ودميره وأشمون طناح وجهزه ولحق بامداد المسلمين الذين بعث بهم عمرو، ثم سار حتى التقى بالعدو وأظهر من الشجاعة وحسن البلاء مايظهره الأبطال، وقتل بيده اثنى عشر رجلا من فرسان أهل (تنيس) وشجعانهم، وما زال يقاتل حتى قتل فى ذلك اليوم، ودفن فى ظاهر المدينة . ويقول المقريزى إن قبره لا يزال معروفا يزوره الناس من كل أنحاء البلاد المجاورة ليتبركوا به فى يوم مقتله، وهو يوم النصف من شهر شعبان (٢) .

وليس من العسير أن ننقض هذه القصة كلها ونفندها . فان مدينة شطا كانت تعرف بذلك الاسم قبل أن يغزو العرب مصر بزمن طويل، وقد عرفت منذ أزمان بدقة منسوجاتها وجودتها، وفوق ذلك يعرف اسم حاكم دمياط فى ذلك الوقت . وقد ذكره حنا النقيوسى فى ديوانه فهو حنا (٣) وليس (شطا) كما زعم المقريزى، وإن الصلة المزعومة بين (شطا) والمقوقس صلة ظاهرة البطلان . ولكنا إذا قلنا إن ذلك الرجل (شطا)

(١) يسميه الواقدى (الهامرك) ولعله أصح وأنه لا محل لتصديق هذا الخبر عن علاقته بالمقوقس وقد كذب ما قيل من الأقاصيص عن زوجته وابنته اذ كانت لا أساس لها وعلى ذلك يجب أن نكذب أيضا ما ذكر عن ابن عمه بلا تردد كما فعلنا بزوجته وابنته فان قيرس ما كان له أن يكون ذا أهل فى مصر إلا اذا كانوا قد جاءوا معه من بلاده وفى الواقع إن موضع شطا فى شرق دمياط ولكنها بعيدة من تنيس وأما (Tamiatis) القديمة وهى المقصودة هنا فقد كانت أبعد الى الشمال .

(٢) كاترمير الجزء صفحة ٣٣٩ وليس من الواضح هل يقصد المقريزى أن يقول إن ذلك البطل دفن فى (تنيس) أو فى (شطا) والظاهر أن الموضع الذى قتل فيه هو الذى دفن فيه وهذا أقرب لأن الوقت إذذاك كان فى الصيف . ويجدر بنا أن نذكر هنا أن هذه القصة جاءت أيضا فى كتاب الواقدى وصورتها هناك قريبة من تلك الصورة (انظر الكتاب صفحة ١٣٠ وما بعدها) وانظر ١٤٧ — ١٤٨ وهوامشها وصفحة ١٧٩ وصفحة ١٩٠ .

(٣) حنا النقيوسى صفحة ٥٦١ و ٥٨٤

لم يكن له وجود، فان فى القصة أمرا يجعلنا نرفعها فوق مرتبة الوضع والكذب وهو تاريخ الموقعة، فان المؤرخ العربى يذكر يوم وفاة ذلك البطل و يقول إنه يوم الجمعة نصف شعبان من سنة احدى وعشرين للهجرة، وهذا اليوم هو التاسع عشر من شهر يوليه من سنة ٦٤٢ للميلاد، وهو تاريخ لا نستطيع الشك فيه . فان ذلك العام المذكور — أى عام ٦٤٢ هو العام الذى يتفق ومجرى الحوادث التى وقعت فى تاريخ فتح هذه البلاد حقيقة، و إن اليوم المذكور وهو التاسع عشر من يوليه كان حقيقة يوم جمعة، وهذا اتفاق من وجهين يندر وقوعه، فاذا وقع كان التاريخ المذكور حقيقيا لا شك فيه . وزيادة على ما ذكرنا فان زيارة الناس لذلك القبر الى أيام المقريزى لدليل يعزز صدق القصة . فلا يسعنا مع هذا إلا أن نصدّق أنه قد وقع قتال فى اليوم المذكور فى الجزيرة على مقربة من مدينة (تنيس) ، وأن رجلا من الروم جاء من مدينة شطا وقاتل فى ذلك اليوم فأبلى مع المسلمين بلاء حسنا حتى قتل .

وهذا التاريخ له قيمة كبرى ودلالة عظمى، فانه يدلنا على أن مقاومة المصريين للعرب استطال أمرها فى بلاد مصر السفلى وظلت الى ما بعد فتح الإسكندرية . و إذا ذكر أن أهل (تنيس) وما يليها من البلاد الواقعة فى إقليم تلك البحيرة كانوا من القبط الخلص ، تنبض قلوبهم بما تنبض به قلوب القبط ، عرفنا أن وقوع تلك الوقعة فى ذلك الوقت دليل جديد على فساد الرأيين الذين طالما خدعا الناس وتقادم عليهما الدهر وهما يكفران الحقيقة ، وهما أن مصر سلمت للعرب بغير قتال، وأن القبط رحبوا بالعرب ورأوا فيهم الخلاص مما كانوا فيه .

لقد كانت خيانة قيرس للاسكندرية سببا فى القضاء على آخر آمال المسيحيين بالفوز فى مصر، ولكن من العجيب مع ذلك أن تدافع هذه البلاد المتفرقة فى مصر السفلى جيوش الغزاه وتقاومهم نحو عام آخر . ففى هذا آية على أن أهلها كانوا قوما من أولى النخوة والحفاظ بقوا على عهد دينهم وثبتوا عليه ولكن التاريخ لم يجزهم بذلك ما يستحقونه من حسن الأحدوثة، بل لبث ينكرها عليهم زمنا طويلا .

الفصل الثالث والعشرون

انقضاء حكم الروم بمصر

خروج الروم من مصر العليا — اللاجئون الى الاسكندرية — ما فعله قيرس — ذهاب هيبته وخوفه على نفسه — ما حل به من الهم وموته — قصة الخاتم المسموم — بقاء الموظفين من الروم فى أعمالهم — اختيار خلف لقيرس اولاية الدين — تجهم العاصمة — خروج جيش الروم من الاسكندرية وعلى رأسه القائد تيودور

كانت بلاد الصعيد قد تم فتحها ولا سيما إلى حدود إقليم (طيبة) قبل أن تخبو نيران الحرب فى بلاد مصر السفلى بزمن طويل، وكان فتح الصعيد على يد سرية أميرها خارجة بن حذافة. وأخرج الروم من بلاد وادى النيل فى عام ٦٤١ حتى لم يبق منهم فيه إلا قليل، وكان من بقى منهم ضئيل العدد خائر الهمة لا يرزأون المسلمين شيئا ولا ينازعونهم السلطان . فلا تذكر الأخبار شيئا من القتال فى هذا الاقليم بعد ذلك. ولنا أن نقول إن بلاد الصعيد أذعنت للعرب بغير قتال بعد فتح الإسكندرية.

ولكن التاريخ يذكر شيئا من أخبار الإسكندرية فى المدة الباقية من الهدنة، وإنا موردوه هنا . قد رأينا أن المدينة قد ازدحمت بمن لجأ إليها من جميع أنحاء مصر، وقد جلوا عنها عند مقدم العرب إليهم، فلما عقد الصلح كان من شروطه أن جنود الروم ومن حل بالإسكندرية من الرومان لهم الخيار إذا شاءوا جلوا عنها بحرا أو برا . وأما القبط فلم يذكروا فيه بشيء . فلما رأى اللاجئون بالاسكندرية أن السفن تحمل كل يوم طوائف من الناس إلى قبرص ورودس وبيزنطة قلقوا وحنوا للرجوع إلى قراهم، فذهبوا إلى قيرس وطلبوا إليه أن يكلم لهم عمرا فى ذلك، وكانوا يعرفون صلته الوثيقة بقائد العرب . ولكن الظاهر أن عمرا لم يبح لهم الجلاء، ولا عجب فى أن يخيب سعى البطريق فى هذا الأمر إذا عرفنا أن طلبه هذا كان قبل

شهر مارس، إذ كانت الحرب لاتزال ثائرة فى بعض قرى مصر السفلى . وكان أكثر اللائذين من مصر السفلى، فلو أبيح لهم الرجوع إلى قراهم لما أمن أن يقاتلوا جنود المسلمين بأنفسهم، أو أن يمدوا المدائن التى كانت لاتزال مصرة على القتال ولم يفتحها المسلمون بعد .

غير أن قيرس آلمه ألا يجيبه عمرو إلى طلبه وكان ألمه من ذلك شديدا . فقد كان يطمع أن يستميل إليه القبط، ولعله كان يرمى من وراء ذلك إلى أن ينسيهم شيئا من حقدهم عليه، فكان هذا الرفض الذى رفضه عمرو لطلبه ضربة شديدة أصابت سياسته فى هذا الشأن .

والظاهر أنه يئس قبل ذلك أن يحتفظ بنفوذه عليهم، ذلك الذى أراد أن يقيمه بالاتفاق مع المسلمين ومعاونتهم . فامتلأ قلب المقوقس عند ذلك بالخوف وتوقع المصائب، وكان ذلك يزداد به كلما دنا أجل سلطان الروم فى مصر . وكانت الأخبار التى ترد من القسطنطينية لاتبشره بخير، فقد آل أمر مرتينه وابنها الى زوال إذ نحيا عن الحكم أو قتلا، وبويع لقنسطانز وحده بالملك فى آخر نوفمبر من سنة ٦٤١ . ونفى (پيروس) وكان صديقا لقيرس، ويظهر أن قيرس هو الذى استماله الى جانب مرتينه وحزبها . وأعيد (فلاجريوس) من منفاه وكان عدوا شديدا العداوة (لقيرس) . وحاول (ڤلنتين) أن يثور ثورة جديدة[1]، ولكنه أخفق إذ لم يواته الناس وأظهروا له الكراهة، ثم قبض عليه وجىء به إلى الإمبراطور (قنسطانز) ليحاكم على أنه خرج على الدولة وسعى إلى غصب التاج . غير أنه أقسم أغلظ الإيمان على أنه لم يقصد إلى ذلك وأنه إنما كان يجهز جيشا يحارب به المسلمين . فقبل الملك اعتذاره

(١) حنا النقيوسى صفحة ٥٨٢ ويقول زوتنبرج إن تلك الثورة الثانية كانت فى سنة ٦٤٤ ولكن هذا التاريخ مستبعد الصحة فقد قال سبيوس إن الثورة حدثت فى السنة الثانية من حكم قسطنطين (قنسطانز) وذلك معناه أنها حدثت فى سنة ٦٤٢ — ٣ إلا اذا اعتبر أول السنة الثانية أول يناير سنة ٦٤٢ وهو ممكن. وعلى كل حال فان حنا النقيوسى واضح كل الوضوح إذ يقول إن "نصر ڤلنتين ورجوع سلطانه" بعد هذه الثورة كانا من أسباب حزن قيرس وهمه . ولما كانت وفاة قيرس فى سنة ٦٤٢ كانت ثورة ڤلنتين لا بد حوالى شهر يناير من ذلك العام

وأعاده إلى ما كان عليــه وتزوّج من ابنتــه . فأراد (ڤلنتين) أن يظهر صدق نيته فى الإخلاص للملك بفعل يوقع إيقاعا بكل من يظنه مواليا (لمرتينــه) و (پيروس) وكان من هؤلاء (اركاديوس) كبير أساقفة قبرص، فان ڤلنتين اتهمه بالخيانة وأنفذ جماعة من الجند للقبض عليه . فحال الموت دون ذلك إذ مات (اركاديوس) فنجا من أيديهم .

ولكن ذلك الحادث كشف لقيرس عن الخطر المحدق به ، فقــد كان (اركاديوس) رجلا لا تشوبه شائبة، قضى حياة فى عيش القديسين ومع ذلك كان على وشك أن يؤتى به إلى القسطنطينية ليحاكم كما يحاكم أهل الريب، فما بالنا بقيرس وماذا عساه يفعــل إذا هو أوخذ واتهم بمثل تلك التهمة تهمة الخيانة ؟ وقد اشتهر عنه اتصاله بمرتينه و (پيروس)، وكان الناس يعرفون ما اقترف من السعى فى ضياع مصر . وكانت حاشية الملك وحزبها قد أدركوا عنــد ذلك أن ضياع مصر لم يكن من الهنات الهينات، فأخذ منهــم الغيظ مأخذه، وحقــدوا على من جر على الدولة ذلك الشر الوبيل وما لطخ به شرفها من العار والخزى .

لا عجب إذا كان (قيرس) قد استولى عليه الهم وغرق فى الحزن، إذ كانت الأخبار تترى اليه من القسطنطينية بما كان من تلك الأمور، واجتمعت عليه المخاوف فخشى على نفســه أن يأمر الامبراطور بنفيه أو بقتله ، وكان أمره إلى ذلك الحين نافذا فى الإسكندرية . ثم رأى نفسه وقد عجز عن محو أثر اضطهاده من نفوس القبط واستمالتهم إليه، ورأى أن الناس قد أنكروا سياسته للدين إنكارا لا أمل معه فى عودة الرضى عنه، ورأى سياسته فى أمور الدنيا وقد أصابها العار من وراء انتصاره فيها . فأثقل كل ذلك نفسه وأسقم جسمه وأنهى كل أطماعه وآماله وكأنها أحلام تبدّدت وأصبح لا يأمن على شىء حتى على حياته نفسها . وكان كلما رأى الحلقات تتضايق حوله وتساور الهموم حياته، صحا إلى ما كان من أمره وذكر ما قارف من الذنوب وما أصابه من الفشل والخذلان، فكان قلبه يؤنبه وندم على تفريطــه فى أمر مصر

وبكى على تضييعه لها بالدمع السخين(١). وظلت الأكدار تغمره والهموم تحيط به حتى أصابه داء (الدوسنطاريا) فى يوم (أحد السعف) ومات منه فى يوم الخميس الذى بعده فى الحادى والعشرين من مارس من سنة ٦٤٢

ومن الواضح أن وفاته كانت وفاة طبيعية وأن الموت قد عجل اليه لما أصابه من شقاء الهوان ومذلة العار . وقد ذكر حنا النقيوسى وفاته فى موضعين : فقال فى الأول إنه "أثقلته الهموم فمرض بالدوسنطاريا ومات منها" . وقال فى الثانى إنه "بكى بدمع لا ينقطع خوفا من أن يصيبه ما أصابه من قبل وذلك هو النفى وفيما كان غريقا فى حزنه مات كما جرت به سنة العالم(٢)" ولكنه فى موضع منهما يوصف بأنه حزن لما أصاب مصر وما وقع بأهلها من ظلم العرب . وفى الموضع الآخر يوصف بأن أكثر ما أصابه من الحزن كان لرفض العرب شفاعته فى أمر المصريين . وليس من سبب يحملنا على أن نشك فى شيء مما جاء فى هذا الوصف لآخرته، على أنه قد تخلفت رواية قبطية يرجع عهدها الى أيام ساويرس(٣) وهى تصف موته وصفا آخر. فتقول "إن عمرا لما أخذ الإسكندرية واستقر الأمر على يديه فى المدينة خاف الحاكم أن يقتله عمرو، وكان ذلك الحاكم رجلا سيئ الظن يلى أمر الدنيا والدين معا فى المدينة، فلما بلغ منه الخوف جعل فى فمه خاتما مسموما فمات من ساعته". على أننا نعرف أن المقوقس لم يخش عمرا خشيته من الإمبراطور، ولكن القصة أظهرت فى سياق عجيب وتأليف بديع أنه كان يخاف خوفا شديدا، وأن ذلك عجل بموته . بقى شيء آخر مما له اتصال بقصة موت قيرس ويجدر بنا ذكره ، فقد رأينا أن

(١) جاء فى صلب الكتاب قول حنا النقيوسى صفحة ٥٨٢ — ٣ "وكان أعظم سبب لحزنه أن رفض المسلمون ما طلبه منهم لمصلحة المصريين" ولكن عنوان ذلك الفصل أقرب الى الأذهان وهو "موت قيرس الخلقيدونى ندما على تسليم الاسكندرية للسلمين" وهذا بلا شك يدل على ضرورة تصحيح نص الكتاب .

(٢) صفحة ٥٧٨ و ٥٨٢

(٣) نسخة المتحف البريطانى صفحة ١٠٦ أنظر كذلك كتاب (Pereira) حياة "الأنبا صمويل" صفحة ٥٨ وقد اقتبس فيه من تقويم حياة القديسين .

عمرو بن العاص كان يشتد فى وقت الفتح شدّة[1] عظيمة فى معاملة المصريين، ولهذا نجد المؤرخ القبطى يذكره كلما ذكره بالتقبيح والاستهجان على ما أثقل به قومه من الأحمال . ولهذا فإنه عند وصف الأيام الأخيرة من حياة البطريق نراه يقول إن "عمرا لم تكن فى قلبه رحمة بالمصريين ولم يرع العهد الذى عقده معهم إذ كان رجلا من الهمج[2]". ونراه فى موضع آخر[3] يصف ماوقع وصفا مفصلا فيحكى قصة رجل اسمه (ميناس) كان هرقل اختاره حاكما لمصر السفلى فأقره العرب فى مكانه، وكان رجلا غرا جاهلا يكره المصريين كرها شديدا . ويذكر رجلا آخر اسمه (سنوده) أو (سنيوتيوس) أقره العرب على حكم الريف و (فيلوخينوس)[4] أقروه على حكم (أركاديا) وهى الفيوم . ويصف المؤرخ القبطى هؤلاء الثلاثة بأنهم كانوا يكرهون المسيحيين ويوالون أعداءهم ويثقلون كاهلهم بالأحمال الباهظة . وكان القبط يكرهون على أن يحملوا للعرب مؤونة لدوابهم وطعاما لأنفسهم كثيرا من اللبن والعسل والفاكهة والخضر وسوى ذلك من الأشياء فوق ما كانوا يؤدّونه من الطعام المعتاد وهو الضريبة التى كانوا يأخذونها من ثمار الأرض . وكان القبط يؤدّون كل ذلك تحت ظل خوف لا اطمئنان معه .

وهذا الوصف له شأن كبير من وجهين : الأوّل أن هؤلاء الحكام الثلاثة الذين سماهم المؤرخ كانوا أكبر حكام مصر بعد حاكم الإسكندرية ، وكانوا من الروم الملكانيين أتباع قيرس ، ولم يكن بهم عطف على القبط لا فى دينهم ولا فى دنياهم، وهذا يدل على أن الذين دخلوا فى الإسلام لم يكونوا كلهم من القبط

(١) ما سبق فى صفحة ٢٤٧

(٢) صفحة ٥٧٨

(٣) صفحة ٥٧٧

(٤) نجد بين مجموعة البردى التى عند الأرشيدوق (Rainer) كتابا من ذلك الرجل (فيلوخينوس) حاكم أركاديا يذكر الضريبة التى كان يجب دفعها الى خارجة فى بابليون (قره باسك (Fuhrer durch die Ausstellung) صفحة ١٣٨ رقم ٥٥٣) وهذا دليل آخر على دقة أخبار حنا النقيوسى .

فإن بعض من أسلم من كبراء القوم كانوا من الروم ، وأنا نكاد يداخلنا الشك فى أمر المقوقس وأنه قد فعل ما فعل إذ كان يؤمن سرا بدين الإسلام . وأما الوجه الثانى فهو أنه قد ثبت أن عمرو بن العاص كان يعامل المصريين قبل فتح الإسكندرية وبعدها أشدّ المعاملة ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يردّد قوم تلك الكلمة القديمة الشوهاء وهى أن القبط رحبوا بالعرب وفتحوا لهم ذراعيهم ، فإن قول حنا النقيوسى فى هذا الصدد يكفى وحده لهدم هذا الرأى وإظهار فساده . أما متأخرو المؤرّخين من العرب وهم الذين يأخذون بهذا الرأى فبين أمرين : إما أن يكونوا على خطأ فيما ذهبوا إليه ، وإما أن يكون فى وصفهم لعمرو تهمة شنيعة إذ يجعلونه مرتكبا لأعظم الجحود ومجازاة الإحسان بأشنع الإساءة . وكلما أنعم الإنسان النظر فى تاريخ هذا العصر وجد أن قيرس لم يكن وحده الخائن الذى أوقع بالدولة الرومانية ، وحسبنا دليلا على ذلك ما كان من هؤلاء الحكام الثلاثة الذين سارعوا إلى افتداء دنياهم وسلطانهم بأن نزلوا عن دينهم ، وجعلوا ولاءهم للاسلام ودولته ، وانقلبوا على القبط بما صار فى يدهم من السلطان الجديد يؤذونهم فى دينهم ودنياهم . فالحق الذى لا مراء فيه أن الروم كان فيهم الكثيرون ممن يكيدون لدولتهم ، وأن الكائدين كانوا من ناحية يوقعون بالقبط ومن ناحية أخرى يوالون العرب ويعينونهم .

لم يبق بعد ما ذكرنا إلا قليل من القول فى وصف الشهور الستة التى مرت على الإسكندرية بين موت قيرس وبين دخول جنود العرب فيها . فإننا لا نعرف شيئا أكيدا من حوادث هذه المدّة إلا اختيار خلف للقوقس بطريقا للمذهب الملكانى ، ولم يحدث ذلك إلا بعد أن مضى نيف وثلاثة أشهر على موت المقوقس . ففى الرابع عشر من شهر يوليه (١) فى عيد القديس (تيودور) ألبس الشماس بطرس لباس البطرقة ، وجلس على العرش الذى خلا من آخر بطارقة الإسكندرية تحت حكم الروم . ولعل ذلك الابطاء كان لاستشارة القسطنطينية ، أولعله كان لتردّد أهل الدين فى قبول تلك

(١) يصحح المستر بروكس تاريخ زوتنبرج وهو على حق فى ذلك فيجعله يوم ٢٦ يولية .

الولاية بعد أن انشقت الولاية الدينية فى مصر عن السلطة الدينية فى الامبراطورية، وأصبح أمرها مخوفا مضطربا ، منـذ يئس النـاس من رجوع الأمر إلى الدولة البيزنطية . أما قلنتين وجيشه الذى كان يملأ فمه بذكره، فلم يغن عن مصر شيئا ولم يستطع أن يخطو خطوة فى سبيلها، مع أن أهل مصر كانوا قد أخذوا يعرفون بطلان أحلامهم التى كانوا يمنون بها أنفسهم من الاطمئنان إلى حكومة العرب واستقرار الأمور معها ، وثبوت ما يطلب منهم فيها من ضرائب لا تزداد عليهم . إذ جاء أن أهل البلاد جميعا كانوا يئنون من شـقائهم فى حكم العرب ، وكان أجل المصاب ما أصاب مدينة الإسكندرية من ذلك، فقد فسد حال التجارة التى كانت تدر الخير على أهلها ، وخرج منها جماعة من أغنياء أعيانها وتجارها عوّلوا على الهجرة والنزوح عنها، فصار عبء الضرائب الى كواهل من بقى فى المدينة من الناس فأبهظها . وأخذ الناس يحسون ما فى دخول العدوّ فى بلادهم من ذل لهم وتضييع لملتهم ، ولم تجدهم فى ذلك ألفاظ معسولة وأقوال ناعمة كان قيرس يزجيها إليهم .

فكان الهم والغم يظلان المدينة فى الأسابيع الأخيرة من مدّة الهدنة، وكان كثير من المنازل قد خلا من أهله، وهدأت ضجة الارتحال من مراسى المدينة بعد أن تحملت سفن يتلو بعضها بعضا بالنازحين من الروم ومتاعهم وأثاثهم، وسارت بهم إلى الشمال إلى حيث لا عودة، ولم يبق إلا أسطول كبير يتجمع فى مرفأ الإسـكندرية ليحمل من بقى من جنود الروم . والظاهر أن الذى كان يقوم على ترحيل جنود الروم من بلاد مصر السفلى اثنان من القادة وهما (تيودور) الذى أصبح حاكم مصر بعد موت قيرس، و(قسطنطين) الذى أصبح القائد الأعلى لجيش الروم بعد(تيودور)، وكانا يقومان بما يقومان به بالاتفاق مع العرب (١) . وكان النيل عند ذلك قد أخذ يزداد، وصارت

---

(١) انظر زوتنبرج (صفحة ٥٨٣ هامش ٢) وهو على حق فيما ذهب اليـه من أن وجود تيودور وقسطنطين فى الداخل كان ناشئا عن الهدنة ولم يذكر فى ذلك الوقت شىء عن تجـدّد القتال وأما زوتنبرج فانه لا يبدى أى رأى فى سبب غيابهما عن الاسكندرية ولعل السبب الذى ذكرناه فى متن كتابنا هـذا فيه كفاية .

الترع صالحة لسير السفن ونقل الأشياء، ولهذا السبب وقع الاختيار على ذلك الوقت لخروج الروم. فما أن حل حتى ركبت بقية جيش الروم فى السفائن مع (تيودور) و (قسطنطين)، وهبطوا نحو الإسكندرية. وعند ذلك أطلق سراح من كان فى يد العرب من الرهائن الذين أودعوهم حصن بابليون، أو لقد ذهب العرب بهم حتى لحقوا بأصحابهم فى العاصمة (١).

دار الفلك دورته وعاد عيد الصليب، وكان من عجائب المقدور أن اتفق فى ذلك اليوم الرابع عشر من سبتمبر من العام المنصرم مجىء المقوقس رئيس الأساقفة الخائن فى رجعته الى مصر، ثم عاد اليوم بعد عام ليشهد آخر مشهد من زوال ظل السلطان المسيحى عن مصر. فكانت صلاة إعلاء الصليب تتردد أصداؤها فى الكنيسة، فى حين كانت السفن تجهز آخر جهازها فى الميناء ويؤذن لها بالسير. فما طلع اليوم الثالث بعد هذا (٢) وهو اليوم السابع عشر من سبتمبر حتى كان أسطول (تيودور) يحل قلاعه ويرفع مراسيه ويسير إلى قبرص (٣) بمن كان عليه من فلول جيش الروم يرفرف عليهم الأسى. ولم تبق بعد ذلك إلا أيام قلائل لأهل المدينة،

(١) من العجيب إطلاق سراح الرهائن قبل دخول الاسكندرية ولكن ذلك يدل على قوة المسلمين وضعف الروم فى ذلك الوقت وأغلب الظن أن أكثر جنود الروم كانوا قد جلوا عن البلاد قبل ذلك.

(٢) يبرهن المستر بروكس على أن عبارة "بعد عيد الصليب" التى وردت فى ترجمة زوتنبرج لديوان حنا النقيوسى قد جاءت فى غير موضعها وإنى موافق على رأى المستر بروكس فى مجمله ولكنا نرى أن السطرين التاليين قد وضعا موضعا خطأ وأنهما يجب أن يقدما الى أول الفقرة قبل قوله (ثم أن تيودور) والسطران هما من أول قوله "فى العشرين من شهر (حمله)" ... الى قوله "مقر الرئاسة الدينية" واذا تم ذلك لم يكن ثم موجب لتغيير موضع قوله "بعد عيد الصليب" بل إن ذلك يسير مع القول التالى سيرا طبيعيا وهو قوله "فى اليوم العشرين من شهر مسكرم".

(٣) جاء فى السيوطى أنه قد كان فى المدينة ٢٠٠٠٠٠ من رجال الروم وكان منهم ٣٠٠٠٠ من الجنود هربوا فى مائة سفينة كبيرة بكل ما كان معهم من المتاع الذى أمكنهم حمله وأما من بقى منهم فقد دفع الجزية وسياق القول يتفق بعض الاتفاق مع رأى من يقول إن هذا القول يقصد به فتح الاسكندرية فى المرة الثانية ولكن أكثر الأدلة على غير ذلك وإنه ليظهر من ثنايا كلماته أن المقصود هو الجلاء عن المدينة صلحا ولنذكر أن الصلح قد نص على أن الروم كان لهم أن يحملوا معهم متاعهم فى حين أن الفتح فى المرة الثانية لم =

وما كان أشقاهم، ليصلحوا فيها من أمورهم . فان الهدنة انقضى أمدها فى اليوم التاسع والعشرين من شهر سبتمبر إذ مضت أشهرها الأحد عشر، وفتحت فى ذلك اليوم أبواب المدينة فدخلها عمرو يقود من معه من شعث جنود الصحراء، فساروا بين صفوف مما كان فى الاسكندرية العظمى من أعمدة براقة وقصور منيفة، وانتهى بذلك حكم دولة الروم فى مصر .

= يدع متسعا من الوقت لمثل ذلك وعلى أى حال فليس من الغريب أن يكون ٣٠٠٠٠ من الجنود قد سافروا معا فى وقت واحد ولو أن عدد السفن المذكورة كاف لنقلهم ولا بد أنه عند ما انتهى أمر الجلاء كان عدد الجنود قد قلّ قلة عظمى والظاهر أن السيوطى نقل خبر هذا الجلاء عن المقريزى وهو يروى عن ابن قابيل .

وقد جاء أن السفن المائة حملت الروم بأموالهم ومتاعهم وأضيف الى ذلك أن ٦٠٠٠٠ من الناس بقوا فى المدينة ودفعوا الجزية سوى النساء والأطفال ولا بدّ أن هذا فيه مبالغة .

الفصل الرابع والعشرون

وصف الاسكندرية عند الفتح

رسالة عمرو إلى الخليفة عمر — ما بهر الأبصار من سنا الاسكندرية — أعمدتها — صهاريجها — البروكيون — كنيسة القيصريون — صفتها وتاريخها — مسلات كليوبتره — الخلط بين المسلات والمنارة — جعالين البرنز والزجاج — إثبات شهادة العرب — وصف السرابيوم — رسمه الأوّل وبناؤه — مكان المكتبة — عمود دقلديانوس — أقاصيص العرب — الملعب (الامفيتياتر) — المنارة — ما جاء عنها فى أخبار القدماء والعرب — بناء البرج — المرآة العجيبة — قصة تخريبها — هدم المنارة — بناء مآذن القاهرة على رسمها

أرسل عمرو إلى الخليفة كتابا مشهورا يصف فتح الاسكندرية، والرواية المتداولة عنه هى "لقد فتح الله علينا مدينة من صفتها أن بها أربعة آلاف قصر، وأربعة آلاف حمام، وأربعمائة ملهى، واثنى عشر ألف بائع للخضر، وأربعين ألفا من اليهود أهل الذمة". ونرى أن هذه الأعداد فيها مبالغة، ولعلها لم تكن كذلك فى الكتاب الذى بعث به عمرو بل نقلها النساخ خطأ[1]. ومع ذلك فانها تدل دلالة واضحة على ما كان للمدينة من الأثر العظيم فى نفوس الفاتحين، وقد أدهشهم عظمتها وفخامتها، ولكن لقد بهرهم فوق ذلك منها تألقها وسناها، فقال أحد من وصفها[2] "إن الاسكندرية مدينة يكثر المرمر فى أرضها وبنائها وعمدها". وقال آخر إن المدينة تبدو بيضاء لامعة فى النهار

(١) إذا قرأنا ذلك ٤٠٠ قصر وحمام و ٢٠ ملهى و ١٢٠٠ بائع للخضر، ٤٠٠٠٠ يهودى لم يكن فى التقرير شىء غير ممكن. فقد ذكر زكريا المتليني (وهو دقيق الاحصاء) أن رومه كان بها ١٧٩٧ بيتا للعظماء (أو قصرا)، ٩٢٦ حمام (صفحة ٣١٧ — ٨) وقد جاء نص كتاب عمرو فى ابن عبد الحكم وفى ابن بطريق والمقريزى ومكين. وقد ذكر المقريزى مبالغة على عادته رواها عن أبى قابيل وهى أنه كان بين الحمامات ١٢٠٠٠ بناء بعقد وأن أصغرها كان فيه ١٠٠٠ غرفة للجلوس.

(٢) الاصطخرى (Bibl. Geog. Arab. Ed. de Goeje) الجزء الأوّل صفحة ٥١

والليل[1] . وقال فى موضع آخر إن أهلها جميعا كانوا يلبسون الثياب السود والحمر لأن أرضها وبناءها من المرمر الأبيض وكان تألق الرخام سببا فى اتخاذ الرهبان السواد فى لباسهم . وكان من المؤلم أن يسير الانسان فى المدينة بالليل فان ضوء القمر إذا وقع فيها على الرخام الأبيض جعلها تضىء حتى كان الحائك يستطيع أن يضع الخيط فى الإبرة بغير أن يستضىء بمصباح وما كان يستطيع أحد أن يدخل المدينة إلا إذا اتخذ غطاء لعينيه يقيهما بهر الطلاء والمرمر . وقال مؤرّخ عربى آخر[2] فى القرن العاشر إن الناس كانوا يتخذون سترا من الحرير الأخضر يغطون به الطرق يتقون بذلك وهج الضوء على الرخام[3] .

وقال المؤرّخ نفسه إن الطرق كلها كانت تكتنفها العمد وكان هذا ولا شك صحيحا فى الطريقين العظيمين الذين وصفناها من قبل وهما يقطعان المدينة من أطرافها ، فكان أحدهما من أوّل المدينة فى الشرق إلى آخرها فى الغرب يصل بين باب الشمس وباب القمر[4] . وكان الثانى يجرى فى المدينة من أقصى الشمال الى

(١) السيوطى (حسن المحاضرة) وكان رهبان سرابيس يلبسون السواد ولكن من المشكوك فيه أن يكون هذا هو السبب (انظر كتاب الدكتور Botti صفحة ٣٧ هامش ٢) . "Fouilles a La Colonne Theodosienne."

(٢) المسعودى (صفحة ٤٢٩) .

(٣) يظهر الأثر العام الذى أحدثته الاسكندرية فى نفوس المسلمين مما جاء فى ابن دقماق (الجزء الخامس صفحة ١١٧) فقد جاء فيه أن عبد الملك بن جريج قال إنه غزا ستين مرة وإن الله اذا مدّ فى أجله شهرا حتى يصلى على شواطئ الاسكندرية كان هذا الشهر أعز عليه من الغزوات الستين التى غزاها . وقال فى صفحة ١١٨ إنه قد جاء فى التوراة أن الانسان اذا طاف حول الاسكندرية فى الصباح جعل الله له تاجا مرصعا باللؤلؤ معطرا بالمسك والكافور يضىء من الشرق الى الغرب .

(٤) يخطئ بعض المؤرّخين فى وصف موضع هذين البابين فيقول إنهما كانا فى شمال المدينة وجنوبها ولئن كان ثمت شك فى ذلك فان قول حنا النقيوسى كفيل بازالته فهو قول صريح (صفحة ٤١٥) إذ يقول إن (أنطونينوس پيوس) بنى (باب الشمس) فى الشرق و(باب القمر) فى الغرب والظاهر أن أميلنو كان من بين الذين أخطأوا اذ قال "وكان باب الشمس فى جنوب المدينة بقرب الخليج الذى يأتى من النيل" (Geog. Copte) صفحة ٣٢ وقد كان باب الشمس هو باب عين شمس (أنظر الكتاب السابق صفحة ٤٢) ، ولكن الطريق الى مدينة عين شمس كان يسير من الباب الشرقى ولم يكن يخرج من الباب الجنوبى طريق واضح اللهم إلا طريق للسفن ومقالة أميلنو عن الاسكندرية قصيرة ولا تشفى غلة .

أقصى الجنوب وكانا يتلاقيان ويقطع أحدهما الآخر فى ميـدان فسيح به الحدائق وتحيط به القصور الجميلة . وكان لكثير من القصور فى وسط المدينة حدائق غناء فقد قال السيوطى والظاهر أنه يروى ذلك عن ابن عبـد الحكم [(١)] إن الاسكندرية كانت تشمل مدائن ثلاث : إحداها إلى جانب الأخرى وكان لكل منها سور قائم بها وحول الجميع سور يحيط بها . ولعله يشير بهذا الى الأحياء الثلاثة : حى المصريين ، وحى الروم ، وحى اليهود ، ولكنا نشك فى دقة هـذه الرواية وقد روى عبد الله بن ظريف أن المدينة كان بها سبع قلاع وسبعة خنادق ، وكانت قلعة الفرس بلا شك تعدّ إحدى عجائب الاسكندرية .

وما كانت دهشة العرب من رسم المدينـة بأعظم من دهشتهم ممـا كان تحت أرضها من المبانى فقد رأوا بها عددا عظيما من الصهاريج العجيبة تحت الأرض كان لبعضها طبقات تلى بعضها بعضا أربعة أو خمسـة . وكان فى كل طبقة منها عدد عظيم من الحجرات والأعمدة ، حتى لقد قال السيوطى إن الاسكندرية مدينة قائمة على مدينة ، وإنه ليس فى البلاد مثلها على وجه الأرض . وكان بها عدد عظيم من الأعمدة لم ير مثلها فى موضع آخر فى علوها وعظم حجمها . وكانت هذه الحجرات الدفينة تستخدم لخزن الميـاه توصل إليها فى قنوات تجرى من الترعة الحلوة التى كانت تشق المدينة فى حى المصريين ، وكانت تملأ فى أوان الفيضان فيشرب الناس منها مدّة الحول [(٢)] .

وكان أفخم أحياء أنحاء المدينة فيما مضى جهة اسمها (البروكيون) ، وكان إلى شمالها ميناء الاسكندرية وإلى جنوبها الشارع الأعظم الآتى من باب الشمس الى الحدائق الوسطى بالمدينة . ولا شك قد هدم أورليان جانبا عظيما من ذلك الموضع ولكنا نظن

(١) قال حنا مسكوس (إذ أنها كانت جنات فى وسط المدينـة فى بيوت العظماء) [*(٣٣)] (مسارح الأرواح فصل ٢٠٧) .

(٢) بقيت بعض هـذه الصهاريج الى الآن أنظـر المقال الذى عنوانه « صهاريج الاسكندرية » للدكتور (بوتى) فى مجلة جمعية الآثار بالاسكندرية رقم ٢ سـنة ١٨٩٩ صفحة ١٥ وما بعدها وبها بعض رسوم هامة . وقد ذكر (قيصر) هذه الصهاريج (De Bell. Civ. IV) وذكر القناة الموصلة اليها .

أن أخبار ما حل به من التخريب فيها مبالغة[(١)] . وما كانت آثار ذلك التخريب لتبقى فيـه بغير أن تصلح و يعاد بنـاؤه الى سابق عهده . وعلى أى حال فقد كانت فيه قصور البطالسة والمقبرة الكبرى التى كانت فيها جثة الاسكندر فى غشاء من الذهب ، وكان فيه المتحف وتتصل به مكاتبه العجيبة التى كانت مقرّ العلوم فى العالم أجمع . وكان فى ذلك الحى الى الشرق معبـد مكشوف اسمه (التترابيلوس)، وهو إيوان به أربعة صفوف من الأعمدة تحيط به . وقيل إن الاسكندر دفن هناك النبى (أرميا) فكان ذلك الموضع مشهدا يحترمه النـاس احتراما بالغا[(٢)] . والى جانب ذلك المشهد كنيسة القديسة (مارية دروثيا) بناها (أولوجيوس) ، والى شرقها فيما يلى الأسوار على مقربة من البحر الكنيسة الكبرى كنيسة القديس (مرقص[(٣)]) وكانت عنـد ذلك لا تزال ماثلة وفيهـا مدفن مر المرمر به جثمان ذلك الرسول . وقـد قال (أركولفوس[(٤)]) " اذا أتيت من بلاد مصر ودخلت المدينة ألفيت عند جانبها الشمالى

(١) أميانوس مرقلينوس (XX II 16) و يفهم منه أن المدينة فقدت أكبر جزء فيها وهو (البروكيون) عقب التخريب الذى أحدثتـه الثورات فى وقت أورليان ولكن حنا النقيوسى يدل دلالة قاطعـة على أن مساحة المدينة لم تقل تلك القلة المذكورة وأن الأسوار الشرقية كانت لا تزال على عهدها من القوّة . وقال (أنطونيوس مارتير) وقد زار المدينة قبـل الفتح بقرن (حوالى سـنة ٥٦٥ لليـلاد) " ان الاسكندرية مدينـة عظيمة " وما كانـ ليذكر ذلك الوصف عنها اذا كان أجمل حى بها وأجلها قد تهـدّم وتخرّب (Pal. Pil. Text. Soc.) (الجزء الثانى صفحة ٣٥) .

(٢) حنا مسكوس فى "مسارح الأرواح" الفصـل ٧٧ وقد نقـل أميلنو فى (Geog. Copte.) صفحة ٢٩ عن نسخة خطية قبطية تذكر أن التترابيلوس كان فى وسط المدينة و يستنتج من ذلك أنهـا كانت فى الميدان الأعظم ولكن هذه العبارة مبهمة لا يمكن أن يستند اليها مثل هذا الاستنتاج .

(٣) يقول حنا النقيوسى (صفحة ٥٢٤) إنها كانت قريبة من البحر (و فى صفحة ٥٤٨) إنها كانت بقرب باب من أبواب المدينة والظاهر أنه قد كان بالاسكندرية كنيسـة أخرى بهذا الاسم (انظر أميلنو (Geog, Copte,) صفحة ٣٧ - ٨

(٤) كان (Arculfus) فى مصر حوالى سـنة ٦٧٠ للميلاد (Pal. Pil. Text. Soc.) الجزء الثالث صفحة ٥٢ وقد اضمحلت المدينة بعد مائتى عام حتى أن (برنار الحكيم) حوالى سـنة ٨٧٠ يقول "و وراء الباب الشرقى دير القـديس مرقص و يعيش الرهبان فى تلك الكنيسـة التى كان فيها مدفنه ولكن البنادقة أتوا فى البحر وحملوا جثته الى جزيرتهم (الكتاب نفسه صفحة ٥) وفى سنة ١٣٥٠ كانت الكنيسة التى استشهد فيها القديس مرقص "على نحو ميلين شرق الاسكندرية" (انظر الكتاب نفسه الجزء السادس صفحة ٣٣) ومن هذا يتضح مقدار اضمحلال المدينة .

كنيسة كبرى فيها جثمان مرقص الانجيلى وترى قبره أمام المحراب فى الجانب الشرقى وقد أقيم فوقه شاهد من المرمر" وكان فى الحى نفسه كنيستا القديسين (تيودور) و (انستاسيوس)(١) .

ولم تكن كنيسة القديس مرقص فى القرن السابع أكبر كنائس المدينة وأعظمها شأنا بل كان أعظم منها كنيسة القيصريون ، وكانت فى الحى نفسه عند ثنية المرفأ الأعظم . وقد بلغت من عظم الشأن أن كادت تحل محل الكنيسة الكبرى ، فقد كان بناؤها جليلا ولها مسلتان قديمتان فى فنائها ، فكانت تشرف فوق أسوار المدينة أظهر الأشياء التى يراها الرائى أول واهلة فى صدر ما يراه(٢) اذا أتى من الميناء داخلا مما يلى المنارة . فكانت فى هذه الجهة لها مظهر يعدل مظهر (الاكروبولس) والسرابيوم وعمود (دقلديانوس) فى نهاية المدينة من الجانب الآخر . وكانت كنيسة القيصريون فى مبدأ أمرها معبدا للأوثان بدأت كليوبتره فى بنائه إعظاما لقيصر ثم أتمه أغسطس . وإنه لجدير بنا أن نرى ما جاء من صفته فى كتاب (فيلو) إذ قال(٣) "وكان هذا المعبد معبد قيصر ، الذى يعرف فى الاسكندرية باسم سبستيان (أغسطس) ، أثرا لا مثيل له . وكان على ميناء فسيحة ، عظيم البناء عجيب الصناعة عالى السمك يعده الناس علما من أعلام البحر ، قد زانته أبدع الصور والتماثيل ، تقدم إليه جليل الهدايا والقرابين . وكانت تجمله كله حلية من الذهب والفضة ، فكان نموذجا فى جمال تنسيقه وإبداع أجزائه التى

(١) حنا النقيوسى ٥٤٣

(٢) وقد أثبت هذا استرابو وفيلو و پلينى أنظر مقالا هاما للنسنيور Kyrillos II وعنوانها (هيكل القيصريون فى مجلة الجمعية الخديوية الجغرافية) المجموعة الخامسة رقم ٦ فبراير سنة ١٩٠٠ (القاهرة ١٩٠٠) وقد أخذنا كثيرا من الأخبار عن هذه المقالة . قال أميلنو وقد نسى ما قاله المؤرخون العرب والقدماء جميعا هذا القول العجيب " ولا ندرى أين موضع القيصريون فانه لا يوجد وصف لذلك مطلقا " (Geog. Copte. صفحة ٣٢) ولكن ما دام موضع المسلتين معروفا فان موضع القيصريون لا يمكن أن يشك فيه كما سنرى فيما بعد .

(٣) رسالة فيلو من يهود الاسكندرية الى (كاليجولا) فى كتاب (يوسفوس) أنظر طبعة السير (R. L'Estrange) (لندن سنة ١٧٠٢) (fol. P. 1087) .

كان يشملها من متاحف ومكاتب وقباب وساحات وأبهاء ومماشى وخمائل من أشجار ظاهرة، قد وضع كل شيء فى موضعه اللائق به، وأبدعت فيه يد الصناعة فأبرزته فى حلة أنيقة من الرونق، بذل فى سبيلها المال لم يدخر باذله ثمينا ولا غاليا. وكان فوق ذلك جلاء عين أهل الأسفار فى البحر إذا وقعت عليه فى روحاتهم وغدواتهم".

وقال فيه حنا النقيوسى "إنه القصر الجليل". وقد غيره قسطنطين الأكبر بجعله كنيسة مسيحية وأهداه إلى اسم القديس ميخائيل (١). ولكنه كان عند الفتح العربى لا يزال محتفظا باسمه الأول "القيصريون" ولم يصر كنيسة بطريقية عظمى إلا حوالى سنة ٣٥٠ للميلاد، ولكن فى سنة ٣٦٦ فى أيام أنستاسيوس جاء جمع عظيم من قوم هائجين ثائرين من الوثنيين وأتباع المذهب الآرى المسيحى، ودخلوا فناءها ثم اقتحموها وأحرقوا المذبح والعرش وما كان فيها من النمارق والستر، وسوى ذلك مما وصلت إليه أيديهم، ولئن كان قد بقى شيء من المكاتب التى ذكرها فيلو فإنها لابد قد أحرقت عند ذلك. ثم أعيد بناء الكنيسة وأصلحت فى عام ٣٦٨؛ وإن الذين يقرأون قصة (هيباشيا) يعلمون أنها وقعت فى كنيسة القيصريون فيما بعد هذا العصر بنحو خمسين عاما. فإن غوغاء المسيحيين وعامتهم ممن أعماهم التعصب

(١) جاء فى تاريخ القديسين عن ١٢ بؤونه (عيد الملك الأكبر ميخائيل) قول عجيب وهو "والسبب الذى من أجله نقيم عيد القديس ميخائيل فى هذا اليوم هو أنه قد كان بالاسكندرية معبد كبير بنته كليوبتره ابنة بطليموس للاله زحل (ساتورن) وكان عيده يقام هناك فى هذا اليوم وهو ١٢ بؤونه وبقيت هذه العادة بين الناس الى أيام البطريق الاسكندر فى أيام الامبراطور قسطنطين" واستمر التقويم بعد ذلك يقول إن الاسكندر عوّل على هدم ذلك الوثن ولكن الناس أبوا أن يتركوا ما اعتادوه قديما ورفضوا أن يبطلوا عيدهم فيه فرأى البطريق أن يبقى العيد وأن يبقى الناس على أجازتهم فى البطالة ذلك اليوم وأن يضحى فيه بالأضاحى ويطعم الفقراء لوجه الله الحق بدل أن يكون ذلك قربانا للوثن وأبدل اسم اليوم بجعله باسم القديس ميخائيل فقبل الناس رأيه وهدموا الوثن ولكن اسم القيصريون بقى علما على الموضع وبقيت الكنيسة الى أن جاء المسلمون فهدمت. وهذا ختام ما جاء فى ذلك الخبر. ويقول سعيد بن بطريق إنه قد صنع صليب من البرونز الذى كان التمثال مصنوعا منه ثم قال "ان الكنيسة دمرتها النيران عند ما أتى أهل الغرب وأغاروا على الاسكندرية وخربوها" وهذا القول غامض — وقد ظل القبط على عادتهم فى إقامة عيد فى هذا اليوم ينحرون فيه القرابين. (أنظر كتاب Migne "Pat. Gr." الجزء ١١١ المجموعة ١٠٠٥).

للذين[1] أتوا بتلك الفتاة الحكيمة فمزقوا جسمها تمزيقا، فكان وثوبهم هذا وما فيه من خروج وعنف جديرا بالمعبد القديم معبد زحل (ساتورن) . وقد كان فرار تيموثى إيلوروس إلى بئر المعمودية فى هذه الكنيسة إذ التجأ إليها بعد نحو خمسين سنة من ذلك العهد فدخل إليه الناس وأخرجوه منها ثم نفوه، فلما عاد (تيموثى) إلى الإسكندرية بعد أن أقام فى منفاه عشرين عاما "لقيه الناس فى موكب حافل توقد فيه المشاعل وتنشد فيه آيات المديح يرتلها قوم مختلفوا الأجناس واللغات" فسار فى موكبه هذا يحدوه النصر إلى أن بلغ تلك الكنيسة عينها كنيسة القيصريون[2] .

ولم يبق شيء من وصف ما فى تلك الكنيسة من داخلها، ولكن الذى لاشك فيه أنها كانت على طراز الكنائس البيزنطية (البازليكية)، وأنها بقيت على ما كان بها من الحلية الجليلة والزينة البديعة . وكان آخر ما عهدته تلك الكنيسة من مشاهد المجد فى عهد الإمبراطورية صلاة الفرح بعودة قيرس، ولا بدّ أن خطبته إذ ذاك كان لايزال يذكرها من شهد دخول عمرو بجيشه إلى المدينة، ولكنها لم تبق مدة طويلة بعد فتح العرب، فلم يبق إلا إسمها فى صورته العربية وهو القيصرية . وكان يسمى به فى أوّل الأمر نوع من القصور أو الأبنية العامة، ثم وصل إلينا بعد أن دخل على دلالته تغيير[3] .

(١) أخذنا هذا الخبر عن سقراط وقد كتبه بعيد الحادثة (Hist. Eccl. VII) صفحة ١٣ — ١٥؛ وقد ذكر حنا النقيوسى (صفحة ٤٦٤ — ٦) خبرا يتهم فيه هيباشيا بالسحر و يوافق على قتلها ولكنه يوضح أنها عريت فى القيصريون ثم جرت فى الشوارع حتى ماتت ثم أحرقت فى موضع اسمه (القينارون) .

(٢) ديوان زكريا المتلينى (صفحة ١١٠) ويذكر زكريا "الكنيسة العظمى" هنا وكذلك فى صفحة ٦٧ ولكنه فى صفحة ٦٤ يقول صراحة "وكانت الكنيسة العظمى تسمى كنيسة قيصريون" وهذا يدل على أن القيصريون هى "الكنيسة العظمى" والترحيب بعودة (تيموثى) يشبه الترحيب الذى كان بعودة قيرس شبها عجيبا وذلك عند عودته من منفاه .

(٣) لا يزال الطريق الأعظم فى مدينة عربية يسمى الآن "القيصرية" وقد جاء فى كتاب شمس الدين المقدسى ما قد يفهم منه أن المسلمين كانوا فى أوّل الأمر يطلقون ذلك اللفظ على مساجدهم الكبرى (Bibl. Geog. Arab. Part III) (صفحة ١٩٧) وقد كان يطلق بلا شك للدلالة على الموضع =

وقد عجب العرب أشد العجب من المسلتين من الصخر المحبب الأحمر (الجرانيت) اللتين كانتا فى صدر الكنيسة، وقد جاء مؤرخوهم بالشيء الكثير من وصفهما فقال اليعقوبى (وهو من كتاب القرن التاسع) إنه قد كان هناك مسلتان من الحجر الملون تحتهما قاعدتان من البرنز على شكل الجعل وعليهما نقوش قديمة[1]. وقال مثل ذلك ابن رستاه (وهو من كتاب القرن العاشر) يصف أثرين كل منهما على شكل منارة مربعة تحتهما قاعدتان على صورة العقرب من النحاس أو الشبه، وعليهما نقوش. وقيل إن صورة العقرب قد صهرت بنار أوقدت تحتها فوقع الأثران[2]. وجاءت قصة فى كتاب ابن الفقيه (وهو ممن كان يعيش فى أيام ابن رستاه) وفى هذه القصة بدء الخطأ العجيب الذى خلط بين هاتين المسلتين و بين (الفاروس) وهى التى كان العرب يسمونها منارة الإسكندرية. قال إن منارة الإسكندرية قائمة فى البحر على قاعدة من الزجاج على شكل الجعل. وقال: ولها عمودان قائمان على قاعدتين إحداهما من الزجاج، والأخرى من الشبه، وكانت قاعدة الشبه على صورة العقرب وقاعدة الزجاج على صورة الجعل[3]. فما أن أتى عهد المسعودى حتى كانت هذه القصة قد اتخذت صورة ثابتة وأصبحت خرافة يبتهج العرب بذكرها فقال المسعودى: وكانت المنارة قائمة على أساس من الزجاج له صورة السرطان وكان بناؤها على لسان من الأرض بارز فى البحر وكان على رأسها صور من معدن الشبه: إحداها تشير بيمناها إلى الشمس وتدور معها فى السماء فإذا غربت الشمس وضعت يدها. وصورة أخرى

= المربع الذى تحيط به الأعمدة وقد يكون ذلك الموضع مسجدا وقد يكون سوقا والاستعمال الحديث لهذا اللفظ مأخوذ عن الأمر الأخير (انظر أبا صالح صفحة ١١٦ هامش ١) والطريق الأعظم هو بالطبع الموضع الذى يجرى فيه البيع والشراء والتبادل فى المدن الشرقية.

(١) (Bibl. Geog. Arab. part VII) صفحة ٣٣٩

(٢) نفس الكتاب صفحة ١١٧، انظر كذلك (Athenoeum) يوليه سنة ١٨٨٧ وما كتبه (De Goeje) تعليقا على هذه العبارة.

(٣) نفس الكتاب الجزء الخامس صفحة ٧٠ و ٧١

تشير إلى البحر فى الجهة التى يأتى منها العدو، فإذا ما اقترب من المدينة خرج منها صوت هائل يسمع على بعد ثلاثة أميال فينذر أهل المدينة بالخطر [١].

ومن المعلوم أن (الفاروس) أو المنارة كانت أثرا غير المسلتين وهى بناء متين من الحجر شاهق العلو، وأنه لمن المضحك أن يتصور أحد أن بناءها العظيم يقوم على كرسى من الزجاج على هيئة السرطان، ومع ذلك فإنه مما يسر النفس أن يصل الإنسان إلى أصل هذه الخرافة التى تظهر فى مبدأ الأمر سخيفة لا معنى لها. فإنها إنما نشأت من سوء فهم لما ذكره مؤرخو العرب الأوائل من الحقائق التاريخية وتحرّوا فى ذكره الدقة العظيمة، فلا شك فى أن المسلتين اللتين كانتا أمام كنيسة (القيصريون) عند دخول عمرو فى الإسكندرية كانتا على قاعدتين على هيئة السرطان كما وصفهما العرب الأوائل. فقد قام الدليل على هذا عند نقل إحدى المسلتين إلى نيويورك، إذ وجد أن هذا الحجر الهائل كان قائما على أربع صور من المعدن على هيئة السرطان، وكانت هذه تفصل بين المسلة وبين القاعدة. وكانت القاعدة من قطعة واحدة من صخر (الجرانيت) وكان من تحتها ثلاث طبقات مدرجة من الحجر. ولم يكشف عند نقل المسلة إلا تمثال واحد من التماثيل الأربعة التى على

(١) قد آثرنا ترجمة ماجاء فى الأصل الانجليزى لمخالفته لنص المسعودى ونظرا لأهمية هذه الفقرة قد أتينا بعضها من كتاب المسعودى (مروج الذهب الجزء الأول صفحة ٢٣٢ طبعة المطبعة البهية بمصر) قال "وإن الذى بناها جعلها على كرسى من الزجاج على هيئة السرطان فى جوف البحر وعلى طرف اللسان الذى هو داخل فى البحر من البر وجعل على أعلاها تماثيل من النحاس وغيره فيها تمثال قد أشار بسبابته من يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك وإذا علت فى الفلك فأصبعه مشيرة نحوها فاذا انخفضت انخفضت يده سفلا يدور معها حيث دارت. ومنها تمثال يشير بيده الى البحر اذا صار العدو منه على نحو من ليلة فاذا دنا وجاز أن يرى بالبصر لقرب المسافة سمع لذلك التمثال صوت هائل يسمع من ميلين أو ثلاثة فيعلم أهل المدينة أن العدو قد دنا منهم ويرمقونه بأبصارهم. ومنها تمثال كلما مضى من الليل والنهار ساعة سمعوا له صوتا بخلاف ما صوت فى الساعة التى قبلها وصوته مطرب" (المعرّب).

(٢) نقله المقريزى فى خططه الجزء الأول صفحة ٢٥٥ وقد سار السيوطى خطوة أخرى فنقل عن كتاب "مباهج الفكر" فقال "المنارة مبنية بحجارة مهندمة مضببة بالرصاص على قناطر من الزجاج والقناطر على ظهر سرطان من نحاس" (حسن المحاضرة الجزء الأول صفحة ٥٣) وقد بين ابن رستاه ذلك الخلط عند ما قال إن المنارة كانت مبنية على أربعة سرطانات من الزجاج.

هيئة السرطان، لأن القاعدة كانت قد مضى عليها زمن طويل وهى مدفونة تحت الأرض . وكان ذلك التمثال نفسه مشوها ، ولكن لم يكن ثمت شك فى الغرض من تلك التماثيل إذ قد وجدت كتابة باللغتين اليونانية واللاتينية على المعدن ، وكانت لا تزال ظاهرة وفيها مصداق لما رواه كتاب العرب[(١)] . وهذا مثل من الأمثلة الظاهرة التى كانت فيها أعمال الحفر والتنقيب مساعدة للتاريخ مصدّقة له .

وقد يقول قائل وماذا كان من أمر الجعلان أو العقارب الزجاجية التى تحت المسلة الأخرى ، وما نحسب ذلك القول إلا إحدى الأقاصيص . وليس شيء أشدّ خطأ من مثل هذا القول لأننا اذا سمعنا وصف أمرين متصلين اتصالا وثيقا وصدق أحدهما صدقا لا شبهة فيه وكان من آيات الدقة ، فإن أعجب العجب أن نقول إن الأمر الآخر مكذوب لا صدق فيه ، فما يكون قولنا هذا إلا تكذيبا لا مبرر له للتاريخ كله . وليس فى وصف هذه المسلات ما يجعلنا فى حيرة بين ما يقتضيه العلم وما يقتضيه التاريخ . لا جرم أننا لا نصدّق أن تقوم قطعة عظيمة من الصخر فى حجم تلك المسلة التى نسميها مسلة كليوبتره على جعالين من الزجاج مما يصنع فى أيامنا هذه ، وما كان فى الزجاج قطع تبلغ من الحجم ما يكفى لمثل هذا القصد . ولكنا نعلم فى المعادن معدنا عظيم الصلابة والرونق وهو الحجر الأسود (الأبسنيدى) الذى يشبه الزجاج ، ويعرف بالزجاج الطبيعى . ولعل الجعالين التى كانت تحت المسلة الثانية — وهى القائمة اليوم فى لندرة — كانت من ذلك الحجر الأسود . وإذا كان هذا غير ممكن فلعلها كانت من حجر آخر متين شديد الصقل . وإنا نؤثر أن

(١) نجد رسما للسرطان فى صورة (٧) من كتاب (L. Col. H. H. Gorringe) وهو كتاب Egyptian Obelisks (لندن ١٨٨٥) وتوجد به صور أخرى للبناء وقد وصف (Neroutsos Bey) فى كتابه (L'Ancienne Alexandrie) صفحة ١٦ و ١٧ وضع المسلة الأصلية ولم تبق إلا دعامة واحدة من الدعامات الأربع التى كانت على هيئة السرطان وكان من النحاس القديم (Cuivre reputé Aurifere) . "وكانت هذه الدعامة على هيئة السرطان البحرى راقدا على بطنه فوق قطعة من حجر الجرانيت وفوق ظهره فتحة تدخل الى ما تحت جرم المسلة" وكانت الدعامات الثلاث الأخرى على الصورة عينها وبذلك كانت المسلة منفصلة كل الانفصال عن جسم البناء الذى تحتها .

نصدّق ما قاله كتّاب العرب بنصه كما جاء فى قولهم، على أن نكذبهم فيه بعد ما ظهر من صدقهم فيه صدقا جليا . فإنا لا نشك فى أن المصريين كانوا فوق براعتهم فى صناعة الزجاج يعرفون من عظيم أسرار صناعته ما نجهل، وليس بالمستبعد أن يكونوا قد استطاعوا صناعة صنف من الزجاج يبلغ من المتانة أن يحمل مثل تلك الكتلة الصخرية العظيمة . ومن المفيد هنا أن نقول إن المسلة التى حملت إلى لندن كانت قد وقعت على الأرض قبل الأخرى بزمن طويل .

إذن نقول إن أثرين عظيمين كانا قائمين أمام القيصريون على قاعدتين ذاتى طبقات . وكان أحدهما قائما على أربع سرطانات من النحاس أو الشبه، وكان الثانى قائمـا على أربع تماثيل من الزجاج المتين أو الحجر الابسيدى على صورة العقارب . وإذا نحن أزلنا ما طرأ من الخلط على هـذا الوصف بين المنارة والمسلتين عرفنا أن التماثيل النحاسية التى يذكرها المقريزى لم تكن فى أعلى المنارة حيث لا تكون ظاهرة لرأى العين، ولكنها كانت فى أعلى المسلات. وكان التمثال "الذى يشير إلى الشمس" بغير شك تمثالا ذا جناحين يمثل " هرميس " أو " نيكى " (Nike) (آلهة النصر عند اليونان) وأغلب الظن أنه كان قائما على قدم واحدة فوق قمة المسلة(١) يمدّ يده اليمنى على عادة اليونان، فى تصوير تماثيلهم، وكان التمثال الآخر الذى " يشير إلى البحر" صورة أخرى لا يقصد بها إلا التجميل والزينة، وإيجاد التماثل فى المنظر . ولا بد أن هذه الأعمدة العظيمة القديمة كانت باهرة الرونق والجمال فى صنعها ورسمها الذى أبدعته يد الصناع فى عصر أغسطس، تقع فى النفس موقع الجلال إذا ما وقعت العين على قمتها الشاهقة إذ تمرّ بها السفن فى دخولها إلى المرفأ أو خروجها منه .

وأما المتحف فلا نجد له ذكرا باقيا إلى يومنا هذا ولا بد لنا أن نقول إنه تخرّب وزال قبل ذلك بزمن طويل . ولعل زواله كان فى الحريق الكبير الذى أحدثه

(١) قام الدليل على أن المسلات كان لها غطاء على قمتها من المعدن

يوليوس قيصر عند ماحاصره المصريون فى ذلك الحى تحت قيادة (اخيلاس)[١]، أولعل ذلك وقع فى النضال الأخير الذى كان فى أواخر عهد الوثنية والاضطراب الذى حل بها عند احتضارها[٢] .

حسبنا ما تقدّم فى ذكر الكنيسة، ولنصف بعد ذلك (السراپيوم) وهو طائفة من الأبنية ذات جمال رائع كان لها أثر عظيم فى نفوس العرب . وكان فى حى آخر من أحياء المدينة فى الموضع الذى به اليوم عمود (دقلديانوس) . وكان هذا الحى معروفا بالحى المصرى الذى لم يضع اسمه فى وقت من الأوقات، وذلك الاسم هو (رقوتى) . فإن القبط لم يسموا فيما بينهم مدينة الإسكندرية باسم بانيها العظيم، بل كان أكثر حديثهم عنها باسم القرية التى كانت لبعض الصيادين قبل الاسكندر بزمن طويل . وهذا دليل على شدّة احتفاظهم بقديمهم لا يعبأون فى ذلك بمرّ الزمن . وقد عرف موضع السراپيوم معرفة لا موضع للشك فيها مما جاء فى وصفه فى الكتب القديمة، ومما أسفر عنه البحث الأثرى فى العصور الحديثة . ويقرن ذكر السراپيوم عادة بذكر عمود دقلديانوس وهو الذى سماه العرب (عمود السوارى)، وكان على مقربة من الباب الجنوبى للمدينة وهو الذى يسميه العرب باب الشجرة[٣] . ولا يتفق أهل الآثار على أنه كان قائما على ربوة تشبه (الاكروبولس) فى أثينا، وليس سطح الإسكندرية فى الوقت الحاضر مما يسهل تحقيق هذا الأمر . ومهما يكن من الأمر فقد كان حصنا معظمه من صنعة الإنسان مع علوه وإشرافه فوق المدينة . فقد كان قائما على

---

(١) أنظر ما جاء بعد فى صفحة ٣٥٤ وما بعدها وقد عالجنا فيها هذا الأمر .

(٢) يقول (Matter) إن المتحف لا يذكر بعد القرن الخامس (Ecole d'Alexandrie) الجزء الأوّل صفحة ٣٣١ ؛ والدكتور (Botti) يقول إن المتحف زال من زمن قديم قبل ذلك التاريخ "ولم يبق المتحف بعد زمن كركلا" (Fouilles à la Colonne Theodosienne) صفحة ١٣٨ وهذا البحث الذى بحثه الدكتور (Botti) ذو قيمة عظمى لتاريخ الاسكندرية ووصف سطحها ويقصد بقوله (العمود التيودوسى) ما يعرف عادة بعمود دقلديانوس وأما اسم (عمود بومبى) فناشئ عن خطأ فى قراءة النقوش التى تحته .

(٣) يذكر ياقوت والقزوينى هذا الاسم .

تهدله نواة من الصخر الطبيعى، ولكن سائره كان من صنع الإنسان. وكانت أسواره المنيفة تحيط بآزاج معقودة تحت الأرض طبقات بعضها فوق بعض (١)، فكان حصنا عظيما مربع الشكل أعلاه مسطح تزينه أبنية بديعة. والظاهر أنه كان يدخل إليه من طريقين: أحدهما تسير عليه العجلات، والآخر سلم له مائة درجة. على أننا لسنا نعرف القصد الذى من أجله بنى ذلك السلم (٢) وكان موضعه فى الجهة الشرقية من البناء،

---

(١) لاتزال النواة الصخرية ظاهرة اليوم وإن وصف (روفينوس) لا يدع مجالا للشك فى أن القلعة كانت بوجه عام كوما عظيما من البناء ويقول:

"وليس فى ذلك الموضع ربوة طبيعية ولكنه واقع على قمة مائة درجة أو تزيد وهى من صنع الانسان وهو منعزل وحوله مربعات متسعة من كل جانب وكل الممرات الى القمة واقعة تحت أروقة ذات قباب. ... والأجزاء الخارجية من السور المحيط فيها مخادع ومحاريب وأبنية عالية يسكنها القسوس أو أولئك الذين يسموهم النساك الذين يريدون أن يتطهروا وفوق ذلك كان ذلك السور محاطا من الداخل بأروقة تزينها مربعات من الحجارة وفى وسط المساحة كلها كان يوجد معبد فيه أعمدة عالية ثمينة ويغطى واجهته المرمر البديع وكان فيه تمثال (لسرابيس) بلغ من عظمه أنه كان يلمس بيده اليمنى جدارا من الجدران وبيده اليسرى الجدار الآخر وقد قيل إن ذلك المعبد استعمل فى بنائه كل أنواع المعادن والأخشاب».

ولا يذكر روفينوس المكتبة ولكنه رأى هدم الصنم وقد يكون لحق بذلك هدم المعبد كله وقد ذكر أوناپيوس أن هدم البناء كان تاما. قال «وألقوا مراسيهم فى السرابيوم وحاربوا الأماكن المقدسة ولم يتركوا غير أرض السرابيوم لثقل الحجارة لأنها كانت لا يمكن نقلها وقد خلطوا الأشياء وخربوها الخ» ٣٥ (*). وكان هذا فى حكم تيودوسيوس عند ما كان تيوفيلوس بطريقا للاسكندرية وروما نوس قائدا لحاميتها.

(٢) الظاهر أن الدكتور (بوتى) لم يلتفت الى طريق العربات فى بحثه الأول فى هذا الأمر (L'Acropole d'Alexandrie) صفحة ٧ إذ لم يكن أمامه كل ما قاله (أفطونيوس) فقال "وعلى ذلك لم تكن له طرق يوصل اليه منها إلا طريقا واحدا وهو السلم الأثرى ذو الدرجات المائة ولم تكن له طريق لسير العربات" ولكنه فى كتابه (Colonne Theodosienne) صفحة ٢٤ قد فصل الأمر فيما كتبه وتفصيله يدل على أنه قد كان هناك طريق للعربات فى أحد جوانبه وقد ترجم الدكتور (بوتى) فى كتابه الأخير (صفحة ٨٢) قول أفطونيوس ترجمة عجيبة جعلها "فاذا ما دخل الانسان القلعة (لم يجد إلا) هضبة واحدة مقسمة الى أربعة أجنحة متشابهة ونظامه المستطيل يشبه شكل قالب من الآجر" (٣٦*) ومن المؤكد أن قوله معناه "ان الشكل العام لبنائه مستطيل" (٣٧*) وأما ما قبل ذلك فمعناه أن الفضاء الذى فيه هذا المستطيل مقسم الى أربعة أضلاع متساوية الطول أى أنها أعمدة على شكل الصليب كما وصفناها فى متن كتابنا.

وفى أعلاه المدخل وتدعمه أربعة أعمدة عظيمة فى كل جانب إثنان منها ، وكان للدخل أبواب من معدن الشبه[(١)] .

وأما شكل البناء الذى على القمة وترتيبه فليس من السهل أن ندركه مما بقى لدينا من وصفه، ولكن يلوح لنا أنه كان على ما نحن موردون فيما يلى : فقد كان شكله مستطيلا طوله خمسمائة ذراع فى عرض مائتين وخمسين[(٢)] . ويحيط بأعلى النهد من كل جانب صف من البناء المنيف البديع يتصل فى مواضع كثيرة بحرم المعبد، وكان فى داخل هذه الجوانب الأربعة من البناء فناء يحيط به صف عريض من الأعمدة . وكان فيه كذلك من الوسط أربعة صفوف من الأعمدة يذهب كل صف منها من وسطه إلى جانب من جوانبه ، فكانت هذه الأعمدة على هيئة قريبة من صليب فى الوسط يحيط به إطار مستطيل الشكل . ولكن وسط هذا المستطيل وهو قلب الحصن كله كان فيه معبد (سراپيس) . وكان من سوء الحظ أن هذا المعبد قد تهدّم قبل فتح العرب بمدّة طويلة ، ولكن لا شك فى أنه قد كان بناء من أروع الأبنية وأعظمها . وكان جرمه مستطيلا فى وسطه بهو له أعمدة من أثمن المرمر، وكانت جدرانه من الرخام من داخلها وخارجها . وكان فى وسط ذلك البهو تمثال عظيم للعبود (سراپيس) من الخشب الملبس بالذهب والعاج ، له ذراعان

---

(١) قد جاء وصف القلعة ومدخلها فى كتاب (Polybius) عند ذكره ثورة (Cleomenes) فقال "لحصن قائد القلعة باب الدخول" (٣٩) ولو ذكر (Matter) هذه القطعة لما شك فى قول أفطونيوس إذ استعمل لفظ (القلعة) (Ecole d'Alexandrie) الجزء الأول صفحة ٣٢٥

(٢) أخذنا هذا القياس عن المسعودى ووصف البناء مأخوذ من مقارنة دقيقة لما جاء فى كتابى (Rufinus) و (Aphthonius) ولكن الأخير بعيد كل البعد عن الوضوح حتى فى المواضع التى يقصد فيها الدقة وقد زار (أفطونيوس) الاسكندرية حوالى سنة ٣١٥ بعد الميلاد وقد أورد فى كتابه (Progymnasmata) موازنة بين (أكروبوليس) مدينة أثينا و (اكروبوليس) الاسكندرية وهى موازنة شائقة على ما فيها من غموض انظر ما كتبه الدكتور (Botti) فى (Colonne Theodosienne) صفحة ٢٤ وما بعدها ولكن يحسن قراءة كل هذا المؤلف وكذلك قراءة ما كتبه فى (L'Acropole D'Alex. et La Serapium) ونحن مدينون لكلا هذين الكتابين دينا عظيما .

ممدودتان تكاد كل منهما تلمس الحائط الذى يليها . وكان فى يسراه سيف وتحت يمناه صورة مروّعة للأعجوبة (قوبروس) لها رءوس ثلاثة : رأس أسد ورأس كلب ورأس ذئب ، وقد التفت حولها جميعا أفعى عظيمة.[1] وكانت تزين المعبد جميعه زينة باهرة من النقوش التى لا تقدّر بثمن ، وكانت من المرمر والشبه ، وكان أظهر ما فيها سلسلة من نقوش تمثل حروب (پرسيوس) . وكان حول جدران ذلك المعبد صف من جليل الأعمدة تجرى موازية لصف الأعمدة المحيط بالفناء جميعه ، وتصلها به الصفوف الأربعة التى على هيئة الصليب ، والتى سبق لنا ذكرها . وكانت الأبواب العظيمة التى تحيط بالمعبد لا مثيل لها فى الفخامة والجلال . وكانت رءوس الأعمدة من معدن الشبه تغطيه طبقة من الذهب . وأما السقوف فكانت يغطيها الذهب والألوان الزاهية فى حين كانت الجدران والأرض من أثمن المرمر.[2]

---

(١) Macrobius الكتاب الأول الفصل ٢٠ وقد وصف (Pseudo Callisthenes) فى كتابه "حياة الاسكندر" (٣٨*) هذا التمثال بقوله "يحمل فى يده اليمنى حيوانا بريا له أوجه كثيرة وفى يده اليسرى سيفا " (٣٩*) .

(٢) وان وصف اميانوس لمما يستحق الاقتباس اذ قال :

" وبعد هذه كانت معابد قائمة على قوائم عالية وكان السرابيوم أظهرها وإن اللفظ ليعجز عن تصوير صورة حقيقية له فقد كانت أبهاؤه ذات العماد وتماثيله التى كأنها من الأحياء وسوى ذلك مما كان به من آثار الفن — كانت كلها تميزه وتخلع عليه بهاء يجعله فذا فى العالم لا يزيد عليه شىء فيه جمالا اللهم إلا بناء الكابتول . ذلك الفخر الخالد الذى تفخر به رومه العظيمة " .

ومن المحتمل أن رسم معبد ايزيس وسيرابيس فى رومة اذا أظهرناه بحسب ما نتخيله من وصفه يمكن أن يقرب الينا صورة البناء الذى كان فى الاسكندرية (انظر كتاب Lafaye وهو (Hist. des Cultes des Divinités d'Alex.) باريس سنة ١٨٨٣ الصورة المقابلة لصفحة ٢٢٤ ؛ وأن لغة (Tacitus) فيها كثير من التحفظ (Hist. IV) صفحة ٨٤ فانه لا يقول سوى أن المعبد كان مناسبا لحجم المدينة فى عظمه وقد أساء (Matter) فهم هذه الجملة فذهب الى أن (Tacitus) يشبه مجموعة هذا البناء بمدينة . (Ecole d'Alex. t. i. P. 323) وقد ورد هذا الخطأ نفسه فى كتاب (Saint Martin) اذ يقول "وقد بلغ من عظمه كما قال (تاسيت) انه كان مثل مدينة (Histoire du Bas Emp.) تأليف (Lebeau) الجزء الرابع هامش صفحة ٤٠٦

لكن أهم من ذلك كله أن عقود هـذا المعبد كانت لهـا أبواب تفضى إلى حجـرات فى البناء الأعظم كانـ فى بعضها مكتبة الاسكندرية الكبرى (١)، وكان فى البعض الآخر مشاهد لآلهة مصر القديمة . وكان فى بعض مواضع من حرم هـذا المعبد مسلتان قديمتان، وحوض ماء عظيم من المرمر فائق الجمـال . وكان العمود العظيم المعروف بعمود دقلديانوس فى وقت فتح العرب قائما فوق القلعة مشرفا عليها (٢)، على أننـا لسنا نعلم فى أى وقت أقيم . وكان فى موضع من السرابيوم كنيسة باسم القديس (يوحنا المعمدان) ، وكان فيه سوى هذه كنائس أخرى كانت لا تزال عند ذلك قائمة منها كنائس القديسين (قزماس) و(دميان) و(الأنجيليون) (٣) . وقد بقيت

(١) لعل هذا هو المعنى المحقق لقول (Aphthonius) "كانت المخادع مبنية فى داخل الأروقة وكان بعضها متخذا للكتب توضع عليها وتفتح لمن شاء أن يكلف نفســه بالعناية بالفلسفة و إعادة القوة الى الحكمة ، وكان البعض الآخر متخذا مشاهد للالهة القديمة (٤٠ *)".

(٢) قال الدكتور (Botti) فى كتابه السالف الذكر أنه أنشئ بعـد هدم السرابيوم الذى حـدث فى سنة ٣٩١ ويسميه (العمود الثيودوسى) .

(٣) بحسب رأى الدكتور (Botti) كان اسم (الانجيليون) فى أول أمره (الأركاديون) وكان أصل اسم (الأركاديون) (الكلوديون) وهو يقـول فوق ذلك إن (الأركاديون) كان هو (الهادريانون) (انظر الكتاب السالف الذكر صفحات ١٣٥ و١٣٨ و ١٣٩) و يظهر لنا أن قوله هذا غير ثابت فقد كانـ (الهدريانون) معبـــدا ثم جعل موضعا للسجلات تحفظ فيه الدواوين والوثائق (انظر ما كتب فى ذلك فى أوراق بردى (Oyrhynchus) الجزء الأول صفحة ٦٨ و ٧٢ والجزء الثانى صفحة ١٨٢ ، ومن المشكوك فيه أن هذا البناء كان على نجد السرابيوم وليس ثم من سبب لأن يحول الى كنيسة اذا كان قد استخدم لذلك الغرض النافع وقد أخذ (Gregorovius) قوله عن تحويله الى كنيسة عن كتاب (Epiphanius) (Haeres XIX 2me) (الامبراطور هادريان صفحة ٣٠٨) و يقول سـعيد بن بطريق (انظر مينى الجـزء ١١١ المجموعة ١٠٢٥ — ٦ والمجموعة ١٠٣٠) أنـ تيوفيلوس بنى كنيسة عظيمة باسم الامبراطور (تيودوسـيوس) وغطاها بالذهب وذلك سـوى ما بناه من كنائس أخرى كثيرة مثـل كنيسة العذراء وكنيسة القديس يوحنا وأما عن الأركاديون فانه يقول "المعبد الاسكنـدرى الأعظم الذى أنشئ تخليدا لاسم أركاديوس" .

ولا شك أن هذا كان قبل سنة ٣٩٨ وهذا يتفق كل الاتفاق مع ماجاء فى كتاب حنا النقيوسى وهو أقدم من ذلك بكثير فقد قال فى صفحة ٤٥٠ إنـ البطريق (تيوفيلوس) بنى كنيسة كبرى سماها باسم الامبراطور (تيودوسيوس) وبنى أخرى سماها باسم ابنه (أركاديوس) وحول أيضا معبدا فى السرابيوم الى =

الكنيسة الأخيرة الى ما بعد الفتح ولكنها كانت يخشى عليها التهدّم فأعيد بناؤها فى أواخر القرن السابع وقام على ذلك البطريق اسحاق [(١)] .

بقى علينا أن نذكر بناء آخر وهو البناء الملاصق لمدخل السرابيوم، ويعدّ جزءا منه وهو (الأقوس) ومعناه البيت . ويمتاز عن سائر بناء القلعة بأن كانت له قبة مذهبة عالية قائمة على دائرة مزدوجة من الأعمدة. ولم يتضح لنا القصد من هذا البناء ولعله لم يقصد منه غير الزينة. والظاهر أنه بقى بعد أن تهدّم المعبد، ويرد ذكره فى أخبار العرب مع (عمود السوارى) [(٢)]. وقد قيلت فى ذلك العمود قصص عجيبة فقيل إنه كان جزءا من معبد بناه سليمان وهذا ما ذهب اليه أصحاب الرأى السائد وقال ابن الفقيه : إن الانسان إذا رمى عليه قطعة من الخزف أو الزجاج وقال عند ذلك "باسم سليمان ابن داود تكسرى" انكسرت ولكنه إذا لم يذكر ذلك الطلسم لم تنكسر . وقيلت قصة أخرى وهى أن الانسان اذا أقفل عينيه وسار الى ذلك العمود لم يستطع أن يبلغه . وقال السيوطى فى سذاجة إنه قد جرب ذلك الأمر بنفسه مرارا وظهر له صدقه. وقال ذلك المؤرّخ إن "أهل العلم فى الإسكندرية" يذكرون أن هذا العمود كانت عليه قبة جلس تحتها أرسطاطليس وهو ينظر فى علم الفلك، وهذه بقية من ذكر القبة والمكتبة . وقد روى المقريزى عن المسعودى وصفا للسرابيوم وهو وصف

= كنيسة سماها باسم (هونور يوس) ثم قال ان تلك الكنيسة المسماة باسم هونوريوس كانت يطلق عليها اسم القدّيسين (قزماس) و (دميان) وكانت مقابلة لكنيسة القدّيس بطرس واذا لم يخطئ حنا فان الأركاديون كانت بناء جديدا فى أواخر القرن الرابع ولكن هذا الأمر محير فان قول Sozomen (Hist. Eccl V.) صفحة ١٥ يفهم منه أن معبد سرابيس هو الذى حوّل الى كنيسة فقد قال : « إن الذى كان عند ذلك معبد السرابيوم قد أخذ وبعد قليل حوّل الى كنيسة الأركاديوس لقب الملك (٤١*) » . ولكن لفظ سرابيوم (٤٢*) يجب أن يفهم منه هنا الاكروبولس وليس المعبد فقط ولفظ (٤٣*) لا بد يقصد به (أعيد بناؤه) وليس (حول) فان (Sozomen) يذكر بوضوح أن المعبد قد هدم .

(١) اميلنو (حياة البطريق القبطى اسحق صفحة ٥٧ — ٨) .

(٢) الظاهر أن هذا هو ما عناه السيوطى عند ذكره قبة مغطاة بالنحاس وأنها تلمع كالذهب ولكن المقريزى يذكر قبة قطعة واحدة من الرخام الأبيض بديعة الصنع وقد يكون المقصود بهذا كله شيئا واحدا .

لا بأس به فقال " وكان بالإسكندرية قصر عظيم لا يماثله قصر فى بلاد العالم قائم على تل عظيم تجاه باب المدينة" . وكان طوله خمسمائة ذراع فى عرض مائتين وخمسين وله باب عظيم كل جانب منه قطعة واحدة من الصخر، وكذلك أعلاه حجر واحد. وكان فى ذلك القصر مائة عمود وفى صدره عمود عظيم لم ير مثله فى الحجم وله قمة كالتاج . ويقول الكاتب نفسه إن ذلك العمود يهتز عند هبوب الريح عليه . وكان الاعتقاد السائد أن هذه الأبنية أقامها الجن والعمالقة من البشر الأوائل قال السيوطى إنه قد بنى الجان لسليمان فى الإسكندرية إيوانا للاجتماع به ثلثمائة عمود علو كل منها ثلاثون ذراعا وكانت من المرمر المجزع بلغ من صقله أن صار كالمرآة يرى الانسان فيه من يسير خلفه وكان فى وسط الايوان عمود علوه مائة ذراع وأحد عشر ذراعا وكان سقفه قطعة واحدة مربعة من المرمر الأخضر نحته الجن[1] وكان هؤلاء الجان على صورة الانسان لهم رءوس كالقباب وعيون تمزق الأسد . وقد ورد عن ذلك رأى آخر وهو أن الأحجار كانت فى الأزمان السالفة لينه كالطين أو كما قال كاتب آخر " وكان من السهل أن يعمل الناس قبل الظهر فى محاجر المرمر إذ يكون المرمر كأنه العجين فى لينه ولكنه يصير بعد الظهر صلبا يتعذر اقتلاعه" .

وهذه القصص تظهر دهشة العرب مما رأوا من الأبنية التى صارت ملكا لهم . وإنه لمن المؤلم أن يقرأ الانسان أخبار تخريبها وهدمها، ولكن العدل يقضى علينا أن نذكر أن أكثر ذلك التخريب كان من فعل الزلازل ، فما أتى القرن الحادى عشر حتى كانت المدينة كلها أطلالا خربة . ولكن العجب أن يذكر كتاب ذلك العصر أن الأعمدة كانت لاتزال قائمة[2]، ويقولون إن عدتها كانت خمسمائة وقد رآها الإدريسى بعد مائة عام من ذلك الوقت وقال فى وصف ذلك إن العمود الأكبر كان حوله فضاء فيه ستة عشر عمودا عند كل من جانبيه الضيقين وسبعة وستون عمودا عند

(١) حسن المحاضرة للسيوطى صفحة ٥٥

(٢) الدكتور Botti (Colonne Theodosienne) صفحة ١ و ٢

كل من طرفيه العريضين[١] . وقال بنيامين (التودلى)[٢] وقد زار المدينة فى عام ١١٦٠ إنه رأى بناء عظيما جميلا فيه أعمدة من المرمر تفصل بين حجراته الكثيرة". وقال إن ذلك كان فى "مدرسة أرسطو" وذلك مثل ما يقوله الكتاب المسلمون إذ يسمونه "قبة أرسطو" أو "بيت الحكمة". غير أنه حدث فى عام ١١٦٧ أن حاكما جاهلا للاسكندرية اسمه (قراجا) وكان من وزراء صلاح الدين أمر بهدم هذه الأعمدة وحمل أكثرها الى البحر فألقاها فيه ليحول بين العدو وبين النزول الى البر[٣]. ومنذ ذلك الحين بقى عمود (دقلد يانوس) وحده فى مجده، بقية مما كان فى قلعة الاسكندرية[٤] من الأبنية التى لم يكن لها مثيل .

ولنترك الآن معالجة مسألة المكتبة وما حل بها فسنجعل لذلك موضعا آخر ولنمض الى ذكر أثر آخر أو أثرين جديرين بالذكر. كان الملهى الذى ذكره العرب فى غرب القلعة على ما يلوح لنا وكان هناك من غير شك ميدان لسباق الخيل فى خارج المدينة مما يلى الباب الشرقى . وقيل إن[٥] ذلك الميدان كان يتسع لألف ألف من النظارة، وكان بناؤه يجعل كل من فيه يرى ما يجرى به سواء فى ذلك من كان فى أعلاه أو فى أسفله . وكانوا يسمعون كل ما يقال بغير ازدحام أو مشقة . وأما دار التمثيل فقد كانت فى موضع من حى (البروكيون) وكانت بناء عظيما قائما بنفسه .

---

(١) نفس الكتاب السابق صفحة ١٢

(٢) نفس الكتاب ولكن هذه الأعمدة كانت فى الصفوف الخارجة وأما أعمدة المعبد فقد زالت أو كانت على الأقل قد هدمت فى أيام تيودوسيوس .

(٣) خطط المقريزى الجزء الأول صفحة ١٥٩ ولكن عبد اللطيف يقول إنه رأى ٤٠٠ من الأعمدة الكبرى مكسرة وملقاة على الشاطئ وهو يقول إن (قراجا) قصد الى أحد أمرين : إما أن يمنع أثر الموج فى الشاطئ اذ كانت تحفر ما تحت أسوار المدينة ، وإما أن يدفع سفن العدو ثم قال وعلى أى حال فقد كان هذا عبثا سيئا يشبه عبث الأطفال (صفحة ١١٣) .

(٤) وقد أفصح ياقوت عن الأثر الذى أحدثه ذلك فى نفسه بقوله إنه لما زار الاسكندرية طاف حول المدينة فلم يجد بها شيئا يستحق الاعجاب أو يثير الدهشة إلا عمودا اسمه عمود السوارى بقرب الباب المسمى (باب الشجرة) .

(٥) المقريزى الكتاب السالف صفحة ١٥٨

ولكن المنارة كانت موضعا لأعظم أعجاب العرب وأكبر دهشتهم . وقد كان ذلك البناء الضخم كما هو معروف قائما فى الشمال الشرقى من جزيرة (فاروس). وكانت تلك الجزيرة متصلة ببر المدينة بطريق طويل قائم على عقود اسمه (الهبتاستاديوم). وكانت الجزيرة فى وقت الفتح العربى يحيط بها مرسى السفن وفيها أبنية مختلفة كان أكبرها كنيستان : إحداهما (للقديسة صوفيا) ، والأخرى (للقديس فوستوس)، وبينهما نزل للأغراب[1] . وكانت بتلك الجزيرة فى أيام قيصر قرية كبيرة وكان أهلها قوما لا خلاق لهم . وقد قال قيصر عن المنارة إنها قطعة عجيبة من البناء[2] ووصفها سترابو بأنها برج ذو بناء عجيب من الحجر الأبيض وله طبقات عدة[3] ، وقد كان بناؤها على يد (سوستراتوس الكنيدى) فى أيام (بطليموس فلادلفوس) وكان القصد منها هداية السفن، وقد أصابها هدم من فعل البحر ومن أسباب أخرى ، ولكنها كانت ترمم كلما دعت الحال[4] إلى ترميمها، فكانت فى أيام فتح العرب صالحة لم يفسد منها شىء، تلمع فى النهار فى ضوء الشمس وتضىء بنورها فى الليل على البحر إلى بعد عدة فراسخ من الاسكندرية . وكان شاطئ تلك الجهات ضحلا لا مرفأ له ، وكانت السفن الآتية إلى الإسكندرية تعبر إليها بحرا فسيحا لا معالم فيه من البر، فكان من أكبر النعم أن يقام علم ظاهر فى النهار والليل على مسافة ستين ميلا أو سبعين .

(١) هذه التفاصيل مأخوذة من كتاب (Moschus) "مسارح الأرواح" الفصل ١٠٥ و١٠٦

(٢) والفاروس برج شاهق العلو على الجزيرة مبنى بناء عظيما واشتق اسمه من اسم الجزيرة (Bell. Civ. iii Sub. fin.)

(٣) (Geog, XVII. i 6.)

(٤) جاء ذكر مثل هذا الاصلاح فى الديوان اليونانى (Epid 674) وقد ترجمنا تلك الأبيات من (Amaranth and Asphodel) كما يلى :

أنا صرح أغيث البحارة فى اليم ، أضىء عليهم بمصباحى الهادئ فأضىء الليل . كنت أهتز إذا عصفت بى العواصف الداوية ، حتى تداركنى أمون بحوله فأعاد قوتى .

فاذا ماجاز البحارة تلك الأمواج الثائرة رفعوا أيديهم إليه إذا ما صاروا على الأرض ، كما يرفعونها للاله العظيم الذى يهز الأرض .

وقد كتب كتاب العرب شيئا كثيرا عن هذه المنارة فقال الاصطخرى[(١)] إن المنارة قائمة على صخرة فى البحر وبها أكثر من ثلثمائة غرفة لايهتدى فيها الزائر إلا إذا هداه دليل . وقال ابن حوقل[(٢)] : إنها مبنية من صخور منحوتة قد جمع بعضها الى بعض وشدت بالرصاص ولا يشبهها شيء على وجه الأرض . وقد وصفها الادريسى مثل ذلك الوصف[(٣)] مع تفصيل أعظم فقال إن المنارة لا يماثلها شيء فى بلاد العالم فى قوة بنائها ونظامها فهى من أصلب الصخور صب بينها الرصاص المنصهر حتى أن حجارتها لا ينفصل بعضها عن بعض ويصل ماء البحر إليها من جهة الشمال ، وعلوها نحو ثلثمائة ذراع كل ذراع ثلاثة أشبار فطولها مثل قامة مائة رجل : منها سبعون قامة بين الأرض والطبقة الوسطى ، وست وعشرون قامة بين الطبقة الوسطى والقمة وعلو المصباح الذى بها أربع قامات[(٤)] . وهيئة بناء

(١) (Bibl. Geo. Arab) الجزء الأول صفحة ٥١

(٢) الكتاب نفسه الجزء الثانى صفحة ٩٩

(٣) (Geographia Nubiensis) صفحة ٩٤ و ٩٥

(٤) لسنا ندرى ماهو القياس المقصود بالدقة ولكنا اذا قدرنا القامة بخمسة أقدام لا أكثر كان علو البرج خمسمائة قدم وأكثر الكتاب المسلمين يذهبون الى أن علوها ٣٠٠ ذراع ولسنا نخطئ اذا نحن جعلنا ذلك ٥٠٠ قدم انجليزى ومن العجيب أن الأدريسى لا يفرق بين الطبقة الأولى والطبقة الثانية من البرج ويقول اليعقوبى إن علوها ١٧٥ ذراعا ويقول المسعودى وكان فى وقته إن علوه الآن (فى القرن العاشر) ٢٣٠ ذراعا ولكنه كان فيما مضى ٤٠٠ ذراع ثم هدمتها الزلازل ومر الزمن وقال القزوينى إن الطبقتين الأولى والثانيه كانتا متساويتين فى العلو (ويقول إن كلا منهما كانت ٩٠ ذراعا) فاذا كان الأمر كذلك فان قياس الأدريسى يجعل علو كل من الطبقتين الأوليين ١٠٥ ذراع وعلو الثالثة ٧٨ ذراعا و ١٢ ذراعا للمصباح ويلوح لنا أن هذا تقدير قريب الى الأذهان . وأما المقريزى فانه يذكر قياسا آخر وهو ١٢١ ذراعا للطبقة المربعة و $81\frac{1}{2}$ ذراعا للثمنة و $31\frac{1}{2}$ ذراعا للستديرة . ويقول ابن الفقيه إن جماعة ذكروا أن الأذرع كانت أذرعا سلطانية فكانت ٣٠٠ ذراع منها تساوى ٤٥٠ من أذرع اليد وقال عبد اللطيف إنه قرأ نسخة مخطوطة من كتاب أحد أهل الأسفار فوجد به أن علو الطبقات هو ١٢١ و $81\frac{1}{2}$ و $31\frac{1}{2}$ ويزيد عليها ١٠ أذرع للصباح (أو المسجد الذى فوق القمة) . ويقول (Holm) فى كتابه (Hist. of Greece) ترجمة (F. Clarke) (الجزء الرابع صفحة ٣٠٤) إن علوه ٦٥٠ قدما ولكن هذا بعيد عن التصديق لأسباب فنية فى علم الحيل .

برج المنارة معروفة لاشك فيها ، فقد كانت ذات طبقات أربع كل منها أضيق قطرا من الطبقة التى أسفلها . وكانت الطبقة الأولى مما يلى الأرض مربعة والتى تليها ذات ثمانية أضلاع وكانت الثالثة مستديرة وكانت الطبقة العليا مصباحا مكشوفا ، بها مواضع للنار التى يهتدى بها ، ومرآة عجيبة . وكان فى أعلى الطبقة الأولى المربعة طنف عريض عند قاعدة الطبقة الثانية المثمنة يشرف على المدينة والبحر ، وكان بين الطبقة المثمنة والطبقة الدائرية التى فوقها طنف أقل اتساعا من الأول[١] ولكنه يشبهه . وكان الصعود إليها على سلم يغطيه سقف من الحجارة[٢] يصل بين جدرانها . وكان تحت السلم غرف عدّة . ويضيق ما بين السلم من الفراغ بعد الطبقة الثانية حتى يتضاءل الفضاء الذى بداخل المنارة فلا تبقى إلا فرجة صغيرة كالبئر فى وسطه . وكان الضوء يوصل إليها من نوافذ فى جدارها كله من أعلاه إلى أسفله[٣] .

وقد عجب العرب من عدد غرف المنارة ومن تداخلها فقال المقريزى : ويقال إن كل من دخل هذه المنارة اختبل وضل الطريق مما بها من الغرف العدّة والطبقات والمماشى . وقيل إن المغاربة عند ما جاءوا إلى الإسكندرية فى جيش فى خلافة المقتدر دخل جماعة منهم إلى المنارة على ظهور الخيل فضلوا طريقهم حتى جاءوا إلى شق فى كرسى الزجاج الذى على هيئة السرطان[٤] وهو الذى يقوم عليه البناء ، فوقع كثير

(١) المسعودى فى (Bibl. Geog. Arabe) الجزء الثامن صفحة ٤٦ وكذا سواه من الكتاب .

(٢) ياقوت الجزء الأول صفحة ٢٥٦ وما بعدها .

(٣) ليس من الواضح أكانت هناك درجات أم طريق منحدر يصعد عليه إلى البرج فبعض الكتاب يذكر درجات . وأما المسعودى فيقول إنه كان يصعد اليه من طريق منحدر لادرج له . وقال غيره إن الخيل كانت تصعد بأحمالها الى كل غرفة وإنه لمما يهم الإنسان أن يعرف كيف كان يصعد بالوقود الى قمة البرج لايقاد نار المصباح ولعله كان يرفع من الفتحة المتوسطة فى البناء بواسطة بكرة .

(٤) قد بينا أصل هذه القصة فيما سلف فى صفحة ٣٢٦ وليس أوضح من ابن الفقيه فى الدلالة على ما حدث من الخلط بين المنارة والمسلتين فانه بعد أن قال (Bibl. Geog. Arab.) الجزء الخامس صفحة ٧٠) ان منارة الاسكندرية قائمة على سرطان من الزجاج فى البحر قال فى الصفحة التى بعدها ان منارة الإسكندرية كان لها عمودان قائمان على صورتين : إحداهما من النحاس ، والأخرى من الزجاج ، والصورة من النحاس على هيئة العقرب ، والتى من الزجاج على صورة السرطان والمرصد بجوارهما ويسمى المنارة . وقد =

منهم فيه وهلكوا[١] . ولكن قيلت فى المرآة قصص أعجب من هذا، وقد أجمع كتاب العرب على أنها كانت فى ذاتها بصرف النظر عن المنارة التى كانت هى قائمـة عليها، إحدى عجائب العالم . فقيل قد كان فى مدينة (راقوتى) قبـة مذهبة على أعمدة من الشبه، وكان فوقها منارة فى أعلاها مرآة من معدن مركب يبلغ قطرها خمسة أشبار[٢]. وكانت تلك المرآة تتخذ لإحراق سفن العدو . وقد قلدت هذه المرآة فى مدينة الإسكندر فأقيم مثلها على رأس المنارة، ولكنها كانت تستخدم فى رؤية العدو من بعد "إذا أقبل من بلاد الروم". وقد دخلت المبالغة على وصفها بعد قليل فروى عن عبدالله بن عمرو أنه قال "ومن عجائب بلاد العالم المرآة التى على منارة الأسكندرية وهى تكشف ما يجرى فى القسطنطينية[٣]" ولكن المسعودى يصفها بأنها "مرآة عظيمة من الحجر الشفاف يمكن أن ترى فيها السفن الآتية من بلاد الروم وهى بعيدة عن مدى البصر". وقال كاتب آخر مثل هذا المعنى ولكنه يذكر أن هـذه المرآة كانت من "زجاج مدبر" أى محكم الصنعة[٤] . وقال كاتب ثالث إنها كانت من "الحديد الصينى" أو الصلب

= روى السيوطى عن غيره من الكتاب عبارة تفيد أن المنارة كانت قائمـة على عقود من الزجاج قائمة فوق سرطان من النحاس . و يفسر ياقوت سبب عمل الأساس من الزجاج بقصة خرافية هى أن الاسكندر (كذا) عنـد ما أراد بناء المنارة التى فى البحر بحجارة وآجر وصخر محبب وذهب وفضـة ونحاس ورصاص وحديد وزجاج وسائر أنواع المعادن لكى يجربها ثم أخرجها وفحصها فوجد أن الزجاج وحده لم ينقص ولم يفسـد فاختاره للبنـاء .

(١) المقريزى . و يبدأ وصف المنارة فى الجزء الأول صفحة ١٥٥ من الخطط .

(٢) ينقل المقريزى هذا عن ابن وصيف شاه فى كتابه (تاريخ مصرايم) و يتفق معه المرتضى اذ قال إنهم بنوا برجا صغيرا فى وسط المدينة على أعمـدة من النحاس المذهب وجعلوا عليه مرآة متخذة من مواد مختلفة طولها خمسة أشـبار فى مثلها وكان علو البرج مائة ذراع وكانت المرآة تستعمل لاحراق العـدو وكذلك فان المنارة لم تبن إلا لاقامة مرآة كانت فوقها (تاريخ مصر صفحة ١٠٢) .

(٣) ابن الفقية فى (Bîble Geog. Arab) الجزء الخامس صفحة ٧١

(٤) هذا هو اللفظ الذى استعمله المقريزى "الزجاج المدبر" .

الثقيل[١] . وقد أجمع الكل على أنها كانت تظهر السفن وهى أبعد من مدى البصر فكان الإنسان إذا جلس تحتها رأى كل شيء من مكانه إلى القسطنطينية .

وأما الغرض الذى من أجلها أقيمت المرآة فمختلف فيه ، فهل لم تكن تتخذ إلا لتنعكس عليها أشعة الشمس فى النهار وضوء النار فى الليل لهداية السفن ؟ وهل كانت مرآة مما اعتاد الناس اتخاذه أم كان لها سطح يختلف عن ذلك له قدرة على كسر الضوء ، فلذلك كانت حقيقة تتخذ لإحراق السفن إذا ما سطعت عليها أشعة الشمس القوية فى مصر ؟ والجواب على هذا موكول إلى العلماء ولكن من أعجب الأمور أن يذكر مؤرخو العرب فى القرن العاشر للميلاد من وصف هذه المرآة ما يمكن أن نعده تنبؤا باستعمال المنظار المقرب (التلسكوب) . وإنه من العجيب كذلك أن يجمع كل هؤلاء الكتاب على أنها كانت من مادة شفافة ، فيقول بعضهم من الزجاج المدبر ، ويقول البعض من حجر شفاف . فان هذا القول وصف لعدسة ضوئية وليس لمرآة . أليس إذن من الممكن أن تكون مدرسة الأسكندرية العظمى التى فاقت فى علوم الرياضة والحيل قد كشفت سر العدسة الضوئية وصنعتها ، ثم نسى أمر هذا السر بعد تخريب المنارة ؟

وإنه من الثابت أن المنارة كانت تتخذ علما للإشارة ، كما كانت تستخدم لهداية السفن ، ولكن ليس من الواضح عندنا أكانت النار توقد بها فى الليل والنهار ، فإن الادريسى إنما يذكر النار بالليل " وسحابة من الدخان فى النهار " . ولكن جاء فى وصف آخر للمنارة أن الديادبة كانوا يقيمون بها على استعداد لإيقاد النيران بالليل[٢] . ولكن من سوء الحظ أنا لا نجد دليلا على ما جرت به العادة

---

(١) عن السيوطى وهو يقول إن عرض المرآة كان سبعة أذرع وإنها كانت تظهر السفن الآتية من بلاد أوربا وإنها كانت تستعمل لإحراق العدو . وقال إنهم كانوا يديرون المرآة نحو الشمس وهى مائلة للغروب فتنعكس عليها الأشعة وتحرق سفن العدو .

(٢) ذكر (Arculfus) حوالى سنة ٦٧٠ ميلادية هذا " البرج الشاهق العلو " فقال " إنه كان يخدم فيه قوم يوقدون المشاعل وقطع الخشب التى تجمع لذلك الغرض لكى تهدى السفن الى البر وتدلها على =

فى أول الأمر لأن المنارة لحقها كثير من الهدم والتخريب فى مدّة القرن الأوّل بعد الفتح العربى . ولذلك التهديم قصة ، وذلك أنه فى خلافة الوليد بن عبد الملك فى القرن الثامن للميلاد ، رأى الروم فعل المنارة وضايقهم من أمرها أنها كانت مرقبا يساعد المسلمين على ردّ غارات البحر و يحميهم من المباغتة ، فعوّلوا على الاحتيال فى تخريبها . فذهب رجل من خواص[1] ملك الروم إلى الخليفة يحمل الهدايا النفيسة ، وتظاهر بأن الملك قد وجد عليه موجدة عظيمة وسعى فى قتله ، وأنه جاء راغبا فى الإسلام ، فصدّقه الخليفة ورحب بإسلامه وقرّبه وتنصح الرجل إلى الخليفــة فى دفائن استخرجت من بلاد الشام ، فشرهت نفسه إلى الأموال فمال إلى تصديق ما وصفه ذلك الرومى الداهية من كنوز عظيمة من الذهب والجوهر كانت من قبل لملوك مصر القديمــة وقال إنها مدفونة فى آزاج ومخادع تحت المنارة . فأرســل الخليفة جماعة من جنده ليستخرجوا ذلك فهدموا نصف المنارة وأزالوا المرآة ، وتم ذلك قبل أن يفطن أحد الى المكيدة . فضج الناس وعزموا على منع ذلك الهدم و بعثوا الى الخليفة بخبرها ، فنذر الخائن بالأمر فهرب فى الليل الى بلاده ، وكانت حيلته قد تمت وهدم من المنارة نصفها أو على الأقل ثلثها ، وبلغ الخائن ما أراد إذ هدم المرآة السحرية . وعرف العرب أنهم خدعوا بعد أن انقضى الأمر ، "وبنـوا منارة من الآجر ولكنهم لم يستطيعوا أن يعيدوها الى علوها السابق ، فلما وضعوا المرآة عليها لم تفد شيئا[2]" .

وليس ثمت سبب يدعو الى الشك فى جوهر هذه القصة ، وليس من العجيب أن يتعذر إصلاح ما تلف من المنارة . فلا شك أنها كانت من آيات البناء إذ بقيت قائمــة مدّة قرون وهى شاهقة العــلو ناهدة فى أطباق الفضاء . وما كان البناءون

= مدخل المضيق" ثم قال "وكان حول الجزيرة كذلك عروق كبيرة الحجم قد وضعت لتحمى الأساس من الإنهيار من جراء فعل ماء البحر" (Pal. Pil. Text Soc.) الجزء الثالث صفحة ٥٠

(١) جاء فى رواية أخرى أنه كان بعض قسوس النصارى وأنه جاء بكتاب قديم فيه سر الكنز الدفين .

(٢) السيوطى الكتاب السابق صــفحة ٥٣ ولكن جمهور كتاب العرب يذهبون الى أن المرآة تحطمت وهذا هو الأقرب .

فى مدّة حكم العـرب ليبلغوا ما بلغه سـلفهم فى عهد البطالسـة . ولم يرد فى كتاب المسـعودى ذكر لسعى العرب فى إعادة بنائها بل يفهم من قوله أنهم لم يفعـلوا شيئا فى سبيل ذلك، ولكن لعـله مخطئ . ولا نعرف بعد ذلك إلا قليلا من أخبار المنارة فقـد ورد أن أحمد بن طولون[(١)] جعل على قمتها قبة من الخشب، حوالى سـنة ٨٧٥ للميـلاد . وفى ذلك ما يدل على أن هـذا البناء لم يكن يعدّ منارة على سابق عهـده بل صار مرقبا لا يستخدم لغير ذلك . ولكن هذه القبـة لم تبق مدّة طويلة ولمـا أن أزالها الريح أقيم فى موضعها مسـجد فى مدة الملك الكامل . وقد حدث بعـد مدّة ابن طولون ببضع سنين أن تهدّمت إحدى قوائمها من جهة الغرب مما يلى البحر فبناها خمارويه[(٢)] . وفى القرن الذى بعـد ذلك لعشر من رمضان لعام ٣٤٤ للهجـرة (وذلك يوافق الثامن والعشرين من ديسمبر سنة ٩٥٥) للميلاد تهـدّم نحو ثلاثين ذراعا من قمتها فى زلازل شـديدة أحس بها الناس فى كل بلاد مصر والشام وشمال أفريقيا، وكانت لها هزات عنيفة بقيت تتوالى نحو نصف ساعة[(٣)]. وفى عام ١١٨٢ ذكر ابن جبير[(٤)] أنه رأى مسجدا آخر على رأسها ويقول ذلك الكاتب إن علوها كان نيفا ومائة وخمسين ذراعا وفى ذلك دلالة على مقـدار نقصانه عما كان عليه فى أول عهده . وبعد ذلك الوقت بنحو أربعين عاما كتب ياقوت وصفا لها ورسم لها رسما مربعا "كالحصن" له طبقة ثانيـة قصيرة من فوقها قبة صغيرة . واسـتطرد من ذكر ذلك إلى أن قال : إن أخبار عظم تلك المنـارة وما ورد من تعظيم شأنها لم تكن إلا " أكاذيب وتغرير" . ولقد كان حكمه ذلك وليـد التسرع، فالظاهر أنه لم يفطن إلى ما أحدثه الدهر فيها من التغير . ولقد جاء فى قوله " وبحثت عن موضع المرآة فلم أجد له أثرا " . وكيف يرجو أن يراها على مثل ذلك الطلل المتهدّم

(١) عن مؤلف "مباهج الفكر" الذى نقل عنه السيوطى .

(٢) المسعودى .

(٣) قال المسعودى ان ذلك كان عند ما كان فى الفسطاط .

(٤) نقله المقريزى .

المشوه وهو كل ما كان باقيا فى وقت زيارته[١] . ولكن ما حدث بها من التلف بعد ذلك كان أعظم وأبلغ فقد وصفها كاتب عربى فى أيام قلاوون بأنها "طلل بال"[٢] ، مع أن السلطان (بيبرس) كان قد رممها قبل ذلك وأصلح منها . وقد سعى من جاء بعد ذلك فى إصلاحها غير أنه يلوح لنا أن الزلزال الذى وقع فى عام ١٣٧٥ دمر معظمها فلم تبق منها إلا الطبقة السفلى من البرج[٣] .

ولئن ذهبت منارة (الفاروس) وتطاول على زوالها أمد الدهر فقد بقيت منها هيئتها وجمال منظرها ، وما كانت مستعملة من أجله ، وذلك أن منائر المساجد المصرية إنما رسمت على رسمها[٤] ونسجت على منوالها وقد سميت باسمها . وإن منائر القاهرة وإن اختلفت أشكالها وتباينت رسومها لا تزال الكثرة منها على رسم منارة (سوستراتوس) لا فرق فيما بينها ، فهى برج قاعدته عند الأرض مربعة الشكل ثم تصير بعد ذلك مثمنة الأضلاع وتدق فى حجمها ، ثم تدق بعد ذلك ويستدير شكلها ، ثم يعلوها عند القمة مصباح .

إن تاريخ آثار الإسكندرية لم يكتبه أحد بعد ، وإن من أراد كتابته لا بد له من بحث كثير لا يتيسر اليوم فى كثير من المواضع ، وهو بحث لا غنى عنه فى إثبات

(١) يمكن أن تقرأ وصف ياقوت للمنارة فى كتاب (Wustenfeld). (Geographisches Worterbuch) الجزء الأول صفحة ٢٨٦ وما بعدها .

(٢) عن ابن فضل الله وقد نقله عنه السيوطى .

(٣) لا يكاد يوجد شك فى أن قلعة فاروس (الفنار) التى تهدمت عند رمى القنابل على الاسكندرية هى فى موضع المنارة القديمة ويظهر أن بعض أجزائها قديمة ولكن يلوح أن علماء الآثار القديمة لم يفحصوا هذا الموضع فحصا جديا ليعرفوا رسم ما يستحق الرسم وحفظه ويزعم المستر (Kay) الكاتب الأمريكى أنه قد كشف آثار الأساس الأصلى تحت جدران الحصن الموجود الذى بناه قائد بك (حوالى سنة ١٤٨٠) (The American Architect & Building News) الجزء الحادى عشر صفحة ١٠١ — ٢ الصادرة فى ٢٦ أغسطس سنة ١٨٨٢ ولكن سواه يجعلون الموضع فى شرق الحصن فى مكان يغطيه البحر اليوم .

(٤) قد عالجنا هذه النظرية فى الـ (Athenaeum) ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٠ ولا نزال على رأينا فى ذلك أما من حيث الاسم فلفظ المنارة لا يستخدم الآن للئذنة ولكنه كان يستخدم فى الأصل لذلك الغرض كما أخبرنى الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية .

ما يود إثباته . على أن وصفنا الذى نصفه الآن على ما فيه من نقص قد يفيده فى بيان ما وقعت عليه أنظار العرب من تلك الآثار عند أول دخولهم فى المدينة . ولم يكن مظهر العاصمة من خارجها بأقل أثرا أو أحقر منظرا فكانت الأسوار فى شمال المدينة تساير الشاطئ فى انحنائه كما سبقت الإشارة الى ذلك ، وكانت الأسوار فى جنوبها تتبع الترعة حتى تدخل الى المدينـــة وتجرى فيها ، وكان كل ذلك بناء متينا بارع الصناعة تنهض فيـــه بروج وحصون ، فتجعل له هيئة منوعة ظلت يعجب بحسنها السفار الذين كانوا يرونها فى السنين الغابرة من أيام الفتح حتى العصور الوسطى (١) .

(١) يخطئ جل الرسوم التى تمثل الأسكندرية القديمة إذ تجعل فضاء عظيما بين الأسوار والترعة وهـــذا الخطأ قد دل عليه الدليل القاطع : أولا بشهادة حنا النقيوسى فى وصف القتال بين (نيقتاس) و (بونوسوس) وقد أوردنا ذلك فى الأبواب الأولى من كتابنا هذا . وثانيا بأن (أركولفوس) قد ذكر ذلك الأمر ذكرا صريحا إذ يقول "وتحيط بالمدينة دائرة عظيمة من الأسوار تحصنها البروج الكثيرة المقامة على شاطئ النهر ومنحنى ساحل البحر" (الكتاب المذكور صفحة ٥٢) ثم قال فى موضع آخر "ويحيط بها من الجنوب مصبات نهر النيل ويحف بها من الشمال البحر وعلى هـــذا فهى من كلا الجـانبين يحيط بها المـاء" (نفس الكتاب صفحة ٤٩) ولاشك أننا عالمون أن المدينة قد ضاقت رقعتها وضاقت بضيقها دائرة أسوارها فلم تكن الأسوار التى تحيط بها فى العصور الوسطى هى التى كانت تحيط بها فى أول أيامها (أنظر كتاب H. de Vaujany) "Recherches sur les anciens Monuments situés sur le Grand Port d' Alexandrie" صفحة ٧٤ و ٨٤ (الاسكندرية ١٨٨٨) ولكن الشكل العـام لتلك الأســوار كان فى أغلب الظن لايزال على عهده وقد كان لهـا بغير شك أثر عظيم فى نفوس السفار حتى بعد الفتح بسبعة قرون أو ثمانية ففى سنة ١٣٥٠ كتب (Ludolph Von Suchem) يقول "والاسكندرية اليوم أول مدينة بحرية فى مصر ومن أعظم مدائن السلطان فهى من جانب على نهر النيل نهر جنة الفردوس إذ يصب فى البحر وهى من الجانب الآخر على البحر وهذه المدينة جميلة منيعة تحيط بها الأسوار العـالية والصروح البـاسقة التى يخالهـا الرائى أمنع من أن ينالها نائل ... ولا تزال بها الى اليوم كنيسة عظيمة بديعة البناء لم ينقص منها شىء وقد حلتها النقوش المختلفة من الفسيفساء والرخام ... والحق أن الاسكندرية لا يزال بها كنائس أخرى كثيرة فيها أجساد كثير من القديســين ("Description of the Holy Land". tr. by Aubrey Stewart) (صفحة ٤٥ – ٤٦ لندن ١٨٩٥) وكذلك يذكر (Breydenbach) حوالى سنة ١٤٨٦ أنه رأى "مدينــة الإسكندرية العظيمة يحيط بهـا البحر الأعظم من جانب والحدائق اليـانعة من الجانب الآخر" . ثم قال بعد ذلك إن كثيرين من زملائه السفار صعدوا على السور الخارجى ورأوا دائرة الحصون والخنادق ثم وافقوا على رأيه "وأنهم لم يروا مدينة أبدع منها ولا أحصن لمـا بها من الآطام والأسوار العالية والبروج الشاهقة" ولكنهم لم يروا فى داخلها سوى الخراب والدمار اللهم إلا كنائس قليلة (Descriptio Terrae Sanctae صفحة ١٠٢) ويمكن أن ترى رسما للاسكندرية القديمة فى دار الكتب المصرية ==

= بالقاهرة وتاريخها سنة ١٦٠٠ وهى تمثل دائرة تامة من الأسوار وتكون الأسوار فى بعض المواضع مزدوجة ولكنه رسم غير دقيـق بغير مقياس ولا تناسب وخير منه رسم (D'Anville) عند صفحة ٥٢ من كتابه (Memoires sur l'Egypte) وبه رسم الأسوار القديمة والجديدة معا وتجد رسما تقريبيا فى كتاب Janssonius وهو "Theatrum Urbium" الجـزء الرابـع (Ams. n. d.) وتجـد فى كتاب (White) "Aegyptiaca" (Oxon 1801) رسما وطائفـة عظيمة من الأخبار وكذلك فى كتاب Parthey "Alexandrinisches Museum" (برلين سنة ١٨٣٨) وأكثر دوائر المعارف تورد بعض الرسوم كما يفعل كتاب Tozer "Selections from Strabo" وكل هذه الرسوم صغيرة وأكثرها يسلم بأمور ليست من المسلم بها . وأما الرسم الذى فى كتاب Matter "Ecole d'Alexandrie" فانه أكبر قليـلا ولكنه غير دقيق وناقص فى التفاصيل وقد أورد كذلك (Neroutsos Bey) فى كتابه (L'Ancienne Alex.) رسما على مقياس أكبر ولعله خير الرسوم على أنه فى بعض المواضع يظهر كأنه لا يفرق بين الأسوار البيزنطية والأسوار العربيـة ولا شك أنه مخطئ فى جعل كنيسة القـديس مرقص والتترابيليس فى جنوب القيصريون ولكنه أحسن فى تصوير الفيال والموانى التى على الترعة ونجد فى المتحف الحديث بالاسكندرية رسما للدينة قديما وحديثا على مقياس كبير جدا ولا شك أن البحوث القائمة فى الوقت الحالى ستكشف بعد قليل عن رسم المدينة القديم ولكن انخفاض الأرض فى كل مساحة الاسكندرية القديمة وإغارة البحر عليها يجعلان إعادة الرسم من أشق الأمور أنظر مقال الدكتور (Hogarth) عن أبحاثه الحفرية فى (Eg. Eplor. Fund Report) سنة ١٨٩٤ — ١٨٩٥

الفصل الخامس والعشرون

مكتبة الاسكندرية

القول فى أن العرب أحرقوها — قصة أبوالفرج — الأدلة المأخوذة من القصة نفسها والتى تنقض هذا الزعم — لم يكن (حنا فليبونوس) حيا عند فتح العرب — هل كانت المكتبة موجودة عند ذلك — المكتبة الأولى الملحقة بالمتحف — لعلها أحرقت فى أيام يوليوس قيصر — المكتبة التى أتت من (برجاموس) — المكتبة الصغرى فى السرابيوم — تخريب معبد السرابيوم — مدى ذلك التخريب عن المصادر المختلفة — ملحقات المكتبة وتدميرها — ماذا آل اليه أمر المكتبة — إغفال الكتاب ذكر ذلك مدة قرنين — أثر معاهدة الإسكندرية فى ذلك الأمر — إغفال الكتاب بعد الفتح ذكر ذلك — ملخص المسألة والخاتمة التى يوصل اليها البحث

لقد كثر الجدل فى أمر مكتبة الاسكندرية العظمى وطالما احتدم الخلاف فى شأن إحراقها، وهل كان للعرب يد فى ذلك عند فتحهم للمدينة، أم أنهم لم يقارفوا شيئا من ذلك . وما دام أهل البحث والعلم لا يزالون على اختلاف فى ذلك الأمر ولم يهتدوا إلى كلمة فصل فيه فلا بد لنا فى كتابنا هذا أن نعالجه، إذ لا نستطيع أن نغفله فى كتاب جعلناه لمعالجة تاريخ فتح العرب لتلك البلاد .

والقصة كما أوردها أبو الفرج[1] كما يلى : قد كان فى ذلك الوقت رجل اشتهر بين المسلمين اسمه (حنا الأجرومى) وكان من أهل الإسكندرية، وظاهر من وصفه

(١) طبعة (Pococke) صفحة ١١٤ فى الترجمة ٢ صفحة ١٨٠ فى الأصل . ويروى (Renaudot) أن القصة فيها عنصر من عناصر عدم الثقة وقد ناقشها جبون بشىء من الايجاز ثم رفضها ولم يترجم (Pococke) إلا المختصر العربى لأبى الفرج . وفى عدد أكتوبر سنة ١٨٩٤ من مجلة القرن العشرين مقالة عن الموضوع بقلم (Vasudeva Rau) وهو يقول (صفحة ٥٦٠) ان القصة ليست فى الأصل السريانى ولعلها أدخلت فيما بعد . وأما المختصر فقد كتبه أبو الفرج نفسه وليست فكرة الادخال إلا محض ظن ولو ثبت ذلك لما كان أمرا هاما وقد بنيت هذه المقالة على حجج سلم بها جدلا ولم تبن على بحث ولذلك ليست ذات قيمة كبرى .

أنه كان من قسوس القبط . ولكنه أخرج من عمله إذ نسب اليه زيغ فى عقيدته ، وكان عزله على يد مجمع من الأساقفة انعقد فى حصن بابليون . وقد أدرك ذلك الرجل فتح العرب للإسكندرية واتصل بعمرو ، فلق عنده حظوة لما توسم فيه بصفاء ذهنه وقوة عقله من الذكاء ، وعجب مما وجد عنده من غزارة العلم . فلما أنس الرجل من عمرو ذلك الاقبال قال له يوما "لقد رأيت المدينة كلها وختمت على ما فيها من التحف ، ولست أطلب اليك شيئا مما تنتفع به بل شيئا لا نفع له عندك وهو عندنا نافع" .

فقال له عمرو : "وماذا تعنى بقولك" فقال : "أعنى بقولى ما فى خزائن الروم من كتب الحكمة" فقال له عمرو: "إن ذلك أمر ليس لى أن اقتطع فيه رأيا دون إذن الخليفة" . ثم أرسل كتابا الى عمر يسأله فى الأمر فأجابه عمر قائلا : "وأما ما ذكرت من أمر الكتب فاذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء فى كتاب الله فلا حاجة لنا به واذا خالفه فلا أرب لنا فيه واحرقها" . فلما جاء هذا الكتاب الى عمرو أمر بالكتب فوزعت على حمامات الاسكندرية لتوقد بها فما زالوا يوقدون بها ستة أشهر" . ثم قال المؤلف : "فاسمع وتعجب" .

هذه هى القصة كما جاءت فى اللغة العربية وقد كتب أبو الفرج ما كتبه فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، ولم يذكر المورد الذى نقل عنه قصته ، ثم نقله عنه أبو الفداء فى أوائل القرن الرابع عشر ، ثم المقريزى[1] بعد ذلك . حقا قد ذكر عبد اللطيف (وقد كتب حوالى سنة ١٢٠٠) إحراق مكتبة الاسكندرية بأمر عمرو ، لكنه لم يفصل فى ذكر ذلك ويلوح أنه روى ذلك الخبر مصدّقا ، وهذا يدل على أن تلك القصة كانت متداولة فى أيامه . ولكن لم يرد لها ذكر مكتوب قبل مضى خمسة قرون ونصف قرن على فتح الاسكندرية ، ويمنع من

(١) هذا المؤلف مثل عبد اللطيف يذكر الخبر تلميحا ويسلم به جدلا فعندما ذكر السرابيوم قال "ويذكر أن هذا العمود من جملة أعمدة كانت تحمل رواق أرسطاليس الذى كان يدرس به الحكمة وأنه كان دار علم وفيه خزانة كتب أحرقها عمرو بن العاص باشارة عمر بن الخطاب رضى الله عنه" (الخطط الجزء الأول صفحة ١٥٩) .

تصديقها إغفال كل الكتاب لذكرها من (حنا النقيوسى) الى (أبى صالح) . ولعل قائلا يقول إنها ظلت تلك القرون تتناقلها الألسن وإن هذا الرأى يعززه أن القبط لا تزال بينهم تلك القصة يتناقلونها مع بعض خلاف فيها ، إذ يجعلون مدّة الإيقاد بالكتب سبعين يوما بدلا من ستة شهور . ولكن ليس من دليل يدل على أن أصل هذه الرواية أقدم من أيام أبى الفرج . ومعنى ذلك بقول آخر أن هذه القصة وإن كانت متداولة بين الناس تكون أخذت عن كتاب القرون الوسطى . فتداولها لا يمكن أن يكون دليلا على شىء، كما أنه لا يمكن أن ينقض شيئا . ولكن الشك الذى يحيط بتلك القصة يجعلها غير وثيقة فى الدلالة ولا كافية بذاتها فى البرهان .

إذن علينا أن نفحص القصة كما وردت، فهى بلا شك قصة خلابة المظهر . وإن رد عمر على كتاب ابن العاص أشبه القول بما اعتاده أهل الشرق فى ردودهم . وهذا التشابه فى الأسلوب هو أقوى ما تعزز به القصة . ولكن من سوء الحظ أنه قد ورد عن عمر مثل هذا الرد فى شأن إحراق كتب الفرس[1]، وهذا نظير قصة أخرى تذكر عن عمرو إذ وقع فى الأسر ثم أنجاه مولاه وردان بضربة على وجهه كانت سببا فى خلاصه من الموت إذا هو انكشف أمره ، فأخذت تلك القصة من موضعها ونقلها الكتاب المسلمون إلى وقت حصار الإسكندرية . فلعل قصة المكتبة تكون كذلك قد عزيت الى الاسكندرية مع أنها قد تكون فى أصلها قائمة على حادثة وقعت قد يكون عمر عناها بذلك القول وقضى فيها بذلك القضاء الشديد . ولكن فى القصة مواضع أخرى لا تثبت إذا حملنا عليها بالنقد، وذلك أننا لو سلمنا أن المكتبة قد أحرقت كما قيل، لكان الأقرب إلى الأذهان أن تحرق فوق ربوة

(١) أنظر طبعة الأستاذ (Bury) لكتاب جبون الجزء الخامس صفحة ٤٥٤ حيث أخذت الرواية عن الحاج خلفه عن ابن خلدون و يصح لنا أن نضيف الى ذلك أن شعور المسلمين نحو كتب الفرس الوثنيين لا بد يخالف شعورهم نحو كتب المسيحيين فقد كان المسلمون على الأقل فى أول أيامهم يكرهون إتلاف ما كتب عليه اسم الله .

القلعة ، ولكن القصة تريدنا على أن نقول إن تلك المكتبة قد تكلف الناس مشقة حملها فى عيب وفرّقوها بين الحمامات العدّة ، فاتخذت وقودا مدّة ستة أشهر . وما كل ذلك سوى نسيج من الباطل ، فان تلك الكتب إذا كان قد قضى عليها بالحرق لأحرقت حيث هى ، وما كان عمرو بن العاص وقد أبى أن يعطيها لصديقه (فليبونوس) ليجعلها فى أيدى أصحاب الحمامات فى المدينة ، فانه لو فعل ذلك لاستطاع (حنا فليبونوس) أو سواه من الناس أن يستنقذوا عددا عظيما منها بثمن بخس فى تلك الشهور الستة التى قيل إنها جعلت وقودا للحمامات فيها . وبعد فمما لا شك فيه أن كثيرا من الكتب فى مصر فى القرن السابع كانت من الرق[١]، وهو لا يصلح للوقود، وما كان أمر الخليفة ليجعله يصلح لذلك . فلنسائل إذن أنفسنا ماذا كان من أمر تلك الكتب المخطوطة على الرق . وإذا نحن استبعدناها فكيف يتصوّر أحد أن ما يبقى من سواها يكفى لوقود أربعة آلاف حمام[٢] مدّة مائة وثمانين يوما . إن إيراد القصة على هذه الصورة مضحك، وانه ليحق لنا أن نسمع ما فيها ونعجب .

وقد يقول قائل إن هذه الشبهات الصغيرة ليس من العدل أن يؤخذ بها وإننا إذا أنعمنا النظر فى الأمر واستقصينا ما ذكر عنه وفحصناه فحصا دقيقا لم نجد مندوحة من الانتهاء الى أن حريق المكتبة أمر صحيح على وجه الإجمال. ولا يسعنا مع مثل هذا القول إلا أن ندع القصة ونقدها فى ذاتها ونلتمس دليلا مما هو خارج عنها لنرى هل يعززها فى الجملة أو ينقضها . ولا بد لنا من النظر فى أمرين نرى لها

(١) قد أظهر الدكتوران "غرنفل" و"هنت" أن استعمال ورق البردى فى الكتب كان لا يزال متبعا ما دامت اللغة اليونانية تكتب فى مصر وذلك عكس ما يذهب اليه الرأى الشائع — على أن الرق كان يفضل عليه ولا سيما عند القبط (انظر مجموعة بردى (Oxyrhynchus) الجزء الثانى صفحة ٣٠٢ ومع ذلك فقد كان أكثر الكتب القديمة التى كانت فى مكتبة السرابيوم مكتوبا على الرق .

(٢) قد سبق لنا أن بينا فى هامش صفحة ٣١٩ أن هذا العدد الذى ذكره مؤرخو المسلمين لا شك مبالغ فيه ولكنا مهما قللنا منه فان عبارة أبى الفرج لا يمكن أن تحتمل التمحيص الحسابى البسيط .

شأنا عظيما فيما نحن بصدده، أولها هل كان (حنا فليبونوس)[١] على قيد الحياة فى وقت فتح العرب . وثانيهما هل كانت المكتبة باقية الى ذلك الوقت . فأما الأمر الأوّل فانه أمر مقرر لايكاد يكون فيه شك، فان حنا لم يكن حيا فى عام ٦٤٢، ولا حاجة بى الى سرد كل ما يؤيد هــذا الرأى ، فمن المعروف أن حنا كان يكتب فى عام[٢] ٥٤٠ ولعله كان يكتب قبــل تملك چستنيان أى قبــل عام ٥٢٧ ، وقــد يكون أدرك القرن السابع وعاش بضع سنين فى أوّله . وأما لو قلنا إنه عاش الى عام ٦٤٢ فان سنه لا تكون عند ذلك أقل من مائة وعشرين عاما . فمن الجلى على ذلك أن يكون (حنا فليبونوس) قد مات منــذ ثلاثين أو أربعين عاما قبــل أن يدخل عمرو فى الاسكندرية .

(١) جاء اسم حنا فى القصة العربية (جراما تيكوس) وقد عرب أبو الفرج ذلك الاسم بنصه ولا شك أن المقصود هو (فليبونوس) أنظر مثــلا (نيقفوروس كاليستوس) إذ يقول "الكاتب حنا الذى يدعى فيلوبونوس" (٤٤*) (٥ ، XVIII) .

(٢) قد سبقت لنا الاشارة الى (Nauck) بهذه المناسبة ولكن الحقائق مبينة بيانا أوضح وأقرب الى التناول فى كتاب "Dict. Christ. Biog." Johannes Philoponus S. V. والبرهان قاطع على أن حياة حنا كانت فى القرن السادس إن لم تكن قد انتهت فى أثنائه وذلك على رغم الوثيقة المشكوك فيها التى أخذ عنها جبون نقلا عن Fabricius على أنها مؤرّخة فى سنة ٦١٨ وعلى رغم العبارة التى تعزى الى نيقفوروس ومعناها أن حنا كان يعيش فى وقت (جورج البيسيدى) فى حكم هرقل فان نيقفوروس المذكور إنما هو كاليستوس الذى كتب فى القرن الرابع عشر ولم يكن حجة فيما يكتب ولكنا نعترف أن الناقل عنه قد أخطأ فى النقل على ما يظهر . ويلوح أن ما جاء فيه ينقض قول من يقول إن فيليبونوس كان حيا فى سنة ٦٤٢ فان حنا يقرن بذكره Severus, Gaius, Dioscorus. الانطاكى ويقول إنهم جميعا كانوا يكتبون ضدّ مجمع خلقيدونية وإنهم كانوا غالبين حتى "ولى جستنيان الملك سنة ٥٢٧ ميلادية" وعند ذلك حل هؤلاء القادة فى الالحاد مذاهبهم الى الجحور والأركان (Hist XVIII ٥ ، ٤ فى Part. Gr. 147 Migne صفحة ٤٢٢). وفوق ذلك قد وصف حنا بأنه (نبه ذكره فى أثناء الحكم الحاضر) (٥ ، ٤*) وهذا النص يدل على أن المقصود هو جستنيان وليس هرقل ولم يقل أحد أن حنا كان معاصرا لجورج البيسيدى فقد قرأنا العبارة فاذا هى تفيد أن جورج كان يعيش فى وقت حياة (Leontius Monachus) وكان أصغر منــه بكثير والظاهر أن (ليونتيوس) مات فى أوائل القرن السابع فان ديوانه الذى أثبت فيه أسمــاء بطارقة الإسكندرية انتهى عند ذكر (Eulogius) سنة ٦٠٧ ويفهم ممـا كتبه (ليونتيوس) أن حنا فيليبونوس كان قد مات عند ما كان يكتب كتابه (مينى الجزء ٨٦ المجموعة ١١٨٧) وقد عالج (Matter) هذا الموضوع وهو تعيين التاريخ الذى كان فيليبونوس يعيش فيه ولكن بحثه غير واف ("Ecole d'Alex." الجزء الأوّل صفحة ٣٢٩) .

وأما المكتبة ذاتها ووجودها عند الفتح ، فبحث شائق ومن أشق الأمور الانتهاء الى قول فيه . فان أول مكتبة كانت بالاسكندرية هى المكتبة الشهيرة، وكانت فى حى البروكيون كما هو معلوم . ولئن كان إنشاء هذه المكتبة العظمى التى اجتمعت فيها أجل مؤلفات العالم يرجع الفضل فيه إلى (بطليموس سوتر)، فانها لم تتحقق ولم يتم تجهيزها و يكمل نظامها إلا على يد خلفه (بطليموس فلادلفوس) . والظاهر أنها كانت فى جزء من مجموعة الأبنية الفخمة التى كانت تعرف بالمتحف[(١)] . وقد قال (سترابو) عن ذلك المتحف إنه كان فى جوار قصور الملك العظيمة التى كان بناؤها على ربع مساحة المدينة . وكان بناء المكتبة له بهو عظيم فى وسطه من حوله عمد مصفوفة تحيط به، وأفنية ذات آزاج . وكانت هذه الأبنية تتصل بسواها مما كان فيه مدرسة الطب والتشريح والجراحة ومدرسة الرياضيات والفلك ومدرسة القانون والفلسفة، وكان يتصل بالبناء بستان كبير وحديقة لعلم النبات ومرصد[(٢)] . وفى ذلك كما ترى جهاز جامعة من أكبر الجامعات . ولسنا نستطيع أن نعين على وجه الدقة

---

(١) الأستاذ (Mahaffy) يشك فى هذه المسألة واذا شئت معرفة أسباب ذلك فارجع الى كتاب (Emp. of the Ptolomies) صفحة ٩٨ .

(٢) أنظر مقالا شائقا عنوانه "مكتبة البطالسة" لنوريسون بك والعبارة المقصودة فى النص فى صفحة ٨ ولكن الواجب علينا الاعتراف بما للكاتب علينا من فضل فى مواضع كثيرة وقد أخذنا عن مراجع أخرى غير كتاب (Ritschl) "Alexandrinisches Museum." (Parthey) وكتاب (Alexandrinisches Bibliotheken in Opuscula, 1866,) وتلك المراجع هى كتاب (Weniger) (Alexandrinisches Museum) سنة ١٨٧٥ وكتاب (Holm) "History of Greece" الجزء الرابع وكتاب (Susemihl) "Geschischte der Griechischen litteratur in der Alexanderzeit" (سنة ١٨٩١ — ٢) وقد دحض جستاف لوبون فى كتابه (La Civilisation des Arabes) (باريس سنة ١٨٨٤) قصة إحراق مكتبة الاسكندرية ولكن كتابه أقرب الى أن يكون للقارئ العام وليس بحثا علميا قيما . وأما كتاب (Sedillot) (Histoire Générale des Arabes) (الطبعة الثانية بباريس سنة ١٨٧٧) فقد شك فى هذا الخبر ولكنه لم يفحصه فحصا دقيقا وهو يشير الى مجلة (La Revue Scientifique de la France) (٢٩ يونيه سنة ١٨٧٥ رقم ١ ٥ صفحة ١٢٠٠ وما بعدها) لمقال جاء فيها عن هذا الموضوع ولكنا لم نستطع الاطلاع عليه .

الموضع الذى كانت فيه المكتبة ولا هيئة بناء المتحف ، بل قد اختلف العلماء فى تعيين موضع ذلك المتحف . ومن المؤلم أن سترابو لا يذكر شيئا عن المكتبة ، فإنه لو ذكر عنها شيئا لكان دليله قاطعا فى هذه المسألة ، ولعرفنا الحقيقة عما رواه بعض المؤرخين القدماء من ضياع المكتبة فى حريق سنة ٤٨ للميلاد أى قبل زيارته ببضع سنين . فقد كان قيصر عند ذلك محصورا فى حى البروكيون يحيط به المصريون من كل جانب وعليهم قائدهم (أخيلاس)، فأحرق السفن التى فى الميناء وقيل إن النار امتدت من هناك وأحرقت المكتبة فأفنتها. أما قيصر نفسه — وذلك إذا كان هو كاتب وصف ذلك الحادث — فإنه لا يشير إلى شىء من أمر نكبة كهذه ، بل إنه يقول إن الاسكندرية لا تكاد النيران تسرى فيها[١] إذ كان بناؤها لا خشب فيه، بل كان قائما على عقود وآزاج، وسقوفه من الحجر والبلاط المتجمد[٢]. وإن إشارة مثل هذه لا يكون القصد منها إلا التضليل والإيهام إذا كان الكاتب يدارى فى أمره ويتستر على أنه شهد إحراق مكتبة الاسكندرية، وأنه كان السبب فى إحراقها. وإنه من أشق الأمور أن ننتهى الى نهاية فى أمر قيصر فنتهمه أو نبرئه . أما (بلوتارك) فلم يكن به شك فى الأمر إذ قال "ولما رأى أسطوله يقع فى يد عدوّه

---

(١) اذا كان كاتب مقال (De Bello Alexandrino) هو (Asinius Pollio) كما يزعم الكتّاب المحدثون سهل علينا أن نفهم السبب الذى نشأ عنه إغفال ذكر هذا الحادث .

(٢) أنظر (De Bello Civil IV ad init) ولكنه بعد ذلك بقليل ذكر أن المصريين عندما هزموا فى البحر هزيمة عظيمة أعدّوا كل سفنهم القديمة التى أمكنهم أن يجمعوها وجاءوا كذلك بسفن الحراسة فى النيل وكان ينقص تلك السفن مجاديف فلجأ المصريون الى "تجريد الأروقة والمدرسة والمبانى العامة من سقوفها كى يحصلوا على الخشب لعمل المجاديف" وهذا التناقض فى الخبر يستحق الالتفات وفوق ذلك قد ذكر حنا النقيوسى أن دقلديانوس أحرق المدينة "وأسلمها للنار كلها" صفحة ٤١٧ ووصف (Orsius) نصر دقلديانوس بقوله "وأسلم المدينة للتخريب" وهو قول يعادل قول حنا فى القوّة وإن كان لم يذكر النار (Hist. VII 25. 8) وقد أرسل قسطنطين (Eulogius) أخا الشهير مقاريوس الأنطاكى وأرسل معه جيشا الى الاسكندرية "فأحرق كل معابد الاسكندرية ودمرها واستصفى أملاكها" أنظر كتاب (Hyvernat) (Actes des Martyres) صفحة ٧٤ وهذه الأمثلة تدل على أن رأى قيصر مخطئ أو مبالغ فيه .

اضطر أن يدفع الخطر بالحريق فامتدت النار من المراسى فى الميناء فأحرقت المكتبة"[(١)] . وواضح أن سنيكا قد صدّق هذه القصة إذ قال " لقد أحرقت فى الإسكندرية أربعمائة ألف كتاب"[(٢)] . وما أغرب ما قاله (ديوكاسيوس)[(٣)] إذ قال "وامتدت النيران الى ما وراء المراسى بالميناء فقضت على أنبار القمح ومخازن الكتب . وقيل إن هذه الكتب كانت كثيرة العدد عظيمة القيمة" وليس بنا من شك فيما كان معروفا بين الناس فى القرن الرابع ، فإن قول (اميانوس مرسلينوس[(٤)]) واضح جلى إذ وصف "مكاتب الاسكندرية التى لا تقوم بثمن والتى اتفق الكتاب الأقدمون على أنها كانت تحوى سبعمائة ألف كتاب بذل فى جمعها البطالسة جهدا كبيرا ولقوا فى سبيل ذلك

(١) أنظر (.Plut) (قيصر) صفحة ٤٩ " ولما انكسر الأسطول اضطر الى دره الخطر بالنار فأحرق المكتبة الكبرى بأن اتصلت النار بها من الموضع الذى كانت فيه سفن الأسطول" (٤٦*) .

(٢) اقتبس الأستاذ (Mahaffy) ما كتبه (سنكا) يسخر من ليفى و يظهر من قوله أنه يسلم برأى سنيكا إذ يقول إن تلك الكتب كانت تقدّر لأنها تزين بهوا الأكل أكثر من تقديرها لأنها تعمل على تقدّم العلم (Emp. of the Ptolomies) صفحة ٩٩ ولعلنا نفضل رأى جبون اذ يقول "وقد سمى ليفى تلك المكتبة زينة الملك " . وهذا مدح عظيم انتقده عليه سنيكا نقدا فاحشا لما كان متصفا به من التشدّد فى مذهب الرواقيين الذين لا يعبأون بشىء يسر ولا يحزنون لشىء يؤلم (الفصل ٥١) .

(٣) XIII صفحة ٣٨ "وقد جعل طعمة للنار كا يقولون مخازن القمح ومخازن الكتب وفيها الكثير والمختار" (٤٧*) ويمكننا أن نفهم معنى قولهم "مخازن القمح" ولكن ما معنى "مخازن الكتب" اذ لا يمكننا أن نتصوّر كوما من الكتب القيمة فى بعض المخازن على استعداد للتصدير ولا أن مخازن الكتب تكون بين ما يوجد عادة على المرسى كسائر معدات التجارة وإن الفرق فى اليونانية بين قولهم "مخازن الكتب" (٤٨*) وقولهم " المكتبة " (٤٩*) لأقل مما هو فى الانجليزية بين لفظ " مخزن الكتب " ولفظ "المكتبة" .

(٤) XXII صفحة ١٦ ؛ ويذكر (Aulus Gellius) نفس هذا العدد للكتب ولكن التقدير يختلف وذكر (Epiphanius) أن العدد هو ٥٤٨٠٠ وقد كتب أيضا فى القرن الرابع أنظر كتاب (Parthey) (Alexandrinisches Museum) صفحة ٧٧ والحقيقة أنه لم تكن هناك مكتبة واحدة بل مكاتب عدّة وقد ورد فى (Ammianus) عبارة "مكاتب كثيرة " وهذه العبارة تفسر السبب فى اختلاف التقدير وقد ذكر (Susemihl) أن عدد الكتب فى أيام (Callimachus) كان ٤٢٨٠٠ فى المكتبة الخارجية (وقد قيل إنها هى مكتبة السرابيوم وهذا على ما نظن قول مشكوك فيه) فى حين أن المكتبة الملكية كانت تحوى ٤٠٠٠٠٠ كتاب أو لفافة من ذات أجزاء، ٩٠٠٠٠ من ذات الجزء الواحد . (Geschichte der Griechischen litteratur in der Alex. zeit.) الجزء الأوّل صفحة ٣٤٢ وما كتبه (Susemihl) عن ترتيب المكتبة العام يستحق العناية (صفحة ٣٣٦ وما بعدها) .

عناء كبيرا وقد أحرقتها النيران فى حرب الاسكندرية عند ما غزاها قيصر وخربها". وقد كتب (أورسيوس) ما يعزز هذا القول. وذلك حيث يقول "وفى أثناء النضال أمر باحراق أسطول الملك وكان عند ذلك راسيا على الشاطئ فامتدت النيران الى جزء من المدينة وأحرقت فيها أربعمائة ألف كتاب كانت فى بناء قريب من الحريق. فضاعت خزانة أدبية عجيبة مما خلفه آباؤنا الذين جمعوا هذه المجموعة الجليلة من مؤلفات النابغين"[1]. وخلاصة القول أننا نرى الأقرب الى العقل أن نصدق ما جاء من أخبار ضياع المكتبة فى حريق الاسكندرية على يد قيصر لا أن نكذبها.

ولكن بعد سبع سنوات أو ثمان من ذلك الحادث الذى وقع لقيصر أرسل (مارك أنطون) إلى الاسكندرية[2] مكتبة ملوك (برجاموس)، ولا نقدر على البت فى موضع هذه الكتب أكان المتحف لا يزال صالحا لأن يكون لها مقرا، أم وضعت فى السرابيوم، فكان ذلك منشأ مكتبة السرابيوم المتأخرة، فإن هذا الأمر لا يزال موضع الخلاف والبحث بين العلماء[3]. وإنا نرى الأقرب إلى الصواب تكذيب

(١) "وفى نفس الوقعة أصدر الأمر باحراق الأسطول الملكى إحراقا تاما فلما اتصلت اللهب بالمدينة فى بعض الجهات أحرقت أربعمائة ألف كتاب اتفق وجودها فى الأبنية المجاورة فأحرقت بذلك آثار الدرس ونتائج التعب المتواصل الذى بذله من قضوا تلك المدة الطويلة فى جمع هذه المؤلفات الشهيرة العظيمة". (Hist. VI 15. 31) والظاهر أن (Orsius) كان أمامه أحد شيئين: إما ما كتبه ليفى، وإما قول سنيكا. وعبارة (Proximis forte Aedibus Condita) معناها (وكانت بالصدفة فى أبنية مجاورة) فيظهر منها عند أول نظرة أنها تعزز قول بعض النقاد الذين يزعمون أن هذه الكتب اتفق عند ذلك وجودها فى مخزن قريب من الشاطئ وإن عدم احتمال مثل هذا الأمر وحده يكاد يكون كافيا لدحض هذا الرأى ولا يفيد لفظ (Condita) معنى (مخزن) مؤقت من ذلك النوع. وإن الصعوبة لا تلبث أن تزول إذا نحن جعلنا لفظ (forte) وصفا للفظ (Proximis) وهذا ماذهبنا اليه فى ترجمتنا وفى نفس الوقت يلوح لنا أن (Orsius)، (Dio Cassius) كلاهما كانا ينقلان عن أصل واحد غير واضح العبارة.

(٢) جاء فى كتاب (بلوتارك) «حياة أنطون» أن أنطون أهدى الى كليوبترة المكاتب التى كانت فى (برجاموس). وكانت تحوى ٢٠٠٠٠٠ لفة من ذات الجزء الواحد.

(٣) يرى (Susemihl) أنه من المحتمل أن مجموعة (برجاموس) كانت مخزونة فى أروقة معبد (Athene Polias) (الكتاب المذكور الجزء الثانى صفحة ٦٦٦) ولكن أين كان ذلك؟

هـذين الرأيين كليهما . فقد رأينا فيما سلف أن المعبد الكبير معبد القيصريون كان من بناء كليوبتره أنشأته تكريما لقيصر[١]، وأن (أغسطس) أتمه بعد ذلك . وذكر أنه كان من أجل ما يحليه مجموعة كتبه . فإذا كانت مكتبة المتحف قد أحرقت، كان أقرب الأمور إلى العقل أن يجعل معبد القيصريون مقرا لمكتبة (برجاموس) وإن لم يكن مقرا لجميعها فلا أقل من أن يجعل جزء منها فيه ، ولعل ما يبقى بعد ذلك يجعل فى معبد السرابيوم .

ومهما يكن من ذلك الأمر فإن أمرين يكاد ان لايكون شك فيهما : أولها أن جزءا من بناء المتحف كان لا يزال باقيا صالحا إلى أيام (كراكلا) الذى أسال الدماء فى المدينة أنهارا، وأقفل الملاهى بها، وأمر بمنع الناس من الذهاب إلى (السيسيتيا) وهى القاعة العامة فى المتحف، وكان ذلك فى عام ٢١٦ للميلاد . وثانى الأمرين أنه فى أوائل التاريخ المسيحى أنشئت مكتبة كبرى بدل مكتبة المتحف التى ضاعت وجعلت فى معبد السرابيوم على قلعة (الأكروپوليس) . وقيل إن أورليان هدم أبنية المتحف وسوّاها بالأرض[٢] فى عام ٢٧٣، وذلك عند ما أوقع بحى البروكيون فخرّبه انتقاما من أهل الاسكندرية على ثورتهم مع (فيرموس) . وهرب عند ذلك أعضاء المتحف الذين كانوا ينتسبون اليه فلجأوا الى السرابيوم، أو خرجوا فى البحر فرارا . وكانت مكتبة السرابيوم تعرف "بالمكتبة الصغرى" أو "المكتبة الوليدة"[٣]، ولكنا لانستطيع أن نعين تاريخا لنهاية "المكتبة الأم"[٤]، ولا لابتداء "المكتبة الوليدة" .

---

(١) ذكر ذلك (Philo Judaeus) أنظر ما سبق فى صفحة ٣٢٣

(٢) ولكن (Éusebius) ينسب تدمير حى البروكيون الى كلوديان وقد يكون على حق . أنظر التعليق فى صفحة ٤١٥ من الجزء الثانى من كتاب "Eusebuis" Heinechen .

(٣) أنظر كتاب "De Pond et Mens" Epiphanius الجزء XII وكان إيفانيوس أسقفا . ولمعرفة عصره أنظر صفحة ٣٥٥ هامش ٣

(٤) نرى أنفسنا مضطرين الى ايراد رأى الدكتور (Botti) وهو "بعد سبتيموس سفيروس لم يصبح محل لقول شىء عن المكتبة الكبرى فان المتحف القديم صار لا وجود له من بعد أيام (كراكلا) ولكن الكلوديوم بقى ثابتا الى أيام أورليان" "Colonne Theodosienne" صفحة ١٣٨ وكان الكلوديوم =

على أنه قيل فى الأخيرة إن الذى أنشأها (بطليموس فلادلفوس). ولكن هذا أمر لا شأن له ببحثنا هذا، فحسبنا أن نعرف أن المكتبة الأولى القديمة كانت فى القرن الرابع قد قضى عليها وفنيت، وأن المكتبة الثانية الصغرى كانت عند ذلك قد مضى زمن ما على إنشائها .

إذن قد سار معهد السرابيوم على سنة الماضين فى تحصيل العلم، وأنشئت جامعة بها عدد عظيم من الكتب، وبقى اسم أرسطو متصلا بالعلم الاسكندرى فى معهد السرابيوم،(١) كما كان من قبل متصلا بمعهد المتحف . ومعنى ذلك أن دراسة الفلسفة والعلوم بقيت على عهدها بالإسكندرية وهى التى جعلت تلك المدينة من قبل مقرّ العلوم فى العالم، ولم يتغير إلا شيء واحد وهو أن مقرّ الدراسة أصبح السرابيوم بعد أن كان المتحف .

ولكن كان مقدورا على السرابيوم أن يقضى عليه فى أواخر القرن الرابع على يد المسيحيين يقودهم (تيوفيلوس) . وقد رأينا فيما سلف كيف خرب القيصريون ونهب فى سنة٣٦٦ فى أثناء نضال دينى،وأغلب الظن أن المكتبة التى كانت فيه قد ذهبت

= شبه مدرسة للتاريخ أنشأه كلوديوس متصلا بالمتحف ولكنه لم يلق توفيقا كبيرا والظاهر أن الدكتور (Botti) يرجع أصل "المكتبة الوليدة" الى "تراجان" أو "هدريان" ولكن يحسن أن نرجع الى كتاب الأستاذ Mahaffy "Emp. of the Ptolomies" صفحة ١٦٧

(١) وهذا يفسر كثرة إقتران اسم ارسطاليس ببناء السرابيوم فى مؤلفات المسلمين أنظر ما سبق فى صفحة٣٣٧ وقدأخطأ (Matter) إذ زعم أن أول مرة وجد فيها هذا الأقتران فى كتاب بنيامين التوديلى فقال «وإلى ذلك الحين لم يكن أحد من الكتاب قد أثبت تلك الرواية» (مدرسة الاسكندرية الجزء الأول صفحة ٣٢٧ – ٨) والحقيقة أن هذه من العبارات الشائعة فى الكتب العربية والقبطية على السواء . أنظر مثلا النسخة الخطية القبطية التى بباريس الجزء ١٢٩ صفحة ٩٢ وما بعدها وقد ترجم جزء امنها المستر (W.E. Crum.) وقام البرهان على أن منشأها كتاب (Eusebius) "Proceedings of Soc. Bibl. Arch." (١٢ فبراير سنة ١٩٠٢) وقد جاء ذكر مدرسة ارسطاليس وعلم الاسكندرية فى الصفحة الثانية عشرة من رسالة المستر (Crum) وهذا انتقال سهل من استعمال لفظ «المدرسة» للدلالة على مذهب علمى إلى جعله يدل على المواضع الذى يتاق فيه العلم وقد نشأ عن الدراسة المتوارثة لمذهب أرسطاليس هناك اعتقاد الناس أن أرسطاليس كان هو نفسه يعلم فى المتحف والسرابيوم .

ضحية فى ذلك النضال . وكان نضال المسيحيين مع عبدة الأوثان يزداد شدّة وهولا كلما زاد المسيحيون قوة ، وكان السرابيوم بلا شك حصن الوثنية وملاذها ، وظل الوثنيون مدّة يغيرون من هناك على المدينة ، و يقتلون أشدّ المسيحيين عليهم ، وقد انتفعوا فى ذلك بمناعة موقع السرابيوم . فثار المسيحيون بأن حاصروا (تلعة الاكرو بولس) ، ولكن قبل أن يصل النضال الى نهايته ، اتفق الجانبان على تحكيم الامبراطور فيما بينهم . فقضى (تيودوسيوس) للمسيحيين وقرئ حكمه على الناس من الحزبين فى ساحة السرابيوم فهرب عبدة الأوثان المصرية القديمة ، وأهوى المسيحيون إلى المعبد العظيم معبد (سرابيس) وعلى رأسهم (تيوفيلوس) وجعلوا يهدمونه و يخربون فيه وكان ذلك فى عام ٣٩١ ولا يختلف فيه اثنان .

فلنمض الآن إلى بحث آخر لنرى هل ضاعت المكتبة فى ذلك التخريب . وإنا لانستطيع أن نقول على وجه البت إنها قد ضاعت[(١)]، فان ذلك أمر مختلف فيه ، ولا بد لنا من فحص ما يتاح لنا من أدلة بتراء لعلنا ننتهى منها إلى حكم . وأول شيء نثبته أن المعبد ذاته قد تهدّم فى عام ٣٩١ وكان هدمه تاما إذ سوى بناؤه بالأرض ونقض من أساسه كما قال (أونابيوس) ، ولعله كان مبالغا فى قوله بعض المبالغة . وقد بنى فى موضعه كنيسة أو أكثر من كنائس المسيحيين ، ولكن لم يذكر أحد أن المكتبة قد ضاعت فيما ضاع عند ذلك . فلا بد لنا إذن من إثبات أحد أمرين إذا أردنا أن

(١) ولكن بعض الكتاب يجرأون على إبداء آراء قاطعة فى ذلك فمثلا يقول نوريسون بك فى كتابه (La Bibl. des Ptol. صفحة ٢١) إنه عند ما استولى المسيحيون على السرابيوم (وقال إن ذلك كان فى سنة ٣٨٩) نهبت المكتبة نهبا منظما وأرسلت الكتب الى رومة والقسطنطينية وكان تيودوسيوس اذ ذاك يجمع الكتب لمكتبة عظمى . ولسنا ندرى الى أى مرجع يستند هذا الخبر ولكن الأستاذ (Bury) يرى رأيا مخالفا لذلك كل المخالفة فى طبعته لكتاب جبون (الجزء الثالث صفحة ٥٩٤ الذيل) إذ قال "وقد استخلصنا أنه لا يوجد دليل على أن مكتبة السرابيوم لم تبق الى أيام فتح العرب" . أما جبون نفسه فانه يعتقد طبعا أنها دمرت على يد المسيحيين بقيادة تيوفيلوس وليس على يد العرب بقيادة عمرو ويتفق الدكتور (Botti) مع نوريسون بك على الأقل فى أنه يثبت أن المكتبة نقلت قبل سنة ٣٩١ إذ قال "وأما المكتبة الوليدة" فانها وقعت فى قبضة (جورج القبادوقى) فاستولت عليها الحكومة المركزية فى القسطنطينية فى سنة ٣٦٢ ولنا أن نتساءل هل احترقت بأمر "Jovien" ("Colonne Theodosienne" صفحة ١٣٨) .

نثبت ضياعها : إما أن نبرهن على أن المكتبة كان مقرّها ذلك المعبد، وإما أن نبرهن على أن أبنية (الأكروبولس) قد خربت جميعها فى الثورة إذ هدمها المسيحيون مع (تيوفيلوس)[(١)] . ولكن أحد هذين الأمرين محقق وهو الأمر الثانى، فان المسيحيين لم يهدموا أبنية (الأكروبولس) جميعا، ومن السهل إثبات هذا، فقد سبق لنا البرهان على أن بقية عظيمة ذات جلال رائع كانت لا تزال باقية من بناء السرابيوم إلى القرن الثانى عشر . ولكنا نجهل كل الجهل موضع هذه البقية كما أنا نجهل الغرض من إنشائها أولا[(٢)]، وبقاء هذه البقية إنما يدل على أن المكتبة قد تكون بقيت سليمة إذا كانت فى البناء الباقى الذى لم يصل اليه الهدم فى ثورة المسيحيين، ولا يدل على أكثر من ذلك . ولكن بين أيدينا براهين تدل على موضع المكتبة ومقدار ما لحقها من

(١) قال (Matter) بحق "ولكى يكون التدمير تاما يجب أن لا يقف الهدم عند معبد سرابيس بل يجب أن يشمل أيضا ملحقاته الواسعة من أفنية وأبواب ومخادع وكذلك المكتبة التى كانت موجودة هناك منذ أكثر من ستة قرون" (Ecole d'Alex. t. j صفحة ٣٢١) ولكن قوله "هناك" فى الحقيقة استناد على ما يجب البرهان عليه فانه يزعم أن التخريب الذى لحق البناء كان يسيرا وسرعان ما أصلح وخرج من ذلك الى أنه لما تقادم العهد على ذكرى المتحف القديم وعفا أثره حل محله السرابيوم فى الأخبار وفى الحقيقة، وصارت "المنشأة الجديدة من النجاح بحيث أنه فى وقت فتح العرب كان السرابيوم لا يزال يحوى مكتبة عظمى" .

(٢) يجب علينا أن نحتج على ما استخلصه (Matter) من قول بنيامين التوديلى الذى رواه (راجع القول المذكور فى كتابه صفحة ٣٢٧ – ٨) وكلمات بنيامين هى "وخارج المدينة مدرسة أرسطاليس معلم الاسكندر وهى بناء عظيم بديع مزين بأعمدة المرمر التى تفصل بين المدارس وعدد تلك المدارس عشرون تقريبا وكان الناس يذهبون اليها من جميع بلاد العالم ليتلقوا حكمة أرسطاليس" وهذا القول قاطع الدلالة على أنه قد كان بين ما بقى من الأبنية البديعة فى القرن الثانى عشر عشرون ساحة أو حجرة تتصل برواق ذى عمد ولكنه لا يدل ولا يمكن أن يدل على أن هذه الحجرات كانت هى بعينها التى استعملها طلاب الفلسفة فقد كانت الأخبار تقرن اسم أرسطاليس بأبنية السرابيوم بوجه عام وعلى ذلك كان يقترن اسمه بما بقى منها فى أيام كتابة بنيامين ولكن هذا لا يمكن أن يؤخذ دليلا على أن الأبنية الباقية كانت تستخدم لطلاب العلم ومن باب أولى أنها لم تكن المقر الذى أودعت فيه المكتبة ثم نلاحظ أن قول بنيامين لا يتفق مع قول مؤرخ سابق له إذ يقول عن السرابيوم إنه طلل وإنه "لم يبق منه الآن إلا الأعمدة التى لا تزال كلها قائمة ولم يسقط أحدها" (النسخة الخطية العربية المكتوبة فى سنة ١٠٦٧ للميلاد فى باريس ونقل عنها الدكتور (Botti) فى ("Coloune Theod." صفحة ١) فاذا علمنا أنه فى القرن الرابع كان المعبد الأوسط تام التدمير وأنه فى القرن الحادى عشر وصف بعض الأعمدة بأنه كان قائما مكانه اتضح لنا أن تلك الأعمدة المذكورة هى أعمدة (الأكربولِس) الخارجية وأنها ليست أعمدة المعبد .

التلف على يد المسيحيين، وأول هذه الأدلة ما قاله (أفطونيوس) وقد زار السرابيوم فى القرن الرابع قبل تدميره بزمن [(١)] . وثانى هذه الأدلة ما قاله (روفينوس) وقد شهد ذلك التخريب وكتب ما كتبه بعده . وقول كل من هذين الكاتبين يكمل قول الآخر ويصدّقه ولكن من العجيب أن أحدهما لا يذكر المعبد فى قوله ولا يشير اليه فى حين أن الثانى لا يذكر المكتبة ولا يشير اليها . ولكن مع ذلك لا شك فى أن (أفطونيوس) يلحق المكتبة بالمعبد ولا يلحقها بأى بناء آخر من أبنية (الاكروبواس) [(٢)] ، كما لا شك فى أن المكتبة كانت فى وقت زيارته للاسكندرية قائمة هناك مفتوحة الأبواب كعادتها لمن يقصدها من طلاب العلم والقراءة . .

---

(١) يحاول (Matter) (راجع النص فى صفحة ٣٢٤) أن يجعل زيارة افطونيوس بعد سنة ٣٩١ ولكنه لم يقدر أن يتحاشى الصعوبة التى أوقعته فيها لغة افطونيوس فان ذلك الكاتب السورى يقول بوضوح إن ملحقات المعبد مبنية فى جوار الأروقة من جهة الداخل وكان بعضها مخصصا للكتبة ومفتوحا لطلاب العلم وكان البعض الآخر مخصصا لخدمة الآلهة القديمة فاما أن يكون افطونيوس قد كتب قبل تدمير مشاهد الوثنيين وإما أن المسيحيين بعد أن خربوا معبد سرابيس تركوا المشاهد الوثنية الأخرى وأباحوا بقاءها وقد اضطر (Matter) الى اختيار الرأى الأخير ولكن كثيرا من العقول الصريحة لا تقبل هذا الرأى وليس ثمت من دليل يدعمه وقد قال (Sozomen) عكس ذلك إذ زعم أن السرابيوم بقى فى يد المسيحيين منذ وقع لهم الى أيامه .

(٢) عند ما وصف صفوف الأعمدة الأربعة التى بنى كل منها من وسط جانب من جوانب المعبد على رسم عمودى يلاقى صف الأعمدة الخارجى قال (الصحن الذى فى وسطه أعمدة كثيرة) (٥٠*) واذا راجعنا نص الكتاب ولغة روفينوس وجدنا أن معنى لفظ (الصحن) (٥١*) لا يمكن الا أن يكون (المعبد نفسه) فان قول روفينوس ليس فيه موضع للشك (فى وسط فضاء البناء كله) فلفظ (الصحن) (٥١*) على ذلك يقصد به (المعبد) وكان حوله سور من الأعمدة وعلى كل جانب من ذلك السور صف من الأعمدة يلقاه فى زاوية قائمة . وبعد ذلك تأتى الفقرة التى ذكرناها من قبل (انظر ما سبق فى صفحة ٣٣٤ هامش ٢) (وقد بنيت المخادع فى داخل الأروقة) (٥٢*) . وهذه الفقرة توضح كل التوضيح أن المخادع التى خصصت للكتبة والمقاصير التى كانت للآلهة القديمة كلها كانت فى داخل سور الأعمدة المحيط بالمعبد أو يمكن أن نقول إن أبوابها كانت تنفذ الى الأروقة المحيطة بالمعبد واذا كان ثمت شك فى هذا فلن تبقى عليه النقوش التى وجدها الدكتور (Botti) فى ذلك الموضع وهى (مع سرابيس وسائر الآلهة التى فى المعابد نفسها وذلك إكراما للامبراطور المعظم قيصر تريانوس أدريانوس) (٥٣*) وهذه الكتابة تذكر بصراحة أن الآلهة الأخرى كانت فى نفس المعبد (صفحة ٢٢ L'Acropole d'Alex.) وفوق ذلك قد كانت لهذه =

فاذا نحن آمنا بأن المكتبة كانت ملحقة بالمعبد، وبأن المعبد قد خرب ودمر، فكيف يمكن أن نقول إن المكتبة قد نجت ولم تصر الى ما صار اليه المعبد، لا سيما وقد كان خراب المعبد كاملا إذ نقض من أساسه وسوى بالأرض . قال (أوناپيوس)[١] "إنهم خربوا السراپيوم وحطموا أوثانه ... ولم تبق إلا الجدران ذاتها، إذ عجزوا عن إزالة تلك القطع العظيمة من الحجارة" . وقال (ثيودوريت) فى وصف هذه الحوادث عينها " ونزعت محاريب الأصنام من أساسها[٢] " . وقال سقراط " وأمر الأمبراطور بهدم كل معابد الوثنيين فى الاسكندرية " . ثم قال " فهدم (تيوفيلوس) معبد سراپيس". وقال "وهدمت المعابد وصهرت الأوثان التى من معدن البرونز واتخذت منها الاوانى[٣]" . وقال فى موضع آخر" إنه قد كشفت حجارة عليها نقوش بالحرف المصرى القديم عند ما كان الناس يهدمون معبد السراپيوم " وقال مثل ذلك (سوزومن[٤]) وهو يقول إن المسيحيين استولوا على السراپيوم منذ

= المشاهد إما فى المعبد و إما فى الصف العظيم من الأبنية الخارجية ولكن روفينوس يذكر تلك الأبنية و يقول عنها إنها كانت تحوى حجرات للدروس أو مخادع للكهنة أو للسدنة والحفظة أو للرهبان والزهاد ومن شابههم فلسنا نشك على ذلك فى أن نقول إن الكتب كانت فعلا فى بناء ذلك المعبد وهذا يتفق مع كل ما نعرفه عن مثل هذه المعاهد وقد يوجد شىء من الشك فى أمر المتحف ولكنا قد بينا من قبل أن (الهدريانون) و (القيصريون) كان فى كل منهما مكتبته ولعلنا نقطع القول بأن نورد قول (أوروسيوس) " راجع هامش ١ صفحة ٣٦٥" (Hist. VI 15. 31)

(١) انظر ما سبق فى صفحة ٣٣١ هامش ١

(٢) (Hist. Eccl.) الجزء ٢٢ (واقتلعوا معابد الأوثان من أساسها) وهو يذكر معبد سراپيس بلهجة الأسف قائلا (وهو كما يقول الكثيرون أكبر وأحسن ما على وجه الأرض)(*٥٥) .

(٣) (Hist. Eccl.) الجزء ١٦ «ولكى يقلل الكنائس فى الاسكندرية يكرس معبد المترايوم و يهدم معبد السرپيوم»(*٥٦) وكان المترايوم (Mithræum) معبدا تقام فيه شعائر الفرس الملطخة بالدماء وليس ثمت ما يدل على أنه كان على الأكروپولس ولكن الامبراطور وهب ذلك الموضع هبة خاصة وجعل البناء كنيسة وعلى ذلك يقول (Sozomen) عند ذكر معبد ديونيسوس (Dionysus) (وحوّل معبد ديونيسوس الى كنيسة)(*٥٧) ومعنى ذلك "أنه أعيد بناؤه فى شكل كنيسة" وهذه عبارة تخالف لفظ (*٥٧¯) الذى معناه " طهر وأهدى إلى " .

(٤) الجزء ١٥ (إن هذه الكنيسة قد دنست)(*٥٨) انظر الهامش السابق وكذلك ما سبق فى صفحة ٣٣٤ هامش ٢

أخذه (تيوفيلوس) الى وقته الذى كتب فيــه . وكل هؤلاء الكتّاب كما ترى ممن كتب فى النصف الأول من القرن الخامس، وعلى ذلك يكادون يكونون كلهم ممن عاشــوا فى وقت واحد . وممــا يؤسف له أنهم لم يقولوا فى المكتبة قولا صريحا ، فنعلم مصيرها على غير شك ، ولم يذكروا شــيئا عن تخريب أبنية (الأكرو پولس) الأخرى. ولم يرد شيء من الايضاح إلا فيما كتبه (روفينوس)، فانه يذكر أن الأبنية التى كانت تكتنف الربوة من خارجها لم يمسها ضر، وكل ما لحقها أن عبدة الأوثان أخرجوا منها . ويقول إنــ هذه الأبنية هى التى بقيت بمــا كان فيها من قاعات الدرس وأروقة المبيت . فى حين أن معبد سرابيس الأكبر وما كان فيــه من عمد لم يبق فيه حجر على حجر بل سوّى بالأرض (١) .

إذن فالأمر كما يلى : قد ثبت أن المكتبة كانت فى حجرات متصلة ببناء المعبد، شأنها فى ذلك شأن المشاهد التى كانت للاصنام المصرية القديمة . وثبت أن بنــاء ذلك المعبد كله قد هدم وخرب، فلا بدّ أن تكون المكتبة قد لحقها الخراب نفسه (٢) .

(١) سبق أن نقلنا العبارة من (Rufinus) (أنظر ما ســبق فى صفحة ٣٣١ هامش ١) ولكن الدكتور (Botti) لم يجد دونه النص اللاتينى فنقل ترجـــة (La Faye) وهى ترجمة صحيحة وقد أظهر بحق أن (Rufinus) شهد تدمير المعبد وأن الأفعال التى يستعملها فى قوله ماضيها ومضارعها يجب أنــ تؤخذ على أنهــا تميز ما بقى وما لم يبق عنــد ما كتب ديوانه وعلى ذلك فان الدكتور (Botti) يرى أن (Rufinus) يبرهن على أن التمثال والمعبد كلاهما هــدم وأن "الباب المربع للفناء الأوســط" قد هدم كذلك وعبارة (Rufinus) فى ذلك الموضع هى : "Porticus quoque post heac omnem ambitum quadratis ordinibus distinctae intrinsecus circumibant".

ولعل هــذه اللغة فيها شيء من الغموض ولكنا نترجمها هكذا "ويلى (الصف الخــارجى) أروقة ذات أعمدة كانت تحيط بالفناء الداخلى وتقسمه الى مربعات" وهذا يتفق مع الرسم الذى كشفه أفطونيوس ولكنا اذا صدق رأينا فى هذا التفسير كان الهدم شاملا ما وراء سور الأعمدة المحيط بالمعبد مع أن الدكتور (Botti) يزعم فيما نظن أنــ الهدم كان مقصورا على ما فى داخله (Colonne Theodosienne) صفحة ٣٥

(٢) لنا أن نلاحــظ هنا أن أبا الفرج يزعم أن (John Philoponus) يقول إن الكتب كانت مخزونة فى "الخزائن الامبراطورية" وهذا الوصف فاسد وهو فى الوقت عينه ذو دلالة . فأما فساده فلأن حجرات السرابيوم لا يمكن أن تسمى "خزائن امبراطورية" مهما توسعنا فى دلالة اللفظ . وأما دلالته فلا نا نظن أنــ هذه الجملة تحمل صــدى الخزانة القيصرية "Fiscus Caesaris" التى يقترن ذكرها باسم المتحف القديم .

وقد يقول قائل لعل الكتب قد أنجيت من ذلك الدمار الذى لحق البناء الذى كانت فيه، بل لقد قيل إن تلك الكتب قد نقلت جميعها نقلها (جورج القبادوقى) من هنالك، قبل ثورة المسيحيين بقيادة (تيوفيلوس)، وقبل أخذهم المعبد بثلاثين سنة، وقيل كذلك إنه عند ما أخذ المسيحيون (الاكروپولس) أرسلت تلك الكتب الى القسطنطينية[1]. وإنه لمما يشك فيه أن يكون الناس الثائرون قد أبقوا على تلك الكتب وأشفقوا على تلك الكنوز أن تضيع، وهى فى نظرهم كتب الوثنيين قد وضعوها هنالك وديعة عند الوثن الأكبر. إنهم خليقون ألا يفعلوا وهم الذين حطموا أوثان (سراپيس) وأحرقوا حطامه[2]، ولم يبقوا فى معبده حجرا قائما، ذلك المعبد الذى كان آية العظمة والابداع فى بلاد العالم. وإنا لنعجب من إغفال كتاب العصر ذكر هذا الحادث، ولكنا مع ذلك نجد الأقرب الى الأفهام أن تلك الكتب قد ضاعت طعمة اللهيب[3] الذى أحرق وثن (سراپيس)، وأنها لم تنزع من براثن ذلك التخريب الذى مزق المعبد كله، ولم ترسل فى البحر الى موضع آخر. وقد نقل عن (أوروسيوس) أنه رأى الرفوف أو الصناديق فى السراپيوم فارغة ليس عليها شىء من الكتب. فاذا صح ذلك لكان دليلا على أن الكتب لم يكن لها وجود منذ سنة ٤١٦، وذلك هو العام الذى كتب فيه (أوروسيوس)، ولكان ذلك دليلا على أن بناء المكتبة بقى الى ذلك الوقت قائما. ولكن ذلك قول غير دقيق

---

(١) أنظر ما سبق فى هامش صفحة ٣٥٩

(٢) أنظر كتاب Theodoret "Hist. Eccl" الجزء ٢٢ فهو ينص بوضوح على أن التمثال جرى له ذلك وكان جله مصنوعا من الخشب ولكن رأسه وحدها سحبت فى طرق المدينة وهذا يتفق مع ما قاله ميخائيل السورى إذ يقول "وكسر الوثن ورمى فى النار ثم سحبوا رأسه فى الطرق" . . .
أنظر صفحة ٣١٨ من (ed. Chabot. Tom. 1. fasc. II.)

(٣) يلوح أن الدكتور (Botti) أميل الى الرأى أن مكتبة (Trajanum) التى ذكر "Suidas" أنها أحرقت على يد (Jovian) يمكن أن تكون مكتبة الاسكندرية على أن ظاهر العبارة يفهم منه اقتران ذلك الحادث بمدينة أنطاكية صفحة ١٣٩ — ١٤١ (Colonne Theodosienne.)

ولفظ الرواية لا يبرزه[(١)] ، فان (أوروسيوس) لا يذكر بناء السراپيوم بل يذكر حريق مكتبة المتحف ويدلى بحجته على النحو الآتى بوجه التقريب . "اذا فرض أننا نرى اليوم رفوفا مما توضع عليها الكتب (فى بعض المعابد) واذا فرض انها فارغة ليس عليها شىء قد خلت من الكتب لما أصابها من أيامنا هذه ، إذا فرض ذلك ثبت منه أنه قد كانت فى تلك المواضع مكاتب فى الأزمان القريبة من عهدنا ولكن لا يثبت منه أن مكتبة قد بقيت وكانت جزءا من مكتبة المتحف القديمة وأنها نجت من النيران بأن وضعت فى بناء آخر بل أن الذى نستطيع أن ننتهى إليه أنه قد جمعت كتب أخرى تقليدا للمكتبة القديمة وكان جمعها بعد الحريق" .

هذه حجة (أوروسيوس) يريد بها أن يبرهن على أنه لم ينج شىء من المكتبة القديمة التى أنشأها البطالسة ، ولم يشر فيها الى مكتبة السراپيوم[(٢)] . وقد عزز هذا الرأى كتاب آخرون من بينهم (ماتر) ، وهذا هو الحق بعينه ، ولكن ذلك القول له دلالة

(١) (Hist. VI 15. 31) قال أوروسيوس بعد وصفه لتدمير المكتبة الأولى فى حريق قيصر (أنظر ما سبق اقتباسه فى صفحة ٣٥٦ هامش ١) وقوله فيه شىء من الغموض ولكن معناه يمكن أن يترجم ترجمة قريبة من الأصل فيما يلى : "وأما هذا الأمر فهما صدق قول القائل اننا نجد اليوم رفوفا للكتب فارغة فى بعض المعابد (وقد رأيتها بنفسى) وان تلك الرفوف قد عريت وأن كتبها دمرها الناس فى زماننا (وهذا هو الحق) فان الرأى الأقرب الى العدل هو أنه بعد وقوع الحريق قد جمعت كتب غير تلك الكتب الأولى تضارع ما عرف عن القدماء من حب المؤلفات وانه لم يوجد من أول الأمر مكتبة ثانية منفصلة عن المكتبة الكبرى التى كانت تحوى ٤٠٠,٠٠٠ مجلد وأن تلك المكتبة الثانية بقيت بفضل انفصالها عن المكتبة الكبرى" .

(٢) معالجة (Matter) لهذه المسألة غير مقنعة الى حد عظيم (أنظر صفحة ٣٣٦ وما بعدها) (L'Ecole d'Alex. T. i) فهو ينقل عن حنا فيلوبونوس (ad. Arist. Analyt. pr. i, fol. 2 B) انه يقول "(فى المكاتب القديمة)[(٦٠*)] قيل انه قد كان هناك أربعون كتابا فى علم التحليل" . ويستنتج (Matter) من ذلك وجود مجموعات جديدة من الكتب ولكنه عند ما نقل عن اميانوس (Comment in Arist Categ. ap. ald. fol 3 A) أنه يقول إنه لا بد قد كان بالمكتبة أربعون كتابا فى علم التحليل وآبان فى القواعد (فى المكتبة الكبرى)[(٦١*)] قال وصدق فى قوله إن هذه العبارة لا تدل على شىء سوى اختفاء مكتبة المتحف قبل القرن الخامس وإنها لا تدل على عدم وجود أية مكتبة أخرى وقد حق لماتر أن يصر على قوله إن أوروسيوس لا يذكر شيئا عن السرابيوم ولكنه لا يكاد يقدر نتائج هذه الحجة . وقد قال الأستاذ (Bury) =

من وجهتين فانه اذا كان لقول (أوروسيوس) معنى لا يختلف فيه اثنان فهو انه لم تكن فى عصره مكتبة قديمة عظيمة فى الاسكندرية ، إذ لو كان فى عصره مكتبة كبرى بمعبد السرابيوم لما أغفل (أوروسيوس) ذكرها فى أثناء قوله الذى بيناه آنفا . وعلى ذلك يمكن أن نقول إن (أوروسيوس) وإن لم يشهد تدمير مكتبة السرابيوم فى عام ٣٩١ قد شهد أنها لم تكن فى الوجود فى عام ٤١٦

ولكنا لم ننته بعد من برهاننا على النقطة التى نحن بصددها، وهى أن المكتبة لم يكن لها وجود فى القرن السابع . فانه لا يستطيع أحد أن يقول إن كل كتب الاسكندرية قد ضاعت فى أثناء تلك الحروب الشعواء التى شنت على المكاتب، أمثال حرب (دقلديانوس) على مؤلفات المسيحيين، وحرب (تيوفيلوس) على مؤلفات الوثنيين . فلا بد أنه قد بقيت بعد تخريب المكاتب العامة الكبرى بقية كبرى من تلك الكتب فى ملك أفراد الناس ، أو فى مكاتب الأديرة البعيدة . وان بقاء العلم فى الاسكندرية لم تنطفئ أنواره ليقوم وحده دليلا على بقاء الكتب وانتفاع الناس بها ، غير أننا نستبعد كل الاستبعاد أن تكون مكتبة السرابيوم الكبرى قد بقيت الى القرن السابع ، من غير أن نجد فى كتابة أحد من كتاب القرنين الخامس والسادس ما يدل على وجودها دلالة صريحة لا لبس فيها ولا إبهام . ولنذكر من ذلك مثلا واحدا وهو (حنا مسكوس) وقد سبق لنا ذكر زيارته لمصر مع صديقه (صفرونيوس) قبل فتح العرب بسنين غير كثيرة . وقد بينا ما كان عليه هذان الرجلان من محبة العلم ، وشغفهما بالكتب وما يتصل بها[1]، وقد كتبا مقدارا عظيما وسافرا الى كثير من بلاد مصر، وأقاما فيها زمنا طويلا، ولكنا لا نرى

= فى ذيل كتاب جبون الذى سبقت الاشارة اليه إن عبارة جبون الخاصة بتدمير مكتبة الاسكندرية مأخوذة عن أوروسيوس وحده وقد برهنا على وجود طائفة كبيرة من الأدلة لا علاقة لها بأوروسيوس وقد قال الأستاذ (Bury) "ويغلب على الظن أن أوروسيوس لم يكن يقصد مكتبة الاسكندرية أو السرابيوم" حينما ذكر الرفوف الفارغة وإنا نوافقه على قوله .

(١) أنظر ما سبق صفحة ٨٩ وما بعدها .

فى كتاب من كتبهما اذا قلبناها واستوعبنا قراءتها ذكرا لمكتبة عامة فى البلاد، اللهم إلا لمكاتب أفراد الناس . وعلى ذلك يكون قد مر قرنان لا تذكر فيهما تلك المكتبة، وجاء فى آخر هذين القرنين كاتبان مكثران وهما (حنا مسكوس) و (صفرونيوس)، وهما لا يذكران عنها شيئا . ولا يتأتى مع كل هذا أن يقول قائل إن الاسكندرية كانت بها مكتبة عامة كبرى عند ما فتحها العرب .

بقى علينا أن نثبت أمرا أو أمرين . فاننا إذا سلمنا بأن كل ما سبق إيراده من الحجج لم يكف لأن يزعزع رأى من يذهبون إلى بقاء مكتبة السراپيوم، ثم سلمنا بأن تلك المكتبة بقيت على عهدها حتى فتح العرب الاسكندرية، إذا سلمنا بذلك كان أبعد الأمور أن يكون العرب قد أتلفوها ودمروها . ولذلك سبب نورده . فان العرب لم يدخلوا المدينة إلا بعد أحد عشر شهرا من الفتح، وقد جاء فى شروط الصلح أن الروم فى مدة الهدنة لهم أن يخرجوا من البلد إذا شاءوا وأن يحملوا معهم كل ما استطاعوا نقله من متاعهم وأموالهم[1]، وكان البحر فى كل هذه المدة خاليا من العدو لا يقف شىء فيه بين الروم وبين القسطنطينية أو سواها من ثغور البحر، فلو كانت مكتبة السراپيوم عند ذلك باقية لطمع الناس فى ثمن كتبها وأغراهم ذلك بنقلها إن لم يغرهم شىء آخر، إذ كانت كتبا قيمة عظيمة القدر يقبل على شرائها كثير من الناس الذين لهم شغف بالعلوم وطلبها ، وكان لابد لمثل هؤلاء أن يكونوا على مثال الشخص الذى جاء فى القصص وهو (حنا فليپونوس)، فيسعوا إلى نقل تلك الكنوز العلمية فى وقت الهدنة إذ كانت الفرصة ممكنة، وما كانوا ليتركوها تقع لمحاربى الصحراء الذين لا علم لهم بقيمتها وهم على وشك أن يدخلوا المدينة .

وبعد فإن الصمت الذى يلزمه كتاب القرنين الخامس والسادس وإغفالهم ذكر تلك المكتبة بقى إلى ما بعد الفتح ، فلم يكن بين العرب مؤرخون كتبوا عن تاريخ مصر فى القرنين السابع والثامن . وقد يقال إن متأخرى الكتاب تعمدوا

(١) أنظر ما سبق صفحة ٢٧٨ الفقرة الرابعة من معاهدة الاسكندرية وراجع حنا النقيوسى صفحة ٥٧٥

إغفال ذكرها ، ولكننا لا نستطيع أن نقول ذلك عن (حنا النقيوسى) الأسقف المصرى ، وقد كان رجلا من أهل العلم ، وكانت كتابته قبل آخر القرن السابع ، وقد كتب فى ديوانه الأخبار المفصلة وأحاط فيه بمختلف الأحداث وفى هذا دلالة على أنه كان عظيم الاطلاع ، واسع العلم بالأخبار ، ولم يفصل بينه وبين فتح العرب إلا خمسون عاما . وإن أبا الفرج نفسه (وهو صاحب القصة التى يتهم فيها العرب) ليشهد بأن الاسكندرية بقيت مقصدا لطلاب العلم الى حوالى سنة ٦٨٠ للميلاد ، فانه يذكر أن (يعقوب الاذاسى) قد ذهب إلى الاسكندرية ليتم تحصيله للعلم بعد أن أتم درس اللغة اليونانية والكتاب المقدس فى أحد الأديرة بالشام(١) ، وهذا يدل على أن بعض المكاتب كانت لا تزال باقية بمصر عند أفراد الناس وفى الأديرة بعد الفتح ، كما كانت قبله . وإلا فلو كان فى المدينة مكتبة عامة كبرى قبل الفتح ثم أحرقها العرب عند فتحهم لها ، لما أغفل ذكر هذا الحادث رجل مثل (حنا النقيوسى) وهو كاتب قريب العهد بالفتح ، قد أفاض فى ذكر الاسكندرية ، وفصل فى وصف فتحها . وما كان ليبيح لنفسه أن يدع للنسيان حادثة كان لها عظيم الأثر إذ ذهبت بما كان يمكنه الاعتماد عليه فى كتابة تاريخه ، وحرمت العالم أجمع من كنز من أكبر كنوز العلم حرمانا أبديا .

ولعلنا لا نكون مخطئين إذا نحن أجملنا فيما يلى أدلة حجتنا ، فإن قصدنا أن نبين حقيقة أمر مكتبة الاسكندرية ومقدار نصيب قصة إحراق العرب لها من الصحة أو الكذب . وقد بينا فيما سلف الأمور الآتية :

(١) أن قصة إحراق العرب لها لم تظهر إلا بعد نيف وخمسمائة عام من وقت الحادثة التى تذكرها .

(١) ابن العبرى (Chron. Eccl. t. i. c 290) .

(٢) أننا لخصنا القصة وحللنا ما جاء فيها فألفيناه سخافات مستبعدة ينكرها العقـــل .

(٣) أن الرجل الذى تذكر القصة أنه كان أكبر عامل فيها مات قبل غزوة العرب بزمن طويل .

(٤) أن القصة قد تشير إلى واحدة من مكتبتين : الأولى مكتبة المتحف وهذه ضاعت فى الحريق الكبير الذى أحدثه قيصر، وإن لم تتاف عند ذلك كان ضياعها فيما بعد فى وقت لا يقل عن أربعمائة عام قبل فتح العرب، وأما الثانية وهى مكتبة السرابيوم، فإما أن تكون قد نقلت من المعبد قبل عام ٣٩١ ، وإما أن تكون قد هلكت أو تفرّقت كتبها وضاعت، فتكون على أى حال قد اختفت قبـل فتح العرب بقرنين ونصف قرن .

(٥) أن كتاب القـرنين الخامس والسادس لا يذكرون شيئا عن وجودها وكذلك كتاب أوائل القرن السابع .

(٦) ان هـذه المكتبة لو كانت لا تزال باقية عند ما عقد (قيرس) صلحه مع العرب على تسليم الاسكندرية، لكان من المؤكد أن تنقل هذه الكتب، وقد أبيح ذلك فى شرط الصلح الذى يسمح بنقل المتاع والأموال فى مدّة الهدنة التى بين عقد الصلح ودخول العرب فى المدينة، وقدر ذلك أحد عشر شهرا .

(٧) لو صح أن هذه المكتبة قد نقلت أو لو كان العرب قد أتلفوها حقيقة لما أغفل ذكر ذلك كاتب من أهل العلم كان قريب العهد من الفتح مثل (حنا النقيوسى) ولما مر على ذلك بغير أن يكتب حرفا عنه .

ولا يمكن أن يبقى شك فى الأمر بعد ذلك فان الأدلة قاطعة وهى تبرر ما ذهب اليه (رينودو) من الشك فى قصة أبى الفرج وما ذهب اليه (جبون) من عدم

تصديقها ولا بد لنا أن نقول إن رواية أبى الفرج لا تعدو أن تكون قصة من أقاصيص الخرافة ليس لها أساس فى التاريخ[1] .

---

(١) لم نقصد فى هـذا الأمر سوى إثبات الحقيقة ولم نقصد الدفاع عن العرب . وليس الدفاع بضرورى ولو كان ضروريا لما تعذر أن نجد شيئا يليق الاعتذار به عن ذلك . فلا شك أن العرب عنوا فيا بعد بجمع كثير من الكتب القديمة وغيرها مما وقع فى أيديهم وعنوا بحفظها وترجموا منها فى كثير من الأحوال . وفى الحق أنهم أقاموا مثلا يجدر بفاتحى هـذه الأيام أن يحذوا حذوه فقد نقل Sedillot (Hist. Gen. des Arabes t.i P. 185) أن الفرنسيين عند ما فتحوا مدينة قسطنطينة فى شمال أفريقيا أحرقوا كل الكتب والمخطوطات التى وقعت فى أيديهم "كأنهم من صميم الهمج" ووجد الانجليز عند فتح مدينة مجدلة مكتبة كبرى من الكتب الحبشية فحملوها معهم ولكنهم لم يلبثوا أن تركوا أكثرها فى كنيسة على جانب الطريق إذ وجدوا فى حملها عناء لم يقووا على احتماله ولقد كان اختيارهم للكتب التى أبقوا عليها خبطا وسيرا مع الصدفة ولكن قيمة الكتب التى أنجيت وحفظت تدلنا على فداحة الخسارة التى لحقت العلم بضياع ما ترك منها فقد كانت النسخة الخطية من كتاب حنا النقيوسى التى حفظت بالمتحف البريطانى إحدى تلك الكنوز التى أنجيت بهذه الطريقة الاتفاقية .

الفصل السادس والعشرون

فتح (پنطاپولس)

ارسال البعث الى المغرب — يلقى كيدا قليلا — فتح برقه صلحا — فتح طرابلس وسبرة عنوة — عودة عمرو الى الاسكندرية ثم الى بابليون — بناء الحصن فى الجيزة — إنفاذ بعث الى بلاد النوبة واضطراره للرجوع — وصف عمرو لمصر وخطبته — قصة العذراء والنيل

رأى عمرو بن العاص أنه بفتح الاسكندرية قد قضى على سلطان الروم فى مصر، ولكنه لم ير أنه قد أتم ما كان ينبغى له من الفتح . وقد خرج جيش الروم من مصر وشرط عليه ألا يعود اليها ، ولم تبق من المقاومة فى مصر إلا جذوة صغيرة فى أقصى أرض مصر السفلى ، وقد اعتصم أصحابها بموانع من طبيعة أرضهم من نهر أو بحيرة . ولكن تلك المقاومة لم تكن لتحدث فى مصير البلاد أثرا، فبقيت مدينة المنزلة كما رأينا على نضالها أشهرا عدّة بعد دخول العرب الاسكندرية، وكانت الأمداد تترى الى مصر منذ جاء أوّلها من فرسان العرب مع الزبير، فأدركوا عمرو بن العاص ، وأغاثوه وهو بين عينى الخطر، فكانت تلك الأمداد تحل محل من يلقى الشهادة من المسلمين فى الحرب، وزادتهم فوق ذلك عددا فأصبح عمرو وقد صار معه جيش عظيم فوق ما كان من المسالح فى الحصون والمدائن الكبرى، وما كان من الجند فى قتال البلاد التى كان العدو لا يزال يناجز فيها ويقاوم .

وكان عمرو يميل الى التوسع فى الفتح بطبعه، وكان الاسلام فى نشأته يرى أن ينشر علمه على الآفاق ، فما أن أمن العرب على مصر ولما ينقض فيها القتال كله، حتى عوّل قائدهم على إنفاذ بعث الى پنطاپولس ، وهو الإقليم الذى يلى مصر غربا من بلاد الدولة الرومانية . ولا بدّ أن يكون عمرو قد أقام نظام الحكم فى وادى النيل فى مدّة شهور الهدنة الأحد عشر ، حتى اذا ما انقضت تلك الهدنة ودخل العرب

الاسكندرية لم يبق عليه إلا أن يقيم للمدينة وحدها نظامها . ولو كان الأمر غير ذلك لما استطاع عمرو أن ينفذ بعثة الى بلاد المغرب بعد مثل ذلك الزمن القصير من فتح العاصمة، فانه أنفذه فى تاريخ لا يمكن أن يقع بعد أوّل عام ٦٤٣ (١) بزمن طويل.

وقد بينا من قبل عند الكلام عن ثورة هرقل على فوكاس، أنه قد كان فى القرن السابع سلسلة من المدائن والمنازل على الطريق بين الاسكندرية و(قيرين)، وأن أكثر الطريق كان فى أرض خصبة ذات زرع (٢) . وإذا قلنا إن السير فى ذلك الطريق كان سهلا على جند الروم فانه كان نزهة لفرسان العرب (٣)، ولم يلقوا فى سيرهم هذا كبير كيد ، فلا يذكر أنه قد وقع قتال حتى بلغ العرب (برقة) . والظاهر أنها سالمت لهم صلحا ، على أن تدفع للعرب ثلاثة عشر ألف دينار جزية معلومة كل عام (٤) .

(١) جاء فى ابن الأثير (الجزء الثالث صفحة ١٩) أن غزو برقة كان فى سنة ٢٢ للهجرة (أى من ٣٠ نوفبر سنة ٦٤٢ الى ٢٠ نوفبر سنة ٦٤٣) وجاء فى الكتاب نفسه (صفحة ٣٨) ذكر التاريخ الصحيح لوفاة عمر وهو أجدر بالتصديق من ياقوت وابن خلدون إذ يذكران أن الغزوة كانت فى سنة ٢١ للهجرة . وقد ذكرنا فى موضع آخر أن ذلك الخلاف قد يكون ناشئا عن أن عمرا بدأ سيره بعد أوّل السنة الهجرية بزمن يسير . ولقد أرسلت بلا شك سرية أخرى الى بنطابولس فى سنة ٢٥ للهجرة ولكن كلتا الغزوتين مميزة عن الأخرى على الأقل فى ابن الأثير. وقد خلط بينهما ساويرس كما نتوقع فقال فى بعض أخباره إن غزوة وقعت بعد عودة بنيامين الى ولاية البطرقة وأغفل أن يوضح أنه لا يشير الى الغزوة الأولى بل الى الثانية . ولكن الأمر ليس فيه شبهة من الشك لأن الغزوة الثانية تتفق كل الاتفاق مع ترتيب تاريخ الحوادث المعروفة فى حين أننا لو ذهبنا الى أن المقصود هو الغزوة الأولى لحدث اضطراب فى نظام حوادث أخرى معروفة التاريخ وفوق ذلك فان ابن بطريق يفيدنا هنا فائدة كبرى فانه يقول "إن عمرا فتح طرابلس الغرب فى سنة ٢٢ للهجرة فى السنة الثانية والعشرين من حكم هرقل والسنة العاشرة من خلافة عمر" فأما تاريخ هرقل فيجب علينا إغفاله لأن (ابن بطريق) لا يفتأ يخطئ فى ذكره ولكن سنة ٢٢ للهجرة تتفق مدة نصف عام مع السنة العاشرة من خلافة عمر فقد بدأت خلافته فى ٢٤ يوليه سنة ٦٣٤ فالسنة العاشرة من خلافته تبدأ فى أوائل الصيف من عام سنة ٦٤٣ فى حين أن سنة ٢٢ للهجرة تنتهى فى نوفبر سنة ٦٤٣ ولعل فتح مدينة طرابلس كان فى مايو أو يونيه من ذلك العام .

(٢) أنظر ما سبق فى الفصل الأوّل .

(٣) يذكر السيوطى أنه لم يذهب إلا الخيل (حسن المحاضرة صفحة ٨٦) .

(٤) يتفق ابن الأثير وياقوت وابن خلدون فى أن عمرا صالح على هذه الشروط ولكنهم لا يذكرون قتالا .

وقد جاء فى شروط ذلك الصلح شرطان عجيبان : الأوّل أنه أبيح لأهل برقة أن يبيعوا أبناءهم ليأتوا بالجزية المفروضة ، والثانى أنه كان عليهم أن يحملوا الجزية الى مصر حتى لا يسمح بدخول جباة الجزية الى بلادهم . وقد قال ياقوت إن أكثر أهلها أسلموا . وسار عمرو بعد فتح برقة الى طرابلس وكانت أمنع حصونا وأعز جيشا ، فقد كانت بها مسلحة كبيرة من الروم ، فأقفلت أبوابها وصبرت على الحصار الذى وضعه العرب عليها بضعة أسابيع[1] وكان البحر من ورائها خاليا من العدوّ ، ولكن لم يأتها إمداد منه حتى اذا ما كاد جيشها يهلك من جهد القتال وشدّة الجوع ، عرف العرب أن المدينة كانت غير محصنة من قبل البحر ، وأنهم يستطيعون النفوذ اليها من هناك . فدخل جماعة منهم بين أسوار المدينة والبحر وقاتلوا عدوّهم من هناك ، وصاحوا صيحتهم : « الله أكبر » فترددت أصداؤها فى طرق المدينة . ولمعت سيوفهم المهندة ، فذعر المدافعون عن المدينة وحملوا ما استطاعوا حمله من متاعهم وأسرعوا الى السفن وحلوا قلوعها ، وفى أثناء ذلك ترك الحرّاس الأبواب ودخل عمرو بجيشه الى المدينة .

سار عمرو مسرعا كما اعتاد السير فطلع بغتة على مدينة سبرة[2] ، وهاجمها فى أوّل الصباح ، وأخذ الناس على غرة إذ كانوا يظنون أن العرب لا يزالون فى شغل من حصار طرابلس . ولهذا فتحت المدينة عند أوّل حملة حملوها عليها ، وكان أخذها

---

(١) يذكر ياقوت أن مدّة الحصار كانت ثلاثة أشهر وابن خلدون يجعلها شهرا على أن ابن خلدون يذكر أن السكان « أجهدهم الحصار » وروايته كلها أحسن أسلوبا ويلوح عليه أنه أصدق وصفا مما جاء فى ياقوت ويقول ابن عبد الحكم إن فتح طرابلس كان فى سنة ٢٣ للهجرة حسب قول Weil (الجزء الأوّل من "Geschichte der Chalifen" هامش صفحة ١٢٤) ولكن ذلك يجعل فاصلا طويلا بين فتح برقة وبين هذا الفتح ويذكر حنا النقيوسى أن أغنياء الاقليم لجأوا مع الحاكم (أبوليانوس) وجنوده الى مدينة حصينة يسميها (دوشيره) صفحة ٥٧٨ ولكن الظاهر أن حنا يقصد أن يقول إن العرب عجزوا عن فتح (دوشيره) فانهم بغير شك لم يكن معهم الا قليل من مدّة الحصار إن كان معهم من ذلك شىء .

(٢) يذكر المستر (Alex. Graham) فى آخر كتابه "Roman Africa" (لندن سنة ١٩٠٢) ثبتا يبين الأسماء القديمة وما يقابلها من الأسماء الحديثة وفيه ورد ذكر سبراتة وأنها هى مدينة =

عنوة . فاعمل فيها العرب النهب وكان هذا ختام تلك الحرب السريعة، فعاد عمرو الى برقة وجاءت اليـه من قبائل البربر قبيلـة لواتة [(١)] فدانت له، وهى جل من كان يسكن تلك البلاد . فلما تم له ذلك عاد بجيشه المنصور الى مصر [(٢)] ومعه عدد عظيم من الأسرى ومقدار كبير من الغنائم .

وقيل إن عمرو بن العاص أحب أن يتخذ الاسكندرية مقرّا له، ولا سيما وأنه وجد بها قصورا كثيرة من أجل القصور خالية من أصحابها . ولكن عمر بن الخطاب كان قد عزم على أن يجعل الفسطاط عاصمة مصر المستقبلة، فانه لم يشأ أن يجعل الأمير الذى أقامه يتخذ عاصمته فى مدينة عظيمة على ساحل البحر، جاعلا بينه وبين صحراء العرب مجارى الترع المتشبكة الآخذة من النيل . ولعل عودة عمرو الى حصن بابليون كانت فى صيف سـنة ٦٤٣ ؛ وكان جسرا النيل قد أعيدا هناك فأقيما بين الروضة وبابليون على الشاطئ الشرقى، وبينهـا وبين الجيزة على الشاطئ الغربى [(٣)] . ولكن الشاطئ الغربى ومدينة منفيس التى كانت عليه كانا عرضة للغارات المباغتة من قبائل الصحراء الضاربة فيما وراء الأهرام، فأمر عمرو ببناء قلعة فى الجيزة تدفع

= (زرارة) فى الوقت الحاضر (ولعلها هى نفس المدينة العربية سبرة) وأن برقة هى مدينة (طلميثة) الحالية وفى صفحة ١٥٦ تجد وصفا للآثار الرومانيـة فى طرابلس والكتاب ملئ بالصور التى توضح العمارة الرومانية وهى تبدأ بلا شك قبل ذلك العصر ولكنها لم يطرأ عليها تغيير جوهرى قبل الفتح العربى .

(١) يقول مؤرخو العرب إن هذه القبيلة (لواتة) أتت من فلسطين فى أيام جالوت وهذا الخبر جدير بالذكر ويرجع ذكره إلى أيام كاتب قديم وهو ابن عبد الحكم .

(٢) ذكر (Weil) والظاهر أنه ينقل عن ابن عبد الحكم أن عمرا أراد أن يستمر فى فتوحه إلى ما بعد ذلك غربا ولكن عمر دعاه منذ رأى فى ذلك الفتح خطرا أعظم مما يرجى فيه من الخير وفوق ذلك قد كتب "المقوقس لعمرو يقول إن الروم قد يحاولون استرداد مصر" والعبارة الأخيرة لا شك فى أنها غير صحيحة فقد مات المقوقس قبل ذلك الوقت إذا كان (قيرس) هو المقصود ولكن اذا قصد بذلك الاسم بنيامين (والظاهر أن ابن عبد الحكم يقصده) فقد كان لا يزال مختبئا فى الصعيد .

(٣) هذه الجسور كانت من القوارب أو السفن يربط بعضها إلى جانب بعض ورءوسها فى وجه تيار النهر وتتصل بعضها ببعض من فوقها بألواح الخشب وكانت موجودة قبل فتح العرب وكان من شروط تسليم بابليون أن يقوم القبط على صلاح الجسرين (أنظر هامش ١٩ صفحة ١٢٩ من كتاب) "Hamaker" "Expugnatio Memphidis"

المغيرين من قبلها ، وتمكن للعرب فى جانب النيل الآخر ، فيكون سلطانهم مبسوطا على الضفتين معا . فتم ذلك قبل حلول شهر نوفمبر من ذلك العام [1] .

أصبح السلام سائدا عند ذلك فى كل بلاد مصر السفلى و بلاد وادى النيل الى حدوده الجنوبية عند أسوان ، ولكن السودان كان عند ذلك قذى فى عين حكام مصر ، وهو لا يزال كذلك فى كل العصور ، وذلك لأن قبائله لا يسهل قيادها . وكانت فى جبالها أو صحرائها لاترضى بدين المسيح بدلا ولا تحب الدخول فى الاسلام ، ولاتزال تنظر الى بلاد مصر ذات الخيرات أنها غنيمة لها كما كانت لآبائها وأجدادها لا تدع الاغارة عليها . وقد أرسل عمرو الى بلاد النوبة جيشا يغزوها ولكنه لم يستطع أن يهزم أهلها بل اضطر للعودة [2] ، بعد أن لحقت به خسارة عظيمة مما أصاب الناس من سهام رماة النوبة الذين سماهم العرب بعد ذلك رماة الحدق . وبقى القتال بعد ذلك ينشب بين حين وحين مدّة بضع سنين الى أيام خلافة عثمان ، فعقد صلح مع أهل النوبة على أن يدفعوا كل عام جزية من العبيد الى والى مصر ، وشرط لهم العرب أن يرسلوا اليهم خلعة ومؤونة . ومن ذلك يظهر أن الصلح كان صلح ندين إذ لم يكن الوقت قد حان لفتح بلاد السودان [3] .

(١) جاء فى كتاب أبى صالح صفحة ١٧٣ أن الحصن بنى فى سنة ٢٢ للهجرة (وآخرها ٢٠ نوفمبر سنة ٦٤٣) وقال ياقوت إن العرب الذين حلوا فى الجيزه كانوا من الحميريين والأحباش وبطون همدان ورعين والأزد بن حجر (الجزء الثانى صفحة ١٧٧) ولسنا نعرف موضعا آخر ذكر فيه الأحباش وأنهم كانوا فى جيش الفتح ولا يذكر أبو صالح غير همدان ونرى أن ياقوت لا بد قد وهم فان البلاذرى يذكر أن الأحباش كانوا أعداء فقال إن المسلمين لما فتحوا مصر سار جيش من الحبش من (البياما) وقاتل العرب وبقى يقاتلهم سبع سنين ثم قال بعد ذلك عبارة عجيبة وهى أنهم احتموا فى ذلك الوقت باغراق الأرض (ed. de Geoje) صفحة ٢٢٣ وبالطبع يمكن أن يكون ذلك الاسم مستعملا فى الحالين استعمالا غير دقيق ويقصد به جماعة من السودانيين أو جماعة من أهل اليمن فى جنوب بلاد العرب .

(٢) هذا هو قول ابن الأثير وقد تكون تلك الحرب هى التى ذكرت فى الهامش السابق منسوبة الى البلاذرى ولكن ابن الأثير لا يذكر شيئا عن إغراق الأرض وأما اليعقوبى فانه يذكر أن غزو النوبة بقيادة عقبة ابن نافع كان قبل انشاء الجيزة ولكنه يوافق على أن العرب لقوا مقاومة شديدة .

(٣) كان تمام فتح النوبة فى سنة ٦٥٢ وقد أورد المقريزى شرط الصلح مع أهلها ويمكن أن نجد ذلك الشرط مترجما فى كتاب الأستاذ Laue Poole "Eg. in the Middle Ages" صفحة ٢٣ — ٣١ .

كانت بلاد مصر فى أثناء هذا آخذة فى الاستقرار والاطمئنان تحت حكم عمرو ابن العاص، وكان عادلا فى حكمه لين الجانب لرعيته، بدا ذلك منه بعد أن هدأت سورة الفتح وذهبت إحن القتال والنضال التى عصفت بالبلاد زمنا . وقد أرسل الى الخليفة وصفا لمصر إذ طلب عمر ذلك منه، وهذا الوصف آية دالة على عمرو، يبدو فيها شاعرا معسول القول وحاكما عظيم الكياسة . وهو فى نثر مسجوع ننقله فيما يلى(١) :

" إعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء وشجرة خضراء، طولها شهر وعرضها عشر، يكنفها جبل أغبر ورمل أعفر، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات، ميمون الروحات، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر، له أوان يدر حلابه ويكثر فيه ذبابه، تمده عيون الأرض وينابيعها، حتى إذا اضلخم عجاجه وتعظمت أمواجه، فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب وخفاف القوارب، وزوارق كأنهن فى المخايل ورق الأصائل . فاذا تكامل فى زيادته نكص على عقبيه كأول ما بدا فى جريته، وطما فى درته، فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة وذمة مخفورة(٢)، يحرثون بطن الأرض ويبذرون بها الحب يرجون بذلك النماء من الرب، لغيرهم ما سعوا من كدهم، فناله منهم بغير جدهم، فاذا أحدق الزرع وأشرق، سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، إذا هى عنبرة سوداء، فاذا هى زمردة خضراء، فاذا هى ديباجة رقشاء، فتبارك الله الخالق لما يشاء . الذى يصلح هذه البلاد وينميها ويقر قاطنيها فيها ألا يقبل قول خسيسها فى رئيسها، وألا يستادى خراج ثمرة إلا فى أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها

(١) نقلنا هـذا النص عن رواية أبى المحاسن وهى تختلف بعض الاختلاف عما ورد فى كتاب جبون فى الفصل الحادى والخمسين نقلا عن ترجمة (Vatier) لرواية المرتضى .

(٢) استعمال عمرو هـذا اللفظ يثبت طبعا أن علاقة الحماية والتعاقد بين العرب والمصريين كانت قائمة على عهد الصلح .

(٣) آثرنا نقل نص الخطاب كله عن "النجوم الزاهرة" مع أن المؤلف لم يترجم كل الخطاب (المعرب) .

وترعها . فإذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال، والله تعالى يوفق فى المبدأ والمآل " .

وتبدو حكمة فاتح مصر عينها فى خطبته التى قالها فى مسجده، وهو الذى يسمى جامع عمرو، إلى يومنا هذا، وذلك فى يوم الجمعة من أيام عيد الفصح من عام ٦٤٤ (١)، وقد رواها عنه رجل ممن سمعه كان عند ذلك مع أبيه فى المسجد، فرأى رجالا يزجرون الناس بالسياط عند إزدحامهم، وسمع المؤذن يقيم الصلاة، ثم رأى عمرو بن العاص قام على المنبر . وقد أثرت هيئة عمرو فى نفس ذلك الشاب المسلم إذ كان ربعة قصير القامة وافر الهامة، أدعج أبلج، ورأى عليه ثيابا موشية كان بها العقيان يأتلق (٢) .

---

(١) أخذنا هذا التاريخ عن سلسلة استنتاجات فابن عبد الحكم الذى أخذ عنه هذه الخطبة يذكر روايتها عن (يحيى بن داخر المعافرى) وهو يقول " ذهبت مع أبى لصلاة الجمعة وذلك فى آخر الشتاء بعد الخميس الكبير للنصارى بأيام يسيرة " فاذا كان الخميس الكبير معناه خميس العهد كما نظن كان هذا إثباتا لتاريخ اليوم . وأما تاريخ السنة فأقل ثبوتا ولكن سنة ٦٤٤ هى السنة الوحيدة التى يلوح لنا أن عمرا قضاها فى الفسطاط طول هذه المدة وكان فيها قادرا على أن يخطب فى أصحابه أن يتنعموا بحياة الريف فى وقت الربيع وهم وادعون وقد أورد السيوطى كذلك هذه الخطبة ولكنه يسمى من رواها (بحير بن داجر المغارى) وهذا مثل طيب لاخطاء النساخ ويرى المستر (Corbett) فى مقالة على جامع عمرو فى مجلة (Roy. Asiatic Soc. Jour. Oc 1890) صفحة ٧٦٨ أن المقصود هو عيد الغطاس . ولكن الشتاء المصرى لا يمكن أن يقال إنه انتهى فى وسط يناير .

(١') أكثر هذه النصوص مأخوذة من " النجوم الزاهرة " .

(١") هذا التعليق السابق (هامش ١) مبنى على ما نظن على خطأ فقد راجعنا النسخة المطبوعة فى دار الكتب من " النجوم الزاهرة الجزء الأول " فاذا فيها هامش بتعليق على قوله " وذلك فى آخر الشتاء بعد « حميم » النصارى بأيام يسيرة " وجاء فى الهامش " كذا فى تاريخ ابن عبد الحكم والمقريزى والحميم الغطاس الذى يقع فى ١١ طوبة وفى « م » (تميس) وظاهر تحريفه " وإذن فلفظ « خميس » تحريف ولا يصح أن نبنى عليه استنتاجا ما بل إن تاريخ اليوم ثابت وهو يوم الغطاس ١١ طوبه وهذا يتفق مع رأى المستر كوربت وقد أخطأ المؤلف فى اسم الراوى الذى روى خطبة عمرو وقد جاء اسمه فى النجوم الزاهرة نقلا عن ابن الحكم « بحير بن ذاخر المغافرى » (المعرّب) .

(٢) ما يأتى بعد ذلك لا يزيد كثيرا على كونه صورة من رواية أبى المحاسن للخطبة المأخوذة عن ابن عبد الحكم .

فلما قام عمرو حمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه، ثم أمر الناس بالإحسان والصدقة وطاعة الوالدين، وأمرهم بالقصد ونهى عن الافراط والفضول، وحذر المسلمين مما يسبب لهم النصب بعد الراحة والضيق بعد السعة والذلة بعد العزة، وهذه الأمور التي حذرهم منها هي كثرة العيال وإخفاض الحال والقيل بعد القال. ثم بين لهم ان الافراط في الفراغ واتباع الشهوات أكبر أسباب الضياع والفساد إذ هي تقضي على فضائل النفس. ثم قصد عمرو بعد ذلك الى معنى آخر فقال: «يا معشر الناس إنه قد تدلت الجوزاء وذكت الشعرى، وأقلعت السماء وارتفع الوباء، وقل الندى وطاب المرعى، ووضعت الحوامل ودرجت السخائل، وعلى الراعي بحسن رعيته حسن النظر، فحي لكم على بركة الله إلى ريفكم، فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده، وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها، فانها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأنفالكم، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا، وإياكم والمسوّمات والمعسولات، فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم. حدّثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لكم منهم صهرا وذمة». فكفوا أيديكم وعفوا فروجكم وغضوا أبصاركم،[1] ولا أعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه، واعلموا أني معترض الخيل كاعتراض الرجال، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك. واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم، وتشوّق قلوبهم اليكم، وإلى داركم، معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية. وحدّثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد

(١) يبرهن ابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر بالأحاديث والروايات الاسلامية على أن القبط كان لهم حق عظيم في حسن معاملة المسلمين لهم وأن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد أوصى المسلمين بذلك وأكد توصيته وقد أخذ أبو صالح هذه الرواية عن ابن عبد الحكم (أنظر صفحة ٩٧ — ١٠٠ مع هوامش Evetts) وما كان أجدر المسلمين أن يذكروا أكثر مما فعلوا في تاريخهم وصية النبي وهو على فراش موته.

الأرض» : فقال له أبو بكر: "ولم يا رسول الله؟" قال «لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة»(١) . فاحمدوا الله معشر النـاس على ما أولاكم فتمتعوا فى ريفكم ما طاب لكم، فاذا يبس الزرع وسخن العمود وكثر الذباب وحمض اللبن وصوّح البقل وانقطع الورد من الشجر فحى إلى فسطاطكم على بركة الله . ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرته . أقول قولى هذا وأستحفظ الله عليكم» .

ويروى المسلمون رواية عجيبة وهى أن من أوّل ماصنعه عمرو بمصر أن أبطل عادة كان المصريون يتبعونها كل عام، بأن يضحوا بفتاة عذراء يلقونها فى النيل حتى يفيض . ويقال إن النيل لمـا امتنعت هذه العادة القديمة بأمر عمرو لم يعل وأبى أن يفيض، حتى كتب الخليفة عمر كتابا ألقى فيـه فعلا وفاض(٢) . وهـذه ولا شك قصة من أقاصيص الخرافة، فليس فيما اعتاده مسيحيو مصر ما يدعو الى تصـديق أنهم كانوا يبيحون التضحية بالبشر، وليس من سبب يدعونا الى تصديق سر كتاب عمر وقوّته العجيبة . على أن هذه القصة تشبه أكثر أمثالهـا من الأقاصيص فى أن لهـا أساسا من الحقيقة التاريخية كما يلوح، فقد كان من عادة أهل السودان حقيقة

(١) ليست هذه الرواية كما أوردناها هنا واضحة كل الوضوح فهى فى العـادة تروى بصورة أخرى وهى أن النبي عليه الصلاة والسلام قال قبل موته ثلاث مرات «استوصوا بالأدم الجعد» ثم غشى عليه . فلمـا أفاق سئل عن معنى قوله فقال « قبط مصر فانهـم أخوال وأصهار وهم أعوانكم على عدوّكم وأعوانكم على دينكم . فلما سئل عن معنى قوله أنهم سيصيرون أعوانهم فى الدين قال : «يكفونكم أعمال الدنيا وتتفرّغون للعبادة فالراضى بما يؤتى اليهم كالفاعل بهم والكاره لمـا يؤتى اليهم من الظلم كالمستنزه عنهم» (المؤلف) .

(١) أخذنا نص الحديث عن كتاب «حسن المحاضرة» ونقلناه كاملا إتماما للعنى . (المعرّب) .

(٢) نجد هـذه الرواية فى ابن الفقيه (Bibl. Geog. Arab part V. صفحة ٦٥) وهو يذكر أن تاريخ التضحية بالفتاة كان فى ١٢ بؤونه (٦ يونيه) وأن امتناع النيل عن العلو بقى إلى «اليوم الذى قبل الصليب» أى إلى يوم ١٣ سبتمبر الذى ألقى فيه خطاب الخليفة فى النهر وهذا التاريخ يظهر فساد هذه الرواية وقد وردت ترجمة انجليزية لذلك فى كتاب "Hist. of the Califs." H. S. Jarett. فى مجموعة (Bibliotheca Indica) (الجزء XVIII المجموعة III صفحة ١٣٠) .

فى أقصى أنحائه الجنوبية أن ترمى قبائله الهمج فى النهر بفتاة عذراء فى زينة الزفاف[(١)]، ولعل عادة كهذه كانت متبعة فى بعض جهات الهمج من بلاد النوبة التى فتحها الاسلام فى أوّل أمره ، ولعل عادة التضحية بفتاة ترمى فى النهر كانت متبعة فى مصر فى أيام الفراعنة، وإنه من المحقق أن الاحتفال بالنيل والدعاء من أجل زيادته وفيضه كانت تقع فيه أعمال خرافية كثيرة تخلفت من العصور القديمة ، ولكنها لم يكن بها شيء مثل ذلك الجرم من التضحية بالعذراء . وقد بقيت بقية كبيرة من هذه الخرافات القديمة العهد فى الاحتفال بالنيل الى أيام القرن الرابع عشر[(٢)]، ولكنه من أكذب الكذب أن يتهم المسيحيون بأنهم حافظوا على مثل هذه العادة الشنيعة التى لاترضى عنها دياناتهم ولا تقرها ملتهم .

وإن قول عمرو الذى اقتبسناه فيما سلف من قولنا ليدل دلالة واضحة على طريقته فى الحكم ، وعلى ما أراد أن يصله من الصلة بين الغزاة الفاتحين وأهل البلاد . وعندنا دليل أكبر دلالة على هذا الميل وتلك النزعة فيما كتبه عمرو فى أمره الذى أمره بتأمين البطريق بنيامين وإعادته الى سابقة ولايته . وقد حدا به الى انتهاج تلك الخطة أنه رأى أن أمور السياسة لا تستقر فى هذا البلد إلا اذا استقرت معها أمور الدين .

(١) ثبت بقاء هذه العادة فى (بورنو) الى الايام الحاضرة من كتاب رحلات (Harnemann) (الجزء الأوّل صفحة ١٤٣) وكتاب (Burckhardt) (ذيل "Travels in Nubia" II) صفحة ٤٤٤ وقد نقل عنه (Hamaker) فى كتابه (Expugnatio Memphidis) صفحة ١٣٣ : ويشير (Hamaker) الى يوميه (Rich) فى مجلة (Quarterly Review) سنة ١٨٢٠ صفحة ٢٣٢ وتعليقه كله جدير بالقراءة .

(٢) أنظر كتاب (Hamaker) صفحة ١٣٤ وهو يثبت على الخصوص استعمال بعض آثار (مارجرجس) لاحداث الفيضان وقد هدمت كنيسة مارجرجس التى كانت تلك الآثار بها وأحرقت الآثار وذرى رمادها فى النهر فى سنة ٧٠٥ للهجرة (أو سنة ١٣٥٤ للميلاد) .

الفصل السابع والعشرون

إعادة بنيامين

حال الكنيسة القبطية عند موت قيرس — عودة الحرية — دعوة عمرو إلى بنيامين — عودة البطريق من منفاه — لقاؤه لعمرو — نشور الكنيسة — إصلاح أديرة الصحراء — فرح القبط — رأيهم في خروج الروم من مصر

لما مات البطريق الروماني (قيرس) ، ورحلت عن مصر جيوش الروم التي كان سلطانه يعتمد عليها ، حدث تغير كبير في حال الأحزاب الدينية ، إذ انقضى بذلك أمد البلاء الأكبر، الذي حل طويلا بالناس من جراء الاضطهاد . وقد أقيم خلف لبطريق الرومان في الإسكندرية ليقوم على ولاية أمر المذهب الملكاني، ولكن ولايته كانت لا تتعدى أسوار المدينة ، وذهب عنه سلطانه وانفض من حوله كثير من أتباعه . ولكن بطريق القبط كان لا يزال على اختفائه طريدا يضرب في أنحاء الصعيد ، ويهيم على وجهه فيه . فكان يخيل إلى الناس أن مذهبه قد بات صريعا لا تكاد الحياة تدب فيه ، مما أصابه من الوطء والعسف في محنته التي تطاولت به مدتها نحو عشر سنوات على يد قيرس الذي كان لا يعرف الرحمة ، ولا تخطر على قلبه هوادة . وقد أصبحت مصر بعد وليس دينها دين المسيح ، إذ وضعت عليها حماية الاسلام تعلو أحزابها جميعا ، وأصبح سيفه بينها فيصلا حائلا . فأدى ذلك الى تنفس الناس في عباداتهم واختيار ما يشاءونه في تدينهم ، فلم يكن بالمسلمين اهتمام لمنازعات الأحزاب في شأن مجمع خلقيدونيه ، واختلافها في صدق ما أقره ذلك المجمع أو كذبه ، وأصبح القبط في مأمن من الخوف الذي كان يلجئهم إلى إنكار عقيدتهم أو إخفائها تقية ومداراة . فعادت الحياة إلى مذهب القبط في هذا الجو الجديد جو الحرية الدينية ، وما لبث أن صار مذهب الكثرة الذي

يحق له أن يكون مذهب الأمة السائد . وقد قضى عمرو بن العاص بأنه كذلك ، وأنفذ قضاءه بأن كتب أمانا لبنيامين وأقرّ عودته .

وقيل إن الذى حدا بعمرو إلى المبادرة بهذا الأمر ما أبلغه إياه رجل اسمه سنوتيوس (أو هو شنودة) ، وكان من قبط مصر ، إلا أنه كان مع ذلك من بين قوّاد جيش الرومان (١) . ولكن الموضع الذى كان به (بنيامين) كان مجهولا (٢) لا يعلم به أحد ، ولا يعرفه (شنودة) نفسه . وعلى ذلك كان لا بد من كتابة أمر الأمان على هيئة كتاب لا تخصيص فيه ، وكانت صورته كما يلى :

" أينما كان بطريق القبط بنيامين نعده الحماية والأمان وعهد الله فليأت البطريق إلى هاهنا فى أمان واطمئنان ليلى أمر ديانته ويرعى أهل ملته (٣) " . وليس بالمستبعد أن يكون سعى (شنودة) هذا كان فى الوقت الذى جاء فيه رهبان وادى النطرون إلى عمرو يظهرون له الطاعة لحكم المسلمين . فقد روى المقريزى نقلا عن بعض مؤرخى المسيحيين أن سبعين ألفا من الرهبان خرجوا من تلك الأديرة للقاء عمرو بن العاص ، وكان كل منهم يحمل فى يده عصا . فلما دانوا له بالطاعة أعطاهم كتابا لا شك أنه كان (عهد أمان) ، ولعله كان العهد الذى نذكره الآن وهو عهد بنيامين (٤) . وقد دخلت مبالغة كبيرة على عدد الرهبان على عادة العرب

(١) ساويرس النسخة الخطية بالمتحف البريطانى صفحة ١٠٦ سطر ١٠ وأكثر الحقائق التى أوردناها هنا مأخوذة عن ذلك المصدر .

(٢) هذا برهان جديد إذا احتاج الأمر الى برهان على فساد الرأى الذى يجعل بنيامين هو المقصود بالمقوقس عند الفتح .

(٣) جاء فى كتاب أبى صالح أنه قد كتب فى ذلك الكتاب قوله : « فليأت الشيخ والبطريق آمنا على نفسه وعلى القبط الذين بأرض مصر والذين فى سواها لا ينالهم أذى ولا تخفر لهم ذمة وهلم جرا (صفحة ٢٣١) وهذا يكاد يكون كالنص المذكور فى معناه ولو أنه ليس فى مثل دقة النص الذى أورده ساويرس السابق له فى التاريخ .

(٤) يذكر المقريزى ذلك الخطاب ويقول إنه لايزال موجودا فى وادى النطرون . ويذكر كتابا آخر من عمرو عن خارن الأقاليم الشمالية ويقول إنه محفوظ فى دير مقاريوس (أنظر ذيل كتاب أبى صالح =

فى إخبارهم ، إذ يزيدون فى العدد زيادة تخرج به عن تصوّر الأفهام . ولا يمنعنا شىء من أن نصدّق أن جماعة من الرهبان قد خرجوا إلى عمرو فى نحو سبعين أو سبعمائة منهم فأحسن لقاءهم ورحب بهم ، فانا لا نجد بأسا بمثل هذا الخبر و يمكن للتاريخ أن يسيغه .

ولم يلبث عهد الأمان أن بلغ بنيامين فعاد من مخبئه ودخل إلى الاسكندرية دخول الظافر ، وفرح الناس برجوعه فرحا عظيما بعد أن بلغت مدة غيابه ثلاثة عشر عاما منذ هجر مقرّه وهرب إلى الصحراء الغربية عند مقدم (قيرس) . ومن هذه المدة عشر سنين وقع فيها الاضطهاد الأكبر والثلاث الباقية كانت فى مدّة حكم المسلمين[1] . وكان بنيامين فى كل هذه المدة يتنقل خفية بين أصحاب مذهبه ، أو يقيم مختبئا فى أديرة الصحراء . و إنه لمن الجدير بالالتفات أن هذا البطريق الطريد لم يحمله على الخروج من اختفائه فتح المسلمين لمصر واستقرار أمرهم فى البلاد ، ولا خروج جيوش الروم عنها . وليس أدل من هذا على افتراء التاريخ على القبط واتهامهم كذبا بأنهم ساعدوا العرب ورحبوا بهم ورأوا فيهم الخلاص ، مع أنهم أعداء

= صفحة ٣٢٠) ولا يذكر ساو يرس شيئا عن الوفد بل يكتب أنه كان «سينوتيوس القائد المؤمن الذى سعى فى عودة البطريق وحصل له على الأمان من قائد المسلمين» . وقد جاء ذكر وجود هذا الخطاب فى دير مقاريوس فى كتاب اميلنو (Hist. des Monastéres de la Basse Egypte) صفحة XXXII .

(١) اتفق المؤرّخون فى مدّة نفى بنيامين وتقسيمها فيقول ساو يرس إنه رجع بعد" غياب ثلاثة عشر عاما : عشرة منها فى حكم هرقل ، وثلاثة فى حكم المسلمين" ثم قال وهو خطأ «قبل فتح العرب للاسكندرية» . و يقول حنا النقيوسى (الفصل CXXI صفحة ٥٨٤) إنه عاد بعد «ثلاثة عشر عاما من هروبه تخلصا من يد الروم» على أن عنوان الفصل يجعل مدّة النفى أربعة عشر عاما : منها عشرة تحت حكم ملك الروم ، وأربعة تحت حكم المسلمين . و يذكر مكين أن المدّة كانت ثلاث عشرة سنة ونظن أنه لا شك فى أن عودة بنيامين كانت قرب الخريف من سنة ٦٤٤ أى فى آخر سنة ٢٤ هـ . ولكن مكين يجعل ذلك فى سنة ٢٠ للهجرة وهو خطأ . وأما ساو يرس فانه يقرن عودة بنيامين بغزوة عمرو الى بنطابولس وهو خطأ أيضا ولعلنا نستطيع التوفيق بين ساو يرس وحنا النقيوسى اذا جعلنا مدّة النفى أربعة عشر عاما فتكون عودة بنيامين فى سنة ٢٥ للهجرة وهى السنة التى كانت فيها غزوة بنطابولس الثانية . ولكن هذا إخراج لقول ساو يرس عن قصده إذ الظاهر أنه يقصد الغزوة الأولى ولو أنه مخطئ فى ذلك فالحقيقة هى أنه لا جدوى من محاولة التوفيق بين هذه الفروق والخلافات التى لا أمل فى التوفيق بينها .

بلادهم . ولو صح أن القبط رحبوا بالعرب لكان ذلك عن أمر بطريقهم أو رضائه ، ولو رضى بنيامين بمثل هذه المساعدة وأقرها لما بقى فى منفاه ثلاث سنوات بعد تمام النصر للعرب، ثم لا يعود بعد ذلك من مخبئه إلا بعهد وأمان لا شرط فيه . ولو لم يكن فى الحوادث دليل على كذب هذه الفرية غير هذا الحادث لكان برهانا قويا، وإن لم يكن برهانا قاطعا فهو حلقة نضمه إلى سلسلة ما لدينا من الأدلة، وقد أصبحت سلسلة لا يقوى على نقضها شيء .

ولما أبلغ شنودة عمرو بن العاص مقدم بنيامين أمر عمرو باحضاره إليه ، وأمر بأن يقابل بما يليق به من الترحاب والتكريم . وقد كان بنيامين ذا هيئة جميلة تلوح عليه سيما الوقار والجلال . وكان عذب المنطق فى تؤدة ورزانة، فكان لذلك أثر عظيم فى نفس عمرو، حتى قال لأصحابه : "إننى لم أر يوما فى بلد من البلاد التى فتحها الله علينا رجلا مثل هذا بين رجال الدين" . وقد قيل إن بنيامين قال عند ذلك : « خطبة جليلة » . ولا شك أن عمرا لم يفهم من ذلك حرفا ، ولكنه عند ما عرف ما يقصده وفهم مراميه أحسن تلقيها وقبولها، وجعله أميرا على قومه لا يدافع فيهم أمره ، وجعل له ولاية أمر دينهم .

ولقد كان لعودة بنيامين أثر عظيم فى حل عقدة مذهب القبط وتفريج كربته، إن لم تكن عودته قد تداركت تلك الملة قبل الضياع والهلاك، إذ لم يكن قبط مصر فى وقت من الأوقات أشد حاجة منهم فى ذلك الوقت إلى ذى رأى حصيف وخلق متين يقودهم ويلى أمرهم، فقد كان منهم من خرجوا من عقيدتهم وهم ألوف، ورضوا باتباع مذهب (خلقيدونيه) خوفا من اضطهاد قيرس . ولا شك أن الخروج من الدين كرها أو خوفا لا يكون فى مبدأ أمره حقيقيا، ولكن لقد مضى على ذلك الأمر عشر سنين واعتاد الناس السير على ما دخلوا فيه، وما كان بناء عشر سنين ليتهدم فى لحظة ويزول . ولقد كان أشد خطرا على القبط من كان يخرج منهم إلى الاسلام ، وليس من العدل أن يقول قائل إن كل من أسلم منهم إنما كان يقصد

الدنيا وزينتها . فانه مما لا شك فيه أن كثيرا منهم أسلم لما كان يطمع فيه من مساواة بالمسلمين الفاتحين ، حتى يكون له ما لهم ، وينجو من دفع الجزية . ولكن هذه المطامع ما كانت لتدفع إلا من كانت عقائدهم غير راسية . وأما الحقيقة المرة فهى أن كثيرين من أهل الرأى والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان منها من عصيان لصاحبها ، إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء فى الله ، ونسيت ذلك فى ثوراتها وحروبها التى كان تنشب بين شيعها وأحزابها . ومنذ بدا ذلك لهؤلاء العقلاء لجأوا إلى الاسلام فاعتصموا بأمنه ، واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته .

ولم يكن من اليسير أن يعاد من خرج من المسيحية إلى حظيرتها بعد أن قطع أسبابها ، فان ذلك كان لا رجاء فيه . ولكن الأمر كان على غير ذلك فى أكثر من من اضطر إلى اتباع مذهب الملكانيين خوفا أو كرها . وقد كان لعودة بنيامين إلى عرش الإسكندرية وأبنائها رنة طرب فى قلوب أهل مصر جميعا ، فعاد جل العامة إلى راعيهم القديم والفرح يملؤهم ، "ونالوا على يديه تاج الاعتراف"[1] . ونادى البطريق المطارنة الذين اتبعوا مذهب الدولة أن ارجعوا إلى سابق عهدكم وملتكم ، فعاد بعضهم يذرفون الدمع السخين ندما ، ولكن قيل إن واحدا منهم أبى أن يعود حتى لا يلحقه العار خوف أن تعرف عنه الردّة الأولى . ولعل الكثيرين كانوا مثله فى هذا . ومهما يكن من الأمر فقد نما أمر القبط وزاد اتباع ملتهم . وكان هم بنيامين فى أول الأمر أن " يقدح فكره ليلا ونهارا فى أمر رعيته وإرجاع من ضل منهم فى أيام هرقل" . فلما أن تم له جمع قومه ولم شعثهم اتجهت همته إلى إصلاح ما تهدّم من الأديرة ، ولا سيما ما كان منها فى وادى النطرون ، وقد لحقها من التخريب فى أوائل القرن السابع ما لم تعد معه إلى سابق عهدها .

وقد استطاع أن يجد ما يلزم لذلك الإصلاح من المال ، ثم أتمه على ما أراد . وقد وصف (ساويرس) ما يتصل بهذا الأمر من الحوادث وصفا شائقا فقال إن

(١) ساويرس ، الكتاب الأول ، صفحة ١٠٧

جماعة من الرهبان وفدوا إلى الاسكندرية حتى دخلوا "باب الملائكة"(١) ، وكان بنيامين عند ذلك يصلى بالناس صلاة عيد الميلاد . فطلبوا إليه أن يذهب معهم ليبارك الكنيسة الجديدة التى بنيت فى الصحراء وهى كنيسة القدّيس (مقاريوس) ، فأجابهم بنيامين إلى ما طلبوا وسافر معهم الى (المنى) و (جبل البرنوج) حتى بلغ (دير البراموس) ، وذهب بعد ذلك من هناك لزيارة الأديرة الأخرى . وجاء فى اليوم الثانى من شهر يناير إلى (دير مقاريوس) ، فلقيه هناك المعلم الأكبر (بازل) مطران نقيوس ، ورحب به فى موكب حملت فيه بين يديه المباخر وسعف النخيل . وفى اليوم التالى وهو الثامن من شهر طوبة احتفل بمباركة الكنيسة واتفقت له عند ذلك — كما قال ساويرس — آيات وكرامات لا محل لذكرها هنا . ولعله من المستحسن أن نذكر هنا كلمات (بازل) الذى شكر الله على ما أولى البطريق من زيارة الصحراء المباركة مرة ثانية ، وأن يرى من فيها من الآباء المقدّسين والأخوة الطيبين الأبرار ، ويشهد بها شعائر الدين القويم . ثم شكر الله على أن أنجاه من الكفرة وحفظ قلبه من ذلك الطاغية الأكبر الذى شرده ، فعاد إلى أبنائه يراهم ملتفين حوله مرة أخرى(٢) .

وإن هذا القول لا ينم عن قوم يشعرون بأنهم فى قيد الذل ، بل ينم عمن يبتهج بالنجاة والخلاص . وقد جاء فى غير هذا الموضع من كتاب الكاتب عينه ما يؤيد هذا المعنى ويوافقه . قال على لسان بنيامين "كنت فى بلدى وهو الاسكندرية فوجدت بها أمنا من الخوف واطمئنانا بعد البلاء ، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم"(٣) وقد وصف قومه بأنهم "فرحوا كما يفرح الأسخال إذا ما حلت لهم قيودهم وأطلقوا ليرتشفوا من لبان أمهاتهم" وقد كتب (حنا النقيوسى) بعد الفتح بخمسين عاما ، وهو لا يتورّع عن أن يصف الاسلام بأشنع الأوصاف ويتهم من دخلوا فيه

(١) اللفظ المستعمل هو (Stoa Angelion) وهو نقل عن اللفظ اليونانى ويشير إلى الكنيسة التى اسمها الانجيليون ولعل هذا دليل على أن اسم (Angelion) أصح من (Euangelion) .

(٢) ساويرس الكتاب الأول صفحة ١١١ الأسطر ١٥ — ٢٠

(٣) نفس الكتاب صفحة ١١٠ سطر ٥ وصفحة ١٠٨ سطر ١٨

بأشدّ التهم ، ولكنه يقول فى عمرو إنه "قد تشدّد فى جباية الضرائب التى وقع الاتفاق عليها ، ولكنه لم يضع يده على شىء من ملك الكنائس ، ولم يرتكب شيئا من النهب أو الغصب . بل إنه حفظ الكنائس وحماها الى آخر مدّة حياته"[1] .

إذن فما كان أعظم ابتهاج القبط بخلاصهم مما كانوا فيه ، فقد خرجوا من عهد ظلم وعسف تطاول بهم ، وهوت بهم إليه حماقة البيزنطيين ، وآل أمرهم بعد خروجهم منه إلى عهد من السلام والاطمئنان . وكانوا من قبل تحت نيرين من ظلم حكام الدنيا واضطهاد أهل الدين ، فأصبحوا وقد فك من قيدهم فى أمور الدنيا ، وأرخى من عنانهم . وأما دينهم فقد صاروا فيه إلى تنفس حرّ وأمر طليق . وقد يقال إن حكامهم الجديدين قد أدخلوا إلى الأرض دينا غريبا غير دين المسيح ، وهذا حق . غير أنهم لم يروا فى ذلك إلا عدلا من الله إذ أجمع الناس على قول واحد فقالوا : "ما خرج الروم من الأرض وانتصر عليهم المسلمون إلا لما ارتكبه هرقل من الكبائر ، وما أنزله بالقبط وملتهم على يد قيرس . فقد كان هذا سبب ضياع أمر الروم وفتح المسلمين لبلاد مصر"[2] . هكذا كان الناس يرون ، وهكذا كانوا يحكمون . غير أن التاريخ لن يحكم مثل حكمهم هذا الذى دفعهم إليه الميل إلى ملتهم وحزبهم ، ولكنه لن يستطيع إلا أن يحكم بأن العسف وسوء الحكم هما اللذان هويا بدولة الروم بغير شك إلى الضياع وزوال السلطان .

(١) صفحة ٤٨٥ و يقول (Vansleb) إنه رأى على جدران المعلقة فى قصر الشمع (أو بابليون) عهدا كتبه عمرو بن العاص بيده لحماية الكنيسة وهو يلعن من يسعى من المسلمين إلى حرمان القبط منها ، و يقول إن القبط دفعوا لعمرو فدية عن تلك الكتب (Nouvelle Relation d'un Voyage fait en Egypte, صفحة ٢٣٧) .

(٢) نفس الكتاب .

الفصل الثامن والعشرون

الحكم الاسلامى

المساواة بين المسيحيين فى حكم القانون — حالة أهل الذمة — الأحوال الدينية — النظام السياسى — إبقاء الموظفين الروم — خراج الأرض والجزية — صفتها ومقدارها — حكم عمرو العادل وغضب الخليفة عليه — ماتردّد بينهما من المكاتبة — عثمان يطلب الزيادة أسوة بفعل عمر — قصة بطرس القبطى — إعفاء من أسلم من المسيحيين من الجزية وما نشأ عن ذلك — قلة موارد المال — الاشتداد فى مطالبة المسيحيين

لم يكن عجبا من أمر القبط أن يسعوا إلى الايقاع باتباع المذهب الملكانى والاقتصاص منهم، بعد ما ذاقوه من الروم وبطريقهم قيرس من سوء العذاب . ولكن ما كان عمرو ليبيح لهم مثل هذا الأمر إن دار فى خلدهم أن يفعلوه، فإن عمرا كان فى حكمه يسير على نهج الاعتدال والتسامح، ولم يكن له هوى مع أحد المذهبين الدينيين، ولدينا كثير من الأدلة على صدق هذا الرأى . فمثلا يذكر ساويرس أن أسقفا ملكانيا بقى على مذهبه حتى مات لم يمسسه أحد بأذى، وذكر أن بنيامين كان يستميل الناس إلى مذهبه بالبرهان والاقناع . وقد ورد ذكر كثير من كنائس الملكانيين بقيت إلى ما بعد ذلك من العصور[1] . وورد ذكر الملكانيين وأن عددا كبيرا منهم كان باقيا فى مصر إلى ما بعد الفتح بخمسين عاما[2] . وعلى هذا لابد لنا من

(١) بقيت إلى اليوم كنيسة من هذه الكنائس على قمة برج قصر الشمع فى قلب مكان القبط ومعقلهم .

(٢) جاء فى وثيقة كتبت فى ذلك الوقت (أنظر كتاب (Vie du Patriarche Isaac) (ترجمة أميلنو صفحة ٥٢) أن البطريق «أرجع عددا عظيما عن كفرهم فقادهم الى الايمان الصحيح فعمد بعضهم وتالق الآخرين وجعلهم يرجعون بأنفسهم عن إلحادهم وينكرونه» الخ . ولا بد قد كان جل ذلك الكفر إن لم يكن كله معناه اتباع مذهب الكنيسة البيزنطية، مذهب خلقيدونيه .

أن تقول إن المذهبين كليهما قد بقيا جنبا إلى جنب فى مصر يظلهما الفاتحون بذمتهم ويحمونهما جميعا بحمايتهم .

والظاهر أن حماية المسلمين لأهل الذمة كانت فى ذلك الوقت الأوّل من حكم الاسلام لا تقيدها القيود التى دخلت فيما بعد على أحكامه فى أمر أهل الذمة، فإن شرط الصلح مع المسيحيين فى مصر قضى بأن يدفعوا الجزية، على أن يأمنوا فى بلادهم ، و يدفع عنهم من أراد غزوهم من عدوّهم، فكان هذا عهد أهل الذمة الذى استقروا عليه . ولكنا نجد تغيرا طرأ على هذا العهد، فنجد منذ القرن العاشر أن دفع الجزية تقيد بنوعين من الشروط : فالنوع الأوّل من هذه الشروط ما يجب لزومه واتباعه فى كل الأحوال، والنوع الثانى ما يكون لزومه واتباعه بحسب شرط العقد إن وجد . والشروط التى لا بدّ من لزومها واتباعها هى :

(١) ألا يعتدى على القرآن ولا تحرق مصاحفه .

(٢) ألا يقال للنبي إنه كذاب ولا يحقر فى القول .

(٣) ألا يسب دين الاسلام ولا يرد عليه بالتكذيب .

(٤) ألا يتزوّج مسيحى من مسلمة .

(٥) ألا يغرر بمسلم أو يغرّى على أن يرتد عن الاسلام ولا أن يؤذى فى ماله ولا فى نفسه .

(٦) ألا يوالى أعداء الإسلام ولا ينصروا ولا يكرم أغنياؤهم .

وأما الأمور التى يتبع فيها شرط العقد فهى :

(١) أن يلبس أهل الذمة لباسا يميزهم و يعقدوا الزنانير على أوساطهم .

(٢) ألا يعلوا فى بنيانهم على المسلمين .

(٣) ألا يؤذى المسلمون بقرع نواقيسهم(١) ولا بترتيلهم فى صلاتهم ولا بما يرون فى عقائدهم سواء فى ذلك اليهود والنصارى .

---

(١) الناقوس بالمعنى الدقيق هو الناقوس الخشبى وليس المعدنى (أنظر ما سبق فى هامش ٤ صفحة ٢٩٨).

(٤) ألا يبدوا صلبانهم ولا يشربوا الخمر جهارا ولا يظهروا خنازيرهم .

(٥) أن تقام مآتمهم بغير احتفال وتدفن موتاهم كذلك .

(٦) أن يركب أهل الذمة البراذين والخيول المعتادة وأن يتجنبوا ركوب الأصائل[١] .

وليس فى كل هـذه الشروط مالا يقبـله العقل، ولكنا نشك فى أنهـا كانت مشترطة عنـد أول دفع الجزية وقت الفتح . فإن كثيرا من الأمور التى جرت عليها العادة أصبحت فى حكم القانون وصار الناس ينظرون إليها فيما بعد كأنها من أصل الدين ومن أحكام الاسـلام . فقال المـاوردى مثلا : "إنه لايحـق لأهل الذمة أن يتخذوا لأنفسهم كنائس أو بيعا جديدة فى دار الاسلام، فإذا بنوا لأنفسهم ذلك هدم . ولكن لهم أن يعيدوا بنـاء ما تهدّم من كنائسهم أو بيعهم". وهذا التفريق لم يكن فى أوّل عهد حكم الاسلام فى مصر . فقد ورد أن القائد (سنوتيوس) أرسل إلى بنيامين مقـدارا عظيما من المـال لبناء كنيسة القدّيس مرقص فى الاسكندرية[٢] وورد أيضا أن البطريق (حنـا السمنودى) بنى كنيسة وكرسها باسم ذلك القدّيس عينه[٣]، فلما جاء بعده البطريق اسحق قيل إن حاكم مصر نفسه عبد العزيز بن مروان أمر أن تبنى كنيسة فى مدينتـه الجديدة حلوان[٤] . فالظاهر من هذا أن القبط نالوا فى أوّل الأمر كل ما يتصوّره العقل ويبيحه من الحرّية .

---

(١) أخذنا هـذه الأخبار عن المـاوردى وقد كتب فى النصف الأوّل من القرن الحادى عشر ومات فى سنة ٤٥٠ هجرية أى سنة ١٠٥٨ ميلادية وكتابه « كتاب الأحكام السلطانية » أكبر حجة فى موضوع الضرائب فى العصور الأولى . وقد رجعنا اليـه كثيرا فى هذا الفصـل وقد جاء أوّل ذكر جبـاية الأموال فى صفحة ٢٤٥ وهو عن الجزية ثم فى صفحة ٢٥٣ وهو عن الخراج .

(٢) ساويرس الجزء الثالث صفحة ١٠٨ سطر ١٠ وليس من الواضح اذا كان بنيامين قد أفلح فى الحصول على المـال الكافى وليس فى النص ما يثبت رأى من يقول إن النية قـد اتجهت عند ذلك إلى إعادة بنـاء الكنيسة الأصلية كنيسة القدّيس مرقص .

(٣) (Ed. Amelineau) Vie du Patriarche Copte Isaac صفحة ٤٤ وتاريخ حنا هو سنة ٦٨٠ — سنة ٦٨٩ للميلاد (انظر الذيل السادس) .

(٤) (Vie du Pat. Copte. Isaac) صفحة ٧٨ ، ولا شـك فى أن تاريخ ذلك يكون سـنة ٦٩٣

وليس من المستطاع أن نحدّد النظام السياسى الذى سارت عليه البلاد عند ذلك بمثل هذه السهولة ، غير أن الحكم المدنى كان على وجه الاجمال على عهده الأوّل لم يتغير فيه شيء ، إذ كان العرب رجال حرب وسيف ، لم يتعوّدوا حكم البلاد ولم يحذقوا فنونه . ولم يكن بينهم نظام معروف قد يتخذونه فى مصر أو يدخلون منه شيئا فى إدارة أمورها ، ومصر عريقة فى الحضارة ذات نظام مقرر مشعب . بيد أن العرب كانوا أهل ذكاء وفهم سريع ، فكان فى استطاعتهم أن يتناولوا أعنة الحكم التى وجدوها دونهم ويديروا بها الأمور على ما كانت سائرة عليه من قبلهم . وقد بينا فيما سلف أن بعض أكابر حكام الروم قد بقوا فى أعمالهم ، ولعل طائفة كبيرة من عامة الروم ساروا فى ذلك على منهاجهم ، غير أنه لابد قد خلت أعمال كثيرة إذ نزح عمالها الروم الذين لم يرضوا أن يكونوا من رعية الاسلام ، فجعل العرب فى مكانهم عمالا من القبط ، فما مرّ إلا قليل زمن حتى صار عمال الدولة يكادون جميعا يكونون من المسيحيين . وهذا أمر كان لابد منه فى مثل تلك الحال ، إذ كان العرب قوما لا عهد لهم بالمدنية ، وفتحت لهم بلاد ذات حضارة عالية . وقد تنبأ بذلك الرسول نفسه بثاقب نظره ، وأقرّه فى قوله إقرارا صريحا . وعلى ذلك خلا المسلمون من أعباء الحكم وانصرفوا الى أمور الدين ، إذ لم تشغلهم عنه مشاغل الدنيا . ومن العجيب أن نجد كثيرا من أسماء الروم وألقابهم باقية فى حكم الاسلام ، رغم تطاول الزمن ، فقد بقى القبط إلى آخر القرن السابع يسمون المسجل أو الناموس باسمه الرومانى "الخرتولاريوس" ويسمون رئيسه باسم "الأپارخوس" أو "الأرخون" ويسمون مقرّ الحاكم باسم "الپريتوريوم" . وكانوا يسمون حاكم الاسكندرية باسم "الاغسطال"[1] . وقد ورد لقب "دقس" فى كثير مما كتب فى القرن الثامن[2] ولاسيما فى الحجج الشرعية ، وقد استعمله الكاتب "ساويرس" وكان فى القرن العاشر[3] .

(١) (Vie du Pat. Copte' Isaac) صفحات ٥ و ٧ و ٧٣

(٢) أنظر كتاب المستر (W. E. Crum) "Coptic Ostraka" رقم ٢٥٦

(٣) يذكر المستر ملن أن النظام الرومانى للحكومة فى مصر قد احتفظ المسلمون بجمله فى حكومتهم حتى يومنا هذا (أنظر كتاب "Eg. Under Rom. Rule" صفحة ٢١٦) .

ولكن الظاهر أن العرب وإن حافظوا على طرق الروم فى تدوين دواوينهم وجمع ضرائبهم، كانوا على ما يلوح لنا أخف منهم وطأة فى جباية الأموال، إذ كان مقدار الجزية والضرائب الذى اتفقوا عليه فى عهد الصلح أخف حملا على الناس وأقل إحراجا لهم . وإنه من الصعب أن يعرف الانسان حقيقة مثل هذا الأمر، فليس دوننا إلا ما كتبه العرب ، واختلافهم يبلغ معظمه فى احصاء الأعداد وذكر الأرقام . فابن عبد الحكم مثلا[1] يقول إنه لما استقر الأمر لعمرو بن العاص جعل القبط يدفعون من الجزية مثل ما كانوا يدفعون للروم ، غير أنها كانت تتغير بحسب غناهم ورواج أمورهم . وليس لهذا فى نظرنا إلا معنى واحد وهو أن عمرا سار على ما كان الرومان يسيرون عليه فى جباية خراج الأرض، لأن الجزية التى فرضها العرب على القبط كانت مقدارا معلوما ، فى حين كان خراج الأرض يتغير بحسب علو الفيضان وبحسب حال الزراعة . ويقول ابن عبد الحكم بعد ذلك إن زعماء الناس فى القرى كان عليهم أن يجتمعوا لينظروا فى حال الزراعة، ويجعلوا جباية المال مناسبة لذلك، فكانوا فى ذلك بمثابة لجنة خاصة تجتمع لتقدير مقدار ما يجبى من الأموال، فاذا اجتمع من ذلك المال شىء فوق ما فرض على قريتهم أنفق فى إصلاح أحوالها . وكانت تجعل فى كل بلد قطعة من الأرض يخصص ريعها لاصلاح الأبنية العامة وصيانتها، وذلك مثل الكنائس والحمامات . وكانوا كذلك يقدرون ما يفرض على الناس من المال لضيافة العرب ، وكان هذا حقا من حقوق العرب عليهم، وكذلك ما كان يفرض من المال لضيافة الحاكم وإكرامه اذا وفد عليهم .

هذا وصف لا بأس به لحال الضرائب وجبايتها على الأرض ولكنا لا نعلم هل وقع الاتفاق عليها فى شرط الصلح عند الفتح، أم أنها بقيت على ما كانت عليه يعدونها ضريبة على ملك الأرض . وكذلك ليس من الجلى ما يقصده مؤرخو العرب إذ يذكرون خراج مصر، أيقصدون كل ما يجبى من أموالها ، أم يقصدون

(١) نقله عنه السيوطى فى صفحة ٨٧

الجزية وحدها، أم الخراج وحده . غير أنه يلوح لنا أنهم إنما يقصدون الخراج، فقد جاء عنهم أن عدد من فرضت عليهم الجزية دينارين: ستة آلاف ألف نفس، وجاء بعد ذلك أن مقدار المال الذى جبي من مصر كان اثنى عشر ألف ألف دينار.(١) ويقول مؤرخو المسلمين إن هـذا المـال أقل ممـا كان يجبيه المقوقس ومقـداره عشرون ألف ألف دينار.(٢) فاذا صح لنا أن نصدّق هذه الأعداد ونثق فى أنها قدّرت على أساس واحد فى الحالين، وأنها تصلح لأن تكون أساسا للمقارنة، كان لا بدّ لنا أن نتخذها دليلا على أن حكم العرب كان بركة على المصريين خفف عنهم وطأة الضرائب . على أن الأمر كان على غير ذلك، إذ أن المـال الذى يذكره العرب لا يقصد منه إلا مال الجزية، فى حين أن ما يذكر عن أموال الروم لا يقصد به فى أغلب الظن الجزية وحدها، إذ أن الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس، وضرائب أخرى كثيرة

(١) نقل السيوطى عن عبد الله بن صالح هذه الأرقام وأبو صالح (صفحة ٨٢) يذكر عبارة هامة وهى أن عمرا فى سنة ٢٠ للهجرة جبى ألف ألف دينار . وفى سـنة ٢٢ للهجرة جبى إثنى عشر ألف ألف دينار ومعنى ذلك أنه فى السـنة التى فتح فيها حصن بابليون بلغ مقدار الجزية ألف ألف ثم زاد ذلك المقدار إلى إثنى عشر ألف ألف بعد تمام الفتح وهذا يلوح لنا قريب الاحتمال . وقد ذكر ابن حوقل المقدار نفسه أى إثنى عشر ألف ألف دينار وذلك نقـلا عن أبى حازم القـاضى (Bibl Geog. Arab Part II) صفحة ٨٧ وهو يذكر صراحة أن المقـدار المذكور هو الجزية وحدها . وأما البلاذرى فإنه عنـد ماذكر خراج مصر الذى جباه عمرو جعله ألفى ألف دينار (صفحة ٢١٦) ولا بد لنا من أن نعزو هذا الخلاف إلى خطأ النساخ وقد تكرر هـذا الخطأ مرة أخرى إذ جاء فيه أن الخراج الذى جمعه عبد الله بن سعد كان أربعـة آلاف ألف بدل أربعـة عشر ألف ألف . ويذكر اليعقوبى (الكتاب السابق الذكر الجزء السابع صفحة ٣٣٩) أن عمرا جبى أربعة عشر ألف ألف دينار فى السنة الأولى من ولايته ثم عشرة آلاف ألف فى السنة التى تليها ولكنا لا نستطيع تعليل هذا الاختلاف بسهولة والظاهر أن تواتر الأدلة يثبت أن الجزية كانت إثنى عشر ألف ألف دينار وهـذا مع أن المقريزى ذكر فى الخطط صفحة ٧٦ من الجزء الأول أن أهل مصر الذين فرضت عليهم الجزية بلغ عددهم ثمـانية آلاف ألف .

(٢) نجـد اضطرابا فى قول أبى صالح فالظـاهر أنه يذكر (صفحة ٨١) أن الروم كانوا يجبون عشرين ألف ألف دينار ويذكر فى الوقت عينه أن هرقل طلب من قيرس أن يجبى له ثمانية عشر ألف ألف ولعله يقصد أن قيرس احتفظ بمـا زاد من ذلك المقدار الذى جباه .

العدد[1] . ومع كل هذا فانه مما لا شك فيه أن ضرائب الروم كانت فوق الطاقة، وكانت تجرى بين الناس على غير عدل، إذ كانت تعفى منها طائفة ممتازة من أفراد أو جماعات[2]. وكذلك لا شك فى أن الدولة فى أيام هرقل كانت فى أشد الحاجة الى المال، وذلك فى السنوات التى قبل الفتح، فليس ثمت من سبب يحدو بنا الى تكذيب ما ذكره مؤرخو المسلمين من خفة وطأة الضرائب على المصريين بعد فتح العرب. هذا الى أن العرب أزالوا ما كان مقترنا من التفريق بين الناس فى جباية الضرائب، وإعفاء بعضهم منها، غير أن النفس بها شىء من الشك فى أمر الاسكندرية، إذ من المحقق أن أهلها كانوا شديدى الضجر من الحكم الجديد. ولعل هذا الضجر قد لحقهم لما أصابهم من زوال بعض امتياز كان لهم، إذ لعلهم كانوا من قبل لا تفرض عليهم جزية على الأنفس، أو لعلهم قد لحقهم ضرر لما أصاب المدينة فى أرزاقها من فادح الخسارة فى تجارتها، وكساد أسواقها فى مدة الحرب الطويلة التى حلت ببلدهم، ومما فقدته من الخير عند ما هاجر منها كثير من أغنياء التجار والأعيان عند الفتح وتسليم المدينة. وإذا صح أن عهد الصلح شرط على المدينة أن تفقد ما امتازت به قديما وهو الإعفاء من جزية الأنفس، كان من العسير علينا أن ندرك كنه ذلك الصلح. وأغلب الظن أن مدينة الاسكندرية قد حرمت من ذلك الامتياز قبل فتح العرب بحين من الدهر.

وقد رأينا فيما سلف أن الضريبة التى كان العرب يسمونها الجزية كانت دينارين على كل رجل، ليس على الصغير الذى لم يبلغ الحلم، ولا الشيخ الفانى. ولم تفرض

(١) أنظر كتاب ملن (Eg. Under Rom. Rule) صفحة ١٢١ — ١٢٢ وكل هذا الفصل جدير بأن يقرأ لأنه يظهر أن الضرائب كانت كثيرة الأنواع وغير عادلة كما أنه يظهر أن العرب ساروا على نهج الروم ولزموه فى كثير من تفاصيل نظامهم (أنظر مثلا صفحة ١١٩ و ١٢٥).

(٢) يذكر المستر ملن (فى الكتاب السالف الذكر) نقلا عن يوسفوس أن أهل الاسكندرية كانوا انين من الجزية ولكنه لا يذكر المدة التى بقوا فيها على ذلك الاعفاء.

على النساء ولا على الرقيق ولا على المجانين أو المساكين المعدمين . على أن الجزية وان كانت فى مجموعها على عدد الرءوس عن كل رجل دينارين ، لم تكن على ما يظهر لنا واحدة على كل فرد، بل كانت تختلف . وذلك لأن الدينارين لا يتكلف الغنى فى حملهما شيئا ، فى حين أنهما يبهظان الفلاح الفقير . فلعل الحاكم كان له الخيار أن يقسم من تفرض عليهم الجزية الى ثلاثة أقسام الفقراء وأوساط الناس والأغنياء، فكان يضع على كل فئة قسطا من الجزية خلاف ما يضعه على غيرها (١) . وهذا أمر لا يأباه العقل ولا يرى فيه ظلما، غير أنه كان بلا شك عرضة لأن يفسد . وقد تطرّق اليه الفساد فمكن الحكام أن يزيدوا مقدار الجزية ويمزقوا بذلك عهد الصلح . فانك اذا نظرت الى الأمر فى ذاته لم تجد بأسا بأن تكون الجزية على الناس بحسب طاقتهم مع بقاء جملتها واحدة لا تتغير، وكذلك لا تجد بأسا فى أن يكون خراج الأرض فى جملتـه متغيرا بحسب السنة وخصبها، وأن يتغير ما يفرض على صاحب الأرض من الخراج بحسب خصب أرضه ومقدار ثمرتها، ولكن ليس فى طاقة البشر أن يبقى مثل هـذا النظام ثابتا لا تفسده الأطماع . فكان لا بدّ له من عدل كامل لا شائبة فيه كيما يبقى على صلاحه، غير أنه كان عرضة لأن يداخله الفساد وتعصف به الأطماع، ولم يكن بالعجيب أنه قد فسد بعد حين من العمل به .

(١) ذكر المقريزى عن يزيد بن أسلم أن عمر كتب إلى قواده يأمرهم أن يجعلوا الجزية بحيث يدفع الغنى أربعة دنانير ويدفع الفقير أربعين درهما ، ولكن يلوح أن هـذا التقسيم غير مدرج غير أن الماوردى يقول إن الفقهاء اختلفوا فى مقدار الجزية فقال أبو حنيفة إن الجزية مقادير ثلاثة : (١) يؤخذ من الغنى ثمانية وأربعون درهما . (٢) و يؤخذ من الأوساط أربعة وعشرون درهما . (٣) و يؤخذ من الفقراء إثناعشر درهما . ويذكر أن هـذه المقادير هى الحدود لا ينبغى للولاة أن يتجاوزوها أو يخرجوا عنها باجتهادهم ولا يسعنا إذا قرأنا الماوردى إلا أن نعجب بروح العدل ومراعاة القصد التى تسرى فى كل نظام الضرائب الذى يصفه ولنأت من ذلك بمثل وذلك قوله إنه إذا نقض بعض أهل الذمة عهدهم بأن أبوا دفع الجزية لم يحل للسلمين قتلهم ولا أخذ أموالهم أو أولادهم ما داموا لا يقاتلونهـم على أنه يجب أن يؤمن هؤلاء الناقضون حتى يخرجوا من أرض الاسلام فاذا أبوا الخضوع والخروج وجب إخراجهم قسرا — ولا شىء أدل من ذلك على رأى المسلمين فى دوام العقد بين الحامين و بين أهل الذمة المحميين .

وان هــذا لموضع لذكر ما رواه ابن عبــد الحكم أن الخليفة عمر بن الخطاب تقدّم الى عمرو بن العاص فى أن يستشير البطريق بنيامين[(١)] فى خير وسيلة لحكم البلاد وجباية أموالها، فأشار عليه البطريق بالشروط التالية :

(١) أن يستخرج خراج مصر فى أوان واحد عند فراغ الناس من زروعهم .

(٢) أن يرفع خراجها فى أوان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم .

(٣) أن تحفر خلجانها كل عام .

(٤) أن تصلح جسورها وتسدّ ترعها .

(٥) ألا يختار عامل ظالم ليلى أمور الناس[(٢)] .

وكان ذلك الشرط الخامس أشق الأمور وأصعبها تحقيقا، فان العادة التى جرى عليها الحكام فى اختيار العمال كانت لا بدّ أن توجد فيهم تلك الصفات التى تفسد نظام الحكم وتجعله مشئوما .

إنا لا نشك فى أن عمرو بن العاص كان فى أوّل حكمه لا يقصد إلا العدل والرأفة بأهل البلاد، ولكن الخليفة لم يواته فى هذا ولم يوافقه عليه . فقد رأى الخليفة أن عمرا قد ملأ أنباره بالقمح من مصر ودر على خزائنه الذهب ، ومدّ سلطان العرب على فسيح البلاد، ولكن الخليفة عمر لم يجزه بذلك إلا هوانا وجحودا وقد

---

(١) يذكر ابن عبد الحكم أن المقوقس هو الذى استشير ولكنه بلا شك يرى أن المقوقس هو بنيامين وقد ذكر ذلك فى مواضع عدة ولا شك أن عمرا قد يكون سأل قيرس السؤال عينــه ولكن ابن عبد الحكم يجعل المقوقس حيا فى أيام ثورة منويل وفوق ذلك فالظاهر أن تلك الاستشارة هى نفسها التى سبق نقلها عن ساويرس مع أن ساويرس يذكر أن نصيحة بنيامين كانت بوجه عام و يورد المقريزى صيغة أخرى للجواب تختلف عن هذه بعض الاختلاف فانه يجعل من شروط الحكومة الطيبة : (١) أن يجبي الخراج من غلة الأرض ، (٢) ألا يباح مطل أهلها . (٣) أن يعطى العمال أرزاقهم بغير انقطاع .

(٢) ذكر المقريزى الشرط الخامس هكذا : "ولا يقبل مطل أهلها يريد البغى" وذكره فى موضــع آخر على هــذه الصورة : " ولا يقبل مطل أهله و يوفى لهم بالشروط و يدر الأرزاق على العمال لئلا يرتشوا و يرتفع عن أهله المعاون والهدايا ليكون قوة لهم" (المعرّب) .

بقيت صيغة بعض كتب مما تردد بين الخليفة وواليه ، وإنا لا نشك فى صحتها[١] ، وهى تظهر لنا ظهورا جليا ما كان عليه الرجلان فى صلتهما . فقد كتب الخليفة عمر مرة الى عمرو[٢] : " أما بعد، فانى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه فاذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة وقد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة فى بر وبحر ، وإنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدب . ولقد أكثرت فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر ورجوت أن تفيق فترفع إلى ذلك فاذا أنت تأتينى بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذى فى نفسى . لست قابلا منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك ولست أدرى مع ذلك ما الذى نفرك من كتابى وقبضك فلئن كنت مجربا كافيا صحيحا إن البراءة لنافعة وإن كنت مضيعا نطعا إن الأمر لعلى غير ما تحدث به نفسك . وقد تركت أن أبتلى ذلك منك فى العام الماضى[٣] رجاء أن تفيق فترفع إلى ذلك وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا أن عمالك عمال السوء وما توالس عليك وتلفف اتخذوك كهفا وعندى باذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه فان النهر يخرج الدر والحق أبلج ودعنى وما عنه تلجلج فإنه قد برح الخفاء والسلام[٤] .

(١) انظر كتاب "Geschichte der Chalifen" Weil الجزء الأول هامش صفحة ١٢٥ وقد رأى ابن عبد الحكم هذه الكتب بنفسه وهو يورد نصها . ونقل عن (De Sacy) أنه يسلم بصحتها كل التسليم مستندا فى رأيه هذا على قدم أسلوب لغتها وقد أتبعنا ترجمة (Weil) اتباعا تاما .

(٢) نقلنا هذا النص عن المقريزى رواه عن ابن عبد الحكم (المعرب) .

(٣) يظهر من هذا أن تاريخ هذه المراسلة كان حوالى أول سنة ٦٤٤

(٤) قد آثرنا نقل الكتاب كله حتى يتم المعنى وأما المؤلف فقد اقتضب فيه ولم يذكر الا الى قوله «عما أسألك فيه » وقد حذف من وسطه جزءا من أول « ولست أدرى مع ذلك ما الذى نفرك من كتابى» إلى قوله «وقد تركت أن أبتلى ذلك منك فى العام الماضى» . وفى ترجمة المؤلف للكتاب شىء من الاجمال (المعرب) .

فردّ عمرو على ذلك بأن قال إن الخراج كان من قبله أوفر وأكثر والأرض أعمر لأن الفراعنة على كفرهم كانوا أرغب في عمارة أرضهم من العرب مذ كان الاسلام[1] ثم وجه إليه شكوى مما وجهه إليه من شديد التأنيب وقال: " ولقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدّين لأ مانتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا نرى غير ذلك قبيحا والعمل به شينا فتعرف ذلك لنا ونصدّق فيه قابنا . معاذ الله من تلك الطعم ومن شر الشيم والاجتراء على كل مأثم فامض عملك فإن الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضا ولم تكرم فيه أخا والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك مني أشدّ غضبا لنفسي ولها إنزاها وإكراما وما عملت من عمل أرى عليّ فيه متعلقا ولكني حفظت مالم تحفظ ولو كنت من يهود يثرب ما زدت . يغفر الله لك ولنا . وسكت عن أشياء كنت بها عالما وكان اللسان بها مني ذلولا ولكن الله عظم من حقك ما لا يجهل " .

ولكن هذا الرد السهل في أسلوبه الجليل في معناه لم يكن له أثر في عمر فإنه رد عليه في جفاء فقال[2]: "أما بعد، فإني قد عجبت من كثرة كتبي إليك في إبطائك بالخراج وكتابك إلى بثنيات الطرق، وقد علمت أني لست أرضى منك إلا بالحق المبين ولم أقدمك إلى مصر[3] أجعلها لك طعمة ولا لقومك، ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك، فإذا أتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فإنما هو فيء المسلمين وعندى من قد تعلم قوم محصورون والسلام " .

---

(١) ذكر ابن رسته ("Bibl. Geog 'Arab Part VII" صفحة ١١٨) أن خراج مصر في مدّة الفراعنة كان ستة وتسعين ألف ألف دينار . وقال أبو صالح إنه في مدّة فرعون موسى بلغ المال تسعين ألف ألف . وقال المقريزى إن الخراج كان تسعين ألف ألف ثم قال إن ابن دحية قال: إن الدينار كان في ذاك الزمن يقوم بثلاثة دنانير إسلامية وذكر الشريف الحراني أنه وجد بالصعيد مكتوبا بلغة الصعيد مما نقل إلى العربية جاء فيه أن خراج مصر في مدّة يوسف بلغ أربعة وعشرين ألف ألف وأربعمائة ألف دينار وقدر ذلك ثلاثة وسبعون ألف ألف دينار إسلامية (أنظر تعليق المستر "Evett" على صفحة ٨٠ من كتاب أبي صالح) .

(٢) لم نذكر من نص كتاب عمر إلا منذ ابتداء الموضع الذى اختاره المؤلف (المعرب) .

(٢) آثرنا كتابة الخطاب من أوّله نقلا عن المقريزى (المعرّب) .

(٣) اقتبس المؤلف كتاب عمر من أوّل هذه الجملة (المعرب) .

وقد طلب عمرو أن ينتظر به على النــاس حتى تدرك غلتهم — متبعا فى ذلك مشورة بنيامين وقال لعمر إنه لا يستطيع أن يزيد الخراج على الناس بغير أن يؤذيهم، وإن الرفق بهم خير من التشديد فى أمرهم وإكراههم على أن يبيعوا ماهم فى حاجة إليه فى أمور معيشتهم، لكى يؤدّوا ما يطلب منهم (١). وقد اتهمه (قيل) فى مراجعته هـذه بالنفاق، وأنه إنمـا كان يضن بالمـال كى يحتفظ به لنفسه، غير أنا لا نجـد ما يدعونا إلى مثل ذلك الظن. فإنا لو آمنا بأن الطمع والجشع قد دبا فى قلبه لم يكن لنا أن نذهب إلى أنهـما قد ملكا عليه لبه فأنسياه العدل، وجعلاه يتخلى عن أداء أمانته نحو المصريين. غير أن عمر جعل كل قوله وراء ظهره ودبر أذنه فلم يستشعر رحمة فى جباية الأموال (٢)، فأرسـل محمد بن مسـلمة إلى مصر وأمره أن يجبى منهـا ما استطاع من المـال فوق الجزية التى أرسلها عمرو من قبل. وقيـل فى رواية أخرى إنه إنمـا أوفده إلى عمرو لكى يقاسمه ماله. وقد اتهم ابن مسلمة عمرو بن العاص بأنه كان يتستر بالدفاع عن أهل مصر لحاجة فى نفسه يريد قضاءها، كما اتهمه عمر بن الخطاب بالخيانة والتفريط. ولكن عمرا كان يدافع عن المصريين كما أقر ابن مسـلمة فإذا أضفنا إلى هـذا ما قاله فى الدفاع عن نفسه رجح عنـدنا صدقه وإخلاصـه، واستبعدنا اتهـامه. وفى الحق إن عمر بن الخطاب أولى بأن يتهـم بالحرص، فقد روى البلاذرى أنه كان كلما استعمل عاملا على بلد أثبت مقـدار المـال الذى عليه جبايته منـه، فإذا زادت الجباية على ذلك شيئا قاسم العامل فيـه أو أخذه فى بعض الأحيان كله لنفسه، ولهذا لم ينج منه البطل خالد بن الوليد نفسه فإنه بعث إليه فى الشام بمن يحاسبه على ماله، وأمره أن ينزل عن نصفه، حتى لقد قيل إنه قد أخذ إحدى نعليه. وقد أشار بعضهم على عمر بأن يرد عليه ما أخذ منه

(١) ترجمنا هذه الجملة عن المقريزى الخطط الجزء الأول صفحة ٧٨ وقد جاءت هذه المراسلة فى كتاب البلاذرى صفحة ٢١٩ (المؤلف).

(٢) إنا ننقل هنا ما ذهب إليه المؤلف من رأيه فى عمر ولنا رأى يخالفه كل المخالفة إذ أن عمر وسائر الصحابة كانوا فى كل أقوالهم وأفعالهم صادرين عن رغبة فى الخير لم يوفق المؤلف الى تفهمها وا كتناهها (المعرب).

فقال : "والله لا أرد شيئا فإنما أنا تاجر للمسلمين" . ولكنه كان إذا قال المسلمين لم يقصد إلا نفسه أو تلك الفئة القليلة التى كانت معه فى مكة . وقد كان ذلك وبالا عليه ، فإن ذلك الرأى الذى كان يراه فى أداء أمانته نحو المسلمين وملء بيت المال مما يجمعه من البلاد التى فتحها المسلمون منذ حين ، كان كل ذلك سببا فى القضاء على حياته .

وقد حذق خلفه ذلك الدرس وهو لعمرى درس وبيل ، فإن عثمان عزل عمرا عن ولاية مصر واستعمل عليها عبد الله بن سعد ، وكان عمر قد استعمله مع عمرو بن العاص على الصعيد والفيوم . فزاد فى جباية الأموال ألفى ألف دينار حتى بلغ ما جمعه أربعة عشر ألف ألف دينار . فقال عثمان لعمرو عند ذلك ، "إن اللقاح بمصر بعدك قد درّت ألبانها" فأجابه عمرو "ولكنها أعجفت فصيلها" وكانت زيادة الجزية فوق ذلك نقضا للعهد ، فقد بينا فيما مضى أن معاوية عند ما أمر وردان أن يزيد الجزية على القبط قال له إن ذلك غير ممكن وإلا نقض عهد الصلح[1] . وقد روينا عن عروة بن الزبير انه قال : "إن الناس كان يفرض عليهم مالا طاقة لهم به فآذاهم ذلك مع أن عمرو بن العاص كان قد عقد لهم عقدا جعل لهم فيه شروطا معلومة" .

وذلك الوصف يحملنا على أن نحمد لعمرو عدله ، غير أن ابن عبد الحكم روى رواية إن صحت كانت ناقضة لذلك ، فقد قال إن عمرو بن العاص أنذر القبط أن من أخفى منهم كنزا من الكنوز اقتص منه بالقتل . فسعى إليه بأحد قبط الصعيد اسمه بطرس أنه يخفى كنزا . فلما مثل بين يديه أنكر ذلك وأصر على الانكار ، فسجنه عمرو ، وسأل بعد حين فقال هل ذكر بطرس اسم أحد من الناس ، فقيل له إنه لم يذكر إلا اسم راهب فى الطور . فأمر عمرو فأخذ خاتم بطرس وكتب كتابا

(١) البلاذرى صفحة ٢١٧ ويتفق ذلك مع رواية المقريزى وقد جاء ردوردان فى المقريزى هكذا « كيف نزيد عليهم وفى عهدهم أن لا يزاد عليهم شىء» ولكنه يزيد على ذلك قوله إن أمر معاويه كان أن تزاد الجزية قيراطا وذلك جزء من ثمانية وأربعين جزءا أو هو نحو ٢ ٪ .

إلى ذلك الراهب فقال فيه "أرسل إلىّ ما عندك" ثم ختمه بذلك الخاتم . فجاء إليه بعد مدّة رسول يحمل قدرا مقفلة عليها خاتم من رصاص ، ففتحه عمرو فوجد فيه رقعة كتب عليها "إن مالك تحت الحوض" . فأمر عمرو بالماء الذى فى الحوض فأفرغ ونزعت الأحجار التى فى قاعه، فوجدت غرفة فيها اثنان وثلاثون(١) مدّا من نقود الذهب، فأمر عمرو بضرب عنق بطرس عند باب مسجده فى بابليون .
ولا يسعنا أن نمرّ على قصة كهذه بغير كلمة نقولها ، فإنها غير جديرة بالتصديق ولا تحتمل النقد . فما هى إلا قصة من تلك القصص التى خلقها الخيال ، وكان ذلك المؤرخ مغرما بإيراد أمثالها يحلى بها كتابه . فإنه من الثابت أن القبط كانوا أجدر الناس بأن يأسفوا من الأسف عند ما عزل عنهم عمرو بن العاص .

لم يبق إلا الشيء اليسير فوق ما قلناه فى أمر الضرائب، غير أن أمرا واحدا يجب أن نذكره لما له من الشأن، وذلك أن المسلمين فى أول الأمر لم يبح لهم أن يملكوا الأرض، وكان إقطاع الأرض فى ذلك الوقت قليلا(٢)، إذ كان الرأى أن يبقى العرب على رباطهم لا يشتغلون بالزرع ولا يحلون بالبلاد كأهلها . فلما أن اطمأنوا فى البلاد ، أخذ ذلك المنع يرتفع عنهم ، وأبيح لهم أن يملكوا الأرض، وكانوا إذا ملكوا أرضا دفعوا عنها الخراج كسائر الناس . ولم يتغير نصيب أرض من الخراج إذا ملكها مسلم من قبطى، بل بقى على حاله ،والناس فيه سواء . ولهذا كان القبطى إذا دخل فى الاسلام لم يرتفع عنه خراج أرضه ، ولكن الجزية كانت على غير ذلك ، إذ كانت الجزية سمة لأهل الذمة ، وعلامة لغير المسلمين ، فكان الدخول فى الإسلام كافيا لزوالها إذ تزول بذلك صفتا الذمة واختلاف الدين . وهذا أمر قد أجمع عليه مؤرخو العرب ، فإن المقريزى يأخذ على عمر بن عبد العزيز (وكانت وفاته فى شهر

---

(١) ذكر ابن دقاق انها اثنان وخمسون .

(١) ورد فى كتاب المقريزى نقلا عن ابن عبد الحكم « فوجد فيها اثنين وخمسين أردبا ذهبا مصريا مضروبة» (المعرب) .

(٢) ذكر ابن عبد الحكم أن عمر لم يقطع إلا ألف فدان فى منية الأصبغ لابن سندر وكان أقطاعا عظيما .

يناير من عام ٧٢٠ للميلاد) أنه حكم بأن الذمىّ إذا مات استحقت الجزية من ورثته . ويقول المقريزى "ويحتمل أن تكون مصر فتحت بصلح فذلك الصلح ثابت على من بقى منهم وإن موت من مات منهم لا يجعل على خلفه[(١)] مما صالحوا عليه شيئاً". ولكن روى عن عمر بن عبد العزيز نفسه أنه "وضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة من أهل مصر، وألحق فى الديوان صلح من أسلم منهم فى عشائر من أسلموا على يديه، وكانت تؤخذ قبل ذلك ممن أسلم" . وأوّل من أخذ الجزية ممن أسلم من أهل الذمة الحجاج بن يوسف الثقفى ثم كتب عبد الملك بن مروان الى عبد العزيز ابن مروان أن يضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة، فكلمه ابن حجيرة فى ذلك فقال : "أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أوّل من سن ذلك بمصر، فوالله إن أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم ، فكيف تضعها على من أسلم منهم فتركهم عند ذلك[(٢)]" .

وقيل إن ابن شريح[(٣)] وهو الذى جاءه أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز كتب الى الخليفة يقول إن الاسلام قد أضر بالجزية حتى لقد نقص عشرون ألف دينار من عطاء أهل الديوان ، فكتب اليه الخليفة كتابا شديدا قال فيه "أما بعد،

(١) نص قول المقريزى فيه خلاف عن هذا المعنى فهو نقيضه إذ قال « وإن موت من مات منهم لا يضع عنهم مما صالحوا عليه شيئا » فهو على ذلك يبرر أن يطالب ورثة الميت بجزيته ولا يخالف رأى عمر ابن عبد العزيز فى ذلك والواقع أن أوّل سياق الرواية يدل على أن المقريزى إنما يروى رأى عمر نفسه فقد جاءت القصة فى المقريزى هكذا : "وكتب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن شريح أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم وهذا يدل على أن عمر كان يرى أن أرض مصر فتحت عنوة وأن الجزية إنما هى على القرى فمن مات من أهل القرى كانت تلك الجزية ثابتة عليهم وإن موت من مات منهم لا يضع عنهم من الجزية شيئا . قال : ويحتمل أن تكون مصر فتحت بصلح وذلك الصلح ثابت على من بقى منهم وإن موت من مات منهم لا يضع عنهم مما صالحوا عليه شيئا" .

وهذا بالطبع معناه أن المقريزى إنما يورد حجة عمر بن عبد العزيز فى تبرير جعل جزية الميت من القبط على ورثته فى كل حال سواء قيل إن مصر فتحت عنوة أو صلحا (المعرّب) .

(٢) أخذنا هذا النص عن المقريزى (المعرب) .

(٣) جاء فى الأصل الانجليزى (ابن شريك) وهو تحريف (المعرب) .

فقد بلغنى كتابك وقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك ، وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا . فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا . ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه [(١)] " .

وعلى ذلك قد كان فى الدخول فى الاسلام ربح وغنم . ولقد كان عهد الصلح مع القبط كفيلا من الوجهة النظرية بأن يكونوا آمنين فى دينهم ، غير أن الأمر صار بعد حين الى خرق العهد ونقضه . فالحق أن الأمن فى الدين اذا كان مقترنا بأن يكون الرجل مهينا بين الناس ، وأن يحمل ثقلا فى ماله ، لم يكن أمنا حقيقيا ولا باقيا . فلما انتشر الاسلام بين الناس زادت وطأته اشتدادا على القبط ، وأصبح عبء الجزية ثقيلا لا ترضاه النفوس ، وأصبح أصحاب الجزية من اليهود والنصارى بعد حين وقد صاروا فى قلة ظاهرة بسبب من كان يسلم منهم عاما بعد عام . فكان هذا الأمر فاسدا إذ هو بمثابة رشوة لتحريض النصارى على الخروج من ملتهم ، فوق ما كان من أثره فى نقص مقدار الأموال نقصا ظاهرا . وكان نقص الجزية سريعا ، فبينا كان مقدارها فى أيام عمرو اثنى عشر ألف ألف دينار ، وفى أيام خلفه الظالم عبد الله بن سعد أربعة عشر ألف ألف ، اذا بها فى خلافة معاوية خمسة آلاف ألف بعد أن أسلم عدد عظيم من القبط ، ثم اذا بها فى خلافة هارون الرشيد أربعة آلاف ألف ، ثم ثبتت الجزية على ثلاثة آلاف ألف الى أواخر القرن العاشر [(٢)] . ولما حدث هذا النقص فى الأموال التى كانت تجبى من

(١) قد أثبتنا رواية المقريزى كما وجدناها نحن ، ولكن المؤلف فى الأصل الانجليزى ظن أن الجملة الأخيرة من قول المقريزى نفسه ، وترجمة الأصل الانجليزى هكذا " ويعلق المؤرخ العربى على ذلك وله فى ذلك الحق بقوله . (ولعمرى أن أكبر ما كان يرجوه عمر أن يدخل الناس كلهم فى الاسلام) " ولما كان تصحيح الرواية لا يذهب بشىء من المعنى الذى قصده المؤلف آثرنا تصحيحها (المعرب) .

(١) راجع كتاب الخطط . الجزء الأول صفحة ٧٨ والصحيفتين السابقتين لذلك .

(٢) ذكر ذلك الخبر اليعقوبى (مات فى سنة ٢٦٠ للهجرة) (Bibl. Geog. Arab. part VII صفحة ٣٣٩) ولا يتفق كل الاتفاق مع ما جاء فى كتاب أبى صالح إذ يقول إن الجزية كانت خمسة آلاف =

الجزية استحدث الحكام وسائل جديدة يعوضوّن بهـا ما نقص من مال الجزية ، وليس ثمت من شك فى أن الحكام عند ما استحدثوا تلك الضرائب الجديدة فرّقوا فيها بين معاملة المسلمين وأهل الذمة، فميزوا المسلمين فيها . فأكبر الظن على ذلك أن المسيحيين قد آل أمرهم فى حقيقته ومظهره الى زيادة فيما يحملون، وكان عبؤهم يزيد عليهم ثقلا كلما قل عددهم . فلا عجب إذن أن يخضع كثير من القبط، فيسوقهم أتىّ الحوادث الى الاسـلام ، بل العجب أن يبقى عدد عظيم منهم ثابتـا فى جرية ذلك الأتىّ، ولم تستطع عواصف الحـدثان التى توالت عليهم ثلاثة عشر قرنا أن تزعزعهم عن عقيدة قائمة فى قلوبهم على صخرة .

على أننا إن قلنا ذلك فلسنا ننسى أن التاريخ لم يحو بين صفحاته ما هو أعجب من العرب وفتحهم، إذ جاءوا الى مصر فئة قليـلة من الصحراء فانتصروا بها . ثم نقول إجمالا إنهم أقاموا لأنفسهم بنيانا مما هدموه فيها من ديانة مسيحية، ومدنية بيزنطية، قد اجتمع بها ضعف ورقة، الى جمـال وروعة، منذ امتزجت بها أكبر المدنيات القديمة الثلاث، المدنية المصرية والمدنية اليونانية والمدنية الرومانية .

= ألف دينار فى زمن أحمد بن طولون وإنها كانت أربعة آلاف ألف فى مدّة يعقوب بن يوسف وإنها نزلت بعد ذلك إلى ثلاثة آلاف ألف (صفحة ٨٢) ولكن من الجلى أن الواجب تفضيل المؤرّخ الأسبق فى التاريخ . حقا إن ابن رستاه يقول إنه فى مدّة عبد الله بن الحبحاب كان الخراج ألفى ألف درهم وسبعمائة ألف درهم وسبعة وثلاثين وثلثمائة درهم لكنه قل فى أيام موسى بن عيسى حتى صار ألفى ألف درهم ومائة وثمانين ألف درهم وكان ذلك حوالى سنة ١٨٠ هجرية أو نحو آخر القرن الثامن (Bibl. Geog: Arab Vib صفحة ١١٨) غير أنه من الصعب أن نعتقد أن مثل هذا التغير العظيم يمكن أن يحدث فى ١٥٠ سـنة والحق أن الأستاذ (Stanly Lane Poole) فى كتابه (The Story of Cairo) صفحة ٦٠ يرى أن التغير لم يأت إلا بطيئا فقال : «وبعد أن مضى على الفتح تسعون عاما يئس أحد الولاة من تزايد المسلمين تزايدا كبيرا فاضطر إلى إحضار خمسة آلاف عربى إلى بلاد مصر السفلى ولم تصر مصر بلادا إسلامية إلا بخطوات بطيئة وبعد الامتزاج بالمصاهرة والتكاثر بالمهاجرة» والظاهر أن هذا الرأى يستهين بالضغط على القبط وما نشأ عنه .

الفصل التاسع والعشرون

ثورة الاسكندرية بقيادة منويل

موت عمر — عثمان يعزل عمرو عن ولاية مصر — صفة عبد الله بن سعد — يتآمر أهل الاسكندرية مع القسطنطينية — يبعث منويل إلى مصر ليستعيدها — الترحيب به فى الاسكندرية — بيان منشأ خطأ المؤرخ (جبون) وتصحيحه — عودة عمرو إلى ولاية الحرب فى مصر — موالاة القبط للعرب — مسير جيش الروم إلى نقيوس — وقوع قتال شديد هناك — هزيمة الروم وارتدادهم الى الاسكندرية — يفتح العرب المدينة عنوة — ما طلبه بنيامين من عمرو — ما لهذا الحادث من شأن — منشأ بعض غلطات التاريخ

ظهر بعد أن فتح مصر لم يتم، فان الحرب بعد أن ظن الناس أنها قد وضعت أوزارها، عادت جذعة، إذ جاء الروم يسعون سعى المستميت أن يسترجعوا ما فقدوه من ملكهم، ولا يسعنا إلا أن نصف هذا السعى ولو على وجه الايجاز.

وقد أخطأ عمر بن الخطاب فى أنه كان مع عماله جميعا على سوء الظن يتوقعون منه العزل والمحاسبة، ويأخذ أموال بلادهم كلها لا يدع لهم فيها شيئا. وقد كان لهذه الخطة أثر فى التعجيل به، فقتل لبضعة أيام بقيت من ذى الحجة من عام ٢٣ للهجرة، ودفن فى غرة المحرم من عام ٢٤ للهجرة(١)، وفى ذلك اليوم أختير عثمان خليفة له. على أن عمر وإن أخطأ فى بعض أمره لم تلق دولة المسلمين خيراً بوفاته وولاية خلفه، فانه إن كان يضايق خير ولاته ويسىء اليهم فقد كان عثمان الذى جاء بعده يعزلهم. وكان من آخر ما أتاه عمر فى حياته أن قلل من سلطان عمرو بن العاص، وذلك بأنه ولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح حكم الصعيد والفيوم، وجعل اليه جباية الخراج. فأتم عثمان ما شرع فيه عمر بأن عزل ابن العاص عن

(١) ٧ نوفمبر سنة ٦٤٤

ولاية مصر، وجمع ولايتها جميعا لعبدالله بن سعد، فجاء ليلى أمره من مدينة شطنوه فى إقليم الفيوم وكان مقيما بها .

وقد اختلفت الآراء فى هذا الوالى الجديد فقال عنه النواوى: "كان من أعقل قريش وأشرفهم"(١) فى حين أن عمرو بن العاص نعى عليه ضعفه وقلة كفايته فى حكم البلاد وفى قيادة الجيوش ، ويصفه الطبرى بأشنع الصفات فيقول عنه : "لم يكن فى وكلاء عثمان أسوأ من عبد الله والى مصر"(٢) . وكانت ولايته هـذه فى وقت ساء فيه حكم الولاة وثارت ثورة الناس عليهم وعلى الخليفة لجورهم فى الحكم . والظاهر أن من وصف عبد الله وصفا حسنا إنما يدل على سخافته وحماقته ، وليس لوصفه قيمة فى التاريخ فانه لا مراء فيما ارتكبه فى مصر من الظلم . وقد ولاه الخليفة قصدا لكى يزيد فى جباية الجزية، وإن لدينا من الأسباب ما يحملنا على أن نقول إن عبد الله قد جعل أول همه زيادة الضرائب على أهل الاسكندرية، إذ لا شك أنهم كانوا عند ذلك يرزحون تحت عبء ثقيل من الضرائب . ولقد كان من أثر هذا العبء الثقيل أن جماعة من زعمائهم أنفذوا كتبا إلى الامبراطور (قسطانز) فى قسطنطينية، يسألونه أن يخلصهم من ظلم المسلمين . وقالوا له إن الاسكندرية ليس فيها إلا مسلحة ضعيفة لا تقوى على دفع جيش رومانى .

---

(١) ياقوت طبعة (Wustenfeld) صفحة ٣٤٥

(٢) أنظر طبعة (Zotenberg) الجزء الثالث صفحة ٥٨٣ وما بعدها . ولما دعا عثمان ولاته ليشيروا عليه فيما يشكو الناس منه تكلم عبد الله بصراحة عظيمة تشوبها سخرية فقال « يا أمير المؤمنين إن الناس أهل طمع فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم » ولكن هذا لم يكن قول عمرو بن العاص فان استقامته التى لا تعرف الهوادة أو الخوف تظهر فى قوله « أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون فاعتزم أن تعتدل فان أبيت فاعتزم أن تعتزل فان أبيت فاعتزم عزما وامض قدما » فجزاه عثمان على ذلك بأن قال له « قمل فروك . أهذا الجد منك » غير أنه اتبع مشورته فى ذلك الحين (المؤلف) .

(٣) أخذنا النصوص فى الهامش السابق عن الطبرى وفى قول عمرو خلاف مع الأصـل الانجليزى فآثرنا أخذ رواية الطبرى إذ ليس فيها اختلاف عظيم فى المعنى عما جاء فى الأصل الانجليزى ولا سيما أن المؤلف لم يذكر الأصل الذى نقل عنه (المعرّب) .

فأثرت هذه الكتب فى الامبراطور، إذ أنه لم ينس ما أصابه فى عزته وما لحق دولته من الضرر من ضياع مصر، فأمر بإعداد قوة عظيمة وتكتم أمرها كتمانا شديدا . وكان الروم الى ذلك الحين لا يزالون على سلطانهم فى البحر غير مدافعين ولا معاندين . فقد كان عمر يسمع بحروب البحر فكتب الى عمرو بن العاص يسأله عن ذلك وقال له : "صف لى البحر وراكبه" فكتب اليه عمرو كتابا عجيبا قال فيه : "إنى رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ، إن ركن خرّق القلوب وإن تحرّك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة . هم فيه كدود على عود، إن مال غرق وإن نجا برق" (١) . فكان وصفه هذا باعثا لعمر على الإشفاق منه، على ما كان عليه من إقدام وشجاعة، فلم يبح لمعاوية أن يجهز السفن (٢)، ولم يجرؤ أحد على خوضه حتى آلت الخلافة الى معاوية، فأخذ العرب عند ذلك فى سبيله، وعرفوا قيمة السيادة عليه .

وعلى ذلك لم يكن للعرب فى الوقت الذى نصفه الآن سفينة واحدة تأتيهم بأنباء أسطول الروم الذى بعث به الامبراطور بقيادة منويل للاستيلاء على الاسكندرية . فما فجأ العرب إلا أسطول عظيم يدخل ميناء الاسكندرية فى عدّة ثلثمائة سفينة، وألقى فيها مراسيه غير مدافع (٣) . ولم يكن بالمدينة إلا ألف رجل من العرب للدّفاع عنها، فغلبهم الروم وقتلوهم جميعا إلا نفرا قليلا منهم استطاعوا النجاة ، وعادت بذلك الاسكندرية الى ملك الروم .

وهذه الحادثة منشأ الرواية العجيبة التى رواها (جبون) وسواه من الكتّاب ، وذلك أنهم قالوا إن الروم عادوا بعد ثلاثة أيام أو أربعة من فتح الاسكندرية الأوّل

---

(١) أخذنا هذا النص عن كتاب الطبرى الجزء الخامس (طبعة المطبعة الحسينية بمصر) ولفظ برق كفرح ونصر تحير حتى لا يطرف أو دهش فلم يبصر عن المحيط (المعرّب) .

(٢) عن تاريخ الخلفاء للسيوطى ترجمة (H. S. Jarrett صفحة ١٦٠) .

(٣) اختلفت المصادر على عادتها فى هذا الأمر فقال ابن خلدون إن الأسطول بقى بعيدا عن الشاطئ لأن المقوقس منع الروم أن ينزلوا بالأرض ولكن المقوقس كان قد مات طبعا . وقال ابن عبد الحكم ان الأسطول رسا فى الاسكندرية وإن الروم الذين كانوا فى المدينة انضموا الى جنود الامبراطورية . وأما غيرهما من مؤرخى العرب فيقولون بوضوح إن الروم أخذوا المدينة وقتلوا حاميتها .

بعد أن كانوا قد سافروا فى البحر ورحلوا عن مصر، فأخذوا العرب على غرة وهم متفرقون، فملكوا المدينة مرة ثانية، ولبثوا يحكمونها بعد ذلك حينا قصيرا . وليس ثمت من حقيقة لهذه الرواية فانما منشؤها خطأ فى التأويل ، وذلك أنهم خلطوا بين فتح الاسكندرية فى المرّة الأولى وفتحها فى المرّة الأخيرة، ومزجوا بين وصفى الحادثين . فهم يقولون مثلا إن فتح الاسكندرية كان فى المرّة الأولى عنوة وجعلوا بناء روايتهم كله على أنها فتحت عنوة، فى حين أنا قد بينا بيانا واضحا لا نزاع فيه أن فتح الاسكندرية فى المرّة الأولى كان صلحا، وأن العرب جعلوا لأهلها هدنة مدّتها أحد عشر شهرا، ثم دخلوا بعد ذلك الى المدينة مسالمين، وظلوا بعد ذلك على ملك المدينة لا يحدث لهم حدث حتى جاء منويل فى بعثه[1] .

وقد اتفق مؤرّخو العرب اتفاقا يقل مثله على أن استرجاع الروم لمدينة الاسكندرية قد وقع فى أوائل السنة الخامسة والعشرين للهجرة وذلك نحو آخر سنة ٦٤٥ للميلاد[2] . ولكنهم لم يتفقوا مثل هذا الاتفاق فى ذكر المكان الذى كان

(١) تثبت هذه القصة من قول السيوطى إذ قال " لما هزم الله الروم وفتح الاسكندرية وهرب الروم فى البر والبحر خلف عمرو بن العاص بالاسكندرية ألف رجل من أصحابه ومضى عمرو ومن معه فى طلب من هرب من الروم فى البر فرجع من كان هرب من الروم فى البحر الى الاسكندرية فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من هرب منهم " (حسن المحاضرة صفحة ٧٣) ولكن هذا خلط ناشئ من مؤلف يجمع الأخبار وهو يجهل ترتيبها التاريخى الصحيح وهذا الحادث ليس إلا ترجيع ما حدث فيما بعد فى أيام غزوة منويل ونقول كذلك إن هذا الخبر الذى يذكر فيه نزول الروم على الاسكندرية مرتين يرد فى كتاب ابن بطريق (راجع كتاب مينى Patr. Gr. T 111 Col. 2111) وهذا دليل بغير شك على أن كلا المؤلفين نقل عن مصدر واحد وهو مصدر فاسد فاذا ما قام الدليل كما فعلنا من قبل على أن فتح الاسكندرية الأوّل كان صلحا نقضت هذه القصة من أساسها فجمل القول أن القصة لا يقوم عليها دليل صحيح وهى تعارض حقائق قام البرهان عليها وثبتت بغير شك ولا يذكر حنا النقيوسى شيئا عنها وعلى ذلك يجب علينا أن نبعدها عن حقائق التاريخ .

(٢) ذكر البلاذرى هذا التاريخ (صفحة ٢٢١) ثم ذكر احتمال أن يكون ذلك سنة ٢٣ هجرية . وأما ابن الأثير (صفحة ٦٢) فانه يذكر أن ذلك كان سنة ٢٥ للهجرة ويتفق معه فى ذلك ياقوت وأبو المحاسن . وأما المقريزى فانه يذكر أن فتح الروم للاسكندرية كان سنة ٢٤ هجرية وأن فتح العرب لها وقع سنة ٢٥ للهجرة . وذكر ذلك أبو المحاسن وقال إن هزيمة الروم كانت فى ربيع الأول وهو يوافق يناير سنة ٦٤٦ ولكن هذا لا يكاد يترك وقتا كافيا لحوادث ذلك القتال .

فيه عمرو بن العاص عندذلك فإذا صحت رواية الطبرى، وروايته جديرة بالتصديق، كان عمرو عند ذلك فى مكة[1] معزولا، فلما جاءت أنباء هذه الثورة أمر بأن يعود إلى قيادة الجيش بمصر. وعلى أى حال فالظاهر أنه عزل قبل مجىء الروم، ولم يلتفت خلفه العاجز إلى حماية البلاد فأهمل تحصينها، حتى بدا عجزها واشتد خللها. ولم يقف جيش (منويل) عند الاسكندرية بعد أن ملكها وخلصت له، بل سار إلى ما يليها من بلاد مصر السفلى ينهب فيها ويغصب القمح والخمر والأموال من أهل قراها، لا يدافعه مدافع. والظاهر أن الروم لم يعبأوا بمن تودد إليهم، فكان جندهم أينما حل أو سار فى البلاد يعامل الناس معاملة أعداء قد فتحت بلادهم.

على أنه قد يكون الأمر على غير ذلك فى بعض الأحوال، فإن جيش الروم ما عاد إلى امتلاك البلاد إلا بمساعدة من فى الاسكندرية من الروم، وكانوا لا يزالون على مكانة عظيمة فيها، وكان هؤلاء يعتمدون على مساعدة بعض الناس فى بلاد مصر السفلى وميلهم إلى الروم. وقد ذكرت فى الأخبار بعض قرى قامت على بكرة أبيها وانحازت الى جانب الروم. غير أن القبط كانوا على وجه الاجمال لا يرجون خيرا من

(١) أنظر طبعة (Zotenberg) الجزء الثالث صفحة ٥٥٩ قال إنه فى أول السنة الخامسة والعشرين للهجرة أخذ عثمان فى عزل عمال عمر ولكنه لما سمع بثورة الاسكندرية جعل عمرا (يسافر الى مصر) وهذا يفيد أن الفتح الثانى كان بعد أول سنة ٦٤٦ بمدة طويلة. ويذكر البلاذرى أن عمرا عزل من الولاية فى سنة ٢٥ للهجرة وحل محله عبد الله بن سعد (صفحة ٢٢٢). وقال النواوى إن استعماله كان فى تلك السنة (صفحة ٣٤٥) ولكن ابن الأثير يذكر أن ذلك كان فى سنة ٢٦ للهجرة (صفحة ٦٧). وأما ابن عبد الحكم فانه عند ذكر الثورة يقول إن عثمان كان قد عزل عمرا فى ذلك الوقت وقد نقل عنه المقريزى هذا (الخطط الجزء الأول صفحة ١٦٧). وقال المقريزى فى موضع آخر عند ذكر ولاة الفسطاط يذكر عبد الله ابن سعد إن منويل الخصى هاجم الاسكندرية فطلب الناس من الخليفة أن يستعمل عمرا لقتال الروم وبالاجمال يظهر أنه من الثابت أن عمرا قد عزل قبل الثورة ولكنه ليس من الجلى إذا كان قد ترك مصر. فأما ابن بطريق فانه يذكر صراحة أنه كان لا يزال فى مصر. وأما أبو المحاسن فانه يقول إن عثمان أزال عنه أعباء الولاية حتى يفرغ لقتال منويل (صفحة ٧٣).

(٢) ذكر ابن الأثير أن الروم كانوا يغصبون الأموال والأطعمة من الناس الذين فى جوار العاصمة ولم يفرقوا بين موال منهم ومعاد (صفحة ٦٢). وأما المقريزى فانه ذكر أنهم جعلوا يفتحون القرى ويشربون خمرها ويأكلون طعامها ويفسدون فى البلاد.

وراء رجوع سلطان الروم ، إذ كانت ذكريات قيرس وعسفه لا تزال منقوشة على قلوبهم ، وكانوا غير ساخطين على ما هم فيه مع ما أخذ يظلهم عند ذلك من خوف العرب وظلمهم ، إذ كانت لهم طمأنينة على دينهم ودنياهم ما كانوا ليحتفظوا بها إذا عاد حكم الروم . ولهذا لاذ القبط بالعرب فى هذه المحنة وساعدوهم ، ولو فعلوا غير ذلك لكانوا أحمق الناس وأجهلهم ، إذ يكونون كأنهم يسعون إلى وضع أيديهم فى أغلال الروم وكشف أجسامهم لجلد سياطهم . ولسنا نعلم علم اليقين أبقى البطريق بنيامين عند ذلك فى الاسكندرية أم هرب قبل مجىء جيش الروم ، على أننا نرجح هروبه وغيابه عن العاصمة فى ذلك الوقت . والأدلة على ذلك قوية ، ولكن لا شك فى أنه وقف مع قومه من القبط يشدون أزر العرب ويساعدونهم ، ويظهرون لهم الود حافظين بذلك عهدهم الذى تعاهدوا عليه فى صلح الاسكندرية .

وفيما كان الروم يتمتعون بما فى مصر من ملاذ ويضيعون الفرصة على عادتهم فى تضييع ثمين الفرص إذا ما سنحت لهم ، عاد عمرو إلى قيادة جيش العرب فى بابليون . وقد دعاه العرب لذلك وألحوا فيه منذ رأوا أنه رجل داهية لا يدانيه مدان فى مكيدة الحرب ، ولا يثق الناس فى أحد ثقتهم فيه لما اعتادوا من النصر على يديه ، وشعروا بأنهم فى أشد الحاجة إليه فى ذلك الوقت العصيب الذى لم يأت عليهم وقت أشد منه منذ غزوا بلاد مصر . ولو لم يضع الروم وقتهم فى بلاد مصر السفلى بل ساروا لا يلوون على شىء قاصدين إلى الفسطاط لما بعد عليهم أن يهزموا عبد الله ويأخذوا حصن بابليون ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل تهاونوا حتى استطاع عمرو أن يحضر إلى مصر ويجهز جيشه بها ، ولم يكن من رأى عمرو أن يسرع فى أمره وهذا غير ما كان يراه خارجة بن حذافة الذى كان عند ذلك قائد مسلحة حصن بابليون ، إذ كان يرى أن التأخر ضار بالمسلمين مصلح لأمر الروم ، وأشار على عمرو أن يبادر إلى العدو قبل أن يأتيه المدد أو يثب أهل مصر جميعها وينتقضوا على العرب . ولكن عمرا كان يرى خلاف ذلك فقال : "لا ولكن ادعهم حتى يسيروا إلى فإنهم يصيبون من مروا به فيخزى الله بعضهم ببعض" . وإنه لمن الجدير

بالذكر أن قوّاد العرب فى هذا الوقت لم يميزوا بين قبطى و رومى بل ظنوا أن الفئتين معا إلب على قتالهم . وهذا يدل على أنه لم يكن ثمت ما يدعوهم إلى توقع محبة القبط لهم ولا حيادهم فى قتال الروم . ولو صح أن القبط رحبوا بالعرب عند أوّل مجيئهم إلى مصر ورأوا فيهم الخلاص لركن قوّاد العرب فى هذا الوقت إلى ولاء القبط ومحبتهم ولتوقعوا منهم الودّ والمساعدة .

وعلى هذا سار الروم على مهل حتى استدرجوا إلى نقيوس[1] ، وهناك لقيتهم طلائع العرب . ولعل جيشهم كان إذ ذاك خمسة عشر ألفا[2] . ولم يذكر التاريخ هل استولى الروم على مدينة نقيوس ، غير أنه يذكر أنه قد وقع قتال شديد بين الجيشين تحت أسوار حصنها فيما يلى الخليج أو النهر الذى يجرى على كثب من المدينة . وقد قاتل الروم فى تلك الوقعة قتالا عظيما وأبدوا فيه شجاعة لا مثيل لها ، وحارب عمرو فى صفوف الناس ، وعقر تحته فرسه إذ أصابه سهم ، فاقتحم عنه وحارب راجلا . وانهزم العرب فى بعض ذلك القتال وولوا الأدبار ، وكان أظهر الروم يومئذ فى شجاعته وحسن عدّته رجل فارس عليه سلاح مذهب ، فلما تنازع الناس القتال دعا العرب إلى البراز ، فبرز إليه رجل من زبيد يقال له « حومل » ، فاقتتلا طويلا برمحين يتطاردان بغير أن يغلب أحدهما الآخر . ثم ألقى الرومى رمحه وأخذ السيف فألقى حومل رمحه وأخذ سيفه ، وكان الجيشان فى أثناء ذلك وقوفا يرى جندهما ذلك

(١) أنظر كتاب (Weil) "Geschichte der Chalifen" (الجزء الأوّل هامش صفحة ١٥٨) وأنه لا يستطيع البت فى اسم المدينة التى قال ابن عبد الحكم إنه كان (نقيوس) و (تقيوس) و (تيوس) و (نفويس) الخ وهذا كله تحريف بسيط وسهل للاسم الأصلى وهو (نقيوس) وهو ناشئ من تغيير النقط وأما المقريزى فانه يذكر الاسم الصحيح و يقول « إنه قد وقع قتال هناك فى الأرض والنهر » وهذا وحده كاف لازالة الشك وفوق ذلك يقول ياقوت (الجزء الرابع صفحة ٨١٠) إنه قد وقع فى نقيوس قتال بين عمرو والروم عندما عصوه وهذا بلا شك يشير الى ثورة منويل ولكن (Weil) لم يرطبعا كتاب حنا النقيوسى ولم تكن عنده صورة واضحة من وصف أرض مصر فى وقت الفتح .

(٢) يقول البلاذرى إن جيش عمرو كان عدده ١٥٠٠٠ ولكن لعل ذلك تحريف عدد ١٥٠٠٠ ولا شك أن جيش الروم كان أكثر من ذلك عددا .

البراز وهم فى صفوف خلف صفوف على الجوانب ، ثم حمل الرومى حملة شـديدة فضربه العربى بسيفه ضربة فى ترقوته فأثبته . وأما حومل فقد أصابته جراحة مات منها بعد أيام قليلة ، فأرسل عمرو جثته إلى الفسطاط على سرير ودفنه عند المقطم[(١)] .

ولما قتل البطل الرومى رجع القتال بين الناس واشـتد ، وانتهى أمره بهزيمة جيش منويل ، وفرّ الروم لا يلوون على شيء نحو الاسكندرية . فبلغت فلول جيشهم العاصمة والعرب فى آثارهم ، فأقفل الروم الأبواب واسـتعدّوا للحصار[(٢)] . وكان عمرو فى أثناء سيره فى بلاد مصر السفلى يلقى مساعدة من قرى القبط حيث سار ، فكانوا يأتون إليـه بمن يقيم له الجسـور ويقدّمون له ما كان فى اسـتطاعتهم تقديمه بعد ما حل بهم من نهب الروم وغصبهم . فلما بلغ جيش العرب أسوار الاسكندرية ورأى عمـرو ما عليـه المدينة من المنعة اشـتد به الألم لأنه رأى أنه أخطأ فى ترك أسوارها قائمة ، ولم يجعل بها من الجند مسلحة قوية ، وحلف لئن أظفره الله بها ليهدمن أسـوارها حتى تكون مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان . وجعل عسـكر العرب فى الجانب الشرقى من المدينة وهو الجانب الذى كان الحصار منه ممكنا ، وقيـل إنه أقام آلات الحصار وصدع بها الأسـوار ، غير أن ذلك لا يتفق مع ما هو معروف عن أسوارها من القوة ، وإنه لأقرب إلى الأفهام أن نصدّق رواية أخرى تجعـل

(١) جاء فى المقريزى فى وصف آخر هذا النضال " ثم حمل عليه البطريق فاحتمله وكان نحيفا فاخترط حومل خنجرا كانـ فى منطقتـه أو فى ذراعه فضرب به نحر العلج أو ترقوته فأثبته ووقع عليه فأخذ سلبه ثم مات حومل بعد ذلك بأيام رحمه الله . ورؤى عمرو يحمل سريره بين عمودى نعشه حتى دفنه بالمقطم " (المعرّب) .

(٢) لا يذكر البلاذرى مدينة نيكيو (نقيوس) ولكنه يذكر أنه وقع قتال بقرب الاسكندرية حيث هاجم الروم الذين كانوا يعيشونـ فى تلك الجهات وقد ثبت العرب لهجومهم نحو ساعة وراء الخنادق ثم حملوا عليهم وهزموهم فهرب الروم مسرعين لا يلوون على شيء حتى دخلوا الاسكندرية (صفحة ٢٢١) وقد يجوز طبعا أن يكون قد وقع قتال آخر بقرب الاسكندرية وهـذه العبارة على أى حال هامة لأنها تدل على أن العرب كانوا قد أخذوا من الروم طريقتهم فى الخندقة على عسكرهم .

مرجع فتح المدينة فى هذا الحصار جله إلى الخيانة من داخلها، كما وقع لها فى حصار دقلديانوس . فقد قيل إنه كان فى الاسكندرية بواب اسمه (ابن بسامة)، سأل عمرا أن يؤمنه على نفسه وأهله وأرضه ويفتح له الباب، فأجابه عمرو إلى ذلك[١] .

ومهما يكن من الأمر فقد أخذ العرب المدينة عنوة ودخلوها يقتلون ويغنمون ويحرقون حتى ذهب فى الحريق كل ما كان باقيا على مقربة من الباب فى الحى الشرقى، ومن ذلك كنيسة القديس مرقص . واستمر القتل حتى بلغ العرب وسط المدينة ، فأمرهم عمرو أن يرفعوا أيديهم ، وبنى مسجد فى الموضع الذى أمر عمرو فيه برفع السيف وهو «مسجد الرحمة» . وقد لاذت طائفة من جند الروم بسفنهم فهربوا فى البحر، ولكن كثيرا منهم قتل فى المدينة . وكان منويل بين من قتل، وأخذ العرب النساء والذرارى فجعلوهم فيئا .

وكان هذا الفتح الثانى فى صيف سنة ٦٤٦، وكان عنوة بالسيف ، وبهذا يكون بين الفتح الأول والفتح الثانى فروق تميز بين وقت وقوع كل منهما وحوادثه . ولكن من سوء الحظ أن كتاب العرب لم يفرقوا بين الفتحين ، وإنه لمن أصعب الأمور وأشدها استعصاء أن يعيد باحث الى الحوادث نظامها فى كل من الحالين، إذ يجد بعضها داخلا فى بعض مختلطا به اختلاطا من كل وجه . وإنا نرى أن هذا الوصف موضع لذكر حادثة قد وضعت فى غير موضعها فى وصف الفتح الأول فنشأ عن ذلك خلط عظيم ، وتلك الحادثة هى الزيارة التى قيل إن المقوقس زارها لعمرو ليعرض عليه فيها أمورا عجيبة . ولا شك أن المقوقس قد مات منذ زمن طويل غير أن العرب كانوا يطلقون ذلك اللقب خطأ على أشخاص عدة، فقد سموا به الحاكم الذى كتب اليه النبي كتابه قبل فتح العرب لمصر، ثم أخطأوا فسموا به

(١) جاء هذا الخبر فى كتاب السيوطى ويظهر أنه يذكر ذلك مع الفتح الأول ولكنه مخطئ فى ذلك على أن القصة قد تكون وقعت فى الفتح الثانى وهذا الخلط بين حوادث الفتحين الأول والثانى لا دواء له .

بعد الفتح بطريق القبط بنيامين[١] . وعلى ذلك فإنا اذا قرأنا أن المقوقس جاء الى عمرو فى وقت الحصار ووعده أن يساعده على شروط ثلاثة ، كان لا بدّ لنا أن نعزو تلك القصة الى (بنيامين)، وما كان منه عند ثورة الاسكندرية واستيلاء منويل عليها .

وإن تحريف هذه القصة ووضعها فى غير موضعها له أثر كبير فى تاريخ الفتح، فان ذلك منشأ الخلط الذى بنيت عليه روايات كثيرة . فان المؤرّخين لم تسبق لهم كتابة تاريخ للفتح نقدوا فيه أخباره وبحثوها، فلا نجد فى كتب تواريخ العرب إلا سردا لحوادث اختاروها ورووها عن مصادر مختلفة، ولكنهم فى اختيار مايروون من أخبار تلك الحوادث لا يفرّقون بين أشياء كان يجب عليهم التفريق بينها ، فيجمعون من أخبار الحوادث ما وقع فى أوقات مختلفة لا يتحرّون فى ذلك ترتيبها ولا تاريخ وقوعها ، فاذا ما صار الخبر فى غير موضعه لا يتناسب مع السياق والقرائن حوّروه لكى يلائم ذلك السياق الجديد . وقد يصير الخبر بذلك التحوير فى كثير من الأحوال سخيفا أو باطلا فاسدا . وهذا ما كان فى تاريخ هذا الحادث الذى نحن بصدده ، فقد روى المقريزى[٢] ثلاثة شروط اشترطها المقوقس على عمرو ، وهى :

(١) ألا ينقض القبط « وأن يدخله معهم ويلزمه ما لزمهم » .

(٢) ألا يصالح الروم أبدا .

(٣) أن يأمر به فيدفن فى جسر الاسكندرية[٣] .

(١) أنظر الذيل الذى أفردناه للقوقس وقد وردت حقيقة موت المقوقس فى قصة الخاتم المسموم مع أن القصة فى ذاتها كما بيناه مشكوك فيها وقد أحسن البلاذرى بصعوبة الأمر إذ قال إن المقوقس كان حيا فى هذا الوقت وعبارته (صفحة ٢٢٢) تفيد أنه قيل إن المقوقس ترك أهل الاسكندرية عند ما ثاروا وأن عمرا بعد ذلك أبقاه وأصحابه فى أعمالهم وأن البعض يذكر أن المقوقس كان قد مات قبل تلك الثورة . وإنا نرى أن الحقيقة هى أن بنيامين كان عند ذلك هو البطريق وزعيم أهل مصر . وأما قيرس فقد كان بطريقا وكان زعيم طائفة الروم والمصريين فليس من العجيب إذن أن ينقل بعض المؤرّخين لقب الأوّل الى الثانى . ولكن هذا الخلط بين الشخصين أحدث بالطبع خلطا فى الحوادث والتواريخ .

(٢) الخطط : الجزء الأول صفحة ٢٩٣

(٣) ورد فى كتاب السيوطى قوله فى أبى حنش وهو تحريف للفظ « يوحنس » إذ كان الجسر يسمى جسر القديس يوحنا (أو يوحنس) .

وإنا نرى أن هذه الرواية عما اشترطه المقوقس بعيدة لا يسيغها العقل ، وهى فوق ذلك قلب للخبر الأول الذى نقلت منه فهى تصوّر المقوقس كما هو ظاهر كأنه رجل من الروم يسأل العرب أن يفوا للقبط بعهدهم وألا يصالحوا الروم ، ومن ثم نشأت قصة القبط وأنهم وحدهم انفصلوا عن الروم وصالحوا العرب عند أول هبوطهم مصر . ومن تلك الرواية كذلك نشأت قصة أخرى وهى أن القبط رحبوا بالعرب ورأوا فيهم الخلاص . على أن المؤرّخ نفسه يورد الشروط عن مصدر آخر وهو ابن عبد الحكم ويجعلها كما يأتى :

(١) ألا يبذل للروم ما بذل للقبط لأنه نصحهم فاستغشوه .

(٢) ألا ينقض القبط فان النقض لم يأت من قبلهم .

(٣) أن يدفن المقوقس فى كنيسة يحنس .

وهذه رواية أقرب الى عهد الحادث فهى لذلك أقرب الى الحقيقة . ومما يستحق الذكر أن هذه الرواية ليس فيها قوله "وأن يدخله معهم (أى المقوقس مع القبط) ويلزمه ما لزمهم" . ونرى أن ذلك القول الذى عزاه المؤلف الى المقوقس وهو سؤاله لعمرو أن يدخله مع القبط قول لا مبرر له ، وإنما أراد به المؤلف أن يوضح أمرا لم يجد إيضاحا له غير ذلك ، فهو يريد أن يعزز بقوله هذا أن المقوقس كان يميل مع القبط (وهو قول بعيد عن الصواب) ، وأنه كان يأخذ لهم من العرب ميثاقا وعهدا .

ولكن من حسن الحظ أنا نجد فى تاريخ البلاذرى رواية عن المقوقس وما طلبه من عمرو، وهى تدل دلالة قاطعة على أن هذا الأمر لا علاقة له بفتح الاسكندرية أول مرة، بل إنه حدث عند ثورة الاسكندرية وحرب (منويل). وعلى هذا لا يمكن إلا أن يكون المقصود من (المقوقس) هو بنيامين بطريق القبط . وجاء فى هذه الرواية أن بنيامين سأل عمرا فقال :

(١) الخطط : الجزء الأول صفحة ١٦٣

(١) ألا تبذل للروم من شروط الصلح مثل ما بذلت لى .

(٢) ألا تسىء الى القبط لأن نقض العهد لم يأت من قبلهم .

(٣) إذا مت فأمر بدفنى فى كنيسة كذا[1] .

وقوله " إذ أن نقض العهد لم يأت من قبلهم " توضح الأمر كله وتجلوه فإن القبط لم تكن لهم يد فى ثورة الاسكندرية التى نقض بها الصلح الذى عقده قيرس (المقوقس)، ولم يكن لهم ضلع فى تلك المؤامرة التى كان يقصد بها عود سلطان الروم . وعلى ذلك ذهب كبيرهم — وكان عند ذلك بنيامين — فعرض على عمرو مساعدة القبط له على شرط أن يجازوا على ولائهم بأن تحسن معاملتهم، ولا يكال لهم بكيل الروم الذين ثاروا بالمسلمين . فإذا نحن وضعنا هذا الخبر فى موضعه بدا لنا واضحا بينا عظيم الدلالة بعد أن كان وهو محرّف فى غير موضعه غامضا محيرا . ولقد استبحت الاطالة فى ذكر هذا الخبر لما له من عظيم الشأن بين أخبار التاريخ،

---

(١) قوله « فان النقض لم يأت من قبلهم » قول واضح ومعنى لفظ «النقض» لا يفيد إلا نقض العهد وقد أخذنا هذه العبارة من نبذة اقتبسها لنا الأستاذ مفتى الديار المصرية من نسخة خطية بالقاهرة ولكن ترجمة De Goeje (صفحة ٢١٥) تورد الشروط بصورة مختلفة بعض الاختلاف وهى : (١) أن الروم الذين شكوا فيما عرضه المقوقس من السلم ورفضوه لا يبذل لهم إلا أقل مما يبذل للقبط من الشروط . (٢) ألا ينقض عهد القبط وأن يبق القبط على ولائهم للعرب . (٣) مثل السابق ذكره . أما أميلنو فانه عند ذكر هذا الحادث (وهو يقرنه بالفتح الأول) يذكر الطلب الثالث ألا وهو طلب الدفن فى الكنيسة و يقول إن ذلك دليل على أن المقوقس المعنى بذلك كان بلاشك البطريق وقال " كان بطريقا لأن البطارقة وحدهم كان لهم امتياز أن يدفنوا فى كنيسة — ولم نجد فى وثيقة قبطية أى ذكر لأسقف أو راهب قديس أو شهيد دفن فى كنيسة أبرشيته أو ديره أو قريته وعلى عكس ذلك لا نجد أكثر من الأحوال التى ذكر فيه دفن البطارقة فى الكنائس " (Journal Asiatique, Nov - Dec. 1888 — صفحة ٤٠١) ولكن حجة أميلنو لا تصح فى حالة الملكانيين لأن أبا صالح يذكر صراحة أن الملكانيين والأرمن والنساطرة « يدفنون فى الكنائس » صفحة ١٣٦ فاذا قلنا أن قول أميلنو صحيح فى حالة القبط ولو أن ذلك يحف به شىء من الشك لم تكن حجته لتؤدى إلا إلى أن ذلك الذى جاء إلى عمرو كان بطريقا قبطيا ولم يكن روميا وأنه كان فى الواقع بنيامين وليس قيرس وهذا يعزز رأينا أن هذه القصة حدثت فى وقت ثورة منويل وكان عند ذلك قيرس قد مات و بنيامين قد عاد إلى ولايته للدين . ولا يزال عند القبط إلى يومنا هذا امتياز لأساقفة القبط بأن يدفنوا فى الكنائس ولكنا لا نستطيع أن نقول متى بدأ هذا الامتياز واعترف لهم به .

ولأنه مثل يظهر منه ما يلاقيه الباحث من المشقة فى بحثه، وما يعانيه من الصعاب فى سبيل جلاء الحقيقة .

هــذا ما عرضه البطريق على عمرو فلما سمع عمرو ذلك منه قال — يقصــد الشرط الثالث « هــذه أهونهن علينا »، فقد كان من السهل عليه أن يعد بنيامين بأن يدفن فى كنيسة القــديس يحنس، ولكن لم يكن من السهل عليه أن يفرق فى كل الأحوال بين القبط و بين الروم فيما كان منهــم، أو أن يحكم فى أمر القبط ومبلغ اشــتراكهم فى ثورة الاســكندرية، ولسنا نعرف على وجه اليقين الموضع الذى لقى فيه بنيامين عمرو بن العاص، ولعل ذلك كان فى بابليون قبل أن يسير عمرو إلى لقــاء الروم وقبل أن يعرف نصيب القبط من تلك الثورة . وأغلب الظن أن القبط من أول الأمر أعرضوا عن منويل ولا شك فى أنهم سهلوا على العرب السير فى بلاد مصر السفلى، ولا بد أن ذلك كان راجعا إلى فعل بنيامين واتفاقه مع قائد العرب .

وفى هذا الوقت إذن نرى أن القبط يمالئون العرب راغبين وهم على عهد معهم، وما زالوا على ذلك حتى هزم الروم وتشتت شمل جيشهم، وفتحت الاســكندرية مرة أخرى . وهذا هو المنشأ الحقيقى لقصة ترحيب القبط بالعرب وممــالأتهم لهم منذ هبطوا مصر، وهى قصة لا صدق فيها، وقد بينا بطلانها مرة بعد مرة فى تاريخنا هذا . غير أنا نرى ممــا أوضحناه هنا أن تلك القصة قائمة على أساس قد اختلط به الحق والباطل، والتبست فيه الأخبار واســتغلقت على الرواة . فهى بالاختصــار تروى خبرا صحيحا ولكنه وقع فى القتال الذى انتهى بفتح الاسكندرية المرة الثــانية لا فى أى قتال قبــله، وهى تصدق على ثورة الاسكندرية ولكنهــا لا تصدق على فتح مصر الأول . وهى صورة تاريخية صحيحة ولكنها قد ألبست إطارا كاذبا [1] .

---

(١) بعد كتابة ما سبق قد وجدنا عبارة فى كتاب ابن دقاق تعزز حقيقة الشروط الثلاثة التى طلبت من عمرو وأنها كانت فى وقت ثورة منويل وإنا موردوها هنا تفصيلا وذلك أنه روى عن ابن وهب أنه قال : قال الليث بن سعد : إن المقوقس الرومى الذى كان ملك مصر صالح عمرا على شروط أن الروم إذا شاءوا الخروج من مصر أبيح لهم ذلك وأن يدفع القبط عن كل رجل دينارا . ولكن هرقل أبى اقرار هذه الشروط =

وبعد فثم قصة أخرى كان لها حظ عظيم من تضليل المؤرّخين وتحييرهم، وهذا موضع تفنيدها فقد ذكرنا فيما مر من القول قصة وجدناها فى كتاب (ساويرس) وكتاب (تيوفانز) ، وهى أن (قيرس) دفع للعرب الجزية قبل غزوهم مصر مدّة ثلاث سنين أو تزيد ، وكان يقصد بذلك أن يدفع عن مصر غزوتهم . وقد قلنا إن هذه القصة غير جديرة بالتصديق [١] ، ولكنا لم نبين كذبها . وقد ظهرت لنا الآن حقيقة منشئها جلية، فما هى إلا زعم فاسد توهمه من قرأ أخبار الفتح فى كتاب مجمل مبتور ، ولا شك عندى فى أن منشأ تلك القصة كتاب يونانى مثل (تيوفانز) سرد أخبار عدّة سنين فى جمل قليلة مجملة مختلطة ، لم يتحرّ فيها ترتيب التاريخ . فقد قال (تيوفانز) إن العرب لما غزوا مصر صالحهم قيرس على أن تدفع مصر لهم جزية مائتى ألف دينار، ثم قال [٢]: "فحفظ قيرس بذلك مصر من الضياع ثلاث سنين، غير أنه اتهم عند الامبراطور بأنه يدفع أموال مصر الى العرب فعزله الامبراطور وغضب عليه ، وأقام مكانه (منويل) الأرمنى ليكون قائد جيش الروم ، فلما مر

= «وأرسل فى غضبه منويل لحرب العرب» . ولما كان عمرو يحاصر الاسكندرية خرج إليه المقوقس وقال له إنى أسألك ثلاثة أشياء فسأله عمرو وما تلك؟ قال : (١) ألا تبذل للروم ما بذلت لى فقد نصحتهم بالاذعان فلم يسمعوا مشورتى . (٢) وألا تنقض عهد القبط فانهم لم ينقضوا عهدهم معك . (٣) أن أدفن اذا مت فى أبى يحنس .

ولا شك فى أن هذه العبارة فيها ما فيها من خلط إذ يظهر أنها تشير مثلا إلى أن بعث منويل جاء عقب رفض هرقل لشروط الصلح الأولى وتخلط بين قيرس والى هرقل وقد مات قبل مجىء منويل بمدّة طويلة و بين بنيامين . ولكنها على أى حال تظهر الصلة بين الشروط الثلاثة وحرب منويل (أنظر طبعة الدكتور (Vollers) لابن دقاق الجزء الخامس صفحة ١١٨) .

(١) انظر ما سبق صفحة ١٨٣ — ١٨٥

(٢) Corp. Hist. Script. Byzant. الجزء ٤ صفحة ١٦٧ ولا يمكن أن يكون هذا الاتفاق غير صلح الاسكندرية ولكنه اختلط بصلح بابليون . وأما قوله «الثلاث السنوات» فذلك أثر من ذكر المدّة التى بين فتح الاسكندرية فعلا سنة ٦٤٢ و بين غزوة منويل سنة ٦٤٥ ، ولسنا ندرى ما يقصد بلفظ «العام» . وأما طلب الجزية فلا يمكن أن يكون قد بلغ منويل إلا فى الاسكندرية ولكن قد ذكر بعد ذلك أن منويل هزم ورجع إلى ذلك الموضع و يقول تيوفانز إن قيرس كان حيا بعد هذه الحادثة كما يقول بعض مؤرّخى العرب إن المقوقس كان حيا بعدها وذلك بغير شك خطأ فانهم يخلطون بين قيرس و بنيامين وخلاصة القول أن ذلك الخبر من أبعد الأخبار عن الصحة وأقلها تحملا للفحص .

العام أرسل العرب فى طلب الجزية فأجابهم (منويل) "لست بالعاجز المستضعف (قيرس) فأدفع لكم الجزية فما لكم عندى إلا السيف" ولم يعطهم شيئا . فتجهز العرب لغزو مصر وجاءوا لحربها وهزموا منويل ، فهرب مع فلول جيشه الى الاسكندرية وفرض العرب الجزية على مصر مرة أخرى ، فلما سمع الامبراطور بذلك بعث (قيرس) ليحمل العرب على الخروج من مصر على الشروط التى عقدوها معه ، فجاء (قيرس) الى عسكرهم وقال لهم إنه لم يأت النقض من قبله ، وإنه يقسم أن يعيد معهم العهد الذى عقده من قبل ، فأبى العرب ذلك كل الأباء . وإنه لمن أشق الأشياء أن يعين الانسان مواضع الخلط والخطأ فى هذه الرواية فما هى إلا نسيج من التحريف ، ولكن من قرأها لا يسعه إلا أن يقول إن العرب عندما غزوا مصر فى أول الأمر لقيهم (قيرس) فأعطاهم مالا على أن يرجعوا عن مصر ، فلما سمع هرقل بذلك أرسل الى مصر (منويل) على الفور ، فلما هزم (منويل) أبى العرب أن يعودوا الى عهد الصلح الأول الذى اشترط عليهم فيه الخروج من مصر . هذا ما آل اليه الخبر من التحوير ومن ثم نشأت قصة الجزية ، ولا حاجة بنا أن نقول بعد ذلك كلمة فى إظهار فسادها[1] . ومع ذلك فاننا نرى اليوم من بين الكتب الكبرى من يأخذ بهذه القصة ويراها رواية صحيحة[2] .

---

(١) الظاهر أن تيوفانز يذهب إلى أن تلك الحوادث وقعت فى السنة الخامسة والعشرين من حكم هرقل . وقد ذكر (Von Ranke) نقلا عن (Michael, The Syrian) طبعة (Langlois) المنقولة عن الأرمنيه اثباتا لتلك القصة عن الجزية ولا شك فى أن ميخائيل أخذ عن تيوفانز أو عن المرجع الذى أخذ عنه تيوفانز الى سنة ٧٤٦ على الأقل ولو كان (Von Ranke) نقل بعد ذلك جملة أو جملتين لعرف فساد رواية ميخائيل لأنه يجعل (عمر) يغزو مصر قبل فتح مدينة بيت المقدس أو قبل تسليم البطريق صفرونيوس لها ويمكننا أن نغفر له الخلط بين (عمر) و (عمرو) ولكن المؤرخ الذى يقول إن دفع قيرس الجزية الى العرب كان قبل دخولهم إلى مصر يجب أن يحكم عليه بما يستحق لقوله فى الصفحة عينها إن فتح العرب لمصر كان قبل فتح بيت المقدس .

(٢) أنظر مثلا كتاب الأستاذ Bury (Later Rom. Emp.) الجزء الثانى صفحة ٢٦٩ هامش ٣) .

الفصل الثلاثون
خاتمة

معاملة الاسكندرية — قصة طلما — إعادة الأسرى — شكوى القبط الذين بقوا على ولائهم — وإنصافهم — إقرار عبد الله على مصر وسفر عمرو عنها — إحباط العرب آخر مساعى الروم — ختام هذا التاريخ — المسائل الكبرى التى يمكن البحث فيها — موت بنيامين — موت عمرو وموضع قبره

لقد لقيت الاسكندرية جزاء مدينة مقهورة، وكانت بذلك جديرة، إذ أنها أجرمت بالثورة على العرب واستدعاء الروم لمساعدتها عليهم . ولو نجحوا فيما شرعوا فيه لبرر النجح مسعاهم، ولكنهم خابوا فكان خطؤهم مضاعفا . ذلك بأنهم بخروا فى عهدهم ثم عجزوا فى أمرهم، فلم يفتحوا أرض مصر . ولسنا ندرى أكانوا على حق فى نقضهم العهد، وما كان ذلك ليحق لهم إلا إذا كان العرب قد بدأوا بنقضه . ولقد قيل إن الأمر كان كذلك إذ زاد العرب فى الجزية المفروضة عليهم، ولكن لا برهان على ذلك . وأما الامبراطور فلا نجد له مبررا ولا عنه دفاعا، فقد قبل العهد وجعل عليه خاتمه، وقبل فيه أن يخرج جنده من مصر لغير رجعة، فلا يعيد إليها من بعد ذلك جيشا . ولو زعم أن العرب قد نقضوا عهدهم معه لبرئ من عهده معهم، وأخلى نفسه منه، ولكنه خرق شريعة الحرب إذ جهز أسطولا عظيما خفية واستولى على عاصمة مصر، ولم يقم وزنا لما تعاقد عليه (١) . وعلى ذلك كان العرب على حق فى التشدّد مع الثائرين ، ولم يكن فى وسعهم وقد دخلوا المدينة ووضعوا فيها السيف والنار ، أن يميزوا بين صديق وعدوّ، أو بين قبطى وروى . ولكن الأمر

(١) كان العرب شديدى المحافظة على الشرف فى مثل هذا الأمر فإن جند مصر عند ما حاصر الخليفة عثمان بعد ذلك فى داره ومنع عنه الماء أثار ذلك حفيظة المسلمين . و يقول الطبرى "إن ذلك أمر محرم فى الحصار حتى عند الروم" وهذه عبارة تسترعى النظر على الأقل .

كان على غير ذلك فى القرى . وما انتهت ثورة الاسكندرية وقضى على لهيبها حتى برّ عمرو بقسمه ، وهـدم الأسوار الشرقية حتى سواها بالأرض ، ثم توجه الى من اشترك جهارا فى الثورة من مدن مصر السفلى . والظاهر أن طلما[1] حاكم أخنا أو حاكمها المعزول كان من أوّل من أوقد الثورة ، وكانت أخنا قرية من قرى الساحل بين الاسكندرية ورشيد . وقـد سافر ذلك الرجل إلى القسطنطينية وعاد مع الأسطول الرومانى ، فلما هزم الروم بقى وحده لا ناصر له ، فوقع فى يد المسلمين أسيرا وجىء به الى عمرو . فقيـل لعمرو أن يقتله ، ولكنه لم يكترث به ونظر الى عمله نظرة استهزاء ، إذ أمر به فالبس سوارين وتوجه وكساه برنسا أرجوانيا ، وقال له ساخرا بل انطلق فجئنا بجيش آخر من جيوش الروم ، ولقـد فرح طلما فى آخر الأمر بأن أبيح له أن يبقى فى مصر ، وأن يدفع الجزية[2] . وأما البلاد الأخرى التى ساعدت الروم فى ثورة منويل فكان أكثرها ما قاوم العرب فى الفتح الأوّل ، وهى بلهيب ، وخيس ، وسلطيس ، وقرطسا[3] ، وسخا وقد أخذت من تلك القرى أسارى كما أخذ

(١) أنظر ما سبق فى صفحة ٣٠٢ وليس لدى (Weil) حجـة تثبت ما قاله من أن طلما كان قبطيا بل على عكس ذلك لقـد كان بلا شك عاملا من الروم . ولقد كانت الثورة كلها من الحزب الرومانى أو الملكانى فى مصر ولم يكن للقبط يد فيها ولا ميـل اليها . فذكر القبط أنهم كانوا يودون رجوع الروم فى ذلك الوقت وأنهم وعدوا بأن يساعدوهم بكل ما لهم من قوّة قول فيه قلب عظيم لحقيقة التاريخ .

(٢) يقرن مؤرخو العرب طلب (طلما) الخاص بالجزية بهـذه الحادثة (أنظر ما سبق فى موضعه) وإنه لمن أشق الأشياء أن نقول أى هذه الحوادث المذكورة المتصلة بثورة منويل متصل بالفتح الأوّل للاسكندرية وأيها متصل بالفتح الثانى ، ولكن هناك دليلا قويا على أن العرب كتبوا لطلما عهدا خاصا وهذا لا يمكن أن يكون إلا فى الفتح الأوّل ولا نكاد نشك فى أن العرب أبقوه فى عمله ولكنه خان أمانته بالتحريض على الثورة . وأما فى الحالة الثانية عند ما كان ثائرا أسيرا تحت رحمة عمرو فلم يكن العرب ليعطوه عهدا خاصا . وقد ذكر المقريزى وسواه خبر معاملة عمرو له .

(٣) نجد بعض الصعوبة هنا أيضا فى الوصول إلى الحقيقة فان ياقوت مثلا إذا قال إن عمرا صالح بلهيب فى طريقه الى الاسكندرية على دفع الجزية والخراج (الجزء الأول صفحة ٧٣٣) لا يمكن أن يقصد سوى سير عمرو الأوّل الى الاسكندرية ، ولكنه يقول بعد ذلك إن أهل مصر ساعدوا عمرا فى قتاله لأهل الاسكندرية إلا بلهيب والخيس وسنطيس وقرطسا وسخا ، فانها ساعدت الروم وعلى ذلك لما فتح عمرو الاسكندرية أسر أهل تلك القرى وأرسلهم الى المدينة وسواها ولكن الخليفة عمر ردّهم الى بلادهم وأدخلهم فى العهد الذى =

من الاسكندرية وبعث بهم إلى المدينة . ولكن الخليفة عثمان عند ما نظر فى أمر البلاد التى ثارت هداه حسن رأيه إلى أن يعيد من أسر من أهلها و يعفو عمن اشترك منهم فى الثورة، وأعادهم إلى ذمة المسلمين على شرط الجزية[1] التى حددت من قبل . ومعنى ذلك أنه نزل عن حقه فى جعل الاسكندرية وسواها من المدن الثائرة غنيمة، واتخاذ أهلها عبيدا فى ملك يد الفاتحين . والظاهر أن جماعة من جند عمرو كانوا يرغبون أشدّ الرغبة فى قسمة الاسكندرية والبقاء فيها . ولقد قيل إن عمرا نفسه كان يريد أن يتخذ الاسكندرية مقرّا له ولكن الخليفة لم يرض بذلك كما قد أباها عليه الخليفة الذى قبله . ولم يبق عمرو فى مصر بعد استقرار الأمر إلا شهرا واحدا ثم خرج عنها لعبد الله بن سعد .

= مع أهل مصر عامة — ولا يمكن أن يطلق هذا القول إلا على وقت الثورة — حقا إن اسم عمر ذكر فى ذلك الخبر خطأ فى موضع اسم الخليفة عثمان ولكن هذا الخطأ يسهل تفسيره ومن السهل تصحيحه فى حين أن التناقض عظيم بين قوله إن بلهيب صالحت العرب صلحا خاصا وقوله إن بلهيب بقيت على عداوتها حتى فتحت عنوة ، فذلك قول لا يقبل توفيقا . فالحق فى رأينا أن ذلك الموضع دخل فى عهد الصلح فى مبدأ الأمر ثم اشترك فى ثورة منويل . وكذلك يقال عن الخيس فان ياقوت يذكر (فى الجزء الثانى صفحة ٥٠٧) أن خارجة بن حذافة فتحها وأن أهلها ساعدوا الروم فى قتال عمرو فان القول الأوّل يقصد به الفتح الأوّل . وأما الثانى فتقصد به الثورة . ويروى المقريزى عن مؤرّخين سابقين أن سنطيس ومصيل وبلهيت (بلهيب) ساعدت الروم فى قتال العرب ، ولكن هذا القول لا يفيد القارئ شيئا . على أن لغة السيوطى تزيل كل شك إذ يقول : "كانت قرى من قرى مصر قاتلت ونقضوا فسبوا : منها قرية يقال لها بلهيت ، وقرية يقال لها الخيس ، وقرية يقال لها سلطيس وقرسطا وفرق سباياهم بالمدينة وغيرها فردّهم عمر بن الخطاب (يريد عثمان) رضى الله عنه إلى قراهم وصيرهم ، وجماعة القبط أهل ذمة هى والاسكندرية وقرى أخرى" وهذه الكلمات لا معنى لها إلا إذا قصد وصلها بثورة منويل مع أنه من المؤكد أن مؤرّخى العرب نقلوا ذلك الخبر من الموضع الذى وجدوه فيه وجعلوه خطأ فى خبر فتح الاسكندرية الأول وكل الخبر الذى يذكر أن الاسكندرية فتحت عنوة فى أوّل الأمر ناشئ من مثل هذا الخلط وقد يزول بعض هذا الخلط ويتضح إذا ما جلاه النقد ولكن بعضه معجز لكل مداواة .

(١) نستطيع الآن أن ندرك معنى قول يحيى بن أيوب وخالد بن حامد إذ يقولان إن مصر فتحت صلحا إلا الاسكندرية ومع أن القرى الثلاث التى ذكرت حاربت مع الروم فان عمر (عثمان) أمر أن تدخل هى والاسكندرية مع عامة بلاد مصر . وهذا يشير الى ثورة منويل وليس الى غزوة العرب الأولى لمصر .

ولا يسعنا إغفال قصة ذات دلالة نذكرها هنا، وذلك أن القبط من أهل قرى مصر السفلى جاءوا إلى عمرو بعد فتح الاسكندرية وشكوا إليه ما حل ببلادهم من النهب الشنيع على يد جنـد الروم، وقالوا قد كنا على صلحنا موالين للعرب وما حل لك ما صنعت بنا ، كان لنا أن تقاتل عنا لأنا فى ذمتك وقد أصابنا من وراء ذلك ما أصابنا . وكانوا على حق فى شكواهم هذه، ولكن قلما ترى بين القوّاد المظفرين من يعبأ بمثـل تلك الشكوى . غير أنه قد روى عن عمرو أنه ندم وقال: "ياليتنى كنت لقيت الروم حين خرجوا من الاسكندرية" . وأعظم من هذا فى أمره أنه أمر بتعويض القبط ممـا فقدوه . فكان هذا إقرارا صريحا من عمرو بما عليه من فرض واجب، فألزم نفسه فى صراحة بأن يعوّضهم عمـا لحق بهم ، وإن فى ذلك لدلالة على ما كان عليه عمرو من حسن الرأى فى الحكم وما كان متصفا به من نبيل الشيم .

ولكن هـذه المكارم كانت نقائص فى عين الخليفـة، إذ كان بها مرض من سخطه . وقد علم غناءه فى الحرب فأحب أن يكافئه على ما أدّى من عمل عظيم بأن يجعله قائد جند مصر، على أن يكون عبد الله الظالم حاكمها وعاملا على ولاية خراجها . وما كان مثـل ذلك الرأى ليليق من عمرو غير إباء المزدرى ، وقـد بقى ردّ عمرو على صفحات التاريخ ردّا شديدا لاذعا لمـا رآه من عبث الخليفة به، إذ قال: "أنا إذن كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها" . ولكن الخليفة لم يبق عليه إذ قد فرغ من غرضه منه، وقضى به على ثورة مصر، وكان فى حاجة عند ذلك إلى من يستخرج له الأموال من أهلها . وقد وجد طلبته فى عبد الله (١) فخرج عمرو على ذلك من البلاد .

وهنا يليق بنا أن نختم قصة فتح العرب، فإن القضاء على ثورة منويل واستعادة الإسكندرية جعلاهم أصحاب وادى النيل ، ومكنا للمسلمين فى بلاده . ولقـد أراد

(١) قال ساويرس عنه "كان يحب المـال وجمع كنوزا لنفسه فى مصر وكان أوّل من بنى ديوانا فى مصر وأمر أن تجمع الأموال كلهـا هناك" (نسخة المتحف البريطانى الخطية صفحة ١٠٨ سطر ٢٠) و يقرن بحكمه كذلك قحطا عظيما وهو أشد ما عرف فى مصر منذ أيام كلوديوس .

الامبراطور قسطانز بعد ذلك بتسع سنين أن يعيد الكرة على مصر ، فأعد لذلك أسطولا ثانيا ، ولكن كان قد سبق القضاء بما شاء ، فإن العرب كانوا عند ذلك قد عرفوا شيئا من فن البحر وأعدّوا أسطولا استطاع أن يقف للروم ويحول بينهم وبين ما أرادوا من النزول ببر مصر ، مع أنه كان أقل من أساطيل الروم عددا وأضعف سطوة فى القتال . وأصابت أسطول الروم بعد خيبته فى القتال عاصفة شديدة حتى لم تبق منه إلا حطاما ، بعد ما كان من عظيم شأنه ، وكانت بقاياه لعبة للأمواج تعبث بها وتشتتها . ومنذ ذلك الحين لم يخش المسلمون شيئا اللهم إلا غزوات مفردة ، إذ لبث بحارة الروم ولصوصهم زمنا طويلا يهبطون على مدن الساحل يغيرون عليها ، ولكن غاراتهم كانت عقيمة ترتد خائبة .

وقد يكون مما يطلبه الباحث أن يعرف ما آل إليه حال الناس بعد الفتح ، وما طرأ من التغيير على أحوالهم الاجتماعية وغيرها ، وأن يرى كيف أسرع الانحلال إلى الحضارة الرومانية الإغريقية التى كانت بالبلاد وحلت محلها حضارة جديدة عربية تسير بخطى وئيدة ، وأن يتبين ما بقى ثابتا من أحوال القدماء ومن آرائهم ، لم تغيره السنون ولم تزعزعه الغير . وإن دوننا لميادين للبحث والوصف ، فدوننا وصف علوم القدماء ، فنبين كيف حاولت أن تبقى فى مكانها فى مدينة الإسكندرية بعد الفتح ، ثم كيف أنها زالت شيئا فشيئا حتى لم تبق منها إلا بقية طريدة فى أديرة الصحراء وصوامعها ، وظلت هناك ضعيفة ذابلة حتى ذبلت لغة القبط ذاتها وانمحت . ثم دوننا أن نبين كيف ذاعت لغة العرب وفشت فى البلاد ، فبدأت منقوشة على النقود فى أواخر القرن السابع ، ثم اتخذت فى الدواوين وكتابة الحكام[1] ، ثم زاحمت لغة القبط وطردت لغة اليونان من ميدان التخاطب والتعامل إلا كلمات قليلة بقيت وقد صبغت بلون عربى ، أو عبارات وألفاظ لا تزال دفينة فى كتب

(١) يظهر أن السيوطى يقصد أن النقود العربية أول ما ضربت فى سنة ٧٥ هجرية وأن أول كتابة الدواوين باللغة العربية كان فى سنة ٨٦ ، ٩٠ للهجرة (حسن المحاضرة الجزء الثانى صفحة ٢٢٦ وصفحة ٨) .

القبط . وكذلك علينا أن نبين كيف اضمحلت تلك المدن العظيمة التى كانت فى آخر عهد الرومان مزدهرة، فإن الإسكندرية وإن كانت أعظم مدائن الشرق إن لم تكن أعظم مدائن العالم، لم تكن سوى واحدة من مدائن كثيرة يلى بعضها البعض فيما بين بحر الروم وأسوان[1] . ولو وصفنا هـذا لرأينا كيف كانت المعـابد العظيمة والقصور الجليلة تتهدّم وتتخرّب بغـير أن يصلح من أمرها أحد ، وكيف كان المرمر الثمين ينزع من مواضعه لكى تبنى به الأبنية أو لكى يصنع منه الجير، وكيف كانت تماثيل البرنز تصهر لكى تتخذ منها النقود أو لتصنع منها الآنية، وكيف بقيت مع كل هذا التخريب المحزن والاضمحلال البالغ بقية من آثار ورسـوم فى الصناعة حرص عليها صـناع القبط . ومنها نشأ مذهب جديد فى الفن والبناء بعـد أن مزجها العرب بروحهم وأدخلوا عليها مما ساغ فى ذوقهم ، وصار من ذلك كله مذهب فى الزخرفة خال من كل صورة للانسان ، ومع ذلك فقد أبدعت فيه الصنعة آيات تمتاز بالجمال والجلال وحسن الرونق ، كما تمتاز بأنها بدعة فى الفن لم يسـبق إليها المـاضون . وقد سبق كثير من البحث الذى يدل على سبيل نشأة فن العرب من الفن البيزنطى[2]، ولا نرى أن مثل هذا البحث داخل فيما نحن فيه من القول فى كتابنا هذا .

وفوق هذا لا يزال دوننا ميدان القول فى القبط ومذهبهم ، فقد سبق لنا القول فى البواعث القوية التى كانت تحـدو بالقبط إلى أن يمتزجوا بالاسلام كل الامتزاج فى معيشتهم وفى دينهم . فان التاريخ لم يذكر فى حوادثه أمرا أعجب من أن القبط انقسموا قسمين : قسم منهم امتزج كل الإمتزاج بالاسلام، والقسم الآخر بقى صلبا

(١) فمثلا بنيت (أنصنا) بناء فخما وكان تخطيطها على صورة مسـتطيل يقسمه شارع عظيم تقطعه ثلاثة طرق كبرى وكانت تلك الطرق ذات عمد كما كانت طرق الاسكندرية وكانت تزين مواضع تقاطعها التماثيل وكان عند مرفأ النيل قوس من أقواس النصر له أبواب ثلاثة وكان قائما على أعمدة على الشكل الكورنثى وعلى كلا جانبيه تمـاثيل فرسـان وكان خارج المدينة حمامات وميدان للسـباق ومدرسة (أنظر كتاب "The Emperor Hadrian" (Gregorovius) صفحة ٣٥٧) .

(٢) أنظر كتاب الأستاذ (Lane Poole) "Art of the Saracens in Eg." وكتاب المستر Gayet "L'Art Copte" .

يأبى كل الأباء أن يترك ما كان عليه أباؤه من الدين والعادات، وقد بقى على دينه لم تفتنه أشد المظالم ولم يزعزعه أشنع الاضطهاد . فكان أحدهم إذا ابتلى صبر على بلائه، وفى صدره من حرارة إيمانه ماينبت فؤاده، ولم يفتنهم أنهم عاشواوهم كل يوم يحسون مرارة الذلة ومضض الهوان، فلم تخضع نفوسهم ولم تلن . ولقد كان بقاء المسيحية بغير شك راجعا إلى الأديرةوأثرها، وكانت الأديرة آمنة لبعدها فى الصحراء أوشعاب الجبال، غير أنه قلما نجد فى تاريخ مصر ما ترتاح إليه النفس ارتياحا أعظم مما نحسه إذا قرأنا أخبار ما كان بين بعض الخلفاء وبين بعض الديرانيين من القبط، وما كان يجده الخلفاء من اللذة فى زيارة أديرتهم البديعة والتمتع بمحاسنها(١) . ولكن هذه الأخبار لا ترد إلا عن العصور المتأخرة فليست مما نتناوله هنا .

ولعل قائلا يقول إنه لا يجمل بنا أن نغفل ذكر فاتح مصر وما آل إليه أمره، وليس فى ذلك مشقة ولا عناء، فانا إذا خرجنا من عصر الفتح وولجنا عصر الحكم العربى وقد استقر الأمر واطمأنت الأحوال، خرجنا من ظلمة الخلاف والتناقض إلى نور اليقين والاجماع فى التاريخ . ولكن القارئ لا بدقد أحاط علما بأخبار عمرو فى وقت النزاع بين أحزاب الاسلام بعد عزله عن مصر، وما كان منه فى وقت مقتل عثمان، وما ثار بعد ذلك من النضال بين على ومعاوية، ثم سيره إلى مصر وانتصاره فيها وعودته إلى حكمها، فان أخبار كل ذلك تحويها تواريخ الخلافة، وقد مر عليها زمن كبير وهى فى متناول القرّاء .

وقد دخل عمرو الى مصر لولايته الثانية فى شهر ربيع الأوّل من عام ٣٨ للهجرة، (ويوافق ذلك شهرى أغسطس وسبتمبر من عام ٦٥٨ للميلاد) ولم يمض عليه زمن طويل حتى ذللها وأقرّ الأمور فيها، ثم جازى جنوده وأقبل على خيراتها وأموالها فنال

---

(١) أنظر مثلا كتاب أبى صالح صفحة ١٤٩ — ١٥٠ و ٢١٢ — ٢١٣ وتجد صورة فيها شىء من الغرابة لما بقى بين القبط والعرب من علاقات الود فى نسخة خطية فهرسها (Zoega)(Cat. Codd. Copt p. 89) وقد ذكر فيها قبطى من أهل إقليم طيبة واسمه الشماس حنا بن مرقص "وكان يعيش مع الإسماعيليين والعيلاميين إذ كان تاجرا فى سلع ملابس النساء أو الزينة" وهذا كان بعيد الفتح فى مدّة خلافة عثمان .

منها ما شاء، إذ جعلها معاوية طعمة له . ولقـد خرج من مصر حينا قصيرا لأمر التحكيم العجيب بين المتنافسين على الخلافة وهما على ومعاوية، ثم عاد إليها ونجا نجاة عجيبة من القتل غيلة، وكان جماعة قـد اتفقوا على قتل أكبر زعماء الاسلام الثلاثة وهم: على ومعاوية وعمرو، وأخذ أحدهم واسمه يزيد على نفسه أن يذهب لقتل عمرو وهو يؤم المصلين فى يوم الجمعة فى المسجد، حتى إذا كان اليوم الذى عزم القـاتل فيه على إنفاذ أمره عرضت علة لعمرو منعته من الخروج للصلاة، فصلى بدله القائد المعروف خارجة بن حذافة ولم يفطن القاتل إلى ذلك التغيير فشدّ على خارجة فضربه بخنجره حتى قتـله، ولما جىء بيزيد إلى عمرو قال له فى شجاعة "أما والله ما أردت غيرك" فقال له عمرو "ولكن الله أراد خارجة" .

وفى اليوم الثـالث من شهر يناير من عام ٦٦٢ مات البطريق بنيامين بعـد أن قضى زمنا طويلا فى اعتلال وضعف . وقد لبث بطريقا للاسكندرية مدة تسـع وثلاثين سنة كثرت فى خلالها العواصف وتتالت فيها الحوادث العظيمة، من أمم تتحـرك، وشعوب تتناضـل على سيادة بلاد الشرق، وديانة تقاتل أخرى لتفوز بالسلطان على النفوس. وقد بدأت ولاية بنيامين فى مدّة حكم الروم، ثم رأى الفرس فى أيام كسرى يملكون مصر ويبسطون سلطانهم على معظم بلاد القياصرة، ثم رأى هرقل فى وثبته الجليلة وقد كافح وناضـل حتى انتصر فاضطر الفرس إلى استدعاء جنودهم من وادى النيل، وعادت اليه جيوش الروم، فجاء معها قيرس الذى سلط على الناس عذابه وعسفه، فهرب منه بنيامين ولاذ بالصحراء، فبقى بها ثلاثة عشر عاما حتى ذهب أمر الروم وانقضت مدّة سلطانهـم انقضاء لا عودة له فى مصر . وقد رأى فوق كل هذا دولة جديدة ودينا جديدا، يخرجان من فيافى بلاد العرب فيقهران المجوس والمسيحيين جميعا، ويبسطان سلطانهم على الشام وفارس ومصر، ثم مات بعد كل ما شهده من الغير والحروب وقد ترك كنيسته فى أمن لا بأس به، تحت ظل المسلمين الفاتحين وقائدهم العظيم عمرو بن العاص .

وقد عاش عمرو بعده تمام سنتين أو نحو ذلك، وكان البربر من أهل بنطابولس لا يزالون يعكرون صفاءه . وقد أرسل إليهم أكثر من بعث واحد فيما بين عامى ٦٦١ و٦٦٣، ولما عاد قواده فى آخر سنة ٦٦٣ وقد تم لهم النصر عليهم ألفوا عمرو بن العاص فى الفسطاط فى مرضه الأخير . وقد روى أن ابن العباس[(١)] دخل عليه وهو فى فراش موته فقال "لقد كنت تقول أشتهى أن أرى رجلا عاقلا يموت حتى أسأله كيف يجد فكيف تجدك ؟" فقال له عمرو "أجد السماء كأنها مطبقة على الأرض وأنا بينهما كأنما أتنفس من خرت إبرة" . ولما دخل عليه ابنه عبد الله أشار إلى صندوق وقال "هذا لك" فقال له عبد الله "لا حاجة لى به" فقال عمرو "خذه فان فيه مالا" ولكن عبد الله أبى أن يأخذه[(٢)]، وكانت آخر كلمات قالها عمرو هى "اللهم أمرتنا فعصينا ونهيتنا فما انتهينا . اللهم لا برئ فاعتذر ولا قوى فانتصر" . ومات فى يوم الفطر من عام ٤٣ للهجرة وذلك يوافق السادس من شهر يناير من سنة ٦٦٤ للميلاد ، وكان عمره فوق السبعين[(٣)]، فحمله ابنه عبد الله الى المسجد وصلى عليه، ثم صلى عليه كل من حضر الصلاة من الناس .

ودفن عمرو فى سفح المقطم "بقرب مدخل الشعب" ولكن موضع قبره قد نسى وأغفل . ولقد مرت قرون على ذلك الجبل والناس يحفرونه ويقتلعون

(١) لم يذكر المؤلف اسم الكتاب الذى أخذ عنه هذه الرواية وقد وجدناها فى كتاب الكامل للبرد الجزء الأول صفحة ١٥٦ (المعرب) .

(٢) يقول مؤرخو المسلمين أن رفض عبد الله كان لأنه خشى أن تكون ثروة عمرو قد جمعها من غير وجوه الحلال وهذا اتهام شنيع للأب والابن كليهما وليس ثمت من دليل على أن عمرا جمع المال من طرق خبيثة أو أن ابنه كان يرى مثل ذلك الرأى ولا شك أن الابن قد ملكه الحزن الطبيعى عند احتضار أبيه فكان ماله آخر ما يفكر فيه .

(٣) لا نرى رأى المؤلف فى هذا فان عبد الله بن عمرو كان ممن يتحرجون للشبهة وقد جمع عمرو ثروة عظيمة فيها شبهة من حقوق الناس وليس من البعيد أن يكون عبد الله قد أبى أخذها لذلك المعنى (المعرب) .

(٣) أنظر الذيل الخامس للكتاب "عن سن عمرو" .

منه الحجارة حتى لقد انمحى أثر "الشعب" الذى كان هناك من زمن طويل، وبذلك لم تبق علامة تدل على قبره ، وأصبح اليوم لا تذكره الأخبار . ولقد بنى عمرو مدينة الفسطاط ثم علا شأنها حتى صارت مدينة جليلة، ثم عصف بها الدهر فهى الآن لا أثر لها، وقد سوّيت بالأرض، ولم يبق منها شىء سوى المسجد الذى يحمل اسم عمرو ولا يزال قائما فى الموضع الذى كان فيه بناؤه الأوّل، وهذا كل ما بقى منه، وإلى جانبه "دير أبى سيفين" و"قصر الشمع" وفيهما كنائس لا تزال قائمة يرجع وضع أساسها وإن لم يكن بناؤها إلى زمن الدولة الرومانية . وأما أسوار حصن بابليون فقد كانت لا تزال قائمة منذ عشرين عاما، وكاد بناؤها عند ذلك يكون سليما تاما ، ولكن لم تبق منها اليوم إلا قطع فى بعض المواضع، ولعله من الممكن أن يكشف عن أساسها إلى عمق عظيم فتوجد كاملة تحيط بالحصن، كما قد كشف باب من أبواب الحصن من قبل عند حفر ما حوله . ولكن الانسان إذا بحث فى السهل حتى بلغ جانب الجبل لم يستطع أن يجد حجرا يدله على قبر عمرو ، فإن المسلمين لم يحتفظوا بأثر من فاتح مصر، ولم يبقوا فى قلوبهم ذكرى مقرّه الذى دفن فيه .

تم بحمـــد الله تعـالى

والصـــلاة والســـلام على نبيـــه المصطفى

الملحـــق الأوّل

عن الأثر الذى اسمه الصليب المقدّس

قصة وجود الصليب فى مايو سنة ٣٢٨ قصة معروفة حق المعرفة، ومن المحقق أن الخشب الذى وجدته الامبراطورة (هيلانة) بقى مدّة قرون . وقد ذكر سقراط (راجع Eccl. Hist lib I. XVII) أن هيلانة وضعت قطعة منه فى صندوق من فضة وجعلته فى بيت المقدس وأرسلت القطعة الأخرى إلى الامبراطور . والدليل تام غير منقطع على تاريخ ذلك الصليب فيما بعد ذلك من الأيام .

فلنبدأ بما كان فى القرن الرابع فانا نجـد فى الرسالة المكتوبة عن (كنائس قسطنطين فى بيت المقـدس) فى الجزء الأول مما نشرته جمعيـة (Palestine Pilgrims Text Society) صفحة (٢٣ — ٥) اقتباسا من كتاب الصلوات يبين أن فى كنيسة قسطنطين مذبحا من الفضة والذهب قائما على تسعة أعمدة وأن الصليب كان مزينـا بالذهب والجواهر . ويذكر تيودوسيوس (De Terra Sancta) "المخدع الذى فيه صليب السيد المسيح والصليب نفسه مزين بالذهب والجواهر ومن فوقه السماء وحوله قضبان متقاطعة من الذهب" . وكذلك تذكر (القديسة سلفيا الأكيتانية) (حوالى سـنة ٣٨٥ للميلاد) استعمال البخور فى كنيسـة القيامة فى عرض قولها وهى تذكر الاحتفال بيوم (الجمعة الطيبة) وقد شهدته فقالت "ثم أحضر صـندوق مغطى بالفضة وفيـه الخشب المقـدّس خشب الصليب ثم فتح وأخرج ما فيه ووضع خشب الصليب بما عليه من النقوش فوق منضدة" ثم أقبل الناس فقبلوه (نفس الكتاب صفحة ٦٣) .

وقد زار (أنطونيوس الشهيد) الأماكن المقدّسة حوالى سنة ٥٦٥ للميلاد، ورأى هناك ذلك الأثر لا يزال باقيا فى مدخل كنيسة قسطنطين وكان محفوظا هناك فى مخدع

أو مشهد وهو لا يذكر شيئا عن الصندوق بل يذكر الاسفنجة والقصبة وقد قيل إن نيقتاس أنجى تلك القصبة فى القرن السابع .

وقد رأينا أن الصليب قد أخذه الفرس فى سنة ٦١٥ عند ما فتحوا بيت المقدس و بعثوا به إلى كسرى مع سائر الغنائم ثم أعاده هرقل فى سنة ٦٢٨ فأتى به الى القسطنطينية فى ذلك الشتاء ثم أعاده الى موضعه فى كنيسة قسطنطين باحتفال عظيم سنة ٦٢٩ ثم أرسل الى القسطنطينية بعد ذلك ببضع سنين حوالى سنة ٦٣٦ لكى يحفظه من الوقوع فى يد الفاتحين المسلمين .

وقد رآه فى قسطنطينية نحو سنة ٦٧٠ الحاج (أركولفوس) وكان قد زار بيت المقدس ورأى الكنائس الكبرى كما كانت بعد أن أعاد بناءها مودستوس وهذا دليل هام لأنه يدل على مقدار تسامح المسلمين فى معاملة الكنائس المسيحية نحو آخر القرن السابع . ولكن (أركولفوس) يذكر أن الصليب كان محفوظا فى كنيسة أياصوفيا فى صندوق من الخشب محفوظ فى مخدع أو مشهد فسيح فى منتهى الجمال . وكان ذلك الأثر يوضع فوق مذبح من الذهب فى ثلاثة أيام فى العام وهى يوم خميس العهد والجمعة الطيبة والليلة التى تسبق يوم عيد الفصح ، ففى اليوم الأول كان الامبراطور وجيشه يدخلون فيقبلون الصليب يتقدمهم الامبراطور ثم أكابر رجال الجيش حسب درجاتهم ، وفى اليوم التالى كانت الملكة تدخل مع وصيفاتها وسائر نساء الأعيان ليقبلنه ، وفى اليوم الثالث كان البطريق و رجال الدين يدخلون ليفعلوا مثل هذا مع تقديم الأكابر ثم كان الأثر يوضع بعد ذلك فى صندوق و يعاد الى مشهده (أنظر الكتاب المذكور الجزء الثانى صفحة ٥٥ — ٦) .

وقد ذكر پورفيروجنيتوس مثل هذا الخبر عن الصليب فى القرن العاشر على أنه يظهر أن الصندوق الذى كان موضوعا فيه كان عند ذلك فى موضع آخر من الكنيسة . ويحيط شىء من الظلام بما آل إليه أمر الصليب فى النهاية وما آل إليه أمر سائر الآثار التى كانت محفوظة فى كنيسة أياصوفيا . وقد أفاض فى وصف هذا الأمر المستر (ليتابى) والمستر (سو ينسن) فى كتاب ممتع وهو (St Sophia, Constantinople) صفحة ٩٢ و ٩٣ و ٩٧ وما بعدها الخ .

الملحـــق الثـانى

فى تواريخ الفتـــح الفـارسى

مما يشك فيه أن نستطيع اليوم أن نعرف على سبيل البت تاريخ الحوادث المتصلة بالفتح الفارسى لمصر فقـد ذهب بعض المؤرخين المحدثين الى أن ذلك الحادث كان بعد سنة ٦١٦ للميلاد . ويقول (جلزر) ، وقد كتب رسالة غزيرة العلم عن هذا الأمر ("Leontius Von Neopolis" صفحة ١٥١) إن الاسكندرية لايمكن أن يكون فتح الفرس لها قبل سنة ٦١٩ وهو يخالف فى ذلك رأى (فون جوتشمت) الذى يذهب الى أن ذلك الحادث كان قبل ذلك بسنة أو سنتين .

والحجـج التى يوردها (جلزر) هى كما يلى : أن تيوفانز يجعـل الفتح الفارسى فى سنة ٦١٦ ، ويقول ابن العبرى إنه كان فى السنة السابعة من حكم هرقل آخذا ذلك عن البطريق ميخائيل إذ يقول (طبعة بيت المقدس صفحة ٢٩٣) إن شاهـ ورزغزا مصر فى الســنة السابعة من حكم هرقل ويذهب ايزيدور (Roncalli, Chron. Min. الجزء الثانى ٤٦١) إلى أن الفتح كان فى سنة ٦١٦ ، ويقول الطبرى إن مفاتيح الاسكندرية أرسلت إلى كسرى فى السنة الثـامنة والعشرين من حكمه أى سنة ٦١٧ — سنة ٦١٨ "وهو فى ذلك يثبت التاريخ الذى سبق أن روى عن ميخائيل" .

ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أن الســنة السابعة من حكم هرقل هى من أكتوبر سنة ٦١٦ إلى أكتوبر سنة ٦١٧ فى حين أن السنة الثامنة والعشرين من حكم كسرى تقع من منتصف سنة ٦١٧ الى منتصف سنة ٦١٨ ، ولا يقع أى جزء منها فى سنة ٦١٦ ؛ وعلى ذلك فليس الاتفاق واضحا بين خبر الطبرى وخبر ميخائيل وفوق ذلك أن ابن العبرى (أو أبا الفرج) يذكر بوضوح فى موضع آخر "His. Dyn." (طبعة بوكوك)

صفحة ٩٩ أن فتح الفرس لبيت المقدس كان فى السنة الخامسة من حكم هرقل وهو فى ذلك يناقض نفسه كما فعل فى مواضع كثيرة .

ويقول (جلزر) فوق ذلك إن (فون جوتشمت) قد بين بيانا دقيقا ("Kleine Schriften" الجزء الثالث صفحة ٤٧٣ وما بعدها) أن غزوة الفرس لا يمكن أن تكون وقعت قبل سنة ٦١٧ لأن "المراجع السورية تدل على أن زيارة أثناسيوس الأنطاكى للبطريق انستاسيوس المونوفيسى بالاسكندرية كانت فى سنة ٦١٦" فى حين أن المعروف أن البطريق الذى كان على ولاية الدين عند ما فتح الفرس الاسكندرية كان أندرونيكوس . وفوق ذلك لقد كان (نيقتاس) هو المساعد على توحيد الكنيستين وصاحب الفكرة فى هذا كما يقول ابن العبرى وقد هرب نيقتاس مع حنا الرحوم عند مقدم الفرس . ويذهب (فون جوتشمت) إلى أن وفاة أنستاسيوس كانت فى ١٨ ديسمبر سنة ٦١٦، وقد أقام خلفه أندرونيكوس (كما أسلفنا فى متن كتابنا هذا) فى المدينة واستطاع ذلك ويقول (جلزر) إن هذا يدل دلالة واضحة على أن الاسكندرية كانت على الأقل فى أول ولاية أندرونيكوس للبطرقة (آخر سنة ٦١٦) لا تزال تحت حكم الروم . وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون فتح الفرس قبل صيف سنة ٦١٧، كما يذهب اليه (فون جوتشمت) .

وإنا نرى على وجه الإجمال أن تواريخ (فون جوتشمت) صحيحة على أنها لا تخلو من الصعوبة . وأول اعتراض هو أنه ليس من الثابت أن السنة التى يوردها المؤرخون السوريون تتفق مع سنة ٦١٦ وذلك لأن هؤلاء المؤرخين ولو أنهم يتبعون التقويم اليونانى أو (السلوخى) فى تاريخهم يختلفون عنه عادة فى حسابهم بسنة إذ يجعلون بدأه من سنة ٣١١ قبل الميلاد بدلا من سنة ٣١٢ (راجع Trèsor de Chronologie المجموعة ٣٦) . وعلى ذلك فمن المحتمل أن يكون الدليل المستند إلى الكتاب السوريين أميل إلى سنة ٦١٥ لا إلى سنة ٦١٦ ، وفى هذه الحالة يتفق ذلك التاريخ مع ما جاء فى (الديوان الشرقى) إذ يذهب إلى أن زيارة أثناسيوس لمصر كانت فى السنة

التي فتح الفرس فيها بيت المقدس عنوة. وفوق ذلك يقول الكاتب المصري ساويرس الأشمونيني إن وفاة البطريق المصري أنستاسيوس في ٢٢ كيهك (١٨ ديسمبر) من سنة ٣٣٠ للشهداء، وقد أخطأ (رينودو) إذ ذهب إلى أن ذلك يوافق سنة ٦١٤ لأن كيهك يقع في سنة ٦١٣ وهذه الأخبار لا يمكن التوفيق بينها ولكن لا يمكن على الأقل أن نجعل فتح بيت المقدس في سنة ٦١٣

على أنه يجدر بنا أن نذكر أدلة سوى هؤلاء من المؤرخين السوريين إذ من المعلوم أنه توجد نسخ مخطوطة سورية من الإنجيل تاريخها في القرن السابع وقد كتبت في دير الهانطون بقرب الإسكندرية كتبها توما الهركلي وبولص التلوى، وأمر بكتابتها البطريق اثناسيوس نفسه وهو في زيارته لمصر. وكانت هذه المخطوطات جزءا من مراجعة شاملة للنص السورياني على النص اليوناني نص (Philoxenus) فتاريخ هذه المخطوطات ذو أهمية عظمى.

"ومن المعلوم أن توما الهركلي أتم ترجمته لنص العهد الجديد إلى السوريانية في سنة ٩٢٧ من التاريخ اليوناني[1]" وسنة ٩٢٧ هذه إن لم تكن موافقة لسنة ٩٢٦ المعتادة كانت من ابتداء أكتوبر سنة ٦١٥ إلى أكتوبر ٦١٦؛ وتوجد أيضا نسخة مخطوطة أخرى (سوريانية ذات ست روايات) في المتحف البريطاني (Add. Mss. 144, 376) وقد كتب فيها أنها تمت في السنة عينها سنة ٦١٥ — ٦١٦ والنسخة الخطية للكتاب الثالث للملوك مؤرخ في شباط سنة ٩٢٧ وذلك يوافق فبراير سنة ٦١٦، ونسخة الكتاب الرابع للملوك كتب بها ما يدل على أن بولص وأثناسيوس كانا يقيمان في الاسكندرية في سنة ٩٢٨ وهي تقع بين أكتوبر سنة ٦١٦ وأكتوبر سنة ٦١٧ وهذا يحدد وقت زيارة البطريق السوري في خريف سنة ٦١٦؛ وقد ذكر في نسخة أخرى خطية من النسخ السريانية ذات الروايات الست وجدت في ميلان أن تاريخ تمامها كان في سنة ٩٢٨ وذلك في سنة ٦١٦ — ٦١٧،

(١) أنظر "Dict. Christ. Biog." ترجمه توماس الهركلي وبولص التلوى.

ففى كل هذه النسخ الخطية ذكر دراسة علمية تجرى فى سلام فى دير الهانطون مدّة سنتين بين سنة ٦١٥ و ٦١٧ ، وهذا يحدّد عرضا وقت زيارة البطريق السورى ويجعلها فى أكتوبر سنة ٦١٦ لأن مضيفة البطريق القبطى توفى فى ديسمبر من ذلك العام . وقد كان حساب تلك التواريخ على حسب ما اعتاده الناس من التاريخ بالحساب اليونانى على أننا إذا ذهبنا إلى أن حساب تلك التواريخ كان على حسب التاريخ السورى الخاص كان لزاما علينا أن نجعل وقت تلك الزيارة فى سنة ٦١٥ — ٦١٦ وأن نجعل العمل من سنة ٦١٤ الى سنة ٦١٦ ، فاذا ذهبنا هذا المذهب وقع الاتفاق بين قولنا وبين قول ابن العبرى إذ يقول فى كتابه (تاريخ الكنائس — صفحة ٢٦٧ — ٩) " إن أثناسيوس ذهب إلى الاسكندرية وكان بطريقها أنستاسيوس وعقد معه وفاقا واتحادا ووقع هذا الاتحاد بين كنيستنا السورية وكنيسة مصر فى سنة ٩٢٧ من التاريخ اليونانى " (وهى من أكتوبر سنة ٦١٥ إلى أكتوبر سنة ٦١٦) إذ أن ابن العبرى لا يتبع الطريقة السورية التى تخالف التاريخ المعتاد . ولا يمكن التوفيق بين وجوه هذا الخلاف إلا إذا سرنا على طريقة أخرى فى حساب التاريخ ولما كان سريان بابل خاصة هم الذين قدّموا حسابهم على التاريخ اليونانى بسنة لم يكن بعيدا أن يكون توما الهركلى وبولص التلوى قد سارا على تلك الطريقة وإذن يقع الاتفاق بين الديوان الشرقى وبين النسخ الخطية من الانجيل وأبى الفرج وكل هؤلاء يجعلون تاريخ توحيد الكنيستين فى أكتوبر سنة ٦١٥ ويلوح لنا أن هذا حل عادل قريب إلى الأذهان .

ونرى أنه لايزال من الضرورى أن نجعل وفاة البطريق القبطى فى ١٨ ديسمبر سنة ٦١٦ وليس فى سنة ٦١٥ وذلك لأننا لا نجد طريقة أخرى نجعل بها ولاية خليفته أندرونيكوس توافق التواريخ المعروفة فى مدّتها وفى تاريخ انتهائها فإن مدتها معروفة بأنها كانت بضعة أيام وست سنوات آخرها ٨ طوبه (٣ يناير) . فإذا قلنا إن يوم ٣ يناير من سنة ما هو تاريخ وفاة أندرونيكوس وبدء ولاية بنيامين لم نجد

سنة فيها كل الشروط المطلوبة إلا سنة ٦٢٣ ، فمن جهة لا شك فى أن أندرونيكوس شهد بدء غزوة الفرس ، ونرى أنها كانت فى أواخر سنة ٦١٦ ؛ ومن جهة أخرى لاشك فى أن هذا البطريق كان حيا فى أوّل أمر الاسلام ، فإن الديوان الشرقى يجعل مدّة ولاية أندرونيكوس بين سنة ٦١١ — ٦١٧ ، ولكنه يذكر بعد ذلك "أن فى مدّته علا أمر المسلمين" وذلك فى يوليه سنة ٦٢٢ ، ويوافق على هذا مكين إذ يجعل اختيار بنيامين فى السنة الأولى للهجرة سنة ٦٢٢ — ٦٢٣ وشهادة أبى صالح كذلك واضحة صريحة فإنه يذكر أن أندرونيكوس كان بطريقا "فى أوّل ظهور المسلمين فى السنة الثانية عشرة من حكم هرقل" (طبعة Butler, Evetts صفحة ٢٣١) وهذا التواتر فى الأدلة على أن تاريخ ولاية بنيامين كان فى شهر يناير سنة ٦٢٣ برهان قوى لا يكاد شيء يقف له . وأما (Le Quien) فإنه يتبع تاريخ ساويرس إذ يقول إن ولاية أندرونيكوس كانت من سنة ٦١٩ — ٦٢٢

فإن تم لنا إثبات أن وفاة أندرونيكوس كانت حوالى ٣ يناير سنة ٦٢٣ وأن مدّة ولايته كانت ست سنوات تزيد قليلا أوّلها ١٨ ديسمبر ، ويخيل إلينا أننا قد أثبتنا ذلك ، كان أوّل ولايته فى سنة ٦١٦ ، وكانت وفاة أنستاسيوس فى ١٨ ديسمبر سنة ٦١٦ ، وهذا التاريخ يوافق ما أثبته (فون جوتشمت) (راجع Kleine Schriften. ii صفحة ٤٧١ — ٤) .

ولقد ساقنا هذا الكلام إلى الاستطراد والبعد عما كنا فيه من ذكر النسخ المخطوطة من الانجيل التى كتبت فى دير الهانطون ولكن من الضرورى أن نعود إلى ذكرها حينا .

فهذه النسخ المخطوطة تدل على : (١) أن توما الهركلى كان يعمل فى الترجمة مدّة سنتين على الأقل قبل زيارة البطريق السورى . (٢) أن الزيارة نفسها يغلب أن تكون وقعت فى أكتوبر سنة ٦١٥ (٣) أن بولص التلوى بقى يعمل مدّة ثلاثة أشهر على الأقل بعد الزيارة أى إلى يناير سنة ٦١٦

وهنا تقوم صعوبة إذ ذكر عرضا أن أثناسيوس ذهب مع خمسة من الأساقفة السوريين، فى حين أن سياق قول ابن العبرى يدل دلالة قاطعة على أن توما الهركلى طرد من أسقفيته فى (مابوج) وهرب الى مصر لاجئا . ولا موضع للشك فى أن توما وبولص كانا فى مصر وقت تلك الزيارة ولا فى أن ثلاثة أساقفة آخرين إما جاءوا مع أثناسيوس، وإما طردوا ولجأوا إلى مصر هاربين من فتح الفرس لفلسطين . ولدينا عبارة صريحة ذكرها حنا مسكوس وهى أن أساقفة كثيرين هربوا إلى مصر لاجئين ، ولكن الأقرب إلى الاحتمال أن هؤلاء العلماء السوريين بمقامهم فى الاسكندرية واتصالهم الناشئ من ذلك بالبطريق القبطى قبل زيارة بطريق أنطاكية، قد مهدوا السبيل إلى الاتحاد الرسمى الذى تم سريعا بعد اجتماع البطريقين .

وبعد فقد بقى جزء واحد من الدليل الذى يمكن أن نستخلصه من هذه النسخ المخطوطة وذلك أنه من أكبر الأمور دلالة أن كل الكتب الأخرى من الانجيل التى تنسب إلى بولص التلوى ليس بينها كتاب واحد يذكر فيه تاريخ . وآخر تاريخ هو كما بينا أوّل سنة ٦١٦، ويلوح لنا أنه ليس من المقبول عقلا أن يقال إن العمل مع ذلك قد تم فى الدير نفسه دير الانطونيين (Antonians)[(١)] فى الظروف نفسها ، وأن نجعل غزوة الفرس على ذلك فيما بعد سنة ٦١٦، بل إن الأمر على عكس هذا فان هؤلاء العلماء السوريين الذين رأوا أو سمعوا بما أحدثه الفرس من التخريب العظيم ببلادهم كان لا بد لهم أن ينزعجوا عند أوّل نبأ يصلهم عن مقدم الفرس إلى مصر، وإنه لمن أقرب الأمور أن يكونوا قد هربوا فى البحر فى صيف سنة ٦١٦ ومعهم رهبان دير الهانطون بما معهم من ثمين المتاع ، ومن ذلك النسخ المخطوطة اليونانية للكتاب المقدّس . ولكنا بغير أن نأخذ بهذا الرأى نرى دوننا رأيا آخر محتملا فى تفسير ما كان، وهو يتفق مع استمرار العمل فى مصر . ويدفعنا ذكر ذلك إلى

(١) عجيب أن يسمى دير الأنطونيين "Antonines" فى قاموس (Dict. Christ. Biog) والمقصود طبعا أن رهبانه كانوا يسيرون على مذهب مار أنطونيوس .

القول فى أمر أهمل إهمالا عجيبا، ويجمل بنا على ذلك أن نؤكده بعض التأكيد، فان من عادة الكتّاب الذين كتبوا عن هـذا العصر أنهم دائما يذكرون فتح الفرس كأنه حادث واحد يجعلون له تاريخ سـنة واحدة . ومعنى هذا أنهم "يعجزون عن أن يميزوا بين غزو مصر وبين فتح الاسكندرية" . وهذان الحادثان لا بد كان بينهما سنة على الأقل . ومما لا شك فيـه أن الكتّاب القدماء كانوا أحيانا يذكرون لفتح الفرس تاريخ أحد الحادثين وأحيانا يذكرون له تاريخ الحادث الآخر . وهذه الحقيقة تفسر كثيرا مما يسود ذلك الأمر من الخلط والاختلاف .

ويمكننا أن نقول إنه قد صار من المدلل عليه أن الفرس لم يكونوا قد ساروا إلى مصر فى أوّل سـنة ٦١٦ ، ولئن قلنا إنهم كانوا يستطيعون أن يدخلوا فى حرب جديدة عقب فتح بيت المقدس فانه ليس من المحتمل أن يقدموا على عبور الصحراء فى فصل الصيف . فيمكن على ذلك أن نذهب الى أن سيرهم الى مصر بدأ فى خريف سنة ٦١٦ ، وأن جيشهم فتح الفرما ونهب الأديرة فيها قبل آخر تلك السنة . ثم كان عليهم بعد ذلك أن يسيروا الى منفيس والى فتح الحصن المنيع حصن بابليون ، وأن يحاربوا الروم فى طريقهم على فرع النيل الغربى مارّين بمدينة نقيوس ، (ونعلم أنهم فعـلوا ذلك) ، حتى يبلغوا الإسكندرية . ونعرف كذلك أنهم قضـوا وقتا طويلا فى حصار المدينة قبل أن تسلمها اليهم الخيانة . ولا يمكن أن يكون ذلك قد استغرق أقل من سنة . وعلى ذلك فمن المحال أن نجعل فتح الاسكندرية قبل آخر سنة ٦١٧ ، أو أوّل سنة ٦١٨ ، على أى مذهب من مذاهب التاريخ .

وعلى ذلك فمن السهل أن نقول إن العلماء السوريين بقوا فى عملهم فى دير الهانطون حتى قربت جيوش الفرس ثم هربوا الى المدينة ، وكان الهرب منها فى البحر ممكنا فى كل وقت ، وبهذا كان يمكنهم أن يبقوا سنتين أخريين قـد تكونا كافيتين لاتمـام عملهم .

حسبنا ما ذكرناه عن المراجع السورية ولكن يجدر بنـا أن نتنبه إلى أن تلك الحجة التى ساقتنا الى القول إن شتاء سـنة ٦١٧ — ٦١٨ هو الوقت الذى لا يمكن

أن تكون الإسكندرية قد فتحت قبله تسوقنا كذلك إلى اتفاق دقيق مع التاريخ الذى ذكره الطبرى ، وهى كذلك تسوقنا إلى قريب من الاتفاق مع ماذهب اليه فون جوتشمت ولو أننا سلكنا مسلكا مخالفا لما سلكه وكانت الحقائق التى بنينا برهاننا عليها فيها شيء من التضارب مع حقائقه . فقد ذهب إلى "أن الإسكندرية كانت فى ديسمبر سنة ٦١٦ لا تزال مع الروم وأنه لا يمكن أن يكون الفتح الفارسى قد وقع قبل صيف سنة ٦١٧" (إذا كان يقصد بقوله "الفتح الفارسى" فتح الإسكندرية)، والطبرى يتجاوز هذا التحديد قليلا إذ يقول إن مفاتيح الاسكندرية لم ترسل الى كسرى قبل الشتاء ، وإنا نتفق معه فى هذا الرأى . فنقول على ذلك إجمالا إن التواريخ كانت كما يلى :

(١) فتح بيت المقدس كان فى آخر مايو سنة ٦١٥

(٢) زيارة أثناسيوس للاسكندرية كانت فى أكتوبر سنة ٦١٥

(٣) سير الفرس إلى مصر كان فى خريف سنة ٦١٦

(٤) موت البطريق القبطى « فى ١٨ ديسمبر سنة ٦١٦

(٥) فتح بابليون « فى ربيع سنة ٦١٧

(٦) فتح الاسكندرية « فى آخر سنة ٦١٧

(٧) إخضاع مصر جميعها « فى سنة ٦١٨

ولعلنا نقول فوق ذلك إن فتح الصعيد لا يمكن أن يكون قد تم قبل شتاء سنة ٦١٨ بزمن طويل ، لأننا نعرف من ورقة بردى قبطية مؤرخة أن (أرسنويه) أو الفيوم كانت لا تزال فى ملك الروم فى التاسع من يونيه سنة ٦١٨ (Corpus Papyrorum Raineri الجزء الثانى صفحة ٢٢ (ed. J. Krall.) Koptische Texte ولكنا نقول على وجه الاجمال إن هذا البيان يدل على أنه قد وقعت بين فتح بيت المقدس وتمام فتح مصر مدة ثلاث سنوات وهو يوافق كل الموافقة ما ذكره أبو الفرج (طبعة Pococke راجع ما سبق) .

وهـذا النظام يمكننا من أن نقول إن بعث حنا الرحوم لمساعدة بيت المقدس كان فى شتاء سـنة ٦١٥ — ٦١٦ فان من بعثهم ذهبوا عن طريق البروما كانوا ليستطيعوا ذلك لو كانت جيوش الفرس فى طريقها إلى مصر . وعلى ذلك يكون هروب حنا الرحوم مع نيقتاس فى خريف سنة ٦١٦، إذا كانا قد هربا عند ما جاءهما نبأ غزوة الفرس . على أن قول Leontius يفيد أنهما هربا قبيل فتح الاسكندرية أى بعد ذلك التاريخ بعام ولكنا فوق كل هذا نرى أن هذا النظام فى التاريخ يتفق مع تأريخ مؤرّخى العرب فى ذكرهم تاريخ حياة البطارقة ، وفى ذكرهم مدّة احتلال الفرس لمصر، وهذه المدّة كما يقول جلزر كانت عشر سنوات وهو حق .

وأما البطارقة القبط فنرى أن تواريخهم كما يلى :

(١) انستاسيوس	من	يونيه سنة ٦٠٤	الى ١٨ ديسمبر سنة ٦١٦	
(٢) اندرونيكوس	«	ديسمبر سنة ٦١٦	الى ٣ يناير سنة ٦٢٣	
(٣) بنيامين	«	يناير سنة ٦٢٣	الى ٣ يناير سنة ٦٦٢	

وأما البطارقة الملكانيون فتاريخهم كما يلى :

(١) تيودور	قتل فى سنة ٦٠٩			
(٢) حنا الرحوم	من سنة ٦٠٩	الى سنة ٦١٦	أو سنة ٦١٧	
(٣) جورج	« سنة ٦٢١	الى سنة ٦٣٠	أو سنة ٦٣١	
(٤) قيرس	« سنة ٦٣١	الى سنة ٦٤٢		

فاذا نحن اتبعنا (جلزر) فيما ذهب إليه معتمدا على حجة واحدة وهو (Thomas Presbyter) من أن اتحاد الكنيستين المصرية والسورية قد وقع فى سنة ٦١٨ وجب علينا أن نغير كل نظامنا فى تتابع تواريخ بطارقة القبط ووجب علينا فوق ذلك أن نجعل ولاية بنيامين على الأقل فى سنة ٦٢٥ فى حين أن المؤرّخين المصريين يكررون أن ولايته بدأت فى سنة ٦٢٢ — ٣ وهى سنة هجرة النبي وظهوره . وأما نحن فنرى أن هذا الاتفاق برهان قاطع ولو لم يكن لدينا برهان غيره على تاريخ

ولاية بنيامين . ولكنه من أسهل الأمور أن نورد براهين كثيرة من المؤرخين المصريين على تفنيد قول من قال إن ولايته كانت فى سنة ٦٢٥

وأما احتلال الفرس لمصر مدّة عشر سنوات فقد ذهب (جلزر) إلى أن تلك المدّة انتهت سنة ٦٢٩ أى بعد سنة على الأقل من صلح هرقل وشيرويه . ولكنا نرى ثلاث حجج قوية تنقض ذلك الرأى :

(١) أن القصد من كل خطة هرقل فى سنة ٦٢٢ والسنوات التى بعدها كان تخفيف ضغط الفرس عن عاصمته وعن مصر، وإنه لمن أقرب الأمور أن تكون مصر قد أخليت بسبب هذا الضغط منذ ربيع سنة ٦٢٧ حتى ولو لم يقم على ذلك برهان ومدّة هذا تكون عشر سنوات تزيد قليلا منذ أوّل الغزو كما قلنا .

(٢) ولو لم يكن الأمر كما ذكرنا فقد ذكر سبيوس أن شيرويه فى صلح فبراير سنة ٦٢٨ رضى أن يخلى فى الحال كل ما كان يملكه من بلاد الروم وأخرج جيوشه منها .

(٣) أن النبى محمدا بعث رسله إلى الأمراء فى صيف سنة ٦٢٧ أو خريفها على الأكثر كما روى الطبرى لأنه يذكر أن الرسل الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن حجزوا هناك بضعة أشهر حتى أتت أنباء موت الملك وكان موته فى فبراير سنة ٦٢٨ ولاشك فى أن النبى عند ما بعث رسوله إلى مصر كانت مصر قد عادت إلى دولة الروم وكان يحكمها والى هرقل «المقوقس» كما يسمونه خطأ .

وليس اعتماد (جلزر) على (نيقفوروس) مما يدعم اتخاذه تاريخ سنة ٦٢٩ فإن نيقفوروس يقول "إن سار باروس بعد أن سمع بموت كسرى وشيرويه وقباذ وهرمزداس رجع من بلاد الروم" ثم قال "ولما تم الصلح أعاد سار باروس مصر وسائر بلاد الشرق إلى الروم وأخرج منها مسالح الفرس وبعث بالصليب — واهب الحياة إلى الامبراطور" ولكن الشاه — ورز لم يصر ملكا باتفاقه مع هرقل إلا فى آخر سنة ٦٢٩ على الأقل (Journal Asiatique 1866 صفحة ٢٢٠)

فى حين أنه من المؤكد أن هرقل استعاد الصليب فى سنة ٦٢٨ وفوق ذلك إن نيقفوروس نفسه قال بعد أن ذكر عدّة حوادث أخرى إن الصليب أخذه هرقل بعد ذلك إلى بيت المقدس ثم أعاده إلى القسطنطينية وتلقاه فيها البطريق سرجيوس "وقد كان حدوث ذلك فى الخمسة عشرة سنة الثانية (أى فى سنة ٦٢٩)، وإذا كان لنا أن نستخلص شيئا من هذا الخبر المفكك استخلصنا أن الفرس خرجوا من مصر قبل استعادة الصليب أى قبل سبتمبر سنة ٦٢٨، ولكن ذلك الخبر لايدل على شيء سوى أن نيقفوروس هذا شاهد غير عدل لا يعوّل على قوله " .

والحقيقة هى أن مدّة احتلال الفرس وهى السنين العشر يمكن أن يعدّ أوّلها : إما عند دخول الفرس إلى مصر، وإما من أول فتح الاسكندرية، وإما من إتمام فتح مصر إلى أسوان ويختلف مدى تلك المدة باختلاف الوقت الذى يعتبر الابتداء منه .

ولقد سعينا فى هذا التعليق أن نظهر أن كثيرا من الخلط ناشئ عن إغفال التمييز بين غزو مصر وفتح مصر فهما معنيان غير مترادفين وحادثان لم يقعا فى وقت واحد. ولذلك الخلط سبب آخر وهو إغفال التفريق بين السنة الميلادية (التى أوّلها أوّل شهر يناير) و بين السنة اليونانية من تاريخ الاسكندر (التى أوّلها أوّل سبتمبر)، وهى تقع فى جزأين من سنتين من سنى الميلاد . وفوق ذلك سبب ثالث وهو إغفال الانتباه الى طريق حساب السنة اليونانية عند السوريان فانها أحيانا تختلف عن التاريخ اليونانى المعتاد بسنة وفيها تبدأ السنة فى أوّل أكتوبر بدل ابتدائها فى أوّل سبتمبر والسبب الأخير فى الخطأ يصح لنا أن نذكره وهو الاعتماد فى حساب التواريخ على أساس غاية فى الضيق . ويحدث هذا من طريقين : إما بالمبالغة فى تضييق الفترة التى يستمد الدليل منها، وإما بتضييق المجال الذى يستمد منه الدليل فإنه لا يكفى أن نبحث فى تواريخ فترة نحو عشر سنوات أو اثنتى عشرة سنة ثم ننتهى من ذلك البحث إلى نهاية بغير أن ننظر ما ينشأ عن ذلك من النتائج أعنى بغير أن ننظر إلى علاقة هذه التواريخ بما قبلها و بما بعدها من التواريخ ونتحقق من أن ما ينشأ عن ذلك

من النتائج يخرج ثابتا بعـد التمحيص والنقد . ويجمل كذلك أن نذكر أننا إذ نعالج هذه الحوادث التى وقعت فى القرن السابع نعتمد على مراجع تاريخية مختلفة الأنواع كثيرة العدد ففيها اليونانى والأرمنى والسريانى والعربى والمصرى وفى كل منها شىء يجب الرجوع إليه، وليس من العدل أن نضع نظاما للتاريخ نستمده من طائفة أو اثنتين من هؤلاء الكتاب بغـير أن نأبه كما ينبغى بالآخرين . وإنا ونحن نكتب هذا نشعر أعمق الشعور بالصعاب التى تحيط بمثل هذا السعى الى التوفيق بين المراجع التى قد تكون فى الحقيقة كما هى فى الظاهر غير قابلة للتوفيق ، ولكن لعلنا غير مغرورين إذا نحن بينـا بعض الصعاب التى تعترض طريق الباحثين فى بحثهـم . ويجمل بنـا أن نقول إننـا وإن اختلفنا مع (جلزر) نفعل ذلك وفى نفوسـنا كل الاعجاب بمؤلفه النفيس الغزير العلم الدقيق البحث . ولسنا ندعى أن نظام التاريخ الذى وضعناه خال من الصعاب، ولكنا قد ندعى أننا قد وضعناه على أسس واسعة وأنا قد وفقنا به بين عدد عظيم من مراجع كل منها منفصل عن الآخر كل الانفصال ومباين له أكبر المباينة .

الملحـــق الثـالث

فى شخصية المقوقس (١)

روجعت وصححت من رسالة

(Proceedings of the Society of Biblical Archaeology)

ليس فى كل تاريخ مصر شخص جمع بين الشهرة والخفـاء مثل الشخص الذى يطلق عليه الاسم العربى المقوقس أو المقوقِس . ولا خلاف فى أن ذلك الشخص كان أعظم الروم أثرا فى أزمة الفتح العربى وأنه كان العامل على تسليم مصر . ولكن هذا كل ما لايختلف فيه . وأما حقيقة شخصه واسمه وجنسه وعمله الذى كان يعمله فى الدولة و بلاؤه الذى أبلاه ومعنى لقبه نفســه الذى يعرف به ، كل تلك الأمور مختلف فيها ، وطالمـا تكلم فيها الباحثون وذهب كل مذهبا فى الاجابة عليها ، ولكن تلك الاجابة تنم عن تباين فى الآراء لا يمكن التوفيق معه بينها . وما كنا لنعجب من ذلك الاختلاف فانه من الجلى أن مؤرّخى العرب أنفسهم كانوا من أول الأمر فى حيرة عظيمة ودهشــة من هذا الأمر . ومن الكتّاب المحدّثين نجـد (Von Ranke) فى صفحة ١٤٢ وما بعدها من كتابه (Weltgeschichte V. i) يزعم أن المقوقس كان حاكم مصر وأنه كان قبطيا . ولكن يلوح لنا أنه كان يشك فى حقيقتـه التاريخيـة . وأما (De Geoje) فى كتاب "De Mokaukis Van Egypte" فى كتاب "Etudes dedieés a Leemans" فإنه يذكر أن الظاهر أن مؤرّخى العـرب قد خلطوا فى بعض المواضع بين المقوقس وقيرس البطريق الامبراطورى فى الاسكندرية مع أنه كان شخصا آخر وله عمـل غير عمل المقوقس . وأما

---

(١) قد كتب المؤلف رسالة بعد كتابة هذا الكتاب بنحو عشر سنوات وهى "The Treaty of Misr in Tabari" وأدخل فيها بعض التعديل على آرائه وقد بينا هذا فى الملحق السابع (المعرّب) .

الأستاذ (Karabacek) فى مقاله "Der Mokaukis Von Aegypten" (Mittheilungen aus der Sammlung der Papyrus Erzherzog Rainer الجزء الأول صفحة ١ — ١١) فإنه يذهب الى أن اسم المقوقس هو جورج بن مينا برقبيوس (Barkabios) وبهذا يفسر اسم (فرقب) أو (قرقب) الذى يسمى به بعض المؤرخين أبا المقوقس . ويزعم (Karabacek) أن المقوقس كان حاكما لاقليم ، ويزعم أن لقبه تحريف عربى للفظ اليونانى (٦٢*) ويأخذ ذلك اللفظ على أنه كان لقبا تشريفيا يعادل لفظ (٦٣*) وسواه مما يوجد فى أوراق البردى المختلفة من القرن السابع . وأما المستر (ملن) فى تعليقه عن (جورج المقوقس) فى كتابه (Egypt under Roman Rule) صفحة ٢٢٤ فإنه يذهب إلى أنه كان جورج حاكم الاقليم الذى ذكره حنا النقيوسى والذى يظن أنه كان حاكم (Augustamnica) أى أثريب . أنظر كتاب "Actes des martyres de L'Egypte" (Hyvernat) (الجزء الأول صفحة ٢٩٦) . على أن أثريب لا يصح أن تعدّ "على الحدود الشرقية لمصر" . كما تستلزمه حجة المستر (ملن) . وأما الأستاذ استانلى لين پول فى كتابه (Egypt in the Mid. Ages) صفحة ٥ هامش ٢ فإنه يميل الى ترجيح مذهب أن ذلك الاسم تحريف للقب اليونانى السابق الذكر ويتبع رأى المستر (ملن) فى زعمه أنه كان (جورج حاكم الاقليم الشرقى) مخالفا فى ذلك ما جاء فى الأخبار العربية من أن المقوقس كان "حاكم مصر كلها وأنه كان يقيم فى الاسكندرية" .

ثم إنه يقبل القصة المتداولة التى تجعل المقوقس قبطيا . وهكذا نرى الأستاذ (بورى) يسميه "الحاكم القبطى" لمصر وذلك فى كتابه (Later Rom. Empire) الجزء الثانى صفحة ٢٧٠ ونرى أن أخبار هؤلاء المؤرخين جميعها لا يمكن وصفها بخير من أنها جزئية وغير تامة ، لأنهم لم يعالجوا ذلك الأمر معالجة كافية ولم يبينوا آثاره فى تاريخ الفتح ، ثم لم يفحصوا رأيهم بمقابلته بالصعاب التى تنشأ من إطلاقه ، وما يلقى الباحث عند اتباع ذلك الرأى من المشاكل . وفوق كل ذلك ليس

المقوقس بالشخص الأوحد الذى اختلف فى حقيقته ، فإن جل كبار قادة تلك الحرب من روم ومصريين يحيط بهم ظلام وإبهام ، وكثيرا ما يختلط بعضهم ببعض . فإذا نحن وفقنا إلى معرفة كنه المقوقس لم نصل إلا الى نصف حل العقدة ، فلا بد لنا من أن نفحص أشخاصا آخرين فى الوقت عينه ونعرف حقيقتهم . ولكنا نرى أن هذه الضرورة لم يدركها أحد إلى الآن حق إدراكها ، وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن هذه المشكلة فى مجملها لم يعالجها أحد علاجا وافيا . فالحقيقة أن الخلط فى الأسماء والأشخاص متسرب فى كل تاريخ مدّة الفتح تسربا عظيما لا يدرك عظم المشكلات التى به حق الإدراك إلا من يعانى كتابة ذلك التاريخ أو يحاول كتابته . ونرى أن الأجدر بنا أن نبدأ بذكر ما قاله أكبر مؤرّخى العرب . ونرى مافى قولهم من الأخبار التى توضح هذا الأمر الذى نحن بصدده أو تساعد على حل إشكاله .

البلاذرى : (المولود سنة ٨٠٦ للميلاد) يذكر المقوقس ويقول إنه صالح عمرا وإنه كان فى جانب القبط بعد أن أبى هرقل أن يقرّ صلحه . ويذكر عند وصف ثورة منويل أن بعض الرواة يذهبون إلى أنه ساعد العرب ويذهب بعضهم إلى أنه كان قد مات قبل ذلك .

الطبرى : (٨٣٩ — ٩٢٣ للميلاد) يفرّق بين حاكم الإسكندرية وبين حاكم منفيس ، ويذكر أن الأخير كان المقوقس وأنه كان عظيم القبط وأنه أرسل إلى منفيس جيشا تحت قيادة " الجاثليق الذى كان كبير أساقفة النصارى واسمه ابن مريم "

سعيد بن بطريق : (المولود سنة ٨٧٦ للميلاد) وكان ملكانيا ويذكر أن المقوقس كان عاملا على الأموال فى مصر لهرقل ، وكان يعقوبيا فى الباطن ، ولكنه كان فى الظاهر ملكانيا وأنه منع الجزية التى كان عليه أن يرسلها للامبراطور منذ حصار الفرس للقسطنطينية ولم يذكر للقوقس اسما وذكر أنه كان حيا الى ما بعد ثورة منويل .

النسخة الخطية من كتاب ساويرس الأشمونيني : (أوائل القرن العاشر) وهي غاية في عظم الشأن فقد جاء فيها "لما استعاد هرقل بلاده استعمل عمالا عليها فأرسل إلينا في أرض مصر قيرس ليكون حاكما وبطريقا معا" . ويقول عن اضطهاد السنوات العشر ومدّة هروب بنيامين "وكانت هذه هي السنوات التي كان فيها هرقل والمقوقس يحكمان مصر" ثم قال "ولما انتهت مدّة السنوات العشر لحكم هرقل وولاية المقوقس" ثم قال في وصفه "الحاكم الكافر الذي كان بطريقا وحاكما للاسكندرية" وفي الختام روى عن بنيامين أنه قال "مدّة الاضطهاد التي نزل بي عند ما طردني المقوقس" وقد كان ساويرس هو الذي ذكر أن بنيامين هرب من ولايته عند مقدم قيرس . ومن هذا يرى أن ساويرس يذهب إلى أن قيرس هو المقوقس .

تأتي بعد هذا فترة تقرب من قرنين إلى أن يجئ ابن الأثير (المولود في سنة ١١٦٠ للميلاد) وهو يذكر أبا مريم وأبا مريام وأن الأوّل كان جاثليق منفيس (ولنلاحظ خطأ ذلك اللقب)، وأن الثاني كان أسقفا، وأن المقوقس أرسلهما ليقاتلا عمرا ولكنهما فاوضاه وصالحاه على شروط رفضها المقوقس . وأن المقوقس كان يقود الجيش بنفسه في وقعة عين شمس . ثم ذكره بعد ذلك على أنه حاكم الاسكندرية في وقت الحصار وأنه صالح عمرا وكان حيا عند ثورة منويل .

وابن الأثير مضطرب في ترتيب الحوادث في أوّل مدّة الفتح .

أبو صالح : (كتب حوالي سنة ١٢٠٠ للميلاد) يذكر أن "محمدا بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس حاكم الاسكندرية" أي في سنة ٦ للهجرة (وأوّلها ٢٣ مايو سنة ٦٢٧) . ويقول بعد ذكر عودة مصر الى الروم "إن هرقل استعمل على مصر جريج بن مينا المقوقس" ثم ذكر ديرا في الصعيد فقال "إن بنيامين اختفى هناك في حكم الامبراطور الروماني هرقل الخلقيدوني ، وحين كان جريج ابن مينا المقوقس حاكما على مصر حتى تمت مدّة السنوات العشر، وكان ذلك هربا

منهما كما أنذره الملك" ثم قال المؤلف بعد ذلك إن تلك كانت السنوات العشر التى قاسى فيها المؤمنون (القبط) الاضطهاد ولكن أبا صالح ينقل من كتاب (الجناح) أن أسقف الروم فى مصر والاسكندرية كان اسمه قيرس (صفحة ٧٣) .

ياقوت : (المولود حوالى سنة ١١٧٨ للميلاد) يعقد الأمور تعقيدا أشد فهو يذكر أن حصن بابليون كان حاكمه (المندفور) الذى اسمه الأعيرج نائبا عن المقوقس ابن قرقب اليونانى الذى كان يقيم فى الاسكندرية" .

مكين : (المولود حوالى سنة ١٢٠٥ للميلاد) يذكر أن عامل هرقل على مصر هو المقوقس وأنه هو وعظماء القبط صالحوا عمرا .

ابن خلدون : (المولود سنة ١٣٣٢ للميلاد وكتب فى أواخر الرابع عشر) يتبع ابن الأثير، ولكن له خلطا خاصا به وهو يجعل المقوقس قبطيا .

ابن دقماق : (كتب حوالى سنة ١٤٠٠) يذكر المقوقس الرومى عامل هرقل .

المقريزى : (المولود سنة ١٣٦٥ ميلادية) يروى عن يزيد بن أبى حبيب عبارة أن المقوقس الرومى كان واليا على مصر وصالح عمرا . ويروى عن ابن عبد الحكم خبر حياة المقوقس فى وقت ثورة منويل وابن عبد الحكم مؤرخ قديم (مات سنة ٨٧٠ للميلاد) وكتابه موجود فى نسخة خطية ولكنه قصصى كما أنه مؤرخ غير أنه ذو قيمة عظيمة فى كثير من الأحيان وقد نقل (Weil) عنه كثيرا .

ويتفق المقريزى مع ياقوت فى ذكر (الأعيرج) وفى أن المقوقس بن قرقب (أو قرقت) كان يونانيا، ويذكر أن القبط كان لهم فى الاسكندرية أسقف اسمه (أبو ميامن) وأن المقوقس صالح العرب غير أن هرقل لم يقر صلحه وعنفه على أنه كان كالقبط فى الجبن والخسة . وذكر قيرس فقال إن هرقل " أقام قيرس بطرك الاسكندرية " (وأخطأ فذكر فيرس بالفاء بدل قيرس بالقاف) .

وأما كتاب الواقدى (وهو كتاب قصصى غير ثابت التـاريخ) فقـد جاء فيه أن ملك القبط كان عند ذلك المقوقس بن رعيل .

أبو المحاسن : (المولود سـنة ١٤٠٩) يجعـل بنيامين القبطى أسقف الاسكندرية، ويقول إن قائد قصر الشـمع كان الأغيرج (بالغين) وكان تحت أمر المقوقس . وجاء فى نسختين خطيتين أن اسم المقوقس جريح (بالحـاء) بن مينـا وهذا تحريف ظاهر لاسم (جريج بن مينا) . وقد ذكر المؤرخ نفسه فى موضع آخر أن قائد الحصن كان المندفور المسمى الأغيرج من قبل المقوقس بن قرقب اليونانى . ويروى هذا المؤلف عن ابن كثير قصة (منقولة من ابن اسحاق وغيره) أن المسلمين عنـد ما دخلوا مصر قابلهم أبو مريم جاثليق مصر وأبو مريام الأسـقف ثم ذكر هذين القسين العظيمين عند بناء الفسطاط .

السيوطى : (المولود سنة ١٤٤٥ ميلادية) يكاد يتفق مع أبى المحاسن وهو يذكر أن الحصن كان يقوده المندقول المسمى الأعيرج من قبل المقوقس بن قرقب اليونانى ويذكر أن مقام المقوقس كان فى الاسكندرية وأنه صالح عمـرا ، ولكن هرقل لم يقرّ صلحه وأن اسم الأسقف القبطى (أبو ميامن) .

وهذا العرض لكبار المؤرخين العرب يظهر وجوه اختلافهم الكثيرة ، ولكن من الجلى أنهـم يذكرون ثلاثة أشخاص يجب معرفة حقيقتهم، وهم : المقوقس ، وأبو مريم، والأعرج؛ وسنذكرهم بادئين بالأخير ثم الذى قبله فالذى قبله :

(١) الأعرج — الأعيرج — الأغيرج . ويظهر أن هذا الاسم جاء أوّلا فى ياقوت (أوّل القرن الثالث عشر) على أنه اسم قائد حصن بابليون وأن لقبه كان المندفور ويجوز أن ذلك كان تحريفا للفظ (المندتور) وهو تعريب اللقب البيزنطى(٩٠*) على أن ذلك اللقب لا يظهر أنه اسـتعمل فى غير ذلك الاستعمال وقصد به القائد . وقد أخذ أبو المحاسن ذلك عن ياقوت وكذلك أخذ عنه السيوطى، على أن السيوطى جعل ذلك اللقب (المندقول) وهو تحريف فى النسخ . ويقول الأستاذ (لين بول)

أن الأعرج والأعيرج هو (أرطبون) أحد قواد الروم وأنه كان كذلك يسمى بن (قرقب) أنظر (Eg.in the Middle Ages) صفحة ٥ هامش٢) ولكن ليس ثمت مرجع حقيق لذلك الرأى فى شخصيته ولا فى نقل اسم "ابن قرقب" من المقوقس إلى الأعرج . ولكنا نرى أن الأعرج ما هو إلا قلب ناشئ من النقل الكثير للفظ "جرج" أو "جريج" وأن اسم قائد الحصن فى الواقع هو "جورج" ولعله شخص غير "جورج الحاكم للاقليم" الذى ذكره حنا النقيوسى .

(٢) أبو مريم . وصف الأستاذ (لين پول) هذا الشخص بأنه "جاثليق" مصر وأنه انضم إلى جيش عمرو ولفظ جاثليق لا معنى له إلا (بطريق) وأول من ذكره من مراجعنا "الطبرى" فقد جعلته معلوماته الفارسية يذكر ذلك اللفظ على أنه اسم كبير أساقفة مذاهب النسطوريين والأرمن و يكثر ذكره فى كتب سبيوس وسواه و يعرفه (Du Cange) حق المعرفة والحقيقة أن الطبرى نفسه يفسر ذلك اللفظ بأنه كبير أساقفة النصارى ولكنه يقول بعد ذلك عبارة محيرة وهى أن اسمه كان "ابن مريم" و يمكننا أن نسلم بأنه قد كان فى مصر رئيسان للأساقفة أو بطريقان فى وقت الفتح وهما قيرس و بنيامين، ونزيد على ذلك أنه قد يجوز أن بطريقا ثالثا كان موجودا عند ذلك وهو بطريق مجهول (للجايانيين) ولكن ذلك غير هام فيما نحن فيه وابن مريم لا يمكن أن يكون هو (قيرس)، ولكنه قد يمكن أن يكون المقصود به (بنيامين) ونرجو أن نستطيع البرهان على أن ذلك هو المقصود . فانه فى مدة ابن الأثير كان الاسم قد حرف إلى (أبو ميامين) فى حين أن أبا المحاسن يذكر — وهذا طبعا صحيح — أن الأسقف القبطى فى الاسكندرية كان اسمه بنيامين، ويذكر السيوطى أن الأسقف القبطى هو (أبو ميامين) وليس على الانسان إلا أن يقرن هذه الحقائق بعضها إلى بعض فيرى لأول نظرة أنه من أسهل الأمور تحريف اسم (أبا بنيامين) إلى (أبو ميامين) ثم إلى (أبو مريم) فى حين أن (ابن مريم) يجوز أن يكون تحريفا للاسم بنيامين، فان كتاب العرب كانوا يعرفون أن اسم مريم اسم يجله النصارى إجلالا عظيما فأخطأوا فى لفظ (أبا) فظنوا أنه اللفظ

العربى (أبو) فى حين أن نزع الجزء الأول من (بنيامين) وهو (بن) وخلط باللفظ العربى (ابن) ونشأ من ذلك الخلط أسماء عجيبة زادها تحريف النساخ خطأ فذهبوا إلى تسمية الأسقف باسم (أبو مريم) و(ابن مريم) ونستطيع الآن أن نستبعد اسم (أبو مريم)[1] ونحن واثقون من أن ذلك الاسم لم يكن، وكذلك أسماء (أبو مرتم) و (ابن مريم) و (أبو ميامين) وأن نجعل مكان هذه الصور الغريبة اسم (بنيامين). الذى كان كبير أساقفة القبط فى الاسكندرية . غير أنه لا يكفى أن نستبعد هـذه الخيالات فانا إذا سلمنا أن الشخص التاريخى المقصود هو بنيامين فانه من المحال أن نقبل ما قيل عنه من أنه اشترك مع عمرو أى اشتراك فيما ذكر عنه فلم يحاربه ولم يفاوضه . وأما ماذكره الطبرى ومن اتبعه كابن الأثير عن بنيامين فانه قول سخيف. فقد جعلوه قائدا حربيا تحت حكم المقوقس ، وقـد سعى الطبرى إلى جعـل خبره مقبولا لاتناقض فيه بجعل المقوقس أميرا للقبط ولكن كل الأدلة المستمدة من المؤرخين المصريين تدل على أن هذين الرأيين غير صحيحين (وكان الطبرى غريبا عن مصر ولكنه زارها) . فالمؤرخون المصريون مجمعون على أن بنيامين بقى مختفيـا فى الصعيد مدّة عشر سنوات قبل الفتح العربى وثلاث سنوات فى مدّة الفتح ولو لم يكن لدينا غير ما كتبه ساويرس " حياة بنيامين " لكان ذلك كافيا للبت فى هذا الأمر. غير أن كل المؤرخين من حنا النقيوسى إلى ما بعده متفقون فى هذا الرأى . فكيف لنا إذن أن ندرك علة ما يعزوه مؤرخو العرب إلى بنيـامين من الاشتراك فى الأمور عنـد الفتح ؟ والتعليـل هو ما يلى : أنهـم وجدوا فى الأخبار القديمـة أو الروايات السابقة أن زعيم المدافعين والرئيس الذى فاوض فى شروط الصلح مع الغزاة هو كبير أساقفة الاسكندرية، ووجدوا بعد الفتح وفى التاريخ القبطى أن كبير

(١) من المفيد أن نذكر هنا أن المؤلف قد عاد فى رسالته "The Treaty of Misr in Tabari" فقال إنه من الجائز أن يكون هذا الاسم تحريف لاسم قائد أرسله هرقل لمساعدة قيرس وهو (مارينوس) أو (ماريانوس) . وعلى ذلك يمكن أن نقول إن مؤرخى العرب لم يقصدوا (بنيامين) بمن سموه (أبا مريم) أو (أبا مريام) بل كانوا يقصدون قائدا حربيا وبذلك تبطل حجة المؤلف فى تجريح مؤرخى العرب وحمل قولهم هنا على الخلط . (المعرّب)

الأساقفة فى الاسكندرية المعترف به هو بنيامين وفوق ذلك لقد كان بنيامين هو الذى جاء إلى عمرو وصالحه فى وقت الفتح الثانى للاسكندرية عند ثورة منويل . فاختلط هذا الخبر بالصلح الذى كان مع قيرس وعلى ذلك اختلط الشخصان وعزى إلى بنيامين فعل ما فعله قيرس عند الفتح . ولكن لا بد لنا أن نعالج الأمر الفاصل ألا وهو حقيقة شخصية المقوقس حتى لا يقال إن تفسيرنا هذا تفسير شىء غامض بمثله .

(٣) المقوقس : يذكر جل مؤرخى العرب شخصا يطلق عليه ذلك اللقب ، ولكن مما يسترعى النظر أن من بين من ذكرنا من المؤلفين لا يذكر الآتون اسما لصاحب ذلك اللقب ، وهم البلاذرى والطبرى وسعيد بن بطريق وساويرس ولا ابن الأثير نفسه . حقا إن الواقدى يسميه (ابن رعيل) ولكن هذا اسم من الأسماء العجيبة الخيالية التى ترد فى قصص العرب قبل التاريخ لتسمية الملوك والسحرة ومن اليهم . فلا نجد أن المقوقس اسمه جريج بن مينا حتى نأتى الى عام سنة ١٢٠٠ للميلاد إذ يطلق عليه ذلك الاسم (أبو صالح) فى حين أن ياقوت الذى كان فى نفس عصره يسميه (جريج بن قرقب اليونانى) وهـذا الاختلاف يدل على وجود روايتين مختلفتين أو مصدرين منفصلين للخبر . ومن العجيب أن هذا استنتاج يدل عليه ما نجده بعد مدّة من ذلك العصر إذ نجـد مؤرخا واحدا وهو أبو المحاسن ينسب ذلك الشخص (جريج) إلى النسبتين فى مواضع مختلفة فيسميه تارة (ابن مينا) وتارة (ابن قرقب اليونانى) . ويكفى أن نقول أوّلا إن هذين الاسمين لا يمكن التوفيق بينهما وإنهما يرجعان إلى مرجع فى عصر متأخر ولا يمكننا بهما أن نعرف شيئا عن حقيقة المقوقس . فيجب علينا إذن أن ندعهما وأن نسعى إلى اكتناه حقيقته من نواح أخرى لا علاقة لها بهذين الاسمين فاذا تم لنا ذلك نظرنا فيما وصلنا إليه من بحثنا لنرى هل نستطيع بعد أن عرفنا حقيقة المقوقس أن نفهم سبب هذين الاسمين . ولنعد الآن إلى مراجعنا فإن البلاذرى لا يفيدنا كثيرا فى بحثنا ، وأما الطبرى فانه بلا شك يضلله و يعميه فانه يجعل المقوقس «أمير القبط» ، وفوق ذلك يجعله الزعيم الذى يفاوض العرب فى التسليم وهو

فى داخل حصن بابليون وهو مخطئ فى هذا خطأ مزدوجا، فان المقوقس لم يكن من القبط ولم يكن فى الحصن عند فتحه . على أن البلاذرى يذكر أن المقوقس حاكم الاسكندرية . ويقول سعيد بن بطريق إنه كان مراقب الأموال من قبل هرقل، ويجب أن نذكر أن سعيد بن بطريق كان ملكانيا . وقد ذكر أن المقوقس كان ملكانيا ولكنه ذكر أنه كان يبطن الاعتقاد فى مذهب القبط ، وتلك عبارة فاسدة اخترعها لكى يفسر ما كان من المقوقس . فلا نستطيع أن نجد حلا للغز المقوقس وحقيقته حتى نأتى الى ساويرس فان الحل فيه واضح لا إبهام فيه، وقد كان ساويرس قبطيا ولم يكن به ما يحدوه إلى إخفاء ما أتى به المقوقس ، وفوق ذلك قد كتب تاريخه مستندا إلى وثائق بعضها قبطى و بعضها غير قبطى كانت محفوظة فى مكتبة دير مقار وفى دير (نهيا) وفى مجموعات أخرى عند أفراد الناس، ولقد تجد فيه بلاشك فى بعض الأحوال أخبارا غير دقيقة وأخرى مستحيلة ولكنه مع ذلك يذكر طائفة كبيرة من الأخبار لا نجدها فى التواريخ القديمة التى ذكرناها آنفا . وإليك ما جاء فى كتاب ساويرس : "استعمل هرقل قيرس بعد استعادة مصر من الفرس وجعل له ولاية الدين والحكم فى الاسكندرية"، ونعلم أنه بقى فى عمله عشر سنين اضطهد القبط فى أثنائها اضطهادا عظيما، وقد وصف بنيامين مدة هذا الاضطهاد بأنها "عشر سنين كان هرقل وقيرس يحكمان فيها مصر" ثم نجده يذكر قيرس فيسميه "الحاكم الكافر الذى كان حاكما وبطريقا للاسكندرية مدة حكم الروم"، وفوق ذلك يذكر ساويرس أن بنيامين هرب عند قدوم قيرس لأن ملكا حذره ثم ذكر أن بنيامين قال "إن المقوقس طردنى وشردنى" وعلى ذلك فليس ثمت بقية من الشك فى أن ساويرس يذهب إلى أن المقوقس هو قيرس ويفرق بينه وبين بنيامين .

وسنحاول أن نبرهن على أن ساويرس على الحق وأن كل مؤرخى العرب على خطأ فيما خالفوه فيه .

فمن الحقائق التى لا يختلف فيها عن هذا العصر أن قيرس كان ذا سلطان فى أمر الدنيا وأمر الدين معا. وحقيقة أخرى وهى أنه لما استعمله هرقل بطريقا وواليا

اضطهد القبط مدّة عشر سنوات . ويذكر حنا النقيوسى "الاضطهاد الذى شهره هرقل فى بلاد مصر جميعها على اتباع مذهب السنة (القبط) وذلك بتحريض البطريق الخلقيدونى (قيرس)" . وتاريخ القبط مملوء بذكر هذا المعنى .

فكل تاريخ الفتح فى كتاب حنا قائم على أن قيرس كان واليا على مصر ولا خلاف فى ذلك ، ولكن أبا صالح يذكر أن هرقل استعمل على البلاد المقوقس وأن هروب بنيامين بقى عشر سنوات كما أوحى اليه الملك وأن تلك كانت مدة حكم المقوقس فى مصر . حقا إن أبا صالح يسمى المقوقس جريج بن مينا ولكنا سنتكلم فى ذلك بعد حين وجيز ويتفق ابن دقماق ومكين فى أن عامل هرقل على مصر كان المقوقس . ويذكر المقريزى أن المقوقس هو الذى صالح العرب وأن مولاه هرقل أبى إقرار صلحه وقد تبعه فى ذلك أبو المحاسن والسيوطى . وعلى ذلك فثمت اتفاق بين مؤرخى العرب فى العمل الذى كان يعمله المقوقس ولكنهم لايتفقون فى ذكر الاسم الذى كان يسمى به ولو لم يكن لدينا من المراجع غير هؤلاء لما بلغت حجتنا من القوة ما بلغته . على أن حجتنا قد تستند على دعامة قوية من قول ساويرس وحده .

لكننا نجد دوننا بعض وثائق قبطية وأخرى عربية قليلة العدد لها علاقة بهذا الأمر فلدينا "تاريخ حياة شنودة" الذى نشره أميلنو وهو عن أصل قبطى كتب فى القرن السابع وقد جاء فيه الخبر الآتى على صورة نبوءة وهو "ثم سيظهر المسيخ الدجال ويمثل بين يدى ملك الروم فيجمع له ولاية الدين والدنيا وسيجىء الى مصر ويناصب فيها كبير الأساقفة بالاسكندرية العداء وسيهرب منه هذا إلى أرض تيمان" وهذا بغير شك وصف لقيرس وما كان منه من معاملة بنيامين . ولكن ثمت قطعة من وثيقة أخرى فى المكتبة البودلية (Mss. Copt. Clar. Press.) وقد نشرها كذلك أميلنو تحت عنوان حياة "صمويل القلمونى" .

وقد ذكر فى هذه القطعة خبر زيارة شخص إلى الدير واسم ذلك الشخص "البطريق الكاذب" ⲡⲕⲁⲩⲭⲓⲟⲥ ⲡⲉⲡⲥⲉⲩⲧⲟⲁⲣⲭⲏⲉⲡⲓⲥⲕⲟⲡⲟⲥ أو ⲕⲁⲩⲭⲓⲟⲥ

وقد ذكرنا هـذه القصة فى متن كتابنا هذا (الباب الثالث عشر) ولا حاجة بنـا إلى إعادتها هنـا . ولكن الـ ⲕⲁⲩⲭⲓⲟⲥ لم يقتصر على تسميته فى ذلك الخبر بالبطريق بل من الجلى أنه سمى كذلك "مراقب خراج أرض مصر" (ⲧⲁⲍⲓⲁⲣⲭⲏⲥ ⲉϫⲛ ⲇⲏⲙⲱⲥⲓⲟⲛ ⲛⲧⲉⲭⲱⲣⲁ ⲛⲕⲏⲙⲉ)(1) وعلى ذلك فقد جاء فى وثيقة مما تخلف عن ذلك العصر ذكر البطريق "الخلقيدونى" (أى الملكانى) وهو لا يعترف له القبط بالسلطان بل إنهـم يوالون بطريقهم بنيامين . على أن ذلك البطريق الخلقيدونى قد جمع له السلطان الدينى والدنيوى على بلاد مصر وفوق هـذا يسمى ذلك الشخص باسم (ⲡⲕⲁⲩⲭⲓⲟⲥ,) .

ولا حاجة بنا الى بيان مقـدار الاتفاق الوثيق بين هذا الوصف وبين ما جاء فى كتاب ساويرس عن عمل قيرس البطريق الخلقيـدونى ووالى هرقل وهو فوق ذلك متفق بعض الاتفاق مع ما جاء فى كتاب (سعيد بن بطريق) ومكين وابن دقماق والمقريزى . ولكن أكبر ما يهم المطلع على هذه القطعة أننا نجد فيها اسم المقوقس فى الصـورة الأصلية القبطيـة وأنه يطلق على شخص لا نجد بعـد شكا فى أنه هو بعينه قيرس .

ولكن أميلنو قد أخطأ الصواب فيما ذهب اليه فانه اضطر إلى أن يذهب إلى أن المقوقس كان بطريقا ملكانيا ، ولكنه لم يفكر فى أنه هو قيرس بعينه فهو يقول فى الحقيقة إنه من أصعب الأمور تعيينه فان قيرس كان قد ترك البلاد فى سنة ٦٣٩ ثم قال "ولعل المقوقس قد اختير ليحل محـل قيرس عند ذلك بل لعـله كان عدوًا لقيرس" ولكن من أعظم الخدمات التى خدمها ذلك العالم الفرنسى للآداب المصرية أنه لا يدعى أنه بحث بحثا خاصا فى تاريخ الفتح العربى وعلى ذلك فانه كتب مقالا عن المقوقس بعنوان "قطع قبطيـة" فى جريدة (Journal Asiatique) شهر أكتوبر — نوفمبر سـنة ١٨٨٨ صفحة ٣٨٩ — ٤٠٩ وهو مقال ذو قيمة حقيقية

(١) ذهب (Hyvernat) إلى جعل تاريخ النسخة الخطية التى فى مكتبة (Bodleian) حوالى القرن العاشر .

ولكنه لم يبحث فيه بحثا مستفيضا واسع النطاق ولم يرتب المراجع التى أخذ عنها ترتيبا راعى فيه ترتيب تواريخهم أو قيمتهم، وكذلك قد أخذ فى مقاله ذاك برأى بعض من سبقه من المؤرخين بغير أن يفحصه فحصا نقادا . فمثلا عند ما ذهب إلى أن المقوقس كان بطريقا ملكانيا كان دونه اعتراض وهو أنه "إذا صح ذلك فكيف لم يذكر شيئا عنه المؤرخون القبط الذين كتبوا باللغة العربية مثل سعيد بن بطريق ومكين وأبو الفرج" ويلوح أن هذا اعتراض قوى، ولكنه لا يلبث أن يختفى إذا ماسه النقد وقد أجاب أميلنو عليه بقوله " ويجب أن نجيب ببساطة أننا لا نعرف شيئا عن ذلك فان المؤرخين الأخيرين لم يكتب أولهما وهو مكين غير سطرين اثنين عن المقوقس ولم يذكره ثانيهما وهو أبو الفرج، وقد كتب فيه سعيد بن بطريق فحاباه ولو قلنا إنه عرف ذلك الأمر فمن الجائز أنه غفره له لما كان منه فيما بعد، ولكنه إذا لم يعرفه لكان جهله به سببا قويا فى أنه لم يذكره وفوق ذلك فقد كتب بعد هذه الحوادث بما لا يقل عن ستمائة عام" .

يقول إن ابن بطريق قبطى وإنه كتب بعد الفتح بما لا يقل عن ستمائة عام وما أغرب هذا من قول! فان المؤرخين الثلاثة الذين ذكرهم أميلنو : أحدهم أبو الفرج لم يكن قبطيا البتة ولم يكن كذلك مصريا بل كان سوريا، وأما الثانى فهو سعيد بن بطريق ولم يكن قبطيا بل كان بطريقا ملكانيا مع أنه لا يقول إن المقوقس كان هو بعينه قيرس . وقد كتب سعيد بن بطريق بعد الفتح بأقل من ثلثمائة عام وليس "بما لا يقل عن ستمائة عام" . وقد قال سعيد بن بطريق فوق ذلك صراحة إن المقوقس كان مراقب الخراج من قبل هرقل وهو يكاد فى ذلك يتفق فى النص مع وثيقة أميلنو، وأما الثالث مكين فقد كان مسيحيا ويجوز أنه كان قبطيا ولكنه مؤرخ متأخر وليس له قيمة كبرى . ومن هذا يظهر أن اعتراض أميلنو الخاص بمن سماه مؤرخى القبط لا يدعمه أساس على أنه ثمت مؤرخ قبطى من المتقدمين ومن أكبر المؤرخين شأنا ، وقد كتب بالعربية ودليله كما سبق القول كاف وحده

إذا لم يدعمه دليل آخر للدلالة على حقيقة المقوقس دلالة لا شك فيها، وهو ساويرس، ولكن أميلنو لا يأخذ عنه . ولنوجزهنا النتائج التى استخلصها أميلنو، وهى :

(١) أن خبر إرسال النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى المقوقس كتابا فى عام سنة ٦٢٧ خبر غير حقيق .

(٢) أن اسم المقوقس هو جورج بن مينا . وأما اسم "ابن قرقب" فانه تسمية أخرى (٦٥*) .

(٣) أن المقوقس كان أحد أبويه قبطيا إن لم يكونا قبطيين كلاهما . وأنه كان فى خدمة الامبراطور وأنه كان فى أوّل الأمر على المذهب الملكانى .

(٤) أنه كان بطريقا ملكانيا، ولكن تاريخ ولايتـه غير معروف إلا بالظن والحـدس .

(٥) أن لفظ المقوقس كان لقبا لقب به وهو مشتق من لفظ (٦٦*) أو من (٦٧*) وهو اسم قطعة صغيرة من النقود البرنزية كانت تتداول منذ أيام جستن .

والآن قد بلغنا موضعا نذكر فيـه مؤلفا عظيما فى ذلك البحث للأستاذ العلامة البرتغالى (F. M. E. Pereira) وهو (Vida da Abba Samuel do Mosteire do Kalamon) وهو ترجمة عن اللغة الأتيوبية من كتاب "حياة صموئيل" وبه تعليقات ورسائل قيمة من بينها رسالة قصيرة عن المقوقس (صفحة ٤١ — ٥٣) ولا يأخذ هذا المؤلف شيئا عن النسخة المخطوطة من كتاب ساويرس وهو فى ذلك مثل أميلنو وهو يتبع أميلنو فى كثير من المواضع وهو مثله لا يتحرى الدقة فى تصنيف مراجعة ولا يرتبهم بحسب قدورهم، ولكنه يظهر مقدار القرب بين الخبر فى النص الأتيوبى وبين الخبر فى النص القبطى . على أنه من أعجب الأمور أن ذلك النص الأتيوبى مثل كل مراجعنا لا يذكر اسم أكبر عامل فى تلك الحوادث بل يسميه "الحاكم" وتسميه القطعة القبطية πκολχιος و (بطريقا) والنتائج التى استخلصها (Pereira) مخالفة بعض المخالفة لما استخلصه أميلنو وهو كما يلى :

(١) إن صاحب الاضطهاد شخص عرف باسم πκαυχιος, أو المقوقس .

(٢) إنه كان من أصل يونانى .

(٣) إنه كان بطريق الاسكندرية وحاكم مصر ومراقب الأموال .

(٤) إن اسمه كان قيرس .

(٥) إن اسم المقوقس مشتق من لفظ (٦٨*) أو من لفظ (٦٩*) .

لم يبق علينا إلا أن نقول كلمة أخرى فى أن المقوقس هو قيرس . فقد نقل أميلنو عن التقويم القبطى للكنيسة ما ذكره التقويم عن يوم ٨ طوبة وهو يوم وفاة بنيامين ما يأتى : "قاسى بنيامين شدّة عظيمة على يد المقوقس فهرب إلى الصعيد حيث قضى مدّة عشر سنوات كاملة ... وكان المقوقس رئيس مذهب خلقيدونية، وقد استعمل واليا وبطريقا على مصر" ويتفق التقويم الأتيوبى مع هذا اتفاقا تاما وقد نقله (Pereira) بتمامه، وقد جاءت فيه هذه الكلمات (راجع أصل الكتاب صفحة ١٧٣) والترجمة ١٨٠) "والمقوقس أى (الحاكم والبطريق فى الاسكندرية وكل أرض مصر)". حقا إن النسخة الخطية لهذا التقويم يلوح أنها مؤرّخة فى القرن الخامس عشر (أنظر فهرس النسخ الخطية الأتيوبية فى المكتبة الأهلية سنة ١٨٧٧ صفحة ١٥٢)، ولكنها مع ذلك ترجع إلى أصل قديم جدا وعلى كل حال فما يسترعى النظر مقدار الدقة العظيمة التى بقيت فيها الرواية الصحيحة لهذا الخبر محفوظة فى هذه السجلات التى للكنيستين (وكانتا طبعا على اتصال وثيق) فى حين أن المؤرّخين العاديين قد خلط معظمهم هذه الأخبار وجعلوها غامضة حتى ضاع فيها الحق .

ولكن لقد صار من المحقق المقطوع به أن قيرس هو المقوقس بعينه وأن المقوقس كان قيرس الذى استعمله هرقل حاكما وبطريقا فى الاسكندرية . وإنه لمن العجيب أن حنا النقيوسى لا يذكر لقبا يشبه المقوقس أو πκαυχιος, ولكن تاريخه لهذا العصر حافل بالأدلة على أن قيرس البطريق هو الذى قام بالاضطهاد مدّة السنوات العشر وأنه كان حاكم بلاد مصر . وأما ما قيل من أن المقوقس قد

ورد ذكره فى سنة ٦٢٧ على أنه كان حاكم مصر إذ أرسل النبي محمد كتابه إلى ذلك الحاكم يدعوه فيــه إلى الإسلام فإنه اعتراض يسهل الجواب عليــه فإن من أوضح الحقائق أن مؤرخى العــرب الذين يذكرون اسم المقوقس ليس عنــد أحدهم أى إدراك لمعنى ذلك اللفظ ولا لاشتقاقه وقــد استعمل اللفظ وقصد به حاكم مصر فى سنة ٦٢٧ خطأ فقد كان عند مؤرخى العرب أمران :

(١) أن النبي محمدا أرسل رسولا إلى حاكم مصر فى سنة ٦٢٧

(٢) أن حاكم مصر فى وقت فتح مصر كان اسمه المقوقس وهوالذى كان أكثر الناس ذكرا فى تاريخ ذلك الفتح فاستنتجوا من ذلك خطأ أن الحاكم السابق كان اسمه المقوقس كذلك وهــذا خلط كان من أسهل الأمور ويكاد يكون لا بد منــه فى عقول لم تكن بطبعها نقاده . فليس ثمت ما يبرر تكذيب خبر بعث النبي للرسول إلى مصر كما فعل أميلنو إذ أنه خبر قد قام عليه من الدليل ما قام على أى خبر مصدق[(١)] من أخبار تاريخ الإسلام . وقد حدث مثــل هذا الخلط وفسرنا به إطلاق لقب المقوقس فى وقت ثورة منويل على بنيامين . وخلاصــة القول أن لفظ المقوقس يطلق على ثلاثة أشخاص :

(١) على الحاكم الذى جاءه كتاب النبي محمد قبل الفتح بسنوات .

(٢) على الحاكم الذى كان فى وقت الفتح .

(٣) على عظيم القبط فى وقت ثورة منويل .

---

(١) لسنا ندرى مقدار هذه الحجة من الصدق مع ما يزعم من وجود كتاب بعثه النبي صلى الله عليه وسلم الى "عظيم القبط" وفيه يسمى بلفظ "المقوقس" إذ لم يتعرض المؤلف لذكر نص هذا الكتاب (المعرّب) .

(١) قد راسلنا المؤلف فى هذا الأمر وعرضنا عليــه أن النبي أرسل رسوله الى حاكم مصر فى ذلك الوقت وهو (جورج) ولقبه بذلك اللقب ولم نجد منه رفضا لذلك الرأى . والظاهر على ذلك أن المقوقس كان لقبا يطلق على كل من يحكم مصر من قبل الروم . (المعرّب) .

وهذا يدل على أن العرب لم تكن عندهم صورة واضحة عنه ولكن دلت الأدلة كلها على أن ذلك اللقب كان يطلق على الحاكم الذى كان على مصر فى وقت الفتح فإن كل المؤرخين العرب يدلون على أن قطب الحوادث التى أحدثها المقوقس هو تسليم مصر . وقد دل حنا النقيوسى دلالة قاطعة على أن الذى سلم مصر وخانها هو قيرس .

بقى علينا أن نظهر كيف أصبح قيرس يدعى جريج بن مينا أو جريج بن قرقب فإن حنا النقيوسى كما رأينا ذكر رجلا اسمه (جورج) حاكم الإقليم الذى أمره عمرو أن يقيم جسرا على الترعة عند قليوب وعلى ذلك قد كان (جورج) هذا شخصا تاريخيا كان له مكان عظيم فى وقت الفتح العربى ولعله الشخص نفسه الذى نلقاه تحت اسم (الأعيرج) وإنه من السهل أن نعتقد أن مؤرخى العرب قد خلطوا بينه وبين قيرس ولسنا نقدر أن نقول أكان جورج هذا هو (جريج بن مينا) أو (ابن قرقب) ولسنا نرى لهذا كبير قيمة ولكنا لا نقدر أن نوافق (Karapacek) على أن والده كان يدعى بالاسمين معا ولو أنه من الجائز أن (قرقب) صحتها (فرقب) بالفاء وأن (فرقب) تعريب الاسم اليونانى(٧٠*) .

فإن لفظ (قرقب) لم يذكر فى الكتب العربية إلا فى عصر متأخر جدا(١) فأحر به ألا يكون أكثر من تحريف أو سلسلة من التحريف عند النسخ وقد قال أبو صالح صفحة ١٥٦ إن اسم (قرقر) مشتق من (جريجوريوس) فإذا ذهبنا إلى أن لفظ (قرقر) قد حرف فصار (قرقب) وهو احتمال قريب كل القرب — بدا لنا تفسير سهل قريب وهو أن (ابن قرقب) ليس إلا تحريف (ابن قرقر) وأن معناه (ابن جريجوريوس) ولنلاحظ كذلك أن (جريجوريوس) تكتب فى لغة الأرمن (جريجر) وأن ذلك الاسم من الأسماء الشائعة فى تلك البلاد والصورة المعتادة بين

(١) رأينا واجبنا التنبيه الى أن هذا الاسم ورد فى الطبرى (الجزء الرابع صفحة ٢٢٨ طبع المطبعة الحسينية بمصر) وقد جاء فيه قوله : « فأبى أرطبون أن يجيبهم وأمر بمناهدتهم ... فلم يفجأ عمرا والزبير إلا البيات من (فرقب) وعمرو على عدة فلقوه فقتل ومن معه » (المعرّب) .

القبط والأرمن اليوم من اسم (جريجوريوس) هي (كركور) وعلى ذلك فإنه من أقرب الأمور أن قيرس كان (ابن جريجوريوس) وأن جورج كان (ابن مينا) وقد نبهنا المسيو (كازانوقا) إلى أن (ابن قرقب) إن هو إلا تحريف بسيط لاسم (أبو قرص) وعلى ذلك نرى في الحقيقة اسم (قيرس) مختفيا تحت لفظ (ابن قرقب)، وهذا الاقتراح وجيه كما أنه ينم عن ذكاء .

وأما البحث في معنى لفظ المقوقس واشتقاقه فأصعب وأعسر فقد جاء في المراجع المتأخرة أمثال كتاب (الدميرى) "حياة الحيوان" (حوالى سنة ١٤٠٠) و «القاموس» الذي يأخذ عنه (في القرن الخامس عشر) ما يدل على أن لفظ المقوقس معناه (الحمامة المطوقة) . وقد ذكرت عدة أقاصيص في تفسير ذلك اللقب ولكن لا يكاد أحد يشك في أن هذا الاشتقاق مسخ للحقيقة وهي أن اسم المقوقس قد أطلق في العصور المتأخرة على (الحمامة المطوقة) على وجه الدعابة والاستظراف . وكذلك لا نستطيع أن نقبل ما ذهب إليه (Karabacek) من أن ذلك اللفظ مشتق من اللفظ اليوناني (٧٠*) فليس ثمت من دليل على ما يظهر على وجود مثل ذلك اللقب وإن قرب الشبه بين اللفظ اليوناني واللفظ العربي هو في الحقيقة هادم لذلك الرأي فانه لا يتصور أن يكون العرب قد حكوا ذلك اللفظ اليوناني على صورته بغير تحريف .

وقد رأينا أن لقب المقوقس قد ذكر في النصوص القبطية القديمة هكذا πκαυχιος وأن (أميلنو) و (بريرا) قد اتفقا في أنه مشتق من لفظ بيزنطي قيل أن معناه قطعة من النقود البرنزية صغيرة مثقوبة كما اتفقا في أن ذلك الاسم قد أطلق على قيرس على سبيل السخرية من عمله وهو مراقبة الأموال أو الضرائب أو الجزية . وهذا التفسير وإن كان بعيدا وفيه تكلف عظيم قد يكون أقرب إلى الأذهان لو صح الدليل على أن لفظ (٧١*) أو لفظ (٧٢*) كان مستعملا في مصر أو سواها من البلاد في ذلك الوقت أو في أي وقت آخر . وأما نحن فلا نعرف ثمت مثل هذا الدليل ، ولسنا ندرى أين وجد أميلنو مثل هذه الألفاظ فهو يشير إلى (Du Cange) ، إذ يذكر أن لفظ (٧٣*) معناه إناء صغير أو قدح ، كما أنه يذكر مثلا استعمل فيه

ذلك اللفظ بمعنى قطعة مخروقة من النقد . وقد ذكر أن المرجع فى ذلك كان (نوفمبر ١٠٥ جستن) وقد احترس (Du Cange) فذكر بعد ذلك أن قراءة لفظ (٧٤*) فى ذلك المرجع مشكوك فيها . وقد يكون المقصود هو لفظ (٧٥*)، ومثل هذا القول هو الذى اعتمد عليه (اميلنو) فى إثبات وجود ما زعم وجوده من "قطعة من النقد البيزنطى كانت مستعملة منذ أيام جستن" وقد أخذ (بريرا) هذا الاشتقاق بغير أن يشك فيه فقال "إن هذا اللفظ مكتوب على صورة (٧٦*) وصورة (٧٧*) وهو اسم لقطعة من النقود مخروقة كانت مستعملة منذ أيام (الامبراطور جستن)" (صفحة ٥٣) ولكن هذا الدليل قائم على أساس واه ويجب علينا أن نرفضه، وعلى ذلك فليس دوننا إلى الآن تفسير مقبول للقب المقوقس ولعلنا لن نستطيع أن نجد حلا لتلك المسألة ومع هذا فانا مقدمون على إيراد رأيين فى حلها سنعرضهما على علاتهما كما عنا لنا .

(١) إن كتاب العرب الذين ذكروا (المقوقس) ضبطوا اللفظ بكسر القاف الثانية وهو ضبط اللفظ الذى أطلق فى العصور المتأخرة على الحمامة المطوقة ولعلهم كتبوا اللفظ على هذه الصورة ليظهروا التشابه بين الاثنين . على أن اللفظ مضبوط بلا شك فى اللغة الأتيوبية بفتح القاف الثانية، ولا نكاد نشك فى أن ذلك الاسم نقل إلى اللغة الأتيوبية فى عصر متقدّم جدا . وبعد فان الكتّاب الذين عالجوا هذه المسألة لم يعن أحد منهم بأن يبحث عن البلاد التى جاء قيرس منها . ولا عن أصله ومنشئه . ولنذكر أنه لم يكن مصريا وأنه لم يكن من أهل القسطنطينية ومما لاشك فيه أن موطن قيرس وأصله كانا من أكبر مواضع التساؤل بين أهل الاسكندرية الذين اعتادوا الفضول والاهتمام بالأمور . ولا شك أن الجواب على تساؤلهم فى هذا الشأن كان (قفقاسيوس) وذلك لأن هرقل قد نقل قيرس من ولاية الدين فى (فاسيس) ببلاد (القوقاز) وعلى ذلك فانه من أقرب الأمور أنه كان يسمى (قفقاسيوس)(٧٩*) باللغة اليونانية وأن هذا اللفظ اليونانى نقل إلى اللغة القبطية : إما على صورة ⲕⲁⲧⲕⲁⲥⲓⲟⲥ (قفقاسيوس) وإما على صورة ⲕⲁⲧϫⲓⲟⲥ, (قلخيوس). ونشأ من هذه

الصورة القليلة التحريف الاسم العربى (المقوقس) فى القرن السابع أو الثامن فبقى إلى القرن العاشر فى صورة أكثر تحريفا وهى ⲡⲕⲁⲩⲭⲓⲟⲥ فى الوثيقة الخطية فى المكتبة الـ (بودلية) . وحرف (م القبطى) فى اللغة القبطية من السهل التعبير عنـه فى اللغة العربيـة بحرف (ميم مضمومة) وقد يساعد على ذلك وجه الشـبه بين ذلك اللفظ المنحوت فى العربية وبين صيغة اسمى الفاعل والمفعول . وهـذا التفسير وإن كان غير خال من وجوه الاعتراض قائم على أساس من التاريخ على الأقل وإذا كان التغيير من لفظ ففقاسيوس إلى لفظ قفقيوس يعدّ انتقالا كبيرا لا يبرره مر الزمن ولو كان مر قرنين كان الناس فى أثنائهما يتكلمان القبطية ويكتبان بها ، فانا نقول إن مدينة (فاسيس) كانت فى إقليم قلخيس (colchis) ولعل قيرس قد لقب بلقب (القلخى) ، والانتقال سهل جدا من هذا اللفظ الى ⲡⲕⲁⲩⲭⲓⲟⲥ .

(٢) وأما التفسير الثانى فهو كما يلى : — جاء فى تفسير (Du Cange) للألفاظ المستعملة فى كتابه أن لفظ (٨٠*) بمعنى (Amatus) و (Amasius) ومؤنثه (٨٠*) ومعناه (Concubina) وهو لفظ يدل على نوع من الرذيلة . ومن السهل والطبيعى أن يشتق من ذلك اللفظ صـفة (٨٣*) إذا لم تكن تلك الصفة موجودة ويكون إطلاقها على الشخص الذى يتصف بتلك الرذيلة . وهذه الصفة (٨٣*) تنقل إلى اللغة القبطية على صورة ⲡⲕⲁⲩⲭⲓⲟⲥ مع عدم تغيير الصفة ومع تغيير أداة التعريف وذلك على قياس اشتقاق لفظ آخر من لفظ (٨٤*) استعمل أكثر من مرة فى الوثيقة نفسها التى ورد فيها اللفظ السابق وهو كذلك لفظ يقصـد به الشخص عينه أى قيرس . ولكن قد يقال أن وصف قيرس بهذه الأوصاف القبيحة لا يسـتند إلى حقيقة فى التاريخ فالمسلم بهـذا ، ولكن ليس معنى ذلك أن القبط لم يصفوه بتلك الأوصاف ، بل على عكس ذلك إنه من أقرب الأمور أن يكونوا قد فعلوا ذلك إذ أن اضطهاد قيرس لهم مدّة السنوات العشر قد بذر فى قلوبهم كراهة عظيمة كانوا ينفسون عنها بسب عدوّهم . فقـد وصف قيرس فى هـذه الوثيقة عينها بأنه "الفاجر" و "اليهودى" و "الكافر" و "ابن الشيطان" و "المسيخ" .

وبأن مذهبه كان "شيطانيا" وعقيدته "مدنسة" وبأنه "ملعون أكثر من لعنة الشيطان وشيعته من الجن". فهل من المنتظر أن يطعن قيرس فى دينه هذا الطعن ثم ينجو خلقه من التجريح والقذف؟ فإذا جعلت حياته الخاصة هدفا لمثل هذا السباب المقذع فأولى به أن يتهم بالرذيلة التى يدل عليها لفظ (٨٥*) وإن كانت تلك التهمة لا حقيقه لها. وقد أبدينا هذين الرأيين ويلوح أنهما منفصلان ولا توفيق بينهما ولكنا نقول إنهما قد يكونان متصلين اتصالا وثيقا فانه من السهل أن نتصور أن المقوقس كان فى أول الأمر يدعى قفقاسيوس (٨٦*) أو قلخيقوس (٨٧*) أو قلخيوس (٨٨*)، ثم تلقف المصريون فى دعابتهم بما هم عليه من سرعة البديهة ذلك اللفظ وحولوه الى الوصف القبيح(٨٩*). وعلى هذا تحوّل لفظ مشتق فى أصله من اسم إقليم جغرافى فأصبح شتما قذرا وبقى الاسم بعد ذلك مدّة قرون بعد أن نسيت دلالته الحقيقية كل النسيان.

تعليق جديد للمؤلف فى موضوع المقوقس

تردّدت المكاتبة بين المعرّب وحضرة الدكتور الفاضل مؤلف هذا الكتاب (Dr. A. J. Butler) فى موضوع المقوقس وقد تفضل بتعليق جديد يثبت رأيه فى أن المقوقس لم يكن سوى (قيرس) البطريق الملكانى بالاسكندرية. وها نحن موروده هنا.

"وقد وجدنا دليلا جديدا على أن المقوقس كان (قيرس) بعينه، وجدناه فى كتاب منسوخ باليد فى باريس (منسوخات عربية رقم ١٥٠ — صفحات ٢٠ — ٣١). وقد جاءت فى هذه النسخة قصة عن (الأبا صمويل القلمونى) وفيها يروى عن صمويل أنه يبدى أشدّ الكراهة والانكار للقوقس الفاجر (الذى يجب ألا يذكر اسمه) وقد سماه على وجه التعيين باسم (كبيرس المقوقس) وذلك بلا شك خطأ من الناسخ لاسم (كيرس المقوقس) كما يقول الأستاذ (جاستون فيت). وهذه النسخة المخطوطة منقولة من أصل قبطى وصفحاتها بالفعل مرقومة باللغة القبطية. وهذا التعزيز المستقل لرأينا فى شخصية المقوقس له دلالة كبيرة".

الملحــق الرابع
فى تواريخ الفتــح العــربى

ما أكثر الصعاب التى تعترض الانسان اذا عالج مسألة التواريخ فى ذلك العصر حتى ليخيل الينا أن الوصول الى الحقيقة فيها يكاد يكون مستحيلا فليس على الكاتب فيهـا أن يقابل مسألة واحدة بل عليه أن يقابل عدّة مسائل متشابكة متداخلة يلوح للانسان أنه اذا حل عقدة منها فى ناحية دعا ذلك الى تعقــد جديد فى ناحية أخرى ولكن المستر (E. W. Brooks) قد عمل كثيرا على تسهيل الأمور فان مقاله الغــزير العــلم فى ذلك الموضوع بمجلة (Byzantinische Leitschrift ١٨٩٥ صفحة ٤٣٦ — ٤٥) يمكن أن يقال أنه أخرج تواريخ ذلك العصر من حــيز الظن وجعله قائما على أساس علمىّ فبحثه يجب أن يكون أساس أى دراسة سواء أكانت دراسة للتواريخ أم كانت لترتيب الحوادث فى ذلك العصر وإنى أبادر بأن أقر بما أنا مدين به لذلك البحث .

والمراجع اليونانية لا قيمة لها كما دل على ذلك المستر بروكس فلا يذكر تيوفانز ولا نيقفوروس فتح الاسكندرية ولو أن الأخير يذكر أن هرقلوناس أعاد قيرس الى بطرقة الأسكندرية بعد موت أخيه من أبيه قسطنطين فى مايو سنة ٦٤١ وهذا يفيد أن المدينة لم تكن عند ذلك قد فتحت ولا قربت من الفتح وتاريخ نيقفوروس ينتهى الى سنة ٦٤١ ولا يبدأ بعد إلا من سنة ٦٦٨ ولكن نيقفوروس وتيوفانز لا يوثق بهما فيما يتعلق بأوّل جزء من تاريخ الفتح فتاريخهما ملىء بالمتناقضات وكلاهما يخلط فى ترتيب الحوادث خلطا لا بد أن يؤدّى فعــلا الى تضليل المؤرّخين الذين يعتمدون عليهما تضليلا كبيرا .

وأما مؤرّخو السوريين والأرمن فيلوح أنهما لا يفضلون اليونانيين فمثلا اليشع النصيبى (نسخة المتحف البريطانى الخطية ٧ — ١٩٧ صفحة ٢٩) وقد نقل عنها

المستر بروكس) يجعل فتح الاسكندرية فى سنة ٢٠ للهجرة (ديسمبر ٦٤٠ — ديسمبر ٦٤١). وأما أبو الفرج فانه لا يذكر شيئا إلا ما ذكره عن القصة المعروفة قصة إحراق مكتبة الاسكندرية. وكذلك سبيوس فانه لا يذكر شيئا.

وأما المؤرخون العرب فانهم مثل اليونانيين فى إغفال ذكر الحوادث والخلط والتناقض، ولكن لا يخلو درس كتبهم من فائدة.

ابن عبد الحكم — نقل عنه (Weil) فى كتاب (Geschichte der Chalifen). وهو يقول إن عمرا كان عند العريش فى يوم الأضحى أى عاشر ذى الحجة سنة ١٨ للهجرة (١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩). ويذكر أن حصار الاسكندرية بقى تسعة أشهر بعد موت هرقل. ونقل السيوطى عن ذلك المؤرخ أنه قال إنه بعد فتح مصر أرسل عمرو جرائد الخيل الى القرى والمدائن التى فى جوار مصر وبقيت الفيوم لا يعرف العرب عنها شيئا مدة سنة.

البلاذرى — يذكر أن غزوة مصر كانت فى سنة ١٩ للهجرة (وهى تبدأ فى ٢ يناير سنة ٦٤٠) ويذكر أن وقعة عين شمس وغزوة الفيوم كانتا بعد فتح حصن بابليون. ويقول إن عمرا سار الى الشمال أى الى الاسكندرية فى سنة ٢١ للهجرة (١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ — ٢٩ نوفمبر سنة ٦٤٢) بعد أن مكث مدة فى حصن بابليون وإنه فى السنة عينها عام الرمادة كتب عمر بن الخطاب الى عمرو يأمره بارسال الجزية بالبحر، ويذكر كذلك عبارة أن مصر قد فتحت فى سنة ٢٠ للهجرة. وقد جرت العادة أن تفهم معنى «مصر» على أنها القطر المصرى كله فى حين أن المقصود بها هنا بغير شك مدينة مصر (أو منفيس) التى سبقت الفسطاط.

ابن قتيبة — يذكر أن وقعة (باب اليون) قد انتصر فيها عمرو فى سنة ٢٠.

الطبرى — يذكر أن الأمر بفتح مصر بلغ عمرا فى أوائل سنة ٢٠ للهجرة (أواخر شهر ديسمبر سنة ٦٤٠). ويذكر أن فتح بابليون كان على وجه التعيين

فى ربيع الثانى من السنة عينها (من ٢٠ مارس — ١٧ أبريل سنة ٦٤١) وإن بين هاتين العبارتين لتناقضا فانه من المحال أن يكون حصن بابليون قد فتح بعد ثلاثة أشهر من ورود الأمر الى عمرو وهو فى فلسطين بأن يغزو مصر، ولكن لقد عززت المراجع الأخرى صحة التاريخ الثانى، وعلى ذلك فالتاريخ الاول لا بد أن يكون غير صحيح ولكنا اذا جعلنا أوّل الغزوة فى أوائل سنة ١٩ بدلا من أوائل سنة ٢٠ وقع الاتفاق تقريبا على تاريخ أوّل الفتح بين ابن عبد الحكم والبلاذرى والطبرى . وفى الحقيقة نرى أنه من المؤكد أن الطبرى لا بد قد كتب سنة ١٩ لأنه عند ماذكر خبر وفاة عمرو قال إنه قضى أربع سنوات على ولاية مصر فى مدة عمر بن الخطاب . وكانت وفاة عمر فى سنة ٢٣ للهجرة . وعلى ذلك فلابد أن تكون ولاية عمرو قد بدأت فى ذى الحجة من سنة ١٩ للهجرة وإنه لا يعقل أن يقال إن مدّة ولايته تبدأ قبل ابتداء الغزوة .

وقد ذكر الطبرى أيضا أن الاسكندرية سلمت بعد حصار خمسة أشهر وأن الثورة (التى نسميها ثورة منويل) كانت فى أوائل سنة ٢٥ للهجرة .

أوتيكيوس — (وهو ابن بطريق) وأما عبارة أوتيكيوس فهى كما يلى : فتحت الفرما (وهى پلوز) بعد حصار شهر وفتح حصن بابليون بعد حصار سبعة أشهر وخرج المقوقس من الحصن فى وقت الفيضان وحدثت ثلاث وقعات بين بابليون والاسكندرية وفتحت (المدينة العظمى) فى يوم الجمعة مستهل شهر المحرّم من سنة ٢٠ للهجرة وهى السنة العشرون لحكم هرقل والثامنة من خلافة عمر .

ثم تلا ذلك فتح برقة وفتحت طرابلس سنة ٢٢ للهجرة فاذا كان يقصد بيوم الجمعة من محرّم أوّل يوم فى ذلك الشهر من سنة ٢٠ وافق ذلك يوم ٢١ ديسمبر سنة ٦٤٠ ولكن أوّل يوم فى المحرّم من السنة الثامنة لخلافة عمر كان يوافق العاشر من ديسمبر سنة ٦٤١ ولم يقع أى هذين اليومين فى يوم الجمعة والتاريخ الأوّل لا يقع إلا فى السنة الحادية والثلاثين من حكم هرقل وكان هرقل قد توفى قبل ذلك التاريخ . وحسبنا هذا من ابن بطريق .

ساويرس الأشمونيني — يذكر أن أمير المؤمنين أرسل جيشا بقيادة عمرو في سنة ٣٥٧ للشهداء وأن جيش المسلمين هبط الى مصر في قوة عظيمة في ١٢ بؤونه أى فى شهر ديسمبر الرومانى . وفى هذا أيضا خطأ فان يوم ١٢ بؤونه (أو پاينى) يوافق ٦ يونيه فى حين أنه إذا كان المقصود هو ديسمبر سنة ٣٥٧ للشهداء كان ذلك ديسمبر سنة ٦٤٠ وليس سنة ٦٤١ وقد جاء فى "الديوان الشرقى" أنه "فى ١٢ بؤونه سنة ٣٥٧ للشهداء جاء عمرو الى مصر وفتحها" ولكن ١٢ بؤونة سنة ٣٥٧ للشهداء توافق ٦ يونيه سنة ٦٤١ ويذكر المقريزى على وجه التعيين أن القبط يذكرون أن تاريخ فتح (الحصن) هو ١٢ بؤونه . ويذكر ساويرس أيضا أن المسلمين فتحوا الاسكندرية فى سنة ٣٦٠ للشهداء (وهدموا أسوارها) وهذه الاضافة تدل على أنه يقصد الفتح الثانى بعد ثورة منويل وفى الحقيقة أن تواريخ ساويرس لا تساعد على جلاء الظلمة .

أبو صالح — لا يزيد على ما نعرف إلا قليلا فانه يذكر نقلا عن كتاب الجناح أن عمرا فتح مصر فى ١٩ للهجرة (٢ يناير — ٢٠ ديسمبر سنة سنة ٦٤٠) وأنه عسكر خارج موضع اسمه "جنان الريحان" (صفحة ٧٣) . ويقول أيضا إن عمرا فتح مصر فى غرة المحرم من عام ٢٠ للهجرة وينقل (أو يسىء نقل) التاريخ الذى ذكره ساويرس .

ياقوت — هذا كاتب عظيم الشأن وهو يذكر أن عمرا طلب إلى الخليفة عمر أن يأذن له فى فتح مصر سنة ١٨ للهجرة (من ١٢ يناير سنة ٦٣٩ — ٢ يناير سنة ٦٤٠) وأن الروم لقوا عمرا أوّل مرة فى مصر عند الفرما واستمر القتال شهرين وبعد ذلك لم يلق العرب كبير كيد حتى بلغوا بلبيس ثم قاتلوا الروم هناك مدّة شهر قتالا متصلا . ثم ساروا سيرا سهلا الى أم دنين أو المقس وبقوا هناك يقاتلون نحو شهرين .

ومعنى هذا أن القتال استمر ستة أشهر من أوّل الغزوة مع حساب المدّة اللازمة للسير وهذا يوصلنا بدقة عظيمة من ١٢ ديسمبر الى ٦ يونيه .

وقال ياقوت : إن عمرا عنـد ذلك أرسـل يطلب الامداد و إن فتح الحصن كان مدّة فيضان النيل أى فى سبتمبر أو بعد ذلك بقليل على أن ذلك الكاتب يقول بعـد صفحة أو قريبا من ذلك إن فتـح بابليون كان فى يوم الجمعـة أوّل المحرم من سنة ٢٠ للهجرة (٢١ ديسمبر سنة ٦٤٠) وهو التاريخ الذى يذكر عادة أن الاسكندرية قد فتحت فيه وفى هذا ما فيه من التضليل . وقد قال ياقوت بعـد ذلك إن عمرا سار الى الاسكندرية فى ربيع الأوّل من سنة ٢٠ للهجرة (٢٠ فبراير — ٢٠ مارس سنة ٦٤١) — ولعل هذا تحريف وأنه يقصد ربيع الثـانى — ثم قال إن عمرا لمـا بلغ الاسكندرية حاصرها مدّة ستة أشهر وقال فى موضع آخر إن فتح الاسكندرية كان فى سـنة ٢٠ (وآخرها ٩ ديسمبر سـنة ٦٤١) وإن عمرا صالح أهل برقة سنة ٢١ للهجرة (١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ — ٢٩ نوفمبر سنة ٦٤٢) .

أما (ابن خلدون) : فانه ذكر أن عمرا اسـتأذن فى فتح مصر عقب فتح بيت المقدس وأن ذلك كان فى سـنة ٢١ للهجرة وأن عمرا سار الى أفريقية (برقة) فى سنة ٢١ نفسها !

وأما (المقريزى) : فقد أفاض فى القول فقد كرر أن عمرا كان عند العريش فى يوم الأضحى . وأنه قضى شهرا فى الفرما وأن المقوقس خرج من الحصن فى مدة فيضان النيل وأن مدّة الفيضان كانت لم تنقض عند ما فتح العرب الحصن . ولكنه روى عن الكندى أنه قال إن عمرا سار الى الاسكندرية بعد فتح حصن بابليون وأن ذلك كان فى ربيـع الأول سـنة ٢٠ للهجرة . وروى عن آخر أن ذلك كان فى جمادى الثانية (أوّل ربيع الأوّل فى ٢٠ فبراير، أوّل ربيع الثانى فى ٢٠ مارس وأوّل جمادى الأولى فى ١٧ أبريل سنة ٦٤١، وأوّل جمادى الثانيـة فى ١٨ مايو والتاريخ الصحيح هو جمادى الأولى كما سنرى) . وقال إن موت هرقل كان فى سنة ١٩ للهجرة وهو غير صحيح . ويقول المقريزى إن ذلك شجع المسلمين فضيقوا الحصار على الحصن ، ولكنه روى عن الليث تاريخا آخر وهو سنة ٢٠ للهجرة وهو الصحيح

وقال إن فتح الاسكندرية كان بعد موت هرقل بتسعة أشهر وخمسة أيام وإنه كان في يوم الجمعة أول المحرم سنة ٢١ للهجرة (١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ ولكن ذلك اليوم كان يوم اثنين) . ويذكر الليث أن الفتح الأول كان في سنة ٢٢ للهجرة (وأولها ٣٠ نوفمبر سنة ٦٤٢) ويورد المقريزي أسماء جماعة من المؤرخين روى عنهم تواريخ لها علاقة بالفتح وهم يختلفون بين سنة ١٦ وسنة ٢٦ للهجرة . ويقول بعد ذلك إن الأرجح أن سنة ٢٠ هي الصحيحة وهي التي يقبلها أكثر المؤرخين .

أبو المحاسن — ينقل عن الذهبي أن عمر بن الخطاب كتب الى عمرو يأمره بغزو مصر في سنة ٢٠ للهجرة (أولها ٢١ ديسمبر سنة ٦٤٠) . وينقل عن ابن الحكم أن حصار بابليون بقي سبعة أشهر . أما هو فيذكر أن فتح مصر (ولعله يقصد بها مدينة مصر) كان في أول المحرم سنة ٢٠ للهجرة . وينقل عن ابن كثير والواقدي وأبي معشر أن فتح مصر كان في ذلك العام نفسه و يذكر الواقدي أن فتح الاسكندرية كان في السنة نفسها . أما أبو معشر فيذكر أنه كان في سنة ٢٥ للهجرة . وأما سيف فانه يذكر أن مصر والاسكندرية فتحتا في سنة ١٦ للهجرة وأن ولاية عمرو على مصر تبدأ في سنة ٢٠ للهجرة .

السيوطي — بعد أن ذكر نقلا عن الليث أن موت هرقل كان في سنة ٢٠ للهجرة قال إن حصار الاسكندرية استمر تسعة أشهر بعد ذلك إلا أنه ابتدأ قبل وفاة هرقل بخمسة أشهر ولكنه قال مع ذلك إن فتح الاسكندرية كان في أول المحرم سنة ٢٠ للهجرة وهذا سهو لأن السيوطي يذكر بعد صفحات من هذا أن فتح الاسكندرية الأول كان في سنة ٢١ للهجرة وأن الفتح الثاني كان في سنة ٢٥ للهجرة وينقل عن القضاعي نقلا عن ابن قتيبة أن عمرا عاد من الاسكندرية (أي الى بابليون) في ذي القعدة سنة ٢٠ للهجرة (أكتوبر — نوفمبر سنة ٦٤١) .

وحسبنا هذا من المراجع العربية الكبرى . وإن ما بينهم من الخلاف عظيم ومن الواضح أنه لا يمكن التوفيق بينهم فيه ولكن من السهل أن نعين بعض أسباب

هذا الخلط الذى يقع فيه هؤلاء الكتاب جميعا وهو الذى ضلل المؤرخين المحدثين وحيرهم ، فلعله ليس فى التاريخ عصر فى مثل قصر تلك المدة وفيه مثل هذا العدد الكبير من المساقط التى يقع فيها من أراد البحث فى ترتيب التواريخ ، فان دوننا هنا عصرا مدته ثلاث سنوات وهى مثل مدة الفتح الفارسى . ويذكر لنا من غير تدقيق تاريخ واحد على أنه تاريخ الفتح، ولكن يقصد به أحيانا أول غزو البلاد وأحيانا تمام فتحها ثم إن اسم مصر يقصد به أحيانا مدينة مصر (وهى منفيس بقرب بابليون من الجنوب) وأحيانا يقصد به القطر المصرى وهذا مما يؤسف له .

وعلى ذلك فذكر "فتح منفيس" فى كثير من الأحيان لا يمكن التفريق بينه وبين "فتح بلاد مصر" ثم إن فتح حصن بابليون كان حادثا مخالفا لفتح مدينة مصر فى حين أن هذين الموضعين قريبان كل القرب وكان لا مناص من الخلط بين حوادثهما ثم إن الاسكندرية لم تفتح مرة واحدة بل مرتين . وقد وجد المؤرخون حتى أقدمهم من الذين كتبوا بعد الفتح بمائتى عام أن أخبار الفتح غير جلية وقد نسى ترتيب الحوادث فيها، وعلى ذلك فنحن أميل الى أن نعد أخطاءهم وتناقضهم أمرا يؤسف له وأنه ليس عجيبا ولا غير متوقع .

ولكن قد أشرق على تاريخ فتح العرب وترتيب حوادثه نور جديد لم يسبق للناس عهد به وذلك من كتاب حنا الأسقف القبطى لمدينة نقيوس وقد كان حاضرا تولية البطريق اسحق فى سنة ٦٩٠ للميلاد (أنظر ما يأتى صفحة ٤٩٠) ولعله قد ولد قريبا من وقت الفتح، ولكن لا بد له أن يكون قد سمع أخبار ذلك الفتح ممن شهده فشهادته على ذلك ذات قيمة كبرى فيما يشهد فيه . حقا إن بعض أجزاء ذلك التاريخ ناقصة لا ذكر لها فى ذلك الكتاب وهو أمر يؤسف له، كما أن أجزاء أخرى منه قد دخلها كثير من المسخ وتغيير الترتيب فلا نكاد نستبين لها معنى، ولكن مع كل ما فى النسخة الخطية الأتيوبية قد جاء فيها بعض تواريخ جديدة تسترعى النظر بدقتها العظيمة وهذه التواريخ بمثابة معالم ثابتة نستطيع أن نستدل بها على نظام علمى فى ترتيب التواريخ .

لقد رأينا فيما سلف أن كتاب حنا قد أغفل فيه ذكر كل ما يتعلق بمدة الفتح الفارسى وهذا النقص يبدأ من استيلاء هرقل الى ما بعد ذلك بثلاثين عاما أى من حوالى سنة ٦١٠ الى حوالى سنة ٦٤٠ ، ولا يرد فيه ذكر لدخول العرب الى مصر وأول استئناف لذلك التاريخ بعد ذلك هو عند ما علم (تيودور) قائد جيوش الروم فى مصر بهزيمة (حنا) قائد فرقة الخفر فى الفيوم وموته . وذكر بعد ذلك أن جيوش الروم اجتمعت عند حصن بابليون وقد عولت على أن تلق العرب قبل أوان فيضان النيل والنيل يبدأ مده فى أواسط الصيف ويبلغ جمامه فى الاعتدال الخريفى، وعلى ذلك يمكن أن نقول إن وقعة هليوبولس كانت فى (يوليه) أو فى (أغسطس) فإذا نحن اتبعنا قول ابن عبد الحكم أو البلاذرى أو الطبرى فى أن دخول العرب كان فى شهر ديسمبر سنة ٦٣٩ كانت وقعة هليوبولس فى يوليه أو أغسطس من عام سنة ٦٤٠، وكان من القريب أن أول إمداد جيش العرب أبصرها الروم من بروج حصن بابليون فى ٦ يونيه وهو اليوم الذى قام الدليل من قول ساويرس وغيره على أنه كان من أثبت الأيام ذكرا عند القبط، على أنه لم يكن يوم حادث خطير من حوادث الفتح. والمستر بروكس محق بغير شك فى أنه اعتبر البابين الرابع عشر بعد المائة والخامس عشر بعد المائة من تاريخ حنا فى غير موضعهما فعنوان الباب الخامس عشر بعد المائة هكذا "كيف استولى المسلمون على مصر فى السنة الرابعة عشرة من الدورة القمرية واستولوا على حصن بابليون فى السنة الخامسة عشرة" فى حين أنه مما يؤسف له أن الوصف الذى يصدق عليه هذا العنوان ساقط من الكتاب. وقد ورد فى الفصل السادس عشر بعد المائة أن موت هرقل كان فى "السنة الحادية والثلاثين من حكمه فى الشهر المصرى (يكاتيت) وهو يوافق الشهر الرومانى (فبراير) فى السنة الرابعة عشرة من الدورة وهى سنة ٣٥٧ للشهداء". وقد جاء فى الباب السابع عشر بعد المائة أن تسليم حصن بابليون كان فى يوم الفصح (الاثنين). وجاء فى الباب الثامن عشر بعد المائة "أن فتح (نقيوس) كان فى يوم الأحد الذى بعده (١٨ جنبوت) فى السنة الخامسة عشرة من الدورة". وقد قال المستر (بروكس) متبعا فى ذلك رأى

(زوتنبرج) إن تاريخ هرقل هو التاريخ الوحيد بين هـذه التواريخ الذى يمكن أن نفحصه وهو مذكور فى ذلك الكتاب فى منتهى الدقة فانا نعلم أن هرقل قد مات فى ١١ فبراير سـنة ٦٤١ وقال إن هذه الحقيقة دليـل قوى على أننا يمكن أن نعتبر التواريخ الأخرى صحيحة دقيقة. ولكن كلا هذين المؤرخين وجد نفسه مضطرا بعد هذا القول الى أن يظهر أن التواريخ الأخرى صحيحة بعض الصحة لا كل الصحة، فقال المستر بروكس فى عرض ذكره سنى الدورة التى ورد ذكرها فى عنوان الباب الخامس عشر بعد المـائة "ولا نظن أننا نستطيع أن نثق ثقة كبرى بهذه التواريخ" (صفحة ٤٣٩) ثم أظهر بعد ذلك أن يوم (١٨ جنبوت) الواقع فى يوم الأحد لم يكن فى السنة الخامسة عشرة من سنى الدورة كما قال حنا . وقصارى قوله هو أن الواجب أن نغـير التاريخ الذى ذكره حنا وهو (١٣ مايو سـنة ٦٤٢) فنجعله (١٣ مايو سـنة ٦٤١) . ومعنى هـذا أن الواجب أن نبرهن على خطأ جزء من قـول (حنا النقيوسى) .

وبعد فإنا نجرأ أن نقول إن هـذا الرأى لا حاجة بنا اليـه ولا ضرورة تدعو اليه. فإن الخطأ إنما نشأ من خطأ فى فهم ما قصده حنا بقوله "سنى الدورة" فان ناقديه أخذوا ذلك على أن المقصود منه سنى الدورة التى ابتدعها قسطنطين (وكل منها خمسة عشر عام)، ولكن حنا نفسه يسميها بوضوح (الدورة القمرية) وليس يقصد دورة قسطنطين. حقا إن التأريخ بتلك الدورة القسطنطينية كان فى عصر حنا غير مهمل بل كان لا يزال مستعملا فى مصر ولكن المقصود هو الدورة الديونيسية (Dionysian) وكل منها تسعة عشر عاما وقد بقيت مستعملة الى يومنا هذا وتسمى أعدادها عادة (الأعداد الذهبية). ويزعم (زوتنبرج) أن هذه الدورة لم تكن مستعملة فى التاريخ المدنى ولكن ما دام التأريخ بدورة قسطنطين كان غير شائع فى مصر فقد كان حنا معذورا كل العذر فى أنه يعمد إلى التأريخ بالتقويم الدينى الخاص بالكنيسة وقد كان على تمام الإلمـام به إذ كان رجلا من علماء الأساقفة، وعلى ذلك فانا موردون ما جاء فى كتابه فيما يلى :

(١) فتح مدينة مصر فى السنة الرابعة عشرة من سنى الدورة .

(٢) موت هرقل فى السنة الرابعة عشرة من الدورة فى ١١ فبراير سنة ٦٤١

(٣) فتح حصن بابليون فى السنة الخامسة عشرة من الدورة فى الاثنين (الفصح) أى فى ٩ أبريل سنة ٦٤١

(٤) فتح نقيوس فى السنة الخامسة عشرة من الدورة فى ١٣ مايو سنة ٦٤١

ويظهر من هـذا البيان أنه إذا كان قد نقل ما كتبه حنا على حقيقته كانت سـنة الدورة التى يؤرّخ بها تتغير فيما بين ١١ فبراير و ٩ أبريل، وهذا هو الأمر الواقع بالدقة فان الدورة القمرية الديونيسية كان أوّلها ٢٣ مارس (راجع كتاب (S. Butcher) فى (Ecclesiastical Calendar) صفحة ٧٣ وكتاب (Handy-book of Dates) تأليف Bond صفحة ٢١٨) والسنة الرابعة عشر من الدورة تقع ما بين ٢٣ مارس سـنة ٦٤٠ ، و ٢٢ مارس سنة ٦٤١ وكذلك السـنة الخامسة عشرة فانها تبدأ من ٢٣ مارس سنة ٦٤١ وتنتهى فى ٢٢ مارس سنة ٦٤٢ ، فاذا صح رأينا هـذا ثبت أن تواريخ حنا صحيحة لا خطأ فيها فليس فيها شىء يجب البرهان على فساده بل إن ثقتنا فى تواريخ هذا المؤرّخ تزداد زيادة عظمى .

ويجدر بنا أن نزيد على هذا أن الدورة القسطنطينية التى كانت تستعمل فى مصر قبل الفتح كانت قد صارت لا قيمة لها فى التاريخ إذ أنها كما دل عليه «Wilcken» فى كتابه (Hermes) ١٩ صفحة ٢٩٣ وما بعدها) بدل أن تبدأ من شهر توت وهو أوّل السنة المصرية فتكون بذلك متفقة مع أوّل سـنة من سنى التقويم كانت تبدأ أحيانا من أوّل حكم الامبراطور الحاكم وأحيانا أخرى من أيام أخرى مختلفـة من أيام الصيف متبعة فى ذلك نظاما لا يستطيع أحد أن يفهمه وهو نظام أشـبه بشىء بالفوضى المطلقة ولهـذا كان الأجدر بنـا أن نحمد كاتبا قديرا مثـل حنا على أنه استعمل تاريخا ثابتا لا يطعن أحد فى قيمته .

على أنه قـد وردت عبارة أخرى فى تاريخ حنا وذكر فيها تاريخ سنة من سنى الدورة يخيل الى من يراها أن رأينا الذى ذكرناه غير صحيح فقـد جاء فى الباب

الحادى والعشرين بعد المائة قوله " وفى السنة الثانية من الدورة القمرية جاء حنا من دمياط . وساعد المسلمين كيما يمنعهم من تخريب المدينة " وهذه السنة يكون أولها ٢٣ مارس سنة ٦٤٦، وآخرها ٢٢ مارس سنة ٦٤٧، وعلى هذا فلا بد أن يكون هذا الحادث قد وقع بعد ثورة منويل ولم يذكر عن تلك الثورة لفظ واحد فى كل تاريخ حنا ومع ذلك فانا نرى أن ذلك التاريخ صحيح لأن وجود فجوة أخرى فى آخر ذلك الكتاب أمر غير مستغرب فاذا نحن لم نذهب إلى هذا الرأى واعتبرنا أن المقصود هو السنة الثانية من الدورة القسطنطينية كان التاريخ المقصود هو عام (٦٤٣ — ٤) ولكن هذا فى حكم المستحيل إذ لم يرد أى خبر عن حادث وقع فى ذلك العام يمكن أن يحدو بالعرب الى تخريب الاسكندرية فى حين أنه قد جاء فى كل الأخبار أن ثورة منويل وعودة الروم الى الاسكندرية كانتا حوالى نوفمبر سنة ٦٤٥ ولم تهزم جيوشه إلا بعد عدّة أشهر ولا يكاد يشك فى أن فتح العرب للاسكندرية ثانية وقع بعد ٢٣ مارس سنة ٦٤٦ ، ونعلم كذلك أنه عند الفتح الثانى للمدينة أحرق جانب كبير فيها وهدم عمرو جانبا من الأسوار فلا يبعد أن يكون قد فكر فى تخريب المدينة كلها . وفوق ذلك يظهر أن (زوتنبرج) أغفل فى ترجمته كلمة ذات شأن فانه قال فى ترجمته "وبعد أن استولى (عمرو) على الاسكندرية جفف الترعة التى توصل الماء الى المدينة " فى حين أن الدكتور شارل يقول فى ترجمة هذه العبارة عينها "ولما استولى عمرو على مدينة الاسكندرية كان كثيرا ما يجفف الترعة" وهذه الكلمات تدل على أن الكاتب كان وهو يكتب هذه العبارة التى ورد فيها ذلك التاريخ يسبح بفكره فيما بعد الفتح الأوّل للمدينة بمدّة طويلة وسنرى أن ذلك الفتح الأوّل كان فى سنة ٦٤٢، وعلى ذلك يكون التاريخ الذى نحن بصدده يوافق رأينا فى أن المقصود هو التاريخ بالدورة الديونيسية القمرية، ولهذا نجرأ على أن نعدّ هذا الرأى لا وهن فيه ولا وجه للطعن .

نقبل الآن على ذكر تاريخ من أهم التواريخ على أنه تحيط به عقد يحار المرء فيها وذلك تاريخ عودة البطريق قيرس الى الاسكندرية من قسطنطينية فقد دعاه

هرقل حوالى نصف نوفمبر سنة ٦٤٠ بعد أن صالح العرب على تسليم بابليون ذلك الصلح الذى لم يتم ويلوح أنه نفى عند ذلك ثم أعاده قسطنطين الثالث خلف هرقل الى الحظوة وكان عازما على أن يعيده الى مصر فعاجلته المنية بعد أن حكم مائة يوم فمات ذلك الامبراطور فى مايو سنة ٦٤١، وخلفه على الملك هرقلوناس ولكن ثورة ثلثين فى ذلك الصيف نفسه عملت على أن يشرك أخوه من أبيه معه فى الحكم وهو قلسطانز . وقريبا من ذلك الوقت أرسل قيرس الى مصر ومعه الامداد وقد كان فى (رودس) فى أوائل سبتمبر — ولعله كان يأخذ ما كان فى دار الصناعة البحرية (الترسانة) من الذخائر وكان (تيودور) قائد جيوش مصر فى رودس كذلك وخلع بيعة الامبراطورة (مرتينة) إذ حرضه على ذلك ثلثين وأراد أن يسافر الى بنطابولس ولكنه نزل الى الاسكندرية مع قيرس فى فجر يوم ١٧ (مسكرم) أو (توت) وهو عيد الصليب أى فى ١٤ سبتمبر .

هـذا ما يمكن أن نستخلصه من تاريخ حنا الذى تغيرت معالمه تغيرا يؤسف له وهذه الأخبار يعززها ما جاء فى تاريخ نيقفوروس إذ يقول إن (قيرس) أعاده هرقلوناس الى مصر، ولكنا الآن آتون الى خبر من تلك الأخبار التى كتبت بعد حدوث حوادثها على صورة النبوءة وهى كثيرة فى تواريخ القبط وهى تستلزم أن تكون عودة قيرس فى عيد الفصح فقد روى حنا أنه بعيد عودته (راجع الفصل العشرين بعد المائة) أقيم احتفال فى الكنيسة العظمى كنيسة القيصريون فى عيد الفصح واختار القمص للصلاة ترتيلا غير ما كان يجب أن يختاره لذلك اليوم أى المزمورة التى مطلعها "وهذا هو اليوم الذى جعله الله" الخ (راجع المزمورة الثامنة عشرة بعد المائة ٢٤ — ٢٦) وقد عدّ هذا التغيير فالا سيئا وذاعت كلمة قالها القسوس وهى أن قيرس لن يشهد بعد ذلك اليوم عيدا آخر للفصح . فلما مات قيرس بعد ذلك فى يوم الخميس المقدس (٢٥ مجابت) أى قبل عيد الفصح التالى بثلاثة أيام تذكر الناس النبوءة وقالوا إنها قد تحققت . وقد قال المستر بروكس بوضوح مقنع إن يوم (٢٥ مجابت) أو (فامنوت) يوافق ٢١ مارس، وليس ٢ أبريل، كما زعم زوتنبرج

فى حسابه، ثم قال إن عيد الفصح فى سنة ٦٤٢ كان فى يوم ٢٤ مارس من ذلك العام وإنه فى ذلك العام وحده قد وقع يوم الخميس المقدّس فى (٢٥ مجابت) وعلى ذلك "فقد ثبت تاريخ وفاة قيرس ثبوتا لا شك فيه وأنه كان يوم الخميس ٢١ مارس من سنة ٦٤٢" وينتج من ذلك أن يوم الفصح الذى ذكر فى ذلك الخبر أن قيرس قد عاد فيه كان يوم الفصح من عام ٦٤١ وهو يوم ٨ أبريل .

فاذا أجملنا ما قاله حنا كان كما يلى :

(١) نزل قيرس فى مصر فى ١٤ سبتمبر بعد موت هرقل أى سنة ٦٤١

(٢) أنه أقام عيد الفصح سنة ٦٤١ وهو يوم عودته .

(٣) أنه مات فى ٢١ مارس سنة ٦٤٢

وهذه الأخبار ظاهرة التناقض ولا يشك زوتنبرج فى أن قيرس نزل فى أرض مصر فى يوم ١٤ سبتمبر . ويرى أنه من الغريب أن تقام صلاة بمناسبة عودته بعد سبعة أشهر منها ولكنه مع ذلك قبل هذا الأمر الغريب هذه الغرابة وجعل موت قيرس فى سنة ٦٤٣، وأما المستر بروكس فانه يرى رأيا آخر فانه برهن برهانا قاطعا على أن قيرس مات فى يوم الخميس الذى قبل عيد الفصح من سنة ٦٤٢ ثم برهن على أن زوتنبرج مخطئ فيما ذهب اليه من أن عوده (تيودور) وعودة (قيرس) كانتا فى وقت واحد وجعل عودة قيرس فى عيد الفصح من عام ٦٤١ وهو يدرك ما يواجهه من الصعوبة فى تكذيب تاريخ حنا وهو أن عوده قيرس كانت بعد وفاة قسطنطين الثالث وما يعززها من قول نيقفوروس ، ولكنه يميل الى أن يقول إن كتاب حنا قد داخله شىء من الخطأ فى ذلك الموضع ثم يقول فى ختام حجته "وأما البت فى مسألة عودة قيرس وأنها كانت قبل عيد الفصح من عام ٦٤١ فأمر يجب أن يبقى موضعا للنظر والبحث"، وأما ما قصده حنا فلا شك عندنا[1] فى أنه كان يقصد

(١) يتبع (Pereira) فى كتابه (Vido do Abba Daniel) (صفحة ١٨) رأى زوتنبرج فى ترتيب التواريخ بغير فحص كما يتبع رأى أميلنو فى تاريخ ابحق (صفحة ٢٩) .

أن يقول إن قيرس قد عاد فى ذلك الوقت المذكور وإنه لمن المحتمل أن التاريخ قد غير قصدا لادخال ذكر النبوءة" (راجع موضع ذكر ذلك فى صفحة ٤٤١) .

ولسنا نوافق على هذه الآراء كل الموافقة فان التاريخ الذى ذكر زوتنبرج أن قيرس قد مات فيه لا يؤيده شىء[1] . هذا من جهة، ومن جهة أخرى فانا نرى أن المستر بروكس مخطئ فى قوله إن عودة قيرس لم تقع مع عودة تيودور فى وقت واحد وإن عودة تيودور كانت وحدها فى ١٤ سبتمبر من سنة ٦٤١، ويقول المستر بروكس إن هذين الحادثين "منفصلان كل الانفصال" ولكن نص الكتاب فيه ما يلى : "فدخل الاسكندرية (تيودور) فى ليلة السابع عشر من شهر (مسكرم) فى عيد الصليب وخرج أهل الاسكندرية أجمعين من نساء ورجال وهم بين شبان وشيب ليلقوا البطريق قيرس وهم فرحون يشكرون الله على عودة بطريق الاسكندرية، وصحب تيودور البطريق خفية إلى كنيسة (التبيونيسيين) وأقفلا الباب وراءهما". وإنا إزاء هذا القول لا يسعنا إلا أن نرى أنه من المحال أن يكون هذان الرجلان قد أتيا فى وقتين متفرقين أو أنه عندما أتى (تيودور) كان قيرس قد مضى عليه فى الاسكندرية خمسة أشهر أو يزيد وفوق ذلك فانا لو قلنا إن قيرس قد عاد فى يوم الفصح من سنة ٦٤١ لنشأت من ذلك صعاب أخرى، فأول شىء يجب علينا أن نكذب كل ما ذكره حنا عن حوادث القسطنطينية بعد موت هرقل أو على الأقل أن نكذب نصيب قيرس من تلك الحوادث، كما أنه يجب أن نكذب ما جاء فى كتاب (نيقفوروس) وفوق كل ذلك يجب علينا أن نكذب عبارة أخرى فى كتاب حنا وهى فى منتهى الوضوح فانه ذكر بعد وصفه للصلاة فى القيصريون أن قيرس عاد (حينذاك) إلى بابليون والمستر بروكس يقبل هذا القول ويضيف إليه أن حصن بابليون "كان قد صار قبل ذلك بقليل الى يد العرب" إذ أنه قد فتح كما برهن هو على ذلك فى ٩ أبريل سنة ٦٤١ غير أنه عاد فى الصفحة التالية لذلك فقال إن تسليم الاسكندرية

(١) يتبع (Pereira) فى كتابه (Vido do Abl a Daniel) (صفحة ١٨) رأى زوتنبرج فى ترتيب التواريخ بغير فحص كما يتبع رأى أميلنو فى تاريخ اسحق (صفحة ٢٩) .

الذى اتفق قيرس عليـه مع عمرو فى بابليون وهو بغير جدال القصد الذى قصد اليه من زيارته لحصن بابليون قد حدث فى الشهر الذى بين ١٢ أكتوبر و ١٠ نوفمبر من سنة ٦٤١، فكيف لنا أن نوفق بين هاتين العبارتين وفوق ذلك فانا نعرف من كتاب حنا ومن سواه من المراجع أن عمرا غادر حصن بابليون عقب فتحه فكان فى مدينة نقيوس فى ١٣ مايو فلم يكن فى فترة مقامه بالحصن متسع لزيارة قيرس ومفاوضته ثم أننا اذا قلنا إن تاريخ تسليم الاسكندرية كان فى تلك الفترة كنا بذلك عاملين — كما لا بد أن يقرّ المستر بروكس على نقل التواريخ من مواضعها واضطرابها .

وعلى ذلك فانا إذا وافقنا زوتنبرج على أن قيرس نزل بأرض مصر مع تيودر فى يوم الصليب أى فى يوم ١٤ سبتمبر سنة ٦٤١ واذا وافقنا المستر بروكس على أن قيرس مات فى يوم خميس العهد التالى أى فى يوم ٢١ مارس سنة ٦٤٢ كان لا بد لنا من التوفيق بين قولنا هذا وبين ما جاء فى كتاب حنا وإنا نستطيع أن نجد المفتاح الذى يفتح لنا ما استغلق من هذا الأمر بدرس ما جاء بذلك الكتاب فإنا إذا لخصنا ما جاء به اتضح لنا من خلاله أن العيد الذى أقيمت فيـه الصلاة بمناسـبة عودة قيرس ورتلت فيه المزمورة التى فى غير موضعها لم يكن عيد الفصح بل كان عيد إعلاء الصليب أى العيد الذى نرى أن قيرس نزل الى أرض مصر فى يومه وذلك لأسباب أولها أن الخبر يذكر لنا صراحة أن الخطبة التى خطبها قيرس كانت كلها عن الصليب[1] وأنه قـد احتفل فى موكب يحمل القطعة من الصليب المقـدّس أو الصليب الذى أحضره اليـه القائد حنا قبـل منفاه وسار بذلك الموكب من دير التبيونيسيين وكل هـذه التفاصيل تكون لا موضع لهـا اذا كان المقصود هو عيـد الفصح وهى كلها

(١) وقد أخطأ زوتنبرج فى فهم معنى هذه العبارة فقد ترجمها كما يلى "وأمر بفتح (؟) الحوض الذى كان فيه الصليب المقدّس الذى جاءه قبل نفيه من القائد حنا" وعلامة الاستفهام من وضع زوتنبرج نفسه ولكن ترجمة الدكتور شارل كما يلى "وعندئذ (مدح البئر التى وجد فيها الصليب المقدّس مدحا كثيرا) وقد كان جاءه هذا الصليب قبل منفاه من القائد حنا" وكان قيرس بغير شك يعيد قصة العثور على الصليب فى سنة ٣٢٦ ولا يبقى شك اذا ذكرنا أن ذكر العثـور على الصليب وعيد إعلاء الصليب يقام الاحتفال بهما معا فى يوم واحد فى الكنيسة الشرقية وذلك اليوم هو يوم ١٤ سبتمبر .

فى موضعها الصحيح اذا كان المقصود هو يوم الصليب المقدّس وفوق ذلك فقد ذكر أن قيرس جاء من دير التبيونيسيين الى كنيسة القيصريون لحضور الاحتفال بعيد الفصح المزعوم، كما قد ذكر قبل ذلك بأسطر أن تيودور قد عاد عقب نزوله الى البر الى دير التبيونيسيين فى صحبة قيرس واذا كان ذلك الحادث قد وقع فى يوم عيد الفصح حقيقة لما كان لوجوده فى دير التبيونيسيين فى ذلك الوقت معنى فى حين أنه اذا كان المقصود هو عيد الصليب كما نرى نحن كان الوجود بالدير حينئذ ضرورة من ألزم الضرورات إذ يكون قيرس عند ما نزل الى البر ذهب الى الدير ثم ذهب من هناك فى موكب الى كنيسة القيصريون . ثم إن المزمورة "هذا هو اليوم الخ" هى التى كانت تستعمل " فى الأعياد السيدية وكامل أيام الفطر" ولسنا نستطيع أن نعرف اذا كان استعماله فى الترتيل فى الصلاة يدل دلالة واضحة على أن اليوم المقصود هو يوم الفصح أو هو يوم آخر . وإنا نرى على وجه الاجمال أنه لاشك فى أن تلك الصلاة التى حضرها قيرس عند عودته كانت صلاة عيد الصليب أى أن عودته كانت فى يوم ١٤ سبتمبر سنة ٦٤١

ولكن اذا كان الأمر كذلك فما القول فى النبوءة ؟ وجوابنا على ذلك يتناول أمرين : (١) أن تلك النبوءة تبقى على ما لها من القيمة فاذا كانت قد قيلت فى وقت صلاة عيد الصليب كان المقصود منها عيد الصليب الذى بعده أو كان المقصود منها يوم الفصح المقبل وقد صحت على كلا الحالين . (٢) أن التفسير المقبول عقلا هو أن قيرس عند ما عاد رأى الناس عليه أمارات المرض أو التغير وأولوا حادث الترتيل بما أحسوه من التطير فى نفوسهم فقد كانت عبارة النبوءة كما يلى "إنه لن يشهد عيدا آخر للفصح" فلما مضت بضع سنين على ذلك أصبحت وفاته قبيل عيد الفصح قطب تلك القصة فحورت عبارتها بعد أن نسيت تفاصيل الحادث الذى حدث وعزى أصل النبوءة الى يوم عيد الفصح ما دامت وفاة قيرس قد وقعت قبل يوم عيد الفصح الذى بعده . وذلك تجوز لم يراع معه ترتيب التواريخ والحوادث وعلى ذلك قد كان من الطبيعى أن تزاد على عبارة حنا العبارة الآتية " فى يوم عيد القيامة" وذلك

فى موضع يظهر فيه هذا القول غريبا فى غير موضعه [1] . وهذه العبارة بغير شك زيادة من بعض النساخ أدخلها على النص الأصلى واذا نحن حذفناها زالت كل أسباب الحيرة واتضح سياق الحوادث واستبان بعد أن كان مختلطا خفيا .

وتسير عبارة حنا بعد ذلك سيرا طبيعيا فانه بعد يوم الصليب بقليل ذهب قيرس الى بابليون يطلب لقاء عمرو وقد أثبت ابن قتيبة أن عودته من غزوته فى الدلتا كانت فى ذى القعدة من سنة ٢٠ (١٢ أكتوبر — ١٠ نوفمبر سنة ٦٤١) ، وهى الغزوة التى لم يتم فيها شيئا من الفتح . وهذا معناه أن ذهاب قيرس الى بابليون كان نحو آخر أكتوبر وعلى ذلك لا يمكن أن نجعل تاريخ الصلح فى ١٧ أكتوبر كما يزعم المستر بروكس فان عمرا اذا كان قد عاد الى بابليون فى أوائل ذى القعدة (وهو أمر لم يذكر) كان لابد من مضى أيام مدّة قبل أن يستقر الأمر على شروط الصلح ولهذا لا نرى أن الصلح قدتم قبل آخر ذى القعدة . ونرى فى الحقيقة أن الصلح الذى اتفق قيرس مع عمرو عليه قد وقع فى ٨ نوفمبر على وجه التعيين وقد كان من شرط هذا الصلح أن تباح مدّة هدنة قدرها أحد عشر شهرا وكان على جنود الروم أن تجلو عن الاسكندرية فى أثنائها . وقد اختار المستر بروكس لذلك تاريخ ١٧ أكتوبر لأن هذا التاريخ يقع قبل يوم ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ بأحد عشر شهرا إذ أنه يزعم أن ذلك التاريخ الأخير هو يوم إخلاء الاسكندرية للعرب . ولكن ليس ثمت من سبب يحدو بنا الى أن نقول إن جيش الروم قد بقى فى الاسكندرية الى آخر يوم من أيام الهدنة ، إذ كانوا قد تجهزوا قبل ذلك للسفر . وإنا اذا حسبنا مدّة الهدنة بالشهور العربية من يوم ٨ نوفمبر كانت نهايتها يوم ٢٩ سبتمبر . وأما المستر بروكس فانه يؤكد أن تاريخه (أى ١٧ أكتوبر) "يتفق كل الاتفاق مع ما ذكره ابن عبد الحكم من أن الحصار استمر تسعة أشهر بعد موت هرقل" وكانت وفاة هرقل فى يوم الأحد ١١ فبراير سنة ٦٤١ فاذا نحن عددنا المدّة بالحساب العربى وقع آخر أجل الهدنة فى شهر نوفمبر —

(١) جاء فى كتاب زوتنبرج "ولما بدأوا الاحتفال بالصلاة (فى يوم عيد القيامة) بدلا من أن يرتلوا المزمورة الخاصة بذلك اليوم الخ" .

ولكن المقريزى قد ذكر أن فتح الاسكندرية كان بعد موت هرقل بتسعة أشهر وخمسة أيام، واليوم الحادى عشر من شهر فبراير سنة ٦٤١ يوافق يوم ٢٣ صفر فاذا حسبنا تسعة أشهر وخمسة أيام من هذا التاريخ بلغ بنا الحساب يوم ٢٨ ذى القعدة وهو يوم الخميس ٨ نوفمبر .

هذا ما نراه التاريخ الصحيح . وقد لاحظ المستر بروكس أن الصلح لا يمكن أن يكون قد وقع بعد نوفمبر لأن قيرس عند عودته من بابليون الى الاسكندرية طلب من تيودور أن يحمل ذلك الصلح الى الامبراطور هرقل (أى هرقلوناس) وقد كانت وفاته فى انتهاء هذا الشهر (نوفمبر) ولكن من الأمور التى تستحق البحث أن نرى هل مؤرخو العرب إذ يوردون المدة الصحيحة بين وفاة هرقل الأول وتسليم الاسكندرية يجعلون وفاته فى يوم ١١ فبراير أو فى ١١ مارس، فقد ذكر تيوفانز وقيدرينوس خطأ أن وفاته كانت فى ١١ مارس ولعل هذا قد ضلل مؤرخى العرب فانه من العجيب أننا إذا حسبنا مدة الأشهر التسعة والأيام الخمسة بادئين من ١١ مارس (أو ٢٢ ربيع الثانى) بلغ الحساب بنا يوم ٢٧ من ذى الحجة (أى ٧ ديسمبر) وهذا اليوم السابع من ديسمبر كان يوم جمعة وهو قريب من أول المحرم (١٠ ديسمبر) الذى ثبت فى أخبار العرب أنه كان يوم فتح الاسكندرية .

وبعد فقد برهن المستر بروكس برهانا قويا على أن التواريخ الباقية الى الآن من التواريخ التى ذكرها حنا إذا فسرت على حقيقتها تنص على أن ولاية البطريق بطرس خلف قيرس على بطرقة الملكانيين كانت فى ١٤ يوليه سنة ٦٤٢ وعلى أن الروم أخلوا الاسكندرية فى السابع عشر من سبتمبر من ذلك العام نفسه (صفحة ٤٤٣) ويجدر بنا أن نزيد على هذا أن عودة بنيامين من منفاه فى الصعيد كانت فى سنة ٦٤٤ ولعلها كانت أقرب الى نهاية العام منها الى أوله[1] .

(١) يجعل أميلنو عودة بنيامين فى سنة ٦٤١ (Vie du Patriarche Isaac) (صفحة XIV) ولكن هذا القول معناه أن مدة النفى كانت عشر سنوات بدلا من ثلاث عشرة سنة وهو المتفق عليه عند جل المؤرخين .

ولكنا مضطرون الى أن نخالف المستر بروكس فى أمر أو أمرين فى رأيه ذاك فانه ينقل عن (ابن بطريق) وابن عبد الحكم ومكين أنهم اتفقوا على أن مدة حصار الاسكندرية كانت أربعة عشر شهرا وعلى ذلك جعل بدأ ذلك الحصار فى أواخر أغسطس من سنة ٦٤٠، وكذلك ينقل عن (ابن بطريق) أن حصار بابليون بقى سبعة أشهر، ولما كان فتح بابليون قد وقع فى ٩ أبريل سنة ٦٤١ كان أول الحصار فى أوائل شهر سبتمبر سنة ٦٤٠ وعلى ذلك يكون العرب قد حاصروا المعقلين فى وقت واحد تقريبا وذلك أمر غير ممكن من الوجهة الحربية المحضة فان عمرا لم يكن معه فى وقت من الأوقات جند كاف لحصار الحصنين معا وفوق ذلك ليس ثمت مؤرخ يدعم حجة المستر بروكس فيما ذهب اليه بل إن المراجع كلها تنقض رأيه فان حنا نفسه يقول إن عمرا غادر حصن بابليون بعد فتحه فى ٩ أبريل سنة ٦٤١ وإنه فتح نقيوس بعد ذلك بشهر وإذا نحن أرخنا سقوطها بشهر جمادى الأولى وهو وسط بين ربيع الأول الذى ذكره الكندى وياقوت وبين جمادى الثانية وهو الذى ذكره المؤرخ الذى نقل عنه المقريزى كان ذلك موافقا كل الموافقة لما جاء فى كتاب حنا. وسار جيش عمرو بعد فتح نقيوس الى الشمال وإنه لمن القريب أن يكون قد حاصر الاسكندرية فى آخر شهر يونيه أو فى أوائل شهر يولية من عام ٦٤١ ومن هذا الوقت تبدأ مدة الحصار الأربعة عشر شهرا وليس من شهر أغسطس ولا من شهر سبتمبر سنة ٦٤٠ ذلك إذا أردنا الأخذ بما جاء فى تواريخ ابن بطريق (اوتيكيوس) وابن عبد الحكم ومكين. أى أن مدة الأربعة عشر شهرا يجب أن تحسب من وقت تسليم المدينة فى أواخر سبتمبر سنة ٦٤٢ راجعة الى أول الفتح لا أن تحسب من تاريخ الصلح الذى كان فى سنة ٦٤١

هذه النتيجة تفضى بنا الى اتفاق يكاد يكون تاما مع ما جاء فى الطبرى إذ يقول. إن مدة الحصار كانت خمسة أشهر (قبل التسليم) : وإذا حسبنا ما بين أول يولية و ٨ نوفمبر كان ذلك تمام أربعة أشهر ونصف من الشهور العربية ويلوح أن هذا الاتفاق يعزز التاريخين اللذين أخذنا بهما وهو فى نفس الوقت يبين لنا سبب ذلك.

الاختلاف الكبير بين المؤرخين فى تقـدير مدة الحصار . فمن الواضح أن بعضهم بدا حسابه من أول وقوف العرب دون الاسكندرية الى معاهـدة التسليم و بعضهـم حسب المدّة الى وقت إخلاء الروم للمدينة فعـلا، والظاهر أن عبارة السيوطى التى نقلناها آنفا فيها خلط بين ما جاء فى الطبرى وما جاء فى أوتيكيوس وهى خطأ واضح. وأما اليعقوبى والبلاذرى وابن خلدون وسـواهم من المؤرخين فانهـم يذكرون أن مدة الحصار كانت ثلاثة أشهر وظاهر أنهـم يقصدون أنه قد مضت ثلاثة أشهر من الحصار قبل معاهدة الصلح فاذا أضفنا الى تلك المدة مدّة الهدنة وهى أحد عشر شهرا رجعنا الى أن المدّة بين أول مجىء العرب أمام المدينة ودخولهم فيها كانت أربعة عشر شهرا . ومن ذلك يتضح أن هذه الأخبار وإن ظهر عليها شىء من الاختلاف يمكن التوفيق بين مواضع الخلاف فيها أو التقريب بينها تقريبا يسترعى الأنظار .

وكذلك نخالف ما ذهب اليه المستر بروكس من أن "فترة الأشهر الأحد عشر قضاها عمرو فى غزو بنطابولس" (يقصد مدة الهـدنة) فانا نسلم بأن نص عبارة كتاب حنا كما هى تساعد على الأخذ بهذا الرأى وذلك لأن الفقرة القصيرة التى ذكرت فيها هذه الغزوة جاءت قبل ذكر موت قيرس مباشرة، ولكن قد جاء ذكر موت قيرس فى موضع آخر بعـد ذلك وظاهر أن ذلك البـاب ممسوخ الترتيب فلا يمكن أن تقوم حجة على ترتيب أخباره . وإن الأسباب الحربية بغير شك كانت تمنع عمرا من أن يغامر بالقيام بغزوة بعيدة قبل أن يملك الاسكندرية وهى القاعدة الوحيدة التى كان يمكن أن تبدأ منها مثل هذه الغزوة . وأما ابن الأثير فانه يورد قولا قاطعا فى ذلك التاريخ فيجعل تلك الغزوة فى سنة ٢٢ للهجرة . وأما سواه من مؤرّخى العرب فإنهم مهما اختلفوا فى ذلك التاريخ متفقون على أن فتح برقة إنما كان بعد سنة من تملك الاسكندرية (راجع ابن بطريق و ياقوت) وعلى هذا فانا جعلنا تاريخ غزوة بنطابولس فى الشتاء الذى أعقب إخلاء الاسكندرية . وقد بدأت السنة الثانية والعشرون للهجرة فى ٣٠ نوفمبر سنة ٦٤٢ فاذا كانت الغزوة قد وقعت

بعد أول السنة بقليل كان ذلك إيضاحا سهلا لما وقع فيه مؤرخو العرب من الاختلاف بين سنة ٢١ وسنة ٢٢ للهجرة .

ولسنا نشك فى أن عمرا كان كثير الأعمال فى بابليون ولعله كان يتجهز لاتمام فتح الصعيد أو إخضاعه وقد كان بغير شك يستعد لإعادة حفر قناه تراجان فقد جاء فى البلاذرى أن عام القحط فى بلاد العرب كان سنة ٢١ للهجرة (وأولها ١٠ ديسمبر سنة ٦٤١)- وجاء فى تاريخ ابن الأثير أن عمرا أرسل فى ذلك العام القمح الى المدينة فى الخليج الذى حفره ولعل ذلك كان فى أغسطس أو سبتمبر من عام ٦٤٢

وما كان حفر ذلك الخليج بممكن إلا فى الشتاء فى وقت انخفاض النيل كما أنه ما كان سير السفن فيه ممكنا فى غير فصل الصيف عند فيضان النيل وكان عمرو فى شتاء (سنة ٦٤٠ — ١) مقبلا على حصار حصن بابليون مشتغلا به فلم يكن من الممكن حفر ذلك الخليج إلا فى شتاء (سنة ٦٤١ — ٢) كما يفهم من تاريخ ابن الأثير وقد جاء فى ذلك التاريخ عينه أن تاريخ غزو عمرو لبرقه كان على وجه التعيين فى سنة ٢٢ للهجرة وهى تبدأ من يوم ٣٠ نوفمبر سنة ٦٤٢ وتنتهى فى يوم ٢٠ نوفمبر سنة ٦٤٣

وعلى ذلك فإنا موردون التواريخ الآتية :

(١) كان جيش عمرو فى العريش فى ١٢ ديسمبر سنه ٦٣٩ وقد ذكر هذا اليوم فى كتاب ابن عبد الحكم ، ولكن البلاذرى والطبرى و ياقوت ومكين يكادون يتفقون فى إيراد تاريخ الغزوة .

(٢) فتح الفرما حوالى ٢٠ يناير سنة ٦٤٠ وقد اتفق ابن بطريق و ياقوت وغيرهم على أن المدينة فتحت بعد حصار شهر واحد .

(٣) غزوة عمرو لاقليم الفيوم فى مايو سنة ٦٤٠ ولا يذكر هذا التاريخ غير حنا النقيوسى وحده .

(٤) وصول إمداد العرب فى ٦ يونيه سنة ٦٤٠ وهذا مأخوذ من ساويرس ولكنه مشكوك فيه .

(٥) وقعة هليوبولس فى يوليه سنة ٦٤٠ وقد تبع ذلك فتح مدينة مصر.

(٦) بدء حصار حصن بابليون بدأ فى سبتمبر سنة ٦٤٠ وهـذا يتفق عليه ابن عبد الحكم وابن بطريق (اوتيكيوس).

(٧) معاهدة قيرس المقوقس التى رفضها هرقل فى أكتوبر سنة ٦٤٠

(٨) تسليم حصن بابليون فى ٩ أبريل سنة ٦٤١، وقد جاء ذكر هذا اليوم فى كتاب حنا النقيوسى وهذا اليوم هو تاريخ «فتح مصر» أو بعبارة أصح تاريخ فتح مدينة مصر وأوثق المؤرخين يجعلون ذلك فى سـنة ٢٠ للهجرة، كما ذكر المقريزى ومن بين هؤلاء الثقاة ابن قتيبة وابن بطريق وياقوت وأبو المحاسن وابن كثير والواقدى وأبومعشر الخ على أنهم لا يتفقون جميعا فى قصدهم من عبارة «فتح مصر» فبعضهم يعنى بها فتح حصن بابليون وبعضهم يقصد بها فتح الاسكندرية، ولكن الطبرى يجعل فتح بابليون فى ربيع الثـانى من سـنة ٢٠ للهجرة (٢٠ مارس — ١٧ أبريل سنة ٦٤١)، وعلى ذلك فهو متفق كل الاتفاق مع ما جاء فى كتاب حنا النقيوسى.

(٩) فتح نقيوس فى ١٣ مايو سنة ٦٤١

(١٠) الهجوم على الإسكندرية فى آخر يونية سنة ٦٤١

(١١) عودة قيرس فى ١٤ سبتمبر سنه ٦٤١

(١٢) تسليم الاسكندرية فى ٨ نوفمبر سنة ٦٤١

(١٣) حفر خليج تراجان فى شتاء (سنة ٦٤١ — ٢).

(١٤) موت قـيرس فى ٢١ مارس سنة ٦٤٢

(١٥) ولاية خلف قيرس فى ١٤ يوليه سنة ٦٤٢

(١٦) إخلاء الروم للاسكندرية فى ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢

(١٧) غزوة بنطابولس فى شتاء (سنة ٦٤٢ — ٣).

(١٨) عودة بنيامين فى خريف سنة ٦٤٤

(١٩) ثورة منويل فى أواخر سنة ٦٤٥

(٢٠) فتح العرب الثانى للاسكندرية فى صيف سنة ٦٤٦

وهذه التواريخ وإن جاءت فى ذيل كتابنا قد اضطررنا الى استخلاصها قبل كتابة هذا التاريخ فان تسلسل الحوادث كما هو ظاهر متوقف على البت فى أمر هذه التواريخ ولقد كان ذلك أمرا عسيرا بل هو سلسلة من المشكلات، وقد اضطررنا أن نعرض طريقتنا فى حلها تفصيلا وإنا آسفون للاطالة فى هذا المقال، وقد خالفنا المستر بروكس فى عدّة مواضع ذات شأن من هــذه التواريخ التى ذكرناها ، ولكنا لا يجمل بنا أن نختتم هذا القول بغير أن نعود الى الاقرار بما على الباحثين طرا من دين لأبحاثه وآرائه .

الملحق الخامس

فى سن عمـــرو بن العاص

اختلف مؤرخو العرب بعض الاختلاف فى سن عمرو بن العاص عنـد موته على أن اتفاقهم يكاد يكون تاما فى تعيين تاريخ وفاته فإنه فى حكم المسلم به أنه توفى فى يوم الفطر من عام ٤٣ للهجرة ويوافق ذلك يوم ٦ يناير سنة ٦٦٤ وقد قيل إن عمره إذ ذاك كان تسعين سنة وقيـل كان ثلاثا وسبعين وقيل كان سبعين . ونرى أن الرأى الأخير هو الصحيح وعلى كل حال لم تكن سنه تسعين سنة .

وقد ذهبنا فى حسابنا الى أن مؤرخى العرب يعدّون بالسنين القمرية وعلى ذلك فنحن إذا حسبنا عدد السنين اعتبرنا الفرق بين طول السنة القمرية والسنة الشمسية وقد قال ابن قتيبة (وهو من كتاب القرن التاسع) عند ذكره عمرو بن العاص (أنظر طبعة (Wustenfeld) صفحة ١٤٥ وما بعـدها) إنه مات وهو فى سن الثالثـة والسبعين وذلك فى عام ٤٢ أو ٤٣ للهجرة على أن بعض الرواة يذكر أنه مات سنة ٥١ ثم يقول بعد ذلك إن ابنه عبد الله مات وله من العمر اثنتان وسبعون سنة فى سنة ٦٥ للهجرة وكان أصغر من ابيه باثنتى عشرة سنة لا أكثر، فاذا صح ذلك كان ميلاد عبد الله بن عمرو حوالى سنة ٦١٥ للميلاد، وعلى ذلك يكون ميلاد عمرو فى عام سنة ٦٠٣ وتكون سن عمرو عند موته فى سنة ٦٦٤ نحو ثلاث وستين سنة . ومن ذلك يظهر تناقض ابن قتيبة فيما ذهب اليه . وأما ابن خلكان فيذكر أن سن عمرو ابن العاص كانت تسعين سنة وقد روى ذلك عن الواقدى .

ويروى ابن الحجر روايته عن يحيى بن بكير أنه قال إن عمرا عاش تسعين سنة ثم قال إن عمرا كان ابن سبع سنين عند ما ولد عمر بن الخطاب واتفق معه السيوطى فى ذلك فقال إن عمرا مات فى سن التسعين فى سنة ٤٣ للهجرة . وقـد مات عمر

ابن الخطاب فى اليوم السادس والعشرين من ذى الحجة من سنة ٢٣ للهجرة (وذلك يوافق يوم ٣ نوفمبر سنة ٦٤٤) وكان عمره إذ ذاك خمسا وخمسين سنة . وعلى ذلك فقد ولد عمر حوالى سنة ٥٩٠ للميلاد فاذا كان عمرو بن العاص ابن سبع سنين عند مولد عمر بن الخطاب كان ميلاده حوالى سنة ٥٨٣ للميلاد أى أن عمرا لم يكن عمره عند موته تسعين سنة بل كان ثمانين ، على أنه قد اختلف بعض الاختلاف فى سن عمر بن الخطاب عند موته فقد ذكر ابن قتيبه مؤكدا أن سنه كانت عند موته خمسا وخمسين سنة (صفحة ٩١) ، ولكنه يروى أن الواقدى روى عن عامر بن سعد أنه مات وله من العمر ثلاث وستون سنة . فاذا نحن قلنا إن عمر بن الخطاب عاش ثلاثا وستين سنة كان ميلاده حوالى سنة ٥٨٢ للميلاد وكان ميلاد عمرو ابن العاص حوالى سنة ٥٧٥ للميلاد وعلى ذلك تكون سن عمرو فى سنة ٦٦٤ فوق التسعين بالحساب العربى وينتج أيضا أنه كان عند الفتح له من العمر أكثر من أربع وستين أو خمس وستين من السنين الميلادية وهذا قول مستبعد جدا .

وقال النواوى إن وفاة عمرو كانت حقا فى يوم عيد الفطر من عام ٤٣ للهجرة وإنها لم تكن فى وقت آخر مما ذكره المؤرخون وهو يذكر أن سن عمرو عند وفاته كانت سبعين سنة (صفحة ٤٧٨ من طبعة Wustenfeld) ومعنى هذا أن مولد عمرو كان حوالى ٥٩٥ وأن عمره كان حوالى أربع وأربعين سنة فى وقت فتح مصر .

وبعد فان علينا أن نفضل أحد أمرين : وهما أن قائد الجيوش العربية وقت الفتح كانت سنه أربعا وأربعين سنة أو أنه كان ابن أربع وستين سنة . وإنا نرى قبل البحث الطويل أن الأمر غير محتاج الى شك كثير فان روحا وثابة مقدامة ليس من الممكن أن تكون فى رجل جاوز منتصف الحياة وبعد عنه مثل هذا البعد وليس من القريب الى التصور أن يكون عمرو قد دخل فيما دخل فيه من فتح مصر وما تلا ذلك من الحوادث فى مصر والشام وهو فى سن الرابعة والستين ، فمثلا لو كان عمرو فى سن التسعين فى سنة ٦٦٣ لكان فى سن الخامسة والثمانين فى وقعة صفين

فى عام ٦٥٨ والمعروف أنه قد أبلى فى تلك الوقعة بلاء عظيما وأظهر فيها المدهش من الرأى والعمل وحسبنا هذا الدليل وحده لتفنيد العبارة وإظهار سخفها . على أنه من أسهل الامور أن نكشف عن منشئها فانه لاشىء أسهل من أن يخطئ الناقل فى العربية عند قراءة سبعين فيجعلها تسعين ، وليس شىء أقرب الى التوقع من أن يحرف لفظ سبعين عند النسخ فيصير تسعين ، ويؤيد هذا أن المتأخرين من المؤرخين هم الذين ذكروا العدد الأكبر . وعلى ذلك يمكننا أن نبت فى الأمر فنقول إن عمرا مات وهو فى سن السبعين .

الملحـــق السـادس

فى تواريخ بطارقة القبط بعد بنيامين فى القرن السابع

قد اضطرتنا معالجة المسائل التى لهـا علاقة بتاريخ الفتح العربى الى أن نشير أحيانا الى خلفاء بنيامين وإن فى إثبات تواريخهم لشأنا يذكر فيا نحن فيـه وليس أقل هـذه المسائل شأنا إثبات التاريخ الذى كتب فيه حنا النقيوسى كتابه واثبات ذلك لا يكون إلا من طريق غيرمباشر كما هى العادة،ولكن ذلك الاثبات قائم على الأكثر على اثبات التاريخ الذى تولى فيه البطريق اسحق إذ كان حنا أحد من شهدوا الاحتفال بتوليته . وكان اسحق البطريق الثالث بعد بنيامين وكان البطريقان المتوسطان بينه وبين بنيامين هما (أجاثو) وحنا السمنودى . ويلوح لنا أنه من الممكن أن نثبت تاريخ تولية اسحق على وجه الدقة، ولهذا نرى أن خير طريق نسلكه هو إثبات هذا التاريخ ثم الرجوع منه الى التواريخ السابقة .

والمرجع الأكبر لنـا فى استمداد الأخبار هو الكتاب القبطى "حيـاة اسحق" وقد نشره مع ترجمة له العلامة أميلنو فى كتاب (His. du Patr. Copte Isaac) وقد أظهر ذلك الكاتب فى مقدمتـه القيمة أن تلك الوثيقة القبطية لا تذكر سوى أن اسحق توفى فى التاسع من هاتور (وهو يوافق ٥ نوفمبر وليس ٦ نوفمبر كما ذكر هنـاك) .

قال الكاتب " وقـد اقتصرت كل الأخبار التاريخيـة على ذكر ذلك التاريخ ومعنى ذلك أنهـا لا تفيدنا بشىء مطلقا " ولكن مكين يذكر فى تاريخه أن تاريخ وفاة اسحق سـنة ٦٩ للهجرة ومن ذلك يستخلص أميلنو أن اسحق مات فى ٦ نوفمبر سـنة ٦٨٨ ، وأما فون جوتشمت فانه يذكر أن وفاته كانت فى الخامس من نوفمبر سنة ٦٩٢

على أن أميلنو قد أخطأ الصواب إذ قال إن الوثيقة القبطية لا تذكر شيئا آخر من الأخبار التى تحدّد التواريخ إذ أنه قد أغفل عبارة لها شأن كبير فقد جاء فى تلك الوثيقة (فى صفحة ٥٠) أن اسحق قد احتفل بولايته فى ٨ كيهك " وكان ذلك يوم أحد " وهو اليوم اللائق بهذا الاحتفال — ولم يقع يوم ٨ كيهك حوالى هذا العصر فى يوم أحد إلا فى سنة ٦٨٤ وسنة ٦٩٠، فأما سنة ٦٨٤ فانه من المحال أن تكون هى المقصودة وعلى ذلك فان اسحق قد احتفل بتوليته فى (٨ كيهك — الموافق ٤ ديسمبر سنة ٦٩٠) وعلى ذلك فهذا هو التاريخ الذى شهده حنا النقيوسى. وقد قال ساويرس فى مدّة ولاية اسحق أقوالا مختلفة فى النسخ المخطوطة المختلفة فهو يجعلها بين سنتين وتسعة أشهر و بين ثلاث سنوات، ولكنا اذا علمنا أن اسحق قد مات فى ٥ نوفمبر واذا قلنا إنه توفى فى الخامس من نوفمبر سنة ٦٩٣ كانت مدة ولايته سنتين وأحد عشر شهرا وهى المدّة التى ذكرها المقريزى .

وقد يكون من السهل أن نقرأ مقدّمة أميلنو كلها ثم نظهر السبب فى أنه أخطأ الخطأ كله فى اثبات تاريخ ميلاد اسحق إذ يجعل ذلك التاريخ قبل الفتح العربى . و يجعل اسحق فى نحو الثمانية عشرة من عمره فى وقت ذلك الفتح (ويذكر أن الفتح كان سنة ٦٤٠) فهو يجعل تاريخ ميلاده سنة ٦٢٢ وقد ساقه الى هذه النتيجة على الأخص ما ذكر من أن اسحق كان فى صباه ملحقا بقريب له اسمه (Meneson) وكان هذا القريب ناموسا لجورج حاكم أرض مصر

« ⲡⲭⲁⲣⲧⲟⲗⲁⲣⲓⲟⲥ ϧⲁ ⲣⲁⲧϥ ⲙ̄ⲅⲉⲱⲣⲅⲓⲟⲥ ⲉϥⲟⲓ ⲛ̄ⲉⲡⲁⲣⲭⲟⲥ ⲉⲫ̄ⲭⲱⲣⲁ ⲛ̄ⲧⲉ ⲭⲏⲙⲓ »

وهذا اللقب عجيب إذ أنه يظهر كيف بقيت الألقاب اليونانية مستعملة فى مصر بعد الفتح العربى ولسنا نشك لحظة فى أن تلك الألقاب قد بقيت فى مصر بعد ذلك الفتح فقد جاء فى الوثيقة عينها ذكر عامل لقب بلقب (Augustal) صفحة ٧٣ وأنه كان متصلا اتصالا مباشرا مع «ملك العرب» "عبد العزيز" . وقد ذكر اسمه قبل ذلك ببعض صفحات (صفحة ٤٣ و ٦٤) فوجود هذا اللقب على ذلك لا يدل على أن اسحق قضى صباه تحت حكم الروم. والحق أنه قد ثبت أنه هرب فى الصحراء

وكان بعد لا يزال فى سن الصبا وكان ذلك بعد الفتح إذ أنا نجد أهله بعد ذلك بقليل يستشيرون بطريقا قبطيا فى الاسكندرية فى أمره .

وليس من الممكن أن يكون هذا قد وقع بين سنة ٦٣١ — سنة ٦٤٤ إذ لم يكن ثمت فى الاسكندرية بطريق قبطى وقتئذ كما أنه ليس من الممكن أن يقع هذا قبل سنة ٦٣١ إذ قد ذكر عنه عقب هروبه أنه حادث قسيسا من قسوس الريف . وقد جاء فى ذلك الخبر (فى صفحة ١٢) "أنه قد شهد الكثيرون أن ذلك القس كان من القدّيسين أهل الايمان وأنه كان ممن أحضر بين يدى قيرس فحكم عليه بأن يجلد عدّة جلدات لأنه أظهر إيمانه[1]" وهذا القول يدل على أن مدة الاضطهاد التى أنزله قيرس كانت قد انقضت وهى بين سنة ٦٣١ — ٦٤١، وعلى ذلك فان لجوء أهل اسحق الى البطريق كان ولا بدّ بعد سنة ٦٤٤ ، وعلى ذلك تقول إن البطريق كان بنيامين .

وليس ثمت من دليل يدل على تاريخ لجوء أهل اسحق الى البطريق وفى أى عشرة من عشرات السنين كان ولا ندرى أكان حوالى سنة ٦٥٠ أو حوالى سنة ٦٦٠ أو حوالى سنة ٦٧٠ على أننا نميل الى ترجيح التاريخ الأوّل وذلك لأننا نهتم أكبر الاهتمام بالعبارات المتكررة التى تنص على صبا اسحق إذ ذاك ونحن فى ذلك نخالف ما ذهب اليه أميلنو فانه مثلا لا يجد صعوبة فى تأويل معنى (Jeune Garçon) (صبى صغير) على أنه كان رجلا متوسط السن مع أن هذا اللفظ قد ورد نقيضا للفظ «الهرم» (صفحة ٢٥ — ٦) فاذا ذهبنا الى أن ذلك التاريخ المقصود كان حوالى سنة ٦٥٧ كان ميلاد إسحق حوالى سنة ٦٤٠ وكانت سنه عند وفاته ثلاثا وخمسين سنة وقد كان البطريق الذى استعمله ناموسا مدّة من الزمن بغير شك البطريق (أجاثو) مع أن البطريق الوحيد الذى ذكر حنا النقيوسى اسمه هو (حنا السمنودى) صفحة ٤٢ وهو الذى رشح إسحق لولاية الدين بعده .

---

(١) وقد ترجمها أميلنو «أنهم أحضروه الى محكمة قيرس» وقد أخبرنى المستر (كروم) أن هذه الترجمة لاتؤدّى معنى الزمن (الماضى السابق) الذى فى الأصل القبطى ϵⲁⲩⲧⲁϩⲟϥ .

ويجدر بنا أن نزيد على هذا أن أميلنو اذا كان مصيبا فيما ذهب اليه من ترتيب التواريخ أى أن ميلاد إسحق كان فى سنة ٦٢٢ فان مدّة الاضطهاد الأكبر وهى بين سنة ٦٣١ و سنة ٦٤١ تقع إذ كانت سنّ إسحق بين التاسعة والتاسعة عشرة ولكنا قدّمنا أنه لم يكن للقبط إذ ذاك بطريق فى الاسكندرية كما يستلزمه ذلك الخبر فى حين أننا اذا ذهبنا كما فعلنا الى أن مولد إسحق كان حوالى سنة ٦٤٠ وأنه هرب الى الصحراء حوالى سنة ٦٥٧ استوى لنا القول وأصبح طبيعيا فان بنيامين قد عاد الى الاسكندرية قبل ذلك بثلاث عشرة سنة، وكانت هذه المدّة فى الحقيقة أكثر مدّة صبا إسحق .

وبعد أن أثبتنا تاريخ الاحتفال بولاية إسحق وموته نقول إن سابقه حنا السمنودى توفى فى أوّل كيهك (٢٧ نوفمبر) من احدى السنين بعد أن ولى أمر الدين تسع سنين، وعلى هذا تكون وفاته فى ٢٧ نوفمبر سنة ٦٩٠ ولكن ذلك لو صح يوجب علينا أن نسلم أن الاحتفال بتولية إسحق حدث بالضبط بعد أسبوع من موت سلفه فى حين أن تاريخ حياته القبطى يحتوى على ذكر مفصل لما وقع من الخلاف فى المدّة التى كانت ولاية الدين فيها شاغرة بعد موت سلفه وما وقع من المسعى لتولية رجل آخر اسمه (جورج) إذ ادعى أنه الذى وقع عليه الاختيار الصحيح على أن كبير الشمامسة أمر أن لا يولى (جورج) حتى جاء أمر من قبل الحاكم العربى فاجتمع الأساقفة عنده فى بابليون ليعرضوا عليه الأمر ، فلما فحص تاريخ (جورج) فى حياته الماضية وجد أنه لم يكن على ما يجب أن يكون عليه وقد جاء الناس من جميع البلاد ليسمعوا حكم «عبد العزيز» فى ذلك الأمر فلما حكم بما أرادوا من إحقاق أمر إسحق طربوا ورقصوا جميعا وعم السرور البلاد من بابليون الى الاسكندرية (صفحة ٤٤ — ٩) ومن الجلى أن ذلك لا بد يحتاج الى وقت طويل فنحن مضطرون الى القول إن وفاة حنا السمنودى كانت فى أوّل كيهك (٢٧ نوفمبر) سنة ٦٨٩ مع أننا نقول إن الاحتفال بتولية إسحق كان فى ٨ كيهك سنة ٦٩٠ أو بقول آخر إن ولاية الدين بقيت شاغرة مدّة عام وهذا الاستنتاج يؤيده

ما جاء فى الديوان الشرقى إذ جاء فيــه أن حنا مات فى أول كيهك وكان ذلك يوم السبت، وقد رأينا أن يوم ٨ كيهك كان فى سنة ٦٩٠ يوم أحد فيكون أول كيهك من ذاك العـام يوم أحد أيضا ولكن أوّل كيهك كان يوم السبت كما هو المطلوب فى عام سنة ٦٨٩

فاذا نحن حسبنا مدّة ولاية حنا تسع سنين رجع بنا الحساب الى أن أوّل تلك الولاية كان فى سنة ٦٨٠ وقد مات سلفه (أجاثو) فى ١٣ أكتوبر وعلى ذلك يكون الاتفاق قريبا كل القرب بين حسابنا والتاريخ المذكور وكانت وفاة اجاثو فى ١٣ أكتوبر سنة ٦٨٠ بعد أن ولى أمر الدين مدّة تسع عشرة سنة كما جاء فى الأخبار ولكنا رأينا أن وفاة بنيامين كانت فى ٨ طوبة (وذلك يوافق ٣ يناير سنة ٦٦٢) والمدّة بين التاريخين ثمان عشرة سنة وعشرة أشهر تنقص قليلا وذلك تقريب شديد القرب وعلى ذلك نرى أن حساب التواريخ يتفق بعضه مع بعض اتفاقا وثيقا .

وإنا نســتطيع الآن أن نورد التواريخ مرتبة وقد كان جل اعتمادنا فيها على ما جاء فى كتاب ساويرس وقرناها بما جاء فى تاريخ حيـاة اسحق وسـوى ذلك من المراجع فاتفقت اتفاقا عظيما يجعلنا نستبعد احتمال الخطأ، وقد اتفق فون جوتشمت معنا فيما أثبتناه من تواريخ وفاة بنيـامين وأجاثو، ولكنه يخـالفنا فى تاريخ وفاة حنا السمنودى فيجعلها فى ٢ مايو سنة ٦٨٩ (Kleine Schriften II) صفحة ٥٠٠.

ولكن ذلك لا يعتمد على مرجع كاف وهو فوق ذلك يجعــل الاحتفال بتولية اسحق فى فبراير سنة ٦٩٠ ووفاته فى ٥ نوفمبر سنة ٦٩٢ ولكن هذين التاريخين قد ظهر فسادهما مما جاء فى تاريخ حياته القبطى فالتواريخ الحقيقية على ما يلوح لنا هى الآتية:

البطريق	تاريخ التولية	مدّة الولاية	تاريخ الوفاة
(١) بنيامين	يناير سنة ٦٢٣	٣٩ سنة	٣ يناير سنة ٦٦٢
(٢) أجاثو	يناير سنة ٦٦٢	١٩ سنة	١٣ أكتوبر سنة ٦٨٠
(٣) حنا السمنودى	أكتوبر سنة ٦٨٠	٩ سنوات	٢٧ نوفمبر سنة ٦٨٩

ثم جاءت مدّة سنة بقيت فيها الولاية شاغرة .

(٤) إسحق	٤ ديسمبر سنة ٦٩٠	٣ سنوات	٥ نوفمبر سنة ٦٩٣
(٥) سيمون	يناير سنة ٦٩٤	٧½ سنوات	١٨ يوليه سنة ٧٠١

ويمكن أن تقرأ التواريخ الخاصة بسيمون والسبب الذى من أجله تأخرت توليته فى كتاب (رينودوه) .

الملحق السابع

وفيه بحث جديد للمؤلف فى شخصية المقوقس

لم تزل النفس غير قانعة بما قيل فى المقوقس وشخصيته. وكل ماجاء فى مؤلفات العرب والفرنجة خاصا به لا يزيد النفس إلا تساؤلا. فلا تزال حقيقته وصفته واسمه مجالا لمختلف الأقوال . غير أن مؤلف هـذا الكتاب الدكتور بتلر قـد وفق لحسن الحظ الى حل أكثر غوامض هذا الأمر وهو الجزء المتعلق باثبات أن المقصود بالمقوقس فى وقت غزو العرب لمصر هـو (قيرس) بطريق الأسكندرية الملكانى الذى جمع له هرقل ولاية الدين وجباية الخراج بأرض مصر . وقد ترددت المكاتبة بين المترجم والمؤلف بهذا الشأن وظهر من أثنائها أن أ كبر المعارضين لرأى المؤلف فى شخصـية المقوقس كان الأستاذ (استانلى لين‌پول) إذ كان له رأى آخر وهو أن المقوقس لم يكن سوى حاكم الاقليم الشرقى من مصر . غير أنه عاد عن رأيه ومعارضته للدكتور بتلر على أثر بحث قيم طبعه فى سـنة ١٩١٢ وهو The Treaty of Misr in Tabary" .

قال مؤلف الكتاب فى أحد كتبه للمترجم إن الأستاذ (اسـتانلى لين پول) عندما قرأ ذلك البحث عاد عن رأيه وأرسل اليه يقول صراحة انه قد رجع عن رأيه فى المقوقس وإنه آمن بمـا قال به الدكتور بتلر ولم يكن على الأستاذ (استانلى لين پول) فى ذلك من غضاضة فشيمة العلماء حب الحقيقـة وحب الرجوع اليها لا تأخذهم فى ذلك عصبية لرأى .

وقد أشار المؤلف على مترجم هذا الكتاب أن يلحق بآخره ملحقا جديدا يضمنه الفصل الذى جاء فى بحثه الاخير عن المقوقس وهو عبارة عن خطاب نقدى موجه

خاصة الى الأستاذ (لين پول) قارع المؤلف فيه بالحجة الدامغة حتى أظهر حقيقة المقوقس وأنه لم يكن سوى (قيرس) .

على أنه لا تزال سحب من الشك تحوم حول نواح أخرى من ذلك الموضوع. فما معنى المقوقس ؟ وهل كان لقبا خاصا لقيرس أم كان لقبا لحاكم مصر ؟ وما كان اسم ذلك الحاكم ولماذا سمى جريج بن مينا أو ابن قرقب أو ابن فرقب ؟ وهل أطلق لقب المقوقس على سوى قيرس ؟ واذا كان كذلك فمن الذى أطلق عليه اللقب قبل قيرس ومن الذى أطلق عليه بعده ؟ كل هذه أسئلة لا تزال الإجابة عنها تحتاج الى بحث . على اننا اذا لم نستطع أن نجيب عن هذه الاسئلة اجابة باتة فانا نستطيع أن نلمع الى مذاهب الباحثين فيها .

وقد رأينا أن نلخص بحث المؤلف الذى سبق لنا ذكره حتى اذا ما أوجزنا تلخيصه ترجمنا الجزء الخاص بالمقوقس بنصه إذ هو المقصود من ذلك البحث .

يتلخص ذلك البحث فى معالجة المسائل الآتية :

(١) البحث فى وقت «معاهدة مصر» ومكانها .

(٢) البحث فيمن كانا طرفى هذه المعاهدة .

(٣) البحث فى معنى المعاهدة .

(٤) البحث فى مبلغ صحتها .

(٥) البحث فى شخصية المقوقس .

(١) البحث فى وقت «معاهدة مصر» ومكانها

كان للمؤلف رأى ذهب اليه فى كتابه هذا «فتح العرب لمصر» وهو أن المعاهدة التى يسميها مؤرخو العرب « معاهدة مصر » لم تكن فى الحقيقة معاهدة عقدت فى مصر بل كانت «معاهدة الاسكندرية» ولكنه فى رسالته الأخيرة التى سماها باسم هذه المعاهدة وهى «معاهدة مصر فى كتاب الطبرى » عدل عن رأيه السابق وسلم بصحة ماذهب اليه الطبرى من أن تلك المعاهدة انما كانت فى مصر . غير أن المؤلف

يحتفظ برأى خاص فى المكان الذى عقدت فيه فيقول انها لم تكن المعاهدة التى عقدت عند تسليم حصن بابليون (قصر الشمع) بل هى اما أن تكون المعاهدة التى عقدت عند فتح مدينة مصر (قبل سقوط الحصن) وإما أن تكون المعاهدة التى تفاوض المقوقس مع عمرو فى عقدها فى أول حصار الحصن ولكن الامبراطور هرقل رفضها ولم يرض بها . ويذهب المؤلف الى أن الرأى الأول هو الأقرب الى الحقيقة فى نظره .

(٢) البحث فيمن كانا طرفى هذه المعاهدة

ناقش الدكتور بتلر رأى من يقولون إن المعاهدة كانت بين العرب من جانب وبين القبط من جانب آخر وخرج من بحثه على أن المعاهدة انما كانت بين رجال الدولة الرومانية بمصر من جانب والعرب من الجانب الآخر وأن رجال الدولة الرومانية بمصر كانوا يتعاقدون مع العرب عن أهل مصر جميعا سواء فى ذلك القبطى والرومى واليهودى وسوى هؤلاء اذ كانت المعاهدة بين طرفين متحاربين وكان الجيش المدافع عن مصر جيش الدولة الرومانية وأما القبط فلم يكونوا أصحاب الدولة والجيش والحصون .

(٣) البحث فى معنى المعاهدة

ليس فى هذا البحث تعليق على موضوع من موضوعات كتابنا بزيادة أو نقص أو تعديل ولهذا آثرنا تركه .

(٤) البحث فى مبلغ صحة المعاهدة

استعرض المؤلف رأيين متناقضين : الأول رأى الدكتور (لين پول) وهو يؤمن بما يقوله الطبرى ايمانا لاشك فيه ، والثانى رأى (ولهاوزن) و (كايتانى) وأولهما يشك فى كل ما رواه (سيف) راوية الطبرى ، وثانيهما يرى أن معاهدة مصر على وجه الإجمال مشكوك فيها . ثم أبدى المؤلف بعد ذلك رأيه الشخصى إذ قال « ولعل الصواب بين هذين الرأيين المغاليين » وجعل يبين أن المعاهدة اذا كانت صادقة فوضعها ليس عند تسليم حصن بابليون (قصر الشمع) كما يقول الطبرى (وكان ذلك فى ٩ أبريل سنة ٦٤١) لأن هرقل كان عند ذلك قد مات ولم يكن المقوقس فى مصر . وخلص من بحثه

على أن تلك المعاهدة «فى مجملها صحيحة ولكن تعيين موضعها الحقيق فى التاريخ من أصعب الأمور» ثم انتهى بعد ذلك كما سبق ، الى أن المعاهدة «إما أن تكون المعاهدة التى كانت فى شهر أكتوبر فى وقت فيضان النيل وهى المعاهدة التى رفضها الامبراطور وإما أن تكون المعاهدة التى تمت عند تسليم مدينة مصر» .

(٥) البحث فى شخصية المقوقس

لا حاجة بنا الى الاعتذار عن ترجمة كل حجة المؤلف فى هـذا الباب كما أسلفنا وعلى هذا ندع الكلمة للؤلف :

« قد سبق أن تكرر فى بحثنا هـذا اسم المقوقس فى عرض الكلام عن طرفى المعاهـدة ولم نخرج عن قولنـا عنـد ذلك للكلام عن شخصيته . ولكن الدكتور (لين پول) قـد تحـدى مذهبنا الذى ذهبنا اليـه من أنه هو (قيرس) البطريق الامبراطورى وحاكم مصر من قبـل الدولة الرومانيـة . وقد آن لنـا أن نناظره ونقابل تحديه . وقد قبـل كثيرون من صفوة العلماء فى أوربا وفى مصر رأينا فى المقوقس وان لم يقبلوه كله فقد قبلوا منـه جانبا ولكنا لا نريد أن نحتمى بظلهم ولا أن نقول ان رأيهم أرجح وزنا فى نظرنا من انتقاد الدكتور (لين پول) ولهـذا نرى أن نصمد لرأيه فنفحصه . قال الدكتور (لين پول) ما يأتى بعـد أن عرض أدلتى التى أخذتهـا عن مؤلفات القبـط وهى (كتاب ساويرس . وتقويم حيـاة القديسين وحياة صمويل القلمونى) . قال :

"فاذا ذهبنا الى أن ترجمة هذه النصوص صحيحة دقيقة واذا قلنا إن هذه النسخ المخطوطة، وأكثرها متأخر العهد، منقولة نقلا صحيحا عن الوثائق الأصلية الأولى التى يعتمد عليها، وليس لى أن أقول فى هذا الأمر رأيا ــ اذا سلمنا بذلك كله خرجنا على أن هذه النصوص مجتمعة تدل على أن قيرس والمقوقس كانا فى نظر هؤلاء الكتاب شخصا واحدا . وهذا رأى لا يكاد ينازع فيه أحد ــ غير أن دوننا سؤالا واحدا وهو هل كان هؤلاء الكتاب ممن يعتمد على قولهم ؟

وقال : "وكل المسألة تدور حول قطب واحد ألا وهو مقدار تصديق كاتبين أو ثلاثة من كتاب القبط من جهة وسلسلة مؤرخى العرب من جهة أخرى . وإنا اذا لم يكن لدينا غير هذه النصوص القبطية والأثيوبية لكان من المحتمل أن نقول إن البرهان قــد تم على أن شخص المقوقس هو قيرس ولكنا اذا نظرنا الى ســلسلة كتب المؤرخين من العرب تلك السلسلة الطويلة التى لا يزال بعضها باقيا فى حين أن بعضها ضاع ولم يبق منه إلا ذكره فيما تخلف من الكتب الباقية واذا رأينا أن تلك السلسلة لا توجد فى أى فرد منها أقل اشارة الى أن المقوقس هو قيرس ، اذا رأينا ذلك لم يسعنا إلا أن نرى دليلهم قاطعا ولو أنه دليل سلبي . إذ كيف لا يذكر واحد من هؤلاء المؤرخين أن المقوقس كان قسيسا بله رئيس أساقفة؟ ولم يسمونه باسم (جريج بن مينا) أو (ابن قرقب) اذا كانــ اسمه الحقيق قيرس . ولم يذكر أبو صالح أن هرقل جعــل على مصر (جريج بن مينا المقوقس) ؟ وأبو صالح كاتب مسيحى كتب حوالى سنة ١٢٠٠ للميلاد . ولم نراه ينقل عن كتاب "الجناح" أن أسقف الروم فى مصر والاسكندرية كان اسمه قيرس ؟ وكيف لا نجد مؤرخا ممن كتب عن مصر سواء أكان مسلما أم مسيحيا يذكر صراحة أن لفظ المقوقس كان لقبا أو نعتا نعت به البطريق المقوقس ؟" .

وقد أطلنا فى ايراد هــذه النبذ لأنا حريصون على أنــ نعرض حجة الدكتور (لين‌پول) عرضا تاما لا مواربة فيــه ولا مواراة . فمجمل قوله اذن أنه يريد أن يجرح الدليل الذى أخذناه عن الموارد القبطية بأن يورد دونها نتائج سلبية من كتب العرب . ويتخذ تلك النتائج من سكوت هــذه الكتب واغفالهــا وخلطها فى ذلك الموضوع .

فلنبدأ بذكر المؤرخين العرب . فان ذلك الدليل السلبي المتخذ من سكوتهــم له قيمة كبرى فى البرهان ولكنه لا يدل على أكثر من أن المؤرخين العرب ليس لديهم عنـــ هذا الأمر شيء سوى شك وخلط وأنهــم فى ذكرهم لأخباره يبدون أكبر

الاضطراب والتناقض . وليس خلطهم فى ذكر الأخبار الا نتيجة لاختلاط الأمر عندهم واستغلاقه عليهــم ولئن كان ثمت شىء مؤكد فهو أن مؤرخى العرب تلقفوا لقب المقوقس سماعا أو رواية نقله بعضهم عن بعض بغير أن يفهموا له معنى وأن الاسم بقى بينهــم دون سواه واختلط عليهــم الاسم الحقيق للشــخص الذى كان يلقب به وأن ذلك اللقب كان لقبا مبهما أصله غير عربى يطلق على حاكم مصر . فيسمون حاكم مصر فى زمن النبى المقوقس ويسمون حاكمهـا فى زمن الفتح المقوقس . ولا يهمنا كثيرا فيما نحن بصدده من الحجة أن نبحث فى أول ما استعمل العرب ذلك اللقب له . أأطلقوه على حاكم مصر فى وقت رسالة النبى ثم أطلقوه بعد ذلك من باب التوسع والتمثيل على حاكم مصر فى زمن الفتح أم قد سمعوه (كما نظن نحن) أولا فى زمن الفتح ثم أطلقوه خطأ على الحاكم الذى جاءته رسالة النبى ؟ وعلى أى حال فقد كان ذلك اللقب يطلق على العامل على مصر من قبل أمبراطور الروم أى على الحاكم العام لمصر(١) . على أن الدكتور (لين پول) عند ما رأى ما ينبنى على التسليم بهذا الأمر حاول أن يتخلص من ذلك على النحو الآتى :

قال : « هذا هو الدليل الإيجابى للدكتور بتلرفان الاتفاقات التى يبنى عليها حكمه أيضا هى أن قيرس من جهة والمقوقس من جهة أخرى كان كلاهما حاكما على مصر من قبل هرقل ؛ وأن مؤرخى اليونان وحنا النقيوسى كلاهما يذكر أن قيرس صالح العرب وأن مؤرخى العرب يذكرون أن المقوقس صالح العرب . ولكن هذه الاتفاقات يمكن أن نفسرها تفسيرا آخر بأن المقوقس كان حاكما تابعا قام بمصالحة العرب وأن قيرس البطريق والحاكم الأعلى أقر ما قام به تابعــه وبعث بذلك الى الامبراطور » .

فأنت ترى أنه أراد أن يتحاشى أن يقول إن المقوقس كان هو قيرس عينــه فلجأ الى أن قال إنه لم يكن بالحاكم الأعلى على مصر بل كان حاكما تابعا . وقد مضى

(١) قول المؤلف هنا ذو دلالة عظمى لأنه قد غير رأيه الأول فى معنى لفظ المقوقس على ما يلوح وسلم بأنه يقصد به الحاكم العام على مصر اطلاقا (المعرب) .

فى رأيه هذا نخلص الى نتيجة وهى « ولا يدلنا ما نجد من الأدلة فى تواريخ العرب إلا على أن المقوقس قد يكون تيودور. لا يقف فى سبيل ذلك الا الاسم» ويقصد بتيودور حاكم الاسكندرية الحربى . وفى الحق أن المقوقس إذا كان هو تيودور فانه لا يكون (جريج بن مينا) والحقيقة أن اسم (جريج بن مينا) لا يناسب شخصا من أشخاص هذا التاريخ العجيب الملىء بالحوادث ولا يتفق مع نظرية من النظريات التى أقيمت لتوضيحه ويجب أن نعده اسما مغلوطا (١) . فلنمض الآن الى فحص أقوال مؤرخى العرب لنرى بأى وصف يصفون المقوقس ولنبدأ بالطبرى فلا ينكر أحد أنه يفرق فى رواية من رواياته بين المقوقس وبين جاثليق مصر . فلننظر فيما هو المقصود من لفظ جاثليق مصر فهو لفظ لا يطلقه أحد اطلاقا صحيحا على عظيم من عظماء رجال الكنيسة ولم يستعمله أحد لذلك المعنى فهو اصطلاح أرمنى أو سورى أو نسطورى وقد عرفه الطبرى فى طبرستان أو فى بغداد ثم أطلقه خطأ فى مصر ولا شك فى أن معناه (المترانوس) — ولكن ليس من اللازم أن يقصد به البطريق . وفوق ذلك قد رأينا أن لفظ مصر له مدلولان إما قطر مصر وإما مدينة مصر وعلى ذلك فجاثليق مصر قد لا يكون معناه سوى (مترانوس مدينة مصر) فى حين ان الدكتور لين پول وسواه يفسرونه عادة تفسيرا غير ممكن إذ يجعلون معناه (بطريق القطر المصرى) وإنه من المحتمل أن يكون قد وجد بمدينة مصر (مترانوس) غير بطريق القطر كله فانه من المعروف أنه قد كان لمدينة مصر أسقف وقد ورد ذلك اللقب كثيرا فى التاريخ القبطى وقد كان فى بابليون أسقف وهو أسقف حصن بابليون وكان فى منفيس أسقف وفى حلوان أسقف وقد كان أسقف مصر مقدّما على سائر أساقفة ذلك الاقليم وكان لقب (مترانوس) يطلق فوق ذلك على أسقف دمياط

(١) إذا جاز لنا إبداء رأى عنّ لنا مما رأيناه من عرض الآراء المختلفة فى ذلك الأمر أمكن أن نقول ان اسم (جريج بن مينا) قد يكون اسم حاكم مصر فى الوقت الذى بعث فيه النبى عليه الصلاة والسلام بكتابه الى مصر وقد كان الحاكم الأعلى والبطريق الملكانى فى مصر قبل قيرس هو (جورج) الذى ذكره الدكتور بتلر فى كتابه هذا «فتح العرب لمصر» فيكون هو الذى أتاه كتاب النبى عليه الصلاة والسلام. وقد يكون العرب أخذوا اسمه وأطلقوه خطأ على الذى جاء بعده .

وإنه من العسير أن نتصور أن أسقف مصر — وقد كانت العاصمة الثانية بعد الاسكندرية — يكون أقل شأنا وأحط مقاما من سواه وذلك إذا لم يكن (مترانوس) ويجمل بنا أن نذكر هنا أننا نرى أنه من المحال أن يقال بطريق مصر لأن هذا يكون لقبا غير ممكن الوجود فقد كان البطريق يقال له (بطريق الاسكندرية) ولم يطلق عليه غير ذلك اللقب أبدا ولم يذكر مرة لقب (بطريق مدينة مصر) أو (بطريق القطر المصرى) وإنا إذا استعملنا ذلك اللقب كنا فى الخطأ كمن يذكر فى بلاد الانجليز (كبير أساقفة انجلتره)(١) . ولقب (مترانوس مصر) ليس مستمدا من الظن والحدس إذ قد وجدناه مستعملا حوالى سنة ٧٥٠ للميلاد إذ وصف رجل اسمه تيودور بأنه كان (المترانوس أسقف مصر) .

فاذا نحن ذهبنا مع هذا الرأى زالت من أمامنا كل الصعاب التى نشأت من التمييز بين الجاثليق والمقوقس فقد كانا شخصين متفرقين ولم يقل أحد مرة أن أسقف مصر كان هو المقوقس . وكذلك إذا اتبعنا ذلك الرأى زالت الصعوبة الناشئة من اسم (أبو مريام) فانا لا نقول عند ذلك أن هذا الاسم غير ممكن — وهذا خطأ وقعنا فيه واتبعَنا فيه الدكتور لين پول — بل نكتفى بأن نقول ان وجود هذا الاسم فى الموضع الذى يذكر فيه مشكوك فى صحته ويصح لنا أن ننبه الى أمر نظن أنه لم يتنبه له أحد من قبل وذلك أن هذا الاسم يطلق على المسيحى الذى أسلم فى بلهيب كما ذكره الطبرى فى روايته عن أخبار تسليم الاسكندرية إذ قال ان اسمه عبد الله عبد الرحمن أبو مريام ، ولا شك فى أن الاسمين الأولين إضافتان من المسلمين على الاسم الأصلى فذلك الاسم على ذلك ممكن — غير أن إطلاقه على (أبو مريام المترانوس) و(أبو مريام الأسقف) ثم (أبو مريام الذى أسلم) — نقول إن إطلاقه على كل هؤلاء دليل قاطع على الخلط الذى لا يمكن معه التأكد من تلك التسمية — على أننا إذا قلنا إن أسقف مدينة مصر وأسقفا آخر هما اللذان قابلا عمرا لم يكن فى ذلك

(١) يقال دائما فى انجلتره « كبير أساقفة (كنتربرى) » .

شيء يتعارض مع رأينا في معنى عبارة الطبرى فانها تفيد أنهما قد أرسلا من قبل المقوقس ثم عادا إليه . والحق إن هذا التفسير يتفق مع رأينا إتفاقا حسنا .

وقبل أن ننتقل من القول فى عبارة الطبرى يجب علينا أن ننبه إلى تناقض فى قوله فبينا هو يقول فى رواية إن عمرا عند ماجاءه الزبير ممدا قابله أبومريم وأبومريام وقاتلاه ، إذا به يقول فى رواية أخرى إن عمرا والمقوقس التقيا فى عين شمس والتحم جيشاهما فى القتال . ولسنا نرى موضعا للشك فى أن هاتين العبارتين تشيران إلى حادثة واحدة وهذا مثل من الأمثلة التى تدل على ضرورة درس روايات الطبرى مفردة ثم قرن بعضها إلى بعض ودرسها معا فاذا سلمنا بأن الحادثة المقصودة واحدة وأن رواية من الروايتين تشير الى أن جاثليق مصر هو الذى قابل عمرا ثم أعقب ذلك وقعة عين شمس ، وأن الثانية تشير إلى أن المقوقس هو الذى فعل ذلك أمكن أن نقول إن المقوقس هو جاثليق مصر وأن ذلك الجاثليق قد يكون جاثليق القطر المصرى أى أنه قد يكون هو البطريق قيرس . وإذا صح ذلك كانت الرواية التى تميز قيرس وتجعله شخصا آخر غير المقوقس رواية مخطئة . ويجب أن نذكر أنه لا يصح أن نثق بمختلف الروايات ثقة متساوية إذا كانت روايات متناقضة فيجب علينا أن نميز بينها ونوازن بين دلالاتها لنرى أيها أوثق وأصدق .

وإن قول الطبرى إذا فسرناه على وجهه يتفق مع رأينا الذى نريد البرهان عليه لا بل إنه يعززه ويدعمه ويصح لنا أن نزيد هنا أننا لا نجد كلمة واحدة فى تاريخه تشير تلميحا أو تدل صريحا على أن المقوقس كان تابعا من أصاغر العمال فى الدولة .

والآن فلننظر إلى المؤرخين الآخرين لنرى إذا كان أحدهم يعزز حجة الدكتور (لين پول) فقد جاءت فى تاريخ ابن عبد الحكم (حوالى سنة ٨٥٠ للميلاد) عبارة ذات شأن ، ونرى بحسب علمنا أنه لم يلتفت إليها أحد فى هذا الصدد فقد جاء فيه قوله "فوجه هرقل ملك الروم المقوقس أميرا على مصر وجعل إليه حربها وجباية خراجها ونزل الاسكندرية" فما معنى هذا القول سوى أنه كان الحاكم الأعلى بمصر؟

وإذا كان ابن عبـد الحكم يذكر أن المقوقس كان على جباية الخراج فى مصر فقد ذكر ذلك أيضا سعيد بن البطريق (٨٧٦ — ٩٣٩) كما أن قوله هذا يوافق ما جاء فى وثيقة قبطية متخلفة من القرن السابع وفيها ذكر زيارة (المقوقس البطريق الكاذب) لدير القلمون وفيهـا يوصف ذلك البطريق بأنه "مراقب الخراج فى أرض مصر" ولا شك فى أن هذا الدليل ذو خطر عظيم . وقد ذكرت هذه الحادثة عينها فى النسخة العربية من التقويم القبطى لحياة القدّيسين فقد جاء فيه صراحة أن الشخص الذى حاول أن يجعل صموئيل يعترف بالعقيدة الخلقيدونية أو الملكانية كان اسمه المقوقس . وهذا دليل واضح على أن لفظ ⲡⲓⲕⲁⲩⲭⲓⲟⲥ, هو الأصل القبطى للفظ (المقوقس) وفوق ذلك جاء فى وثيقة مخطوطة أخرى وصف (البطريق) بعد اسم المقوقس . وعلى ذلك فقـد قام الدليـل من هاتين الوثيقتين القبطيتين على أن الشخص الذى كان مراقبا للخراج فى مصر هو المقوقس كما قال ابن عبد الحكم وكذلك كان هو البطريق الملكانى وكبير الأساقفة . أى قيرس .

ولكنا نجد فوق ذلك اتفاقا آخر يسترعى النظر بين ابن عبد الحكم ومؤرّخ آخر مستقل عنه : فقد ذكر المؤرّخ العربى عبارتين عن المقوقس : إحداهما تنص على عمله الحربى، والأخرى تنص على عمله فى جباية الأموال . فأما فيما يخص جبايته للمـال فلدينا دليل واضح يعزز ذلك فى وثيقة قبطيـة . وأما فيما يخص عمله الحربى فانا موردون هنـا تعزيزا عجيبا نأخذه من وثيقـة سريانية تخلفت من القرن السابع ولم يمض على كشـفها إلا زمن قصـير ألا وهي (الديوان المجهـول الكاتب (Chronicon Anonymum) وقـد ترجمها وعـنى بنشرها الأسـتاذ جويدى وطبعها بين مجموعة الدواوين الصـغرى (Chronica Minora) وكانت كتابتهـا فى القرن السابع بعيد فتح العرب لمصر . وقـد جاء فيها أن العرب قـد عاقهم عن الفتح فى أوّل الأمر أن حدود مصر كانت يدافع عنها جيش قوى كبير حشده بهـا بطريق الاسكندرية . وهذه العبارة إذا سمعها الإنسان أوّل مرة أنكرهـا ولم يكد يصـدّقها اذا هو سمعها وحدهـا . فأنى لبطريق أن يدبر هـذه الأمور الحربيـة

المحضة ؟ ولكن اذا عرفنا أن البطريق كان عند ذلك قيرس ، ولا ينكر أحد أنه قد كان، واذا كان قيرس هو المقوقس، كانت عبارة هذه الوثيقة السريانية القديمة متفقة كل الاتفاق مع وصف ابن عبد الحكم لحاكم مصر وأنه كان صاحب الحرب المطلق فيها .

حسبنا هذا من ابن عبد الحكم . ومن الواضح أنه لا يستطيع أحد أن ينكر أنه يذكر أن المقوقس أرسله هرقل الى مصر وجعل له حربها وجباية خراجها ولا يمكن أن يكون هذا وصف عامل تابع من الأوساط . وقد قام البرهان على أن قول هذا المؤرخ العربى قد عززته وثيقتان : إحداهما قبطية، والأخرى سريانية تكادان تكونان مما كتب فى عصر الفتح العربى أو قد كتبتا فيه .

البلاذرى — (٨٠٩ — ٩٣ للميلاد) — ليس قوله فى المقوقس شديد الدقة فهو يذكر أنه صالح عمرا على عهد ردّه هرقل . ونحسب المقصود بذلك معاهدة مصر ثم يذكره بعد ذلك قائدا فى الاسكندرية فى مدّه حصار العرب لها، ثم يذكر أنه فاوض عمرا فى تسليم المدينة — ولم ترد فى تاريخ هذا المؤرخ كلمة واحدة تعزز قول من يقول إن المقوقس كان عاملا تابعا. وفى الحقيقة يتفق ما جاء فى تاريخ البلاذرى فى هذا الشأن مع ما جاء فى كتاب حنا النقيوسى من أخبار قيرس.

اليعقوبى — (المتوفى سنة ٨٧٣ للميلاد) ولم يكن من أهل مصر وهو يذكر أن المقوقس صالح عمرا وأن هرقل ردّ ذلك الصلح .

ابن الأثير — (١١٦٠ — ١٢٣٢ للميلاد) والظاهر أنه ينقل عن الطبرى ولكنه يصف (أبو مريم) بأن المقوقس أرسله ليقابل عمرا ويصفه بأنه جاثليق منفيس وهذا يدل على أنه فهم من لفظ (جاثليق مصر) أنه يقصد به أسقف مدينة مصر وليس بطريق الاسكندرية . وعلى ذلك فليس فى قول ابن الأثير ما يناقض الأدلة على أن المقوقس كان هو قيرس بعينه . ويصح لنا هنا أن نزيد على ذلك أن مؤرخى

العرب لم يميزوا تمييزا واضحا بين الأسقف وبين كبير الأساقفة . فان أبا المحاسن يذكر (أبو مريم) بأنه كان جاثليق مصر ثم يذكر (بنيامين) بأنه كان أسقف الاسكندرية . وكذلك ليس لفظ (أسقف رومة) باللفظ الغريب عن عرف التاريخ بل إنه يرد فى الأخبار هكذا (ويقصد به بابا رومه) ولكن ابن الأثير يذكر أن المقوقس أمر بالقتال فى عين شمس متبعا فى ذلك رأى الأطربون الحربى ويذكر كذلك أنه فاوض فى الصلح فى الاسكندرية . وعلى ذلك فليس فى قول هذا المؤرّخ ما يعزز قول من يقول إن المقوقس كان عاملا تابعا .

ياقوت — (١١٧٨ — ١٢٢٨ للميلاد) يذكر أن المقوقس هو صاحب الصلح الذى عقد باسم القبط والروم وأنه صالح على شرط أن ينفذ بالعهد الى الامبراطور ليقرّه وهذا دليل على أن هذا المؤرّخ كان يعده حاكم مصر .

المكين — (١٢٠٥ — ٧٣ للميلاد) يذكر أن المقوقس كان حاكم مصر من قبل هرقل — أى أنه كان نائب الملك فيها .

ابن دقماق — (حوالى ١٣٥٠ — ١٤٠٦ للميلاد) يروى عن ابن وهب أنه روى عن الليث بن سعد أن المقوقس الرومى الذى كان ملك مصر صالح عمرا .

المقريزى — (١٣٦٥ — ١٤٤٢ للميلاد) يروى عن يزيد بن أبى حبيب أنه قال إن المقوقس الرومى كان واليا على مصر وأنه صالح عمرا ويقول إن قائد الحصن (أى بابليون) كان (الأعيرج) من قبل المقوقس ويذكر بعد ذلك أن المقوقس كان حاكم البلاد من قبل هرقل . ويذكر أنه عقد صلح مصر وأن الأمبراطور ردّه ولم يقرّه . وأنه لام ذلك الحاكم النائب عنه على أنه رضى "أن يكون ومن معه من الروم فى حال القبط أذلاء" الخ . وليس ثمت ظل من الشبهة فى أن المقريزى يعدّ المقوقس نائب الملك فى مصر .

أبو المحاسن — (١٤١١ — ١٤٦٩ للميلاد) وهو يذكر أن قائد قصر الشمع (أى حصن بابليون) كان (الأعيرج) من قبل المقوقس .

و يقول هذا المؤرّخ مرة أخرى "ثم بدأ حصار الحصن وكان قائده المندفور من قبل المقوقس بن قرقب اليونانى" ثم يذكر بعد ذلك عظماء المصريين وحاكمهم المقوقس . فلم يكن ثمت شك فى أمره ولم يظن أبو المحاسن أنه كان عاملا تابعا . السيوطى — (١٤٤٥ — ١٥٠٥ للميلاد) وكان مثل أبى المحاسن متفقا معه فى الرأى فقال إن الإمبراطور هرقل رد صلح المقوقس مع العرب وأمثال ذلك القول .

وها نحن قد عرضنا أدلة مؤرّخى العرب واخترنا ما بها من تعريف بسلطة المقوقس وعمله فى مصر مبتدئين بابن عبد الحكم إلى أن انتهينا بالسيوطى وذلك كيما تقابل العبارة التى أوردها الدكتور (لين پول) وهى أن أقوال مؤرّخى العرب وأدلتهم يؤخذ منها أن المقوقس قد يكون حاكما من الأتباع أو عاملا من العمال من قبل الحاكم العام بمصر . وإذ قد فرغنا من عرضنا هذا فما ذا نحن واجدون؟ إنهم جميعا لا يشذ منهم أحد يصفونه بأنه ملك أو أمير أو يصفون عمله فى عبارات لا يمكن أن تفيد إلا السلطان الأعلى فى مصر وعلى هذا لا يمكن أن يقال شىء عن المؤرّخين العرب سوى أن قولهم إنما يدل على أن المقوقس كان الوالى على مصر من قبل هرقل . ولا يمكن أن تعزز عباراتهم رأيا آخر يذهب إلى أن عمله كان عمل تابع فى المحل الثانى . وإذا فقد كان المقوقس حاكم مصر من قبل الإمبراطور كما قال عنه ابن عبد الحكم .

هذا الذى قلناه يلوح لنا ثابتا ثبوتا لا بأس به — ولكن الدكتور (لين پول) إذا كان قد لجأ الى رأيه ذلك فقال إن المقوقس كان عاملا تابعا إذ لم يجد رأيا سواه يلجأ إليه كى يتخلص من أن يقول إن المقوقس كان هو قيرس بعينه فقد صارت حجته الآن واهية لا يقوم لها قائم بعد أن ثبت أن هذا الرأى لا يتفق مع دلالة المؤرّخين العرب الذين اعتمد على أقوالهم و بنى رأيه على دلالاتهم .

غير أن حجته كانت ذات شعبتين : الأولى أن قول المؤرّخين العرب ينقض قول من يقول إن المقوقس كان هو قيرس . والثانية أن قول المؤرخين القبط

لا يصح تصديقه ولا الأخذ به . وقد بينا فى قولنا السالف فساد الشعبة الأولى من حجته وأظهرنا بطلانها فلنمض الآن الى الشعبة الثانية لنرى محاولته تجريح المؤرخين القبط و إثبات فساد قولهم . حقا لسنا ننكر أننا قلنا فى مقدّمة كتابنا "فتح العرب مصر" إن بعض وثائق قبطية سميناها ليس لها كبير قيمة . ولكن هذا القول قد اتخذ فى الحجة سلاحا لحربنا وكان فى ذلك بعض شيء من الظلم لنا فإنما أوردنا سببا لرأينا هذا الذى قلناه وهو أن أولئك المؤرّخين القبط "كانوا يستطيعون أن يدلونا على كثير ولكنهم لا يوردون إلا النذر اليسير من الأخبار ويلمحون تلميحا عرضيا إلى تاريخ عصرهم" ولكن من الواضح أنه ليس من العدل فى شيء أن تغفل كل الأخبار التى يوردها المؤرخون القبط بحجة أنهم لا يوردون أكثر منها . فإن الإشارة التى فى هذه الوثائق والتلميح الذى يبدو منها الى حوادث التاريخ يجيء فيها عرضا بغير قصد وإذا كانت تلك الإشارة يقصد بها أولئك المؤرخون الحوادث التى تجرى فى عصرهم كانت ذات قيمة لا تنكر ولا يجحد فضلها . وقد سبق لنا أن أظهرنا أعظم التقدير للوثيقة القبطية المخطوطة التى تخلفت من القرن السابع وهى الوثيقة (البودلية) التى تحكى قصة زيارة البطريق الملكانى لدير القلمون وبينا أنها تتفق مع ما جاء من ذكر هذا الحادث فى النسخة العربية من تقويم حياة القدّيسين (وفيها يذكر اسم الزائر أنه المقوقس) فهل كنا لنرفض مثل هذه الحجة ونغفلها ؟ لا بل لقد فعلنا عكس ذلك إذ بينا أن وثيقة أخرى سريانية متخلفة عن القرن السابع تثبت أن قيرس كان صاحب السلطة الحربية فى مصر . ولنا أن نزيد هنا أن جمع السلطة العليا فى أمور الدين والدنيا معا فى شخص واحد لم يكن بدعة جديدة ، بل كانت له سابقة واضحة فى القرن السادس . فقد عرض جستنيان على تيودوسيوس ان يكون بطريق الاسكندرية وحاكم مصر معا اذا هو قبل كتاب ليو ومذهبه الدينى . وإذا كان الأمر كذلك لم يكن عجبا من هرقل أن يجمع الرياستين فى شخص قيرس . وقد أورد ساويرس هذين الخبرين أو لعلهما وردا فى تاريخه — فإن ديوان تاريخه وما أضيف اليه بعده مجموعة قيمة من الأخبار يقرّ أهل البحث

والدرس لها اليوم بالفضل . ولسنا ننكر أننا لم نذكر ذلك الكتاب من قبل بما يليق به من الاكبار ولكنا عند ما ذكرناه من قبل لم نكن على علم كامل به إذ كان عند ذلك نسخة مخطوطة . غير أنه الآن قد أصبح جله منشورا وقد قال عنه المستر (Evetts) وهو الذى ينشره مع ترجمة له : " إن تاريخ بطارقة الاسكندرية هو الكتاب العمدة فى تواريخ البطارقه للكنيسة القبطية والجزء الأول منه مجموعة جمعها ساويرس أسقف الأشمونين بالصعيد نقلها عن وثائق يونانية ، وأخرى قبطية ، وجدها فى الأديرة التى فى بلاده فترجمها بمساعدة بعض القسوس القارئين .

وقد صار كتاب تاريخ البطارقة أتم وأكثر فائدة وأكبر قيمة منذ القرن السابع ولا سيما فى وقت فتح العرب فنجد فيه سلسلة من تواريخ حياة حقيقية كتبها كتاب من أهل عصرها " وليس يخالف أحد هذا الرأى إذا كان ممن درس كتاب ساويرس حق دراسته — ولما كنا لم نر أحدا سبق إلى بحث فى هذا الأمر دعمه بالحجة وعززه بالرأى كان لنا أن نجرؤ على بيان بعض الأسباب التى تبرر إجلالنا لساويرس وإكبارنا له كحجة فى التاريخ . يظهر أنه قد جرت العادة منذ أقدم الأزمان على أن تكتب أخبار الكنيسة القبطية فى صورة تراجم للحياة على الأكثر وعلى أن تحفظ فى مكتبة الدير المعروف دير مقاريوس فى وادى النطرون . ولم يكن مأمن أصلح لذلك الغرض من ذلك المكان وراء أسوار ذلك الدير المحصن البعيد فى الصحراء . وقد حفظت فى ذلك الدير الوثائق المخطوطة التى استمد منها ساويرس تاريخه . وقد وجدت فقرة مؤرخة فى أول يونيه من سنة ١٠٨١ للميلاد قد أضيفت إلى ذلك الديوان وفيها ما يلى : " إلى هنا انتهى الفصل السادس عشر الذى تم به تاريخ الآباء الى سيمون الثانى والأربعين من البطارقة وسيلى ذلك ما ترجمناه عن الوثائق فى دير القديس مقاريوس وهو تاريخ البطارقة من ميخائيل الأخير الى سنوتيوس الأول . وقد ترجمنا فى هذا الدير تاريخ حياة تسعة آخرين من البطارقة فى سنة ٧٩٦ للشهداء (سنة ١٠٨٠ للميلاد) . وقد كتب هذا (أبا قيروس) الدمنهورى بمشيئة الله التى أعانتنا على أن نجد هذه الأخبار فى دير

القديس مقاريوس بمساعدة الأخ تيودور الخازن بن بولص فى يوم الأحد السادس من شهر بؤونة من عام ٧٩٧ للشهداء الأكرمين . وقد قارنا الوثائق بعضها إلى بعض ووجدنا أنها تتفق مع ما لدينا من الصور فاقتنعنا بصحتها " .

وهذا خبر يدل على دراسة المصادر الأصلية بعناية ودقة ومحاسبة للنفس — وفى استطاعتنا أن نرى مثل هذا السعى الدقيق متصلا الى ما قبل هذا التاريخ بنحو أربعة قرون . فاننا نجد نبذة أخرى نعلم منها أن الحوادث التى وقعت الى أيام خلقيدونية و "ديوسكوروس" (حوالى سنة ٤٥٠ للميلاد) كانت " تدوّن فى الجزء الثانى عشر من دواوين تاريخ الكنيسة " ثم اذا أردنا أن نطلع على تاريخ الحوادث من أيام (قيريل) إلى أيام الاسكندر " أمكن أن نجد ذلك فى كتاب المعلم الكاتب جورج كبير شماسى البطريق سيمون وكاتبه " (٦٨٩ — ٧٠١ للميلاد) وقد كتب ذلك الرجل كذلك تاريخه فى دير القديس مقاريوس — ويقول الكاتب بعد ذلك "وعلى ذلك فأنا العبد المخطىء الذليل أرجوكم أن تدعو لى السيد المسيح أن يفك عقدة لسانى الضعيف وأن يشرح قلبى المظلم وأن يهبنى من البيان ما أستطيع به أن أبين لكم أيها الاخوان وأيها الأب ما سألتمونى بيانه . ولست أرجو أن أبين لكم شيئا أكون فيه معلما لكم أو مرشدا أتعالى عليكم بل أكون فيه باحثا دارسا إذ قد رأيت بعينى ما كتبت وإن عظم الحوادث التى رأيتها تجعل من واجبى أن أدونها — ذلك عدا ما سمعته ممن هم أكبر منى سنا من أصحابى الذين أثق فى قولهم واعتمد على صدقهم . والسيد المسيح يعلم أننا لم نزد شيئا على الحقائق بل قد ذكرنا ما وقع الى أيام وفاة الأب المرحوم تيودور بطريق الاسكندرية وما جرى من أمور الدول فى أيامه الى آخر الفصل السابع عشر من التاريخ الذى أتممناه آنفا" (أى الى سنة ٧٤٣ للميلاد) ثم قال المؤرخ " والآن فانا كاتبون الفصل الثامن عشر من تاريخ الكنيسة" ثم بعد بضعة أسطر من هذا تراه يعلق على عبارة من عباراته فيقول "إذ قد شهدنا بأعيننا مرارا عدّة " ثم قال أيضا " وأقاموا ملكا اسمه قرياقوس (فى بلاد النوبة) وبقى ملكا إلى اليوم الذى نكتب فيه هذا التاريخ " وفى هذا دليل على أن

الكاتب يكتب عن عصره فى القرن الثامن من الميلاد وقد كان ذلك المؤرخ كاتبا لموسى أسقف أوسيم بالقرب من الجيزة وهو يتكلم دائما عن نفسه فى ذكر الحوادث فيقول مثلا "فذهبنا إلى القصر وكان معنا الأباتيودور أسقف مصر" إلى غير ذلك ويقتبس قطعة من مذكرات البطريق ميخائيل (فى موضوع دير مينا بقرب مريوط) وقد أرسلت تلك المذكرات إلى كاتب عبد الملك . ونرى ذلك المؤرخ من جهة أخرى يدافع عن نفسه لحذف بعض الحوادث بقوله ."وقد ذكرنا هذه الأمور فى كتاب تاريخ حياة (ميخائيل) وهو منفصل عن هذا التاريخ" ولكنه يذكر بعد ذلك حوادث تاريخية مثل موت مروان فيقول "وقد قتلوه ومثلوا به ونكسوا رأسه بعد أن أسروه وقد كنا من شهود هذا الحادث" .

وفى القرن السابع كتب كاتب فى ذلك التاريخ ترجمة حياة حنا الثالث (٦٧٧ — ٨٦ للميلاد) ووصف قصة رحلة حنا الأخيرة إلى الأسكندرية فقال "وكان كاتب هذا الخبر معه فانه كان ابنه فى الله" ويمضى الكاتب بعد ذلك فى ذكر تفاصيل دقيقة لا يستطيع أن يورد مثلها إلا كاتب من أهل العصر نفسه .

وبعد فانّ كثيرا من الأمور التى يشير إليها الكاتب فى تاريخ ساويرس يمكن تحقيقها وقد ظهرت صحتها ظهورا جليا فمثلا جاء فى أخبار سيمون الأوّل قوله " وفى يوم من أيام الأحد جاءت الأخبار الى الأمير أن جيش الروم ثار بالملك چستنيان وعزله وولى مكان (ليونتيوس) " وقد كانت ولاية سيمون للبطرقة من ٦٨٩ الى ٧٠١ للميلاد أو هى الى سنة ٧٠٠ للميلاد وكان عزل چستنيان الثانى فى سنة ٦٩٥، ومثل آخر قوله : وكانت مملكة الروم فى ذلك الحين تتخبط تخبط الصبية فى لهوهم فان الروم بعد أن عزلوا ملكهم چستنيان جعلوا مكانه ليو (ليونتيوس) ملكا عليهم ولكنه قتل قبل أن يتم السنة الثالثة من حكمه وولى بعده (أبيماروس) ويسمى (تيبريوس) وبعده ولى (فليپيكوس) وبعد سنتين ولى (أنستاسيوس) ملكا على الروم ولا يزال يلى الملك . [وقول الكاتب "ولا يزال يلى الملك" يقصد به الوقت الذى كان يكتب فيه تاريخه] .

ونرى أنه يكفينا مثل آخر بعد هذه الأمثلة — وذلك عند ما كان قرة الظالم والى مصر — فقد جاء عنه أنه عسف بالناس عسفا شديدا وابتز أموالهم واستصفى أملاكهم الخاصة وأراضيهم وأرزاقهم وأوقافهم حتى صار الناس الى الفقر المدقع قال الكاتب "فجعل الناس يهربون من مكان الى آخر ولكن لم يعصمهم مكان منه" فان قرة كان يرسل رسله وراء الهاربين . قال الكاتب عن هؤلاء الرسل إنهم كانوا يجمعون الهاربين من كل مكان ويرجعونهم الى بلادهم مقيدين ويعاقبونهم . وهذه الأخبار كلها تذكر على أنها وقعت فى أيام بطرقة الاسكندر الثانى (٧٠٥ — ٣٠ للميلاد) وهذه الحقائق قد ثبتت بغير شك عند ما كشفت ورقة البردى المسماة (أفروديتو) إذ جاء نفس الخبر — عن هروب الناس — فى تلك الوثائق اليونانية وتاريخها (٧٠٨ — ٧١٠ للميلاد) . وهذا الاتفاق بين الخبرين دليل قوى على دقة كتاب "تاريخ البطارقة" .

حقا إنه لا يمكن فى بعض الأحوال أن نعرف الكاتب الحقيق لخبر من أخبار ذلك الديوان وسبب ذلك أن التراجم والوثائق الأخرى التى أدخلت فيه قد كتبها كتّاب مختلفون فى مدّة حياة البطارقة المتعاقبين أو بعد موتهم بقليل . وعلى ذلك فان حكاية الكاتب عن نفسه يقصد بها أشخاص مختلفون فمثلا قال المصنف فى آخر ترجمة حياة ميخائيل الأول " وقد بقى البطريق على كرسى الكرازة ثلاثا وعشرين سنة ونصف سنة كما وجدنا ذلك فى مكتبة دير القدّيس مقاريوس الى سنة ٧٦٨" ولا يمكن أن يكون هذا المصنف هو عين الكاتب الذى يذكر (أنستاسيوس) أنه صار أمبراطور الروم وأنه كان لا يزال على عرش الدولة الى وقته مع أن هذا الكاتب لا بد أن يكون هو الكاتب الذى علق على قوله "لا يزال" فالحقيقة أن النسخ المخطوطة التى كانت فى المكتبة كانت تنقل حرفا حرفا ولفظا لفظا عن أصحابها وهى ترجع الى أقدم الأزمان وأكثرها كتب فى وقت حدوث الحوادث التى تصفها وهذه الحقيقة تجعل لتلك الوثائق أكبر قيمة . حقا إن تلك الدواوين لا تخلو من ذكر خوارق المألوف والمعجزات كما أنها لا تخلو من الأخطاء كما لا يخلو ديوان

مؤرخ عربي منها ، ولكنا اذا استبعدنا من وثائق التاريخ القديم كل ما تشوبه الخرافات أو تتخلله الأخطاء واذا نحن أغفلنا تلك الوثائق فلم نعتد بدلالتها لم يبق لنا إلا القليل فى أى باب من أبواب التاريخ — وإنا نقول إجمالا غير وجلين ولا موارين إن أخبار دواوين تراجم البطارقة صادقة فى جملتها فيما تنص عليه من أخبار التاريخ وقد ثبت ذلك وخلص من كل شك .

لقد خرجنا عما كنا فيه وطال بنا القول فى سوله غير أنه لم يكن لنا بد من ذلك لكى ندحض حجة الدكتور (لين پول) فى تجريح دلالة ساويرس . وقد تمسك الدكتور (لين پول) بكلمة خيل إليه أن ساويرس قالها وهى اعتراف بعدم معرفة اللغة اليونانية أو القبطية . حقا لقد حدث هذا الاعتراف وصاحبه هو كاتب المقدمة الثالثة للكتاب ولكن قام الدليل القوى على أن اسم ساويرس قد ألصقه الناسخ خطأ بتلك المقدمة ولم يكن فى الإمكان أن يكون ساويرس كاتبها . فاذا نحن فحصنا الأمر لم نجد إلا تبريرا ضعيفا — أو لعلنا لا نجد تبريرا لقول من يقول إن ساويرس لم يعرف اللغة اليونانية ولا اللغة القبطية وإذا أمعنا النظر وجدنا كل ما يدل على أن تاريخه كان تصنيفا بالغا مبلغا عظيما من الدقة قائما على أساس من الوثائق الصحيحة . فمن الخطأ على ذلك أن نجرح دلالته . وفى الحق انا لا نعلم أن مؤرخا واحدا من المؤرخين العرب يمكن أن نظهر أن تاريخه يعدل كتاب ساويرس فى أنه قائم على سلسلة غير منقطعة من الأخبار المدونة التى كتب أكثرها كتاب عاشوا فى عصرها فان المؤرخين العرب يروون أخبارا عدة عن العصور القديمة ولكنهم قلما ينقلون عن الوثائق الأصلية نصوصها أو يسندون أخبارهم إليها . ومعنى هذا القول أن التاريخ القبطى قائم على أساس أقرب إلى العلم وأمتن فى الدلالة ، ألا وهو أساس الوثائق المخطوطة .

وبعد فان ما ذكرناه آنفا يدل على أن لكتاب ساويرس قيمة عظيمة بين مصادر التاريخ وعلى أن قوله فى المقوقس وشخصيته لا يجوز أن يغفل بغير روية ولا فحص .

فلنمض الآن إلى قول ساويرس أو بقـول أدق لنمض إلى قول المؤرّخ الذى ترجم حياة بنيامين لنرى ما فيه . قال :

" ولّى هرقل قيرس حاكما على مصر وجعل له ولاية الدين والحكم معا " فلما جاء قيرس إلى الاسكندرية أنذر بنيامين فهرب الى دير بالصحراء فى الصعيد وبقى به مختفيا مدّة عشر سنوات . قال المؤرّخ "وكانت تلك السنوات هى التى حكم فيها هرقل والمقوقس بلاد مصر" ثم قال بعد ذلك عن قيرس إنه "حاكم الاسكندرية الكافر الذى كان بطريقا وحاكما من قبل الروم " وهذا القول يؤكد أن قيرس كان هو المقوقس تأكيدا لا إبهام فيـه . وقد بينا أن هذا يتفق كل الاتفاق مع ما جاء فى النسخة العربية من تقويم القديسـين إذ جاء فيها "كان المقوقس كبير المذهب الخلقيدونى وقد جعل حاكما على مصر وبطريقا لها" كما أنه يتفق مع النسخة الأثيوبية من ذلك التقويم إذ جاء فيها "المقوقس أى الحـاكم والبطريق فى الإسـكندرية وفى جميع بلاد مصر" وقد أظهرنا كذلك الاتفاق التام مع ما جاء فى الوثائق المخطوطة (البودلية) وهى مما تخلف عن ذلك العصر وفيها نص على أن المقوقس كان يجمـع الرئاستين رئاسة الدين ورئاسة جباية الأموال فى مصر . كما أننا أظهرنا أن وثيقـة مخطوطة سريانيـة تختلف عن زمن قريب من ذلك العصر وهى الديوان المجهـول الكاتب (Chronicon Anonymum) قد جاء فيها أن بطريق الإسـكندرية هو الذى دافع العرب عن مصر فى حين أن ابن عبـد الحكم يصف عامل هرقل على مصر بأنه كان يجمـع سلطة الحرب الكاملة وسـلطة جباية الأموال ويسـميه بالمقوقس .

وقول مؤرّخى اليونان يوصلنا إلى النتيجة نفسها فان نيقفوروس يذكر أن هرقل أرسـل (ماريانوس) إلى الاسـكندرية ليشترك مع قيرس بطريق الاسـكندرية فى الاستقرار على خطة يسيران عليها مع العرب ثم يقول فى موضع آخر إن قيرس كان أسقف الاسكندرية .

وتيوفانز أصرح قولا إذ يقول " ولما مات جورج (البطريق الملكانى أو الخلقيدونى) أرسل قيرس ليكون أسقف الإسكندرية بعده " ولما ذكر العرب قال " فغزوا مصر واتهم قيرس بأنه سلم ذهب مصر إلى العرب فأرسل إليه الأمبراطور رسالة شديدة يأمره فيها أن يعود من مصر " .

فالحقائق التى يدل عليها قول هذين المؤرّخين هى أوّلا أنهما متفقان على أن قيرس كان بطريق الاسكندرية . ويقول نيقفوروس إن (مريانوس) كان قائدا حربيا أرسله هرقل وأمره أن يشترك مع قيرس فى الاحتيال فى أمر العرب خاصة وهذه عبارة تدل على أن قيرس كان له أمر الدنيا ، كما كان له أمر الدين فى مصر فى حين أن تيوفانز يقول إن قيرس عند ما رضى بدفع الجزية للعرب غضب عليه هرقل وأمره بالعودة من مصر وهذه العبارة كذلك تدل على أن قيرس كان له أمر الدنيا إذ كان نائبا عن هرقل ولا شك أن تيوفانز يعنى بقوله هذا معاهدة مصر التى رضى بها قيرس ثم ردّها هرقل غاضبا .

وما أقرب الصلة بين قول هذين المؤرخين اليونانيين و بين قول مؤرخى العرب اللهم إلا فى أمر واحد وهو أن العرب يذكرون اسم المقوقس فى المواضع التى يذكر فيها اليونان اسم قيرس فان مؤرخى العرب متفقون على أن الذى صالح عمرا هو المقوقس وأن ذلك الصلح كان مشروطا فيه الرجوع إلى هرقل لموافقته وأن هرقل غضب وردّه حانقا — حقا إن العرب لايذكرون أن هرقل أمر المقوقس بالعودة من مصر، ولكن المؤرخ الذى كان قريبا من ذلك العصر وهو حنا النقيوسى ذكر أن قيرس أمره هرقل بالعودة والخروج من مصر .

بقى علينا أن نذكر باختصار ما قاله مؤرخان مسيحيان من مؤرخى العرب وهما أبو صالح وسعيد بن البطريق (أوتيكيوس) فقد قال أبو صالح إن المقوقس ولاه هرقل على مصر وقال كذلك إن السنوات العشر التى كان فيها البطريق بنيامين طريدا فى منفاه كانت السنوات التى حكم فيها المقوقس مصر . ولسنا ننكر أن أبا صالح يقول

إن اسم المقوقس هو جورج بن مينا ولا ننكر أن سواه من المؤرّخين يذكرون له أسماء أخرى ، ولكن حسبنا أن نقول إنه لم يورد أحد من المؤرّخين الأولين إسما ما لحامل ذلك اللقب المقوقس فاذا جاء ذكر اسم له بعد موت المقوقس بخمسة قرون أو ستة لم يكن ذلك دليلا يقاوم الأدلة المتراصة المتراكمة التى تدل على أن المقوقس هو قيرس ، وعلى ذلك يمكن أن نقول إن أبا صالح الأرمنى يتفق مع مؤرّخى القبط واليونان والمصريين فى ذكرالعمل الذى كان يعمله المقوقس ويتفق مع ساويرس فى أن المقوقس كان المضطهد الخلقيدونى الذى اضطهد القبط وطرد بنيامين الى منفاه .

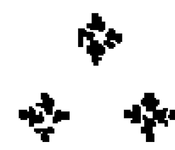
وأما سعيد بن البطريق (سنة ٨٧٦ — ٩٣٩) فقد كتب قبل أبى صالح بنحو ثلاثة قرون ويجب أن نذكر أنه لم يكن خلقيدونيًا فحسب ، بل قد كان بطريقا ملكانيا لمصر وهو يقول " وبعد هرب جورج صار قيرس بطريق الاسكندرية وكان مارونيا على مذهب هرقل " وقال فى موضع آخر " وكان العامل على الخراج بمصر المقوقس من قبل هركل الملك " ثم قال "وكان يعقوبيا (أى قبطيا) يكره الروم ولكنه كان يخشى أن يظهر عقيدته اليعقوبية خوفا من أن يقتله الروم" .

ولا شك فى أن ذلك المؤرّخ الذى كان بطريقا ملكانيا كان شديد الحرص على أن يزيل عن قيرس معرّة تسليم مصر الى العرب فاضطره ذلك الى أن يتورّط فى أقوال عجيبة ، فلما قال إن قيرس جاء الى مصر عند تولية هرقل ليكون بطريقا للاسكندرية ، قال فى نفس الصفحة إنه لم يول بطريق ملكانى للاسكندرية لمدّة سبع وتسعين سنة بعد هرب جورج وهذا قلب جرىء ومسخ لحقائق التاريخ فالظاهر من هذا أن ابن البطريق لا يرضى بأن يسلم بأن قيرس كان بطريقا ملكانيا وهو فى الوقت عينه يتهم المقوقس بأنه كان قبطيا يخفى عقيدته فى قلبه وهذه التهمة اعتراف منه بأن المقوقس كان ملكانيا فى ظاهره — حقا إن ابن البطريق لا يقول صراحة إن قيرس كان المقوقس ولكن هذا الاتفاق فى قوله ذو دلالة عظمى —

ولقد قال إن المقوقس كان العامل على الخراج من قبل هرقل فهو بذلك يتفق مع ابن عبد الحكم ومع الوثائق القبطية (البودلية) وابن البطريق مثل سائر مؤرخى العرب يذكر أن المقوقس كان حاضرا فى حصن بابليون عند الحصار ثم خرج منه الى الروضة لمفاوضة عمرو وأنه صالح عمرا بعد ذلك على معاهدة مصر . ولكنا نرى أن ابن البطريق لم يذكر أن قيرس هو المقوقس لأنه كان يجهل ذلك الأمر لا لأنه كان يقصد التضليل والتدليس ولقد ظهر جهله بذلك الأمر فى موضع آخر إذ قال إن المقوقس كان حيا فى وقت ثورة منويل .

الى هنا قد بينا ما هنالك من أدلة بينها اتفاق عجيب فى بعض الأحايين واختلاف واسع فى أحايين أخرى وقد استمددنا تلك الأدلة من وثائقها الأصلية ومنها ما تخلف عن العصر الذى نصفه وهى من أصول متباينة : منها اليونانى والقبطى والسريانى والعربى ، وكلها تدل على أن المقوقس إنما هو قيرس بطريق الاسكندرية والعامل على الخراج والحاكم العام على مصر فى وقت الفتح . وليس ينقض هذا الرأى أن يقول قائل إن مؤرخى العرب قد يطلقون لقب المقوقس أحيانا على شخص يسمونه ليس هو قيرس ، ولسنا ننكر أن الأمر كذلك ولكنا ننكر كل الانكار تلك النتيجة التى يذهب اليها أصحاب ذلك القول وهى أن لقب المقوقس لم يكن علما على شخص معين واحد وحجتهم فى ذلك أنه قد أطلق خطأ فى بعض الأحوال على أشخاص متعددين . ويلوح لنا أن العلامة (كايتانى) من بين من يذهبون هذا المذهب . وأما الحقيقة التى نراها فهى أن المؤرخين العرب إنما كتب أكثرهم وليس عنده عن المقوقس أكثر من صورة ضئيلة مبهمة عن المقوقس وأنه كان حاكما على مصر فليس من العجيب أن نجدهم يصورونه أحيانا مشتركا فى أعمال أو حوادث لم يكن مشتركا فيها بنفسه أو لم يحضر حدوثها . ولا شك أنهم قد ضلوا فى أمر اسمه وشخصه ولذلك فهم يخطئون فيها . ولكن المسألة التى نحن بصددها باقية وهى أن نكشف خلافهم عن حقيقة شخصيه المقوقس وأن نعرف من كان بين الناس ، ولم يذكر مؤرخ عربى وما كان له أن يذكر أن ذلك اللقب قد أطلق على ثلاثة أشخاص

كلهم حق له أن يلقب به — وليس فى طاقة المنطق أن يبيح لقائل أن يقول إن وجود الخلاف يجعل ذلك اللغز متعسرا على العقول لا تستطيع حله بل إن واجب النقد التاريخى أن يصفى ما هنالك من خلاف وأن يزيح ما تراكم منه على الحقيقة فيكشفها ويجلوها ولعلنا يحق لنا أن نعتقد أنه إذا عرضت الأدلة عرضا لا ميل فيه ولا تحيز أمكن أن نصل الى نتيجة مؤكدة ليس فيها شك وهى أن المقوقس لم يكن سوى (قيرس) وأنه لا ينبغى لذلك اللقب أن يطلق على سواه من الناس .



تم بحمد الله تعالى

والصلاة والسلام على نبيه المصطفى

تذييــــــل

بالألفاظ والعبارات اليونانية الواردة بهذا الكتاب

وهى المشار اليها بأرقام فى أعلاها نجمة هكذا : "١* ، ٢* ، ٣* الخ"

PAGE	No.	GREEK WORD
16	1	Νίκιον
43	2	σφάζεται ἀπὸ ἐναντίων
47	3	Τὸ Ἔννατον
	4	Ἔνατον
	5	Σαλαμᾶ
	6	Τὸ Πέμπτον
	7	Ὀγδωκαίέκατον
53	8	Σαρβαραζᾶς
	9	Σαρβαναζᾶς
	10	Σάρβαρος
	11	Ρουμίαζαν
64	12	παρεγενόμην ἐν Ἀλεξανδρείᾳ κατὰ τὸν καιρὸν ἐν ᾧ εἰσῆλθον οἱ Πέρσαι ἐν Αἰγύπτῳ, ἔτι ὄντων αὐτῶν ἐπὶ τὰ μέρη τῆς Νικίου καὶ Βαβυλῶνος τῆς κατ' Αἴγυπτον.
	13	ταραχὴν καὶ θόρυβον τῆς Περσικῆς ἐπιδρομῆς
71	14	ὡς ἔμελλεν Ἀλεξάνδρεια τοῖς ἀθέοις Πέρσαις παραδίδοσθαι.
87	15	Λειμὼν Πνευματικός (توضع قبل كلمة "والأشهر عنه" من تعليق (١) صفحة ٨٧)
	15	ὠφελείας χάριν
88	16	ὁ σχολαστικὸς
	17	θεωρούμενος
	18	θεωρία

Page	No.	Greek Word
89	19	διὰ τὸ εἶναι αὐτὸν πολύβιβλον ὑπὲρ πάντας τοὺς ἐν Ἀλεξανδρείᾳ ὄντας καὶ προθύμως παρασχεῖν τοῖς θέλουσιν.
95	19	χάρτης
106	20	Σαὴν—Σάϊτος—Σαλβάρας
122	21	ΕΝ ΤΟΥΤΩΙ ΝΙΚΑ.
	22	ὅπως ὁ πείσας ἠρεμεῖν τοὺς βαρβάρους πείσῃ σὺν αὐτοῖς ἠρεμεῖν τὰς αἱρέσεις.
143	23	λυπηθέντες ἀπῆλθον πρὸς τοὺς ὁμοφύλους καὶ ὡδήγησαν αὐτοὺς ἐπὶ τὴν χώραν τῆς Γάζης στόμιον οὖσαν τῆς ἐρήμου κατὰ τὸ Σίναιον ὄρος.
145	24	ἄρας καὶ τὰ τίμια ξύλα, ἐπὶ τὴν Κωνσταντινούπολιν ἀπῄει.
146	25	ξύλα «ἀπὸ Ἱεροσολύμων»
231	26	αἰκισομένῳ
251	27	χαιρεου
290	28	φοσσᾶτον
	29	φοσσᾶτον
	30	φοσσᾶτον
	31	φοσσᾶτον
297	32	φοσσᾶτον
321	33	εἰσὶ γὰρ παράδεισοι μέσον τῆς πόλεως ἐν τοῖς οἴκοις τῶν μεγιστάνων.
	34	ἀγνεύοντας
331	35	τῷ τε Σαραπείῳ κατελυμήναντο καὶ τοῖς ἀναθήμασιν ἐπολέμησαν... τοῦ δὲ Σαραπείου μόνον τὸ ἔδαφος οὐχ ὑφείλοντο διὰ βάρος τῶν λίθων. οὐ γὰρ ἦσαν εὐμετακίνητοι. συγχέαντες δὲ ἅπαντα καὶ συνταράξαντες κ τ λ.
	36	εἰσιόντι δὲ παρ' αὐτὴν τὴν ἀκρόπολιν τέτταρσι πλευραῖς εἷς χῶρος ἴσαις διῄρεται (? διῄρηται) καὶ τὸ σχῆμα πλαίσιον τυγχάνει τοῦ μηχανήματος.
	37	τὸ σχῆμα τοῦ μηχανήματος

Page	No.	Greek Word
333	38	Βίος 'Αλεξάνδρου
	39	τῇ δεξιᾷ χειρὶ κομίζοντα θηρίον πολύμορφον τῇ δὲ εὐωνύμῳ σκῆπτρον κατέχοντα
334	40	παρῳκοδομῆνται δὲ σηκοὶ τῶν στοῶν ἔνδοθεν, οἱ μὲν ταμεῖα γεγενημένοι ταῖς βίβλοις, τοῖς φιλοπονοῦσιν ἀνεῳγμένοι φιλοσοφεῖν καὶ πόλιν ἅπασαν εἰς ἐξουσίαν τῆς σοφίας ἐπαίροντες· οἱ δὲ τοὺς πάλαι τιμᾶν ἱδρύμενοι θεούς.
335	41	τὸ μὲν οὖν Σεράπιον
	42	ᾧδε ἧλω καὶ μετ' οὐ πολὺ εἰς ἐκκλησίαν μετεσκευάσθη 'Αρκαδίου τοῦ βασιλέως ἐπώνυμον Σ ε ρ ά π ι ο ν
	43	μετεσκευάσθη
352	44	τὸν γραμματικὸν 'Ιωάννην ὃς ἐπεκλήθη Φιλόπονος
	45	ἀκμάσαντα ἐπὶ τῆς παρούσης ἡγεμονίας
355	46	περικοπτόμενός τὸν στόλον ἠναγκάσθη διὰ πυρὸς ἀπώσασθαι τὸν κίνδυνον· ὃ καὶ τὴν μεγάλην βιβλιοθήκην ἐκ τῶν νεωρίων ἐπινεμόμενον διέφθειρεν.
	47	τάς τε ἀποθήκας καὶ τοῦ σίτου καὶ τῶν βίβλων—πλείστων δὴ καὶ ἀρίστων, ὥς φασι, γενομένων—καθῆναι
	48	ἀποθήκη τῶν βίβλων
	49	βιβλιοθήκη
361	50	αὐλὴ δὲ κατὰ μέσον περίστυλος
	51	αὐλή
	52	παρῳκοδόμηνται δὲ σηκὶ τῶν στοῶν ἔνδοθεν κ.τ.λ.
	53	Σαράπιδι καὶ τοῖς συννάοις θεοῖς ὑπὲρ σωτηρίας αὐτοκράτορος Καίσαρος Τραιάνου 'Αδριανοῦ Σεβαστοῦ
362	54	ἐκ βάθρων ἀνέσπασε τὰ τῶν εἰδώλων τεμένη.
	55	τῶν πανταχοῦ γῆς, καθὰ φασί τινες, μέγιστός τε οὗτος καὶ κάλλιστος
	56	λύεσθαι τοὺς ἐν 'Αλεξανδρείᾳ ναούς... ἀνακαθαίρει μὲν τὸ Μιθραῖον καταστρέφει δὲ τὸ Σαραπεῖον

Page	No.	Greek Word
362	57	τὸ Διονύσου ἱερὸν εἰς ἐκκλησίαν μετεσκεύαζε.
	58	τοῦ ναοῦ τούτου καθαιρουμένου
364	59	Ἰοβίανος
365	60	ἐν παλαιαῖς βιβλιοθήκαις
	61	ἐν τῇ μεγάλῃ βιβλιοθήκῃ
445	62	
	63	ἐνδοξότατος
	64	μεγαυχὴς
457	65	Παρκάβιος
	66	καύχον
	67	καύχιον
458	68	καύχον
	69	καύχιον
460	70	Παρκάβιος
461	70	μεγαυχής
	71	καύχον
	72	καύχιον
	73	καυκίον
462	74	καυκίον
	75	καυκίον
	76	καύχον
	77	καύχιον
	78	ἐκ τοῦ Καυκάσου—Καυκάσιος
	79	
463	80	καῦκος
	81	καύχα
	82	ὁ καύχιος
	83	ὁ καύχιος

Page	No.	Greek Word
463	84	ὁ ἀσεβής
	85	ὁ καύχιος
	86	ὁ Καυχάσιος
464	87	ὁ Κολχικός
	88	Κόλχιος
	89	ὁ καύχιος

فهـــــرس الأعـــــلام

(ت)

(ج)

فهـــرس الأماكن

(أ)

(ت)

(ج)

(ن)

(هـ)

فهـــرس الموضـــوعات

وكان تمام طبع كتاب "فتح العرب لمصر" بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم السبت ٢٤ رمضان المعظم سنة ١٣٥١ هـ (٢١ ينايرسنة ١٩٣٣ م) مـ٤

محمد نديم

ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

إصــلاح الأخطاء

صفحة	سـطر	خطـأ	صـواب
٣	٥	ثيودورا	تيـودورا
٤٣		تعليق ٢ الأخير	يوضع فى صفحة ٤٤ شرح الكلمة ينصب القسوس سطر ٢
٤٧	٢٢ ت	(اجتوكيكاتون)	(اجتوكيكاتون) (٧*)
٥٤	٢ ت ١	لأخـيرة	الأخـيرة
٦١	٣ ت ٢	كئأس مصر وديار اتها	كئأس مصر وأديارها
٦٢	٩	انستاسيوس	اثناسيوس
٧٠	٢ ت ١	قيهـا	فيهـا
٨٧	١ ت ١	والأشهر عنه	والأشهر عنه (٩٥*)
١٠٣	١٢	رفاة	رفات
١٣٥	٣ ت ٣	نابـوا	أنابـوا
١٣٦	١٠	هتان	هاتان
١٦٩	١ ت ٢	عل	على
١٧٦	٢ ت ٢	١٢٦ هامش ٢	١٢٦ هامش ٥
١٧٧	١ ت ٢	ابن الجـر	ابن حجـر
١٧٨	١ ت ٢	» »	» »
١٨٨	٢ ت ١	كتاب العبير	كتاب العبر
١٧٩	٧	عمـر	عمـرو
١٨١	٣	ابن الجر	ابن حجر
١٨٩	٣ ت ٢	ضـما	صـنما
٢٢٣	١٠	أبيـج	أبيـح

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٥٩	٥ ت ١	طبوح	طوخ
٢٧٤	٧	لرجعه	لرجعة
٢٨١	٥	كان يين	كان بين
٢٩١	١٠ ت	غزوة	غزة
٣٠٠	٥	حليجا	خليجا
٣٠٠	٢ ت ٢	الشاتى	الثانى
٣٠٥	٤ ت ١	منافع	مناقع
٣١٤	٩١	الحصر	الخضر
٣٢٠	٢ ت ٣	جريج	جريج
٣٢٣	٣	انستاسيوس	اثناسيوس
٣٣١	٨ ت ١	سرابيس	(٣٤*) سرابيس
٣٤٢	٣	أجلها	أجله
٣٥٠	١ ت	الحاج خلفه	خاجى خليفه
٣٦٤	٢ ت ٣	أنها أحرقت	(٥٩ *) أنها أحرقت
٣٧٣	٧ ت ١	فنح	فتح
٣٨٢	٢ ت ٤	خارن	خازن
٣٨٣	٨	هده	هذه
٣٨٩	١ ت	هامش ٤	هامش ٢
٣٩٠	٢	يغير	بغير
٣٩٤	٢ ت ١	حدير	جدير
٣٩٤	٢ ت ٢	افين	معافين
٤٠٢	٢ ت ١	يجزيته	بجزيته
٤٠٧	١ ت ٢	تاربخ	تاريخ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٠٤	٣ ت	ابن رستاه	ابن رسته
٤٦٠	١٤	(٧٠ *)	(٧٠° *)
٤٠٧	١ ت ٣	الشاطى	الشاطئ
٤٠٧	٢ ب ٣	عيد الحكم	عبد الحكم
٤٢١	١٢	قرطسا	فرطسا
٤٢٢	١٠ ب	»	»
٤٤٥	١٥	الاسم تحريف	(٦٤ *) الاسم تحريف
٤٥١	٢ ب	تحريف	تحريفا
٤٦٢	٢١	(قفقاسيوس)	(قفقاسيوس) (٦٨*)
٤٦٣	١٣	٨٠ *	٨١ *
٤٦٣	١٤	٨١ *	٨٢ *
٤٧٩	٨	تيـــودر	تيـــودور
٤٨٥	٥	للهجـــرة	للهجـــرة

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٠٣٥/١٩٣١/١٥٠٠)

